الحركة الصليبية

الجزء الثانى

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور



مكتبة الأنجلو المصرية



الحركـــة الصليبيـــة

صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد الإسلامى فى العصور الوسطى

الجزْء الثانى

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب – جامعة القاهرة

الطبعة التاسعة



مكتبة الانجلو المصرية

أسم الكتاب : الحركة الصليبية الجزء الثانى

أسم المؤلف : د / سعيد عبدالفتاح عاشور

أسم الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية

أسم الطابع : مطبعة محمد عبدالكريم حسان

رقم الايداع : 9328

الطبع : 2010

رقيم الدولى : I-S-B-N 977-05-0908-6

مقدمة الكتاب
وردت فى صدر الجزء الأول

الباب الثانى عشر

الناصر صلاح الدين

«لمثل هذا فليعمل العاملون»

(الصافات: ٦١)

الفصل الأول

صلاح الدين وتوطيد مركزه في مصر

صلاح الدين فى الوزارة:

انتهت حملة عمورى الأول على مصر سنة ١١٦٨ بخلق موقف جديد بالنسبة للصليبيين، وإنزال أبلغ الضرر بمصالحهم ومستقبلهم فى بلاد الشام. ذلك أن هذه الحملة أتت إلى مصر والانقسام المذهبى والسياسى على أشده بين حكام الشام الإسلامية ومصر الإسلامية، كما كانت الخلافة التبعية. ثم خرجت حملة عمورى الأول من مصر وقد نجح شيركوه قائد نور الدين فى السيطرة على البلاد وجعلها جزءاً من الدولة النورية الكبيرة التى غدت تمتد من الفرات إلى النيل. وبعد أن كانت مصر- منذ مجئ الحملة الصليبية الأولى إلى الشام سنة ١٠٩٧ - دولة ضعيفة تحكمها خلافة منحلة، ولا تشكل خطراً كبيراً على الصليبيين بالشام. إذ بها تتحول بسرعة بعد سنة ١١٦٨ لتصبح مركز المقاومة الإسلامية فى الشرق الأدنى ضد الخطر الصليبى، والزاوية المنيعة التى خرجت منها جيوش الأيوبيين للقضاء على ذلك الخطر، والمخزن الكبير الذى أمد زعماء حركة الجهاد بالموارد البشرية والمالية الضخمة اللازمة لتنفيذ مشاريعهم ضد الصليبيين، والقلعة الحصينة التى نفذت منها جيوش الأيوبيين ثم المماليك لتقضى فى النهاية على البناء الذى أقامه الصليبيون وسط محيط إسلامى واسع غريب عنهم، دخلاء عليه.

وكان بطل هذه الجولة الأولى- التى بدأت بعد إتمام الجبهة الإسلامية المتحدة من الفرات إلى النيل- هو صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد أجمعت المصادر على أن صلاح الدين كردى الأصل هاجر أبوه نجم الدين أيوب بن شادى وعمه أسد الدين شيركوه بن شادى من بلدة دوين قرب بحيرة فان ليدخلا فى خدمة زنكى أتابك الموصل[1] . وقد اتصل شيركوه بنور الدين محمود زنكى وخدمه فى حياة أبيه، حتى ارتفع نجم نور الدين محمود. وتطورت الأحداث فى مصر على النحو الذى ذكرناه، وأتى شاور إلى نور الدين سنة ١١٦٤ مستنجداً به ضد ضرغام، وعندئذ لم ير نور

(١) يذكر المقريزى أن زنكى أحسن إلى أيوب ولأخيه شيركوه، وأقطعهما إقطاعاً حسناً، ثم جعل أيوب مستحفظاً لقلعة بعلبك، ثم ترقى وصار من أمراء دمشق. (السلوك، ج١ ق١ ص٤١).

الدين أحد يليق به أن يسير مع شاور إلى مصر سوى شيركوه [١].

ولم يلبث صلاح الدين أن أظهر كفاية كبيرة أثناء مصاحبته لعمه شيركوه في حملاته على مصر حتى ولاه الخليفة العاضد الوزارة وهو في الحادية والثلاثين من عمره، وكان ذلك عقب وفاة أسد الدين شيركوه سنة ١١٦٩، وهنا أيضاً تحرص بعض المصادر على الإشارة إلى تمنع صلاح الدين يوسف عن قبول منصب الوزارة. ولكنه ألزم به، وأحضر إلى القصر، وخلعت عليه خلع الوزارة وذلك على الرغم من المنافسة الشديدة التي تعرض لها من جانب كبار الأمراء النورية. [٢] ذلك أن جيش شيركوه في مصر كان يضم جماعة من أكابر أمراء نور الدين، منهم عين الدولة الياروقي وقطب الدين خسرو وسيف الدين على بن أحمد المشطوب وشهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين، وجميع هؤلاء تطلعوا إلى الوزارة عقب وفاة شيركوه[٣]. ولكن الخليفة العاضد أصر على اختيار صلاح الدين بالذات للوزارة، وربما ظن العاضد الفاطمي أن صغر سن صلاح الدين وعدم خبرته ستجعله أداة سهلة في يد الخليفة، يستغله في القضاء على بقية أعوان شيركوه من القادة العتاة[٤].

ولكن لم يكد صلاح الدين يتولى الوزارة حتى خيب ظن الخليفة الفاطمي إذ شرع في استمالة قلوب الناس إليه، وبذل من الأموال ما كان أسد الدين شيركوه قد جمعه فمال الناس إليه وأحبوه .... وضعف أمر العاضد. ثم إن صلاح الدين أخضع مماليك شيركوه، وسيطر سيطرة تامة على الجند، بعد أن أحسن لجميع العسكر الشامي والمصري فأحبوه وأطاعوه[٥]. وكان ذلك في الوقت الذي أمده نور الدين بقوة جديدة من العسكر، فيها شمس الدولة توران شاه بن أيوب، أخو صلاح الدين، وبذلك خاب ظن الخليفة الفاطمي ورجاله[٦].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٤١، تحقيق أستاذنا المرحوم محمد مصطفى زيادة.

(٢) ويعلق أبو المحاسن على تمنع صلاح الدين عن قبول منصب الوزارة بقوله: وإن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بسلاسل.(النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٧).

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص١٦٨ .

(٤) يذكر ابن الأثير أن أصحاب الخليفة العاضد قالوا له: ليس من الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف (صلاح الدين)، والرأي أن يولي (الوزارة) فإنه لا يخرج من تحت حكمنا (الكامل، حوادث سنة ٥٦٤هـ، التاريخ الباهر، ص١٤٢).

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٥ ص٣٣٥ .

(٦) ويعلق ابن الأثير على ذلك بالمثل القائل أردت عمراً وأراد الله خارجة، التاريخ الباهر، ص١٤٢ .

وكان أن تململ أنصار الخلافة الفاطمية، ولكن صلاح الدين تمكن من القضاء على قوة الجند السودان الذين كانوا آخر سلاح اعتمد عليه الخليفة العاضد الفاطمى(١). ويقال إن رئيس بلاط قصر الخليفة- وكان نوبياً خصياً اسمه مؤتمن الخلافة- استاء من صلاح الدين عندما ثقلت وطأته على أهل القصر فدبر مؤامرة للخلاص منه، وحاول أن يتصل بعمورى الأول والصليبيين والتقى بهم على صلاح الدين، ولكن رسالة مؤتمن الخلافة إلى عمورى وقعت فى يد صلاح الدين، الذى رأى أن يستأصل الشر من جذوره ويقضى على أية محاولة للعودة إلى ألاعيب ضرغام وشاور، فقتل مؤتمن الخلافة فوراً فى ٢٠ أغسطس سنة ١١٦٩(٢). ثم لجأ صلاح الدين إلى إبعاد جميع الخدم (الخصيان) من السودان عن قصر الخلافة الفاطمية واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوس وهو خصى أبيض، وكان لا يجرى فى القصر صغيراً ولا كبيراً إلا بأمره وحكمه.

ولم يلبث أن غضب السودان الذين بمصر لقتل مؤتمن الخلافة حمية للجنسية ولأنه كان يتعصب لهم، كما عز عليهم استبعادهم وضياع نفوذهم. وعندما تفاقمت ثورتهم فى الفسطاط وتكاثر عددهم حتى بلغ خمسين ألفاً، لجأ صلاح الدين إلى إشعال النار فى محلتهم التى اعتصموا فيها بالفسطاط، فطلبوا الأمان فى أواخر أغسطس سنة ١١٦٩ وانتقلوا إلى الجيزة على الضفة الغربية للنيل؛ ولكن صلاح الدين أرسل إليهم أخاه توران شاه بن أيوب فى طائفة من العسكر فأبادهم بالسيف(٣).

أما الخليفة العاضد فقد ظن فى أول الأمر أن السودان سينتصرون، فأمر من بالقصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة وعندئذ هدد توران شاه بإشعال النار فى قصر العاضد وإحراق منظرة الخليفة. وكان أن فتح باب المنظرة وخرج منه زعيم الخلافة وقال أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة (تورانشاه) ويقول دونكم العبيد الكلاب أخرجوهم من بلادكم..... وكان السودان يعتمدون على تأييد العاضد، فلما رأوا تغير موقف الخليفة منهم فت فى أعضادهم فجبنوا وتخاذلوا وأدبروا (٤).

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١ ص,١٧٤

(٢) ابن الأثير: الكامل حوادث سنة ٥٦٤هـ.

أبو شامة: كتاب الروضتين ج١ ق٢، ص ٤٥٠ وما بعدها.

(٣) ابن واصل/ مفرج الكروب، ج١، ص ١٧٦-١٧٧ (تحقيق الدكتور الشيال).

(٤) ابن الأثير: الكامل حوادث سنة ٥٦٥هـ.

كذلك فعل صلاح الدين بحرس الخليفة من الأرمن، إذ أشعل النار فى ثكناتهم وقضى عليهم حتى لا يعطيهم فرصة للقيام بمثل ما قام به السودان[١]. وهكذا قضى صلاح الدين على عناصر الخيانة وأدب القوى التى هددت سلطانه واعترضت طريق مشروعه الكبير فى جهاد الصليبيين، ولم يبق أمامه إلا كبار الإقطاعيين وملاك الأراضى الذين دفعهم الخوف على ممتلكاتهم وضياعهم الواسعة إلى مساندة الفساد والحرص على عدم تغيير الأوضاع القائمة، فتخلص صلاح الدين من هؤلاء أيضا وأحل محلهم فى أراضيهم جماعة من رجاله من أهل الشام[٢].

وهنا نلاحظ أن صلاح الدين قام بأعماله السابقة فى تلك المرحلة بوصفه نائباً عن نور الدين، لا باسم الخليفة الفاطمى بوصفه وزيراً له[٣]. وقد أدت هذه السياسة إلى احتفاظ صلاح الدين حتى ذلك الوقت على الأقل بعطف نور الدين وعدم إثارة مخاوفه أو حسده نتيجة للخطوات السريعة التى دعم بها سلطانه فى مصر حتى أعطاه نور الدين لقب أمير، وكاتبه بلقب الأمير الاسفهسلار[٤]. والواقع أن صلاح الدين كان لا يمكنه أن يستغنى عن معونة نور الدين فى ذلك الدور المبكر فى حياته العملية، لاسيما وأن الموقف أمامه كان– كما سبق أن رأينا– مليئاً بالصعاب داخل مصر، فى حين ظل الصليبيون يتحفزون على الحدود الشرقية للبلاد.

موقف الصليبيين:

ومن الواضح أن نجاح نور الدين فى ضم مصر إلى دولته، خلق فى محيط الصليبيين بالشام جواً جديداً من القلق والعرب، بعد أن أحسوا أنهم وقعوا بين شقى الرحى، وأن القوات النورية أحاطت بمملكة بيت المقدس الصليبية من الشمال الشرقى والجنوب الغربى[٥]. هذا إلى أن سيطرة نور الدين– وقائده صلاح الدين– على

---

(١) Wiet: op. cit.p. 300.

(٢) Grousset: op.cit. II, p. 539.

(٣) يذكر المؤرخ ابن واصل أن صلاح الدين فى ذلك الدور كان لا يتصرف إلا عن أمره يقصد أمر نور الدين. (مفرج الكروب، ج١ ص ١٧٣).

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٤هـ.

(٥) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٤٣،

ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص ١٧٩,

ويقول ابن الأثير: كان إفرنج الساحل لما ملك أسد الدين (شيركوه) مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك.. وأنهم خائفون على بيت المقدس من المسلمين. أما ابن واصل فيقول: ولما ملك صلاح الدين الديار المصرية.. أيقن الفرنج بالهلاك.

القواعد البحرية فى شمال مصر، مثل الإسكندرية ودمياط وغيرهما من موانئ الدلتا، من شأنها أن تسلب الصليبيين سيادتهم البحرية، وتجعل هذه السيادة للمسلمين فى الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط(١).

ولم يلبث الشعور بالفزع والقلق على المستقبل أن دفع عمورى الأول ملك بيت المقدس إلى إرسال سفارة إلى الغرب الأولى لتطلب من إمبراطور ألمانيا (فردريك بربروسا) وملوك فرنسا (لويس السابع) وإنجلترا (هنرى الثانى) وصقلية (وليم الثانى) وغيرهم من كبار الأمراء، الإسراع بالقيام بحملة صليبية جديدة لإنقاذ إخوانهم الصليبيين فى الشرق(٢). وجدير بالذكر أن تلك الاستغاثة لم تخف على المؤرخين المسلمين، أمثال ابن الأثير وابن واصل (٣). على أن الأوضاع السياسية فى غرب أوروبا عندئذ، لاسيما ما يتعلق منها بالنزاع بين البابوية والإمبراطورية، حالت دون تحقيق أمنية عمورى الأول وشركاه(٤). وبذلك لم يبق أمام الصليبيين بالشام سوى الاتجاه إلى الدولة البيزنطية وطرق أبواب القسطنطينية طالبين مساعدتهما.

ولم يكن الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين أقل انزعاجاً لاتحاد مصر والشام تحت زعامة نور الدين، فرحب فوراً بتجديد اتفاقية سنة ١١٦٨ بينه وبين الصليبيين حول الاشتراك فى مهاجمة مصر واقتسامها(٥). وكان أن أعد الإمبراطور أسطولا كبيراً غادر مياه الدرنيل فى ١٠ يوليو سنة ١١٦٩ متجها إلى قبرص، حيث انضمت إليه بعض الوحدات الإضافية، ثم اتجهت العمارة البيزنطية نحو صور ومنها إلى عكا لرسم الخطة اللازمة لغزو مصر بالاشتراك مع الصليبيين(٦). ولكى يغرى الملك عمورى فرسان الاستبارية على مساندته فى مشروعه الكبير، أصدر مرسوماً مهماً

---

(١) Grousset: op. cit, II, p. 539

(٢) Guillaume de Tyr.p. 959.

(٣) يقول ابن الأثير عن الصليبيين بالشام إنهم كاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية وغيرهما يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر وأنهم خائفون على بيت المقدس. أما ابن واصل فيقول: فكاتبوا فرنج صقلية وغيرها واستمدوهم واستنصروهم لدين النصرانية.

(ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٤٣، ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص ١٨٠).

(٤) وافقت تلك الفترة الدور الثانى من أدوار النزاع بين البابوية والإمبراطورية (سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج١ ص ٣٧٦-٣٨٥).

(٥) Guillaume de Tyr.p. 961.

(٦) Schlumberger: campagnes du Roi Amaury, p. 260.

بتاريخ ١١ أكتوبر سنة ١١٦٩ يقضى بمنح الاسبتارية جزءاً كبيراً من إيراد مصر، ونصيباً كبيراً من دخل أهم المدن المصرية مثل الفسطاط وبلبيس ودمياط والمحلة والإسكندرية وقوص وأطفيح وأسوان والفيوم.. **مما يدل على عزم عمورى على** الاستيلاء على مصر من ناحية وعلى اعتقاده فى إمكان تحقيق ذلك من ناحية أخرى[١].

وفى الوقت الذى أقلع الأسطول البيزنطى صوب دمياط، زحف الصليبيون براً فى ١٦ أكتوبر ١١٦٩ من عسقلان إلى الفرما ومنها إلى دمياط ومعهم المنجنيقات والدبابات وآلات الحصار وغير ذلك[٢]. وإذا كان الصليبيون قد نصبوا معسكرهم أمام دمياط، إلا أن الأسطول البيزنطى لم يستطع دخول الميناء بسبب المآصر، وهى السلاسل الحديدية الممتدة بعرض الميناء لتمنع دخول سفن الأعداء[٣].

أما صلاح الدين فقد أسرع عندما علم بهجوم الصليبيين إلى تحصين بلبيس والقاهرة والإسكندرية، ظناً منه أن الحملة الصليبية في تلك المرة ستقتفى أثر الحملات السابقة. فلما اتجهت الحملة إلى دمياط وجد صلاح الدين نفسه فى موقف حرج، لاسيما وأنه ظل يخشى باستمرار خطر مؤامرة أو ثورة فى الداخل من أنصار الخلافة الفاطمية عقب قيامه بإقصاء الخصيان عن القصر الفاطمى وقتل الجند السودان[٤] ومع ذلك فإن صلاح الدين لم ييأس ولم يستسلم، فأرسل يطلب النجدة من نور الدين، فسير نور الدين العساكر إليه إرسالا يتلو بعضها بعضاً[٥]. وفى الوقت نفسه كان تقى الدين عمر– ابن أخى صلاح الدين– وشهاب الدين، خاله، قد دخلا دمياط فواصل صلاح الدين إرسال الإمدادات والنجدات إليهما عن طريق النيل وأمدهما بالسلاح والمال والذخائر[٦].

---

(١) King: The Kninghts Hospitallers, p. 100-101.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص ١٨٠.

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٤٣. Guillaume de Tyr.p. 986.

وعن مآصر دمياط فى العصور الوسطى وفى عصر الحروب الصليبية، أنظر: ميخائيل عواد: المآصر فى بلاد الروم والإسلام، ص٣٨-٤٨.

(٤) ويصور المؤرخ ابن الأثير موقف صلاح الدين فى تلك الفترة، فيقول إنه أرسل إلى نور الدين يقول: إنى إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج وإن سرت إليها خلفنى المصريون فى أهلها بالشر، وخرجوا عن طاعتى وساروا فى أثرى والفرنج أمامى.

(٥) ابن الأثير: الكامل، سنة ٥٦٥هـ.

(٦) أبو شامة: كتاب الروضتين، جـ١ ق٢، ص ٤٥٩. ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص ١٨١.

وهكذا كان حصار الصليبيين للمدينة غير تام. وتشير المصادر الصليبية إلى أن أهل دمياط استغلوا ظاهرة جريان تيار النيل من الجنوب إلى الشمال، وأطلقوا على سطح الماء أوانى فخارية بها مواد مشتعلة أنزلت بالأسطول البيزنطى أبلغ الضرر، مما اضطره إلى الابتعاد عن لسان النيل وعن المدينة[١] ولم تلبث القوات البيزنطية أن أحست بالجوع بعد أن نفد تموينها، فاقترح القائد البيزنطى على عمورى الأول القيام بهجوم شامل على دمياط. ولكن الملك الصليبى عارض بعد أن أحس بازدياد قوات صلاح الدين داخل المدينة، وأنها حشر فيها كل من عنده وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر[٢].

ولا يخفى علينا أن النوايا لم تكن خالصة بين البيزنطيين والصليبيين، فظل الصليبيون يتشككون دائما فى حلفائهم، وانتشرت شائعة بين رجال عمورى بأن البيزنطيين إنما ينوون أن يستأثروا بدمياط لنفسهم عند سقوطها، الأمر الذى أضعف قوة المهاجمين[٣]. وأخيرا وجد الصليبيون أن انتظارهم طال أمام دمياط دون جدوى، فى الوقت الذى هاجم نور الدين ممتلكاتهم وبلادهم فى الشام، والذى كانوا يحسبون فيه حساباً دائماً لهجوم صلاح الدين عليهم من الخلف، لذلك قرروا رفع الحصار عن دمياط وعادوا إلى عسقلان خائبين ليجدوا نور الدين قد عبث ببلادهم ونهبها، حتى شبههم ابن الأثير بالنعامة التى خرجت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين..[٤]. أما السفن البيزنطية فقد انسحبت هى الأخرى، ولم يستطع بحارتها السيطرة عليها والتحكم فيها بسبب ما كانوا يعانونه من جوع وإرهاق، فغرق كثير من السفن، وظلت الأمواج تقذف جثث بحارتها على الشاطئ طوال عدة أيام تالية[٥].

ولاشك أن فشل تلك الحملة الصليبية البيزنطية، أدى إلى تدعيم مركز صلاح الدين فى مصر، وجعل الخلافة الفاطمية تفقد الأمل الأخير فى التخلص من قبضته القوية. وكان أن أرسل الخليفة العاضد الفاطمى- عقب انسحاب الصليبيين - إلى نور الدين يرجوه سحب جنده الأتراك من القاهرة، لأنهم بثوا الرعب فيها، مع السماح

(١) Guillaume de Tyr. p. 986.

(٢) ابن الأثير: الكامل ، حوادث سنة ٥٦٥هـ.

(٣) Runciman: op. cit. II. P. 386.

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٤٤.

(٥) Guillaume de Tyr. p. 971.

ببقاء صلاح الدين وأعوانه، فرد نور الدين على الخليفة يمدح الأتراك ويعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك، فإن الفرنج لا يرعبون إلا منهم(١).

الحرب بين الدولة النورية والصليبيين:

وصل عموري الأول إلى مملكته ليجد أن فرسان طرابلس قاموا في غيابه بمهاجمة نور الدين واستردوا منه حصن عكار إلى الجنوب الشرقي من طرابلس في أواخر سنة ١١٦٩(٢). وكان الملك عموري الأول هو الوصي على إمارة طرابلس أثناء أسر أميرها ريموند الثالث، فعهد بحماية حصن عكار- وكذلك عرقة- إلى الاسبتارية. وعندما خرج ريموند الثالث من أسره في نهاية سنة ١١٧٤ ثبت تلك المنحة للاسبتارية، وأضفى عليهم امتيازات جديدة، ومن ثم غدت عرقة وعكار فضلا عن حصن الأكراد هي المراكز الأساسية لنشاط فرسان الاسبتارية، واليهم يرجع الفضل في الدفاع عن إمارة طرابلس فيما بعد(٣).

وفي ذلك الوقت كان كل من نور الدين وصلاح الدين يبحث عن وسيلة لتقوية الاتصال بين مصر والشام الإسلامية، لأن سيطرة الصليبيين على الأردن ووادي عربة- بما فيه من حصون مثل الكرك والشوبك وغيرهما- أتاحت للصليبيين إمكانات التحكم في صحراء النقب بين البحر الميت والبحر الأحمر، حيث كانت أيلة على خليج العقبة خاضعة لهم(٤). وهكذا صار طريق الاتصال مقطوعاً تماماً بين مصر وبلاد الشام الإسلامية، أو بعبارة أخرى بين نور الدين في الشام وصلاح الدين في مصر، في الوقت الذي أخذ الصليبيون يعتدون على القوافل المتنقلة بين الحجاز ومصر والشام. وليس غريباً ما نسمعه من أن نور الدين لجأ في إبريل سنة ١١٧٠ إلى مهاجمة حصن الكرك ليسمح لقافلة بقيادة نجم الدين أيوب- والد صلاح الدين- بالعبور إلى مصر(٥).

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ص ١٧١ .

والقنطاريات جمع قنطارية وهي نوع من الرماح الثقيلة التي تصنع من الخشب. (ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص ١٨٣ حاشية ١)

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٧١ .

(3) King: op, cit, p. 93.

(4) Grousset: op. cit, II, p. 533.

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١ ق١، ص ٤٦٤ .

وكانت هذه القافلة تحمل نجم الدين أيوب- والد صلاح الدين- ومعه باقي أولاده وأهله.

ثم كان أن توقف الصراع بين نور الدين والصليبيين قليلا بسبب زلزال عنيف حدث فى بلاد الشام فى ٢٩ يونيه سنة ١١٧٠ ودمر كثيراً من المدن والحصون الصليبية والإسلامية، وبخاصة فى حوض نهر العاصى، مثل أنطاكية واللاذقية وحصن الأكراد وطرابلس وجبيل، من ممتلكات الصليبيين، فضلا عن حلب وشيزر وحماه وحمص من ممتلكات نور الدين. ويبدو أن تأثير ذلك الزلزال كان أشد ما يكون خطراً فى مدينة حلب بالذات، مما جعل المعاصرين يطلقون عليه اسم زلزلة حلب(١).

وفيما عدا المعركة التى نشبت بين شهاب الدين محمود الأرتقى صاحب البيرة– الذى حضر على رأس مائتى فارس لمساعدة نور الدين– وفرسان الاسبتارية الذين خرجوا من حصن الأكراد لمهاجمة البقاع فى أوائل يولية سنة ١١٧٠، لم يحدث بين الصليبيين ونور الدين فى شمال الشام ما يستحق الذكر فى تلك الفترة(٢).

استيلاء نور الدين على الموصل:

وفى أوائل سبتمبر سنة ١١٧٠ توفى أخو نور الدين– وهو قطب الدين مودود أتابك الموصل– بعد أن حرم من إرثه ابنه البكر عماد الدين واستخلف بدله فى حكم الموصل ابنه الأصغر سيف الدين(٣). وكان أن اتجه عماد الدين إلى حلب لطلب المساعدة من عمه نور الدين الذى أسرع إلى مهاجمة الموصل فى سبتمبر سنة ١١٧٠. وفى تلك الأزمة استنجد فخر الدين عبد المسيح– وزير سيف الدين– بشمس الدين أيلدكز صاحب بلاد الجبل وأذربيجان، الذى أرسل إلى نور الدين يعلمه بأن تلك البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها. ولكن نور الدين رد عليه مستهجناً موقف سلاطين السلاجقة من القضية الإسلامية الكبرى وإعراضهم عن الجهاد ومحاربة الصليبيين(٤).

ولم يلبث أن استسلمت الموصل لنور الدين فى يناير سنة ١١٧١، فعامل ابن أخيه سيف الدين غازى معاملة طيبة وترك له حكم الموصل، ولكن من الناحية

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص ١٨٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٥هـ.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٥ ص٣٨٤.

ويفسر ابن الأثير وابن واصل هذا التصرف بأن فخر الدين عبد المسيح– وزير سيف الدين– اتفق مع الخاتون أرملة قطب الدين مودود على استبعاد عماد الدين من الملك لأن عماد الدين كان طوع عمه نور الدين، كما كان متزوجاً من ابنته.

(ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٤٦، ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص ١٩٠).

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٦هـ.

التاريخ الباهر: ص ١٤٦، ١٥٢.

الاسمية أو الشكلية، إذ عين نور الدين أحد رجاله- وهو سعد الدين كمشتكين- نائباً عنه فى الموصل، وخوله السلطة الفعلية. كذلك استولى نور الدين على نصيبين ووادى الخابور، وأعطى سنجار لابن أخيه عماد الدين.

وهكذا صارت الجبهة الإسلامية المتحدة تمتد فعلا من العراق إلى الشام فمصر، وتربط بين الموصل وحلب ودمشق والقاهرة برباط وثيق، مما أنذر بالقضاء على الصليبيين فى بلاد الشام، وليس أدل على قوة الدين فى العالم الإسلامى عندئذ من أن الخليفة العباسى المستضئ أرسل إليه وهو على حصار الموصل خلعه تكريماً له واعترافاً بقدره[١].

استئناف مهاجمة الصليبيين:

وفى الوقت الذى تمكن نور الدين محمود من بسط سيطرته على الموصل، كان نائبه فى مصر- صلاح الدين- قد نجح فى تثبيت أقدامه، وبدأ يوجه جهوده ضد الصليبيين فى أوائل ديسمبر سنة ١١٧٠ عندما خرج صلاح الدين من مصر لمهاجمة قلاع الصليبيين على شواطئ فلسطين، فبدأ بحصار قلعة الداروم (الدارون) جنوبى غزة، ثم حاول الاستيلاء على غزة نفسها[٢]. ولكن صلاح الدين لم يستطع تنفيذ غرضه بسبب المساعدة العاجلة التى قدمها عمورى الأول ملك بيت المقدس، الذى أتى بنفسه على رأس قواته لنجدة هذين الموضعين. ولم يلبث صلاح الدين أن انسحب عائداً إلى مصر، ليستعد لضربة أخرى يوجهها ضد الصليبيين[٣].

وكان ميناء أيلة- على خليج العقبة- هو مقصد صلاح الدين فى تلك المرة، فبنى عدداً كبيراً من السفن وحمل أجزاءها على الجمال عبر سيناء حتى البحر الأحمر. وهناك ركبت السفن وأخذ صلاح الدين يهاجم أيلة براً وبحراً فى نهاية ديسمبر سنة ١١٧٠ فسقطت المدينة فى يده، واقتيد أفراد حاميتها من الصليبيين أسرى إلى القاهرة[٤].

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٦هـ.

(2) Guillaume de Tyr. 1, p. 973-975 &

النويرى: نهاية الأرب، ج٢٧، ص١٦٣ (تحقيق المؤلف).

(٣) يذكر ابن الأثير أن صلاح الدين لم يعد إلى مصر الا بعد أن أنزل الهزيمة بالصليبيين حتى أن عمورى أفلت من الأسر بصعوبة. (الكامل، حوادث سنة ٥٦٦هـ).

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص ١٩٩ .

ومن ناحية أخرى، فإن نور الدين جدد هجماته على الصليبيين عقب استيلائه على الموصل، رغم ما كان هناك من هدنة معقودة بين الطرفين. وقد تذرع نور الدين لنقض الهدنة باستيلاء الصليبيين على سفينتين للمسلمين خرجتا من مصر إلى الشام وهما مملوءتان بالأمتعة والتجارة، ولكنهما جنحتا على شاطئ اللاذقية فى إمارة إنطاكية. لذلك أرسل نور الدين قوة لمهاجمة إمارة إنطاكية فى سبتمبر سنة ١١٧١، فى حين هاجم هو نفسه إمارة طرابلس، فحاصر عرقة وأرسل فرقة من جيشه احتلت قلعتى عريقة وصافيثا. وأخيراً اضطر الصليبيون إلى تسليم ما فى السفينتين من بضائع ليتوقف نور الدين عن مهاجمتهم، فقبل تجديد الهدنة[١].

إحياء الحلف بين البيزنطيين والصليبيين:

وهكذا أخذ الصليبيون يشعرون يوماً بعد يوم بازدياد تضييق المسلمين عليهم، وأنهم بعد أن كانوا متجهين بكل جهودهم ضد خطر نور الدين من ناحية الشمال، أصبح عليهم أن يوزعوا قواهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نور الدين وصلاح الدين.

ولم يقف الصليبيون فى بلاد الشام مكتوفى الأيدى أمام تلك الأوضاع، وإنما جدد ملكهم عمورى الأول استعانته بالبابوية والغرب الأوروبى لإرسال حملة جديدة إلى الشرق تعيد للصليبيين سيطرتهم على بلاد الشام[٢]. ولكن عمورى نفسه كان يدرك أن الأمل ضعيف فى وصول نجد سريعة من الغرب الأوروبى، وعندئذ لم يجد أمامه سوى محاولة الاستعانة من جديد بالدولة البيزنطية التى ظلت تمثل القوة الرئيسة الكبرى للمسيحيين فى الشرق الأدنى، لذلك أبحر الملك عمورى الأول ومعه طائفة من أمرائه من عكا فى ١٠ مارس سنة ١١٧١ إلى القسطنطينية، حيث استقبله الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين استقبالا حافلا ورحب بتلك الفرصة التى جعلت ملك بيت المقدس نفسه يزور القسطنطينية، مما أظهره فى صورة التابع للإمبراطور البيزنطى[٣].

وعندما عرض عمورى الأول على الإمبراطور الحالة السيئة التى أمسى فيها الصليبيون، وطلب مساعدة الإمبراطورية البيزنطية ضد الأخطار التى تهددهم فى

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١ ق٢، ٥١٦-٥١٧.
ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٥٤-١٥٥.

(2) Guillaume de Tyr. p. 980.

(3) Schlumberger: Recits de Byzance et des Croisades II, P. P. 131-141.

شمال الشام وجنوبه، طالب الإمبراطور بالثمن. ولم يكن الثمن المطلوب تلك المرة هو أنطاكية التى حلت مشكلتها سنة ١١٥٩ بالاعتراف بسيادة الإمبراطورية البيزنطية عليها. وإنما طلب الإمبراطور مانويل كومنين شيئاً جديداً هو اعتراف ملك بيت المقدس نفسه بالتبعية للإمبراطور البيزنطى. وكان أن اعترف عمورى بهذه التبعية بعد أن وجد أنها الحل الوحيد للحصول على مطلبه وإنقاذ الصليبيين بالشام(١).

ومهما يقال من أن تلك التبعية التى اعترف بها ملك بيت المقدس كانت مبهمة غير واضحة وأنها لم تكن تبعية شخصية بقدر ما كانت اعترافاً من الملك عمورى بهيمنة الإمبراطور على المسيحيين المحليين- من أرثوذكس وسريان وأرمن وغيرهم- فى بلاد الشام، فالمهم هو أن الصليبيين وجدوا فيها ضماناً للحصول على مساعدة البيزنطيين لهم ضد نور الدين وتابعه صلاح الدين(٢).

وقد توصل الجانبان- الصليبى والبيزنطى - إلى أن أخطر ما يهدد الصليبيين فى بلاد الشام هو امتلاك نور الدين لمصر، ولذلك استقر الرأى على إرسال حملة ضد مصر لاحتلالها وطرد صلاح الدين منها(٣). وهكذا عكف الإمبراطور مانويل كومنين والملك عمورى الأول على وضع خططهما للقضاء على خطر نور الدين، دون أن يعلما ما يخبئه القدر فى القريب العاجل من وفاة نور الدين ثم عمورى الأول ثم مانويل كومنين نفسه، ليبقى الميدان خاليا أمام صلاح الدين وحده.

وفى تلك الأثناء عكف نور الدين على إتمام الوحدة الإسلامية فأرسل إلى عز الدين أرسلان الثانى- سلطان سلاجقة الروم فى قونيه- يدعوه للانضمام إلى الحلف الإسلامى لجهاد الصليبيين(٤). ولكن سلطان قونيه كان مرتبطا بالولاء للإمبراطور البيزنطى، فخشى أن يعرضه التحالف مع نور الدين لانتقام الإمبراطور، ولذلك أعرض عن طلب نور الدين، بل أظهر معارضة لسياسته. وتشير المصادر إلى أن

(1) Grousset: op. cit, II, p. 577.

(2) Runciman: op. cit. II. P. 391.

(3) Guillaume de Tyr. p. 980.

(٤) جاء فى رسالة نور الدين إلى قلج أرسلان إننى أريد منك أموراً وقواعد، ومهما تركت منها فلا أتركك ثلاثة أشياء: أحدها أنك تجدد إسلامك على يد رسول حتى يحل لى إقرارك على بلاد الإسلام فإننى لا أعتقدك مؤمناً (وكان قلج أرسلان يتهم فى صدق عقيدته وأنه يعتقد فى مذهب الفلاسفة)، والثانى إذا طلبت عسكرك إلى الغزاة فسيره فإنك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الاسلام وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم. فإما أن تنجدنى بعسكر لأقابل الفرنج وإما أن تجاهد من يجاورك من الروم... (ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٦٠).

سلطان قونيه لم يعرض عن الجهاد فحسب، بل أخذ يوجه جيوشه ضد جيرانه المسلمين، فحاول سنة ١١٧٢-١١٧٣ أن يستولى على سيواس عاصمة بنى دانشمند فى كبادوكيا. وعندما استنجد ذو النون بن الدانشمند، أيده الأخير وثبت حكمه فى سيواس، كما استولى على مرعش من سلاجقة الروم[١].

ولم يكون نور الدين يعمل بمفرده فى تلك الجبهة، وإنما حالفه مليح بن ليون أمير قليقية الأرمينى الذى لم يهدد إنطاكية والصليبيين فحسب[٢]، وإنما لجأ أيضاً- بمساعدة نور الدين- إلى تهديد الممتلكات البيزنطية، فاستولى سنة ١١٧٣ على المدن الثلاث الرئيسة فى قليقية، وهى أذنة والمصيصة وطرسوس[٣]. ولم يكن فى استطاعة الصليبيين أن يقفوا مكتوفى الأيدى أمام تهديد مليح عله يفيق إلى رشده، ويقدر أهمية الوازع الدينى، فلما أبى مليح أن يعدل عن تحالفه مع نور الدين ضد الصليبيين، لم يبق إلا الحرب. وفى الوقت الذى شن عمورى حربه على مليح فى قيليقية سنة ١١٧٣، رد نور الدين على ملك بيت المقدس بمهاجمة الكرك، ولكن الصليبيين أجبروه على الارتداد عنه بعد قليل[٤].

سقوط الخلافة الفاطمية:

أما فى مصر فكانت لاتزال هناك مشكلة ضخمة لها أهميتها وخطورتها، فضلا عن أنها أقلقت بال نور الدين وصلاح الدين جميعاً، وتطلبت منهما أن يتخذا فيها حلا سريعاً حاسماً، هى المشكلة الخاصة بتحديد وضع الخلافة الفاطمية الشيعية فى ظل قوة كبرى تدين بالمذهب السنى. فنور الدين كان سنياً؛ وازدادت علاقته بالخلافة العباسية وتقديرها له عقب فرض سيطرته على الموصل سنة ١١٧١، إذ وصله وهو على الموصل يحاصرها خلعة من الخليفة المستضئ بأمر الله فلبسها[٥].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص ٢٣٣.

(2) Guillaume de Tyr. p. 988.

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٨هـ.

Iorga: L`Armenie Ciliciene, p. 98.

وقد ذكر ابن الاثير أن نور الدين استخدم الأمير مليح المذكور وأقطعه إقطاعا سينا. وكان ملازما لخدمة نور الدين ومشاهدا لحروبه مع الفرنج.

(4) Guillaume de Tyr. p. 991-992.

(٥) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٦هـ.

ولم يكن صلاح الدين الأيوبى فى مصر أقل تحمساً للمذهب السنى، إذ المعروف عنه أنه كان شافعياً حريصاً على مذهبه، فأخذ يعمل- منذ أن استتبت له الأمور فى مصر، على تدعيم المذهب الشافعى فى البلاد بكافة الوسائل، والخليفة الفاطمى فى قصره يسمع ويرى! من ذلك ما لجأ إليه صلاح الدين من تحويل دار المعونة(١) ودار العدل فى الفسطاط إلى مدارس للشافعية، وإحلال القضاة الشافعية محل قضاة الشيعة فى جميع البلاد(٢) ومع ذلك فقد ظل صلاح الدين متخوفاً من الإقدام على الخطوة الكبرى الخاصة بإسقاط الخلافة الفاطمية وإلغائها، فى الوقت الذى كان الخليفة الفاطمى العاضد لا يمتلك من القوة ما يمكنه من التخلص من صلاح الدين، ولا يستبعد أن يكون صلاح الدين نفسه قد حرص على بقاء الخلافة الفاطمية قائمة فى صورتها الشكلية فى تلك الفترة بالذات التى أخذ يحس فيها بتغير شعور سيده نور الدين نحوه وحسده له على ما حققه من مكانة لنفسه فى مصر. فضلا عن تخوف نور الدين من أن يستبقى الخلافة الفاطمية لتكون بمثابة درع يحميه أو سلاح يستطيع أن يستعمله عند الحاجة إذا تأزم الموقف بينه وبين نور الدين.(٣)

وكان أن بدأ صلاح الدين يماطل عندما طلب منه سيده نور الدين إسقاط الخلافة الفاطمية تحقيقاً لوحدة العالم الإسلامى، واعتذر من وثوب أهل مصر وامتناعهم عن الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلوية. ولكن نور الدين أرسل إنذارا نهائياً فى صيف سنة ١١٧١ إلى صلاح الدين يأمره بإحلال اسم الخليفة العباسى المستضئ. محل اسم الخليفة الفاطمى العاضد فى خطبة الجمعة وأرسل إليه يلزمه إلزاماً لا فسحة

---

(١) كان بمصر دار للشحنة تسمى جار المعونة، يحبس فيها من يريد حبسه؛ فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية.
(ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٦هـ).

(٢) يقول ابن واصل إنه حتى ذلك الوقت لم يكن بمصر للشافعية ولا لغيرهم مدرسة، لأن الدولة كانت إسماعيلية. كذلك يذكر ابن واصل (مفرج الكروب، ج١، ص ١٩٨) وأبو المحاسن (النجوم ج٥ ص ٣٥٨): أن صلاح الدين بنى مدرسة أخرى للمالكية فى مكان معروف بدار الغزل. وهذه المدرسة هى التى عرفت فيما بعد باسم المدرسة القمحية. أنظر أيضاً (خطط المقريزى، ج٢ ص ٣٦٤) بولاق).

(٣) ذكر ابن الاثير: وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم (للفاطميين) ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين، فإنه كان يخاف أن يدخل الى الديار المصرية فيأخذها منه، فكان يريد أن يكون العاضد (الفاطمى) معه، حتى إن قصده نور الدين امتنع به، وبأهل مصر عليه.
(الكامل، حوادث سنة ٥٦٧هـ).

فيه[١] وهكذا وجد صلاح الدين نفسه بين نارين: الوقوع فى أزمة مع نور الدين، أو التعرض لثورة الشيعة فى مصر. ولكنه وجد أن المر الثانى أخف وطأة لأنه مازالت نسبة كبيرة من أهل مصر ترفض التشيع. فى حين أن القلة لم تقبله إلا كرها تحت ضغط الخلفاء الفاطميين وأعوانهم. أما الخلافة الفاطمية وأتباعها من الشيعة فى مصر فلم تعد لهم قوة حقيقية يعتمدون عليها بعد مقتل الجند السودان.

وأخيراً تم الانقلاب، فدعا فى القاهرة فى أول جمعة من سنة ٥٦٧هـ (سبتمبر ١١٧١م) للخليفة العباسى المستضئ أمير المؤمنين، وبذلك حدث التحول من المذهب الشيعى إلى المذهب السنى فى هدوء ولم ينتطح فيه عنزان على قول ابن الأثير[٢]. ويقال إن الخليفة العاضد الفاطمى توفى بعد ذلك الانقلاب بثلاثة أيام (١٣ سبتمبر سنة ١١٧١) دون أن يسمع بزوال دولته وسقوط خلافته، إذ منع صلاح الدين رجاله من إزعاجه بذلك الخبر أثناء مرضه فإن عوفى فهو يعلم، وإن توفى فلا ينبغى أن نفجعه بهذه الحادثة قبل موته[٣]. وبعد ذلك دأب صلاح الدين على العمل لإزالة معالم الدولة الفاطمية وقطع دابرها ومحو آثارها، ومن ذلك ما يرويه المقريزى من أنه نزع المناطق الفضة التى كانت بمحاريب جوامع القاهرة والتى كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين[٤].

ولاشك أن سقوط الخلافة الفاطمية فى مصر لم يكن مجرد انقلاب عادى وإنما كان حدثاً له أهميته فى تاريخ العالم الإسلامى. فها هى دولة الفاطميين فى مصر تنهار بعد قرنين من الزمان تقريباً، لتعود للعالم الإسلامى وحدته وتصبح الخلافة العباسية السنية هى السلطة الوحيدة التى يدين لها المسلمون بالولاء الدينى[٥]. ولم

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص ٢٠٠ .

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص١٥٦ .

(٣) ويقال إن صلاح الدين عندما علم بوفاة الخليفة العاضد الفاطمى ندم على تعجله فى قطع خطبته وقال: ليتنى صبرت حتى يموت.... (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٥ ص ٣٥٦). ولا مجال هنا لمناقشة الادعاءات بأن صلاح الدين متهم بدس السم للخليفة العاضد، فأخلاق صلاح الدين تسمو به فوق ذلك. (ابن أيبك: كنز الدرر، ج٧، ص٤٨).

(٤) المقريزى: السلوك، ج١، ص ٤٣-٤٥ .

(5) Wiet: L' Egypte Arabe, p. 302.

وقد ذكر ابن واصل أن الخطبة للعباسيين انقطعت من مصر سنة ٣٥٨هـ، وأنها عادت سنة ٥٦٨هـ، فكانت مدة انقطاعها من مصر نحواً من مائتى سنة وتسع سنين.

(مفرج الكروب، ج١ ص٢١٨).

يلبث أن أقيمت الاحتفالات فى بغداد تعبيراً عن شعور الفرح بذلك النصر الضخم الذى تحقق للخلافة العباسية. وأسرع الخليفة العباسى المستضئ إلى إرسال الخلع الى نور الدين وصلاح الدين، ومعها الأعلام والرايات السود شعار العباسيين(١).

الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين:

ولم يلبث أن دبت الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين عقب إسقاط الخلافة الفاطمية سنة ١١٧١، بسبب تحديد العلاقة بين الأول والثانى، أو تحديد الخيوط التى تربط صلاح الدين بنور الدين. فحتى ذلك الوقت كان صلاح الدين يباشر سلطانه الفعلى فى مصر بوصفه وزيراً شرعياً للخليفة العاضد الفاطمى، فضلا عن أنه كان ينفذ تعليمات نور الدين بوصفه نائباً عنه وقائداً لقواته فى مصر. ولكن بسقوط الخلافة الفاطمية ووفاة الخليفة العاضد صفا الوقت لصلاح الدين على قول أبى المحاسن، وصار يخطب باسمه على منابر مصر بعد الخليفة العباسى والملك العادل نور الدين محمود(٢). ويبدو أن صلاح الدين حرص فى ذلك الدور على توطيد نفوذه فى البلاد، فزار الإسكندرية، وأخذ يفكر فى الاستيلاء على برقة للاستفادة من ثروتها فى عملية الجهاد المقبلة ضد الصليبيين(٣).

ولعله من الواضح أنه كان لزاماً على صلاح الدين فى ذلك الدور أن يحدد موقفه من نور الدين، ويختار لنفسه أحد طريقين، فإما أن يظل على ولائه لنور الدين بوصفه نائباً عنه فى مصر، وفى هذه الحالة عليه أن يتقبل فى أية لحظة قرار نقله وإحلال من يحل محله فى حكم مصر، وإما أن يستقل عن نور الدين ويخرج عن طاعته ويجعل من نفسه ملكاً على مصر، مما يعرضه لهجوم جيوش نور الدين(٤).

ويروى لنا ابن الأثير مثلا واضحاً عن تخوف صلاح الدين من نوايا نور الدين، وحالة الوحشة التى سادت العلاقات بين الرجلين. ففى أواخر سبتمبر سنة ١١٧١ خرج صلاح الدين من مصر- بناء على أوامر صدرت إليه من نور الدين-

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٧هـ.

المقريزى: السلوك ج١ ص ٤٦.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٥ ص٣٥٧.

(٣) المقريزى: السلوك، ج١ ص ٤٨.

(4) Grousset: op. cit, II, p. 590.

لمهاجمة حصن الشوبك فى وادى عربة[١]. ولم تستطع حامية الحصن الثبات فى المقاومة فطلبت إعطاءها مهلة عشرة أيام للتسليم. ولكن صلاح الدين لم يلبث– وهو أمام الشوبك– أن يبقى أمام الشوبك حتى قدوم نور الدين إليه. إذ ربما عزله من منصبه وقبض عليه. ويبدو أن أصحاب صلاح الدين وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين وقالوا له إنه إذا تم الاجتماع فحينئذ يكون هو المتحكم فيك إن شاء تركك وإن شاء عزلك[٢] لذلك أسرع صلاح الدين إلى الانسحاب إلى مصر قبل وصول نور الدين فى أواخر أكتوبر سنة ١١٧١، معتذراً بأنه لابد له من الإسراع بمساعدة أخيه الذى يحارب بقايا أتباع الفاطميين بالصعيد[٣]، وبأن ثورة العلويين تنذر بالاشتعال فى القاهرة مما تطلب سرعة عودته[٤].

على أن مثل هذا السلوك لم يكن له سند قوى يبرره، فاستاء نور الدين من مسلك نائبه فى مصر وعظم عليه ذلك... ولم يقبل عذره، بل إن نور الدين بدأ يستعد للزحف على مصر لتأديب صلاح الدين. وعندئذ أسرع صلاح الدين إلى عقد اجتماع من أهل بيته وأمرائه، وبدأ الكلام فيه بعض الشبان المتحمسين– مثل المظفر تقى الدين عمر– ابن أخى صلاح الدين، الذى قال إذا جاء (نور الدين) قاتلناه وصددناه عن البلاد وأقره على رأيه بعض الحاضرين. ولكن والد صلاح الدين– وهو الشيخ نجم الدين أيوب– تدخل بمنطق الرجل المحنك، فشتم أولئك المتهورين وأنكر عليهم تفكيرهم، ثم اتجه نحو صلاح الدين وقال: أنا أبوك، وهذا شهاب الدين الحارمى خالك، أتظن فى هؤلاء من يحبك ويرد لك الخير أكثر منا؟ قال لا. فقال نجم الدين: لو رأيت أنا وخالك هذا السلطان نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا. فإذا كنا نحن هكذا، فكيف يكون غيرنا؟ وهذه البلاد له وقد أقامك فيها نائباً عنه، فإن أراد عزلك فأى حاجة إلى

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٧هـ.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص٢٢ .

(3) Runciman: op. cit. II. P. 394.

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٧هـ.

هذه الرواية السابقة ذكرها ابن الأثير فى كتابه وذكرها أبو المحاسن فى النجوم الزاهرة. وهناك رواية أخرى ذكرها ابن الأثير فى كتابه التاريخ الباهر (ص١٥٨). وابن واصل (مفرج الكروب ج١ ص ٢٢١) خلاصتها: أن نور الدين أرسل سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلاد الفرنج والنزول على الكرك لمحاصرته، فرد صلاح الدين على سيده بأنه سيفعل ذلك وأن رحيله لن يتأخر، وعندئذ رحل نور الدين عن دمشق قاصداً الكرك حيث أقام ينتظر وصول صلاح الدين ولكن صلاح الدين عاد وأرسل إليه كتاباً يعتذر فيه عن الحضور لاختلال أحوال مصر وأنه ليخاف عليها من البعد عنها.

المجئ؟ يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولى البلاد من يريد[١]. وبعد ذلك التفت نجم الدين إلى جموع تقصد الحاضرين وقال لهم قوموا عنا، فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد. فتفرق الجميع وبادر بعضهم بالكتابة إلى نور الدين بما حدث. وعندما خلا نجم الدين بابنه صلاح الدين قال له أنت جاهل قليل المعرفة.. تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما فى نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك من أهم أموره وأولاها بالقصد. ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحداً، وكانوا يسلمونك إليه. وأما الآن بعد هذا المجلس سيكتبون إليه يعرفونه قولى.. ثم طلب نجم الدين من ولده صلاح الدين أن يكتب إلى نور الدين يعرب له عن ولائه، ففعل ذلك. كذلك أرسل صلاح الدين إلى نور الدين هدية ثمينة من الحيوانات النادرة والجواهر والأقمشة والمصنوعات والعطر. بل إن صلاح الدين خرج بنفسه فى العام التالى – ١١٧٣– لغزو الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون الصليبية القريبة لإثبات حسن نيته[٢].

وهكذا نجحت خطة نجم الدين أيوب فاطمأن نور الدين من ناحية صلاح الدين وترك قصته واشتغل بغيره، فكان الأمر كما ظنه أيوب[٣]. على أن صلاح الدين– مع كل ذلك– لم يتقاعس عن حماية مكاسبه التى حققها فى مصر، ولم يشأ التخلى عن مطامعه. وإنما فضل أن يستعد لما عساه يحدث فى المستقبل. لذلك فكر صلاح الدين وأهله فى تحصيل مملكة يقصدونها ويتملكونها تكون عدة لهم، إن أخرجهم نور الدين من مصر ساروا إليها وأقاموا بها[٤]. وربما كان ذلك هو السر فى أن صلاح الدين أرسل أخاه شمس الدولة توران شاه بن أيوب فى أواخر سنة ١١٧٢ لفتح بلاد النوبة، حتى تصبح مأوى للأيوبيين فى حالة دخول نور الدين مصر وتغلبه على صلاح الدين. ولكن صلاح الدين اكتشف أن بلاد النوبة فقيرة قليلة الجدوى، فأرسل أخاه

(١) المقريزى: السلوك، ج١ ص ٤٩ .

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص ٢٢٢–٢٢٤ .

ويروى ابن واصل أن نور الدين استقبل الهدية ولم تقع منه بموقع، ويبدو أن نور الدين سمع أخباراً مبالغا فيها عن ثروة الفاطميين وما أخذه صلاح الدين من قصورهم، حتى أنه أرسل أحد رجاله سنة ٥٦٩هـ مطالباً لصلاح الدين بالحساب عن جميع ما أخذه من قصور الخلفاء.

(المقريزى: السلوك، ج١ ص٥٢).

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ٢٣ .

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٩هـ. المقريزى: السلوك ج١ ص ٥٢ .

توران شاه الى اليمن سنة ١١٧٤ حيث أخضعها وضمن تبعيتها لصلاح الدين[١].

ويبالغ ابن الأثير، فيذكر أن صلاح الدين حرص فى ذلك الدور أيضاً على عدم التوسع فى محاربة الصليبيين، ليظلوا ستاراً يفصل بينه وبين نور الدين[٢] وإذا كان صلاح الدين قد قام بغزو أراضى الصليبيين فى الكرك والشوبك سنة ١١٧٣ بناء على نصيحة والده. ذلك أن صلاح الدين لم يكد يشرع فى حصار الكرك، حتى عاد وتخوف من أن يغدر به نور الدين الذى كان هو الآخر قد اقترب من الكرك فعلا. وهكذا تحجج صلاح الدين بمرض أبيه نجم الدين أيوب- الذى كان صلاح الدين قد استخلفه فى مصر- وأنه يخاف أن يحدث عليه حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم، فأسرع فوراً بالعودة إلى مصر دون أن ينتظر وصول سيده نور الدين[٣]. وفى تلك المرة صمم نور الدين على غزو مصر والقضاء على صلاح الدين وشرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين. ولكن نور الدين لم يلبث أن توفى سنة ١١٧٤ قبل أن يحقق غرضه، وبذلك ترك الميدان خالياً أمام صلاح الدين[٤].

مؤامرة الشيعة في مصر سنة ١١٧٤:

ولم يكن معنى القضاء على قوة السودان ثم سقوط الخلافة الفاطمية ووفاة الخليفة العاضد، أن نفوذ صلاح الدين قد استقر نهائيا فى مصر. ذلك أنه إذا كانت الخلافة الفاطمية قد ماتت موتاً صامتاً فى ظاهر الأمر، إلا أن الوضع الجديد لم يرض عنه المخلصون من الشيعة فى مصر، فضلا عن أتباع النظام القديم والمستفيدين منه، وجلهم من أصحاب المصالح الذين عز عليهم أن ينقضى زمن الفوضى وأن يسيطر

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١ ق٢١، ص ٥٣٠، ٥٥١-٥٥٥.

(٢) فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال الفرنج عن طريق أخذ البلاد منه، فكان يحتمى بهم عليه ولا يؤثر استئصالهم، (ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٦١).

وجدير بالذكر أن المؤرخ ابن الأثير كان متحاملا على صلاح الدين، ولم يستطع أن يخفى كراهيته له فى أكثر من موضع، لاعتقاده أنه سلب أبناء البيت الزنكى حقهم فى الملك (انظر للمؤلف: بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ص ٣٩٣ ومابعدها- بيروت، ١٩٧٧).

(٣) توفى نجم الدين أيوب فى ذى الحجة سنة ٥٦٨هـ قبل عودة صلاح الدين إلى القاهرة، وكانت وفاته بسبب سقوطه من فوق فرسه.

(ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٧٦).

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٩هـ.

على البلاد رجل قوى مثل صلاح الدين.

ولم يلبث أن دبرت مؤامرة[١] فى القاهرة فى مارس- ابريل سنة ١١٧٤، اشتركت فى حبك أطرافها جميع العناصر الناقمة على الوضع الجديد، بقصد إحياء الخلافة الفاطمية وإقامة الدعوة العلوية وردها إلى ما كانت عليه. أما زعماء هذه المؤامرة فكانوا الشاعر عمارة اليمنى[٢]، وعبد الصمد الكاتب، والقاضى العوريس متولى ديوان النظر ثم القضاء، وداعى الدعاة عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوى، والواعظ زين الدين بن نجا، فضلا عن عدد آخر كبير من أتباع الدولة الفاطمية من الموظفين وبقايا الجند السودان وخدم القصر الفاطمى وغيرهم[٣].

وعندما أدرك المتآمرون أنهم فى حاجة إلى مساندة قوة خارجية لضمان نجاح مؤامرتهم، أقدموا على الاتصال بالحشيشية والصليبيين. وكان أن أرسل المتآمرون إلى شيخ الجبل مقدم الإسماعيلية بالشام يقولون له إن الدعوة واحدة والكلمة جامعة، ويطلبون منه إيفاد من يقوم على الملوك غيلة لقتل صلاح الدين[٤]. أما الخطة التى وضعها المتآمرون فقد قضت بأن يقوم الصليبيون بغزو مصر، فى الوقت الذى يشعلون الثورة فى القاهرة والفسطاط، وبذلك يقع صلاح الدين بين نارين[٥].

ثم إن المتآمرين لم يكتفوا بالاتصال بعمورى الأول ملك بيت المقدس فحسب، وإنما اتصلوا أيضاً بوليم الثانى النورمانى ملك صقلية، ليهاجم أسطوله الإسكندرية فى الوقت الذى يدهم الصليبيون مصر من ناحية الشرق. وتم الاتفاق بين المتآمرين من ناحية وملكى بيت المقدس وصقلية من ناحية أخرى على كل ذلك، بحيث لم يبق إلا رحيل الفرنج على قول ابن الأثير[٦]. واختار المتآمرون فرصة غياب توران شاه فى اليمن موعداً لتنفيذ مؤامرتهم، حتى لا يحل محل أخيه فى حالة مقتله، كما عينوا

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص ٢٤٣ (تحقيق جمال الدين الشيال).

(٢) وصف ابن واصل الشاعر عمارة اليمنى بأنه كان شديد التعصب لهم أى للفاطميين على الرغم من أنه كان شافعياً سنياً ولم يكن على مذهبهم. وفسر ذلك بأنه وفد عليهم من اليمن فأحسنوا إليه فصار (صنيعة الإحسان).

ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص ٢١٢ .

(٣) المقريزى: السلوك ج١ ص ٥٣ (تحقيق محمد مصطفى زيادة).

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص ٢٤٩ .

(5) Wiet: L'Egypte Arabe, p. 311.

(٦) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٩هـ.

أعضاء الجهاز الحكومى الجديد وعينوا الخليفة والوزير وتقاسموا الدور والأملاك، بحيث غدا كل شىء معداً للتنفيذ(١).

وقبل البدء فى تنفيذ المؤامرة، أرسل عمورى الأول رسولا إلى القاهرة يحمل فى ظاهر الأمر تحيات الملك الصليبى لصلاح الدين، ولكنه فى حقيقة أمره أتى ليرسم الترتيبات النهائية مع المتآمرين قبل التنفيذ. وفى الوقت نفسه أعد وليم الثانى ملك صقلية أسطولا ضخماً من ستمائة سفينة تحمل ما يقرب من ثلاثين ألف رجل للمشاركة فى غزو مصر(٢).

ولكن الخيانة لم تلبث أن انكشفت، وأحبطت المؤامرة فى اللحظة الأخيرة. ذلك أن المتآمرين أشركوا معهم فى سرهم الفقيه الواعظ زين الدين بن نجا الذى قام بإطلاع صلاح الدين على جميع حلقات المؤامرة أولا فأولا. وفى الوقت نفسه وصل المبعوث الذى أرسله عمورى الأول إلى القاهرة محملا بالهدايا وعبارات الود لصلاح الدين، فانكشف أمره بعد أن راقبه صلاح الدين عن طريق بعض أقباط مصر(٣). ولم يكد صلاح الدين يتأكد من تفاصيل المؤامرة حتى قبض على المتآمرين فوراً وصلب زعماءهم– الشاعر عمارة اليمنى وعبد الصمد الكاتب والعوريس القاضى– فى ٦ ابريل سنة ١١٧٤، فى حين اختفى آخر الأمراء الفاطميين ابن الخليفة العاضد(٤).

ولم يلبث صلاح الدين أن وجه جهوده بسرعة لإخماد ثورة أخرى قامت فى أسوان على حدود النوبة، أشعلها أحد القادة الفاطميين واسمه كنز الدولة (الكنز) الذى جمع حوله فى أسوان بعض العناصر من الشيعة وغيرهم، وأوهمهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة العبيدية (الفاطمية) المصرية، وزحف بهم على قوص (قوس). ولكن الحملة التى أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه سيف الدين استطاعت فى أوائل سبتمبر سنة ١١٧٤ أن تقضى على أولئك الجند السودان قضاء مبرماً فاستأصل شأفتهم وأخمد ثائرتهم(٥).

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص ٢٤٤ .

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٨٠، كتاب الروضتين، ج١ ق٢ ص ٥٩٨ .

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص ٢٤٤–٢٤٥ .

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٩هـ.

وقد ذكر ابن واصل انه احتيط على ولد العاضد وغيرهم من أهله. (مفرج الكروب، ج١ ص ٢٤٧).

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٧٩، المقريزى: السلوك، ج١ ص٥٧–٥٨

أما عمورى الأول ملك بيت المقدس، فلم يعلم بانكشاف سر المؤامرة فى القاهرة وفشل الخطة الموضوعة لغزو مصر، حتى توفى فى بيت المقدس وسط جو من خيبة الأمل (١١ يوليـة ١١٧٤). ولم يلبث أن وصل أسطول صـقليـة الذى أرسله وليم النورمانى إلى مياه الإسكندرية فى أواخر يوليو ليجد أن كل شىء قد انتهى، وأن فشل المؤامرة من جهة ووفاة عمورى من جهة أخرى جعلت غزو مصر غير ذى موضوع[١].

ومع ذلك فإن الأسطول النورمانى الذى وصل أمام الإسكندرية فى ٢٨ يوليو سنة ١١٧٤ نجح فى إنزال قواته على الشاطئ، كما دمر بعض السفن التجارية الراسية فى ميناء الإسكندرية[٢]. وقد حاول النورمان اقتحام الإسكندرية وشددوا هجماتهم عليها، ولكن المسلمين ثبتوا لهم وأحرقوا بعضاً من سفنهم، فى الوقت الذى قدم صلاح الدين من فاقوس مسرعاً ومعه جيشه، فهاجم النورمان وأغرق بعض سفنهم وأحرق خيامهم وأنزل بهم الهزيمة. وهكذا بقى العدو بين قتل وأغرق وأسر، فاضطر النورمان إلى الإقلاع بسفنهم فوراً، وعادوا خائبين خاسرين[٣].

عموري الأول والباطنية:

توفى عمورى الأول ملك بيت المقدس دون أن يحقق آماله فى احتلال مصر وتمزيق الوحدة الإسلامية بين مصر والشام. وكانت السنوات الأخيرة من حياته حافلة بالنشاط الموجه نحو تحطيم وحدة المسلمين من ناحية وتدعيم مركز الصليبيين من ناحية أخرى. وساعد عمورى على المضى فى سياسته ما كان هناك من انقسامات داخلية فى العالم الإسلامى، وسعى بعض الأفراد والجماعات للحصول على مكاسب شخصية عن طريق الاستعانة بالصليبيين[٤].

ولم يكن عمارة اليمنى وأعوانه من الشيعة فى مصر هم وحدهم الذين تآمروا مع عمورى الأول، وإنما لجأ أيضاً بعض غلاة الباطنية فى الشام إلى الاستعانة به سنة

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٨٠، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١ ق ٢ ص ٥٩٨-٦٠٠ .

(٢) المقريزى: السلوك، ج١، ص ٥٦، ابن واصل: مفرج الكروب ج٢ ص ١١-١٦ .

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١ ق٢، ص ٥٩٨-٦٠٠ .

ابن الأثير: الكامل، حوادث ٥٧٠هـ.

(4) Grousset: Hist. des Croisades, II, p. 598.

١١٧٣ . وكانت هذه الطائفة- التى بلغت درجة خطيرة من الانحلال الخلقى والتى ذاق الصليبيون والمسلمون جميعا من جرائمها الشىء الكثير- تملك عدة حصون مهمة فى بلاد الشام، مثل القدموس والعليقة والكهف والخوابى ومصياف وغيرها[١]. وقد بلغ من انحلال الباطنية أن المؤرخ وليم الصورى ذكر أنهم أعلنوا سنة ١١٧٣ عزمهم على الارتداد عن الإسلام واعتناق المسيحية، ولو أننا لا نميل إلى تصديق هذا الرأى. وكان مقدم الباطنية بعد سنة ١١٦٩ هو راشد الدين سنان- الملقب بالشيخ أو شيخ الجبل- وهو الذى نظم تلك الهيئة وأعطاها طابعها المفزع[٢].

ومن الثابت أن الباطنية فزعوا لسقوط الخلافة الفاطمية، وانتصار المذهب السنى فى مصر، وأحسوا بالخطر الذى هددهم بالشام، فطلبوا مساعدة الصليبيين بعد أن اعتقدوا أن الصليبيين أقل خطراً عليهم وعلى كيانهم من نور الدين محمود. ولكن الباطنية طلبوا ثمناً لتحالفهم مع الصليبيين ضد نور الدين، هو إعفاؤهم من الضريبة التى فرضها عليهم الداوية، والتى بلغت ألفى دينار. وكان أن رحب الملك عمورى الأول ترحيباً بالغاً بذلك العرض الذى تقدم به الإسماعيلية سنة ١١٧٣ فى أشد الأوقات حرجاً بالنسبة للصليبيين، وأدرك أن طائفة الحشيشية بتنظيمها السرى المحكم وخبرتها التامة بأوضاع البلدان الإسلامية وحكامها، يمكن أن تكون ذات فائدة عظمى للصليبيين، لذلك كتب عمورى الأول إلى الداوية يأمرهم بقبول عرض الباطنية وإعفائهم من الضريبة المفروضة عليهم[٣].

ولكن العداء القديم بين الداوية والباطنية، وغضب الداوية لحرمانهم من الضريبة التى اعتادوا جبايتها، دفع فرسان الداوية إلى قتل رسل الباطنية، مما أثار غضب عمورى الأول، وأثار نزاعاً خطيراً بينه وبين الداوية، استوجب رفعه إلى البابا للفصل فيه[٤].

---

(1) Defremery: Recherches et Novelles Recherches sur Les Bathiniens ou Ismaeliens de Syrie.

(٢) يقول المقريزى عن راشد الدين سنان هذا أنه صاحب قلاع الإسماعيلية ومقدم الباطنية واليه تنسب الطائفة السنانية (السلوك: ج١ ص ٦٢).

(3) Guillaume de Tyr. p. 997.

(4) Stanislas Guyard: Un Grand maitre des Assassins au temps de Saladin, p. p. 324 Fol.

الفصل الثاني
صلاح الدين وتأمين الوحدة الإسلامية

بلدوين الرابع ملك بيت المقدس:

توفى عمورى الأول- كما سبق أن أشرنا- فى ١١ يوليو سنة ١١٧٤ أى بعد وفاة نور الدين محمود بشهرين تقريباً، فجاءت وفاته فى ذلك الوقت خسارة كبرى للصليبيين، لأنه بحكم خبرته وتجاربه كان أكثر زعماء الصليبيين قدرة على الاستفادة من الظروف التى أحاطت بالمسلمين عند وفاة نور الدين.

وقد خلف عمورى الأول فى عرش بيت المقدس ابنه البكر بلدوين الرابع، الذى كان فى الثالثة عشرة من عمره عندما تولى العرش، ولكنه امتاز بمواهب عالية ومقدرة كبيرة وحيوية فائقة، على الرغم من أنه أصيب فى صغره بمرض الجذام مما أعطاه فى التاريخ لقب بلدوين المجذوم[١]. وقد حكم بلدوين الرابع مملكة بيت المقدس الصليبية من سنة ١١٧٤ حتى سنة ١١٨٥، فتولى الحكم وهو فى الثالثة عشرة من عمره ومات فى الرابعة والعشرين. ومع ذلك فإن هذه الفترة القصيرة التى حكم فيها جاءت مليئة بالأحداث الجسام. ومهما يكن من أمر، فإنه تكفى الإشارة الآن إلى أن بلدوين الرابع قام بدوره فى مواجهة صلاح الدين بشجاعة نادرة، وهو المارد الجبار الذى انطلق عقب وفاة نور الدين ليقوم بدور مرموق فى ملحمة الجهاد.

ويبدو أن بلدوين الرابع كان مضطراً فى كثير من الحالات- بسبب صغر سنه ومرضه- إلى عدم تركيز السلطة فى يده، وإلى ترك الكثير منها لأمراء المملكة، مما جعل مملكة بيت المقدس تبدو فى ذلك العهد وقد غلبت عليها مسحة من الفوضى الإقطاعية بسبب النزاع بين أمرائها وتنافسهم حول النفوذ والسلطان[٢]. وقد بدأت الصفحة الأولى فى ذلك النزاع والتنافس بسبب الوصاية على الملك القاصر، حتى استطاع ميلون دى بلانسى Milon de Plancy الذى كان صديقاً حميما لعمورى الأول- أن يستأثر بشئون الحكم، بوصفه وصياً على بلدوين الرابع. ولم يلبث ميلون أن

---

(1) Guillaume de Tyr. p. 1004-1005 &

ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٨٤ .

(2) Setton: op. cit, I. p. 591.

قبض على شئون الحكم بيد من حديد، وحرص على استئناف سياسة عمورى الأول الداخلية والخارجية، فلم يستطع أحد من الأمراء الوقوف فى وجهه أو معارضته[١].

على أنه لم يلبث أن ظهر معارض جديد للوصى ميلون فى شخص ريموند الثالث أمير طرابلس الذى ظل أسيراً لدى نور الدين من سنة ١١٦٤ حتى سنة ١١٧٢، ثم خرج من الأسر ليستغل محبة الأمراء الصليبيين بالشام له فى المطالبة بأحقيته فى الوصاية على ملك بيت المقدس بدلا من ميلون. وسرعان ما نجحت المؤامرة التى دبرت ضد ميلون دى بلانسى والتى انتهت بمقتله فى أواخر سنة ١١٧٤، وعندئذ قام ريموند الثالث بالوصاية على مملكة بيت المقدس وملكها الصغير[٢]. ولم يلبث أن غدا ريموند الثالث أقوى شخصية فى بلاد الشام الصليبية نظراً لقرابته من ملك بيت المقدس من ناحية، ولنجاحه فى ضم طبرية وإقليم الجليل إلى أملاكه- بعد زواجه من وريثته- من ناحية أخرى. وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ صلاح الدين يتأهب للقيام بدوره كاملا على مسرح الشام.

الموقف في الشام بعد وفاة نور الدين:

أثارت وفاة نور الدين محمود فى قلعة دمشق فى ١٥ مايو سنة ١١٧٤ مشكلة تقسيم دولته الواسعة بين ورثته، مما هدد الوحدة الإسلامية التى أجهد نفسه فى بنائها. وكان الوريث الأول لنور الدين- الذى ورثه فى ملك حلب ودمشق- هو ابنه الملك الصالح إسماعيل الذى لم يتجاوز سنه عند وفاة أبيه الحادية عشرة.

وعلى أنه وجد الملك الصالح إسماعيل هذا ابن عم- هو سيف الدين غازى الثانى بن قطب الدين مودود بن زنكى- أتابك الموصل الذى فرح بوفاة عمه نور الدين، وأظهر الفسق، وأمر بإعادة المكوس، وتظاهر بالمنكرات[٣]. ولا أدل على قصر تفكير سيف الدين هذا من أنه بدلا من أن يعمل على الاحتفاظ بوحدة الدولة النورية، لجأ إلى تفتيتها، فلم يكد يعلم بوفاة عمه حتى أسرع إلى احتلال نصيبين والخابور وحران والرها وسروج والرقة وغيرها من الأماكن التى كانت تابعة لنور الدين فى الجزيرة[٤].

---

(1) Guillaume de Tyr. p. 1007-1009

.(2) Walter Beasnt, Palmer: Jerusalem, p. 374.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢ ص ٩ .

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٩هـ.

ثم إن النزاع لم يلبث أن نشب كذلك بين أقوى اثنين من أمراء نور الدين، وهما الأمير شمس الدين على ابن الداية، والأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم، وكان سبب النزاع بين هذين الأميرين هو الوصاية على الملك الصالح إسماعيل. فاحتل ابن الداية قلعة حلب بوصفها مركز الدولة النورية، فى حين تحفظ ابن المقدم على شخص الملك الصالح إسماعيل فى دمشق[١].

أما صلاح الدين فقد صار لا سلطان لأحد عليه بعد وفاة نور الدين. وقد أشار القاضى كمال الدين الشهر زورى على الأمير ابن المقدم وعلى بقية الأمراء بالرجوع الى رأى صلاح الدين فى مصر لحل مشاكلهم، والانقياد له، وقال لهم المصلحة أن يشاور (صلاح الدين) فى الذى نفعله، ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا لانفراده بملك ديار مصر. ولكنهم أبوا أن يأخذوا بذلك الرأى وخافوا صلاح الدين[٢]. والواقع أنه كان من الممكن أن يتدخل صلاح الدين فى شئون الشام عقب وفاة نور الدين مباشرة، لولا وصول الأسطول النورمانى إلى الإسكندرية- كما سبق أن أشرنا- مما أخره بعض الوقت، فاكتفى بأن أرسل إلى دمشق معلناً حقه فى الوصاية على الصالح إسماعيل وأملاك نور الدين، ولو لم يعجل عليه (نور الدين) الموت، لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سواى[٣].

وقد حاول عمورى الأول ملك بيت المقدس أن يستغل تلك الظروف التى أضحت فيها دولة نور الدين ليسترد بانياس، ولكن المدينة صمدت لحصاره أسبوعين، فى الوقت الذى خرج الأمير ابن المقدم على رأس الجيش الدمشقى للدفاع عن المدينة[٤]. على أن ابن المقدم رفض أن يحارب الصليبيين وراسلهم ولاطفهم، واكتفى بأن عرض عليهم ترك بانياس مقابل مبلغ كبير من المال وإطلاق سراح أسرى الصليبيين فى دمشق، ثم محالفة الصليبيين ضد صلاح الدين وأطماعه[٥]. ولم ينس ابن المقدم فى عرضه هذا أن يلوح للصليبيين بأنه سيضطر إلى الاستعانة بسيف الدين

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣ .

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر ١٦٣ .

(4) Michaud: op. cit, II. P. 248.

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١ ق٢، ص ٥٩٤ .

فى الموصل وصلاح الدين فى مصر إن لم يتركوا حصار بانياس، مما يعرضهم للهجوم من كل ناحية. كذلك لفت ابن المقدم نظر الصليبيين إلى أن صلاح الدين كان يخشى المجئ إلى الشام خوفاً من الاصطدام مع نور الدين، ولكن الآن زال ذلك الخوف، وإذا طالبناه إلى بلادكم لا يمتنع(١). ويبدو أن هذا الإنذار كان له أثره فى نفوس الصليبيين، فوافق عمورى على عقد الصلح ورفع الحصار عن بانياس، وارتد عائداً إلى بيت المقدس(٢). وعندما علم صلاح الدين بسلوك ابن المقدم استاء واستصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم(٣). ثم إن صلاح الدين أدرك أن الاتفاق والصلح مع الصليبيين إنما موجهان ضده، فأرسل إلى الملك الصالح إسماعيل وأمراء بلاطه يقبح عليهم ما فعلوه(٤).

وهكذا أدى تفكك دولة نور الدين إلى إتاحة الفرصة لعمورى الأول للقيام بالدور نفسه الذى قام به أبوه الملك فولك، وهو استغلال دمشق لضرب القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى. على أن عمورى لم يستطع المضى فى تلك السياسة بسبب وفاته فى ١١ يوليو سنة ١١٧٤، مما أضاع على الصليبيين فرصة طيبة لاستغلال الانقسامات التى حدثت بين أمراء الدولة النورية عقب وفاة نور الدين(٥).

وزاد من حدة تلك الانقسامات أنها لم تقتصر على ما كان هناك من أطماع سيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل، أو ما نشأ من تنافس بين ابن المقدم فى دمشق وابن الداية فى حلب، بل ظهر أيضاً طرف جديد فى النزاع هو سعد الدين كمشتكين الخادم، وهو أحد أمراء نور الدين، وكان قد نقل الملك الصالح إسماعيل نور الدين من دمشق إلى حلب، بوصفها القاعدة الرئيسة للدولة (صيف ١١٧٤) ولم يلبث سعد الدين كمشتكين أن قبض على شمس الدين ابن الداية واعتقله وانفرد هو بأتابكية الملك الصالح إسماعيل واستبد بتدبير أموره(٦).

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٧ .

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٩هـ.

Guillaume de Tyr. p. p. 1000-1001 &

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١ ق٢، ص ٥٩٤ .

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٨ .

(5) Grousset: op. cit, II, p. 620.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٨-١٠ .

ولاشك أن ذلك الموقف الجديد أثار مخاوف ابن المقدم وبقية الأمراء فى دمشق، فاستعانوا بسيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل، وعرضوا عليه تسليمه دمشق. وشاءت الأقدار أن يتراخى سيف الدين فى تلبية تلك الدعوة، مما جعل ابن المقدم وشركاءه يتخذون الخطوة الحاسمة فى تاريخ الحروب الصليبية ومستقبل حركة الجهاد، وهى دعوة صلاح الدين نفسه ليتسلم دمشق(١).

صلاح الدين في الشام:

ولم تكن الدعوة غريبة على صلاح الدين، الذى أخذ يعد نفسه- منذ وفاة نور الدين- للقيام بالوصاية على دولة سيده نور الدين وسياسته فى الجهاد، وحجته فى ذلك أن الملك الصالح صبى لايستقل بالأمر ولا ينهض بأعباء الملك(٢).

وقد أرسل صلاح الدين- عندما علم باختلال الأمور فى الدولة النورية- إلى أمراء نور الدين بالشام يقول لو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه ثقته بى، لسلم إليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته. وأراكم قد تفردتم بمولاى وابن مولاى دونى، وسوف أصل إلى خدمته وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده(٣).

وهكذا خرج صلاح الدين على رأس سبعمائة فارس، بعد أن استخلف على ديار مصر أخاه الملك العادل، فوصل دمشق فى أواخر نوفمبر سنة ١١٧٤ دون أن يصطدم- لحسن حظه- بالصليبيين أثناء الطريق(٤).

وهنا نؤكد أن خروج صلاح الدين إلى الشام سنة ١١٧٤ لم يكن لمجرد الرغبة فى تحقيق أطماع ومكاسب شخصية، وإنما ظهر الاتجاه واضحاً فى سياسته نحو إعادة تحقيق الوحدة الإسلامية، والقضاء على عوامل الفرقة التى ظهرت فى الدولة النورية، بقصد مواجهة الصليبيين صفاً واحداً متراصاً، بدليل ما صرح به صلاح الدين من عبارات عند خروجه إلى الشام(٥).

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٠هـ.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص٢٤.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص٧.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ص٥٨.

(٥) يذكر ابن واصل أن صلاح الدين قال: لو استمرت ولاية هؤلاء القوم تفرقت الكلمة وطمع الكفار في البلاد. كما قال إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم. (مفرج الكروب، ج٢، ص ١٨).

وكان أن استقبل صلاح الدين فى دمشق استقبالاً طيباً، وقضى ليلة وصوله فى دار أبيه المعروفة بدار العقيقى. وفى الصباح التالى فتح له ابن المقدم أبواب قلعة المدينة وسلمها إياه. ولكن يلاحظ أنه إذا كان صلاح الدين قد استولى على دمشق من غير مدافع وإذا كان الدماشقة قد رحبوا بصلاح الدين كراهية فى حكام حلب ونكاية فيهم، إلا أن صلاح الدين ظل فى ذلك الدور متظاهراً بولائه للصالح إسماعيل بن نور الدين، وقال أنا مملوك الصالح، وما جئت إلا لأنصره وأخدمه وأعيد البلاد التى أخذت منه إليه. وكان يخطب له فى بلاده كلها... والخطبة والسكة (النقود) باسمه[١].

هذا إلى أن صلاح الدين أعلن أنه ما حضر إلى الشام إلا لحماية الصالح من خطر الصليبيين، ولاسترداد أملاك الصالح التى استولى عليها أتابك الموصل فى الجزيرة، وتحت هذا الستار– ستار استرداد حقوق الصالح إسماعيل المسلوبة والدفاع عنه وتربيته وتدبير دولته– أخذ صلاح الدين ينفذ سياسته فى إعادة الجبهة الإسلامية المتحدة إلى سابق عهدها بحيث تمتد من شمال العراق إلى الشام فمصر، ليتمكن بعد ذلك من بداية حركة الجهاد ضد الصليبيين، والمسلمون أشد ما يكونون قوة وتماسكا. ثم إن صلاح الدين استمال الدماشقة بتوزيع الأموال والهبات فأنفق فى الناس مالا جزيلا، وأمر فنودى بإطابة النفوس وإزالة المكوس وإبطال ما أحدث بعد نور الدين محمود من القبائح والمنكرات والضرائب[٢]. وبعد أن عين صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغدكين بن أيوب[٣]، حاكماً على دمشق باسم الصالح إسماعيل، اتجه ليعاقب كمشتكين فى حلب[٤].

وقد بدأ صلاح الدين بالاستيلاء على مدينة حمص فى ١٠ سبتمبر سنة ١١٧٤ من حكامها النوريين، ثم على مدينة حماه فى ٢٨ من ذلك الشهر، وبذلك لم يحل آخر ديسمبر إلا وكان صلاح الدين قد لاح على مشارف حلب نفسها، وكانت حلب قاومت ورفضت الاستسلام لصلاح الدين، وفى الوقت نفسه لم يتردد أصحاب كمشتكين داخلها فى الاستعانة بالباطنية والصليبيين[٥]. ولم يلبث سنان– مقدم الإسماعيلية الباطنية – أن أرسل إلى معسكر

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٠هـ.

(٢) المقريزي: السلوك ج١ ص ٥٨ .

(٣) كذا في ابن الأثير، وفي المقريزي ظهير الإسلام طغتكين بن أيوب، والأصوب ما ذكره ابن واصل ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب. (مفرج الكروب ج٢ ص ٢٠، زامباور: معجم الأنساب، ص ١٥٢)

(٤) ابد شداد: النوادر السلطانية ص ٨٢ .

ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٠هـ.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢ ص ٢٤ .

صلاح الدين جماعة من الفدائيين لقتله. وعندما اقترب أولئك الفداوية فعلا من صلاح الدين وأوشكوا على تنفيذ مؤامرتهم، انكشف أمرهم [١]. وعندئذ أرسل الحلبيون إلى ريموند الثالث أمير طرابلس الصليبي يطلبون منه المساعدة ويعدونه بثمن مغر إذا هو نجح في تخليص حلب من حصار صلاح الدين[٢]. ويذكر ابن الأثير أن أمراء حلب طلبوا من أمير طرابلس أن يهاجم بعض المراكز التي بيد صلاح الدين حتى يضطروه إلى رفع الحصار عن حلب[٣].

وكان ريموند الثالث أمير طرابلس- والوصي أيضاً على عرض مملكة بيت المقدس- يدرك تماماً أهمية تحالف الصليبيين مع حلب، كما أدرك خطورة قيام وحدة بين القاهرة ودمشق وحلب. لذلك أسرع ريموند الثالث إلى نجدة حلب والقيام بدور حامي الصالح إسماعيل بن نور الدين، لا حباً له وخدمة لحلب- كما يقول المؤرخ الصليبي وليم الصوري- وإنما ليسد الطريق في وجه صلاح الدين[٤]. وهكذا أدرك الصليبيون أن استقلال حلب وبقاءها في يد البيت الزنكي هو الضمان الوحيد لمنع قيام وحدة إسلامية تمتد من النيل إلى الفرات. ويروى صاحب كتاب الروضتين أن ريموند الثالث حاول الالتجاء إلى الوسائل السياسية ومفاوضة صلاح الدين حول مسألة حلب، فأرسل إليه يرغبه في الصلح، ويلوح به بأن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة. ولكن صلاح الدين لم يخش التهديد ورد قائلا لست ممن يرهب بتألب الفرنج، ثم رد رداً عملياً بأن أرسل قواته للإغارة على إمارة أنطاكية فغنموا غنيمة حسنة وعادوا[٥].

لذلك لم يجد ريموند وسيلة لصرف صلاح الدين عن حلب سوى مهاجمة حمص التي كان صلاح الدين قد استولى عليها منذ أكد قريب[٦]. وفعلا نجحت الخطة، فاضطر صلاح الدين في أوائل فبراير سنة ١١٧٥ إلى ترك حلب والإسراع لنجدة حمص، وفي الحال انصرف ريموند الثالث من حمص إلى حصن الأكراد بعد

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٠هـ. Lewis: Saladin and the Assassins &

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، جـ١ ق٢، ص ٦١١ .

(٣) فأرسل إليه من بحلب يطلبون منه أن يقصد بعض البلاد التي بيد صلاح الدين ليرجع عنهم، فسار إلي حمص ونازلها. (ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٠هـ) .

(4) Guillaume de Tyr. p. 1014.

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، جـ١ ق٢، ص ٦١١ .

(٦) المقريزي: السلوك، جـ١ ص ٥٩ .

أن حقق غرضه[١]. وقد عبر صلاح الدين عن ذلك الموقف فى خطاب له أرسله إلى أخيه العادل، وجاء فيه أن الحلبيين قد استنجدوا بصلبانهم واستطالوا على الإسلام بعدوانهم[٢]. أما كمشتكين حاكم حلب فقد عبر عن اعترافه بالجميل للصليبيين بإطلاق سراح من كان فى قلعة حلب من أسرى الصليبيين، وعلى رأسهم رينو دى شاتيون (أرناط) وجوسلين الثانى دى كورتناى[٣].

على أنه ثمة أهمية خاصة لهجوم صلاح الدين على حلب، هى أن الزنكيين أدركوا أخيراً خطر صلاح الدين عليهم، وضرورة اتحادهم لمواجهة ذلك الخطر المشترك. لذلك أرسل سيف الدين غازى الثانى- أتابك الموصل- جيشاً إلى الشام فى ربيع سنة ١١٧٥ بقيادة أخيه عز الدين. وبعد أن انضم إليه الجيش الحلبى زحف الجميع على حماه، وعندئذ عرض صلاح الدين على الزنكيين أن يترك لهم حمص وحماه، على أن يقنع هو بدمشق نائباً عن الملك الصالح منتمياً إليه[٤].

ولكن الزنكيين كانوا يأملوا فى استرداد دمشق عقب عودته إلى مصر، فرفضوا ذلك العرض. وهكذا دارت معركة بين الجانبين عند قرون حماه فى أواخر ابريل سنة ١١٧٥، انتهت بانتصار صلاح الدين وغنم كل ما معهم[٥]. ولم يضع صلاح الدين ثمرة انتصاره، وإنما زحف مباشرة على حلب حيث قطع الخطبة للصالح إسماعيل وأزال اسمه عن السكة، فبعث أهل الصالح يلتمسون منه الصلح فأجابهم إلى ذلك[٦]. أما شروط الصلح فقد قضت بأن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها، ثم استزاد صلاح الدين منهم المعرة وكفر طاب كما استولى على بعرين (بارين) بعد ذلك[٧].

وهكذا ساعد الانتصار الذى أحرزه صلاح الدين فى قرون حماه على كشف النقاب عن حقيقة موقفه، فلم يكتف بقطع الخطبة للصالح إسماعيل وإزالة اسمه عن

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٠هـ. أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١ ق٢، ص ٦١١ .

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١ ق٢، ص ٦١٤ .

(3) Schlumberger: Renaud de Chatillon, p. 144.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٢ .

(٥) المقريزي: السلوك ج١ ص ٥٩ .

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٢ . ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٠هـ.

(٧) ابن الأثير: الكامل- حوادث سنة ٥٧٠هـ. المقريزي: السلوك، ج١ ص٥٩، ابن شداد: النوادر ص ٨٤ .

السكة، وإنما تلقب أيضاً بلقب ملك مصر والشام[١]. وقد أقر الخليفة العباسى فى بغداد الوضع الجديد لصلاح الدين، وأرسل إليه الخلع فوصلته فى شهر مايو وهو بحماه[٢].

على أنه إذا كان الصالح إسماعيل قد قبل- بحكم صغر سنه- سياسة الأمر الواقع، فإن ابن عمه سيف الدين غازى بن مودود أتابك الموصل، لم يستطع السكوت عما فعله صلاح الدين، لذلك أرسل غازى إلى الحلبيين يعتب عليهم ويوبخهم ونسبهم إلى العجلة فى ذلك (فى الصلح مع صلاح الدين) وإلى الضعف. كما حرضهم على نقض الصلح ومحاربة صلاح الدين[٣]. كذلك أرسل سفارة إلى ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصى على بيت المقدس يطلب محالفته ومساعدته فى الخطوة التالية التى سيقوم بها الزنكيون ضد صلاح الدين. ولكى يثبت حسن نواياه، أرسل إلى ريموند جميع من لديه من أسرى الصليبيين (مايو سنة ١١٧٥)، وبذلك عادت سياسة أنر- الخاصة بالتحالف مع الصليبيين - إلى الظهور، مما هدد الجبهة الإسلامية تهديداً خطيراً[٤].

والواقع أن الصليبيين لم يكفوا من جانبهم عن مهاجمة صلاح الدين فى ذلك الدور، وإن كانت هجماتهم ضعيفة الأثر محدودة النطاق بسبب اضطراب أحوالهم الداخلية. من ذلك ما قام به بلدوين الرابع- ملك بيت المقدس الصغير- من غزو إقليم دمشق سنة ١١٧٥، منتهزاً فرصة انشغال صلاح الدين فى شمال الشام[٥]. ومع ذلك فقد تذرع صلاح الدين بالصبر تجاه الصليبيين، وجدد فى أغسطس سنة ١١٧٥ الهدنة التى عقدها مع مملكة بيت المقدس، وذلك حتى لا يحارب فى جبهتين فى وقت واحد، الزنكيون فى الشمال والشرق والصليبيون فى الجنوب والغرب[٦].

وفى تلك الأثناء كان الزنكيون قد استعدوا وحشدوا كل قواهم للقيام بمحاولة أخيرة لطرد صلاح الدين من دمشق. ولم يلبث سيف الدين غازى الثانى أن جمع فى

---

(١) يلاحظ أن صلاح الدين لم يتخذ مطلقاً لقب سلطان، وإن كان بعض المؤرخين مثل ابن شداد وابن واصل قد حرصوا على إضفاء هذا اللقب عليه تكريماً وتقديراً له انظر . .(Wiet: op. cit. p. p. 365-366)

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٠هـ.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٦ .

(4) Guillaume de Tyr. p. 1019.

(5) Idem, p. p. 1020-1201.

(٦) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧١هـ. المقريزى: السلوك ج١ ص ٦٠ .

ربيع سنة ١١٧٦ أمراء الجزيرة وديار بكر- وبخاصة أمراء حصن كيف وماردين من الأراتقة- ثم انضم إليهم كمشتكين على رأس القوات الحلبية، وزحف الجميع على حلب. وعند وصول سيف الدين غازى إلى حلب، خرج إليه ابن عمه الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، فالتقاه قريب القلعة، واعتنقه وضمه إليه وبكى[1]. مع أن الأخبار بلغت صلاح الدين أن الحلبيين والمواصلة وحلفاءهم يبلغون عشرين ألف فارس، إلا أن صلاح الدين لم ييأس واستدعى فى الحال عساكره من مصر، ثم تمكن من إنزال هزيمة ساحقة بالحلفاء عند تل السلطان- على الطريق بين حلب وحماه- فى ٢٢ أبريل سنة ١١٧٦[2]. وفى تلك الموقعة هلك من الحلبيين والمواصلة جماعة كثيرة، واستولى صلاح الدين على أموال وذخائر وفرش وأطعمة وتحف تجل عن الوصف[3]. ثم أتبع صلاح الدين ذلك النصر بقطع طريق المواصلات بين حلب والموصل، فاستولى على قلعتى بزاعة ومنبج إلى الشمال الشرقى من حلب فى مايو سنة ١١٧٦ . ولكى يحكم صلاح الدين حصاره حول حلب استولى أيضاً على قلعة عزاز فى يونيه سنة ١١٧٦، ثم شرع فى حصار حلب مرة أخرى[4]. على أن صلاح الدين لم يلبث أن قبل الصلح أمام عناد حلب وأهلها، ورضى فى ذلك الصلح بأن يرد عزاز إلى الصالح إسماعيل[5].

أما الباطنية، فلم يكونوا أقل من الصليبيين ذعراً من نشاط صلاح الدين وانتصاراته، وأخذوا يحاولون المرة تلو الأخرى قتل صلاح الدين. وإذا كانت محاولتهم الأولى فى هذا الصدد قد باءت بالفشل، فإنهم لم يلبثوا أن أعادوا الكرة فى صيف سنة ١١٧٦، إذ تسلل أحد الفدائيين من الحشيشية إلى معسكر صلاح الدين أثناء

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٧ .

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٨٥-٨٦ .

ابن الاثير: الكامل، سنة ٥٧١هـ.

(٣) المقريزي: السلوك ج١ ص ٦١ .

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٤٤-٤٦ .

(٥) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧١هـ.

ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٨٧ .

وقد جاء في هذه المصادر أنه عقب توقيع اتفاقية الصلح السابقة، جاءت أخت الصالح إسماعيل الطفلة لتزور صلاح الدين في معسكره، فتلطف معها. وسألها عن الهدية التي تطلبها فأجابته. أريد قلعة عزاز وعندئذ رد صلاح الدين الحصن فوراً لأخيها.

حصاره عزاز، وطعنه بسكين فى رأسه فجرحه، ولكن شاء حسن الحظ أن تكون الطعنات غير قاتلة بسبب الخوذة (المغفر) الحديدية التى كان صلاح الدين يضعها على رأسه تحت القلنسوة. وقتل الفدائى وزملاؤه(١). وكان لابد لصلاح الدين من أن يثأر لنفسه من تلك الطائفة الهدامة، فلم يكد يفرغ من عقد الصلح مع الحلبيين حتى اتجه لحصار مصياف بلد الباطنية، ليقابلهم على ما فعلوه من الوثوب عليه(٢). وكان أن نصب صلاح الدين المجانيق على حصن مصياف (مصياب) و أوسعهم قتلا وأسراً وساق أبقارهم وخرب ديارهم، حتى شفع فيهم صاحب حماه وهو شهاب الدين محمود الحارمى، خال صلاح الدين. وقد فسر ابن واصل هذه الشفاعة فى ضوء الجيرة بين شهاب الدين والباطنية، فى حين يروى ابن الأثير أن راشد الدين سنان مقدم الإسماعيلية أرسل إلى شهاب الدين الحارمى يطلب منه أن يشفع فيهم، ويقول له إن لم نفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين! ويبدو أن هذه الرسالة أثارت الرعب فى قلب شهاب الدين الذى أسرع إلى صلاح الدين وأقنعه برفع الحصار عن حصن مصياف(٣).

وفى تلك الأثناء لم يتقاعس الصليبيون عن مهاجمة صلاح الدين. فعندما شرع صلاح الدين فى حصار حلب عقب انتصاره على الزنكيين فى موقعه تل السلطان فى صيف سنة ١١٧٦، قام بلدوين الرابع- رغم صغر سنه ومرضه- بمحاولة لمنع صلاح الدين من الاستيلاء على حلب، فأغار- بالاشتراك مع ريموند الثالث- على إقليم البقاع(٤). وقد خرج شمس الدولة توران شاه- أخو صلاح الدين ونائبه فى دمشق- لرد الصليبيين عن بعلبك، فأوقع بهم الهزيمة عند عين الجر(٥). ولم يلبث

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٤٤، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ص ٦٥٨، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ٢٧، المقريزي: السلوك، ج١ ص ٦١ .

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص ٤٧ . وكانت مصياف المركز الرئيس للدعوة الإسماعيلية في الشام. وأهم قلاع الباطنية الحشيشية، وفيها يقيم شيخهم، ويتلقي الفدائيون تدريباتهم وترسم خططهم- انظر (الانصاري الدمشقي: نخبة الدهر ص ٢٠٨).

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٢هـ.

(٤) المقريزي: السلوك ج١ ص ٦٣ . & Guillaume de Tyr. p. p. 1022

(٥) المقريزي: السلوك ج١ ص ٦٣ .

ويلاحظ أن المصادر الصليبية ذكرت أن الصليبيين هم الذين انتصروا في عين الجر، مما يدل علي أن هذه الموقعة كانت غير حاسمة ولم يتغلب فيها أحد الطرفين علي خصمه بشكل ظاهر. انظر : Guillaume de Tyr. p. 1032

الصليبيون أن ارتدوا بعد ذلك بسرعة عندما علموا باقتراب صلاح الدين. على أن صلاح الدين لم يشأ أن يتعقبهم، وإنما فضل العودة إلى مصر تاركاً أخاه توران شاه فى دمشق، فوصل القاهرة فى نهاية ديسمبر سنة ١١٧٦[١].

وجدير بالذكر أنه قبل ان يعود صلاح الدين الى مصر فى تلك السنة، لجأ إلى الزواج من عصمة الدين خاتون ابنة معين الدين أنر وأرملة نور الدين محمود. وقد أشارت المراجع إلى أن صلاح الدين اتخذ هذه الخطوة حفظاً لحرمتها وصيانتها وعصمتها[٢]. غير أننا نرى أن صلاح الدين إنما قصد من الزواج من أرملة سيده نور الدين أن يمكن لنفسه، حتى يظهر فى صورة وريث نور الدين من ناحية، وليقوى الرابطة بين شخصه وبيت نور الدين من ناحية أخرى، مما يساعده على تحقيق مشاريعه السياسية فى المستقبل. ولم يكن صلاح الدين مبتدعا فى ذلك الزواج السياسى؛ إذ سبق أن ذكرنا كيف لجأ عماد الدين زنكى إلى الزواج سنة ١١٣٨ من صفوة الملك زمرد خاتون أرملة بورى أتابك دمشق، لأنه ظن أنه يملك البلاد بالاتصال بها[٣].

وخلاصة القول، أن صلاح الدين أخذ فى ذلك الدور يبذل كل ما فى وسعه لمقاومة الزنكيين والباطنية والصليبيين وهى القوى الثلاث التى تحالفت ضده لتحول دون تحقيق الوحدة الإسلامية بين العراق والشام ومصر مما يهدد الحلفاء الثلاثة جميعاً.

الحملة الصليبية الفلمنكية سنة ١١٧٧:

لم يكن بلدوين الرابع ملك بيت المقدس الشخص الذى يمثل أمل المستقبل بالنسبة للصليبيين، نظراً لمرضه الذى أخذ يتفاقم خطورة يوماً بعد آخر، مما حال بينه وبين الزواج من جهة، وأثار مشكلة وراثة عرش بيت المقدس بعد موته المرتقب من جهة أخرى. وإذا كان ريموند الثالث أمير طرابلس قد امتلك من الصفات ما يؤهله لحمل تلك التركة الثقيلة والقيام بأعباء مملكة بيت المقدس والصليبيين فى الشام، إلا أن ريموند- رغم قرابته إلى بلدوين الرابع- كان لا يمكنه أن يلى عرش بيت المقدس وفقاً للقانون الإقطاعى، لأن ترتيبه يأتى الثالث بعد أختى بلدوين، وهما سيبل وإيزابيل[٤].

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٢هـ.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١ ق٢، ص ٦٧٥-٦٧٦ .

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٣٢هـ.

(4) Grousset: op. cit, II, p. 633.

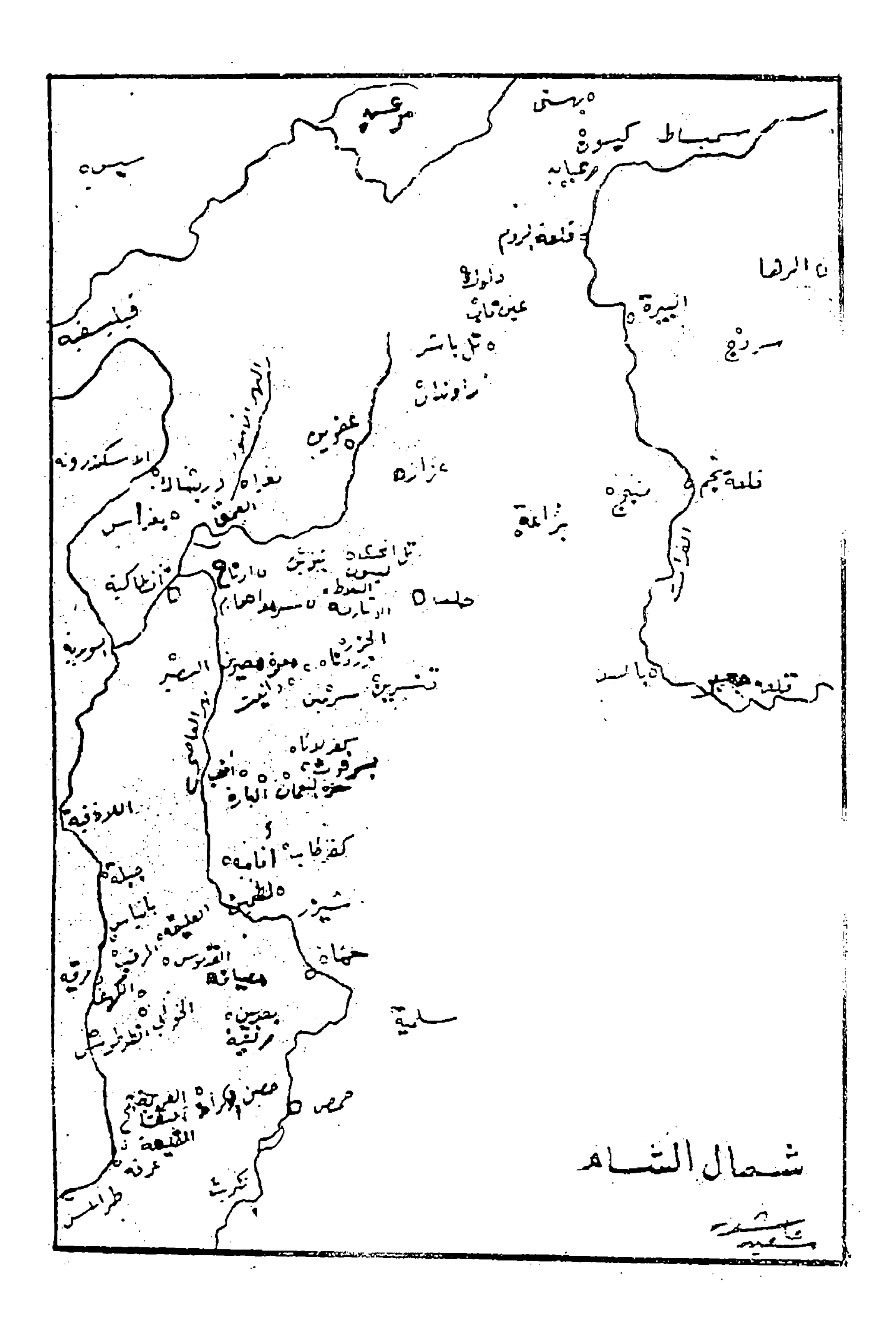
ولما كان زوج سيبل هو الذى سيعتلى عرش مملكة بيت المقدس بعد بلدوين الرابع، وبالتالى سيتوقف على مقدرته مصير المملكة الصليبية، فقد صار من اللازم البحث لتلك الأميرة عن عريس تتحقق فى شخصه آمال الصليبيين بالشام. وكان أن وقع اختيار بلدوين الرابع ومستشاريه على وليم دى مونتفرات الملقب بطويل السيف، فحضر وليم إلى الشام فى أكتوبر سنة ١١٧٦، وتزوج من الأميرة سيبل بعد وصوله بأربعين يوما[١]. على أنه لم يكد يمر على زواج وليم بضعة أشهر حتى أصيب بحمى الملاريا وتوفى فى عسقلان فى صيف ١١٧٧، وترك أرملته حاملا فى طفل، وهو الذى أصبح بلدوين الخامس فيما بعد[٢]. وهكذا صار على مملكة بيت المقدس أن تمر من جديد بفترة طويلة تحت الوصاية حتى يكبر ملكها الطفل الذى صار مفروضاً أن يلى العرش بعد وفاة خاله المريض الملك بلدوين الرابع.

وفى الوقت الذى قدم إلى مملكة بيت المقدس فيلب الألزاسى كونت فلاندرز (سبتمبر ١١٧٧) على رأس قوة من الفرسان الفلمنكيين، أرسل الإمبراطور البيزنطى سفارة إلى بيت المقدس لتعرض على الملك بلدوين الرابع إحياء فكرة القيام بحملة مشتركة لغزو مصر[٣].

ويبدو أن الإمبراطور البيزنطى أراد أن يقوم بعمل حربى ضد صلاح الدين يعوضه الهزيمة القاسية التى أنزلها به سلاجقة الروم فى العام السابق (سبتمبر ١١٧٦)، والتى قضت على هيبة الإمبراطورية البيزنطية فى آسيا الصغرى فضلا عن بلاد الشام[٤]. ولكى يكسب الإمبراطور مانويل كومنين عرضه بصفة جدية، أرسل إلى عكا أسطولا من سبعين سفينة تحمل قوة كبيرة من المحاربين استعداداً لغزو مصر[٥].

ولما كان بلدوين الرابع مريضاً لا يستطيع المشاركة بنفسه فى الحملة الصليبية البيزنطية على مصر، فقد عرض على فيلب الألزاسى تعيينه وصياً على مملكة بيت

(1) Besant & Palmer: Jerusalem, p. 375.
(2) Guillaume de Tyr. p. 1626.
(3) Setton: op. cit. I. p. 595.
(4) Michel Le Syrien, p. 367-372.
(5) Guillaume de Tyr. p. p. 1033.


شمال الشام
بهسنى
مرعش
سميساط
كيسوم
رعبان
قلعة الروم
دلوك
عين تاب
تل باشر
الراوندان
عزاز
البيرة
الرها
سروج
منبج
قلعة نجم
بزاعة
الفرات
بالس
قلعة جعبر
الاسكندرونة
بغراس
انطاكية
ارتاح
حلب
الجزر
نهر العاصي
كفرطاب
البارة
افامية
شيزر
حماة
سلمية
حمص
اللاذقية
جبلة
بانياس
العليقة
القدموس
مصياف
المرقب
الكهف
الخوابي
انطرطوس
رفنية
حصن الأكراد
طرابلس

المقدس، إذا هو قبل قيادة القوات الصليبية المشتركة فى تلك الحملة، ولكن فيلب رفض ذلك العرض مدعياً أنه إنما حضر إلى الأراضى المقدسة للحج ولتزويج الأميرتين سيبل وإيزابيل من بعض أفصاله، لا لتحمل مسئولية القيام بحرب ضد مصر(١). وقد طال الأخذ والرد حول ذلك الموضوع والأسطول البيزنطى رابض فى مياه عكا. وعندئذ يئس المبعوثون البيزنطيون من جدية تفكير الصليبيين فى مشروع غزو مصر، فانسحبوا ومعهم سفنهم إلى البسفور(٢).

ولا شك أن الصليبيين أضاعوا من أيديهم فرصة ذهبية لاتعوض لطعن صلاح الدين فى مصر، فى الوقت الذى لم يثبت أقدامه فى شمال الشام بعد. ثم إن الظروف كلها كانت مواتية لمشاركة الصليبيين بعد أن وضع الإمبراطور مانويل كومنين إمكانات قواته البرية والبحرية لمشاركة الصليبيين فى غزو مصر. وقد أثبتت الأيام أن تلك الفرصة لم تتح للصليبيين بعد ذلك؛ إذ توفى مانويل كومنين بعد ذلك بثلاث سنوات، وخلفه فى عرش الإمبراطورية أباطرة غير أكفاء، نظروا إلى الصليبيين فى الشام على أنهم أعداء لا حلفاء. وهكذا ترك صلاح الدين وشأنه ليدعم سلطانه فى مصر. ويثبت أقدامه فى الشام، ثم ليعصف بالصليبيين جميعاً– بعد ذلك بعشر سنوات– فى موقعة حطين، ويسترد منهم بيت المقدس(٣).

وإذا كان مشروع الحملة البيزنطية على مصر سنة ١١٧٧ قد باء بالفشل، فإن ذلك لم يمنع الصليبيين فى الشام من الاستفادة من الحملة الفلمنكية فى القيام ببعض الأعمال الحربية ضد المسلمين على الحدود الشرقية لإمارتى طرابلس وأنطاكية(٤). وكانت الفرصة مناسبة للصليبيين فى غيبة صلاح الدين الذى كان لا يزال فى مصر. وبعد أن أمد بلدوين الرابع ملك بيت المقدس فيلب الأزاسى بقوة من الفرسان والمشاة، اتجه فيلب فى أواخر أكتوبر سنة ١١٧٧ نحو طرابلس لتنفيذ مشاريع أميرها ريموند الثالث ضد المسلمين(٥). وكان أن أغار الصليبيون على أقاليم حماة وحمص، ثم اتجهوا بعد ذلك لمحاصرة حماة فى منتصف نوفمبر سنة ١١٧٧ ولكنهم فشلوا فى الاستيلاء عليها، وارتدوا خائبين بعد حصار أربعة أيام(٦).

(1) Richard: Le Royaume Latin, p. 56.

(2) Brehier: op. cit, p. 341.

(3) Grousset: op. cit, II, p. p. 644-645.

(4) Stevenson: op. cit. 216.

(5) Guillaume de Tyr. p. 1035-1038.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٦٤، هذا. وقد أطلقت المصادر العربية علي فيلب الألزاسي اسم (إقلندس).

وبعد أن فشل ريموند الثالث أمير طرابلس فى الانتفاع بالحملة الفلمنكية لتحقيق بعض مكاسب على حساب المسلمين. جاء دور إمارة أنطاكية التى طلب أميرها بوهيموند الثالث من فيلب الألزاسى مساعدته أيضاً. وقد حاول أمير أنطاكية أن يستغل تلك القوة الصليبية فى الاستيلاء على قلعة حارم شرقى نهر العاصى، وهى التى كانت باعة عندئذ للزنكيين فى حلب[١]. ومن الواضح أن هذا التفكير من جانب بوهيموند الثالث يدل على عدم سياسة، لأن الحلبيين لم يجدوا حليفاً لهم أمام أطماع صلاح الدين سوى الصليبيين، فكان أحرى بالصليبيين ألا يهاجموا ممتلكات حلب، ويحافظوا على علاقة الود مع الزنكيين فى حلب ليكسبوا ثقتهم ويدعموا الجبهة المعادية لصلاح الدين[٢].

ومهما يكن من أمر، فقد وصل الصليبيون أمام حارم فى نهاية نوفمبر سنة ١١٧٧، وكانوا يأملون فى الاستيلاء على القلعة بسهولة، نظراً لاضطراب علاقاتها مع حلب فى ذلك الوقت، ولكن خاب ظنهم، ذلك أن حارم أظهرت مقاومة باسلة طوال الأشهر الأربعة التى حاصرها فيها الصليبيون[٣]، فى الوقت الذى أخذ الحلبيون يشنون غاراتهم على الصليبيين فى المناطق القريبة. ثم لم يلبث أن حضر صلاح الدين من مصر إلى الشام فى أواخر نوفمبر ليهاجم مملكة بيت المقدس، مما جعل الصليبيين يخشون استنجاد الحلبيين به من ناحية، ويسرعون لنجدة مملكة بيت المقدس من ناحية أخرى[٤]. وهكذا رفع الصليبيون الحصار عن حارم وانسحبوا بعد أن أضاعوا جهداً كبيراً للاستيلاء عليها. ولم يكد يتم جلاء الصليبيين عن حارم حتى سير الملك الصالح إسماعيل جيشاً لحصارها، ولم يستطع أهل حارم فى تلك المرة المقاومة، بعد أن بلغ الجهد منهم لحصار الفرنج وصاروا كأنهم طلائع. وكان أن استولت قوات الملك الصالح على حازم فاستناب بها أحد مماليكه[٥].

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١ ق٢، ص ٧٠٦-٧٠٧.
وكانت حارم إقطاعا لكمشتكين اتابك الملك الصالح إسماعيل. حتي غضب الملك الصالح علي كمشتكين وقتله، وعندئذ امتنع رجاله في حارم عن تسليمها للصالح إسماعيل في حلب.ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص ١٨٥.
(2) Grousset: op. cit, II, p. 616.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٦٥.
(٤) المصدر السابق.
(٥) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٣هـ.
Guillaume de Tyr. p. 481.

ومن الواضح أن فشل الحملة الفلمنكية أمام حماه وحارم أدى إلى تبدد آمال الصليبيين فى استرداد سيطرتهم على حوض العاصى، فضلا عن أن فشل تلك الحملة، لم يلبث أن انعكس على مملكة بيت المقدس الصليبية. أما فيلب الألزاسى دى فلاندرز فقد عاد بعد ذلك إلى بيت المقدس، ومن هناك اتجه إلى اللاذقية ثم سلك طريق البحر إلى القسطنطينية(١).

صلاح الدين ومملكة بيت المقدس (١١٧٧-١١٨٠):

رأينا أن صلاح الدين كان قد عاد من الشام إلى مصر سنة ١١٧٦ ليستعد لمواجهة الهجوم البيزنطى الصليبى المنتظر. وتدل أعمال صلاح الدين فى تلك الفترة التى قضاها فى مصر على أنه كان يتوقع هجوماً صليبياً أكيداً، إذ قام بكثير من التحصينات القوية والأعمال الكبيرة للدفاع عن مصر بوجه عام والقاهرة بوجه خاص. من ذلك أنه شرع فى بناء سور كبير ضخم حول القاهرة ومصر، كما شرع فى بناء قلعة الجبل وحفر فيها بئراً عميقة يضمن لمن فيها الحصول على الماء(٢). ثم زار صلاح الدين الإسكندرية وتفقد تحصيناتها وأمر بتعمير الأسطول بها(٣)، ولكن صلاح الدين لم يلبث أن تأكد من فشل مشروع الحملة الصليبية على مصر، ومن ثم عاد فجأة إلى بلاد الشام لينقض على مملكة بيت المقدس، فى الوقت الذى كان الجزء الأكبر من جيش تلك المملكة موجوداً فى شمال الشام ليشارك فيلب الألزاسى فى هجماته الفاشلة على حماة وحارم(٤).

وكانت حركة صلاح الدين خاطفة وسريعة، ليكسب الوقت قبل عودة الجيوش الصليبية من الشمال، فترك العريش وانقض فى أواخر نوفمبر سنة ١١٧٧ على المراكز الصليبية على شاطئ فلسطين الجنوبى مثل الداروم وغزة. ولما وجد أن الداوية فى غزة استعدوا لمواجهة هجومه وحصنوا قلعتهم، اتجه بسرعة نحو عسقلان(٥). ولم

---

(1) Guillaume de Tyr. p. 1049.

(٢) عن قلعة الجبل وسور القاهرة بالتفصيل انظر ما كتبه:
نظير حسان سعداوي: التاريخ الحربي المصري، ص ٩١-١٠٨.

(٣) المقريزي: السلوك ج١ ص ٦٣.
أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١ ق٢، ص ٦٨٩.

(4) Guillaume de Tyr. p. 1037.

(٥) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٣هـ.

يلبث أن تحرج موقف مملكة بيت المقدس بشكل واضح إذ لم يكن فيها عندئذ إلا خمسمائة فارس. ومع ذلك فقد أظهر ملكها بلدوين الرابع همة كبيرة – رغم ظروفه الخاصة والعامة– فخرج إلى عسقلان ومعه ما أمكنه جمعه من القادرين على حمل السلاح، فضلا عن رجال الدين يحملون صليب الصلبوت، ولكن بلدوين الرابع ارتكب غلطة كبرى عندما تسرع فى دخول عسقلان، لأن صلاح الدين حاصره هو وقواته داخل أسوار المدينة، ومن ثم غدت مملكة بيت المقدس بلا ملك أو جيش(١) . وهكذا أخذت جيوش صلاح الدين تغير على المدن والمعاقل الصليبية القريبة، ولما رأوا أن الفرنج خامدون انبسطوا واسترسلوا وتوسط السلطان البلاد(٢) فأحرق المسلمون الرملة وهاجموا اللد، حتى وصل الجيش الأيوبى إلى الجهات الواقعة بين أرسوف ونابلس.

وفى الوقت الذى شغل المسلمون بالغنائم وانبسطوا وساحوا فى الأرض آمنين مطمئنين، استطاع بلدوين الرابع أن يشق طريقه إلى خارج عسقلان، بعد أن تأكد من ابتعاد صلاح الدين(٣).وسرعان ما اجتمعت حول ملك بيت المقدس فلول الصليبيين وحاميات المدن الصليبية القريبة، وباغتوا قوات صلاح الدين(٤). وهكذا حلت الهزيمة بالمسلمين عند تل الصافية، واستطاع صلاح الدين نفسه النجاة بصعوبة وعاد إلى مصر فى حالة سيئة، فوصل القاهرة فى ٨ سبتمبر سنة ١١٧٧ وحلف ألا تضرب له نوبة حتى يكسر الفرنج(٥).

أما بلدوين الرابع ملك بيت المقدس فإنه بعد أن وزع الغنائم على رجاله قام بمطاردة بقايا القوات الإسلامية حتى عسقلان، ثم قفل راجعاً إلى بيت المقدس حيث استقبل استقبال الأبطال(٦). ولاشك أن انتصار الصليبيين فى الرملة– أو موقعه تل

---

(1) Guillaume de Tyr. p. 1037.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٥٩ .

(3) Guillaume de Tyr. p. 1042 & Ernoul p. 43.

ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٥٩هـ.

(٤) أجمعت المصادر علي أن جموع الصليبيين التي أحرزت الانتصار في تلك الموقعة كانت بزعامة أرناط، صاحب حصن الكرك عندئذ.

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١ ق٢، ص ٦٩٩–٧٠٣ . المقريزي: السلوك ج١ ص ٦٤ وقد عرفت هذه الهزيمة في المصادر العربية باسم كسرة الرملة وكانت سنة ٥٧٣هـ، ويحدها بعشر سنوات بالضبط (٥٨٣هـ) ثأر صلاح الدين من الصليبيين وأرناط في موقعة حطين الشهيرة، كما سيلي.

(6) Guillaume de Tyr. p.p. 1045-1047.

الصافية– دعم مراكزهم وأعاد الثقة إلى نفوسهم، فأخذوا يهاجمون المسلمين فى شمال الشام، ويدعمون مراكزهم فى جنوبه. من ذلك ما يرويه ابن الأثير من هجوم الصليبيين على إقليم حماة ثم على منطقة شيزر فى صيف سنة ١١٧٨، حيث نهبوا وخربوا القرى وأسروا وقتلوا(١). أما فى الجنوب فقد شرع بلدوين الرابع فى تحصين مملكته ضد أى هجوم منتظر عن طريق دمشق، فشيد قلعة جديدة قرب بانياس عند بيت يعقوب بمكان يعرف بمخاضة الأحزان(٢). وهى القلعة التى صار اسمها فى نهاية القرن الثالث عشر حصن جر بنات يعقوب والتى تمتعت بأهمية كبرى لوقوعها على الطريق بين طبرية وصفد من ناحية ودمشق من ناحية أخرى. وقد بدأ فى تشييد ذلك الحصن فى أكتوبر سنة ١١٧٨، ووصف أبو شامة عرض حائطه بأنه زاد على عشر أذرع وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبع أذرع إلى ما فوقها وما دونها، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر (٣). وقد تخوف أمراء صلاح الدين من بناء ذلك الحصن وذكروا له أنه متى أحكم ذلك الحصن من الثغر الإسلامى الوهن وغلق الرهن(٤).

ولكن صلاح الدين– الذى عاد إلى الشام فى ربيع سنة ١١٧٨– لم يحاول وقف بناء الحصن المذكور. وقال إذا أتموه نزلنا عليه وهدمناه إلى الأساس، وربما كان صلاح الدين مشغولا عندئذ بحصار بعلبك التى أراد أخذها من ابن المقدم لإعطائها لأخيه توران شاه(٥). وهكذا تمكن الصليبيون من تشييد حصن ببيت الأحزان، وعهد بلدوين الرابع إلى فرسان الداوية بالدفاع عنه، ليتخذونه مركزاً لقطع الطرقات على قوافل المسلمين. وعندما أدرك صلاح الدين مدى الخطر الذى حاق بالمسلمين نتيجة لبناء ذلك الحصن، طلب من الصليبيين هدمه ولكنهم طلبوا النفقات التى بذلوها فى تشييده، وعندئذ عرض صلاح الدين عليهم ستين ألف دينار مقابل هدمه ثم رفع المبلغ إلى مائة ألف دينار، ولكنهم رفضوا ذلك(٦).

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنتي ٥٧٢هـ، ٥٧٤ هـ.

(٢) سمي ذلك الموضع عند بيت يعقوب باسم الأحزان أو مخاضة الأحزان لاعتقاد الناس أن يعقوب اعتاد الانفراد فيه والبكاء علي يوسف. (انظر: نظير حسان سعداوي: التاريخ الحربي المصري ص ١١٥).

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ١٣.

وقد انتهي هذا الجزء الأول الذي حققه زميلنا الأستاذ الدكتور محمد حلمي محمد احمد في قسمين، ومع بداية الجزء الثاني من كتاب الروضتين يكون رجوعنا الي طبعة القاهرة ١٣٨٧هـ.

(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ١١–١٣.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٧١–٧٣.

(٦) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١١.

ولم يكن حصن بيت الأحزان الحصن الوحيد الذى شيده الصليبيون فى ذلك الوقت. بل شيدوا أيضاً سنة ١١٧٩ حصناً إلى الشمال الغربى من بحيرة الحولة على جبل هونين، يتحكم فى منابع الأردن وسهوله العليا، أى فى مواجهة بانياس. وإن نظرة على الخريطة لتوضح لنا أن حصنى بيت الأحزان وهونين صارا بمثابة خط دفاعى لحماية مملكة بيت المقدس من ناحية دمشق[١].

ثم حدث أن اعتدى الصليبيون على بعض الدماشقة الذين خرجوا فى أبريل سنة ١١٧٩ لرعى مواشيهم فى المراعى القريبة من بانياس، مما أدى إلى اشتباك بين الصليبيين بقيادة بلدوين الرابع وهمفرى دى تورون (الهنغرى) صاحب حصن بانياس، والقوات الإسلامية بقيادة عز الدين فرخ شاه (فرخشاه) ابن أخى صلاح الدين[٢]. ولم يلبث صلاح الدين– الذى كان بدمشق عندئذ– أن وجه ابن أخيه لمقاتلة الفرنج، فدارت معركة انتصرت فيها قوات المسلمين، ونجا الملك الصليبى بصعوبة بعد أن أصيب إصابات خطيرة، فى حين أصيب همفرى دى تورون إصابة أدت إلى وفاته بعد عدة أيام فى حصن هونين[٣].

ولم يلبث صلاح الدين عقب ذلك النصر أن شرع مباشرة فى حصار حصن بيت الأحزان مايو سنة ١١٧٩، ولكنه اكتفى بمهاجمة حامية الحصن، ثم انصرف عنه بعد قليل وعاد بالغنائم والأسرى[٤]. وقد اتخذ صلاح الدين معسكره عند تل القاضى غربى بانياس، وعهد الى ابن أخيه تقى الدين عمر بمراقبة الصليبيين عند حماة خوفاً من غدر بوهيموند الثالث أمير أنطاكية. كذلك عهد إلى ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه بالدفاع عن جبهة حمص ضد ريموند الثالث أمير طرابلس، فى حين أرسل صلاح الدين إلى أخيه العادل فى مصر يطلب منه إرسال المدد[٥]. وكان صلاح الدين يركب كل يوم بحجة الصيد ويجرد العساكر وقبائل العرب إلى صيدا وبيروت حتى يحصدوا غلات العدو[٦].

(١) عن أهمية موقع الحصن الأخير، أنظر: King: The Knights Hospitallers. 132.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٧٢–٧٣ .

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٤هـ. Guillaume de Tyr. p.p 1052.

ويقول ابن الأثير عن مقتل همفري وقتل من مقدمتهم جماعة منهم همفري، وما أدراك ما همفري، به كان يضرب المثل في الشجاعة والرأي في الحرب، وكان بلاء صبه الله علي المسلمين فأراحهم الله من شره.

(٤) المقريزي: السلوك ج١ ص ٦٧ .

(٥) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٥هـ.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٧٤ .

وأخيراً وجد بلدوين الرابع أنه لابد من وضع حد لإغارات صلاح الدين فجمع قواته، وخرج لمنازلته(١). وفى ١٠ يونية سنة ١١٧٩ دارت موقعة قرب تل القاضى- فى سهل مرج العيون- بين المسلمين بقيادة صلاح الدين والصليبيين بقيادة بلدوين الرابع، فانتصر صلاح الدين انتصارا حاسما، وأسر كثيرا من أعيان الصليبيين، ولم ينج الملك بلدوين نفسه إلا فى صعوبة(٢).

وكان فى وسع صلاح الدين أن يتبع انتصاره فى مرج العيون بمهاجمة طبرية وبيت المقدس، كما فعل فيما عقب انتصاره فى حطين. ولكن يلاحظ أن ملك بيت المقدس نجا من الأسر فى موقعة مرج العيون، ومادام الملك طليقاً فى المملكة فإن عناصر المقاومة ستجتمع حوله، مما يجعل مهمةصلاح الدين عسيرة، هذا فى الوقت الذى حضر إلى مملكة بيت المقدس فى سنة ١١٧٩ مجموعة قوية من الفرسان الفرنسيين للحج، وعلى رأسهم هنرى الثانى دى شامبنى، مما بث فى الصليبيين عزيمة جديدة وأحيى روحهم المعنوية(٣). لذلك اكتفى صلاح الدين عقب انتصاره، بمهاجمة حصن الأحزان، ونجح فى فتحه فى أواخر أغسطس سنة ١١٧٩، وذلك بعد قتال وحصار، فغنم منهم مائة ألف قطعة حديد من أنواع الأسلحة وشيئا كثيراً من الأقوات وغيرها، وأسر نحو السبعمائة وخرب الحصن حتى سوى به الأرض(٤). ويروى أبو شامة أن صلاح الدين أشعل النيران فى حطام حصن بيت الأحزان، وأن الصليبيين فى طبرية شاهدوا ألسنة اللهيب والدخان المتصاعدة منه(٥).

ولم يلبث أن أخذ صلاح الدين يتابع انتصاراته فى سرعة مذهلة، بحيث لم يستطع الصليبيون ملاحقته. ذلك أنه لم يكتف بعد تدمير حصن الأحزان بالإغارة على مناطق صور وصيدا وبيروت، بل استطاع أسطوله أن يخرج من الموانئ المصرية فى أكتوبر سنة ١١٧٩ ليهاجم عكا ذاتها، وهى المدينة التى أطلق عليها أبو شامة اسم قسطنطينية الفرنج(٦). نظراً لحصانتها ومناعتها، ولم يسع الملك بلدوين

---

(1) Guillaume de Tyr. p. 1054.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ص ١٠-١١ . ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٥هـ.

(3) Guillaume de Tyr. p. 1058.

(٤) المقريزي: السلوك ج١ ص ٦٧ .

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ص ١٣ .

(٦) المصدر السابق. ص ١٤ .

الرابع إزاء الضربات القوية التى أخذ صلاح الدين يوجهها ضد الصليبيين سوى أن يطلب عقد الهدنة، فوافق صلاح الدين على ذلك فى مايو سنة ١١٨٠[١]. على أنه يلاحظ أن هذه الهدنة عقدت بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس وحدها، مما جعل صلاح الدين فى حل من مهاجمة الصليبيين فى شمال الشام، وبخاصة إمارة طرابلس. وفى الوقت نفسه عاد الأسطول المصرى إلى مياه الشام فى يونية سنة ١١٨٠، فهاجم أنطرطوس وأنزل بها كثيراً من الخسائر، مما اضطر ريموند الثالث أمير طرابلس إلى عقد هدنة مشابهة مع صلاح الدين[٢].

وبعد ذلك رأى صلاح الدين أن يوقف هجماته مؤقتاً ضد الصليبيين، ولاسيما بعدما أشيع من أخبار عن محاولات لتجديد التحالف بينهم وبين البيزنطيين[٣]. هذا بالإضافة إلى أن صلاح الدين نفسه كان فى حاجة إلى فترة هدوء مع الصليبيين ليقوم بحملة ضد قلج أرسلان صاحب قونيه وحملة أخرى ضد أرمينية الصغرى[٤] على أن المتأمل فى تلك الحروب يستطيع أن يدرك فى سهولة أن صلاح الدين لم يشأ أن يضيع فيها كثيراً من الجهد، وربما ادخر طاقته فى ذلك الدور ليستغلها فى توحيد القوى الإسلامية فى شمال الشام والعراق. وهنا تبدو لنا حكمة صلاح الدين وبعد نظره، إذ رأى أن الاستيلاء على حلب يجب أن يسبق أية محاولة للاستيلاء على بيت المقدس، وأنه من الخطأ أن يعرض نفسه لهجوم من جانب الصليبيين أثناء قيامه بمهاجمة حلب. ولذلك أتاحت له الهدنة التى عقدها مع بيت المقدس وطرابلس فرصة طيبة لتحقيق سياسته تجاه حلب والموصل[٥]، مع عدم إغفال جانب الصليبيين.

والواقع أن التطورات التى تمت فى الموصل وحلب سنة ١١٨٠-١١٨١ كانت لابد وأن تسترعى انتباه صلاح الدين. ذلك أن سيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل توفى فى أواخر يونية سنة ١١٨٠ ثم لحق به الصالح نور الدين إسماعيل بن

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٦هـ. Guillaume de Tyr. p. 1064.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) كان المؤرخ وليم الصوري في القسطنطينية فعلا في أواخر سنة ١١٧٩ وأوائل سنة ١١٨٠ وجرت بينه وبين الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين مباحثات في شأن قيام البيزنطيين بعمل مشترك ضد صلاح الدين.
Guillaume de Tyr. p. 1066-1067.

(٤) المقريزي: السلوك ج١ ص ٧٠-٧١ . ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٩٦-٩٩ .

(5) Runciman: op. cit. II. P. 421.

محمود أتابك حلب (أوائل ديسمبر سنة ١١٨١). وقد أدى تخوف أمراء الموصل من أطماع صلاح الدين إلى حرمانهم أبناء سيف الدين من ملك أبيهم لصغر سنهم، واستدعوا عز الدين مسعود الأول- أخا سيف الدين- لتولى أتابكية الموصل، نظراً لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النفس[١]. وكان الصالح إسماعيل قد أوصى وهو على فراش الموت بأن يخلفه ابن عمه الأمير عز الدين مسعود فى حلب أيضا، وذلك حتى تتألف من حلب والموصل جبهة واحدة لمواجهة صلاح الدين، وفعلا ذهب عز الدين إلى حلب حيث نودى به ملكاً عليها فى أواخر ديسمبر سنة ١١٨١[٢]. ومن الواضح أن هذه التطورات لم تكن فى صالح صلاح الدين ومشاريعه الواسعة الخاصة بالجبهة الإسلامية المتحدة ومحاربة الصليبيين. ولكن صلاح الدين كان حينئذ بمصر، ولولا ذلك لزاحمهم عليها (على حلب) وقاتلهم[٣].

ويبدو أن الاتفاق على اختيار عز الدين مسعود الأول ملكاً على حلب والموصل لم يكن وليد الرغبة فى مقاومة صلاح الدين فحسب، وإنما أيضاً بدافع الولاء والإخلاص للزنكيين، وقد ظهر هذا الشعور واضحاً فى حماه التى لم يلبث أن ثار أهلها ونادوا بشعار عز الدين على الرغم من قيام المظفر تقى الدين عمر- ابن أخى صلاح الدين- فى حكمهم[٤] ولو كان عز الدين مسعود قد استجاب للحلبيين فى ذلك الوقت وزحف على دمشق- حيث كان شعور الولاء للزنكيين لا يزال ظاهراً- لأمكن له أن يضع بلاد الشام تحت حكمه قبل أن يتمكن صلاح الدين من الحضور من مصر[٥]. وقد أورد ابن واصل خطاباً أرسله صلاح الدين إلى ابن أخيه المظفر تقى الدين عمر نائبه فى حماة، يفهم منه أن أمراء حلب دخلوا عندئذ فى مفاوضات مع

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٦هـ.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٠٦-١٠٧ .

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٧هـ.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب سنة ٥٧٧ هـ، ج٣ ص ٤٦ (تحقيق سامي الدهان).

(٥) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٧هـ.

وتشير المصادر إلي أن صلاح الدين حرص علي البقاء في مصر في تلك المرحلة لأنه كان يتوقع هجوماً صليبياً عليها من أوروبا، ولذلك زار الإسكندرية ودمياط في تلك السنة.

(المقريزي: السلوك سنة ٥٧٧ هـ، ج١ ص ٧١-٧٥, ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص ١١٢).

وأشرف علي ما بالثغرين من تحصينات، كما استجاب لطلب الصلح الذي تقدم به الإمبراطور البيزنطى الكسيوس الثانى كومنين في تلك السنة أيضا، ليضمن عدم مشاركة الإمبراطورية البيزنطية في أي مشروع للهجوم علي مصر، أنظر أيضا: Stevenson: op. cit. p. 224.

الصليبيين وراسلوا الباطنية لعمل تحالف ضد صلاح الدين(١). ولكن عز الدين لم يحاول الاستفادة من تلك الفرصة، وقال بيننا يمين فلا نغدر به(٢)، بل إنه أعطى حلب لأخيه عماد الدين صاحب سنجار، وبذلك حطم وحدة الدولة الزنكية. ومن جهة أخرى، فإن الصليبيين كانت لهم عندئذ متاعبهم الداخلية التى لم تمكنهم من الاستفادة من الموقف والتضحية بنقض الهدنة التى عقدوها مع صلاح الدين.

اضطراب أحوال الصليبيين:

وفى الوقت الذى كان صلاح الدين يستعد فى مصر سياسياً وحربياً للمعركة الفاصلة الكبرى بينه وبين الصليبيين، كانت أحوال الصليبيين الداخلية تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. ففى مملكة بيت المقدس تفاقم مرض الملك بلدوين الرابع وأخذ يتشكك فى كل من حوله(٣). من ذلك أن بوهيموند الثالث أمير إنطاكية اشترك مع ريموند الثالث أمير طرابلس فى زيارة بيت المقدس سنة ١١٨٠ دون موعد سابق، فتشكك بلدوين الرابع فى أمرهما، وربط بين تلك الزيارة ومرضه، وظن أنهما يتآمران على عرش المملكة، واتهمهما بأنهما يسعيان ليرثانه فى حياته، وعندئذ أسرع الأميران بالعودة من حيث أتيا(٤).

ولم يلبث الوضع أن أدى إلى إثارة مشكلة وراثة العرش فى مملكة بيت المقدس من جديد، إذ كان لابد من البحث عن عريس آخر مناسب للأميرة سيبل شقيقة الملك الكبرى، بعد أن توفى زوجها الأول وليم دى مونتفرات، كما سبق أن ذكرنا. وقد مرت مسألة زواج الأميرة سيبل فى أدوار طويلة ومراحل معقدة حتى استطاع جاى لوزجنان أن يغزو قلب الأميرة بعد أن حضر خصيصاً من فرنسا سنة ١١٨٠ ليتزوجها(٥).

ويبدو حرص الملك بلدوين الرابع على الاحتفاظ لأسرته بعرش بيت المقدس، فى أنه زوج كذلك أخته الصغرى إيزابيل من الأمير همفرى الرابع دى تورون فى

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١١٠ .

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٧هـ.

(3) Richard: Le Royaume Latin, p.p. 65-66.

(4) Guillaume de Tyr. p. 1062.

(5) Ernoul, p. 59-60.

أكتوبر سنة ١١٨٠ . وبعد ذلك أخذت صحة بلدوين الرابع تسوء فى سرعة، حتى عجز عن تصريف أمور المملكة، مما ترتب عليه ازدياد نفوذ أمه الملكة الوالدة آجنى دى كورتناى وخاله- أخو آجنى- جوسلين الثالث دى كورتناى(١) . وهكذا تدهورت أحوال مملكة بيت المقدس تدهوراً سريعاً، مما مهد للكارثة التى حلت بها على يد صلاح الدين بعد سنوات.

أما إمارة إنطاكية فلم تكن أحوالها عندئذ أقل اضطراباً، بسبب استسلام أميرها بوهيموند الثالث لشهواته وأهوائه. من ذلك أن بوهيموند الثالث لم يقع بزوجته البيزنطية الحسناء الأميرة تيودورا كومنين، وإنما تزوج سراً بامرأة أخرى اسمها أورجيليز Orguelleuse، ثم أعلن زواجه منها عقب طلاق الأميرة البيزنطية سنة ١١٦٨ . ولم يلبث بوهيموند الثالث أن هجر زوجته الثانية كذلك سنة ١١٨٣، ليعيش بين أحضان امرأة ثالثة اسمها سيبل عرفت بسوء السيرة والخلق ولم تتورع عن خيانة بوهيموند- بل الصليبيين عموماً- حتى روى ابن الأثير وأبو شامة أنها كانت تتصل بصلاح الدين وتخبره بتحركات جيوش الفرنجة(٢). كذلك أوقعت سيبل بزوجها بوهيموند عند الملك ليون الثانى الأرمنى، حتى انتهى الأمر بوقوع بوهيموند أسيراً فى يد الأرمن سنة ١١٩٤(٣). ورغم كل ذلك فقد ظل أمير إنطاكية متعلقاً بها، ورفض أن يتخلى عنها، مما جعل البطرق إيمرى دى ليموج يوقع عليه قرار الحرمان بتهمة الزواج من امرأتين أو ثلاث. وقد أدى ذلك إلى ثورة بوهيموند ضد الكنيسة ورجالها، فحدث انشقاق خطير فى إنطاكية تطور إلى حرب أهلية(٤)، مما أضعف مركز الصليبيين فى شمال الشام، فى الوقت الذى أخذ صلاح الدين ينتقل من نصر إلى آخر، سواء فى توحيد جبهة المسلمين أو فى تقليم أظافر الصليبيين.

وفى الوقت الذى تعرض الصليبيون فى الشام وبيت المقدس لتلك الأزمات

---

(1) Guillaume de Tyr. p. 1078.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٤هـ. وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً من الأحوال التي يؤثر علمها، أما أبو شامة فيقول: وكانت امرأة ابرنس انطاكية. وتعرف بادام (مدام) سيبل، في موالاة السلطان، عيناً له علي العدو. وتهاديه وتناصحه، وتطلعه علي أسرارهم. والسلطان يكرمها لذلك ويهدي لها أنفس الهدايا. (كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٣١).

(3) Eracles, p.p. 207-209.

(4) Guillaume de Tyr. p. 1071-1075.

الداخلية والخارجية، إذا بهم يفقدون حليفاً قوياً فى شخص الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين الذى توفى سنة ١١٨٠ وكان مانويل كومنين قد حاول أن يقضى قضاء نهائياً على الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى سنة ١١٧٦، ولكن السلطان قلج أرسلان الثانى أنزل به هزيمة ساحقة فى تلك السنة، تكاد تعادل فى قسوتها وشدتها واقعة مانزكرت، بحيث لم ينج الإمبراطور من الأسر إلا فى صعوبة بعد أن تحطم الجيش البيزنطى بأكمله[1]. ويبدو أن تلك الكارثة أثرت فى مانويل كومنين تأثيراً بالغاً، فمات بعدها بأربع سنوات حزيناً مكسور الجناح، وبموته خسر الصليبيون دعامة كبرى طالما استعانوا بها كلما ألمت بهم أزمة أو حاق بهم خطر[2]. ولم يلبث الإمبراطور ألكسيوس كومنين الثانى أن أرسل إلى القاهرة مبعوثاً سنة ١١٨٠– ١١٨١ لعقد الصلح مع صلاح الدين فتم ذلك– كما سبق أن أشرنا– وأطلق الإمبراطور الجديد سراح مائة وثمانين من أسرى المسلمين كانوا عنده[3]، مما يدل على التغير الواضح الذى طرأ على سياسة الإمبراطور البيزنطى تجاه الصليبيين بالشام[4].

أرناط وصلاح الدين:

وبينما بلدوين الرابع ملك بيت المقدس يتأهب لتوديع الحياة، إذا بزمام النشاط الصليبى فى مملكة بيت المقدس ينتقل إلى رينو دى شاتيون (ريجنالد) الذى عرفه العرب باسم أرناط. وقد رأينا كيف ظل أرناط أمير إنطاكية أسيراً فى قبضة المسلمين سنين طويلة– قضاها فى قلعة حلب– حتى إذا ما أطلق سراحه سنة ١١٧٦، تزوج من إتينت دى ميلى -Etiennette de Milly وريثة صاحب الأردن– مما مكن أرناط من القيام بدور بارز فى الحرب الصليبية بفلسطين. ذلك أن أرناط لم يتزوج تلك الأميرة لشبابها أو جمالها، فقد كانت أرملة سبق أن تزوجت رجلين ثالثهما أرناط نفسه، وإنما تزوجها لإقطاعها، إذ ورثت عن أبيها الأردن وحصنى الشوبك والكرك[5].

ومهما يكن من أمر، فإن المدة الطويلة التى قضاها أرناط فى الأسر لم تغير من

(1) Vasiliev: op. cit, vol. 2.p. 428-429.

(2) Setton: op. cit, I. p. 584.

(٣) المقريزي: السلوك ج١ ص ٧٢ .

(4) Stevenson: op. cit. p. 224.

(5) Schlumberger: Renaud de Chatillon, p.p. 148-149.

نفسه ولم تقلل من حدة تهوره. وقد رأينا كيف أدت سياسة أرناط فى إنطاكية- قبل أسره- إلى اصطدامه مع الإمبراطورية البيزنطية، نتيجة لإغارته الغاشمة على جزيرة قبرص سنة ١١٥٦، كما أدت تلك السياسة نفسها إلى إثارة استياء بلدوين الثالث ملك بيت المقدس، فضلا عن عداء جيرانه المسلمين. وعندما خرج أرناط من محبسه سنة ١١٧٦ وتولى مقاليد الأمور فى الأردن، أراد أن يتبع سياسته القديمة تجاه جيرانه من المسلمين والمسيحيين سواء، ونسى أن السنوات الطويلة التى قضاها فى الأسر غيرت من أوضاع الفريقين، إذ صارت دمشق والقاهرة توحد بينهما حكومة واحدة تخفق فوقها راية صلاح الدين، فى حين فترت الحماسة الصليبية، وأخذت أوضاع الصليبيين فى بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس تنحل انحلالا تدريجياً بطيئاً، ولكنه ملموساً[١].

وفى مثل تلك الأوضاع الجديدة، كان تطبيق سياسة أرناط ذات الطابع الحماسى المتطرف، من شأنه أن يسبب كارثة عامة للصليبيين، لأن حصنى الكرك والشوبك اللذين امتلكهما أرناط، كانا لا يتحكمان فى طريق حجاج المسلمين إلى الحرمين فحسب، بل أيضاً فى الطريق البرى الرئيس بين شطرى دولة صلاح الدين، أعنى مصر والشام[٢]. ولم يكن صلاح الدين الرجل الذى يقبل السكوت عن اعتداءات وهجمات يقوم بها أمير صليبى متهوس ضد قوافل الحجاج والتجار بين مصر والشام والحجاز. وإذا غضب صلاح الدين فى ذلك الوقت- أعنى فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر- فإن غضبته تعنى ثورة رجل قوى جمع فى قبضته بين دمشق والقاهرة بمواردها المالية والبشرية وموقعهما الاستراتيجى الذى جعل منهما ما يشبه الكماشة التى يمكن أن تطبق على مملكة بيت المقدس الصليبية فى أية لحظة. وهكذا كان فى استطاعة صلاح الدين أن يوجه تلك الطاقة الضخمة ضد شراذم الصليبيين الذين أخذوا فى الانحلال والتفكك بعد أن ضعفت حماستهم واضطربت أمورهم الداخلية[٣].

ولكن؛ هل أدرك أرناط جميع هذه الاعتبارات عندما تزوج وريثة الأردن وصاحبة حصنى الكرك والشوبك سنة ١١٧٧؟ الجواب بالنفى وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن سياسته أنزلت كارثة لا تفوقها كارثة بأرناط نفسه وبمملكة بيت المقدس ثم بالصليبيين عامة[٤]. ففى صيف سنة ١١٨١ تناسى أرناط أمر الهدنة المعقودة بين

(1) Grousset: op. cit, II, p. 700.

(2) Runciman: op. cit. II. P. 431.

(3) Michaud: op. cit, II, pp. 254-255.

(4) Setton: op. cit, I, p. 580.

صلاح الدين ومملكة بيت المقدس، وخرج على رأس قوة من رجاله وأوغل فى صحراء العرب حتى تيماء(١). وكانت تيماء هذه واحة لها أهميتها لوقوعها فى منتصف الطريق بين الأردن والمدينة المنورة، حتى وصفها صلاح الدين نفسه فى رسالته إلى الخليفة العباسى بأنها دهليز المدينة(٢). وكان فى نية أرناط أن يزحف بعد ذلك من تيماء إلى المدينة المنورة ذاتها للاستيلاء على تلك النواحى الشريفة(٣)؛ ولكن فرخ شاه- ابن أخى صلاح الدين ونائبه فى دمشق- أسرع إلى غزو الأردن، وتخريب أعمال الكرك ونهبها، مما جعل أرناط يعجل بالعودة إلى إمارته للدفاع عنها. بعد أن نهب قافلة إسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق إلى مكة وسلب منها ثروة ضخمة(٤).

وقد أفزعت تلك الغارة التى قام بها أرناط بلاط بيت المقدس، لأنها عكرت صفو السلم مع صلاح الدين، فى وقت كانت مملكة بيت المقدس الصليبية أحوج ما تكون إلى هذا السلم(٥). هذا إلى أن العمل الذى قام به أرناط أفزع المسلمين جميعاً، لأنهم إذا كانوا قد صبروا على تهديد الصليبيين لبعض البلدان والأراضى الإسلامية فى العراق والشام ومصر، فإنهم لا يمكن أن يصبروا بأى حال على تهديد قبلتهم التى يتجهون إليها بقلوبهم وأبصارهم آناء الليل وأطراف النهار. لذلك غضب صلاح الدين، وأرسل إلى ملك بيت المقدس يلومه على ما حدث ويذكره بالهدنة المعقودة بين الطرفين، ويطلب منه أن يأمر فصله أرناط برد المسلوبات(٦). والواقع أن بلدوين الرابع كان لا يقل استياء عن صلاح الدين، فأرسل بدوره إلى أرناط يلومه على فعلته، ويطلب منه الإسراع برد كل ما سلبه من أموال المسلمين وأسراهم إلى صلاح الدين. ولكن أرناط هزأ من سيده بلدوين الرابع- الملك المريض- ورفض الإصغاء لتعاليمه ونصحه، وأعلن أنه لن يرد شيئا من أسرى المسلمين وأموالهم(٧).

Michaud: op. cit, II, pp. 254-255. (1)

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٢٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٧هـ.

(4) Ernoul, p. 54-56.

(5) Cam. Med. Hist. II. P. 349.

(6) Runciman: op. cit. II. P. 349.

(7) Ernoul, p. 52.

وكان أن أخبر بلدوين الرابع صلاح الدين بعجزه عن إخضاع فصله وإلزامه باحترام الهدنة المعقودة مع المسلمين، الأمر الذى يعنى إعلان الحرب. وثمة معنى آخر لعدم انصياع أرناط لبلدوين الرابع، هو سقوط هيبة ملكية بيت المقدس وخروج الأفصال الإقطاعيين فى المملكة عن طاعة الملك، وهذا مظهر آخر جديد من مظاهر انحلال أحوال الصليبيين بوجه عام ومملكة بيت المقدس بوجه خاص فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر(١).

ثم صادف أن قذفت أمواج البحر ببضع سفن مسيحية تحمل نحواً من ألفين وخمسمائة نفس كانوا فى طريقهم إلى بيت المقدس، فغرق منهم من غرق ووجد الباقون أنفسهم على شاطئ دمياط. وعندئذ انتهز صلاح الدين الفرصة، وأعلن أنه لن يطلق سراح أولئك الحجاج إلا إذا أطلق أرناط من عنده من أسرى المسلمين، ولما رفض أرناط أن يتخلى عن أسرى الحجاز، احتفظ صلاح الدين بالحجاج المسيحيين(٢).

وأخيراً غادر صلاح الدين مصر إلى الشام فى مايو سنة ١١٨٢، وكانت هذه آخر مرة يرى فيها صلاح الدين وجه القاهرة، إذ قدر له أن يظل بعدها ببلاد الشام ولم يعد بعدها إلى مصر حتى أدركه الحمام(٣). وقد اتجه صلاح الدين أولا إلى أيلة على خليج العقبة، وهناك علم أن الصليبيين جمعوا حشودهم فى حصن الكرك لسد الطريق فى وجهه والحيلولة دون دخوله بلاد الشام، أو على الأقل الاعتداء على قافلة لعلهم ينتهزون فرصة فيقتطفون من القافلة قطفة..(٤).

والواقع أن بلدوين الرابع كان قد جمع فعلا مجلس الحرب عندما علم بخروج صلاح الدين من مصر، واستقر الرأى على أن يقيم الصليبيون خطهم الدفاعى عند حصن الكرك ليحولوا دون وصول صلاح الدين إلى دمشق. ويبدو- كما ذكر المؤرخ الصليبى وليم الصورى- أن خطة بلدوين الرابع استهدفت حشد جيوشه فى الأردن لمعاقبة أرناط وتأديبه على مخالفته تعاليم ملك بيت المقدس، على أن تتظاهر تلك

(1) Grousset: op. cit, II, p. 703.

(٢) ذكر ابن واصل أن عدد من أسرهم صلاح الدين فعلا من حجاج المسيحيين بلغ ألفين وخمسمائة (مفرج الكروب ج٢ ص ١١٤).

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٢٨، المقريزي: السلوك ج١ ص ٧٧.

(٤) المصدر السابق.

الجيوش بأنها إنما تبغى سد الطريق فى وجه صلاح الدين[1] ولكن تلك الخطة لم تنجح إذ علم أرناط بها مقدماً واتخذ احتياطياته، فى الوقت الذى نجح صلاح الدين فى الاتجاه من أيلة إلى إقليم الشوبك حيث دمر مزارع القمح التابعة للصليبيين[٢].

وفى تلك الأثناء انتهز فرخشاه- ابن أخى صلاح الدين ونائبه فى دمشق- فرصة انتقال الجيوش الصليبية إلى الأردن، وأغار على طبرية وعكا واستولى على الشقيف أرنون وعاد بألف أسير وعشرين ألف رأس غنم[٣] وبعد ذلك انتقل فرخشاه إلى الضفة الشرقية للأردن- شرقى بحيرة طبرية- فأغار على السواد، حيث كان يوجد للصليبيين حصن حبيس جلدك، فاستولى عليه بعد حصار خمسة أيام رغم حصانته وأسكنه المسلمين فبقى عيناً على الفرنج بعد ما كان لهم[٤].

وعندما بلغت هذه الأخبار بلدوين الرابع وامرأته- وهم بعيدون عند الكرم- أدركوا مبلغ خطأهم لتركهم إقليم الجليل مكشوفاً. وكان أن رأى بلدوين الرابع سرعة العودة بعد تتبع صلاح الدين فى وادى عربة. ولكن صلاح الدين احتاط فى سيره والتزم الأطراف حتى دخل دمشق فى ٢٣ يونية١١٨٢ [٥]. أما الجيش الصليبى فاتجه إلى صفورية فى إقليم الجليل، حيث أخذ يترقب ما عسى أن يقوم به صلاح الدين من أعمال انتقامية. ولم يطل انتظار الصليبيين، إذ لم يلبث أن تحرك صلاح الدين فى ١١ يوليو سنة ١١٨٢ حيث نصب معسكره فى سهل الأقحوانة، عند خروج نهر الأردن من بحيرة طبرية[٦]. وفى الوقت نفسه أرسل صلاح الدين ابن أخيه فرخشاه للإغارة على إقليم الغور حول بيسان، فدخل بيسان قهراً، وغنم ما فيها وقتل وسبى؛ فى حين أغارت قبائل الأعراب على جينين واللجون وسهول يافا حتى قاربوا مرج عكا[٧].

وبعد أن قام صلاح الدين بحركة سريعة مكنته من الانضمام إلى ابن أخيه فرخشاه، شرع الاثنان فى مهاجمة حصن كوكب الذى يشرف على إقليم الغور

(1) Guillaume de Tyr. p. 1087.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٢٨-٢٩ .

(٣) المقريزي: السلوك ج١ ص ٧٧ .

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١١٤-١١٥، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٢٨ .

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٢٨ . Guillaume de Tyr. p. 1091.

(٦) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٨هـ. Guillaume de Tyr. p. 1093.

(٧) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٨هـ.

والطريق المؤدى إلى الناصرة. وكان أن أسرع الصليبيون إليه حيث شنوا عليه هجوماً عند عفر بلا. وهناك اشتد القتال بين صلاح الدين والصليبيين واستشهد جماعة من المسلمين وكان النصر لأهل الإسلام(١). على أنه يبدو أن صلاح الدين أدرك عدم جدوى تلك المعارك المحلية ضد الصليبيين، وآثر أن يحتفظ بقواته سليمة للمعركة الفاصلة الكبرى، فانسحب إلى دمشق(٢).

ثم كان أن فكر صلاح الدين فى مشروع يفصل به إمارتى طرابلس وإنطاكية عن مملكة بيت المقدس، وذلك عن طريق الاستيلاء على بيروت، ولتحقيق هذا الغرض جمع صلاح الدين قواته سنة ١١٨٢ جنوبى إقليم البقاع لهاجمة بيروت، فى الوقت الذى أعد أخوه العادل فى دمياط والإسكندرية أسطولا من ثلاثين سفينة حربية لمباغته بيروت من ناحية البحر(٣). ولم يفت العادل أيضاً أن يرسل بعض قوات من القاهرة لمهاجمة الدروم وغزة وعسقلان، حتى يشغل مملكة بيت المقدس عن مساعدة بيروت. وقد أحاط صلاح الدين مشروعه بالسرية التامة، بل أشاع أنه سيتجه ضد حلب والموصل وذلك إمعاناً فى تضليل الصليبيين، وفى أول أغسطس ظهر الأسطول المصرى فى مياه بيروت، فى الوقت الذى هاجم صلاح الدين المدينة من ناحية البر بكامل جيوشه، وبذلك تعرضت بيوت لحصار محكم من ناحيتى البر والبحر(٤).

وفى تلك الأثناء كان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس لايزال معسكراً فى صفورية، عندما وصلته أنباء هجوم صلاح الدين على بيروت وهجوم العسكر المصرى على مدن فلسطين الساحلية. وقد أدرك بلدوين الرابع أن بيروت هى بيت القصيد، فأمر بإعداد الأسطول الصليبى فى عكا وصيدا لتخليص بيروت من الحصار البحرى(٥). أما صلاح الدين فقد أخذ يشدد هجماته على بيروت مرة أخرى، ولكن المدينة أظهرت عناداً شديداً فرأى أن أمر بيروت يطول، ولذلك آثر الانصراف عنها

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١١٥ .
المقريزي: السلوك ج١ ص ٧٨ . ذكر ياقوت في معجم البلدان أن عفر بلا – بفتح أوله وسكون ثانيه– بلد بغور الأردن قرب بيسان وطبرية.
(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٢٨–٢٩ .
(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٨هـ.
(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٢٩ .
(5) Guillaume de Tyr. p. 1099.

وعاد إلى دمشق. كذلك أمر صلاح الدين أسطوله بالعودة إلى مصر، فعاد بعد أن كان قد سبى منها وسلب وظفر من غنيمتها بما طلب(١).

صلاح الدين وضم حلب:

ولم تلبث عمليات صلاح الدين المباشرة ضد الصليبيين أن توقفت مؤقتاً عندما اتجه بجهوده بعد ذلك ضد الزنكيين الذين ظلوا يسيطرون على حلب والجزيرة والموصل. وقد شجع صلاح الدين على مهاجمة الزنكيين عدم اتحادهم وانقسام دولتهم بين الأخوين عز الدين مسعود الأول صاحب الموصل (١١٧٦-١١٩٣) وعماد الدين زنكى الثانى صاحب حلب (١١٨٣-١١٨٣)(٢). هذا بالإضافة إلى ما ذكره ابن واصل من أنه نمى إلى علم صلاح الدين أن المواصلة كاتبوا الفرنج ورغبوهم فى قصد الثغور الإسلامية ليشغلوا السلطان عن قصدهم(٣).

وكان أن اتجه صلاح الدين أولا ضد حلب ونازلها ثلاثة أيام(٤)، ثم رأى أن يبدأ بمهاجمة الموصل، فغزا إقليم الجزيرة واستولى على آلرها وحران والرقة وسروج ونصيبين (سبتمبر - أكتوبر ١١٨٢)؛ حتى شرع يحاصر الموصل نفسها فى أوائل ديسمبر(٥). ويبدو أن صلاح الدين ألح فى القتال فلم ينل غرضاً لأن عز الدين صاحب الموصل كان قد أعد عدته للحصار، وحشد فيها عدداً ضخماً من العساكر ما بين فارس وراجل.. ومن السلاح وآلات الحصار ما حارت له الأبصار(٦)، وعندئذ حاول صلاح الدين أن يستولى على الموصل عن طريق الحيلة، فعرض على صاحبها الصلح مقابل أن يتركه يستولى على حلب دون تدخل منه. ولكن عز الدين مسعود رفض خيانة أخيه فى حلب وقال هو أخى وله العهود والمواثيق ولا يسعنى نكثها(٧).

ولم يلبث أن أحس السلطان صلاح الدين بالحرج لفشله فى الاستيلاء على

(1) Idem, p. 1099-1101 &

أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٢٩ .

(٢) انظر زامباور: معجم الأنساب ، ص ٥٣ ، (تعريب أستاذنا المرحوم زكي محمد حسن).

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١١٥ (تحقيق جمال الدين الشيال).

(٤) المقريزي: السلوك ج١ ص ٧٨ (تحقيق محمد مصطفي زيادة).

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٣٢-٣٣ .

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١١٩ .

(٧) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٨هـ.

الموصل من جهة، ثم لمهاجمة الزنكيين– وهم مسلمون– مما لا يتفق ودعوى الجهاد، من جهة أخرى. ولذلك حاول صلاح الدين أن يدعم مركزه بطلب التأييد من الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وأرسل إلى الخليفة رسالة يتهم فيها أتابك الموصل بأنه عقد تحالفاً ضده مع الصليبيين[١]. وربما استهدف صلاح الدين الحصول من الخليفة على تفويض بتخويله سلطة عليا على بقية الأمراء المسلمين في إقليم الجزيرة، مثلما كان لسلاطين السلاجقة في القرن الحادي عشر للميلاد[٢]. على أن أتابك الموصل لم يهتز لجميع تلك المناورات، بل لجأ إلى الاستعانة بالأمراء المسلمين المجاورين مثل قزل أرسلان صاحب أذربيجان وشاه أرمن سقمان صاحب أخلاط (خلاط)[٣]. أما الخليفة العباسي الناصر، فقد اكتفى بأن فوض شيخ الشيوخ صدر الدين للوساطة بين صلاح الدين والزنكيين[٤]. وهكذا أدرك صلاح الدين أنه لا فائدة من البقاء طويلا أمام الموصل وعلم أنه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحاصرة على هذا الوجه[٥]، فانصرف عنها في منتصف ديسمبر ليستولي على سنجار. ثم عاد صلاح الدين إلى الشام بعد أن اشتبك مع القوات التي أرسلها أمراء خلاط وماردين لنجدة عز الدين صاحب الموصل[٦].

ويهمنا من هذه الأحداث ما يؤكده أبو شامة من عقد تحالف ضد صلاح الدين بين الصليبيين من جهة والزنكيين في الموصل وحلب من جهة أخرى. وقد بسط صلاح الدين تفاصيل ذلك الحلف في خطابه إلى الخليفة العباسي سنة ١١٨٢[٧]. والواقع أن الزنكيين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام تهديد صلاح الدين للموصل، وإنما أرسلوا سفارة من الموصل إلى ملك بيت المقدس يعرضون عليه دفع جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار، وتسليم بانياس وحبيس جلدك للصليبيين، فضلا عن إطلاق سراح جميع من لدى

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٣١ .Grousset: op. cit, II, p. p. 714

(2) Grousset:op.cit, 11. p714.

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٨هـ.

(٤) المصدر السابق.

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٩٥ .

(٦) المصدر السابق، ص ٩٦–٩٧ .

(٧) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٢٣–٢٤ ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٦٨ .

المسلمين من أسرى إذا نجح الصليبيون فى طرد صلاح الدين من دمشق[١].

وكان الوقت مناسباً للصليبيين ليقوموا بهجوم على دمشق، لاسيما بعد أن مات فرخشاه نائب صلاح الدين فى دمشق[٢]. لذلك جمع بلدوين الرابع ملك بيت المقدس جيوشه وخرج ومعه البطرق وصليب الصلبوت، وأغاروا على الجهات الواقعة جنوبى دمشق، كما أغاروا على منطقة بصرى فى إقليم حوران ووصلوا إلى داريا (سبتمبر ١١٨٢)[٣]. وقد اتصفت إغارات الصليبيين على تلك الجهات عندئذ بالعنف والوحشية، فدمروا كل ما صادفوه من زرع وضرع[٤].

ثم انتقل الصليبيون بعد ذلك إلى السواد على الضفة الشرقية لبحيرة طبرية، حيث استردوا قلعة حبيس جلدك التى كان صلاح الدين قد استولى عليها منذ بضعة شهور مضت. وفى ديسمبر سنة ١١٨٢ عقد الصليبيون مجلساً للحرب فى قياسرية وقرروا الإغارة مرة أخرى على إقليم حوران، فخرج ريموند الثالث أمير طرابلس على رأس جموعهم صوب طبرية، وأوغلوا حتى وصلوا إلى بصرى، ثم عادوا محملين بالغنائم[٥]. ولم يكد يمر على تلك الإغارة خمسة عشر يوما حتى خرجت غزوة أخرى بقيادة الملك بلدوين الرابع، وأغار الصليبيون على إقليم دمشق حتى وصلوا إلى داريا على بعد ستة كيلومترات فقط من دمشق، مما أثار الذعر فى نفوس أهل دمشق[٦].

وفى ذلك الوقت كان صلاح الدين يحاصر نصيبين فى الجزيرة، فأشار عليه بعض من يتعصب لعز الدين بالعودة إلى الشام لإنقاذ دمشق، ولكنه أجاب عليهم بأن الفرنجة يخربون قرى ونملك عوضها بلاداً ونعود ونعمرها ونقوى على قصد

---

(1) Runciman: op. cit. II. P. 434. and

بلغه أن المواصلة كاتبوا الفرنج ورغبوهم في الخروج إلي الثغور ليشغلوا السلطان عن قصدهم. وأن المواصلة قد واصلوا الفرنج مواصلة أخصلوا فيها الضمائر ولم يستطيعوا فيها كتمان السرائر، وبلغه بها أن رسل الموصل وصلوا إلي الفرنج يحثوهم علي قتال السلطان. أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٢٣-٢٤ .

(٢) المقريزي: السلوك ج١ ص ٧٩ . أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٢٣ .

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١١٨ .

(4) Guillaume de Tyr. p. 1102-1103.

(5) Idem: p. 1108.

(٦) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٧هـ.

بلادهم[١] . ومن هذا يبدو كيف قام الصليبيون بدورهم كاملا لإجبار صلاح الدين على ترك حصار الموصل، حتى تم لهم ما أرادوا- كما سبق أن رأينا- واضطر صلاح الدين إلى العودة إلى الشام فى مايو سنة ١١٨٣ .

على أن صلاح الدين عاد من العراق ليباشر نشاطه فى شمال الشام، وترك حصار الموصل ليبدأ حصار حلب، وذلك بعد أن استولى فى طريقه على عين تاب[٢] . وهنا نجد أن عماد الدين زنكى الثانى أتابك حلب كان مفتقراً إلى ما لأخيه عز الدين أتابك الموصل من شجاعة ودهاء سياسى[٣] . ذلك أن صلاح الدين لم يكد يحاصر حلب حتى ارتبك عماد الدين وخشى الاستنجاد بأخيه عز الدين أو بالصليبيين. وإذا كان الحلبيون أنفسهم قد أظهروا مقاومة عنيدة فى ذلك الوقت ضد صلاح الدين، إلا أن حاكمهم عماد الدين أسقط فى يده وبدأ يفكر فى ترك حلب، وأرسل إلى صلاح الدين سراً يعرض عليه ذلك، مقابل إعطائه سنجار- بلده- فأجابه السلطان (صلاح الدين) إلى ذلك وزاده الخابور ونصيبين والرقة وسروج ,وهكذا تمت الصفقة واستولى صلاح الدين على حلب فى ١٢ يونية سنة ١١٨٣[٤] . ولم يلبث حامية حارم- التابعة لحلب- أن استسلمت مختارة لصلاح الدين وسلمته القلعة فى ٢٤ يونية سنة ١١٨٣ ، وبذلك سيطر صلاح الدين على حلب وحارم فى مدى شهر واحد[٥] . ولاشك أن استيلاء صلاح الدين على إمارة حلب وتوابعها كان ضربة خطيرة وجهت للصليبيين، حتى اعترف المؤرخ الصليبى وليم الصورى أن ذلك كان أسوأ حدث يمكن أن يحدث للفرنجة[٦] . ذلك أن حصول صلاح الدين على حلب جعله أقوى حاكم معاصر فى الشرق الأدنى، وجعل الجبهة الإسلامية المتحدة تمتد تحت زعامته من جبال طوروس شمالا حتى النوبة جنوباً[٧] . وكانت إمارة أنطاكية بالذات أكثر الإمارات الصليبية تأثراً باستيلاء صلاح الدين على حلب وحارم، لأنها أدركت

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المقريزي: السلوك ج١ ص ٨١ .

(3) Grousset: op. cit, II, p. 720.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٤٢ . ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٩٨ .

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٤٢-٤٣ . ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٩هـ.

(6) Guillaume de Tyr. p. 1114.

(7) Stevenson: op. cit. p. 230.

أنه سيستغل هذه القواعد الجديدة فى الإغارة عليها. ويروى أبو شامة أنه عندما عرف خبر استيلاء صلاح الدين على حلب وحارم رجفت أنطاكية بعد ذلك رعباً، وأن أميرها بادر باسترضاء صلاح الدين، فأرسل إليه جماعة من أسارى المسلمين وسارع إلى أمن السلطان[١]. وكان أن ذهب بوهيموند الثالث أمير إنطاكية- وصحبه ريموند الثالث أمير طرابلس إلى بيت المقدس لمداولة الملك بلدوين الرابع فى الموقف. وكل ما استطاع ملك بيت المقدس أن يفعله عندئذ، كان عقد هدنة مع صلاح الدين، حتى تتمكن إمارة إنطاكية من إحكام إجراءاتها الدفاعية[٢].

أما صلاح الدين فقد عاد إلى دمشق فى أواخر أغسطس سنة ١١٨٣ بعد أن ثبت سلطانه فى حلب وعين ابنه الملك الظاهر غياث الدين نائباً عنه فى حكمها[٣]. ومنذئذ أخذ الصليبيون يعملون حساباً للخطوة التالية التى سيتخذها ذلك المارد الذى جمع فى قبضته القوية بين القاهرة ودمشق وحلب.والواقع أن صلاح الدين غدا فى صيف سنة ١١٨٣ فى مركز قوى يمكنه من إنزال ضربة قاصمة بالصليبيين، فموارد مصر الضخمة تحت تصرفه، ودمشق وحلب فى قبضته، ومن حوله لا يوجد عدو خطير يخشى تهديده إذا هو هاجم الصليبيين، فالخليفة العباسى فى بغداد يؤيده، وعز الدين أتابك الموصل يرهب جانبه، وسلطان سلاجقة الروم يخطب وده، والإمبراطورية البيزنطية صالحته ولم تعد مصدر خطر عليه[٤].

وهكذا صار فى استطاعة صلاح الدين أن يخطو بقدم ثابتة على طريق الجهاد ليطهر أرض الإسلام من الدخلاء الغاصبين.

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٤٧ .

(2) Guillaume de Tyr. p. 1114.

(٣) المقريزي: السلوك ج١ ص ٨١ .

(4) Runciman: op. cit. II. P. 435.

الفصل الثالث

حطين واسترداد بيت المقدس

مهاجمة مملكة بيت المقدس سنة ١١٨٣:

وفى تلك الأوقات الحرجة التى ألمت بالصليبيين، عندما أخذ صلاح الدين يضيق الخناق على ممتلكاتهم فى بلاد الشام، اشتد المرض على بلدوين الرابع ملك بيت المقدس، حتى بلغ به حد العجز عن الحركة فى فراشه، مما أوجب ضرورة اتخاذ إجراء سريع لحماية مصالح المملكة[١]. وكان أن عقد مجلس فى الناصرة حول فراش الملك المريض، اشتركت فيه الملكة الوالدة، والبطرق هرقل، وصاحب يافا وعسقلان جاى لوزجنان زوج أخت الملك. وفى ذلك المجلس فوض الملك صهره جاى لوزجنان فى الوصاية على المملكة أى ينوب عنه فى تدبير أمورها، فاحتفظ بلدوين الرابع ببيت المقدس وحدها وخصص له مرتباً قدره عشرة آلاف بيزانت، وفيما عدا ذلك لم يبق له من الملكية إلا اسمها، فى حين صار الحاكم الفعلى للمملكة هو جاى لوزجنان[٢].

والواقع أن ذلك الاختيار لم يكن موفقاً، لما هو معروف عن جاى لوزجنان من ضعف الشخصية والبلادة، حتى اتهمه المؤرخ وليم الصورى بأنه لم يتحل بشىء من صفات الفروسية والحكمة فى معالجة الأمور[٣]. وقد ظهر ذلك بوضوح فى الأزمة التى لم تلبث أن واجهت مملكة بيت المقدس فى خريف سنة ١١٨٣، عندما شرع صلاح الدين يهاجم الجليل والغور. وكان صلاح الدين قد غادر دمشق فى ١٧ سبتمبر ليعبر نهر الأردن عند المخاض. ومن هناك زحف على بيسان التى فرت منها حاميتها إلى طبرية، فاستولى صلاح الدين عليها فى سهولة، وغنم كل ما يمكن نقله، ثم حرقوا مالا يمكن أخذه[٤]. ومن هناك اتجه صلاح الدين ليعسكر عند عين جالوت؛ وأرسل بعض دوريات من جنده لمهاجمة المناطق القريبة، فالتقت إحدى هذه الدوريات فى نهاية سبتمبر بالإمدادات الآتية من الأردن والكرك والشوبك لمساعدة

---

(١) وصف عماد الدين الكاتب الملك بلدوين الرابع بأنه كان ولداً مجذوماً من الوجود معدوماً، قد أعضل داؤه وأيس شفاؤه، وسق أعضاؤه، وطال بلاؤه. (الفتح القسي، ص١٤).

(2) Guillaume de Tyr. p. 1117.

(3) Idem, p. 1117.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٠٠ .

جيوش المملكة، وعندئذ قتل المسلمون وأسروا كثيراً من الصليبيين وهرب الباقون فى الجبال(١).

وفى الوقت الذى كان صلاح الدين وجيوشه يقومون بتلك الأعمال، ويستولون على كثير من المواقع والقلاع الصليبية الصغيرة المجاورة لحرقها أو هدمها ظل جيش مملكة بيت المقدس– تحت قيادة جاى لوزجنان الوصى على المملكة معسكراً عند صفورية، شمالى الناصرة. ثم تحركت الجيوش الصليبية فى نهاية سبتمبر وأوائل أكتوبر لمنازله المسلمين، فنصبوا معسكرهم عند الفولة، وهى قرية معروفة بفلسطين قرب عين جالوت(٢). وعندما رأى الصليبيون كثرة جيش صلاح الدين، لم يجسروا على مهاجمة المسلمين. وهكذا ظل الجيشان وجهاً لوجه عدة أيام فى أوائل أكتوبر سنة ١١٨٣(٣)، دون أن يحاول صلاح الدين حرمان الصليبيين من الاعتماد على موارد المياه القريبة، وإنما اكتفى بشن إغارات مركزة على المواقع الصليبية القريبة(٤).

وربما قصد صلاح الدين من تلك الإغارات المحلية أن يوزع جهود الصليبيين، أو أن يستدرجهم للدخول معه فى معركة، ولكنهم لم يخرجوا إلى المصاف خوفاً من المسلمين(٥). وأخيراً لجأ صلاح الدين إلى جبل الطور– وهو جبل قريب– حتى يتحرك الصليبيون أيضاً وعندئذ يفاجئهم بالهجوم، ولكنهم فوتوا عليه تلك الخطة أيضاً ورحلوا راجعين على أعقابهم ناكصين(٦). وهكذا لم يجد صلاح الدين بدا من العودة إلى دمشق بعد أن قتل وأسر كثيراً من الصليبيين وخرب من حصونهم بيسان وعفربلا وزرعين، فضلا عن عدد من الأبراج والقوى(٧). وكان أن وصل صلاح الدين دمشق فى منتصف أكتوبر سنة ١١٨٣، فى حين عاد الصليبيون إلى مراكزهم عند صفورية(٨).

وهنا يلاحظ أن صلاح الدين طبق فى حملته هذه سنة ١١٨٣ نفس الخطط التى اتبعها بعد ذلك بأربع سنوات فى حطين.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٤٨ .

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٠١، & Ernoul, p. 99

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٩ هـ.

(4) Guillaume de Tyr. p. 1120-1124.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٥٠–١٥١ .

(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٠٢ . أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٥٠ .

(٧) المقريزي: السلوك ج١ ص ٨١ .

(٨) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٥٠ . Guillaume de Tyr. p. 1125.

أرناط ومهاجمة الحرمين:

وفى تلك الأثناء أقدم أرناط صاحب حصن الكرك على مشروع خطير سنة ١١٨٣، استهدف به تحقيق سيادة الفرنجة على البحر الأحمر، وطعن الإسلام فى قلبه بغزو الحرمين. وربما كان من الممكن تنفيذ هذا المشروع فى عهد الملك فولك أو بلدوين الثالث، اى قبل أن تتم الوحدة الإسلامية، عندما كان التفوق فى بلاد الشام لايزال للصليبيين. أما فى سنة ١١٨٣ بعد أن رجحت كفة المسلمين وصاروا يكونون جبهة واحدة تمتد من حلب إلى القاهرة فقد بات لزاماً على الصليبيين أن يكرسوا جهودهم فى حراسة حدودهم الطويلة جنوباً من ناحية مصر، وشرقاً من حدود إمارة أنطاكية شمالا حتى الأردن والكرك جنوباً(١).

على أن أرناط لم يدرك جميع الاعتبارات السابقة، وظن أن العالم كما هو لم يتغير منذ أن أسره المسلمون سنة ١١٦٠، حتى إطلاق سراحه سنة ١١٧٦، ونسى- أو تناسى- أن تلك السنوات الطويلة التى قضاها فى الأسر شهدت تغيير الأوضاع فى الشرق الأدنى بالنسبة للمسلمين والصليبيين جميعاً، فانقلب المسلمون من التفكك والدفاع إلى الوحدة والهجوم، وتحول الصليبيون من قوة وتماسك إلى ضعف وانحلال، ومن حالة الهجوم إلى حالة الدفاع(٢). ثم إن أرناط حاكم حصن الكرك الصليبى لم يكن من نوع الفرسان الذين يحرصون على شرفهم ويتمسكون بمبادئ الفروسية، وإنما كان لا يصلح إلا للسلب والنهب وشن الإغارات على الأبرياء والمسالمين(٣).

وإذا كانت هذه الظاهرة قد بدت فى إغارته التى شنها على جزيرة قبرص البيزنطية سنة ١١٥٥، فإنها لم تلبث أن ظهرت أيضاً بوضوح بعد أن صار حاكماً على الكرك، إذ دأب على مهاجمة قوافل الحجاج المسلمين وهم فى طريقهم إلى الحرمين، ثم فى مشروعه سنة ١١٨٣ على مكة والمدينة ذاتهما، وبذلك وضع

---

(1) Grousset: op. cit, II, p. 732.

(2) Setton: op. cit, p. p. 598-600.

(3) King: The Knikghts Hospitallers, p. 111.

وقد وصف هذا المؤرخ الأوروبى أرناط بأنه نموذج للفارس اللص في عصره، اتصف بالجشع وعدم الوفاء والغدر والوحشية والتعصب الأعمي، ولم تفلح الخمس عشرة سنة التي قضاها أسيراً في حلب في تعديل سلوكه أو تهذيبه. أما المؤرخ أبو شامة فقد وصف أرناط بأنه (اغدر الفرنجية وأخبثها، وأفحصها عن الردي والرداءة وأبحثها، وأنقضها للمواثيق المحكمة والأيمان المبرمة، وأنكثها وأحنثها. (كتاب الروضتين، ج٢ ص ٧٥).

الصليبيين فى مأزق خطير وسبب لهم أزمة كانوا فى غنى عنها. ذلك أن أرناط أثار المسلمين أجمع فى مشارق الأرض ومغاربها ضد الصليبيين، فضلا عن أن القوى الإسلامية التى فكرت فى محالفة الصليبيين- مثل أتابك الموصل - استنكروا ذلك الوضع وعز عليهم أن يحالفوا أناساً يعتدون على الحرمين(١).

وكان أن بدأ أرناط بالاستيلاء على أيلة، ذلك المركز المهم على خليج العقبة الذى استولى عليه بلدوين الأول سنة ١١١٦ ثم استرده صلاح الدين سنة ١١٧٠ . ومن الواضح أن استيلاء صلاح الدين على أيلة كان يمكنه من تهديد الشويك والأراضى الصليبية فى وادى عربة(٢). ولما كان من المتعذر على الصليبيين الاحتفاظ بأيلة دون السيطرة على جزيرة القلعة (جزيرة فرعون) المواجهة لها فى خليج العقبة، فقد شرع أرناط فى بناء عدة سفن، حملت أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال حتى خليج العقبة حيث ركبت(٣).

ولم يكد يتم تركيب تلك السفن حتى استولى بعضها على جزيرة القلعة، فى حين قام البعض الآخر بالإغارة على الموانئ المصرية الصغيرة على البحر الأحمر، الأمر الذى أثار رعب أهاليها ودهشتهم لعدم رؤيتهم سفناً فرنجية قبل ذلك فى مياه ذلك البحر(٤). ومن الموانئ المصرية التى أغار عليها أسطول أرناط فى البحر الأحمر ميناء عيذاب فى مواجهة جدة. وهناك نهب الصليبيون بضع سفن تجارية وافدة من جدة واليمن وعدن والهند(٥).

وبعد ذلك نقل الصليبيون نشاطهم الهدام إلى الشاطئ المقابل للبحر الأحمر- أى شاطئ الحجاز- فعظم البلاء وأعضل الداء وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على

---

(1) Runciman: op. cit. II. P. 437.

(٢) نظير حسان سعداوي: التاريخ الحربى المصرى، ص ١٤٠-١٤٧,

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٣٥,

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٨هـ.

(٥) فقتلوا وأسروا، وأحرقوا في بحر القلزم نحو ستة عشر مركباً وأخذوا بعيذاب مركباً يأتي بالحجاج من جدة، وأخذوا في الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب، وقتلوا الجميع، وأخذوا مركبى بضائع جاءت من اليمن، وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لميرة الحرمين وأحدثوا حوادث لم يسمع الإسلام بمثلها: (المقريزي: السلوك، ج١ ص ٧٩).

خطر عظيم(١). وقد دهش المسلمون لتلك الجرأة، إذ لم يسبق أن وصل رومى إلى ذلك الموضع(٢)، بل إن المقريزى يؤكد أن الصليبيين صاروا على مسيرة يوم واحد من المدينة(٣). ويتفق أبو شامة مع المقريزى فى روايته، فيقول إن الصليبيين نزلوا على ساحل الحوراء قرب ينبع حيث أغاروا على القوافل، واستخدموا بعض الخونة من الأعراب فى إرشادهم إلى داخلية البلاد(٤).

وفى رسالة للقاضى الفاضل أوردها أبو شامة وابن واصل أن الصليبيين استهدفوا من وراء تلك العملية الحربية تحقيق هدفين خطيرين: أولهما قطع طريق الحاج عن حجه، وضرب العالم الإسلامى فى قلبه وطعن المسلمين فى قبلتهم. وثانيهما أن الصليبيين كانوا يزمعون الاستيلاء على عدن فى جنوب البحر الأحمر، لأخذ تجار اليمن وأكارم عدن وبذلك يتمكنون -بفضل السيطرة على أيلة فى الشمال وعدن فى الجنوب -من إغلاق البحر الأحمر فى وجه أعدائهم، واحتكار تجارة الشرق والمحيط الهندى(٥).

ومن الواضح أن مثل هذا المشروع الضخم كان لا يمكن تحقيقه بنجاح فى ظل الأوضاع التى غدت فيها مملكة بيت المقدس فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر، عندما اختلت أمورها الداخلية ووافق ملكها بلدوين الرابع على وضع مملكته تحت الوصاية(٦). وكل ما هنالك هو أن خسارة الصليبيين من وراء السعى لتحقيق ذلك المشروع فاقت مكاسبهم لأنه بعد أن كان أتابكة دمشق (١١٣٨-١١٥٤) ثم أتابكة حلب (١١٧٤-١١٨٣) وأتابكة الموصل بعد سنة ١١٧٤ يحرصون على مخالفة ملوك بيت المقدس كلما هددهم خطر من جانب زنكى أو نور الدين على التوالى- مما أتاح للصليبيين فرصة للنفاذ بين صفوت المسلمين وتعطيل الوحدة الإسلامية- إذا بالصليبيين بعد محاولتهم الاعتداء على الحرمين يبدون على حقيقتهم فى نظر المسلمين كافة ما أثار النفور منهم، وحال دون تعاون أية قوة إسلامية معهم. بل إن

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٢٧ .
(٢) المقريزي: السلوك ج١ ص ٧٩ .
(٣) المصدر السابق.
(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٣٧ . ودلها علي غوارب البلاد من الأعراب من هو أشد كفراً ونفاقاً.....
(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٣٠ . أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٢٦-٢٧ .
(6) Grousset: op. cit, II, p. p. 734.

المسلمين رأوا فى تهديد الحرمين نذيراً بقيام الساعة وعلامة على غضب الله لفناء بيته المحرم[١].

ومهما يكن من أمر، فإن المسلمين لم يسكتوا عن تهديد الصليبيين للحرمين وإنما أسرع العادل أخو صلاح الدين إلى إعداد أسطول قوى فى البحر الأحمر تحت قيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ متولى الأسطول بديار مصر. وقد بدأ حسام الدين لؤلؤ بحصار أيلة وظفر بمركب الفرنج فحرقها وأسر من فيها؛ ثم أسرع بعد ذلك بتعقب بقية السفن الصليبية عند عيذاب، فشواطئ الحجاز[٢]. وكان الجزء الأكبر من تلك السفن الصليبية موجوداً على ساحل الحوراء، عندما دهمها حسام الدين ليدمرها ويستولى عليها بعد أن أطلق من فيها من التجار المأسورين. ويبدو أن الصليبيين أخذوا على غرة، فترك بعضهم السفن ولاذوا بالجبال وعندئذ أخذ حسام الدين ورجاله خيل بعض العربان وطاردوا الصليبيين بين الجبال حتى أسروهم جميعا (فبراير ١١٨٣)[٣].

وكان موسم الحج قد أزف عندئذ فأرسل حسام الدين أسيرين من الصليبيين إلى منى، حيث نحرا كما تنحر البدن، فى حين عاد هو ومعه بقية الأسرى إلى مصر[٤]. وقد أمر صلاح الدين بقتل أولئك الأسرى ليكونوا عبرة لكل من تحدثه نفسه بالاعتداء على حرم الله وحرم رسوله وتم قتلهم فعلا بعد استعراضهم فى شوارع القاهرة والإسكندرية، وغيرهما من المدن الكبرى. وكان الرحالة ابن جبير فى زيارة الإسكندرية عندئذ، فكر وصفاً طريفاً لموكب الأسرى[٥]. أما أرناط نفسه، فقد أقسم صلاح الدين على ألا يغفر له فعلته هذه، ونذر دمه[٦].

وهكذا باءت بالفشل الذريع محاولة الصليبيين فى البحر الأحمر الاعتداء على الحرمين واحتكار تجارة المحيط الهندى. وإذا كانت هناك نتيجة لتلك المحاولة، فإن هذه النتيجة هى اضطرام نار العداء بين صلاح الدين وأرناط، ولفت نظر صلاح الدين إلى

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٢٩ .
(٢) المقريزي: السلوك ج١ ص ٧٩ .
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٢٨ .Ernoul, p. 69-79
(٤) المقريزي: السلوك ج١ ص ٧٩ .
(٥) رحلة ابن جبير ص ٢٩-٣٠ (القاهرة، ١٩٥٥).
(٦) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٧٥ .

الخطر الذى يهدد دولته من ناحية الكرك ووادى عربة، وهى المنطقة التى تقع بين شقى دولته فى الشام ومصر، فضلا عن الحجاز. وكان حصن الكرك بالذات على المسلمين منه ضرر عظيم، فإنه يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة. وقد ذكر القاضى ابن شداد مدى اهتمام صلاح الدين بقلعة الكرك لأنها كانت فى الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو نفسه يعبرها بلاد العدو(١). لذلك خرج صلاح الدين من دمشق فى سبتمبر سنة ١١٨٣ لحصار الكرك، وأتى إليه لمساعدته فى تلك العملية أخوه العادل من مصر. وكان ذلك فى الوقت الذى اجتمعت فى حصن الكرك مجموعة كبيرة من أمراء الصليبيين وأعيانهم للاحتفال بزواج الأميرة إيزابيل أخت سيبل(٢).

وكان حصن الكرك قوى التحصين، فاستطاع الصمود والثبات، حتى إن صلاح الدين لم ينل منه غرضا(٣). ولم يلبث الملك عمورى الرابع أو خف- وهو فى حالة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة- لنجدة الكرك، على رأس جيش بيت المقدس، مما جعل صلاح الدين ينسحب إلى دمشق فى أوائل ديسمبر سنة ١١٨٣، بعد أن رأى أن أمر الكرك يطول(٤).

على أنه ليس معنى ذلك أن صلاح الدين صرف نظراً عن حصن الكرك لاسيما وأن أرناط استمر يستغل ذلك الصحن فى تهديد طرق القوافل بين مصر والشام والحجاز(٥). لذلك خرج صلاح الدين من دمشق مرة أخرى فى صيف سنة ١١٨٤ لمحاصرة حصن الكرك، وشاركه فى الحصار على رأس الجيش المصرى ابن أخيه المظفر تقى الدين عمر، الذى حل محل الملك العادل فى حكم مصر(٦). كذلك شارك صلاح الدين فى هجومه على الكرك تلك المرة نور الدين ابن قرا أرسلان الأرتقى

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٧٥.

(2) Runciman: op. cit. II. P. p. 440-441.

(3) Guillaume de Tyr. II, p. p. 1125-1126 and Ernoul, p. 103 and

المقريزي: السلوك ج١ ص ٨١-٨٢.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٥١.

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٥٥.

(٦) نقل صلاح الدين أخاه العادل- بناء علي طلبه- من حكم مصر إلي حكم حلب في ديسمبر سنة ١١٨٣. (ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٥٢).

صاحب حصن كيفا وآمد فى ديار بكر. فضلا عن الملك العادل الذى أتى على رأس العسكر الحلبى. وكان صلاح الدين قد استعد تلك المرة استعداداً قوياً، فأحضر المنحنيقات وآلات الحصار القوية[١]، حتى إذا ما أوشك أن يحقق غرضه، تدخلت مملكة بيت المقدس مرة أخرى لتفسد عليه عمله. وللمرة الثانية اضطر صلاح الدين إلى الانسحاب وانتقم من مملكة بيت المقدس بالإغارة على نابلس وسبسطية وجينين[٢]. وقد هاجمت جيوشه نابلس وأحرقت قلعة جينين، ولكن صلاح الدين منح الأمان لأهل سبسطية وأسقفها إكراماً لمشهد زكريا عليه السلام، الذى يوجد فى ذلك المكان[٣].

تنظيم الدولة الأيوبية:

ويبدو أن صلاح الدين كان مشغولا فى تلك الفترة بتنظيم الأوضاع الداخلية فى دولته، وإحلال أبنائه محل إخوته وأبناء عمومته فى مختلف أجزاء الدولة. وربما كانت حركة التنظيم الداخلى التى قام بها صلاح الدين عندئذ جزءاً من الترتيبات الواسعة التى شرع فى إجرائها قبل أن يقوم بهجومه الكبير الذى اعتزم القيام به على الصليبيين. من ذلك أن صلاح الدين نقل أخاه العادل من حكم مصر إلى حلب وأحل محله فى مصر المظفر تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين والأفضل على بن صلاح الدين. ولما دب النزاع بين هذين الاثنين تخوف صلاح الدين من أطماع ابن أخيه، فأرسل إلى مصر ابنه الثانى العزيز عثمان واستدعى تقى الدين إليه. وذلك فى صيف سنة ١١٨٦ . وقد رفض تقى الدين عمر تنفيذ ذلك، فاحتال عليه صلاح الدين حتى أحضره إلى الشام وعندئذ منعه من العودة إلى مصر وأعطاه عدة إقطاعات متفرقة فى الشام مثل حماه ومنبج ومعرة النعمان وكفر طاب وجبل جور. أما العادل أخو صلاح الدين– وأقوى شخصية فى البيت الأيوبى بعد صلاح الدين نفسه– فقد حرمه صلاح الدين من حلب نظراً لأهميتها، وأعطاها لابنه الملك الظاهر غياث الدين غازى، وأعطى العادل سنة ١١٩١ إقطاعاً ثانوياً فى بدلا النهرين يشمل الرها وحران وميافارقين، وذلك ليخرجه من الشام، لتبقى لأولاده (أولاد صلاح الدين)[٤].

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٥٥ .

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٠٨ .

(٣) المقريزي: السلوك ج١ ص ٨٤ . أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٥٦ .

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٢هـ. المقريزي: السلوك ج١ ص ٩١-٩٢ . أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٦ ص ٣١ .

أحوال الصليبيين بعد وفاة بلدوين الرابع:

أما مملكة بيت المقدس، فقد ساءت أحوالها فى أواخر أيام ملكها المريض بلدوين الرابع. ولم يلبث الملك تحت تأثير بارونات المملكة أن أبعد جاى لوزجنان– زوج الأميرة سيبل– عن الوصاية على مملكة بيت المقدس. كذلك أعلن بلدوين الخامس– ابن سيبل من زوجها الأول وليم دى مونتفرات– شريكاً فى حكم المملكة ووريثاً لبلدوين الرابع (٢٠ نوفمبر ١١٨٣)، وذلك لتبديد أى أمل لجاى لوزجنان فى وراثة العرش(١)..

ثم إن بلدوين الرابع لم يكتف بكل ذلك، وإنما سعى لطلاق أخته سيبل من جاى لوزجنان، الأمر الذى جعل الأخير يعتصم فى إمارته– يافا وعسقلان– ليعلن ثورته على بلدوين الرابع والسلطة الملكية. وهكذا بدأ الصراع مكشوفاً بين الرجلين، فزحف الملك على عسقلان ليجد أبواب المدينة موصدة فى وجهه(٢).

ولكن إذا كانت عسقلان قد استعصت على بلدوين الرابع، فإنه استطاع الاستيلاء على يافا، حيث أعلن عزل جاى لوزجنان. وكان أن عقد مجلس قرر اختيار ريموند الثالث أمير طرابلس وصياً على بلدوين الرابع فى ١٦ مارس سنة ١١٨٥، وبذلك انتهت أسرته من حكم بيت المقدس(٣).

ولم يلبث أن أعلن بلدوين الخامس ملكاً تحت وصاية ريموند الثالث أمير طرابلس، فى حين عهد بالإشراف على حماية الملك الصغير الذى لم يتجاوز السادسة من عمره إلى جوسلين الثالث دى كورتناى، لكن ريموند الوصى على المملكة خشى أن يموت الطفل بلدوين الخامس الذى كان معتل الصحة، وعندئذ يتهم بقتله(٤). وكان ريموند الثالث يدرك مدى حاجة الصليبيين إلى فترة من السلم والهدوء، يدعمون فيها مركزهم ويصفون خلافاتهم الداخلية، لاسيما وأن بلاد الشام تعرضت لقحط شديد سنة ١١٨٥. ولذلك عقد ريموند هدنة مع المسلمين لمدة أربع سنوات (١١٨٥–١١٨٩)(٥).

أما صلاح الدين، فلم يشأ أن يضيع هذه السنوات الأربع فى سكون، وإنما وجه جهوده نحو الموصل واتجه لمهاجمتها مرة أخرى فى أبريل سنة ١١٨٥. وقد أشار

(1) Besant, Palmer: Jerusalem, p. 378.
(2) L'Estoire d'Eracles, II, p. 2.
(3) Ernoul, p.p. 115-119.
(4) Runciman: op. cit. II. P. 44.
(5) Liver de Eracles. II, p. 12-14.

بعض المهندسين على صلاح الدين عندئذ بتحويل مجرى نهر دجلة عن الموصل لكى ينقطع الماء عنها فلا يبقى إلا تسليمها[١]. ولكن كان من المتعذر تنفيذ ذلك المشروع، وحالت حرارة الجو دون الاستمرار فى القتال، فضلا عن أن صلاح الدين سمع عندئذ بوفاة شاه أرمن بن سكمان الثانى صاحب خلاط دون أن يترك ولداً يرثه، فترك صلاح الدين حصار الموصل واتجه إلى خلاط فى صيف سنة ١١٨٥ لينازع أتابك أذربيجان الاستيلاء عليها[٢]، ولما فشل فى ذلك احتل ميافارقين. وفى طريق عودته مرض صلاح الدين مرضاً شديداً خاف من عائلته فآوى إلى حران، ولم يستطع العودة إلى الشام إلا فى يونية سنة ١١٨٦[٣].

ويهمنا من قصة ذلك المرض ما يرويه القاضى ابن شداد من أن المواصلة انتهزوا فرصة مرض السلطان وعلموا سرعة انقياده، ورقة قلبه فى ذلك الوقت فسعوا للصلح معه بعد أن قنط عز الدين مسعود صاحب الموصل من مساعدة الخليفة والسلاجقة[٤]. وكان أن نجحت الفكرة، وتم الصلح بين صلاح الدين وعز الدين مسعود صاحب الموصل فى مارس سنة ١١٨٦، فرضى الأخير أن يكون تابعاً لصلاح الدين وخطب فى جميع بلاد الموصل للسلطان (صلاح الدين) وقطعت خطبة السلاطين السلجوقية بها، وخطب له فى ديار بكر وجميع البلاد الأرتقية وضربت السكة باسمه[٥].

هذا عن جانب صلاح الدين والمسلمين، أما الصليبيون فقد تفاقمت مشاكلهم الداخلية بوفاة الملك بلدوين الخامس فى عما بعد بضعة شهور من توليه الملك (أواخر أغسطس ١١٨٦). وكانت وفاة بلدوين الخامس إيذاناً بصراع حاد بين الأمراء الصليبيين حول الفوز بعرش مملكة بيت المقدس. وقد بدأت أولى حلقات المسرحية بين ريموند وجوسلين دى كورتناى اللذين كانا على مقربة من الملك الصغيرعند وفاته فى عكا، فأقنع جوسلين زميله بالذهاب إلى طبرية لدعوة أمراء المملكة للاجتماع هناك بعيداً عن مؤامرات ومناورات هرقل بطرق بيت المقدس، فى حين تعهد جوسلين بنقل رفات بلدوين الخامس إلى بيت المقدس لدفنها، ثم اللحاق ببقية الأمراء فى طبرية لتنفيذ وصايا بلدوين الرابع بشأن مستقبل المملكة[٦].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٦٧ .

(٢) وهو البهلوان اتابك شمس الدين محمد بن أيلدكز صاحب العجم.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١١٢ .

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١١٢-١١٣ .

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٧٢ .

(6) Grousset: op. cit, II, p. p. 766-767.

ولم يكد ريموند يرحل حتى انكشفت خيوط المؤامرة، فأرسل جوسلين بعض القوات لاحتلال صور وبيروت، فى حين بقى هو فى عكا وأعلن سيبل- أخت بلدوين الرابع وزوجة جاى لوزجنان- ملكة. وسرعان ما سيطرت سيبل وزوجها جاى لوزجنان على بيت المقدس، والموانئ الساحلية، وذلك بمساعدة جوسلين من جهة، وهرقل بطرق بيت المقدس وأرناط صاحب الكرك من جهة أخرى(١). أما ريموند فقد عاد بسرعة إلى نابلس والتف حول بقية الأمراء الذين رفضوا الاعتراف بذلك الوضع لأنه لا يتفق مع وصية بلدوين الرابع ولا مع تعهدات الأمراء للملك الراحل. وهكذا دب انشقاق داخلى خطير فى صفوف الصليبيين، الذين انقسموا على أنفسهم، بين مؤيدين لريموند ومؤيدين لجاى لوزجنان(٢).

ثم كان أن أسرع هرقل بطرق بيت المقدس الى تتويج سيبل زوزجها جاى لوزجنان، بعد أن أغلق أبواب المدينة، وقام الداوية بحراستها للحيلولة دون أى هجوم من جانب بقية الأمراء المجتمعين فى نابلس(٣). ولم يلبث هؤلاء الأمراء أن تسربوا واحداً بعد آخر إلى بيت المقدس حيث قدموا فروض الولاء والتبعية لجاى لوزجنان، وإن ظل ريموند صاحب طرابلس وبوهيموند أمير إنطاكية على موقفهما العدائى من جاى لوزجنان. وربما شاء حسن حظ الصليبيين أن يحدث ذلك الانقسام الخطير بين صفوفهم فى الوقت الذى كانت الهدنة لاتزال قائمة بين صلاح الدين والصليبيين(٤).

على أن أرناط صاحب الكرك شاء بحماقته المعهودة ألا يترك الصليبيين ينعمون بتلك الفرصة ويحاولون تصفية خلافاتهم الداخلية أثناء الهدنة مع صلاح الدين. فتعجل إثارة الحرب ضد المسلمين، وهى الحرب التى جاءت كارثة على نفسه وعلى الصليبيين جميعاً.

موقعة حطين سنة ١١٨٧:

جاء تتويج جاى لوزجنان ملكاً على بيت المقدس مخيباً لآمال ريموند أمير طرابلس ومطامعه، فلم يجد فى تلك الأزمة مفراً من التقرب من صلاح الدين. وكان

(1) Eracles II, p. 25-28.
(2) Setton: op. cit, p. 604-605.
(3) Besant, Palmer: Jerusalem, p. 384.
(4) Runciman: op. cit. II. P. 448-450.

ريموند أثناء وصايته على مملكة بيت المقدس قد حسن علاقته بصلاح الدين وصار يناصحه[١]، حتى إذا توج جاى لوزجنان ملكاً، أرسل ريموند إلى صلاح الدين يطلب معونته وانتمى إليه واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة[٢]. وقد أشار أبو شامة وابن واصل إلى ما دار بين ريموند أمير طرابلس وصلاح الدين من اتصالات فى ذلك الدور فذكروا أنه قويت مناصحته للمسلمين وباين أهل ملته، وبث السرايا فى بلادهم. ولاشك أن ذلك الانشقاق فى صفوف الصليبيين جاء عظيم الفائدة بالنسبة لصلاح الدين حتى اعتبره المؤرخون المسلمون من أسباب نصرة الإسلام[٣].

وفى تلك الظروف العصيبة التى كان يمر بها الصليبيون، اختار أرناط أن يخرق الهدنة مع صلاح الدين، دون أن يعتبر بما جرته عليه إغارته على جزيرة قبرص سنة ١١٥٦ من مصائب أثناء قيامه على حكم أنطاكية. ولم يعدم أرناط- وهو الفارس اللص- وسيلة لتعكير صفو السلم بين المسلمين والصليبيين، واستغل فى ذلك موقع حصنه الكرك بين مصر والشام والحجاز[٤]. وهنا تجدر الإشارة إلى أن أرناط استخدم فى أعماله العدوانية على المسلمين وقوافلهم طائفة من البدو الذين كانوا ينزلون فى المناطق الصحراوية القريبة من حصن الكرك[٥].

وكان أرناط نفسه قد طلب الأمان من صلاح الدين عقب إغارته الفاشلة فى البحر الأحمر. ووفقاً للهدنة المعقودة بين صلاح الدين من جهة والصليبيين وأرناط من جهة أخرى، أخذت القوافل الإسلامية- سواء للحج أو للتجارة- تمر بصحراء الأردن، بعد أن أمنت الطريق بين مصر والشام وتواصلت القفول حتى كان يمكن الذاهب والجائى[٦]. ولاشك أن هذا السلام عاد بالخير والفائدة على أرناط نفسه، نظراً لما كان يفرضه على تلك القوافل من مكوس وضرائب. ولكن ذلك الفارس اللص كان

---

(١) المقريزي: السلوك ج١ ص٢ .

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٢هـ.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٧٤-٧٥ . ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٨٥ .

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٨٥ .

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٧٥ .

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٨٥ .

لا يستطيع الحياة دون أن ينهب ويسرق كما يقول المؤرخ جروسية[١]، فانقض فجأة على قافلة ثقيلة معها نعم جليلة للمسلمين متجهة من القاهرة الى دمشق فى أواخر سنة ١١٨٦ وأوائل سنة ١١٨٧[٢]. ويبدو أن ما كانت تحمله تلك القافلة بالذات من نفائس وثروة طائلة أسال لعاب الفارس اللص، وجعله لا يبالى بالعهود والمواثيق. حقيقة إن السلطات المصرية احتاطت لحماية القافلة، وأرسلت معها جماعة صالحة من الأجناد لحراستها فى الطريق، ولكن أرناط نجح فى أن ينصب كميناً للقافلة وحاميتها، وبذلك وضع يده على كل ماتحمله من ثروة وبضائع. أما رجال القافلة والمسافرون صحبتها، فقد سلبهم أرناط كل ما معهم من مال وسلاح وأنعام، ثم ألقى بهم أسارى فى حصن الكرك حيث سلبهم الشد والشدة[٣].

وكان أن تذرع صلاح الدين بالحلم، فأرسل إلى أرناط مقبحاً أعماله ويتهدده إن لم يطلق سراح الأسرى والأموال. ولكن أرناط امتنع من إجابة السلطان إلى إطلاقهم، وأصم أذنيه عن ذلك التهديد، وأبى إلا الإصرار والإضرار[٤]. بل لقد بلغ من جرأة أرناط ووقاحته وحرصه على استفزاز صلاح الدين والمسلمين، أنه رد على رسل صلاح الدين قائلا قولوا لمحمد يخلصكم[٥]. وعندما وجد صلاح الدين إعراضا عن التفاهم من جانب أرناط، أرسل إلى الملك جاى لوزجنان بقية ما حدث، ويكرر طلبه بتسليم الأسرى والمنهوبات، ولكن أرناط أعرض أيضاً عن جاى لوزجنان وأصر على عدم تنفيذ الأوامر التى أصدرها إليه ملك بيت المقدس لإعادة ما استولى عليه من القافلة الإسلامية[٦]. ويبدو أن أرناط كان يشعر بأنه صاحب فضل على جاى

---

(1) Grousset: op. cit, II, p. 677.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٧٥ . أما ابن الأثير فقد وصف تلك القافلة بأنها قافلة عظيمة غزيرة الأموال كثيرة الرجال (الكامل، حوادث سنة ٥٨٢ هـ).

(3) Eracles. II, P. 34 and

أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ٧٥ .

– ويذكر هذا المصدر الصليبى أنه كان من بين الأسري في تلك القافلة أخت لصلاح الدين ولكن هذا الرأى الذي انتشر في كثير من كتب تاريخ الحروب الصليبية خطأه ولا يوجد ما يؤيده في أقوال بقية المؤرخين. وبخاصة المسلمون. ولو كانت أخت صلاح الدين قد أسرت حقيقة عندئذ لأشار إلي ذلك حتما المؤرخون المعاصرون المسلمون مثل ابن شداد وأبي شامة وابن الأثير، ويتضح مما ذكره أبو شامة أن أخت صلاح الدين أتت في قافلة أخري قادمة من مكة ووصلت إلي دمشق في صيف سنة ١١٨٧، وسنشير إلي ذلك في موضعه.

(٤) المقريزي: السلوك ج١ ص ٩٢ .

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٩٤ .

(6) Eracles. II, P. 34.

لوزجنان لمساعدته فى الوصول إلى العرش ومساندته ضد خصومه، مما جعل يستخف بملك بيت المقدس وأوامره، فى الوقت الذى لم يستطع الأخير أن يفرض رأيا على أرناط(١).

وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين إلا القصاص والحرب، وهى الحرب التى جاءت قاضية على الصليبيين وآمالهم فى البقاء بالشام، بعد أن اختار أرناط أسوأ الأوقات والظروف بالنسبة للصليبيين لاستثارة صلاح الدين(٢). ويكفى أن الانشقاق الذى حدث فى صفوف الصليبيين نتيجة لوفاة بلدوين الخامس ولتتويج جاى لوزجنان، حرم مملكة بيت المقدس من معونة القرى وإمارتين صليبيتين بالشام، وهما إمارة طرابلس وإمارة أنطاكية. ولم يكن ريموند الثالث أمير طرابلس هو الذى وحده راسل صلاح الدين والتمس إليه(٣)، وإنما حذا حذوه بوهيموند الثالث أمير أنطاكية، فجدد الهدنة المعقودة بينه وبين صلاح الدين(٤). هذا فضلا عن انحلال مملكة بيت المقدس نفسها فى ذلك الوقت واضطراب أمورها الداخلية، بدليل أن أحد أمرائها – مثل أرناط– استطاع أن يجرؤ على مخالفة أوامر الملك، وهو أمر كان لا يمكن أن يحدث فى عهد ملوك بيت المقدس الأوائل، أمثال بلدوين الأول والثانى وفولك وعمورى. وهكذا ساءت أحوال مملكة بيت المقدس الصليبية. وتلاشى ما كان لملكها من نفوذ وهيبة، ووجد الملك جاى لوزجنان نفسه وحيدا بين عصيان أرناط من ناحية وتمرد ريموند الثالث من ناحية أخرى(٥) وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ صلاح الدين يواصل استعداداته على قدم وساق لإعطاء الصليبيين درساً قاسياً لن ينسوه.

والواقع أن صلاح الدين لم يستطع أن يكظم غيظه أمام رفض أرناط وعجز ملكية جاى لوزجنان عن رد أسرى القافلة الإسلامية ومتاعها، فأقسم صلاح الدين على أن ينتقم من أرناط. بل إنه نذر دمه وأعطى الله عهداً إن ظفر به أن يستبيح مهجته(٦). وكان أن قام صلاح الدين بحركة تعبئة شاملة لجميع قوى المسلمين

(1) Runciman: op. cit. II. P. 450.
(2) King: The Knikghts Hospitallers, p. 118-119.

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.

(4) Grousset: op. cit, II, p. 778.
(5) Besant, Palmer: Jerusalem, p. 387- 388.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٨٥ .
كذلك ذكر أبو شامة فسر السلطان دمه ووفي في إراقة دمه بما التزمه (كتاب الروضتين، ج٢، ص ٢٥).

ومواردهم البشرية والمادية استعداداً لخوض معركة جهاد كبرى لم تنته إلا بقذف آخر البقايا الصليبية بالشام فى البحر. وقد اختار صلاح الدين أن يظل فى ذلك الدور بدمشق، ومنها أخذ ينظم تعبئة قواته من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر(١). وعندما اكتملت استعدادات صلاح الدين، غادر دمشق فى حوالى منتصف مارس ١١٨٧ على رأس جيش كبير متجهاً نحو الجنوب حتى وصل إلى رأس الماء- إلى الشمال الغربى من حوارن- حيث ترك ابنه الأفضل لتجتمع عنده الإمدادات والنجدة من القوات العربية والتركية والكردية، فى حين اتجه صلاح الدين نفسه إلى بصرى لحماية قافلة الحجاج الآتية من الحرمين خوفاً عليهم من غدر عدو الله الإبرنس (أرناط)(٢). وهذه القافلة هى التى كانت فيها إحدى أخوات صلاح الدين وابنها محمد بن عمر لاجين(٣).

ولم يكد صلاح الدين يطمئن على وصول قافلة الحجاج المذكورة فى ١١ مايو، حتى شرع فى مهاجمة أرناط، فسار إلى الكرك فى اثنى عشر ألف فارس ونازلها وقطع أشجارها كما قصد الشوبك وفعل بها مثل ذلك(٤). وكان أرناط قد حبك خطته على أساس قطع الطريق على القوات الآتية من مصر وصدهم عن الوصول إلى صلاح الدين ولكن صلاح الدين أفسد عليه خطته بأن تقدم إلى الأمام وتلقى العسكر المصرى قرب الكرك دون أن ينتظر وصول تلك القوات إليه، وبذلك أفسد على أرناط خطته(٥). وهكذا وجد أرناط نفسه محصوراً فى قلعة الكرك، فى حين كان صلاح الدين يعمل حراً طليقاً فى الأردن، وابنه الأفضل لايزال معسكراً عند رأس الماء ينظم القوات الإسلامية التى أخذت تتوافد عليه تباعا(٦). ثم إن صلاح الدين كان حريصا على ألا يحارب فى أكثر من جبهة واحدة، وألا يمكن الصليبيين من تعبئة قواهم

---

(١) وفي هذه السنة (٥٨٣هـ) كتب صلاح الدين إلي جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد وكتب إلي الموصل وديار الجزيرة وأربل وغيرها من بلاد الشرق وإلي مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم إلي الجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز له بغاية الإمكان. (الكامل، حوادث سنة ٥٨٣هـ).

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣ ص ١٨٦ .

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٣، ص٧٥ . ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.

(٤) المقريزي: السلوك ج١ ص ٩٣ .

(٥) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ. ابن واصل: مفرج الكروب، ص ١٨٦ .

(٦) والملك الأفضل ولده مقيم برأس الماء في جمع عظيم من العظماء، وعنده الجحافل الحافلة والحواصل الحاصلة والعساكر والقاسرة، وهو ينتظر أمرا من أبيه. (أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٧٥).

وتوحيد صفهم رداً على تعبئة القوات الإسلامية، فأرسل فى يونية سنة ١١٨٧ إلى رجاله بحلب يأمرهم بمصالحة بوهيموند الثالث أمير إنطاكية ليتفرغ البال مع العدو فى جانب واحد(١).

والواقع أن أحوال الصليبيين عندئذ كانت لا تبشر بخير، إذ لم يقتصر الأمر فى تلك الأزمة على عدم التعاون بين جاى لوزجنان من ناحية وأميرى طرابلس وأنطاكية من ناحية أخرى، وإنما تعدى ذلك الى ما أنذر بالصدام بين جاى لوزجنان وريموند. ذلك أن ريموند أمير طرابلس كان يمتلك مدينة طبرية بوصفه أميراً على إقليم الجليل، فاعتصم بها عقب تتويج جاى، وعندئذ اتفق فرسان الداوية مع جاى لوزجنان على محاصرة طبرية وانتزاعها من ريموند(٢)،مما جعل الأخير يلقى بنفسه بين أحضان صلاح الدين طالباً مساعدته ضد ملك بيت المقدس والداوية(٣). وكان أن لبى صلاح الدين نداء حليفه ريموند، فأمده بالمعونة اللازمة، ثم اتجه صلاح الدين بعد ذلك إلى بانياس- على بعد بضعة كيلو مترات من طبرية لمراقبة الموقف(٤). وفى ذلك الوقت، جمع الملك جاى لوزجنان جيوشه فى الناصرة لمهاجمة طبرية- وهى المدينة الصليبية التابعة لأمير صليبى- بدلا من أن يوجه جهوده ضد تجمعات صلاح الدين وحشود المسلمين. على أن بعض أمراء الصليبيين تدخلوا فى اللحظة الأخيرة لإفهام الملك جاى لوزجنان حقيقة الموقف، فأقنعوه بإرسال مبعوث إلى ريموند أمير طرابلس للوساطة بين الطرفين، وفى الوقت نفسه حثوه على توجيه جهود الصليبيين ضد صلاح الدين والمسلمين(٥).

وقد رأى صلاح الدين فى ربيع سنة ١١٨٧ أن يرسل قوة استطلاعية من بضعة آلاف جندى بقيادة مظفر الدين كوكبرى صاحب حران والرها، وبدر الدين دلدرم الياروقى أمير عسكر حلب، وصارم الدين قايماز النجمى أمير عسكر الدماشقة،

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١١٨ .

(2) King: The Knikghts Hospitallers, p. 118.

(3) Eracles. P. 34-35.

(٤) يقول أبو شامة عن علاقة ريموند بصلاح الدين في تلك الفترة: التجأ القمص الي ظل السلطان فصار له من جملة الأتباع، فقبله السلطان وقواه، وشد عضده باطلاق من كان في الاسر من أصحابه. فقويت مناصحته للمسلمين، حتي كاد لولا خوف اهل ملته يسلم، (أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٣، ص٧٤).

(5) Ernoul. P. 141-143.

لتقوم هذه القوة بالإغارة على إقليم عكا[١]. على أنه لكى تصل تلك القوة من بانياس إلى عكا لابد لها من اختراق إقليم الجليل، فاستأذن صلاح الدين أمير الجليل ريموند الثالث- الذى كان عندئذ بطبرية- فى ذلك. وهنا وجد ريموند نفسه فى موقف لا يحسد عليه، لأنه بحكم تحالفه مع صلاح الدين مضطر إلى خيانة الصليبيين والسماح لقوات المسلمين بالمرور. ولم يجد ريموند مفراً من السماح للمسلمين بالمرور، ولكن بعد أن أعطى تعليماته لكافة المدن الصليبية الواقعة فى إقليم الجليل- مثل طبرية والناصرة- بإغلاق أبوابها حتى لا تعطى المسلمين فرصة للاستيلاء عليها[٢].

على أنه عندما علم مقدم الداوية جيرارد دى ريدفورت Gerard de Ridefort بأن بعض قوات صلاح الدين ستمر بإقليم الجليل، أسرع بجمع بضع مئات من الصليبيين وحاول أن يتصدى للمسلمين قرب صفورية[٣]. وهناك دارت معركة رهيبة فى أوائل شهر مايو سنة ١١٨٧ سقط فيها معظم الصليبيين بين قتلى وأسرى، وكان من جملة القتلى مقدم الاستبارية وعدد كبير من أبرز فرسانهم[٤]، فى حين لم ينج من الخمسمائة صليبى سوى عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، من بينهم مقدم الداوية[٥]. وعندما أسرعت قوة من الصليبيين إلى صفورية لنجدة إخوانهم، كانت المعركة قد انتهت، فأسر المسلمون تلك النجدة وعادوا بها سالمين غانمين[٦]، وهم يحملون رءوس أعدائهم على أسنة الحراب[٧].

ولم يكن ذلك النصر سوى باكورة البركات ومقدمة ما بعدها من ميامن الحركاتعلى قول أبى شامة[٨]. وسرعان ما أفاق الصليبيون وعاد زعماؤهم إلى رشدهم، فأسرع ريموند الثالث أمير طرابلس إلى الدخول فى طاعة الملك جاى

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٣، ص٧٥ .

(2) Grousset: op. cit, II, p. 782.

(3) Ernoul. P. 146.

(4) King: op. cit, p. 120.

(٥) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ. Eracles. II, P. 40 I 41.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٨٧ .

(7) L'Estoire d`Eracles, II, p. 41.

(٨) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٧٦ .

لوزجنان ورضى أن يسير تحت رايته لمحاربة المسلمين[١]. وقد اختار الصليبيون صفورية– قرب عكا– نقطة لحشد جيوشهم فيها، ومعهم صليب الصلبوت[٢]. وعندما علم صلاح الدين أن ريموند نقض الهدنة والاتفاقية المعقودة بين الطرفين زحف على طبرية فى أوائل يوليو سنة ١١٨٧، فاقتحمت جيوشه المدينة وأحرقتها ماعدا قلعتها التى لم يستطع المسلمون الاستيلاء عليها[٣]. وكانت إشيفا Eschiva أميرة طرابلس والجليل وزوجة ريموند الثالث قد احتمت داخل تلك القلعة وظلت داخلها[٤].

وهنا تبدو مهارة صلاح الدين العسكرية، إذ كان يتوق للاشتباك فى معركة فاصلة مع الصليبيين، ولكنه يريد أن يجبرهم على المسير إليه، حتى يصلوا متعبين ويكون هو مدخراً جهده وجهد رجاله. ولذلك استهدف صلاح الدين من مهاجمة طبرية أن يدفع الصليبيين إلى ترك مراكزهم عند صفورية والزحف إليه فى اتجاهه لتخليص طبرية[٥]. وفعلا نجحت خطة صلاح الدين، إذ ثارت ثائرة الصليبيين لهجوم صلاح الدين على طبرية وغاظ ذلك الفرنج فعقد زعماؤهم مجلساً للحرب فى عكا لبحث الموقف. وفى ذلك المجلس رأى بعض الزعماء الزحف من صفورية إلى قوات صلاح الدين فى طبرية، فى حين رأى البعض الآخر– وعلى رأسهم ريموند الثالث نفسه– خطورة تلك العملية لصعوبة الطريق وقلة الماء.

وكان المفروض أن يكون ريموند الثالث على رأس المتحمسين للزحف على طبرية لإنقاذ المدينة وزوجته، ولكنه أدرك خطورة ذلك العمل، وعبر عن رأيه فى خطبة ألقاها على زعماء الصليبيين وذكرها مؤرخو الفرنجة[٦]، فضلا عن ابن الأثير

---

(1) Ernoul. P. 146 &

ويذكر ابن الاثير (حوادث ٥٨٣هـ) ، فلما رأي الفرنج اجتماع العساكر الاسلامية، وتصميم العزم علي قصد بلادهم، أرسلوا إلي القمص (ريموند الثالث أمير طرابلس) البطرق والقساوس والرهبان وكثيرا من الفرسان، فانكروا عليه انتماءه إلي صلاح الدين... فلما رأي القمص شدة الأمر عليه خاف، فاعتذر وتنصل وتاب....

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢ . المقريزي: السلوك ج١ ص ٩٣ .

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص,٧٦

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.

(٥) يقول أبو شامة في ذلك فلما رأي السلطان أنهم لا يبرحون ومن قرب صفورية لا ينزحون... نزل علي مدينة طبرية وعلم أنهم إذا علموا بنزوله عليها بادروا للوصول إليها، فحينئذ يتمكن من قتالهم ويجهد في استئصالهم.... (كتاب الروضتين، ج٢ ص ٧٦) . أما ابن الأثير فيؤكد هذا المعني نفسه ويقول انما كان قصده بمحاصرة طبرية أن يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم. (الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ) .

(6) Eracles. P. 49-51 & Ernoul. P. 159-160.

الذى أتى بنص دقيق لمعانيها[١] . أما الأدلة التى حاول بها ريموند أن يدعم وجهة نظره، فأهمها أن المسلمين لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئا بعد الاستيلاء على طبرية، وأنهم لم يلبثوا أن ينصرفوا إذا تحاشى الصليبيون الاصطدام بهم، كما حدث فى المرات السابقة. فإذا فرض وأنهم زحفوا على الصليبيين فى صفورية فإن الصليبيين سيكونون فى مركز أفضل، لأن المسلمين سيصلون مجهدين بسبب وعورة الطريق وطوله وحرارة الجو وقلة الماء[٢] .

على أن هذا الرأى لم يعجب أرناط، فاتهم ريموند بأنه بالغ فى التخوف من المسلمين وأنه يريدهم ويميل إليهم[٣] . وأخيراً نجح أرناط صاحب الكرك وجيرارد دى ريدفورت مقدم الداوية فى إقناع جاى لوزجنان – ملك بيت المقدس الضعيف المتردد– بالزحف على طبرية. وهكذا بدأ الجيش الصليبى زحفه فى أوائل يولية سنة ١١٨٧ فى ظروف بالغة السوء، فروح الصليبيين المعنوية منحطة، وجزء كبير منهم لم يكن من أنصار السير فساروا مكرهين، هذا كله بالإضافة إلى حرارة الجو فى شهر يوليو وقلة الماء وصعوبة الطريق الذى بلغ طوله ستة عشر ميلا[٤] .

وفى الوقت الذى كان الصليبيون يتحملون كل هذه المشاق فى زحفهم، إذا بصلاح الدين ورجاله ينتظرون قرب طبرية، منعمين بالماء الوفير والظل المديد، مكتنزين قواهم لساعة الفصل[٥] . لذلك لا عجب إذا أظهر صلاح الدين سروره وارتياحه عندما علم بزحف الصليبيين إليه، وقال جاءنا ما نريد...[٦] .

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.

(2) Stevenson: op. cit, p. 244-245.

وقد ذكر ابن واصل مفرج الكروب ج٢ ص ١٨٦ رأيا مخالفاً لذلك، فقال إن ريموند الثالث عندما علم باستيلاء صلاح الدين علي طبرية قامت قيامته وقال للفرنج: لا قعود لنا بعد اليوم، وإذا أخذت طبرية ذهبت منا البلاد بأسرها، فوافقوه ورحلوا بجموعهم نحو السلطان ويبدو أن ابن واصل نقل هذا الرأي عن عماد الدين الكاتب. (الفتح القسي ص ١٨–١٩) . علي أن هذا الرأي يبدو لنا بعيداً عن الحقيقة ومخالفاً للروايات الصليبية نفسها، وبعض أصحابها شهود عيان.

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.

(4) King: The Knikghts Hospitallers, p. 125-126.

(٥) نظير حسان سعداوي: التاريخ الحربي المصري، ص ١٧٩–١٨٢ .

(٦) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٩٦: كذلك يقول ابن واصل: ولما بلغ السلطان حركتهم سر بذلك (مفرج الكروب، ج٢ ص ١٨٩).

وكان كل ما فعله صلاح الدين عندما تأكد من تحركّ الصليبيين صوبه هو أنه تقدم نحو خمسة أميال حيث رابض غربي طبرية عند قرية حطين، وهى قرية غنية المرعى وفيرة الماء، بها قبر النبى شعيب عليه السلام[١].

ولم تنقطع إغارات المسلمين على الصليبيين أثناء زحفهم الشاق من صفورية إلى حطين. وكان يوم ٣ يوليو يوماً شديد الحرارة راكد الهواء عندما أدرك الصليبيون سطح جبل طبرية المشرف على سهل حطين[٢]؛ وهى منطقة على هيئة هضبة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ثلاثمائة متر، ولها قمتان، مما جعل العرب يطلقون عليها اسم قرون حطين. وبوصول الصليبيين إلى تلك الهضبة، كانوا قد بلغوا حالة سيئة من الإنهاك واشتد بهم العطش[٣]، فى حين على مقربة منهم وفى أسفل الهضبة ذاتها تقع قرية حطين ثم بحيرة طبرية بمائها الوفير، ولكن حال بينهم وبين الوصول إلى ذلك الماء صلاح الدين وجيوشه[٤]. ومهما يكن من أمر فإن الداوية وريموند الثالث أبلغوا الملك أنهم لا يستطيعون مواصلة الزحف فى ذلك اليوم وأنه من الخير قضاء الليل فوق الهضبة، فى حين أصر بعض الأمراء على ضرورة شق طريقهم فوراً إلى البحيرة لإطفاء نار عطشهم. ولما وجد جاى أن معظم رجاله لا يقوون على السير بسبب الإنهاك والعطش أمر بأن يقضى الصليبيون ليلتهم فوق الهضبة بعيداً عن خطر المسلمين[٥].

وهكذا تم لصلاح الدين ما أراد، فقضى الصليبيون ليلتهم يئنون من العطش والإنهاك، وهم يسمعون أصوات المسلمين فى سهل حطين وقد أكثروا التكبير والتهليل طوال ليلتهم. وربما دفع العطش بعض الصليبيين إلى التسرب ليلا لمحاولة الوصول إلى الماء، ولكن المسلمين وقفوا لهم بالمرصاد ليقضوا عليهم قبل أن يصلوا إلى هدفهم. هذا إلى أن المسلمين أشعلوا النار فى الأعشاب والأشواك التى تكسو الهضبة، وكانت الريح على الفرنج فحملت حر النار والدخان إليهم، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال...[٦].

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢١ . ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٨٩ .

(2) L'Estoire d`Eracles, II, p. 173.

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.

(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٧٦ . فحجز (صلاح الدين) بينهم وبين الماء واليوم قيظ.

(5) Michaud: op. II, p. 282-283.

(٦) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ. أما أبو شامة فيقول: فبلغوا وهم أهل التثليث من نار الدنيا بثلاثة أقسام في الاصطلاء والاصطلام.. نار الضرام (حريق الأعشاب) ونار الأوام (العطش) ونار السهام!... كتاب الروضتين ج٢ ص٧٧).

وعندما أشرقت شمس يوم السبت ٤ يوليو، وجد الصليبيون أن صلاح الدين استغل ستار الليل ليحيط بهم إحاطة الدائرة بقطرها[١]. وبذلك بدأ هجوم المسلمين على الصليبيين فى ظروف هى أسوأ ما تكون بالنسبة للجيش الصليبى، ويذكر القاضى ابن شداد والمؤرخ أبو المحاسن أن المسلمين أدركوا أن من ورائهم الأردن ومن بين أيديهم بلاد العدو وأنهم لا ينجيهم إلا القتال والجهاد[٢]، ولذلك استماتوا فى القتال وشددوا هجماتهم على الأعداء. أما الصليبيون فقد تعذر عليهم الصمود طويلا وهم على تلك الدرجة من الإنهاك والعطش فأخذتهم سهام المسلمين، وكثر فيهم الجراح، وقوى الحر وسلبهم العطش القرار...[٣].

وفى تلك المحنة التى حلت بالصليبيين لم يستطع النجاة سوى ريموند كونت طرابلس ومعه قلة من رجاله، ففروا تجاه صور[٤]. وقد وصفه ابن شداد بالذكاء لأنه بادر بالهرب عندما رأى إمارات الخذلان نزلت بأهل دينه[٥]. ويفسر ابن الأثير الطريقة التى نجا بها أمير طرابلس فقال إنه عندما أيقن هلاك الصليبيين، أراد الفرار بأية وسيلة فحمل حملة مكروب وعندئذ فتح له تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين طريقاً خرج منه، وبعد أن خرج التأم الصف[٦].

أما بقية الصليبيين فقد آووا إلى جبل حطين ليعصمهم من البلاء، فأحاط المسلمون بالجبل، وظلوا يطاردونهم من أسفل والصليبيون يتراجعون أمامهم نحو أعلى الجبل، أى فى اتجاه قرون حطين[٧]. وفى تلك الأثناء سقط أسقف عكا قتيلا ووقع من يديه صليب الصلبوت فاستولى عليه المسلمون، وكان ذلك من أعظم المصايب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك[٨]. وهكذا ظل المسلمون يزحفون نحو قمة الجبل وأمامهم الصليبيون يتراجعون والقتل والأسر يعملان فى فرسانهم، حتى بقى ملك بيت المقدس وحوله مائة وخمسون من الفرسان[٩]، فقبض عليهم المسلمون جميعاً، وهم متساقطون

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢١ . أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٢ .

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٩٠ .

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٧٧ . . Eracles. II, P. 64-65.

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢٢ .

(٦) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.

(٧) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٩٠ .

(٨) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي ص ٢٣ .

(9) Besant, Palmer: Jerusalem, p. 391.

على الأرض لا يستطيعون حراكاً من الإنهاك والعطش والخوف[١].

ولم يلبث أن سيق الملك جاى لوزجنان، وأرناط صاحب حصن الكرك، وجيرارد دى ريدفورت مقدم الداوية ... وغيرهم من أكابر الصليبيين إلى صلاح الدين فى خيمته. وبعد أن صلى صلاح الدين صلاة الشكر على هذه النعمة، أمر بإحضار ملك الفرنجة وأمرائهم، فاستقبلهم استقبالا حسناً، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش. وقد بادر صلاح الدين بتقديم إناء به ماء مثلوج للملك جاى، فشرب منه، وأعطى ما تبقى لأرناط فشرب، وعندئذ غضب صلاح الدين وقال إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذنى فيناله أمانى[٢]. وفى رواية صاحب كتاب الروضتين أن صلاح الدين قال لملك بيت المقدس لم تأخذ فى سقيه منى إذناً، فلا يوجب ذلك له منى أمناً[٣]. وبعد ذلك التفت صلاح الدين نحو أرناط وذكره بجرائمه وخيانته وقرعه بذنوبه وعدد عليه غدراته، وقال له كم تحلف وتنكث؟ فرد أرناط لسان الترجمان قد جرت بذلك عادة الملوك!! وعندئذ أمسك صلاح الدين بسيفه وأطاح برأسه، فجاء ذلك وفاء نذره[٤]. ويبدو أن قتل أرناط على تلك الصورة أخاف جاى لوزجنان فارتاع وانزعج[٥]، وظن أن دوره آت، ولكن صلاح الدين هدأ من روعه وقال له لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، أما هذا فإنه تجاوز حده فجرى عليه ما جرى[٦]. ثم أمر صلاح الدين رجاله برعاية أمراء الصليبيين وأسرهم. أما أسرى الداوية والاسبتارية فقد استحضرهم صلاح الدين وجعل لكل من يحضر واحداً منهم مكافأة، ثم أمر بضرب أعناقهم، مما يدل على استيائه منهم البالغ وحنقه عليهم[٧].

---

(1) Eracles. P. 65.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ. ويفسر للقاضى ابن شداد هذا التصرف من جانب صلاح الدين فيقول: وكان علي عادة جميل العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن بذلك. (النوادر السلطانية، ص ١٢٤).

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٧٩.

(٤) يروي ابن شداد (ص ١٢٤) وابن واصل (ج٢ ص ١٩٥) أن صلاح الدين قبل أن يضرب أرناط ويسقطه قتيلا صاح فيه انتصر لمحمد صلي الله عليه وسلم وكان ذلك رداً علي ما قاله أرناط من قبل لأسري القافلة قولوا لمحمد يخلصكم.

(٥) عماد الدين الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٢٣.

(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢٥. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٩٥.

(٧) عماد الدين الأصفهاني: الفتح القسي، ص٢٤ والمعروف أن فرسان الاسبتارية والداوية كانوا أشد فئات الصليبيين تعصبا وأكثرهم نكاية في المسلمين، وقيل إنه كان لا يقع في أيديهم مسلم إلا قتلوه.

وبعد ذلك النصر المبين، انصرف صلاح الدين من حطين، فى حين سيق الأسرى إلى دمشق حيث حبس الأمراء وبيع عامة الفرسان والجند فى أسواق الرقيق. وقد بلغ من كثرة الأسرى أن الأسير كان يباع فى دمشق بثلاثة دنانير، وكان يباع الرجل وزوجته وأولاده فى المناداة بيعه واحدة!. (بالجملة). وقد بلغ سعر الجملة للأسرة المؤلفة من الصليبى وزوجته وأبنائه الثلاثة وابنتيه، ثمانين ديناراً(١).

استرداد بيت المقدس وانهيار مملكة الصليبيين:

كانت حطين أعظم من مجرد نصر حربى أحرزه المسلمون. لقد كانت فى حقيقة أمرها بشيراً بنجاح المسلمين فى القضاء على أكبر حركة استعمارية شهدها العالم فى العصور الوسطى(٢).

ومن ناحية أخرى، فإن حطين كانت أفدح من مجرد كارثة حربية حلت بالصليبيين، لأنه لم ينتج عنها أسر جاى لوزجنان ملك بيت المقدس وضياع هيبة مملكته وسلطتها الفعلية إلى الأبد فحسب، وإنما نتج عنها أيضاً نقص ملموس فى الفرسان المحاربين بعد أن سقطت زهرة فرسان الصليبيين، وغالبية جيش مملكة بيت المقدس بين قتلة وأسرى فى حطين، فمن شاهد القتلى قال ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل!..(٣).

وليس بخاف علينا أن الإمارات الصليبية التى خلقت خلقاً ضعيفاً فى أواخر القرن الحادى عشر، وظلت منذ ذلك الوقت تعانى نقصاً شديدا فى المحاربين والسكان الغربيين، كانت لا تستطيع أن تتحمل الكارثة التى نزلت بها فى حطين. حقيقة أنها استطاعت الصمود قرابة قرن من الزمان، ولكن بقاءها طوال تلك المدة لم يكن وليد قوتها بقدر ما كان نتيجة القوى الإسلامية وتفككها فى منطقة الشرق الأدنى، وبخاصة فى مصر والشام(٤).

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٨٢ .

(٢) عبر المسلمون عن فرحهم بانتصارهم في حطين بمختلف الصور، ونظم الشعراء كثيرا من القصائد في التغني بيوم حطين والإشادة ببطولة صلاح الدين، ومن ذلك قول العماد:

يا يوم حطين والأبطال عابسة   وبالمعالجة وجه الشمس قد عبسا

رأيت فيه عظيم الكفر محتقراً   معفراً خده والأنف قد تعسا   (أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٨٣).

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٨٧ .   ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ١٩٣ .

(4) Stevenson: op. cit, p. 284-285.

وهكذا أصبحت بلاد الشام الصليبية غداة موقعة حطين تحت رحمة صلاح الدين، فشرع بفتح البلاد والمدن الصليبية واحدة بعد أخرى فتحا متواصلا. ولعل أهم ما يسترعي الانتباه في ذلك الدور من الحروب الصلاحية، هو اعتدال صلاح الدين وبعده عن التطرف، وتمسكه بمبادئ الأخلاق والرحمة والتسامح، وهو الأمر الذي شهد له به كافة المؤرخين، الغربيين والشرقيين سواء[1]. من ذلك أنه عندما استسلمت قلعة طبرية لصلاح الدين في اليوم التالي لموقعة حطين، فإنه عامل الأميرة إشيفا Eschiva معاملة كريمة وأخرجها من حصنها بالأمان ووفى لها وللفرسان بينها بشروط الإيمان، فخرجت بمالها ورجالها ونسائها، وسارت إلى طرابلس بلد زوجها القومص (ريموند الثالث) بمالها وحالها[2].

وكان من الأمراء القلائل الذين نجوا من موقعة حطين الأمير باليان الثاني دي إيلين[3]، الذي تزوج الملكة ماريا كومنين أرملة عموري الأول. وقد سمح له صلاح الدين بالذهاب إلى بيت المقدس، بشرط عدم المبيت فيها أكثر من ليلة واحدة لأخذ زوجته وأولاده. وعندما وصل باليان إلى بيت المقدس وجد المدينة في حالة يرثى لها لعدم وجود فرسان يدافعون عنها إذ لم يبق بها سوى النساء والرهبان، فضلا عن انهيار الروح المعنوية للأهالي عقب ما سمعوه من أنباء كارثة حطين وأسر ملكهم[4]. وقد فرح الصليبيون في بيت المقدس برؤية باليان وتوسلوا إليه بالدموع ليبقى معهم ويدافع عنهم، فنسي وعده لصلاح الدين، وأخذ يعمل في سرعة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الحطام الصليبي. ذلك أنه جمع من استطاع جمعهم من الفرسان وأبناء الفرسان فوق سن الخامسة عشرة، فضلا عن الصناع والتجار الصالحين للقتال، ثم لجأ بالاتفاق مع البطريق إلى الاستيلاء على ما بكنيسة القيامة من نفائس معدنية وأوان فضية لصهرها وضربها نقوداً يستعين بها على قضاء حاجات الدفاع واستئجار الجند[5]. ومع ذلك فإنه من الواضح أن جميع تلك الإجراءات كانت واهية، لا تكفي لإنقاذ بيت المقدس بسبب نقص العنصر البشري في الحرب والدفاع، وبخاصة الفرسان المدربون[6].

---

(1) Eracles. P. 171 & Grousset: II, p. 800.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٧٩.

(٣) وهو الذي أطلق عليه المؤرخون العرب اسم (ابن بارزان). (كتاب الروضتين، ج٢ ص ١١٥) وكذلك (ابن واصل: مفرج الكروب ج٢ ص ٢١١).

(4) Besant, Palmer: Jerusalem, p. 393.

(5) Eracles. II, P. 70.

(6) Setton: op. cit, p. p. 613.

على أن صلاح الدين لم يلبث أن خيب ظن الصليبيين، بدلا من أن يتجه إلى بيت المقدس ليستولى عليها استيلاء آمناً سهلاً، إذ به يتجه صوب عكا أولا. وربما كان ذلك مظهراً من مظاهر عبقرية صلاح الدين الحربية وبعد نظره، إذ اختار أن يبدأ أولا بالاستيلاء على المدن الصليبية الساحلية، ليحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التى تربطهم بالعالم الخارجى، وبخاصة الغرب الأوروبى، فيسموا محصورين داخل بلاد الشام، وبعد ذلك تتساقط فى يده المعاقل والمدن الصليبية فى الداخل بعد أن ينقطع الشريان الذى يربطها بقلب الحركة الصليبية، وهو الغرب الأوروبى. هذا فضلا عن أن استيلاء صلاح الدين على عكا وغيرها من موانئ الشام الصليبية سيمكنه من تحقيق الاتصال البحرى السريع بين شطرى دولته فى مصر والشام[1].

أما عكا، فلم تكن عندئذ أحسن حالا من بيت المقدس، بسبب افتقارها الى الفرسان والمقاتلين. وكان حاكم عكا- جوسلين الثالث دى كورتناى- أحد الفرسان المعدودين أيضاً، الذين نجوا من حطين مع ريموند الثالث وباليان الثانى[2]. ولم يجد جوسلين وسيلة للدفاع عن عكا سوى إعطائها لريموند الثالث أمير طرابلس. على أن جوسلين الثالث نفسه كان ضعيفاً متخاذلا، فلم تكد مقدمة الجيش الإسلامى تقترب من عكا، حتى انهارت مقاومته وعرض على المسلمين تسليم المدينة[3].

ولم يلبث صلاح الدين أن وصل بنفسه فى ٨ يونية أمام عكا، حيث أرسل له جوسلين مفاتيح أبواب المدينة بشرط تأمينهم وخيرهم الإقامة والظعن[4]. وقد غنم المسلمون فى عكا غنائم طائلة، واستولوا على مقادير ضخمة من الأموال والذخائر والبضائع، لأن هذه المدينة بالذات كانت ذات مكانة تجارية مهمة وعن طريقها تتم معظم تجارة الصليبيين مع الغرب، أو على حد تعبير أبى شامة فإنها كانت مظنة التجار[5].

على أن بعض أهالى عكا من الصليبيين لم يعجبهم موقف جوسلين، وعز عليهم أن تستسلم المدينة للمسلمين دون مقاومة، فأشعلوا النار فى بعض أحيائها

(1) Stevenson: op. cit, p. 249.
(2) Grousset: op. cit, II, p. 802.
(3) Runciman: op. cit. II. 460-461.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص ٢٠١ .
(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٨٦ .

ومبانيها. ولكن كل ذلك لم يحل دون دخول صلاح الدين عكا يوم ١٠ يولية سنة ١١٨٧[١]. ولم يلبث أن وجد الصليبيون داخل عكا فى صلاح الدين قلباً رحيما كبيرا فوهب لهم عصمة الأنفس والأموال[٢]. ويقال إن صلاح الدين أطلق أربعة آلاف من أسرى المسلمين كانوا فى عكا، ورتب فى كنيستها العظمى منبراً أقيم فيه الجمعة، كما أقطع مدينة عكا ذاتها لابنه الأفضل[٣].

ومن الواضح أن ذلك المسلك المعتدل الذى سلكه صلاح الدين تجاه الصليبيين إنما ساعده فى الاستيلاء على كثير من المدن الصليبية الساحلية والداخلية، كما أدى إلى احتفاظ عكا وغيرها من الموانئ الساحلية بعناصرها النشيطة فى الميدان التجارى- مثل البنادقة والجنوية والبيازنة والقطلان- مما أدى إلى استمرار رواج الحياة الاقتصادية فى بلاد الشام[٤]. هذا وإن كانت المصادر العربية لا تخلو من إشارات عن الأموال الطائلة التى فرقها صلاح الدين وابنه الأفضل على رجاله وأصحابه مما غنمه المسلمون بعكا[٥].

وبينما أقام صلاح الدين فى عكا، وجه عساكره للاستيلاء على المعاقل القريبة فاستولوا على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية، ومعليا والشقيف والفولة والطور، وغيرها من المواقع والحصون القريبة من عكا[٦]. وفى ذلك الوقت هاجم العادل - أخو صلاح الدين - المدن الساحلية فى فلسطين، فاستولى على حصن مجدل يابا (مجد ليابا)- بين يافا ونابلس- وهاجم يافا نفسها فقاومته، ولكنها سقطت أخيراً فى يده[٧].

كذلك وجه صلاح الدين ابن أخته حسام الدين بن لاجين فاستولى على سبسطية- وفيها قبر زكريا عليه السلام- كما استولى على قلعة تبنين وهى من القلاع المنيعة، ولكنه صادف مقاومة شديدة من حاميتها جعلته يستنجد بخاله صلاح الدين

---

(1) Eracles. II, P. 70-71.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ. أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٨٦ .

(٣) المقريزي: السلوك ج١ ص ٩٣, وكان هذا (المكان جامعاً للمسلمين قديما، ثم جعله لفرنج بيعة، ثم جعله صلاح الدين جامعا. (ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ).

(4) Grousset: op. cit, II, p. 803.

(٥) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ. أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٨٦ .

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢٠٢ .

(٧) المقريزي: السلوك ج١ ص ٩٥ .

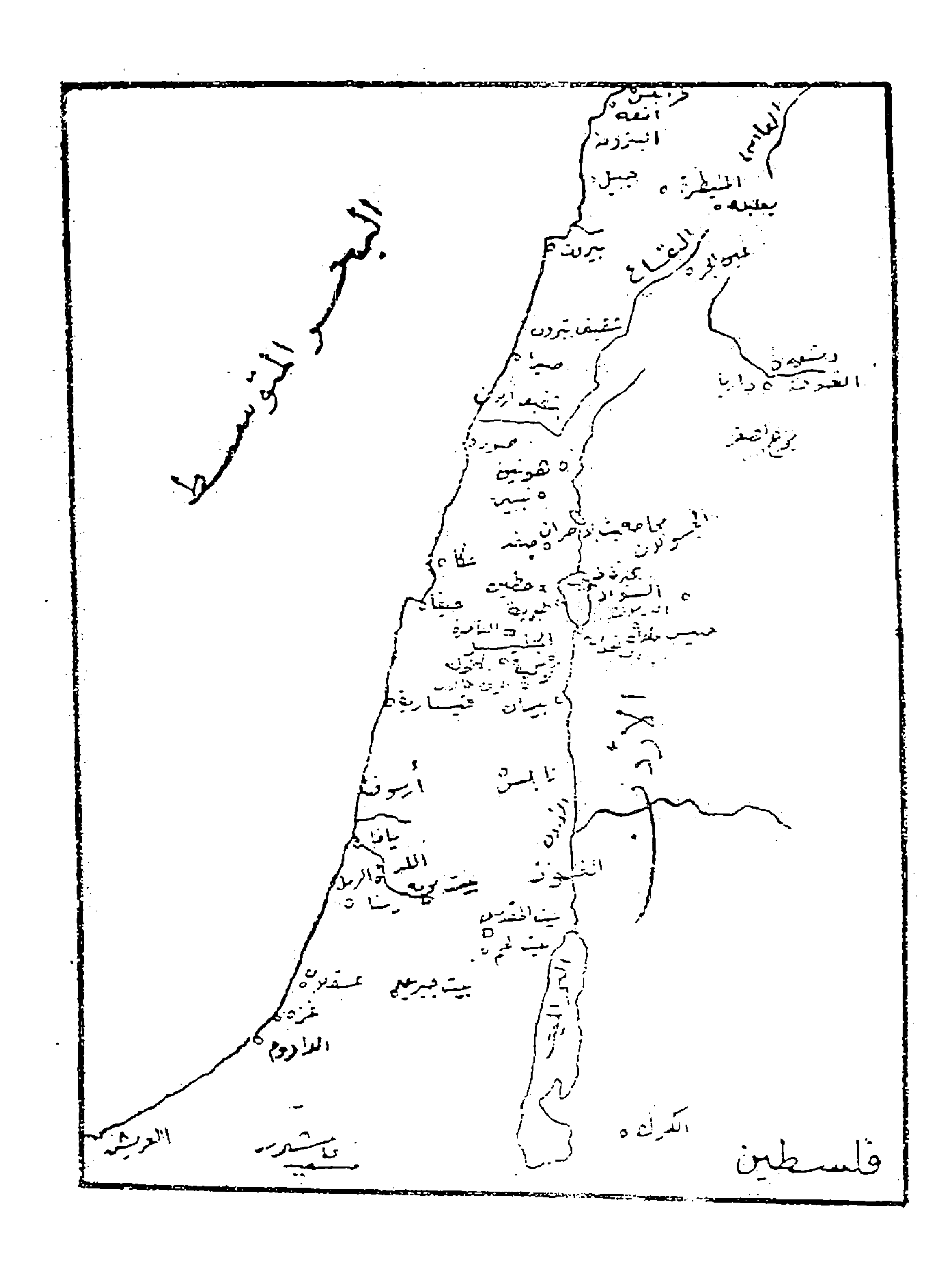
الذى أسرع إليه وضيق عليها بالزحف والخناق حتى استسلمت القلعة فى نهاية الأمر فى ٢٩ يولية سنة ١١٨٧، وعندئذ وفى صلاح الدين بوعده فسمح لحاميتها بالخروج منها فى أمان[(١)] . وعلى العكس من ذلك استسلمت صرفند وصيدا للمسلمين دون أدنى مقاومة فأخذوها صفواً عفواً بغير قتال[(٢)] فى أواخر سنة ١١٨٧ . وبذلك جاء دور بيروت التى ظهر صلاح الدين أمامها فى نهاية يوليو. وكانت بيروت– على قول ابن الأثير– أحصن مدن الساحل فى بلاد الشام، وفضلا عن حصنها وجمالها، فتحصن الصليبيون وراء أسوارها وحاولوا الدفاع، ولكنهم كانوا من التجار وأصحاب الحرف، ولم تكن معهم قوة من الفرسان تجيد شئون الحرب، فاستسلموا لصلاح الدين فى سادس أغسطس سنة ١١٨٧[(٣)] .

وبعد ذلك اتجه صلاح الدين نحو جبيل، التى كان صاحبها هيو الثالث قد أسر فى طبرية، والذى عرض على صلاح الدين استعداده لتسليم جبيل مقابل إطلاق سراحه. وفعلا استحضره صلاح الدين من دمشق فى قيده حيث أمر الحامية بالتسليم، فاستولى عليها صلاح الدين[(٤)] . وهنا يلاحظ أنه إذا كان صلاح الدين قد استولى على معظم المدن والقلاع والمراكز الساحلية فى جنوب بلاد الشام، إلا أنه ترك من فيها من الصليبيين أحراراً، كما ترك لهم حرية البقاء أو الخروج، فقصد معظمهم مدينة صور حيث تجمعت البقايا الصليبية المختلفة عن مملكة بيت المقدس، وسرعان ما أدرك صلاح الدين أن أمر صور غدا صعباً، بعد أن اجتمع فيها كل أفرنجى بقى فى الساحل فتركها مؤقتاً وآثر الانصراف إلى غيرها[(٥)].

وقبل أن يتجه صلاح الدين إلى بيت المقدس، اختار أن يستولى أولا على عسقلان، ذلك المركز المهم الذى طالما اتخذه الصليبيون قاعدة لتهديد مصر من

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢٠٢ . المقريزي: السلوك ج١ ص ٩٥ .
(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢٦ . ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢٠٥–٢٠٦ .
(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.
(٤) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي، ٣٥ .
(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢٦ .


البحر المتوسط
جبيل
بيروت
صيدا
عكا
قيسارية
أرسوف
نابلس
يافا
الداروم
العريش
فلسطين

ناحية، وقطع المواصلات بينها وبين الشام من ناحية أخرى[١]. وعندما وجد صلاح الدين أن عسقلان ربما أتعبته بسبب قوة تحصينها وإصرار حاميتها الصليبية على المقاومة، استحضر الملك جاى لوزجنان وجيرارد دى مونتفورت مقدم الداوية من دمشق، ووعدهما بتحريرهما إذا ساعداه بنفوذهما الأدبى والمعنوى على حمل البقايا الصليبية فى فلسطين على الاستسلام [٢]. ولكن أهل عسقلان رفضوا الاستجابة للملك وزميله وردوا عليهما أقبح رد[٣]. وفى تلك الأثناء استولى صلاح الدين على مواقع عديدة كالرملة ويبنا والداروم (الدارون). كذلك قبل مقدم الداوية أن يسلم صلاح الدين غزة والنطرون وبيت جبرين (جبريل)، وهى القلاع التى كانت بأيدى الداوية فى فلسطين[٤]. أما أهل عسقلان الذين رفضوا الاستجابة للملك جاى أو لمقدم الداوية، فقد استمروا فى مقاومة صلاح الدين حتى نفدت مقاومتهم، فطلبوا الأمان؛ وعندئذ أمنهم صلاح الدين على أرواحهم وأملاكهم. وعند استيلاء صلاح الدين على عسقلان فى أوائل سبتمبر سنة ١١٨٧، اقتيد أهلها من الصليبيين إلى الدلتا، حيث قضوا فصل الشتاء فى الإسكندرية متمتعين بحماية صلاح الدين ورعايته، حتى رحلوا إلى غرب أوروبا فى مارس من العام التالى[٥].

وقد أطلق صلاح الدين سراح جيرارد مقدم الداوية مقابل ما أداه من معونة لصلاح الدين، لاسيما فى حثه حامية غزة على الاستسلام[٦]. أما جاى لوزجنان الذى لم يستطع أن يحقق العمل الذى وعده صلاح الدين بتحريره فى مقابله، فقد أرسل إلى نابلس. وفى الوقت نفسه وافق صلاح الدين على إرسال رسالة للأميرة سيبل زوجة جاى فى بيت المقدس لدعوتها للحضور إلى نابلس للإقامة مع زوجها. وكان أن رحبت سيبل بتلك الدعوة وأسرعت إلى نابلس لتقيم إلى جانب زوجها الأمير جاى لوزجنان[٧].

---

(١) يذكر ابن واصل أن عسقلان كانت عند صلاح الدين، أهم من غيرها لأنها علي طريق الديار المصرية، فإذا أخذت أمنت الطريق واتصلت القوافل. (مفرج الكروب، ج٢، ص ٢٠٩).

(2) Eracles. II, P.p 78-79 & Ernoul. 184.

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.

(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٨٧-٨٨، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢٧ .

(5) Ernoul. P. 232-233 and ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣هـ.

(٦) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٨٧-٨٨، ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.

(7) Eracles. II, P. 79.

وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين فى داخلية فلسطين سوى بيت المقدس، فأخذ يستعد للاستيلاء عليها. وكان صلاح الدين قد استقبل- وهو أمام عسقلان- بعثة من أهل بيت المقدس، فعرض عليهم تسليم المدينة بالشروط نفسها التى استسلمت بها بقية المدن الصليبية، أى يؤمنهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم، ويسمح لمن شاء منهم بالخروج من المدينة سالما(١). ولكن أهل بيت المقدس الذين أخذ باليان (ابن بارزان) يقوى فيهم روح المقاومة، رفضوا ذلك العرض، ورأوا أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون بيت المقدس(٢). وعندئذ أقسم صلاح الدين على أن يأخذ بيت المقدس بحد السيف. ومع ذلك فقد تصرف صلاح الدين مع من بداخل المدينة من الصليبيين تصرفاً كريماً، فسمح بخروج الملكة ماريا كومنين- أرملة عمورى الأول وزوجة باليان- وأمر بحراستها من بيت المقدس حتى طرابلس، كما سمح لغيرها من النساء والأطفال بالخروج من المدينة آمنين(٣).

ثم عاد صلاح الدين وكرر عرضه على أهل بيت المقدس من الصليبيين الاستسلام بشروط طيبة، وذلك رغبة منه فى عدم استخدام العنف مع مدينة لها حرمتها عند المسلمين والمسيحيين سواء، ولكنهم أصروا على موقفهم؛ وعندئذ قرر صلاح الدين أن لا يبرح حتى يبر قسمه، ويرفع بأعلا علمه(٤). وكان أن أعد صلاح الدين عدته لمهاجمة بيت المقدس، فنزل أولا بالجانب الغربى من المدينة، ولكنه وجد ذلك الجانب قوى التحصين مشحوناً بالمقاتلين(٥)، فأخذ يطوف حول المدينة خمسة أيام ليتحسس مواطن الضعف فى أسوارها حتى استقر رأيه أخيراً على أن يركز هجومه فى الجهة الشمالية(٦). وفى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧ بدأ هجوم صلاح الدين عند باب عمود أو كنيسة صهيون- فى الجانب الشمالى من بيت المقدس- فحمل المسلمون

---

(1) Grousset: op. cit, II, p. 809.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢١١ .

(3) Eracles. II, P. 81-84.

(٤) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي، ص ٤٣ .

(٥) قدر المؤرخون المسلمون عدد مقاتلي الصليبيين داخل بيت المقدس عندئذ بأكثر من ستين ألفا. وهو عدد تبدو فيه المبالغة الواضحة ويتعارض تعارضاً حاداً مع ما ذكرته المصادر الصليبية المعاصرة من نقص المحاربين في المدينة. وربما كان السبب في تلك المبالغة هو الرغبة في إبراز قيمة العمل الذي قام به المسلمون بالاستيلاء علي بيت المقدس. (عماد الدين : الفتح القسي، ص ٤٣ . ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢١٢).

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢١٢ .

حملة رجل واحد حتى وصلوا إلى سور المدينة ونقبوه(١).

وفى الوقت الذى اشتد هجوم صلاح الدين على بيت المقدس، اتسعت رقعة الخلاف داخل المدينة بين طوائف المسيحيين من أرثوذكس، كاثوليك؛ حتى إن الفريق الأول نادى بأنه يفضل الحكم الإسلامى على سيطرة الكاثوليك الغربيين. وتشير بعض المصادر إلى تآمر الأرثوذكس فى بيت المقدس مع صلاح الدين، وإلى أن ثمة اتصالات سرية تمت بين الطرفين تعهد فيها الأرثوذكس بفتح أبواب المدينة(٢).

ولم يلبث باليان دى إيلين أن أدرك استحالة المقاومة، لاسيما بسبب نص الرجال والمقاتلين، حتى قيل إنه كان فى بيت المقدس عندئذ رجل واحد مقابل كل خمسين من النساء والأطفال(٣). لذلك أرسلوا جماعة من كبرائهم فى طلب الأمان وتسليم القدس بشرط احترام من بالمدينة من الصليبيين، والسماح لمن يشاء بمغادرتها، وكانت هذه الشروط نفسها هى التى سبق أن عرضها صلاح الدين من قبل ورفضها باليان. ولكن صلاح الدين امتنع فى تلك المرة وأصر على تسليم المدينة دون قيد أو شرط، لأنه أقسم على الاستيلاء عليها بحد السيف، وقال لرسل الصليبيين لا أفعل بكم إلا كما فعلتهم بأهله (أهل القدس) حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبى، وأجزى السيئة بمثلها(٤).

وعندما ساء موقف الصليبيين داخل بيت المقدس، أخذوا يتدبرون المصير القاسى الذى ينتظرهم، وعندئذ حاولوا مرة أخرى إقناع صلاح الدين بالعفو عنهم، فخرج باليان (ابن بارزان) بنفسه لاستعطاف صلاح الدين، ولما وجده مصراً على موقفه لجأ إلى مزيد من الترغيب والتهديد، فقال لصلاح الدين:إذا رأينا الموت لابد منه فوالله لنقتل أبناءنا ونساءنا ونحرق ما نملكه من أموالنا وأمتعتنا، ولا نتركGم تنعمون منا ديناراً ولا درهماً ولا تأسرون رجلا ولا امرأة. فإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرها من المواضع الشريفة، ثم نقتل من عندنا من أسرى

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٩٤ . المقريزي: السلوك ج١ ص ٩٦ .

(2) Grousset: op. cit, II, p. 811-812.

(3) Runciman: op. cit. II. P. 464.

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.

المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا إلا قتلناه. ثم خرجنا إليكم وقاتلنا قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله[١].

وكان أن استشار صلاح الدين أصحابه في الموقف، فوافقوا على ترك المسيحيين يغادرون المدينة مقابل فداء عشرة دنانير للرجل يستوى فيها الغنى والفقير وخمسة للمرأة، وواحد للطفل[٢]. أما الفقراء والمعدمون من الصليبيين فقد وافق صلاح الدين على أن يدفع باليان لسبعة آلاف منهم مبلغاً إجمالياً قدره ثلاثون ألف دينار[٣]. واشترط صلاح الدين أن يؤدى الصليبيون الفداء المفروض عليهم في مدى أربعين يوماً، وإذا انقضت الأربعون يوماً ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكاً(٤).

ويصور المؤرخون خروج الصليبيين من بيت المقدس عندئذ، وقد باعوا متاعهم بالمجان في سوق الهوان، واضطروا إلى ترك الكثير منه لثقله وصعوبة حمله. ويطبق أبو شامة عليهم الآية الكريمة (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوماً آخرين) الدخان – ٢٧[٥].

وفي يوم الجمعة ١٢ أكتوبر، دخل صلاح الدين المقدس، وشاءت الظروف أن يوافق ذلك اليوم في التاريخ الهجرى السابع والعشرين من رجب. وهى ذكرى ليلة الإسراء والمعراج التى أسرى الله فيها ليلا بنبيه محمد– عليه الصلاة والسلام– من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى[٦]. وكان أن احتل صلاح الدين قلعة المدينة، وحافظ على وعده لمن فيها من الصليبيين، فسمح لهم بالخروج بعد دفع المال المتفق عليه. وقد رتب صلاح الدين على كل باب من أبواب المدينة أمينا من الأمراء ليأخذوا من الخارجين منه المال المقرر

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٩٧ . ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢١٤ .

(٢) ذكر ابن الأثير (الكامل، حوادث سنة ٥٨٣هـ) وابن واصل (مفرج الكروب ج٢ ص ٢١٤) وعماد الدين الكاتب (الفتح القسي، ص ٤٦) والمقريزي (السلوك ج١ ص ٩٦) أن فداء الطفل ديناران. في حين ذكر ابن شداد (النوادر السلطانية ص ١٢٩) أن فداء كل صغير ذكر أو أنثى دينار واحد، وهذا الرأي الأخير هو الذي أجمعت عليه المصادر الصليبية المعاصرة،. انظر Eracles. II, P. 91.

(3) Eracles. II, P. 60 and Ernoul. P. 226.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٦ ص ٢١٤ .

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص١١٤ . عماد الدين الكاتب: الفتح القسي ص ٥٠ .

(٦) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٩٢ . عماد الدين الكاتب: الفتح القسي ص ٤٧ .

عليهم[١]. وكان الملك العادل فى صحبة أخيه صلاح الدين عند دخول بيت المقدس فأظهر تسامحاً كبيرا تجاه فقراء الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية[٢]. ومن الأمور التى أدهشت المسلمين أن يروا هرقل بطرق بيت المقدس يدفع لنفسه الدنانير العشرة ويغادر المدينة حاملا ما استطاع حمله من الذهب والفضة ومن خلفه العربات تحمل نفائس الكنيسة، دون أن يبالى بفقراء الصليبيين الذين لم يجدوا ثمن فدائهم[٣].

وقد نادى بعض المسلمين عندئذ بهدم كنيسة القيامة ومعاملة المسيحيين بمثل ما عاملوا به المسلمين عندما استولوا على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ وقالوا إذا هدمت ونبشت المقبرة وحرثت أرضها ودمر طولها وعرضها انقطع عنها إمداد الزوار.. ومهما استمرت العمارة استمرت الزيارة. ولكن صلاح الدين نهرهم عن ذلك وأمر باحترام الأماكن المقدسة المسيحية فى بيت المقدس والتزام روح التسامح تجاه المسيحيين، لأنها عندما فتح أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه القدس فى صدر الإسلام، أقرهم على هذا المكان ولم يأمر بهدم البنيان[٤].

وشهد المؤرخون المسيحيون– المعاصرون وغير المعاصرين– بكرم أخلاق صلاح الدين وسماحته، وبأن صلاح الدين عامل نساء الصليبيين معاملة حميدة وسمح لهن بالخروج من بيت المقدس معززات مكرمات، ومعهن أموالهن وأتباعهن وحشمهن[٥]. وكانت زوجة الملك جاى لوزجنان الأسير موجودة فى بيت المقدس، فطلبت من صلاح الدين السماح لها بمصاحبة زوجها فى الأسر فى نابلس، فإذن لها كما سبق أن ذكرنا[٦]. كذلك طلبت الأميرة إتينت Etiennette أرملة أرناط من صلاح الدين الخروج، كما

---

(١) وقد ذكر ابن واصل ان بعض اولئك الأمراء تلاعبوا وأخذوا الأموال التي جمعوها لأنفسهم. (مفرج الكروب، ج٢، ص ٢١٥).

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٩٥ .

(٣) ذكر صاحب الروضتين أن كنيسة القيامة كانت مفروشة بالبسط الثمينة والسنور والحراير، وان قبر عيسي عليه السلام كان محلي بصفائح الذهب والفضة، ولكن البطرق قبل خروجه نهب كل هذه النفائس وإعادة البطرق منه عاطلا وتركه طللا مائلا (كتاب الروضتين، ج٢ ص ١١٥). أما ابن الاثير فيقول إن البطرق خرج ومعه من أموال البيع منها الصخرة والأقصي وزقمامة(كنيسة القيامة) وغيرها ما لا يعلمه ، وكان له من المال مثل هذا، فلم يعرض له صلاح الدين. وقال : لا اغدر به. (ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢١٦).

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ. أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص١١٥ .

(5) Eracles. II, PP. 98 I 99.

(٦) وأذن في إخراج كل مالها في الأكياس والأخراج، وأبقي عليها من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهر ونفائسها وكرائم خزائنها، فخرجت بجميع مالها وحالها ونسائها ورجالها وإسقاطها وأعدالها، والصناديق بأقفالها وتبعها من لم يكن من أتباعها. أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٩٦ . ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢١٦ .

طلبت إطلاق سراح ابنها من زوجها الأول أونفروى، فأكرمها السلطان، وسمح لها بالسفر وهى بنوابها محوطة وبرأيها منوطة[١]. ثم أطلق سراح ابنها بعد استيلاء العادل على الكرك فى نوفمبر سنة ١١٨٨ والشوبك فى يونية ١١٨٩[٢]. أما اليتامى والشيوخ والأرامل من الصليبيين، فإن صلاح الدين لم يكتف بإطلاق سراحهم دون فداء، بل منحهم أيضاً مساعدات مالية من ماله الخاص! وهكذا بدأ الفارق عظيماً بين سلوك صلاح الدين عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧، وبين ما فعله الصليبيون بالمدينة وأهلها عندما سقطت فى أيديهم سنة ١٠٩٩[٣].

وبعد أن تسلم صلاح الدين من الصليبيين فى بيت المقدس الفدية المتفق عليها، أخذ يعد الترتيبات لترحيلهم إلى الممتلكات الصليبية فى صور وطرابلس. ولذلك جمعهم خارج المدينة تحت حراسة مشددة وقسمهم إلى ثلاث مجموعات: مجموعة قادها الداوية، ومجموعة قادها الاسبتارية، والمجموعة الثالثة قادها باليان نفسه، ثم أرسلهم مخفورين خوفاً عليهم من أن يتعرضوا لاعتداءات الأعراب فى الطريق[٤]. على أن الخطر الذى هدد أولئك الصليبيين النازحين من بيت المقدس لم يأت من جانب المسلمين، وإنما أتى من جانب الصليبيين أنفسهم، إذ لم يكادوا يدخلون حدود إمارة طرابلس الصليبية، حتى انقض عليهم بعض أمراء الصليبيين واعتدوا عليهم ونهبوهم، وعندئذ اتجه أولئك المشردون شمالا صوب مدينة طرابلس ذاتها، ولكن أهل طرابلس خشوا على أنفسهم وعلى مدينتهم من تلك الجموع الخاوية الوفاض، فأغلقوا أبواب مدينتهم فى وجوههم ورفضوا أن يستضيفوا إخوانهم فى محنتهم ليخففوا عنهم بعض آلامهم، بل إن أهل طرابلس نهبوا ما بقى مع بعضهم من أموال تركها لهم صلاح الدين[٥]. وهكذا لم يجد أهل بيت المقدس من إخوانهم الصليبيين جزءاً من المعاملة الرحيمة التى وجدوها من صلاح الدين، فذهب بعضهم إلى أنطاكية حيث وجدوا مقراً ومقاماً إلى حين[٦].

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٩٦ .

(2) Ernoul. P. 187.

أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٩٥ .

(3) Runciman: op. cit. II. P. 466.

(4) Besant, Palmer: Jerusalem, p. 400.

(5) Ernoul. P. 231.

(6) Grousset: op. cit, II, p. 818-819.

وعندما سمع المسلمون بفتح بيت المقدس أتوه رجالا وركبانا من كل جهة لزيارته[١]. وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ صلاح الدين يعمل على إزالة كل أثر للصليبيين فى بيت المقدس، فأعاد قبة الصخرة والمسجد الأقصى إلى سابق عهدهما وأنزل الصليب الذهبى الذى أقامه الصليبيون فى أعلى قبة الصخرة[٢]. هذا فى حين غسلت الصخرة نفسها بعدة أحمال ماء ورد وبخرت وفرشت. ثم دخل صلاح الدين المسجد الأقصى يوم الجمعة رابع شعبان (٩ أكتوبر) ليصلى فى قبة الصخرة ويشكر الله على توفيقه ونصره[٣]. وقد قام صلاح الدين بعمارة المسجد الأقصى واستنفاد الوسع فى تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه... هذا فى حين أغلقت كنيسة القيامة أبوابها ولم تفتحها إلا بعد ثلاثة أيام، وعندئذ قرر على ما يرد إليها من الفرنج قطيعة يؤديها[٤].

أما المسيحيون الأرثوذكس واليعاقبة فقد ظلوا فى بيت المقدس، بشرط دفع الجزية، فضلا عن الفدية المتفق عليها، مع إعفاء الفقراء وغير القادرين من كل ذلك. ولا شك أن الكنيسة الأرثوذكسية ورجالها هم الذين استفادوا من طرد الصليبيين الكاثوليك من بيت المقدس، إذ أتيحت لهم الفرصة من جديد لاستعادة نفوذهم وهيمنتهم على الأماكن المسيحية المقدسة. وقد تواتر فى المصادر أن صلاح الدين بادر عقب فتح بيت المقدس بإرسال سفارة إلى إسحق الثانى انجيلوس إمبراطور الدولة البيزنطية ليخبره بما تم على يديه من الفتوح وليسلم إليه مائة وتسعين من رعايا الإمبراطورية البيزنطية كانوا قد وقعوا فى يده أثناء حروبه ضد الصليبيين[٥]، فرد عليه الإمبراطور إسحق مهنئا[٦]، طالباً وضع كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس المسيحية تحت إشراف رجال الدين الأرثوذكس الذين تعينهم الحكومة البيزنطية، كما طلب الإمبراطور البيزنطى من صلاح الدين عقد تحالف بين الطرفين ضد

---

(١) المقريزي: السلوك ج١ ص ٩٧ .

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢١٧ . وقد ذكر ابن واصل وغيره من المؤرخين العرب أن هذا الصليب كان مصنوعاً من الذهب في حين أشار المقريزي (السلوك ج١ ص ١٠٢) إلي أنه كان من النحاس المطلي بالذهب، وأنه حمل إلي بغداد حيث دفن تحت عتبة الباب النوبي، أحد أبواب دار الخلافة ببغداد.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢٩ . ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.

(٤) المقريزي: السلوك ج١ ص ٩٧ . ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.

(5) Cam. Med Hist, vol 4, ps 384& 603.

(٦) المقريزي: السلوك ج١ ص ٩٨ (تحقيق محمد مصطفي زيادة).

الصليبيين. ولكن جميع مطالب الإمبراطور إسحق انجليوس قوبلت بالرفض[١].

أما اليهود فكانوا أول من هلل لطرد الصليبيين من بيت المقدس. وقد ذكر الشاعر اليهودى الأسبانى يهودا الحرزى الذى زار بيت المقدس سنة ١٢١٦-١٢١٧ أن فتح صلاح الدين لبيت المقدس أعقبته هجرة عدد كبير من اليهود إليها، وأن صلاح الدين نفسه لم يمنعهم من الإقامة فى المدينة[٢]. وهكذا نجد الصهيونية فى التاريخ لا تكتفى بالشماتة فى المسيحيين. وإنما تريد أن تحقق مكاسبها دائماً على حساب المسلمين والمسيحيين سواء!

صلاح الدين وغزو شمال الشام:

وبعد أن أتم صلاح الدين غزو فلسطين؛ أخذ يفكر فى إخضاع البقاع الصليبية على شاطئ البحر، مثل صور وطرابلس وأنطاكية، فضلا عن القلاع الداخلية التابعة لهم مثل حصن الأكراد وحصن المرقب. أما صور فقد وصلتها نجدة غير منتظرة من الأمير كونراد دى مونتفرات الذى جاء إليها حوالى منتصف يولية سنة ١١٨٧[٣]. هذا إلى أن كثيرا من البقايا الصليبية التى خرجت من مدن فلسطين بعد أن استولى عليها صلاح الدين اتجهت إلى صور بالذات حيث تجمعت وصارت قوة لها خطرها[٤]. لذلك فشلت جميع هجمات صلاح الدين ضد صور، ولم يجد بدا من تركها وتوجيه جهوده ضد إمارتى طرابلس وإنطاكية[٥].

وكان ريموند الثالث أمير طرابلس- الذى استطاع الفرار من حطين- قد توفى بعد قليل من أثر الصدمة[٦]. وقد أوصى ريموند قبل وفاته بأن يخلفه فى حكم طرابلس، ريموند- الابن الأكبر لبوهيموند الثالث- أمير أنطاكية. ولكن أمير أنطاكية كان محتاجاً لابنه البكر إلى جانبه للدفاع عن إمارته، فاكتفى بإرسال ابن آخر له- هو بوهيموند الرابع- للدفاع عن طرابلس وحكمها. وبذلك انتهت الأسرة البروفنسالية فى

(١) وكانت رسالته تشمل علي مطالبتان، منها صليب الصلبوت، ومنها أن تكون (كنيسة) القيامة بأيدي أقساء من جانبه، وكذلك سائر كنائس القدس، ومنها أن يقع الاتفاق معه علي أن يكون عدو من عاداه وصديق من صادقه... وأجيب بالمنع عن جميع مقترحاته. (ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٤٠).

(2) Setton: op. cit, p. p. 621 & Grousset: op. cit, II, p. 821-822.

(3) Stevenson: op. cit, p. 241.

(٤) والتحق من كان بالقدس من الفرنج بصور. (المقريزي: السلوك ج١ ص ٩٧).

(5) Grousset: op. cit, II, p. 822-823.

(٦) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص١١٩ .

طرابلس، وانتقل حكم تلك الإمارة فى أواخر سنة ١١٨٧ إلى البيت النورمانى الذى كان يحكم أنطاكية[١]. وقد استطاع البيت النورمانى أن يدافع عن طرابلس فى عهدها الجديد.

أما صلاح الدين فقد اتجه إلى غزو القلاع الصليبية فى إقليم الجليل. ففى أواخر ديسمبر استولت فرقة من جيش صلاح الدين على قلعة هونين وهى من أحصن القلاع وأمنعها[٢]، فجاء الاستيلاء عليها متمما للاستيلاء على حصن سنين. هذا فى الوقت الذى اتجهت فرقة أخرى من الجيش الأيوبى لمهاجمة صفد- إلى الشمال الغربى من طبرية- وكانت تابعة للداوية، وحصن كوكب إلى الجنوب الغربى من بحيرة طبرية، وكان تابعاً للاسبتارية. ولكن هاتين القلعتين كانتا محصنتين تحصيناً قوياً فصمدتا[٣]، ولم يستطيع صلاح الدين الاستيلاء عليهما إلا بعد جهد شاق استمر قرابة عام، فاستسلمت صفد فى أواخر عام ١١٨٨ وكوكب فى أوائل عام ١١٨٩، كما سيلى فيما بعد[٤].

كذلك حاول صلاح الدين مهاجمة حصن الأكراد فى صيف سنة ١١٨٨ ولكن الحصن كان قوياً ودافع عنه أصحابه من الاسبتارية فى شجاعة، فارتد عنه صلاح الدين للقيام بهجوم جديد على شواطئ طرابلس وأنطاكية. وقد هاجم صلاح الدين أنطرطوس ولم يستطع الاستيلاء على القلعة وأمر بوضع النار فى البلد وأحرق جميعه[٥]. ولم يحاول صلاح الدين أن يتعرض لحصن المرقب القوى لأنه من حصونهم التى لا ترام ولا يحدث أحد نفسه بملكه لعلوه وامتناعه، وهو للاسبتارية...[٦]. لذلك اتجه نحو بانياس فى أقصى شمال إمارة طرابلس واستولى عليها. وبعد ذلك أوغل فى إمارة أنطاكية، حيث استولى على جبلة فى يولية سنة ١١٨٨[٧]. وبعد أن استولى صلاح الدين على حصن بكسرائيل على طريق حماة، اتجه لمهاجمة اللاذقية، وهى أكبر موانئ إمارة أنطاكية، فاستولى عليها فى ٢٣ يولية

(1) Eracles. II, P. 72.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢٤٧ .

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٣٣ . أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص١٢٠ .

(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص١٣٤ .

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢٥٧ . ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٣٨ .

(٦) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٤ هـ.

(٧) المصدر السابق.

سنة ١١٨٨ بعد أن تركها الصليبيون لعجزهم عن حفظها[١]. ومن اللاذقية اتجه صلاح الدين – ومعه ابنه الظاهر صاحب حلب– لمهاجمة حصن صهيون وهو حصن يفوق الحصون لقوته ومناعته وارتفاعه على الجبال، فقاوم مقاومة عنيفة حتى استسلم فى نهاية شهر يولية[٢].

وهكذا أخذت معاقل إمارة أنطاكية تتساقط فى يد صلاح الدين واحداً بعد آخر، فلم يكتف بالاستيلاء على القلاع التابعة لحصن صهيون مثل حصن بلاطنس وحصن العيذو وحصن الجماهرتين[٣]، وإنما هاجم صلاح الدين الثغر فى الشمال الغربى على نهر العاصى، فاستولى على قلعة بكاس بغير قتال فى ٩ أغسطس، وعلى قلعة الشغر نفسها فى ١٢ أغسطس. وبعد ذلك جاء دور سرمانية (سرمينية) ثم برزيه فى أواخر الشهر نفسه، حتى استولى على جميع القلاع التى كانت بمثابة المخافر الأمامية لمدينة أنطاكية، ول يبق لإمارة إنطاكية نفسها سوى ثلاث قلاع حصينة هى القصر وبغراس و [illegible][٤].

وفى تلك المرحلة من مراحل توسع صلاح الدين على حساب الصليبيين فى أنطاكية، استمرت الأميرة سيبل زوجة بوهيموند الثالث أمير أنطاكية فى خيانتها للصليبيين، فمضت فى طريقها تتصل سراً بصلاح الدين وتطلعه على أسرار الفرنج حتى كشفت له كثيرا من عورات الصليبيين ومواطن الضعف فيهم، وكان السلطان يكرمها لذلك ويهدى إليها أنفس الهدايا[٥]. وبفضل هذه المعونة استطاع صلاح الدين أن يستولى على قلعة برزية التى كانت بها صاحبتها– شقيقة سيبل– فأرسلها صلاح الدين مكرمة إلى إنطاكية، ومعها زوجها وجماعة من أصحابها وصهرها، وذلك إكراماً لامرأة البريس (سيبل) فشكرته على ذلك ودامت مودتها له[٦].

وهنا نكرر القول بأن صلاح الدين عقب حطين امتاز بالاعتدال والبعد عن

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص١٢٧–١٢٨ . ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٣٩ .

(٢) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي ص ١١٨ .

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٤ هـ. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٤٢ وحصن العيذو أو العيذون بنواحي حلب (ياقوت: معجم البلدان).

(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص١٢٦–١٢٧ .

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص١٣١ . ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٤ هـ.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢٦٧ . ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٤ هـ.

التطرف وتجنب العنف مع أعدائه، فعامل أسرى الصليبيين معاملة طيبة، ومنح كثيراً من أهالى المدن التى سقطت فى يده الحرية، وسمح لهم بالنزوح إلى صور أو غيرها، هذا فضلا عن حرصه على الرفق بالنساء والأطفال والشيوخ من الصليبيين. ويعترف الكتاب الأوروبيون أنفسهم بأن صلاح الدين ظهر على مستوى من كرم الأخلاق والشهامة لا يفوق المستويات العادية التى عرفها فرسان الغرب فحسب، بل يفوق المثل العليا لم يصل إليها أولئك الفرسان فى يوم من الأيام[١]. وربما كان السر فى تلك المعاملة – بالإضافة إلى طبيعة صلاح الدين وتمسكه بروح الإسلام وخلقه– هو عدم رغبته فى استثارة الغرب الأوروبى ضده إذا هو تطرف فى معاملة الصليبيين وعاملهم بمثل ما عاملوا به المسلمين من قبل[٢]. وفى الوقت نفسه لم يخرج صلاح الدين من حسابه احتمال مجئ حملة صليبية جديدة، بل أخذ حذره وأعد عدته لذلك الاحتمال، فحصن القلاع القوية التى سقطت فى يده، وهدم المعاقل الضعيفة التى قد يفيد منها الصليبيون فى المستقبل[٣].

وبهذه الروح الكريمة استطاع صلاح الدين أن يستولى على الإقليم الواقع جنوبى إنطاكية، فانتقل بعد ذلك إلى شماليها ليهاجم حصن دربساك وهو حصن حصين وقلعة منيعة، وهو بالقرب من أنطاكية ولا فرق بين حصره وحصرها[٤]. وقد دافع أصحاب ذلك الحصن من الداوية عن حصنهم دفاعاً عنيداً، حتى اضطروا إلى الاستسلام فى منتصف سبتمبر ١١٨٨[٥]. أما حصن بغراس (بغراص) الذى كان ملكاً للداوية أيضا فقد استولى عليه صلاح الدين فى أواخر سبتمبر سنة ١١٨٨، بما فيه من ذخائر وأموال وسلاح، مما أمد المسلمين بموقع فريد على الطريق بين أنطاكية وإمارة قيليقية الأرمينية[٦].

---

(1) Stevenson: op. cit, p. 254.

(2) Setton: op. cit, p. p. 619.

(3) Grousset: op. cit, II, p. 830.

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٤ هـ.

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص١٣٢ .

(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٦٤ . ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٤ هـ. ويروي ابن واصل (مفرج الكروب ج٢ ص ٢٦٩) أن صلاح الدين أمر بتخريب حصن بغراس فخرب، وينتقد هذا التصرف لما تسبب عنه من ضرر بالغ بالمسلمين لأن صاحب أرمينية الصغري جدده بعد ذلك واحتله عساكره، واتخذ منه محفراً أمامياً للإغارة علي بلاد المسلمين.

وهكذا أصبحت إمارتا أنطاكية وطرابلس مقصوصتى الجناح على قول أبى شامة[١]، ولم يبق منهما سوى مدينتى أنطاكية وطرابلس وحصنا المرقب والأكراد ومدينة أنطرطوس. وكان ذلك فى الوقت الذى تعبت جيوش صلاح الدين ومل العسكر الغريب الإقامة وأبدى السآمة[٢]. وأحس الجند بحاجتهم إلى فترة من الراحة التى لم يذوقوا طعمها منذ حطين[٣]. ولم يكد بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية يطلب الهدنة حتى أجابه صلاح الدين إلى طلبه، فعقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثمانية أشهر[٤].

على أن الهدنة كانت مع إمارة أنطاكية لا غير على قول ابن شداد[٥]، مما أباح لصلاح الدين- عقب تسريح معظم جيشه الكبير- أن يهاجم الداوية فى صفد والاسبتارية فى حصن كوكب، وهما المركزان اللذان صمدا أمام هجمات صلاح الدين فى أواخر سنة ١١٨٨ وأوائل سنة ١١٨٩[٦].

وفى تلك الأثناء كان المسلمون ملازمين حصار حصن الكرك ومنازلته حتى نفدت ذخائر الفرنج وأكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال[٧]. وأخيراً اضطر الصليبيون الى الاستسلام فى حصن الكرك فى نهاية سنة ١١٨٨ بعد أن فنيت أزوادهم ونفدت موادهم ويئسوا من نجدة تأتيهم، حتى أكلوا لحم آخر حصان فيه. أما حصن الشوبك فقد استسلم بعد ذلك ببضعة أشهر[٨] وبذلك لم يبق للصليبيين فى فلسطين من القلاع القوية إلا حصن الشقيف أوشقيف أرنون قرب بانياس، وقد احتمى به رينو صاحب صيدا عقب استيلاء المسلمين على هذه المدينة الأخيرة. وعندما عسكر صلاح الدين برجاله فى مرج عيون استعداداً لمهاجمة حصن الشقيف، فكر رينو فى الاستسلام، فأتى إلى صلاح الدين فى معسكره وعرض عليه الاستسلام بشرط أن يسمح بإيوائه فى دمشق حيث يظل تابعاً مخلصاً لصلاح الدين، وذلك خوفاً

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص١٣٢-١٣٣ . . فتح دربساك الذي لم يكن لأنطاكية إلا الامتساك به، وقد قص الآن جناحها وفل سلاحها وحق قرحها.. وهذان الحصنان- دربساك وبغراس كانا لأنطاكية جناحين...

(٢) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي ص ١٢٩ .

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٤ هـ. ليعود الناس ليستريحوا ويجدوا ما يحتاجون إليه.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢٧٠ .

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٤٧ .

(٦) المصدر السابق، ص ١٤٨-١٤٩ .

(٧) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢٧١ .

(٨) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص١٣٤ Ernoul. P. 187

من أن ينتقم منه الصليبيون[١]. وبينما صلاح الدين يستعد لتسلم الحصن فى صيف سنة ١١٨٩، رفضت الحامية الصليبية الاستسلام، ولم يستطع صلاح الدين الاستيلاء على القلعة إلا بعد هجوم عنيف فى ابريل ١١٩٠[٢].

وهكذا لم يبق من مملكة بيت المقدس غير صور التى أخطأ صلاح الدين خطأ جسيماً بعدم الاستيلاء عليها عقب عكا، تركها تلك المدة لتجتمع فيها البقايا الصليبية التى خرجت من مختلف مدن وحصون مملكة القدس، لتمد المدينة بحصانة بشرية إلى جانب حصانتها الطبيعية، وعند استيلاء صلاح الدين على عكا كانت صور تابعة لرينو حاكم صيدا، الذى كان مستعدا لتسليمها لصلاح الدين عندئذ، ولكن صلاح الدين تأخر فى تلك العملية الحربية. وصادف أن وصلت إلى ميناء صور عندئذ– فى منتصف يولية سنة ١١٨٧– سفينة عليها الأمير كونراد دى مونتفرات لاجئاً، فرحب به أهل صور، وأخذ يدعم تحصينات المدينة ويقوى الروح المعنوية بين الصليبيين فيها حتى صار من العسير على صلاح الدين الاستيلاء عليها، وخاصة بعد أن تلقت بعض المعونات عن طريق البحر[٣].

---

(١) يقول القاضى ابن شداد، وما أحسسنا به الا وهو قائم علي باب خيمة السلطان فأذن له فدخل فاحترمه وأكرمه. وكان من كبار الافرنج وعقلائها، وكان يعرف العربية ويتكلم بها. فحضر بين يدى السلطان وأكل معه الطعام ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وأنه تحت طاعته وأنه يسلم المكان إليه من غير تعب ولا قتال واشترط أن يعطي موضعاً يسكنه بدمشق، فإنه بعد ذلك لا يقدر علي مساكنة الفرنج. (النوادر السلطانية، ص ١٢١–١٢٢).

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٤ هـ. أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، سنة ٥٨٥هـ. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٥٢. Eracles. II, P. III.

(3) Runciman: op. cit. II. P. 471-472.

الباب الثالث عشر

الحملة الصليبية الثالثة

«قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم.
ويخزهم وينصركم عليهم
ويشف صدور قوم مؤمنين»

(التوبة: ١٤)

الفصل الأول

إمبراطور ألمانيا وملك فرنسا في الشرق

الموقف في بلاد الشام عقب انتصارات صلاح الدين

استطاع صلاح الدين أن يحقق عملا عظيما فى السنوات القليلة الواقعة بين سنتى ١١٨٧ ، ١١٩٠ ، ففى مستهل سنة ١١٩٠ لم يبق للصليبيين من مملكة بيت المقدس إلا مدينة صور، ومن إمارة طرابلس سوى عاصمتها طرابلس وقلعة أنطرطوس وحصن الأكراد وبعض المراكز الأخرى الثانوية، ولم يتبق من إمارة انطاكية سوى عاصمتها وميناء السويدية وحصن المرقب[1] . وهكذا بدأ البنيان الصليبى الكبير وكأنه أقيم على شفا جرف هار، فانهار به فجأة قبل أن ينقضى على إقامته قرن واحد من الزمان.

وسواء كان الفضل فى تلك الانتصارات السريعة العظيمة الأثر، التى أحرزها صلاح الدين، راجعاً إلى صحوة المسلمين وإفاقتهم لحقيقة الخطر الصليبى، واتحادهم لمواجهته، أو إلى ما كان هناك من انقسامات وحزازات بين صفوف الصليبيين، فإننا يجب أن نذكر دائما شخصية صلاح الدين نفسه وأخلاقه وشجاعته وبعد نظره وصبره على الجهاد. إن الظروف المواتية التى تتاح للرجال كثيرة، ولكن ليس كل فرد يستطيع استغلالها ويعرف كيف يفيد منها[2] .

وفى الوقت الذى سقط بيت المقدس فى قبضة المسلمين، وأضحى الصليبيون بالشام أشد ما يكونون حاجة إلى زعامة رشيدة تنظم صفوفهم وتعمل لحمايتهم وتذود عن مستقبلهم وتدافع عن كيانهم، شاء حسن الحظ الصليبيين أن يظهر بين صفوفهم زعيم قوى هو كونراد دى مونتفرات. وكان كونراد قد وصل إلى عكا فى صيف سنة ١١٨٧ قادماً من الغرب الأوروبى عن طريق القسطنطينية، فأدى وصوله فى ذلك الوقت إلى نجاته من المصير السيئ الذى تعرض له الصليبيون فى حطين. ولم يلبث أن نهض كونراد بعبء المقاومة والدفاع عن الكيان الصليبى ببلاد الشام حتى ظهور الحملة الصليبية الثالثة على مسرح الشرق الأدنى[3] .

---

(1) Groussert: op. Cit, II, p. 834-835.

(2) Stevenson cit., p.p 206-207.

(3) Runciman: op. Cit, II. P. 444,471.

وقد صدم كونراد دى مونتفرات ساعة وصوله إلى عكا، إذ وجد المسلمين يحتلونَ المدينة، ويحكمها الأفضل بن صلاح الدين نائباً عن أبيه(١). وإذا كانت الرياح قد دفعت كونراد داخل ميناء عكا، فإن المسلمين لم يتعرضوا له بسوء، حتى تمكن من الإقلاع فى سلام إلى صور. وكانت صور قد غدت عندئذ مستودعاً لكثير من بقايا الصليبيين فرسانهم الذين فروا من وجه المسلمين عقب حطين، لأن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة من عكا وبيروت وغيرها مما ذكرنا، أعطى أهلها الأمان، فساروا كلهم إلى صور، فكثر الجمع بها(٢). على أن أهل صور عندئذ لم يكن لهم رأس يجمعهم ولا مقدم يقاتل بهم. وبعبارة أخرى فإنهم كانوا يفتقرون إلى قيادة رشيدة تنظم عملية المقاومة وتؤلف بين تلك البقايا الصليبية المتعددة المشارب والأصول والتى نزحت إلى صور من مختلف المدن والقلاع الصليبية التى استولى عليها صلاح الدين وجيوشه.

وفى الوقت الذى شرع أهل صور فى مراسلة صلاح الدين وطلب الأمان وتسليم البلد إليه بعد أن اشتد بهم الجوع وانحطت روحهم المعنوية؛ وصل كونراد دى مونتفرات المركيس لينفخ فيهم روحاً جديدة ويدفعهم إلى الثبات والمقاومة، وبذلك ضمن لهم حفظ المدينة(٣). ولا عجب فقد وصف ابن شداد كونراد بالثبات والقوة والشجاعة، وقال إنه كان رجلا عظيما ذا رأى وبأس شديد فى دينه، وصرامة عظيمة(٤). وسرعان ما قبل من بداخل صور من أمراء الصليبيين وفرسانهم أن يقدموا تبعيتهم لكونراد، ويعترفوا له بالزعامة عليهم، مقابل تعهده بالدفاع عنهم وحمايتهم من هجمات المسلمين.

وهكذا أغلقت صور أبوابها فى وجه صلاح الدين بعد أن استعد فعلا لدخول المدينة، مما أثار دهشته وغضبه(٥). وكان وليم الثالث دى مونتفرات والد كونراد، أسيراً فى قبضة صلاح الدين، فحاول السلطان أن يستغل هذه الورقة فى التأثير على كونراد لتسليم صور، ولكن الأخير أظهر صلابة تسترعى الانتباه، ورد على صلاح الدين بأنه يفضل أن يذبح هو وأبوه عن أن يسلم جزءاً من المدينة(٦). وعندئذ أدرك

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.
(٢) المصدر السابق.
(3) Eracles. II. P. 75-76.
(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٥٣ .
(5) Groussert: op. Cit, II, p. 834-835.
(6) Ernoul, p. 183 et 237.

صلاح الدين عدم جدوى التفاهم مع مثل ذلك الرجل، وآثر أن يبدأ بالاستيلاء على بيت المقدس ثم يتفرغ بعد ذلك لإخضاع صور بالقوة(١).

وقد استغل كونراد دى مونتفرات فرصة انصراف صلاح الدين لتقوية استحكامات صور وإعدادها للمعركة المنتظرة، فبنى السور والبواشير وأحكم أمرها، واستظهر بالعدد والعدد(٢). والمعروف عن صور نفسها أنها مدينة حصينة منيعة، حتى وصفها الرحالة ابن جبير الذى زارها قبل ذلك بثلاث سنوات (١١٨٤) بأنها مدينة يضرب بها المثل فى الحصانة(٣).

وقد أفاد كونراد من هذه الحصانة الطبيعية لمدينة صور واستغل هذه الأموال التى جلبها معه من القسطنطينية، فى حفر حولها تجرى فيه مياه البحر، فوصلها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر، فصارت المدينة كالجزيرة فى وسط الماء، لا يمكن الوصول إليها ولا الدنو منها(٤). وفى جميع تلك الإجراءات، استفاد كونراد من جهود من بداخل صور من التجار الفرنسيين فضلا عن البيازنة والجنوية(٥).

أما صلاح الدين، فإنه لم يكد ينتهى من الاستيلاء على بيت المقدس- كما سبق أن أوضحنا- حتى اتجه بكل قواه لحصار صور. ومعه ولداه الأفضل والظاهر، وأخوه العادل، وابن أخيه تقى الدين عمر. ولكن تفوقه العددى وما جلبه معه من آلات الحصار، كل ذلك لم يجد أمام حصانة صور الطبيعية، تلك الحصانة التى زادتها قوة إجراءات كونراد الدفاعية. هذا إلى أن السفن الصليبية المحملة بالرماة والمقاتلين حمت المدينة من ناحية البحر(٦). لذلك أسرع صلاح الدين إلى استحضار عشر سفن من الأسطول المصرى الذى كان عندئذ فى عكا تحت قيادة الفارس بدران وعبد السلام المغربى، وبذلك استطاع صلاح الدين السيطرة بنفسه على جانب البحر وحصر السفن الصليبية داخل الميناء(٧). على أن هذه القوة البحرية الصغيرة التى استعان بها صلاح

(١) المقريزي: السلوك ج ١ ص ٩٥-٩٦ .

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢٤٣ .

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٩٤ .

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ.

(5) Heyed: Hist. Du Commerce. I, 334.

(6) Stevenson: op. cit., p. 254-255.

(٧) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٣١ .

الدين لم تستطع الصمود، فتعرضت فى مساء ٣٠ ديسمبر سنة ١١٨٧ لهجوم مباغت من جانب السفن الصليبية التى تسللت من الميناء، وانتهى الأمر بأسر خمس سفن إسلامية، وفرار بقية السفن إلى بيروت(١). وهكذا فشل حصار صلاح الدين لمدينة صور وطمعت الفرنج بعد أن أوقعوا بالأسطول وتمكنوا من تأمين اتصال المدينة بغرب أوربا عن طريق البحر(٢)، فاضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عنها فى أوائل يناير سنة ١١٨٨، وكان ذلك أول فشل يتعرض له صلاح الدين فى أعماله الحربية ضد الصليبيين منذ موقعة حطين.

وهنا يظهر المؤرخون المسلمون أسفهم العميق لفشل صلاح الدين فى الاستيلاء على صور. ويلقى المؤرخ ابن الأثير على صلاح الدين باللائمة لإفراطه فى التسامح مع خصومه، ومبالغته فى التساهل، فالملك أو الحاكم لا ينبغى أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار، فئن يعجز خير له من أن يظفر مفرطاً مضيعاً للحزم...(٣)!!.

صدي سقوط بيت المقدس في الغرب الأوروبي:

أحدثت هزيمة الصليبيين فى حطين ثم سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين رد فعل عنيف فى الغرب الأوروبى الذى أدرك أخيرا إهماله فى عدم الاستجابة للنداءات المتكررة التى أصدرها الصليبيون بالشام فى السنوات الأخيرة(٤).

ولم يلبث كونراد دى مونتفرات أن أرسل جوسياس Josias رئيس أساقفة صور إلى غرب أوروبا فى أواخر صيف سنة ١١٨٧ ليطلب من البابوية وملوك الغرب وأمرائه النجدة العاجلة(٥). وكان وليم الثانى ملك صقلية النورمانى أول من استجاب

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ. أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١١٩ .

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢٤٥ .

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣ هـ. ويفسر ابن الأثير ذلك فيقول: ولم يكن لأحد ذنب في أمرها (أمر صور) غير صلاح الدين، فإنه هو جهز إليها جنود الفرنج وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان وغير ذلك كما سبق ذكره كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلي صور فصار إليها من سلم من فرسان الفرنج بالسحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم، فحفظوا المدينة وأرسلوا الفرنج داخل البحر يستندونهم، فأجابوا بالتلبية لدعوتهم بالبصرة، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم. يجتمعون بها ويلجأون إليها. فزادهم ذلك حرصا علي حفظها والنب عنها.

(4) Cam. Med. Hist. Vol.5, p. 310.

(5) Michaud: op. Cit, II. P. 314-315.

– ويروي ابن واصل وابن أيبك أن الرهبان والقساوسة في المدن الصليبية ببلاد الشام ليسوا الحداد عقب استيلاء صلاح الدين علي بيت المقدس، وان بطرك القدس (وصحتها رئيس أساقفة صور) أحد جماعة منهم إلي الغرب الأوروبى وطاف بهم البلاد مستنجداً بأهلها. حانا لهم علي استرجاع القدس وقد صوروا. المسيح عليه السلام وجعلوا معه صورة رجل عربى يضربه بعصا، وقد جعلوا الدماء وقد سالت علي وجه المسيح وقالوا: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله.. ليستفزوا بذلك الناس للقتال والخروج لحرب المسلمين. (ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢٨٨، ابن أيبك: كنز الدرر، ج ٧، ص٩٩).

لتلك الدعوة، فعقد صلحاً مع البيزنطيين فى مارس سنة ١١٨٨، وأرسل إلى بقية ملوك أوربا يدعوهم للتضامن معه فى مشروع حملة صليبية جديدة. ثم إن الملك وليم لم ينتظر رد أولئك الملوك، وإنما بادر بإرسال أسطول يحمل بضع مئات من الفرسان إلى طرابلس، تحت قيادة أمير البحر مارجريت البرنديزى، الذى نجح فى منع صلاح الدين من الاستيلاء على طرابلس واللاذقية(١). ويروى المؤرخ ابن الأثير أن أحد قادة أولئك النورمان قابل صلاح الدين وقبل الأرض بين يديه وقال له: إنك سلطان رحيم كريم، وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا. فاتركهم يكونون مماليكك وجندك، تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادك، وإلا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به، فيعظم عليك الأمر ويشتد الحال(٢).

ويفهم مما ذكره المؤرخون أن صلاح الدين خشى أن يكون ذلك الأسطول النورمانى مقدمة لحملة صليبية كبرى فى طريقها من غرب أوربا، ولذلك حاول أن يسترضى الفارس النورمانى بوصفه مندوباً عن وليم الثانى ملك صقلية(٣).

وهكذا أخذ يبدو أن النورمان حملوا لواء الحملة الصليبية الأولى وأسسوا إمارة أنطاكية، كانوا على استعداد للقيام بدور مشابه فى الحملة الصليبية الثالثة التى أخذت تتجمع فى غرب أوروبا للانتقام مما حل ببيت المقدس والصليبيين بالشام على يد صلاح الدين(٤). ولكن انشغال وليم الثانى بالعلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية حال فى حقيقة الأمر دون اشتراكه فى الحملة الصليبية الثالثة بنصيب أكثر من تلك السفن والفرسان الذين أرسلهم سنة ١١٨٨ إلى طرابلس. ولم يلبث وليم أن توفى فى العام التالى سنة ١١٨٩؛ وبذلك صار لابد للغرب الأوروبى من الاعتماد على غير النورمان من ملوك الغرب لإنقاذ البقايا الصليبية بالشام(٥).

وكان جوسلين رئيس أساقفة صور قد نقل نشاطه إلى البابوية ليشرح للبابا أوربان الثالث حقيقة موقف الصليبيين بالشام. ويقال إن ذلك البابا كان مسناً مريضاً

(1) Eracles. II. P. 75-76.

ويلاحظ أن المقريزي نص على أن الصليبيين في صور كاتبوا الفرنج صقلية. (السلوك، جـ١ ص ١٠١).

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٤ هـ.

(3) Groussert: op. Cit, II, p. 8.

(4) Brehir: L`Eglise et L`Orient p. 119.

(5) Setton: op. Cit, II. P. 38-41, 47.

فلم يحتمل الأخبار المؤلمة التى سمعها، وتوفى حزينا فى أكتوبر سنة ١١٨٧ . وقد بادر البابا الجديد- جريجورى الثامن- بإرسال كتاب دورى إلى ملك انجلترا وملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا، يستحثهم جميعاً على أن يتناسوا ما بينهم من خصومات وحزازات ويبعثوا قواهم لمحاربة المسلمين. وإذا كان البابا جريجورى الثامن قد توفى هو الآخر فى ديسمبر من العام نفسه قبل أن يرى ثمار دعوته، فإن خليفته كليمنت الثالث أسرع إلى الاتصال بالإمبراطور فردريك بربروسا (الأول)، فى الوقت الذى انتقل جوسياس إلى الغرب لمقابلة ملكى فرنسا وانجلترا[١].

والواقع أنه لم يكن من السهل على ملكى انجلترا وفرنسا بالذات أن يتناسيا ما بينهما من عداء عميق الجذور وحروب طويلة قديمة ليشتركا سوياً فى مشروع واحد، حتى ولو كان هذا المشروع من أجل تحقيق مصلحة دينية عليا[٢]. فعلى الرغم من أن هنرى الثانى ملك انجلترا وفيليب أوغسطس ملك فرنسا قد استجابا لدعوة الحرب الصليبية عندما قابلهما جوسياس على حدود نورمنديا فى يناير سنة ١١٨٨، وعلى الرغم من أنه تم الاتفاق عندئذ على أن تخرج جيوشهما جنباً إلى جنب إلى الشام، إلا أنهما تباطآ بعد ذلك فى التنفيذ، بل إن الحرب سرعان ما نشبت بين الطرفين من جديد فى يونية سنة ١١٨٨[٣]. ومهما يكن من أمر، فإن هنرى الثانى ملك انجلترا لم يلبث أن توفى فى أوائل يوليو، فخلفه ابنه ريتشارد قلب الأسد الذى توج فى سبتمبر من العام نفسه. وفى صيف سنة ١١٩٠ أبحر ملكا فرنسا وانجلترا على رأس جيوشهما الصليبية ليقضى كل منهما فصل الشتاء فى جزيرة صقلية (سبتمبر ١١٩٠- مارس ١١٩١)، فى الوقت الذى كان صلاح الدين يمكن لنفسه فى البلاد انتزاعها من الصليبيين بالشام[٤].

وهكذا اصطبغت الحملة الصليبية الثالثة من أول أمرها بصبغة فردية، وتأثرت

---

(1) Archer: The Crusades, p. 307.

(٢) عن النزاع بين انجلترا وفرنسا في ذلك الوقت، انظر، سعيد عاشور أوروبا العصور الوسطي ١ ص ٢٥٦، ٢٥٩ وما بعدها (القاهرة ١٩٦٦).

(3) Cam. Med. Hist. Vol.6, p. 302.

(4) Runciman: op. Cit, vol. II P.p. 8-9.

- وجدير بالذكر أن ملكى فرنسا وانجلترا فرضا ضريبة عشرية علي كل من لم يشترك من رعاياهما في الحرب الصليبية، وأراد أن يستعينا بهذا الضريبة في نفقات الحرب ضد المسلمين ولذا أطلق عليها اسم عشور صلاح الدين.

بروح العداء والشك المتأصلة بين ملكى فرنسا وانجلترا، مما حال دون قيام العاهلين بعمل واحد مشترك ضد صلاح الدين والمسلمين.

حملة فردريك بربروسا:

أما إمبراطور ألمانيا فردريك بربروسا، فكان أسرع إلى العمل على الرغم من كبر سنه، فتحرك فى مايو سنة ١١٨٩ – وبصحبته ثانى أبنائه فردريك أمير سوابيا– على رأس جيش منظم كبير قدره بعض المؤرخين بمائة ألف محارب، سالكاً الطريق البرى إلى القسطنطينية عبر هنغاريا(١). ولم يلبث فردريك بربروسا ورجاله أن واجهوا عداء شديداً من الإمبراطور البيزنطى إسحق الثانى أنجيلوس (١١٨٥–١١٩٥)، وذلك نظراً لما كان هناك عندئذ من تحالف بين فردريك بربروسا والنورمان أعداء الإمبراطورية البيزنطية(٢).

وكان أن أدت مخاوف الإمبراطور إسحق أنجيلوس إلى سعيه لمحالفة صلاح الدين ضد فردريك بربروسا والصليبيين، وهو التحالف الذى تم سنة ١١٨٩ (٥٨٥هـ) وأشارت إليه المصادر العربية والصليبية سواء، وكان من نتيجته إثارة الغرب الأوروبى وزعمائه ضد الإمبراطورية البيزنطية(٣). ولم يلبث الإمبراطور البيزنطى إسحق الثانى أن أرسل سنة ١١٨٩ إلى صلاح الدين يعرفه بوصول فردريك بربروسا ويعد أنه لا يمكنه من العبور فى بلاده(٤). وقد تعهد صلاح الدين مقابل تلك المعونة التى قدمها إليه البيزنطيون ضد الصليبيين بوضع الأماكن المقدسة المسيحية فى بلاد الشام تحت رعاية رجال الدين الأرثوذكس. وإذا كان صلاح الدين قد وافق عندئذ على تسليم كنيسة القيامة لرجال الكنيسة الأرثوذكسية فإن الدولة البيزنطية وافقت هى الأخرى على أن تجعل لصلاح الدين نوعاً من الوصاية على الجالية الإسلامية فى القسطنطينية، فأرسل صلاح الدين الخطيب والمؤذنين والقراء إلى القسطنطينية. وأقيمت الخطبة بالجامع القديم بالقسطنطينية للخليفة الناصر لدين الله(٥).

Waltar, Besant: Jerusalem, p. 305.
(1) Cam. Med. Hist. Vol.5, p. 360.
(2) Ostrogorsky: op. Cit II p. 306.

(٣) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ٩٨ (حاشية للدكتور محمد مصطفي زيادة).

(٤) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٠٤، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٥٩–١٦٠ . ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٠٥–٢٠٦ . وكان بين السلطان وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة: وكان وصل منه رسول إلي الباب الكريم السلطاني بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة في جواب رسول كان أنفذه السلطان إليه بعد تقرير القواعد وإقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية، فمضي الرسول وأقام الخطبة ولقي باحترام عظيم وكرم زائد. وكان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر وجمعاً من المؤذنين والقراء. وكان يوم دخولهم قسطنطينية يوماً عظيماً من أيام الإسلام.

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٥٩–١٦٠، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٠٥–٢٠٦ .

وفى تلك السنة نفسها -سنة ١١٨٩- وصلت سفارة من القسطنطينية إلى صلاح الدين. وهكذا تكرر تبادل السفارات بين صلاح الدين والإمبراطور البيزنطى فى ذلك الدور، وأشار إلى تلك السفارات المؤرخون المعاصرون من المسلمين والمسيحيين سواء[١]. ولاشك أن هذه الظاهرة تعطينا فكرة واضحة عما صادفته حملة فردريك بربروسا من عداء شديد من البيزنطيين، وذلك منذ اللحظة الأولى التى وطئت فيها أقدام الصليبيين الألمان أرض الإمبراطورية البيزنطية، مما جعل العلاقة بين الطرفين تتحول الى حرب سافرة.

ولم يلبث فردريك بربروسا أن عجل بالعبور إلى آسيا الصغرى على رأس قواته فى أواخر مارس سنة ١١٩٠ . وهنا أخذ الإمبراطور البيزنطى إسحق أنجيلوس يرسل الرسالة تلو الأخرى إلى صلاح الدين يحيطه علماً بتحركات الصليبيين الألمان وأخبارهم[٢]. ويستفاد من هذه النصوص أيضاً أن أخبار حملة فردريك بربروسا وصلت إلى مسامع صلاح الدين عن طريق التجار الإيطاليين فى الإسكندرية، الأمر الذى يدل - فيما نعتقد- على أن البنادقة عندئذ أخذوا يضربون عرض الحائط بالصالح الصليبى فى سبيل المحافظة على مصالحهم التجارية فى الشرق[٣].

أما فردريك بربروسا ورجاله، فلم يلبثوا أن دخلوا أراضى قلج أرسلان الثانى بن مسعود، سلطان سلاجقة الروم(١١٥٦-١١٩٢). وكان قلج أرسلان يواجه عندئذ متاعب شديدة من جانب أبنائه الذين قسم ملكه بينهم[٤]، فضلا عما كان يتعرض له من ضغط بسبب التحالف بين خصميه، صلاح الدين من ناحية والإمبراطور البيزنطى من ناحية أخرى، لذلك وجد قلج أرسلان فى الصليبيين الألمان حليفاً طبيعياً له ضد العدو المشترك، ممثلا فى محور دمشق- القسطنطينية. وإذا كان قلج أرسلان قد تعهد لفردريك بربروسا بإشادة فى طريقه إلى الشام عبر آسيا الصغرى وحمايته

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٣٩ . أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٦٠ .

(٢) جاء في كتاب الروضتين في حوادث سنة ٥٨٥ هـ (ج٢ ص ١٥١). وكان ملك الروم يكتب إلينا بإخبارهم ونبأ خروجهم من ديارهم، ويقول أنا لا أمكنهم من العبور. وجاء في نفس المرجع، حوادث سنة ٥٨٦هـ. وصل من ملك قسطنطينية كتاب، يتضمن استعطافاً واستسعافا.. ويعتذر عن عبور الملك الألمانى، وأنه قد فجع في طريقه بالألمانى ونال من الشدة ونقص العدة ما أضعفه وأوهاه.

(3) Groussert: op. Cit, II, p. 13.

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٨ هـ.

ورجاله من عدوان المعتدين، إلا أن سلطان سلاجقة الروم العجوز- الذى أضعفته ثورة أبنائه وعقوقهم- لم يستطع أن يمنع قبائل التركمان فى آسيا الصغرى من التعرض للصليبيين الألمان[١] . هذا كله فضلا عما صادفه الألمان من صعاب بسبب وعورة الطريق وندرة الزاد وقلة الماء، ودخل الشتاء فتراكمت الثلوج فاحتاجوا إلى أكل الدواب![٢] . ولولا شدة فردريك بربروسا وحزمه لأفلت زمام الجيش من يده[٣] .

وفى ١٨ مايو سنة ١١٩٠ وصل الألمان إلى قونيه- عاصمة سلاجقة الروم. ولقد أشار المؤرخون المسلمون بوضوح إلى روابط الصداقة والتحالف التى جمعت بين قلج أرسلان وفردريك بربروسا فى ذلك الدور، فذكر أبو شامة أن قلج أرسلان يظهر شقاقه، وهو فى الباطن قد أضمر وفاقه (للإمبراطور) وأن سلطان السلاحقة سرعان ما أمد الإمبراطور بالمرشدين والرهائن حتى يعبر أراضيه[٤] . ومع ذلك فإن قلج أرسلان لم يستطع أن يمنع ابنه البكر، قطب الدين ملكشاه الثانى، من الخروج على رأس جيش من السلاجقة لمنازلة فردريك ورجاله أمام قونيه. هذا وإن كان قطب الدين لم ينجح فى الثبات أمام الألمان، فاضطر إلى الفرار، فى حين دخلت قوات فردريك مدينة قونيه فهاجموها وأحرقوا أسواقها[٥]. وكان أن أقام فردريك بربروسا خمسة أيام فى قونيه، فأرسل إليه قلج أرسلان طالباً الأمان، وعندئذ بعث له الإمبراطور بهدية، وقال له رسله ما قصدنا بلادكم ولا أردناها وإنما قصدنا البيت المقدس[٦] وبمقتضى تلك الاتفاقية تعهد قلج أرسلان بتأمين طريق الألمان إلى بلاد الشام[٧] . كما أرسل مع الإمبراطور فردريك أدلاء لإرشاده، وبذلك استطاعت الحملة الألمانية الوصول إلى بلاد ابن لاون- أى أرمينية الصغرى- رغم ما تعرض له الألمان من مصاعب عديدة[٨] .

وكان أن رحب ليو الثانى أمير أرمينية (١١٨٥-١٢١٩) بالألمان وقدم لهم كل ما احتاجوا إليه من مساعدات[٩] . ولم يلبث أن أدى اقتراب ذلك الجيش الصليبى الكبير-

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٩١ .

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣١٨ . أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ,١٥١

(3) Groussert: op. Cit, III, p. 41.

(٤) وإعطاء رهائن علي أن ينفذ معه من يوصله إلي بلاد ابن لاون (أرمينية الصغري) وأنفذ معه أدلاء. أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩١ . ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٩١ .

(٥) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ,١٠٤

(٦) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٦ هـ.

(٧) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ,١٥٤

(٨) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ,١٩١

(9) Setton: op. Cit, II. P. 114.

تحت قيادة إمبراطور الغرب- من الشام إلى إثارة جو من الرعب والفزع فى البلدان الإسلامية، فبادر صلاح الدين بإعلان الدعوة للجهاد، وطلب المعونة من أمراء سنجار والموصل وأربل، كما أرسل القاضى بهاء الدين بن شداد إلى بغداد لطلب التأييد والمعونة من الخليفة الناصر لدين الله العباسى(١). وقد بلغ من هلع المسلمين لاقتراب الجيوش الألمانية من أبواب الشام، أنهم أسرعوا إلى إخلاء حصن بغراس- شمالى الإسكندرية- وكان الاستيلاء على هذا الحصن بالذات من أهم الأعمال التى حققها صلاح الدين نظراً لأهمية موقعه الحربى وتحكمه فى الطريق المؤدى من قيليقية إلى شمال الشام(٢).

وقد تحدث المؤرخون المسلمون عن حملة فردريك بربروسا بعبارات تفيد اليأس من الاحتفاظ ببلاد الشام أمام ضغط الألمان من الشمال والفرنسيين والإنجليز من الجنوب. من ذلك ما قاله ابن الأثير من أنه لما وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان أيقنا أنه ليس لنا بالشام مقام(٣). أما أبو الفدا فقد قال :بلغ المسلمين وصول ملك الألمان، وكان قد سار من بلاد ما وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل، واهتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية(٤).

أما صلاح الدين، فقد أخذ يتابع تقدم الألمان فى قلق، وأرسل العيون والجواسيس إلى آسيا الصغرى للوقوف على أخبارهم(٥). وعندما أحس صلاح الدين باقتراب الألمان من حدود الشام، أسرع إلى إخلاء أو تدمير بعض المراكز التى خشى احتلال الصليبيين لها واستخدامها فى محاربة المسلمين، فهدم سور طبرية ، كما هدم يافا وأرسون وقيسارية، وهدم سور صيدا وجبيل ونقل أهلها إلى بيروت(٦).

على أنه لم يلبث أن حدث حادث مفاجئ قلب الموقف رأساً على عقب ورفع عن صلاح الدين كابوس الخطر. ذلك أن فردريك بربروسا- وهو الشيخ العجوز- غرق فجأة أثناء عبوره نهراً صغيراً فى قيليقية، وذلك فى طريقه من طرسوس صوب أذنه وأنطاكية(٧). وهكذا لم يعد هناك خطر من أن تقع بلاد الشام الإسلامية بين فكى

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٥٠، ١٥١ .

(2) Groussert: op. Cit, III, p. 61.

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٦ هـ.

(٤) أبو الفدا: المختصر: حوادث سنة ٥٨٦ هـ.

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٥٠ .

(٦) المصدر السابق ج٢ ص ١٥٧ .

(٧) اختلفت الروايات في كيفية غرق فردريك بربروسا، فالبعض يقول إنه قفز من فوق فرسه إلي الماء البارد لينعش نفسه من حرارة الجو فجرفه تيار النهر وغرق والبعض قال إن فرس فردريك جمع به وألقي به فجأة في الماء. وكان الإمبراطور مرتدياً رداء الحرب وهو من المعدات الثقيلة، فلم يستطع العوم وغرق، في حين تشير غالبية المصادر العربية إلي انه نزل إلي الماء، ليغتسل فغرق في مكان منه لا يبلغ الماء وسط الرجال. أنظر : ابن الأثير سنة ٥٨٦هـ.
Runciman: op. Cit, III. P. 15.

الكماشة نتيجة لضغط الصليبيين الألمان من ناحية الشمال والصليبيين الفرنسيين والإنجليز من ناحية عكا. لذلك لا عجب إذا هلل المسلمون فرحاً لغرق الإمبراطور الألمانى، ونادى المؤرخ ابن الأثير بأنه لولا أن الله تعالى لطف بالمسلمين وأهلك ملك الألمان- لما خرج على ما نذكره عند خروجه إلى الشام- وإلا كان يقال إن الشام ومصر كانتا للألمان(١).

ولم يلبث أن أفلت زمام الجيش الألمانى الكبير عند وفاة قائده، فاختل نظامه، وعجز فردريك السوابى- ابن الإمبراطور الراحل- عن السيطرة على الجند- بل إن ليو الثانى أمير أرمينية لما أحس منهم بذلك الضعف طمع فيهم، حتى إنه عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه(٢). وهكذا تفرق الألمان، فعاد بعض أمرائهم إلى الغرب الأوروبى، واتجه الباقى مع الأمير فردريك السوابى إلى انطاكية، ومعهم جثمان الإمبراطور حملوه فى جرة نبيذ(٣). ولم يلبث أن تعرض هذا الفريق الأخير لوباء شديد انتشر بين رجاله قرب نهر العاصى. ويروى ابن شداد أن بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية لما أحس بضعف الأمير فردريك السوابى ومرضه التقطه إلى انطاكية طمعاً فى أن يموت عنده فيأخذ ماله...(٤). وعلى أن فردريك السوابى لم يمت، وعندئذ تبرم أمير أنطاكية بأولئك الألمان وثقلت عليه وطأتهم فزين لهم مهاجمة حلب، ولكن فردريك السوابى فضل أن يتجه برجاله صوب عكا لمشاركة بقية طوائف الصليبيين فى حصارها (أوائل أكتوبر ١١٩٠)(٥).

وخلاصة القول أن الحملة الألمانية زال خطرها عن المسلمين وتلاشى كابوسها من وجه صلاح الدين، بعد أن تشتت شمل الألمان وانفلت زمامهم. ويتهكم المؤرخ ابن واصل على جموع الألمان الذين وصلوا سالمين إلى الشام فيصفهم بأنهم حملة عصى وركاب حمير!. لذلك تعرضوا فى طريقهم من أنطاكية الى عكا لكثير من

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٥ هـ.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٩٩ .

(3) Runciman: op. Cit, III. P. 16.

- ويروي أبو شامة أنه عند وفاة فردريك بربروسا، أجمع رجاله علي أن يسلقوه في خل وجمعوا عظامه في كيس حتي يحملوه إلي القدس الشريف ويدفنوه فيه. (كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٥٥).

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٩٩ .

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٥٩ .

هجمات المسلمين- وبخاصة أهل حلب- فكان الواحد يأسر جماعة منهم، وهانوا فى الأنفس بعد ما كان قد تهيبوا هيبة عظيمة، وبيعوا فى الأسواق بالثمن البخس[١].

الصليبيون وحصار عكا:

وإذا كانت الحملة الألمانية قد انتهت تلك النهاية الفاشلة المفاجئة، فى حين أضاعت الحملتان الإنجليزية والفرنسية الأشهر الطويلة فى صقلية حيث جو الشتاء دفئ ممتع، فإن الصليبيين فى الشام لم يبق أمامهم سوى الاعتماد على أنفسهم، وعلى ما عساه يصلهم من جموع صليبية صغيرة متفرقة، يستغلونها فى الدفاع عما تبقى من أشلاء مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية بالشام[٢].

على أن الصليبيين المحليين بالشام لم تلبث أن ارتفعت روحهم المعنوية، وتحلوا من مجرد الدفاع الى الهجوم ومحاولة استرداد مدنهم المفقودة على ساحل الشام، وذلك بعد أن أطلق صلاح الدين سراح ملكهم جاى لوزجنان ملك بيت المقدس الذى أسر فى حطين[٣]. وكان صلاح الدين قد وعد أكثر من مرة بإطلاق سراحه، حتى إذا ما كان صيف ١١٨٨، فأرسلت إليه الملكة سيبل- زوجة جاى التى كانت قد نزحت الى طرابلس- ترجوه تحقيق وعده، وعندئذ غلبت على صلاح الدين روح الشهامة والمروءة والوفاء بالعهد- وهى الصفات التى تحلى بها دائما فى جميع تصرفاته مع الصليبيين، والتى طالما عانى كثيراً من المتاعب بسبب تمسكه بها، فى الوقت الذى لم يعرف خصومه فى معاملاتهم معه سوى الغدر والخيانة ونكث العهود. وكان أن أفرج صلاح الدين فوراً عن جاى لوزجنان فى يولية سنة ١١٨٨ . ولم يشأ أن يتركه ينصرف وحيداً، وإنما أفرج أيضا عن عشرة من أعيان أسرى الصليبيين ليكونوا رفقاء وبطانة له، منهم عمورى لوزجنان- أخو جاى - ومقدم الداوية[٤]. وقد اكتفى صلاح الدين عن إطلاق سراح الملك بأن تعهد له جاى بألا يشهر فى وجهه سيفاً أبداً ويكون غلامه ومملوكه طليقاً أبداً[٥]. بل إن مروءة صلاح الدين وسمو خلقه جعلته لا يكتفى

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٢٢-٣٢٣ . كذلك قال عنهم أبو شامة فهانت الألمانية بعد تلك المهابة في الأنفس وباعوهم في الأسواق بالثمن البخس. (كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٥٩).

(2) Groussert: op. Cit, III, p. 18.

(3) Setton: op. Cit, II. P. 50-53.

(4) Ernoul, p. 253 .

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٥٣ . وقد أطلقت المصادر العربية علي جاي لوزجنان اسم الملك العتيق وذلك بعد أن أعتقه صلاح الدين.

بكل ذلك، بل أطلق أيضا سراح الماركيز العجوز وليم الثالث دى مونتفرات، وأرسله معززاً مكرماً إلى ابنه كونراد فى صور، فى الوقت الذى رفض كونراد دى مونتفرات مساومة صلاح الدين وأصر على المقاومة والقتال(١).

ولكن ما أكثر ما وعد الصليبيون، وما أكثر ما نكثوا العهد...فإذا كان صلاح الدين قد تمسك دائما بمبادئ الشهامة العربية فى تصرفاته مع الصليبيين، فإن جاى لوزجنان الذى تعهد بعدم محاربة صلاح الدين أو المسلمين وأقسم على أن يبرح بلاد الشام فور إطلاق سراحه، لم يلبث أن نزح إلى صور مؤملا أن يتولى زعامة القوات الصليبية فى حربها ضد المسلمين(٢).

على أنه يبدو أن صلاح الدين لم يخسر شيئاً من إطلاق سراح جاى لوزجنان بل على العكس استفاد، لما ترتب على تلك الخطوة من اشتداد المنازعات بين الصليبيين بعضهم وبعض، أو على وجه أدق بين جاى وخصومه(٣). ذلك أن الموقف لم يلبث أن تعقد فى صور عند وصول جاى لوزجنان إلى أبوابها سنة ١١٨٨ . حقيقة إن صور كانت المدينة الوحيدة التى ظلت على قيد الحياة من حطام مملكة بيت المقدس الصليبية، ولكن كونراد دى مونتفرات الذى نظم صفوف الصليبيين فى صور وأشرف على حركة المقاومة داخلها، واستطاع الثبات فعلا فى وجه صلاح الدين وجيوشه، رفض أن يسمح لملك بيت المقدس بدخول المدينة(٤). وهكذا قضى جاى لوزجنان بضعة أشهر خارج أبواب صور- ومعه زوجته الملكة- يصيح ويستجير ويطالب بدخول مدينته، وعندئذ رد عليه كونراد بأن صور لم تعد مدينة جاى، وأن يتولى الفصل بينهما ملوك الغرب- أى ملوك فرنسا وانجلترا وألمانيا- الذين ينتظر وصولهم إلى الشام بين فينة وأخرى(٥).

---

(1) Groussert: op. Cit,I II, p. 18.
(2) Archer: The Crusades, p. 317.
(3) Runciman: op. Cit, III. P. 20.
(4) Michaud: op. Cit, II. P.P. 346-357.
(5) Eracles. II. P. 124 & Ernoul, p. p 256-257.

وأتي (جاي) صور يطلب الدخول إليها، فخيم علي باباها يراجع المركبس (كونارد) الذي كان بها في ذلك الوقت، وكان المركبس اللعين رجلا عظيما ذا رأي وبأس شديد وصرامة عظيمة، فقال له إنني نائب الملوك الذي وراءه البحر وما أذنوا إلي في تسليمها إليك!. (أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٠٤).

وعندما وجد جاى لوزجنان نفسه طريداً دون بلد يؤويه أو جيش يحميه، فكر فى غزو عكا– ثانية مدن مملكة بيت المقدس الصليبية بعد مدينة بيت المقدس– وأهم موانيها الساحلية. ولم يلبث أن جمع جاى عند طرابلس كل من أمكن جمعه من فرسان الصليبيين المشردين، سواء من فرسان المملكة والإمارات والمدن التى استولى عليها صلاح الدين، أو من الفرسان النورمان الذين أرسلهم الملك وليم، ثم تقدم على رأسهم جميعاً صوب عكا فى أواخر أغسطس سنة ١١٨٩[١].

ويصور لنا ابن الأثير ما لقيه الصليبيون فى زحفهم على عكا بسبب سيطرة المسلمين على المدن والمعاقل والحصون الواقعة فى الطريق، مما اضطر الصليبيين إلى التزام جانب البحر، فى حين سارت سفنهم على مرأى منهم تحمل أسلحتهم وزادهم[٢]. ولو تنبه المسلمون لخطر تلك الجموع الصليبية وحاصروها عند ممرات الإسكندرية أو عند النواقير لقضوا عليها قبل أن يستفحل خطرها[٣]، ولكن صلاح الدين كان مشغولا عندئذ بمنازلة قلعة الشقيف أرنون[٤]. وعندما سمع صلاح الدين بأن جاى لوزجنان فى طريقه على رأس بعض الجموع الصليبية إلى عكا، لم يصدق الخبر، وظن أن فى الأمر خدعة لحمله على ترك السقيف أرنون، ولم ينتبه إلى حقيقة الأمر إلا بعد فوات الأوان عندما اقترب الصليبيون من عكا فعلا[٥]. وكان أن استدعى صلاح الدين بعض القوات الإسلامية من الجليل، ولكن صلاح الدين نفسه لم يصل إلى الخروبة– على بعد ١٦ كيلو متراً إلى الجنوب الشرقى من عكا– إلا فى ٢٩ أغسطس، بعد أن كان الصليبيون قد احتلوا مراكزهم فعلا فى مواجهة عكا[٦]. ويؤكد ابن الأثير وعماد الدين الكاتب أن صلاح الدين أراد أن يقضى على الصليبيين أثناء زحفهم من صور إلى عكا عند المضيق ؛ ولكن أمراءه عارضوه فى ذلك وقالوا بل نطلبهم طلب الغريم، وأنه من الأوفق مهاجمة الصليبيين أمام عكا ليقعوا بين جيوش صلاح الدين من ناحية وحامية المدينة الإسلامية من ناحية أخرى. وبذلك ارتكب

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٦١ .

(٢) ولزموا البحر في مسيرهم لا يفارقونه في السهل والوعر والضيق والسعة، ومراكبهم تسير مقابلهم في البحر، فيها سلاحهم وذخائرهم، لتكون عدة لهم إن جاءهم مالا قبل لهم به. ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٥ هـ.

(3) Ambroise, p. 364. (ed Paris).

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٦٠، ١٦١ .

(٥) المصدر السابق، ص ١٦٢ .

(٦) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٤٣ .

المسلمون غلطة استراتيجية كبرى[١]، لاسيما وأن الملك جاى اتفق مع كونراد مونتفرات وصفا ما بينهما من خلافات ، واجتمعا لمحاربة المسلمين.

ومهما يكن من أمر، فان جاى لوزجنان أقام معسكره على مقربة من عكا فوق تل المصلبين شرقى المدينة، ثم لحق به صلاح الدين بعد ذلك بيومين (٢٩ أغسطس ١١٨٩) فعسكر على مقربة من الصليبيين على تل كيسان وتل العياضية[٢]. ولقد كان من المؤكد أن يتمكن صلاح الدين من سحق تلك الشراذم الصليبية فى سهولة، لولا وصول بشائر الحملة الصليبية الثالثة من الغرب الأوروبى، مما أمد الصليبيين أمام عكا بقوة كبيرة غيرت الموقف تغييراً تاماً، ذلك أن البيازنة والجنوية كانوا متعادين فى حرب عندما سمعوا دعوة البابوية للحملة الصليبية الثالثة، فأسرعوا إلى عقد الصلح وإعداد أساطيلهم للرحيل إلى الشام لمحاربة المسلمين[٣]. وفى شهر إبريل سنة ١١٨٩ وصل إلى صور للمشاركة فى حصار عكا أسطول بيزى كبير من اثنتين وخمسين سفينة تحت قيادة أو بالدو Ubaldo رئيس أساقفة بيزا[٤]. ولم تلبث أن توافدت بعض أساطيل جنوا والبندقية، فضلا عن الأساطيل التى وفدت من الغرب الأوروبى عبر مضيق جبل طارق، تحمل آلاف الصليبيين من الدانيين والفريزيين والفلمنك والفرنسيين والألمان، حتى قدر بعض المؤرخين الجموع الصليبية التى احتشدت أمام عكا فى سبتمبر سنة ١١٨٩ بأكثر من عشرين ألفا[٥]. وفى أواخر ذلك الشهر حضر كونراد دى مونتفرات هو الآخر على رأس قواته من صور، وبذلك تهيأ الجميع للثأر مما حل بالصليبيين على يد صلاح الدين فى حطين[٦].

على أن صلاح الدين لم يظل ساكنا طوال تلك المدة حتى تكتمل الجيوش الصليبية، وإنما بدأ هجومه الأول على الصليبيين أمام عكا فى منتصف سبتمبر سنة ١١٨٩ ، واستطاعت جيوشه فى الهجمات التالية أن تنزل بصفوف الصليبيين خسائر جسيمة[٧]. ولم يلبث أن ساء موقف الصليبيين– على كثرتهم– أمام عكا نتيجة

(١) فلو أن العساكر اتبعت رأي صلاح الدين في مسايرهم ومعاملتهم قبل نزول علي عكا لكان بلغ غرضه وصدهم عنها، ولكن إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه.... ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٥ هـ. عماد الدين الكاتب: الفتح القسي ص ١٥٢، ١٥٣ .

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ,١٤٣

(3) Cam. Med. Hist. Vol.5, p. 227.

(4) Heyd: op. Cit, I, p. 312.

(5) Riant: Expeditions des Scandinaves en Terre Sainte p.p 282-284 & Heyd: op. Cit: I. P. 312.

(6) Archer: The Crusades, p.p 316-317.

(٧) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٦٤–١٦٥، ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٥ هـ.

لهجمات صلاح الدين وضرباته القوية، حتى أصبحوا- وهم الذين أتوا لحصار عكا- محاصرين فعلا بين القوات الإسلامية داخل عكا وقوات صلاح الدين خارجها(١).

ثم كان أن انتشر وباء فى المنطقة نتيجة لكثرة جيف القتلى من الفريقين فحدث للأمزجة فساد وانحرف مزاج صلاح الدين، الأمر الذى جعل الأمراء يشيرون عليه بالابتعاد بقواته فى منتصف أكتوبر سنة ١١٨٩ من تل كيسان إلى الخروبة(٢). ولاشك أن الصليبيين أفادوا من تلك الحركة، لأن صلاح الدين كان وهو فى تل كيسان على اتصال بقواته فى عكا. أما وقد بعد إلى الخروبة فقد غدا فى استطاعة الصليبيين الإحاطة بعكا إحاطة تامة وشرعوا فى حفر خندق على معسكرهم حول عكا من البحر إلى البحر، وأخرجوا ما كان فى مراكبهم من آلات الحفر.. فكان من قضاء الله أنا أغفلناهم بل أهملناهم.. ولما فرغوا من هذا الأمر اشتغلوا بالحفر، وانقطع الطريق على المسلمين إلى عكا...(٣).

وهكذا طالت الحرب أمام عكا، واتخذت طابع حرب الخنادق، فحامية عكا الإسلامية محتمية خلف أسوار المدينة، والصليبيون المحاصرون لعكا مجتمعون فى الخنادق التى حفروها ووراء الحيطان التى بنوها، فى حين قضى صلاح الدين شتاء ١١٨٩-١١٩٠ وشطراً من الربيع التالى ساكناً يرقب الموقف من كثب فلم يقدر السلطان على الوصول إلى البلد، ولا استطاع أهل عكا أن يصلوا إلى السلطان!!(٤). ومع ذلك فإن الصلة بين صلاح الدين وحامية عكا لم تنقطع تماماً، فكانت تعليمات السلطان ترسل إلى رجال الحامية عن طريق العوامين فى البحر بواسطة الحمام الزاجل، فنكتب إليهم ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام بالترجمة (الشفرة) المصطلح عليها سر الأمور(٥).

ويبدو أن وقوف المسلمين والصليبيين وجهاً لوجه تلك المدة الطويلة، ساعد على إيجاد نوع من الاتصالات السلمية التى اتصفت بطابع التسامح بين الفريقين.

---

(1) Groussert: op. Cit, II, p. 25.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٥ هـ.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٤٧ .

(٤) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٠٢ .

(٥) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي ص ١٩٢ .

من ذلك ما يذكره صاحب كتاب الروضتين من أن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال، وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة!؟[١] كذلك أشار ابن واصل إلى ما صار من تآلف بين المسلمين والصليبيين. أما عكا، فقال أونس المسلمون بالفرنج بطول المدة بحيث كانوا يتركون القتال ويتحدثون! وربما غنى بعضهم لبعض!! ثم يعاودون القتال بعد ساعة...[٢]. ولم يقتصر الأمر على التقارب والتفاهم بين الكبار بل تعداه إلى الصبيان والصغار، فصار صبيان المسلمين يخرجون لمصارعة صبيان الصليبيين! واستطاع أحد الصبيان المسلمين أن يضرب صبياً من الصليبيين ويأسره فاسترده الصليبيون بدينارين وقالوا له هو أسيرك حقا.. فأخذ الدينارين وأطلقه[٣]. ولعله من السهل علينا أن ندرك الفارق بين تلك الروح التى أسدت العلاقات بين المسلمين والصليبيين فى نهاية القرن الثانى عشر، وبين ما كان عليه الوضع عند مجئ الحملة الصليبية الأولى فى نهاية القرن الحادى عشر.

ثم كان أن أتى الملك العادل إلى الخروبة فى أواخر نوفمبر سنة ١١٨٩ على رأس العسكر المصرى لمساعدة أخيه صلاح الدين[٤] ثم أتى بعد شهر حسام الدين لؤلؤ- صاحب الانتصارات البحرية على قراصنة الصليبيين فى البحر الأحمر- على رأس خمسين قطعة من الأسطول المصرى إلى مياه عكا. وقد نجح الأسطول المصرى فى شق طريقه إلى الميناء وأمد عكا من ناحية البحر بكثير مما كانت تحتاج إليه من مؤن وإمدادات، فضلا عن جماعة من الأمراء بأجنادهم وعددهم وأزوادهم[٥].

وعلى الرغم من كل ذلك فإن مركز الصليبيين ظل قوياً لتفوقهم البحرى من ناحية وكثرة أعدادهم من ناحية أخرى. لذلك لم يجد صلاح الدين بداً من دعوة كافة حكام المسلمين- فى المشرق والمغرب- لمشاركته الجهاد، فاجتمع لديه فى أبريل سنة ١١٩٠ عماد الدين الأرتقى صاحب دارا، والشريف فخر الدين مبعوثاً من الخليفة العباسى ببغداد ومعه بعض آلات الحصار والحرب. وفى الشهر التالى وصل إلى

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٤٣ .
(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢٩٤ .
(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٤٣ .
(٤) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٠٢ .
(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٠٥ .

صلاح الدين الأمير عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار ومعز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى صاحب الجزيرة- وهو ابن أخى عماد الدين السابق ذكره- فضلا عن علاء الدين خرم شاه بن مسعود صاحب الموصل نائباً عن أبيه، وزين الدين يوسف صاحب أربل[١]. ولاشك أن تحالف هؤلاء الأمراء جميعا من بقايا البيت الزنكى مع صلاح الدين- الذى طالما نكل بأفراد ذلك البيت- يدل على وعى إسلامى عام، وعلى استعداد حكام المسلمين عندئذ لتناسى ما بينهم وبين بعض من خلافات وحزازات لمواجهة خطورة الموقف. ويذكر ابن شداد أن صلاح الدين فرح فرحاً شديداً بقدوم أولئك الأمراء والملوك من أبناء البيت الزنكى، ولقيهم بالاحترام والتعظيم وأكرمهم إكراماً فائقاً[٢].

ثم إن صلاح الدين لم يكتف بطلب المعونة من حكام المشرق الإسلامى، بل أرسل سفارة إلى الموحدين فى المغرب لطلب المساعدة من أبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن. وقد قال صلاح الدين له فى رسالته بأنه من الواجب أن يمد غرب الإسلام المسلمين بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين... كذلك رأى صلاح الدين أن لا يقف دور ملك المغرب على تقديم المساعدة، بل طلب منه أن يقطع عنهم (الصليبيين) مادتهم من جهة البحر، أى أن يقوم ملك المغرب بقطع الطريق عن السفن الأوروبية التى تقوم بإمداد الصليبيين فى الشام بما يحتاجون إليه من مؤن وإمدادات. وعند وصول هذه السفارة إلى المغرب فى يناير سنة ١١٩١، تعهد أبو يوسف يعقوب بإرسال أسطول لعرقلة نشاط الإيطاليين فى مياه البحر المتوسط[٣].

وهكذا سارت الحرب بين المسلمين والصليبيين سيراً بطيئاً أمام عكا، دون أن تنتهى إلى نهاية حاسمة. ولم يكف صلاح الدين طول تلك المدة عن تشجيع الجند ووعدهم بالوعود الجميلة، فظل يحثهم على الجلاد والجلد[٤]. وأدى جمود الموقف وكثرة القتلى فى مكان محدود إلى انتشار الوباء واشتداد أزمة التموين فى المعسكرين سواء[٥]. وكانت مدينة

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٦ هـ.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٨٨ .

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٧١- ١٧٤ . ويشير أبو شامة إلي أن سلطان المغرب لم يرسل أية مساعدة لصلاح الدين، لأنه عز عليه كونه لم يخاطب بأمير المؤمنين علي جاري عادتهم.

(٤) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي ص ١٦٠ .

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٥٨، ١٥٩ . وقد ذكر عن قتلي الصليبيين أنهم كانوا مفرشين في مدي فرسخ علي الأرض وهم تسعة صفوف من تلال الرمل إلي البحر بالعرض، وكل صف يزيد علي ألف قتيل.

عكا بالذات– بحكم وقوعها تحت ضائقة الحصار– أشد تعرضاً للمجاعة وإحساساً بوطأتها. وإذا كان صلاح الدين قد نجح فى أغسطس سنة ١١٩٠ فى تهريب أربع مائة غرارة من القمح وقدر من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من بيروت إلى عكا عن طريق البحر[١]؛ فإن هذا القدر الضئيل من المعونة كان لا يكفى لسد حاجة المدينة أكثر من بضعة أسابيع قليلة، وفق ما ذكر بهاء الدين قراقوش والى عكا لصلاح الدين. وفى سبتمبر من العام نفسه نجحت ثلاث سفن (بطس) مصرية ضخمة فى اقتحام ميناء عكا ليلاً، وكانت مشحونة بالأقوات والأدام والمير وجميع ما يحتاج إليه فى الحصار بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء[٢].

ولم يلبث أن وصل إلى عكا الأمير فردريك السوابى على رأس البقية الباقية من حطام حملة فردريك بربروسا الألمانية، فكان لوصول هذه القوة أثرها فى شد أزر الصليبيين وقيامهم بهجوم كبير على المسلمين بعكا فى أواخر سبتمبر سنة ١١٩٠[٣]. ومع ذلك فإن عكا استطاعت الصمود لاسيما بعد أن نجح صلاح الدين عن طريق أسطوله فى تجديد حامية المدينة قرب منتصف فبراير سنة ١١٩١، فأنزل قوات جديدة، وحمل الأسطول القوات السابقة لعظم شكايتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهاراً[٤]. وعلى أنه يلاحظ أن تلك العملية الخطيرة تمت فى ظروف صعبة، الأمر الذى جعلها لا تتم على الوجه الأكمل، حتى إن الستين أميرا الذين انسحبوا من عكا لم يحل محلهم سوى عشرين فقط. ويرجع أبو شامة السبب فى سقوط عكا فيما بعد إلى الخطأ فى تنفيذ تلك العملية بالذات[٥].

وربما كان فى استطاعة الصليبيين أن يستولوا على عكا فى تلك المرحلة لولا صعوبة ظروفهم وعدم تعاونهم بسبب اختلاف طوائفهم وأصولهم ومشاربهم. هذا

(١) ويروي ابن شداد أن المسلمين تحايلوا علي الدخول بهذه البطسة (السفينة) في ميناء عكا، فتزيوا بزي الإفرنج حتي حلقوا لحالهم ووضعوا الخنازير علي سطح البطسة بحيث تري من بعد وعلقوا الصلبان. (النوادر السلطانية ص ٢١١).

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٦١.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢٣٠.

(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٨٠، ١٨١.

(٥) يقول ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٦ هـ فدخلوا إليها عشرين أميراً وكان بها ستون أميرا فكان الذين دخلوا قليلا بالنسبة إلي الذين خرجوا.... أما أبو شامة فيقول: ودخل إلي عكا من لم يجرب حصارها، ولم يخبر منافعها ومضارها. ودخل عشرون مقدماً وأميراً شبه المكرهين عوض ستين، واستخدمت الرجال وأنفقت الأموال. وتفاوت الداخلون والخارجون. فلا جرم وقع الوهن وقضي الأمر... (كتاب الروضتين، ج ٢ ص ١٨١).

بالإضافة إلى ما نشأ عندئذ من خلاف شديد ونزاع مرير بين كونراد دى مونتفرات وجاى لوزجنان بسبب التنافس حول عرش مملكة بيت المقدس الصليبية. ذلك أن سيبل ملكة بيت المقدس- وزوجة جاى- ماتت أمام عكا فى أكتوبر سنة ١١٩٠، وبذلك صارت الوريثة لعرش المملكة هى أختها الأميرة إيزابيل الابنة الثانية لعمورى الأول ملك بيت المقدس الأسبق(١). ولم يكن لجاى لوزجنان- حسب قانون مملكة بيت المقدس- أى حق شرعى فى العرش بعد وفاة زوجته، لاسيما وأنه كان مكروهاً من الأمراء لضعفه وسوء تصرفه فى الأحداث التى صحبت كارثة حطين(٢)، لذلك أسرع الأمراء إلى تطليق الأميرة إيزابيل من زوجها الخامل أو نفروى الرابع تورون Onfroi iv de Toron وتزوجها فى نوفمبر سنة ١١٩٠ من كونراد دى مونتفرات، وهو الرجل القوى الذى اعتقد الأمراء فى كفايته وقدرته على إحياء مملكة بيت المقدس(٣). ولاشك أن هذا الإجراء لم يرض عنه جاى لوزجنان وشيعته- وبخاصة الداوية- مما أحدث انشقاقا خطيراً بين صفوف الصليبيين أمام عكا، ولولا وصول فيلب أوغسطس فى ابريل سنة ١١٩١، فجمع شمل الصليبيين تحت زعامته، ووجه جهودهم جميعاً لحرب المسلمين(٤).

فيليب أغسطس والاستيلاء على عكا:

إذا كان فردريك بربروسا قد عجل بالخروج إلى الشرق على رأس حملته الصليبية، فإن ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب أوغسطس ملك فرنسا لم يتركا الغرب إلا فى صيف سنة ١١٩٠، فأبحر الأول من مرسيليا وأبحر الثانى من جنوا(٥). ولم يلبث أن التقى العاهلان بعد ذلك فى صقلية، حيث قضيا- ومعهما جيوشهما- نحواً من ستة أشهر يتمتعون بدفء الشتاء، فى الوقت الذى كان الصليبيون أمام عكا ينتظرون حضورهم فى قلق بالغ(٦). وأخيراً أبحر فيليب أوغسطس من مسينا فى نهاية مارس سنة ١١٩١ ليصل إلى صور حيث رحب به قريبه كونراد دى مونتفرات، ثم

(1) Setton: op. Cit, II. P.p 66.
(2) Dodu: Institiones Monarchiques de Royaume de Jerusalem, p.p 120-121.
(3) Ernoul, p.p 267-268 & Eracles. II. p.p 152-158.
(4) Michaud: op. Cit, II. p.p 378-379.
(5) Crousset: op. Cit, III, p. 45.
(6) Lavisse: Hist, de France, III. P.p 107-108.

صحبه قبالة عكا فوصلوها يوم ٢٠ أبريل.

وكان لوصول فيليب أوغسطس إلى قبالة عكا رد فعل عنيف بين صفوف الصليبيين والمسلمين سواء، فبينما ابتهج الصليبيون وأظهروا الفرح العظيم والسرور البالغ لوصول ملك فرنسا[1]؛ إذا بالمسلمين يعملون حساباً لتلك القوة الخطيرة، لاسيما وأن ملك فرنسا كان كما وصفه أبو شامة عظيما عندهم من كبار ملوكهم ينقادون له بحيث إذا حضر حكم على الجميع[٢]. هذا إلى أن وصول فيليب أوغسطس إلى الشام جاء فى الوقت الذى شهد ازدياد سوء موقف المسلمين أمام عكا وداخلها وضجرت العساكر من كثرة القتال، فرحل صاحب سنجار وصاحب الموصل[٣].

ولم يشأ فيليب أوغسطس أن ينتظر وصول ريتشارد– الذى ساقته الظروف إلى جزيرة قبرص ليفتحها– وإنما بدأ فيليب أوغسطس بمهاجمة عكا فوراً. وتشجع بقية الصليبيين فأخذوا يعملون آلات الحصار فى أسوار المدينة، ويقذفونها بالقذائف قذفاً متواصلا ليل نهار، وعملوا على ردم الخندق المحيط بالمدينة، فلم يجدوا أمامهم لردمه وطمه سوى جثث الأموات وجيف الخنازير والدواب النافقات[٤].

ثم كان أن وصل ريتشارد قلب الأسد إلى صور فى ٦ يونية، فرفضت حامية المدينة السماح له بدخولها، وذلك وفقا للتعليمات التى تركها لها فيليب وكونراد. لذلك لم يجد ريتشارد بداً من الالتجاء إلى عكا فوصلها يوم ٨ يونية وعندئذ ازداد الصليبيون قوة، فى حين ساء موقف حامية عكا الإسلامية أمام ضغط تلك الجموع الكثيفة من الصليبيين التى شددت الهجوم على المدينة[٥].

وإذا كانت الحزازات والضغائن القديمة بين ملكى فرنسا وانجلترا قد ظهرت بوضوح عندما اجتمع الطرفان أمام عكا، فإن ذلك لم يحل دون توحيد صفوف الصليبيين للقيام بعدة هجمات قوية على عكا فى أواخر يونية وأوائل يولية سنة

---

(1) Eracles. II. P.p 155-156.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٨٣، ابن شداد: النوادر ص ٢٤٨ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٠٥ .

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٥٠ . أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٨٤ .

(5) Ernoul, p. 278 and Estoire d`Eracles, p.p 169-170.

– وقد وصف ابن شداد ريتشارد بأنه شديد بينهم عظيم الشجاعة، قوي الهمة، له وقعات عظيمة. وله جسارة على الحرب، وهو دون ملك الفرنسيس (فيليب) عندهم في الملك والمنزلة ولكنه أكثر مالا منه، وأشهر في الحرب والشجاعة. (النوادر السلطانية، ص ٢٤٩–٢٥٠).

١١٩١[١]. وهنا يسجل التاريخ لعكا وحاميتها الإسلامية موقفاً رائعاً من مواقفها العديدة الشهيرة فى التاريخ، إذ استمرت صامدة فى وجه ذلك الخطر الضخم، وأظهرت حاميتها تحت قيادة قراقوش شجاعة تسترعى الإعجاب، فى حين ظل صلاح الدين يرقب الموقف من مراكزه عند سفرعم ثم عند الخروبة ثم العياضية[٢]. وعندما قام صلاح الدين بهجمات مضادة ضد الصليبيين ليصرفهم عن عكا، لجأ الصليبيون إلى مهاجمة معسكر صلاح الدين فى ٢٢ يونية، ولكنهم فشلوا فى تحقيق أى هدف من ذلك الهجوم، بعد أن ثبت المسلمون لهم ثبوتاً عظيماً وصبروا صبر الكرام[٣].

ولا أدل على روح الفداء والشجاعة التى حارب بها المسلمون عندئذ من أن صلاح الدين أمر بتعبئة سفينة كبيرة (بطسة) فى بيروت وشحنها بالآلات والأسلحة والمؤن والرجال، لإمداد حامية عكا عن طريق البحر. ولكن السفينة الإسلامية لم تكد تصل إلى مياه عكا، حتى حاصرتها سفن ريتشارد ملك انجلترا وأحاطت بها من كل جانب، وعندئذ أبى رجال السفينة الإسلامية الاستسلام، وظلوا يقاتلون أربعين سفينة من سفن الأعداء حتى أحرقوا إحداها. وعندما يئس المقاتلون فى السفينة من النجاة، قال مقدمهم والله لا نقتل إلا عن عز، ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئاً، فأغرقوا سفينتهم وغرقوا جميعاً وهم ستمائة وخمسون رجلاً، استشهدوا كراماً[٤].

أما عن الصليبيين، فإنهم لم يكونوا أحسن حالا، إذ استمر الخلاف بين كونراد وجاى[٥]، مما جعل كونراد (المركيس) يترك الصليبيين أمام عكا ويهرب إلى صور عن طريق البحر، فى حين مرض ريتشارد مرضاً أوشك أن يموت بسببه، وجرح فيليب أوغسطس ملك فرنسا[٦]. وعندما رأى الصليبيون ذلك، خشوا أن يتعرضوا فى تلك المرحلة الحرجة لهجوم المسلمين، فاستخدموا الحيلة، وأخذ ريتشارد يراسل السلطان ويطلب الاجتماع به شغلا للوقت؟[٧] وهنا ظل صلاح الدين محتفظاً دائماً

(1) Runciman: op. Cit, III. P. 49.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٧ هـ. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٥٣ .

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٦٠ . Ambroise, p.p 333-343.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٥١ .

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٦٣-٢٦٤ .

(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٦٣-٢٦٤ .

(٧) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي ص ٢٧٥ . ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٥٥ .

بكرم أخلاقه فى معاملة الصليبيين، فأرسل إلى ريتشارد ما طلبه فى مرضه من فاكهة وثلج حتى شفى. [١]

ولم تكد أحوال الصليبيين تتحسن، حتى عادوا ليشدوا هجماتهم على عكا فى أوائل شهر يولية. وقد أدرك صلاح الدين ما كانت تعانيه حامية عكا عندئذ من ضغط وشدة، فاشتد فى الزحف والحث على القتال وصار يطوف بين الجند بنفسه وهو ينادى ياللإسلام.. وأخيرا أرسلت حامية عكا رسالة جاء فيها: إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن فى الغد ثامن الشهر (جمادى الأولى سنة ٥٨٧ هـ)، إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد[٢].

ولم تفلح الهجمات القوية التى شنها صلاح الدين على جيوش الصليبيين فى إنقاذ عكا؛ فساءت حالة الحامية الإسلامية داخلها، واضطر قادتها قراقوس والمشطوب الكردى إلى الاستسلام[٣]. وكان أن بدأت المحادثات بين الطرفين لتسليم المدينة، فذهب المشطوب بنفسه إلى المعسكر الصليبى لمقابلة ملك فرنسا والاتفاق معه على شروط التسليم[٤]. وعندما يئس صلاح الدين من قبضة عكا تدخل فى المفاوضات التى ناب فيها الاسبتارية عن جانب المسيحيين والعادل عن جانب المسلمين[٥]. على أن الصليبيين اشتطوا اشتطاطاً عظيماً، وطلبوا ثمناً باهظا مقابل السماح لأهل عكا وحاميتها بالخروج سالمين، إذ اشترطوا إرجاع صليب الصلبوت وإعادة مملكة بيت المقدس إلى حدودها التى كانت عليها سنة ١١٧٩ [٦]. ومن الواضح أنه كان من المتعذر عملياً تحقيق تلك المطالب، إذ لم يكن من المعقول أن يتخلى صلاح الدين عن المكاسب التى حصل عليها بعد حطين بمثل تلك السهولة[٧]. وكان أن تدخل كونراد دى مونتفرات، وعقد اتفاقية مع حامية عكا دون موافقة صلاح الدين. وقد نصت تلك الاتفاقية على السماح لحامية عكا بالخروج مقابل فدية قدرها مائتا ألف دينار، وتحرير

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٨٦ .

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٦٧-٢٦٨، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٥٦ .

(٣) اسمه الأمير سيف الدين علي بن احمد الهكاري المعروف بالمشطوب. (ابن الأثير: حوادث سنة ٥٨٧هـ).

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٥٧ . ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٧ هـ.

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٧٣-٢٧٥ .

(٦) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي ص ٢٨١ .

(٧) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٨٧ .

ألفين وخمسمائة من أسرى الصليبيين، فضلا عن رد صليب الصبلوت[١].

وهكذا دخل الصليبيون عكا فى يولية سنة ١١٩١ بعد أن حاصروها قرابة عامين، الأمر الذى أثار موجة من الحزن والأسى عبر عنها المؤرخون المسلمون[٢]. وزاد من لوعة الأسى أن الصليبيين غدروا بوعدهم ونقضوا شروط الصلح فأسروا من فيها من المسلمين وكانوا ألوفا[٣].

أما الصليبيون فلم تنته مشاكلهم بالاستيلاء على عكا، إذ لم يلبث أن اشتد الخلاف بين أهل عكا من الصليبيين الأصليين الذين نزحوا من المدينة عندما استولى عليها المسلمون، والذين عادوا إليها ليستعيدوا ممتلكاتهم ونفوذهم ونشاطهم، وبين الصليبيين الجدد الذين فتحوا عكا وأرادوا أن يستأثروا بكل ما فيها من أموال وغنائم[٤]. هذا إلى أن النزاع الذى كان لايزال قائماً بين كونراد دى مونتفرات وجاى لوزجنان، اشتد تفاقماً عقب سقوط عكا، إذ تمسك جاى بحقه- بوصفه الملك السابق الذى سبق تتويجه فى بيت المقدس- فى حين نادى كونراد بشرعية حقه بوصفه زوج إيزابيل وريثة المملكة. وازداد ذلك النزاع خطورة واستعت دائرته عندما استعان جاى لوزجنان بريتشارد ملك انجلترا فضلا عن الداوية، فى حين استعان كونراد بأمراء مملكة بيت المقدس السابقين وأيدهم فيليب أوغسطس ملك فرنسا[٥]. وأخيراً عقد الصليبيون مجلساً كبيراً لبحث تلك المشكلة فى ٢٧ يولية سنة ١١٩١، ولكنهم لم يصلوا إلى حل موفق يرضى الطرفين.

ولم تطل إقامة فيليب أوغسطس بعد ذلك بالشام، إذ اعتذر بالمرض وأبحر من صور فى ٣ أغسطس ١١٩١ قاصداً برنديزى فى الطريق إلى بلاده، وبذلك ترك مهمة تصفية الموقف المعقد فى بلاد الشام- سواء بين الصليبيين بعضهم وبعض أو بينهم وبين صلاح الدين- لزميله ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا[٦].

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٥٩، ٣٦٠ ويروي ابن شداد أن صلاح الدين عندما علم بأمر ذلك الصلح أنكر ذلك إنكاراً عظيماً، وعظم عليه الأمر. (النوادر السلطانية، ص ٢٧٦).

(٢) فما أحسن المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره علي أسوار البلد... وعظمت المصيبة علي المسلمين واشتد حزن الموحدين، وانحصر كلام العقلاء من الناس في إنا لله وإنا إليه راجعون، وغشي الناس بهتة عظيمة وحيرة شديدة، ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب.. (أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٨٨).

(٣) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٠٥.

(4) Ernoul, p.p 271-277.

(5) Cam. Med. Hist. Vol.5, p. 311.

(6) Runciman: op. Cit, III. P. 52.

الفصل الثاني
ريتشارد قلب الأسد فى الشرق

ريتشارد وجزيرة قبرص:

اختار ريتشارد ملك انجلترا أن يخطب لنفسه- وهو فى صقلية سنة ١١٩٠ فى طريقه إلى الشام- برنجاريا ابنة ملك نافار، وبعد ذلك أبحر على رأس أسطوله فى أبريل سنة ١١٩١ قاصداً عكا[١]. وفى الطريق هبت ريح قوية على أسطوله، فجنحت بعض السفن على شاطئ جزيرة قبرص[٢].

وكان إسحق كومنين- حاكم جزيرة قبرص عندئذ- معادياً للصليبيين، فأسرع عندما علم بجنوح بعض السفن الإنجليزية على شاطئ جزيرته إلى مصادرتها وأسر من فيها، وصادف أن كان فى بعض تلك السفن الأميرة جوانا أخت ريتشارد والأميرة برنجاريا خطيبته، فتصرف إسحق تجاههما تصرفاً غير لائق، مما أثار غضب ريتشارد وجعله يعمل على تأديب إسحق[٣]. ولم يلبث أن تمكن الملك ريتشارد من فتح قبرص، ودخل عاصمتها نيقوسيا، وعندئذ استسلم إسحق، وغدت الجزيرة من أملاك ريتشارد. وجدير بالذكر أن جاى لوزجنان- ملك بيت المقدس السابق- أسرع عندئذ من الشام إلى قبرص لمساعدة ريتشارد من جهة وطلب تأييده ضد كونراد دى مونتفرات من جهة أخرى. وبعد أن ترك ريتشارد بعض رجاله لحكم الجزيرة، أبحر إلى عكا فوصلها فى ٨ يونية سنة ١١٩١ ليشارك فى حصار عكا وفتحها كما سبق أن أشرنا[٤].

ولاشك أن استيلاء ريتشارد على جزيرة قبرص أدخلها دائرة الحروب الصليبية، مما جعل هذه الخطوة ذات أثر بالغ، ليس فى تاريخ قبرص أو الحروب الصليبية فحسب، بل فى تاريخ الشرق الأدنى بوجه عام. فالشرق اللاتينى الذى كاد صلاح الدين يلقى به فى ظلمات البحر المتوسط، كتب له مرة أخرى أن يولد ويظل حياً وسط الأمواج المحيطة بشواطئ الجزيرة القبرصية[٥]. ذلك أن قبرص غدت بعد فتح ريتشارد لها مركزاً دائماً

(1) Stubbs: Seventeen Lectures on Med. And modern Hist., p. 185.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٢٦، ٢٧ .

(3) L'Estoire d`Eracles p. 159-161.

(4) Hill: A History of Cyprus, p. 320& Norgate: RichardtheLion- Heart, p. 148.

(5) Groussert: op. Cit, III, p. 49.

لتموين البقايا الصليبية بالشرق، كما صارت محوراً لكثير من التحركات الصليبية طيلة قرون مقبلة[1]. وقد وضحت هذه الاعتبارات للصليبيين وهم على حصار عكا (١١٩٠-١١٩١) أي قبل تمام استيلاء ريتشارد على قبرص، إذ وجدوا فى تلك الجزيرة القريبة موئلا وواسطة للاتصال بينهم وبين الغرب[2]. ولا عجب بعد ذلك إذ فرح الصليبيون إيما فرح باستيلاء ريتشارد على قبرص، لأنها صارت على قول ابن الأثير (قوة للفرنج). ومصداق ذلك كله وصف امبرواز للفرح الذى شمل الصليبيين عندما وصل ريتشارد إليهم وعلموا أنه نجح فى الاستيلاء على قبرص[3].

ريتشارد وزعامة الحملة الصليبية الثالثة:

ولم يلبث أن أصبح ريتشارد قلب الأسد- بعد عودة فيليب أوغسطس إلى الغرب- هو الزعيم الأوحد للحملة الصليبية الثالثة، والقائد المطلوب منه إصلاح أوضاع الصليبيين بالشام صاروا أحوج ما يكونون إلى الاتزان والتعقل فى ذلك الدور الحرج من أدوار مغامرتهم فى الشام[4]. حقيقة أن ريتشارد قلب الأسد عرف بشجاعته، ولكنها كانت شجاعة أقرب إلى التهور فضلا عن قصر نظره السياسى وعدم تحفظه بالنسبة لمستقبل الصليبيين بالشام، وهى الصفات التى سبق أن اتصف بها أرناط فى تصرفاته مع المسلمين حتى أوردت به وبإخوانه الصليبيين[5]. وليس أدل على حماقة ريتشارد وتهوره من أنه عندما وجد تباطؤا من المسلمين فى تسليم صليب الصلبوت وتبادل الأسرى وفقاً لشروط تسليم عكا، لم يحاول الاتصال بصلاح الدين. وإنما ساق أسرى عكا من المسلمين وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم إلى تل العياضية، حيث قتلوهم صبراً طعنا وضربا بالسيف، والمسلمون عن بعد يشاهدون ولا يدرون ما يفعلون لبعدهم عنهم (٢٠ أغسطس ١١٩١)[6].

وشتان بين هذا السلوك الهمجى الذى اتبعه ريتشارد فى ذبح أسرى المسلمين وبين السلوك الإنسانى الذى اتبعه صلاح الدين عقب انتصاره فى حطين ثم عقب

(1) Hill: op. Cit, p. 317.

(٢) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٢٩-٣٠ .

(3) Groussert: op. Cit, III, p. 49.

(4) Stevenson cit., p. 274.

(5) Archer: op, cit, p. 331.

(٦) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي ص ٢٩٣ . أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٨٩ .

استيلائه على بيت المقدس، إذ حرص صلاح الدين دائما- كما سبق أن رأينا- على السماح لأهل المدن التى استولى عليها من الصليبيين بمغادرتها سالمين، ومنع رجاله من الاعتداء عليهم أو التعرض لهم، بل إنه لم يضن على ريتشارد نفسه أثناء مرضه بالفاكهة والثلج وأرسلها إليه، والصليبيون يحاصرون عكا(١).

ومن الواضح أن ذلك العمل الوحشى الذى أتاه ريتشارد مع أسرى عكا لم تكن له نتيجة سوى تأجج نار الثأر فى قلوب المسلمين وإثارة نقمتهم، وهم الذين لم ينسوا بعد ما فعله صليبيو الحملة الأولى بالمسلمين فى بيت المقدس سنة ١٠٩٩ . ومع كل ذلك فقد أبى صلاح الدين أن يرد على وحشية ريتشارد بالمثل، ورفض أن يقتل من كان فى حوزة المسلمين من أسرى الصليبيين، وهم أعظم عدداً بكثير من أسرى عكا المسلمين(٢).

ولم يلبث أن أخذ ريتشارد يعانى نتائج فعلته الهمجية، إذ أغلق صلاح الدين باب المفاوضات معه حول أى موضوع يتعلق ببيت المقدس. أما أسرى الصليبيين الذين كان قد جمعهم صلاح الدين استعداداً لاستبدال أسرى عكا بهم، فقد أمر بردهم فوراً مكبلين إلى دمشق، وكذلك صليب الصلبوت(٣). ثم إن صلاح الدين الذى أخذ يستعد لقتال ريتشارد والصليبيين، لم يحجم فى المعارك التالية عن قتل بعض من وقع فى يده من أسرى الصليبيين(٤).

موقعة أرسوف وأثرها:

ثم كان أن فكر ريتشارد فى استرداد شاطئ فلسطين من عكا حتى عسقلان، فبدأ زحفه بحذاء ساحل البحر فى أواخر أغسطس سنة ١١٩١ فى ظروف صعبة بسبب شدة الحرارة وقلة المؤن وخراب البلاد والقرى التى مر بها. على أن صلاح الدين لم

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٥٥ .

(2) Groussert: III, p. 61-62.

(٣) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي ص ٢٩٣ .

(٤) وكلما أتي السلطان منهم بأسير أمر بقتله.

ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٦٥ . أما ابن شداد فيروي أنه عندما وقع أسيران في يد صلاح الدين أثناء الزحف علي عسقلان فإنه قتلهما شر قتلة، وكان في حدة الضيق لما جري علي أسري عكا.

(النوادر السلطانية، ص ٢٨٧).

يترك غريمه يزحف فى سلام، وإنما رحل فى أثرهم[١]، كما انقض المسلمون على مؤخرة الجيش الصليبى قرب عكا، ولم يستطع الصليبيون رده إلا فى صعوبة بالغة[٢]. وهكذا لم تنقطع الاشتباكات بين الفريقين أثناء زحف الصليبيين الذى ظلوا لا يتأثرون وواصلوا زحفهم من غير انزعاج، ومراكبهم تسير بحذائهم فى البحر[٣]. وإذا كان الصليبيون أثناء زحفهم هذا قد استفادوا من حسن تنظيمهم وقوة أسلحتهم وترابطهم، فإن المسلمين تمتعوا بسهولة الحركة، فى الوقت الذى ظل الصليبيون محصورين بين البحر من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى[٤].

وبعد أن استولى الصليبيون على حيفا التى أخلتها حاميتها الإسلامية، استأنفوا زحفهم نحو قيسارية، فى الوقت الذى قام الأسطول الصليبى بتموين الصليبيين عن طريق البحر[٥]. وقد استولى الصليبيون على قيسارية فى نهاية أغسطس سنة ١١٩١ ليجدوها مخربة تماماً، بحيث لم يستطيعوا الحصول منها على زاد أو مال. وفى المعركة التى دارت فى أول سبتمبر بين المسلمين والصليبيين جنوبى قيسارية، قتل أياز الويل، وهو بطل من فرسان الإسلام[٦]. ولم يشأ ريتشارد أن يضيع الوقت، وإنما عجل بالزحف على أرسون، رغم ما لاقاه الصليبيون فى زحفهم هذا من مشاق بسبب صعوبة الطريق، حتى إن ريتشارد نفسه أصيب بجروح ورضوض، مما جعله يطلب فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين[٧]. وقد أراد صلاح الدين عندئذ أن يكسب الوقت، حتى تصل قوات التركمان التى أرسل فى طلبها، فتظاهر بقبول مبدأ التفاوض مع ريتشارد وأناب عنه أخاه الملك العادل فى تلك المفاوضات[٨]. وهنا أصر ريتشارد على طلبه القديم وهو إعادة مملكة بيت المقدس إلى سابق حدودها قبل حطين، وقال القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا، فرفض العادل ذلك الطلب، وبذلك لم يبق أمام

---

(١) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٠٥، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩٠ .

(2) Eracles. II. P. 183 &

ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٩٣.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩٠.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٦٥.

(5) Stevenson: op, cit., p. 276.

(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٩٢ .

(7) Ambroise, p. 399.

(٨) ويذكر أبو شامة أن ريتشارد طلب الاجتماع بالملك العادل خلوه. (كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩١).

الطرفين سوى معاودة القتال[١].

وفى موقعة أرسوف التى دارت بين صلاح الدين وريتشارد فى ٧ سبتمبر سنة ١١٩١، أحاط فرسان المسلمين بالصليبيين، وأوشكوا أن يقضوا عليهم كما حدث فى حطين[٢]، ولكن ريتشارد قبل الأسد لم يكن من شاكلة جاى لوزجنان وأرناط، فثبت فى القتال وأعاد تنظيم قواته بسرعة ولقد رأيتهم وقد اجتمعوا فى وسط الرجالة وأخذوا رماحهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد وفرج لهم رجالتهم وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها...[٣]. وهكذا تحولت المعركة بسرعة فى صالح الصليبيين، وتفرق كثير من جند المسلمين، لولا شجاعة صلاح الدين وثباته وقوة جأشه فثبت إلى أن اجتمع عليه المسلمون[٤].

ولاشك فى أن انتصار الصليبيين فى أرسوف كانت له نتائجه العميقة الأثر لأنه بعث فى الصليبيين شعور الثقة بالنفس بعد الهزائم التى أخذت تترى عليهم منذ موقعة حطين[٥]. ويتخذ المؤرخون موقعة أرسوف سنة ١١٩١ نقطة تحول فى تاريخ الحرب الصليبية، لأنها تشير إلى أن تيار الحرب الذى استمر فى صالح المسلمين بالشام منذ سنة ١١٧٠، بدأ يتحول بعد أرسوف– ولمدة ستين سنة – أى حتى سنة ١٢٥٠ تقريباً– فى صالح الصليبيين[٦]. لذلك لا عجب إذ أظهر القاضى ابن شداد أسفه لتلك الهزيمة، وعبر عن شعور صلاح الدين بأنه كان فى قلبه من تلك الواقعة مالا يعلمه إلا الله تعالى، والناس بين جريح الجسد وجريح القلب[٧].

أما عن الموقف بعد موقعة أرسوف، فقد أراد صلاح الدين أن يركز جميع جهوده فى الدفاع عن عسقلان، ولكن أمراءه خالفوه فى ذلك الرأى، وقالوا له إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٩٦ .

(2) Groussert: op. Cit, III, p. 67-70.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٩٨ .

(٤) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٠٥ .

(5) Runciman: op. Cit, IiI. P. 57.

(6) Groussert: op. Cit, iII, p. 71.

(٧) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٠٠ .

يصيبنا ما أصاب أهل عكا...[١]. ولعل فى هذا الموقف الذى وقفه الأمراء من صلاح الدين ما يكفى للدلالة على ما أصاب هيبته من جرح عميق بسبب موقعة أرسوف، مما جعله يلجأ إلى تعديل خطته، وترك عسقلان ليوجه جهوده نحو الدفاع عن داخلية فلسطين، وبخاصة بيت المقدس.

على أنه كان لا يمكن ترك عسقلان ليحتلها الصليبيون وهى عامرة، فيستغلونها فى الاستيلاء على القدس وفى قطع طريق مصر[٢]. لذلك أسرع صلاح الدين إلى تخريب عسقلان وإحراقها وسط بكاء الناس أسفاً وغماً لخرابها[٣]. وقد وضع والى عسقلان- وهو علم الدين قيصر- خطة سريعة لتدمير المدينة وهدم أبراجها، بحيث لم يترك منها شيئاً يفيد منه الصليبيون. هذا فى حين أخلى أهل عسقلان مدينتهم فى سرعة ومعهم ما استطاعوا حمله من منقولات[٤]. أما صلاح الدين نفسه فقد اتجه إلى بيت المقدس فى أواخر سنة ١١٩١ للإشراف على الدفاع عنها. لعلمه أنها غاية الصليبيين ومقصدهم. وقد مر فى طريقه الى بيت المقدس بالرملة فخرب تحصيناتها، كما خرب اللد[٥].

زحف ريتشارد علي بيت المقدس:

ولم يحاول الملك ريتشارد أن يستفيد من انتصاره فى أرسوف، فيباغث المسلمين بسرعة أثناء انشغالهم بتدمير عسقلان ليستولى على تلك المدينة دون عناء أو حصار. كذلك لم يحاول أن يستغل انتصاره على صلاح الدين فى القيام بحركة سريعة لمهاجمة بيت المقدس ومحاولة الاستيلاء عليها، وهى المدينة التى كانت تشكو عندئذ من عدم العناية وضعف وسائل الدفاع فيها[٦]. ويذكر ابن الأثير أن كونراد دى مونتفرات أشار على ريتشارد بالتوجه فوراً إلى عسقلان لمداهمتها أثناء انشغال

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٧ هـ.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٠٢ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٠٦ .

(٤) ابو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩٢ .

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٧٠-٣٧١ .

(٦) أرسل والي بيت المقدس عندئذ رسالة إلي صلاح الدين يشكو له سوء حال المدينة وحاجتها إلي الغلة والعدة والرجال ولكن الرسالة وقعت في يد بعض السريان الذين حاولوا الوصول بها إلي ريتشارد. عندما وقعوا بدورهم في قبضة صلاح الدين. (ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٠٨).

المسلمين بهدمها، ليسهل للصليبيين الاستيلاء عليها صفواً وعفواً بغير قتال[١]. ولكن ريتشارد أصم أذنيه عن النصيحة واختار أن يوجه جهوده عقب انتصاره فى أرسوف نحو إعادة بناء يافا فأقام بها يعمر المكان[٢]، وأضاع فى تلك العملية وقتاً ثميناً زهاء شهرين (سبتمبر- أكتوبر ١١٩١)، أعاد فيهما صلاح الدين تنظيم صفوفه واستعد للجولة التالية مع ريتشارد.

والواقع أن التجارب علمت الصليبيين أنه يتعذر عليهم البقاء فى بيت المقدس دون إحكام سيطرتهم على عسقلان ويافا. ولذلك كان اهتمام ريتشارد بالاستيلاء على يافا وتعميرها لا يقل عن اهتمام صلاح الدين بتدمير عسقلان[٣]. وفى تلك المرحلة أرسل كونراد دى مونتفرات إلى صلاح الدين يطلب مصالحته ويتعهد بمحالفته ضد بقية الصليبيين وبمساعدته على استرداد عكا، إذا وافق صلاح الدين على إعطائه صيدا وبيروت[٤]. وكان صلاح الدين يدرك أن كونراد خبيث ملعون وأنه أحس بطمع ريتشارد وحزبه فى صور، فانفصل كونراد عن الصليبيين فى عكا وأسرع إلى صور للاحتفاظ بها لنفسه، وبدأ يفكر فى استغلال صلاح الدين فى تحقيق أطماعه. لذلك رد صلاح الدين على كونراد بأنه يوافق على طلبه بشرط أن يبدأ كونراد بمجاهرة الصليبيين العداء وحصار عكا، وتسليم من فى صور وعكا من أسرى المسلمين، وعندئذ يسلمه صلاح الدين صيدا وبيروت[٥]. ويهمنا فى هذا الموضع أن ريتشارد قلب الأسد عندما سمع بأخبار تلك الاتصالات حشى العاقبة، فأسرع بالعودة إلى عكا لفسخ هذه المصالحة واسترجاع المركيس إليه[٦].

وأخيراً عاد ريتشارد ليتحرك فى نهاية أكتوبر سنة ١١٩١ من يافا قاصدا بيت المقدس، فالتقى عند بازور بمقدمة الجيش الإسلامى وقتلوا رجالها[٧]. وقد قضى ريتشارد فى تلك المنطقة نحواً من أسبوعين، قام خلالها بإصلاح بعض القلاع

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٧ هـ.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩٢ .

(3) Archer: op. cit, p. 336-337.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٧٢ .

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٠٩، ٣١٥ .

(٦) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩٣ . ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢٧٢ (تحقيق جمال الدين الشيال).

(٧) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي ص ١١٣ . وقد ذكر عماد الدين أن عدد قتلي المسلمين في تلك الواقعة كان ثلاثة فقط.

والحصون وصد إغارات البدو والمسلمين الذين تجمعوا للإغارة على الداوية، وهم الذين عهد إليهم ريتشارد بحماية تلك الحصون(١). وبعد ذلك اتجه ريتشارد على رأس الجيش الصليبى إلى الرملة واللد، وهما أول مدينتين مهمتين على الطريق بين يافا وبيت المقدس، وهو الطريق الذى أصبح مفتوحاً أمام الصليبيين عقب انتصارهم فى أرسوف. وقد أصيب الصليبيون بخيبة أمل شديدة، عندما وجدوا أن صلاح الدين قد خرب الرملة فاضطروا إلى نصب معسكرهم بين أنقاض المدينة وخرائبها، أما صلاح الدين نفسه فقد عسكر فى النطرون– فى منتصف الطريق إلى بيت المقدس– لحمايتها من الصليبيين(٢). وعندما علم صلاح الدين باتجاه ريتشارد نحو النطرون، أسرع إلى هدمها– كما هدم الرملة من قبل– واتجه فى سرعة نحو بيت المقدس لتقوية استحكاماتها وإعدادها للدفاع، فوقع الاهتمام فى عمارة سور بيت المقدس وحفر الخندق(٣).

وهكذا تمكن ريتشارد من احتلال النطرون وبيت نوبة فى سهولة، وصار على مقربة من بيت المقدس. وكان ذلك فى نهاية سنة ١١٩١ وقد زحف الشتاء ببرده وعواصفه وحالت الأمطار والأوحال بينهما فى الوقت الذى أخذ البدو والأعراب– بإيحاء من صلاح الدين – يغيرون على مؤخرة الجيش الصليبى ويقطعون خطوط مواصلاته(٤). ورغم كل ذلك فقد تحمل الصليبيون العناء فى سبيل الوصول إلى بيت المقدس، وهى المدينة الحبيبة إلى النفوس. ويصف المؤرخون الغربيون مدى فرح الصليبيين عندئذ وحماستهم لرؤية بيت المقدس، مما أعاد إلى الأذهان ذكرى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٩(٥) ولكن الفارق بين الحالتين كان واضحا، لأن الصليبيين اقتربوا من بيت المقدس فى ديسمبر سنة ١١٩١ ليجدوا صلاح الدين قد أعد عدته للدفاع عن المدينة وأحكم تحصينها فقسم سور البلد على أولاده وأخيه وأجناده، فشرعوا فى إنشاء سور جديد(٦). وهكذا جنى الصليبيون عاقبة توانى ريتشارد بعد

(1) Groussert: op. Cit, III, p. 76.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣١٠ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٠٧ (تحقيق محمد مصطفي زيادة) .

(٤) يروي القاضى ابن شداد أن صلاح الدين رتب ثلاثمائة من شيوخ العرب يغيرون علي الصليبيين وينهبون أموالهم ومتاعهم وخيولهم بل إنهم كانوا يسرقون الرجال أحياء.. (النوادر السلطانية ص ٣١٢).

(5) Ambroise, p.p 415-416.

(٦) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩٦ . ويروي ابن واصل أن صلاح الدين عمل بنفسه في عمارة سور بيت المقدس وحفر خنادقه فكان ينقل الأحجار هو وأولاده وأجناده وأمراءه، ومعهم القضاة والعلماء والفقهاء(مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٥) .

انتصاره فى أرسوف، فاضطر ريتشارد ورجاله إلى الانسحاب عائدين إلى الرملة ويبنا، تحوطهم موجة من الأسى وخيبة الأمل[١].

ومن الجائز أن نفسر تراجع ريتشارد عن بيت المقدس فى يناير سنة ١١٩٢ فى ضوء المحادثات السرية من أجل الصلح بينه وبين صلاح الدين. وقد بدأت هذه المحادثات فى أواخر أكتوبر وأوائل نوفمبر سنة ١١٩١، عندما أرسل ريتشارد من معسكره قرب يازور إلى صلاح الدين يطلب منه الدخول فى مفاوضات من أجل الصلح، وقال إن المسلمين والإفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين. وقد أخذ الأمر حقه.. ونصطلح ونستريح من هذا التعب الدائم[٢]. على أن هذه المفاوضات التى ناب فيها الملك العادل عن أخيه صلاح الدين لم تلبث أن تعثرت بسبب إصرار الصليبيين على إرجاع مملكة بيت المقدس إلى حالها القديم الذى كانت عليه سنة ١١٨٥، أى عند وفاة ملكها بلدوين الرابع[٣]. وقد بلغ من تسمك ريتشارد بمدينة بيت المقدس أنه أرسل إلى صلاح الدين يقول القدس متعبدنا ما ننزل عنه، ولو لم يبق منا واحد[٤]. هذا بالإضافة إلى تمسك الصليبيين بعسقلان واستعادة الأردن بما فيها من حصون، وكلها شروط لا يمكن أن يقرها صلاح الدين والمسلمون. لذلك رد صلاح الدين على طلب ريتشارد قائلا القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومحشر أمتنا، فلا تتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين![٥].

وثمة حل آخر طريف اقترحه ريتشارد فى ذلك الوقت لحسم النزاع بين المسلمين والصليبيين بالشام، وهو أن يتزوج الملك العادل أخو صلاح الدين من

---

(1) Ambroise, II.p 416-417 & Ernoul, p.p 278-279.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣١٤ . أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩١-١٩٣ .

(3) Ambroise, p. 412-413.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٧٢ . بن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣١٤ .

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣١٥، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩٣، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٧٣ .

الأميرة جوانا أرملة ملك صقلية وأخت ريتشارد، وكانت عزيزة عليه، كبيرة القدر[١]. وكان هدف ريتشارد من وراء ذلك الزواج السياسى أنْ يشترك الزوجان- العادل الذى يمثل الجانب الإسلامى وجوانا التى تمثل الجانب الصليبى- فى حكم فلسطين، بما فيها بيت المقدس والمدن الساحلية، وبذلك ينتهى الإشكال![٢]. وفى هذه الحالة يستولى المسيحيون على صليب الصلبوت ويكون لهم بكنيسة القيامة قس ويمكنون من زيارتها بشرط أن لا يحملوا السلاح ويرضى العادل مقدمى الفرنج والداوية والاسبتارية ببعض القرى ولا يمكنهم من الحصون[٣].

ومن الطريف أن الملك العادل رحب بذلك الحل ترحيباً كبيراً ورأى فى ذلك عين الصواب..[٤]. وربما رأى العادل- وهو الرجل الثانى فى الدولة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين- فى ذلك الحل ضماناً لتوحيد المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام تحت لواء واحد، وإقرار الأمور فى تلك البلاد على أساس المحبة والارتباط بين الفريقين. على أن أغرب مافى الموضوع هو أن صلاح الدين نفسه قبل الفكرة وأعلن ترحيبه بها فى صراحة تامة. ويبدو أن صلاح الدين أعلن قبوله لذلك المشروع لعلمه أن ملك انجلترا لن يتمكن من تنفيذ مشروعه، وأن هذا منه مكر وهزل![٥]. وسرعان ما ظهر أن العقبة الكؤود فى سبيل تنفيذ ذلك المشروع لم تأت من جانب صلاح الدين أو ريتشارد وإنما أتت من جانب الأميرة جوانا نفسها التى أبت أن تمكن مسلماً من نفسها، مما جعل ريتشارد يطلب من العادل إعلان اعتناقه للمسيحية- ولو فى الظاهر- لتذليل تلك العقبة! وعندئذ عرف العادل أنها خديعة وصرف النظر عن الموضوع[٦].

ومهما يبدو فى مشروع زواج العادل من جوانا أخت ريتشارد من غرائب.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٧٢.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣١٧.

(٣) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي ص ٣٠٩.

(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩٣. أما ابن واصل (ج ٢ ص ٣٧٢) فيقول إن الملك رأي في ذلك (مصلحة).

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣١٨.

(٦) ويروي أبو شامة أن بعض الصليبيين خوفوا أخت ريتشارد من عاقبة الزواج من العادل، واتهموها في دينها وعنفوها وقالوا لها ما معناه هذه فضيحة فظيعة وسبة شنيعة.. وأنت عاصية للمسيح.. (أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩٣).

وبصرف النظر عما اعترض ذلك المشروع من عقبات حالت دون تنفيذه، فإن فكرته تدل على ما اعترى عصر الحروب الصليبية من تطور فى مشاعر المسلمين والمسيحيين سواء. وشتان بين هذه العقلية التى فكر بها ريتشارد وصلاح الدين والعادل جميعاً فى أواخر القرن الثانى عشر. وبين الروح التى جاء بها رجال الحملة الصليبية الأولى إلى الشام فى أواخر القرن الحادى عشر! والواقع أن هذا التفكير من جانب ريتشارد والاستجابة من جانب صلاح الدين والعادل، إنما يدل على تحقيق قدر من التقارب الفكرى بين المسلمين والصليبيين فى الشام بعد مرور قرن على بداية الحرب الصليبية بالشام، كما يدل على روح التساهل التى أخذت تبدو بوضوح فى بعض تصرفات الفريقين(١). وحسبنا ما يرويه ابن واصل بعد ذلك مباشرة من اجتماع الملك العادل وريتشارد سوياً على طعام ومحادثة، وكيف أن ريتشارد طلب الاجتماع بصلاح الدين نفسه، ولكن الملك العادل رفض طلبه وقال: إن الملوك إذا اجتمعوا تقبح بينهم المخاصمة بعد ذلك، وإذا انتظم أمر حسن الاجتماع(٢).

الصليبيون ومشاكلهم الداخلية:

أما ريتشارد قلب الأسد، فقد شغل نفسه- بعد أن فشل مشروع الصلح مع صلاح الدين ومشروع الاستيلاء على بيت المقدس- بإعادة بناء أسوار عسقلان وترميمها (يناير ١١٩٢)(٣). وبعد ذلك مباشرة أخذ ريتشارد يخصص جزءاً من وقته ونشاطه لحل مشاكل الصليبيين الداخلية.

وكانت المشكلة الأولى التى هددت وحدة الصليبيين بالشام فى ذلك الوقت هى الخلاف المستحكم بين كونراد دى مونتفرات وجاى لوزجنان. حقيقة أن كونراد صار صاحب الحق الشرعى فى مملكة بيت المقدس بعد زواجه من إيزابيل وريثة المملكة، وبفضل تمتعه بتأييد فرسان المملكة الذين كرهوا الملك السابق جاى لوزجنان واعتبروه مسئولا عن كارثة حطين(٤). ولكن جاى لوزجنان ظل يتمتع بعطف ريتشارد قلب الأسد وتأييده، الأمر الذى جعل كونراد يقبع فى مدينة صور لمراقبة الأحداث وما

(1) Groussert: op. Cit, II, p. 85.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٧٤ .

(٣) يذكر المقريزي أن المسلمين لم يمكنوا الصليبيين من عمارة عسقلان عندئذ بسبب إغاراتهم المتواصلة عليهم. (السلوك، ج١ ص ١٠٨).

(4) Archer: op. cit, ps. 329, 339.

عساه ينتج عن محاولات ريتشارد للاستيلاء على بيت المقدس بالحرب أو المفاوضة. غير أن كونراد لم يقف فى تلك الآونة موقفاً سلبياً على طول الخط، وإنما خشى أن يفوز ريتشارد ببيت المقدس وعندئذ يتحايل لإعادة جاى لوزجنان إلى عرشها[1]. لذلك قام كونراد - كما سبق أن أشرنا- بمحاولة للاتصال بصلاح الدين أثناء المحادثات التى دارت فى أواخر سنة ١١٩١ بين العادل وريتشارد، وأراد كونراد بهذه الحركة أن يحول تيار المفاوضات لصالحه الخاص. على أن ريتشارد أسرع إلى عكا عندما علم بذلك، لمحاولة استرجاع المركيس إليه كما سبق أن أشرنا[2]. هذا وإن كانت جهود ريتشارد فى استمالة كونراد باءت بالفشل. وقد كرر كونراد محاولته بعد قليل مع صلاح الدين، فى الوقت الذى اتجهت المفاوضات بين صلاح الدين وريتشارد إلى مشروع زواج العادل من أخت ريتشارد. وفى تلك المرة قام كونراد بإرسال صاحب صيدا رسولا من قبله إلى صلاح الدين، ولكن الأخير فضل أن يغض الطرف عن كونراد وأن يستمر فى مباحثاته مع ملك انجلترا، بعد أن عرف عن كونراد أنه كلما أبرم عهداً نقضه ونكثه[3].

ولم تلبث أن اتسعت دائرة الخلاف بين كونراد وجاى، حتى شملت رعايا المدن الإيطالية بالشام، فانضم الجنوية إلى جانب كونراد دى مونتفرات، فى حين ظاهر البيازنة جاى لوزجنان[4]. وكان أن دبر الجنوية فى عكا مؤامرة فى فبراير سنة ١١٩٢ للاستيلاء على عكا وتسليمها لكونراد، ولكن البيازنة قاوموهم، وخف ريتشارد لنجدتهم، وبذلك أحبطت المؤامرة، وإذا كان ريتشارد قد استطاع التوفيق بين البيازنة والجنوية بعد ذلك، فإن الفتق بين ريتشارد نفسه وكونراد دى مونتفرات كان يتعذر رتقه فى سهولة[5].

وفى ذلك الوقت وصلت ريتشارد أخبار سيئة من الغرب تؤكد ثورة أخيه حنا ضده، مما تطلب منه سرعة العودة إلى بلاده. غير أنه كان من المتعذر على ريتشارد أن يبرح الشام قبل الوصول إلى حل مع صلاح الدين من ناحية، وحل النزاع الذى استحكم كونراد وجاى من ناحية أخرى. لذلك رأى ريتشارد أن يعقد مؤتمراً عاماً من

---

(1) Setton: op. Cit, I. P. 78.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣١٠ .

(٣) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي ص,٣٢

(4) Archer: op, cit, p. 339-340.

(5) Groussert: op. Cit, III, p. 86.

الأمراء والفرسان الصليبيين لاستفتائهم فى مشكلة: أيهما أحق بعرش مملكة بيت المقدس: كونراد أم جاى؟ وكان أن عقد المؤتمر فى عسقلان فى شهر أبريل سنة ١١٩٢، وعندئذ أجمع الأمراء إجماعاً شبه تام على اختيار كونراد لعرش مملكة بيت المقدس، لما لمسوه فيه من صفات حربية بارزة وشجاعة نادرة تضمن للصليبيين فى الشام قسطاً من الأمان(١). ومهما يكن من أمر، فإن كونراد لم يهنأ بتلك الثقة طويلا، إذ وجد مقتولا فى ٢٨ أبريل سنة ١١٩٢، ويقال إنه قتل بيد أحد الفدائيين من الباطنية، أوفده شيخهم راشد الدين سنان لتنفيذ تلك الجريمة، بتحريض من ريتشارد(٢).

ولاشك أن خسارة الصليبيين بالشام كانت جسيمة بفقد كونراد دى مونتفرات، لأنه كان الرجل الذى يستطيع أن يرعى حقوقهم ويدافع عن كيانهم وينظم أمورهم، حتى وصفه ابن الأثير بأنه كان رجل الفرنج رأياً وشجاعة(٣). أما ريتشارد فقد تخلص من خصم عنيد بمقتل كونراد فتحكم فى صور واختار لعرش المملكة الصليبية هنرى دى شامبنى الذى كان عندئذ بصور، والذى ربطته صلة القرابة بريتشارد ملك انجلترا وفيليب أوغسطس ملك فرنسا(٤). ولم يلبث أن تم زواج هنرى دى شامبنى من إيزابيل

---

(1) Runciman: op. Cit, III. P. 64.

(٢) أجمعت المصادر علي أن كونراد قتل بأيدى اثنين من الباطنية دخلا صور وتظاهرا بالتنصر والترهيب والتعبد حتي أحبهما كونراد واطمئن إليهما فقتلاه. غير أن الآراء اختلفت في حقيقة المحرض علي قتله، فهناك رأي يقول بوجود عداء شخصي بين كونراد وراشد الدين سنان شيخ الباطنية بسبب اتهام كونراد لهم بالاعتداء علي سفينة تجارية للصليبيين ونهبها. هذا إلي أن راشد الدين سنان كان يخشي بأس كونراد وقوته ويخاف قيام دولة قوية للصليبيين علي شاطئ الشام .(Runciman:, III. P. 65)أما المصادر العربية المعاصرة فقد أجمعت علي أن ريتشارد ملك انجلترا هو الذي حرض الباطنية علي قتل كونراد وأنه أراد أن يتخلص منه لما بينهما من عداء شخصي. (ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٣٨). عماد الدين الكاتب: الفتح القسي ص٣٣٠, أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩٦ . ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٨٢).

– ولم يشذ عن هذا الإجماع في المصادر العربية سوي ابن الأثير الذي يتهم صلاح الدين بأنه أرسل راشد الدين سنان وطلب منه قتل ريتشارد وكونراد جميعاً ووعد بدفع الأموال مقابل ذلك، ولكن سنان خشى أن يتخلص صلاح الدين من أعدائه فيتفرغ للباطنية ويقضي عليهم. ولذلك اكتفي بقتل كونراد وعدل عن قتل ريتشارد. (الكامل، حوادث سنة ٥٨٨ هـ)

– ويبدو لنا أن رأي ابن الأثير بعيد عن الصحة لا لأنه يخالف إجماع بقية المؤرخين المعاصرين فحسب، بل لأنه يتنافي مع سياسة صلاح الدين وأخلاقه. هذا فضلا عما أشارت إليه المصادر من أن صلاح الدين لم يسر لمقتل كونراد بسبب عداوته لريتشارد ومنازعته في الملك ولما ترتب علي مقتله من توحيد كلمة الصليبيين وهو ما ليس في مصلحة صلاح الدين والمسلمين. (أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩٦، عماد الدين الكاتب: الفتح القسي ص ١٥٢، ٣٣٠).

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٧ هـ.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٨٢ .

أرملة كونراد دى مونتفرات وريثة مملكة بيت المقدس فى أوائل مايو ١١٩٢ أى بعد مقتل زوجها كونراد بيومين[١]. وبذلك حلت مشكلة عرش المملكة الصليبية حلا سريعاً موفقاً[٢].

قيام دولة لوزجنان في قبرص:

على أن اختيار هنرى دى شامبنى ملكا على مملكة بيت المقدس عقب مقتل كونراد دى مونتفرات، قضى على كل أمل لجاى لوزجنان فى استعادة عرشه، بعد أن تخلى عنه أمراء الصليبيين وفرسانهم، دون أن يستطيع ريتشارد ملك انجلترا نفسه أن يفرض عليهم ملكاً لا يرغبونه.

وسرعان ما وجد ريتشارد حلا لمشكلة حليفه جاى لوزجنان بمنحه جزيرة قبرص، تلك الجزيرة التى كان ملك انجلترا قد فتحها فى مايو سنة ١١٩١ وهو فى طريقه إلى بلاد الشام، كما سبق أن ذكرنا. وكان ريتشارد قد أدرك بعد غزوه لجزيرة قبرص أن هذه الجزيرة غدت حملا ثقيلا عليه بعد أن غدا مسئولا عن حمايتها والدفاع عنها وتنظيم أمورها[٣]. لذلك لم يلبث ملك انجلترا أن رحب بما عرضه عليه فرسان الداوية من شراء قبرص، فباعها لهم بمائة ألف بيزانت دفعوا منها مقدما ستين ألف بيزانت وتعهدوا بدفع الباقى فيما بعد[٤]. ولكن الداوية سرعان ما ضاقوا بذلك الحل الجديد. لاسيما بعد أن ثار ضدهم القبارصة سنة ١١٩٢ وأعملوا الذبح فيهم، وعندئذ طلبوا من ريتشارد حل الصفقة ورد المبلغ الذى دفعوه[٥].

وكان أن وجد ريتشارد فى ذلك العرض من جانب الداوية حلا لمشكلة جاى لوزجنان. ذلك أن اختيار هنرى دى شامبنى ملكاً على بيت المقدس فى إبريل سنة ١١٩٢ جعل ريتشارد يبدو فى نظر أنصاره كأنما ضيع على الملك جاى حقوقه، وهو

---

(١) تروي المصادر العربية ان هنري دي شامبني دخل بالملكة زوجة الكركيس في ليلته اي في نفس الليلة التي قتل فيها زوجها كونراد دي مونتفرات، كما تروي أنها كانت حاملا .(عماد الدين: الفتح القسي ص٣٣٠، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩٦).

(2) Eracles. II. P. 198-208.

(٣) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية ، ص ٣٠

(4) L'Estoire d'Eracles, III, p. 190.

(5) Stubbs: op. cit, p. 186 & Norgate: Richard the Lion- Heart, p. 261.

الذى أسرع إلى نجدة ريتشارد فى قبرص وساعده على إتمام فتحها[١]. لذلك رحب ريتشارد بعودة قبرص، وعرضها على جاى لوزجنان مقابل تنازله عن حقه فى مملكة بيت المقدس. وقد قبل جاى ذلك الحل، كما قبل أن يدفع للداوية مبلغ الستين ألف بيزانت التى دفعوها لريتشارد مقدماً من ثمن الجزيرة، وتعهد بدفع باقى الثمن لريتشارد بعد ذلك. ولم تلبث أن تمت الإجراءات القانونية لإبرام الصفقة، وتسلم جاى حكم الجزيرة قبل أن يبرح ريتشارد عكا عائداً إلى بلاده فى أكتوبر سنة ١١٩٢[٢].

وهكذا قامت دولة آل لوزجنان فى جزيرة قبرص، وهى الدولة التى استمرت تحكم الجزيرة قرابة ثلاثة قرون (١١٩٢-١٤٧٢)، والتى قامت بدور مهم فى تاريخ الحروب الصليبية، سنتعرض له بالشرح فيما بعد.

فشل ريتشارد في الاستيلاء على بيت المقدس:

أما عن جهود ريتشارد الحربية ضد المسلمين، فإنه استولى على قلعة الداروم فى ٢٣ مايو سنة ١١٩٢ بعد أن أبدت حامية القلعة مقاومة شديدة[٣]. ثم اتجه الصليبيون بعد ذلك نحو حصن مجدل يابا (مجدليابه) وحاولوا الاستيلاء عليه، ولكن المسلمين ردوهم خائبين بعد أن أنزلوا بهم بعض الخسائر[٤]. وكان أن اتجه ريتشارد بعد ذلك إلى عسقلان، ومنها شرع فى الزحف على بيت المقدس. وعلى الرغم من حرارة الجو وقلة الماء، فقد واصل الصليبيون زحفهم حتى وصلوا فى ١١ يونية إلى بيت نوبة[٥]، حيث قضى الصليبيون بضعة أسابيع فى انتظار هنرى دى شامبنى الذى قصد عكا لإحضار إمدادات وآلات الحصار. على أن المسلمين لم يتركوا الصليبيين يتقدمون فى هدوء، وإنما ظلوا يطاردونهم وألهبوهم بالنهب والسلب وسلطوا عليهم وكمنوا لهم تحت كل رابية[٦]، وهكذا حتى وصلت مقدمة الصليبيين إلى قلونية- على بعد ثمانية كيلو مترات إلى الشمال الغربى من بيت المقدس[٧]. ويروى

---

(١) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٣١ .

(2) L'Estoire d'Eracles, II, p. 191.

(٣) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٠٩ . ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٤٢ . وقد ذكر ياقوت أن الداروم قلعة بعد غزة للقاصد إلي مصر تقع قرب البحر (معجم البلدان- طبعة بيروت ج٢ ص ٤٢٤).

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٤٣ .

(٥) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي، ص ٣٣٣ .

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٨٢ .

(٧) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٨ هـ. أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩٧ .

أبو شامة كيف اتخذ صلاح الدين عدته لمقاومة الصليبيين، فوزع أسوار بيت المقدس على الأمراء للدفاع عنها وتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار، وأخذ فى إفساد المياه ظاهرة القدس، فخرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلا[١]. هذا فضلا عن قيام فرسان المسلمين بإغارات مفاجئة على معسكر الصليبيين.

وبينما الصليبيون ينتظرون فى ١٧ يونية قافلة قادمة من يافا تحمل إليهم المؤن والإمدادات، إذا بفرقة من المسلمين تحت قيادة الأمير بدر الدين دلدرم تغير عليها فقتلوا وأسروا وفازوا ونصروا[٢]. وهكذا ساءت حالة الصليبيين بسبب نقص المؤن والماء وشدة الحرارة، فى حين اختار ريتشارد أن يلتزم معسكره فى بيت النوبة، ورفض أن يتقدم أكثر من ذلك، ورد على معارضيه بأنه لا يستطيع أن يتحمل مسئولية عمل يلام عليه بعد ذلك[٣].

على أن امتناع ريتشارد عن مهاجمة صلاح الدين فى بيت المقدس لم يمنعه من استخدام سلاح آخر، هو قطع طريق المواصلات بين مصر والشام، مستغلا فى ذلك سيطرته على عسقلان وقلعة الداروم من ناحية، وخيانة بعض الأعراب من ناحية أخرى. وكان صلاح الدين قد طلب حضور العسكر المصرى استعداداً للدفاع عن بيت المقدس، فخرج العسكر من مصر فى هيئة قافلة كبيرة تحت قيادة فلك الدين أخى الملك العادل لأمه[٤]. وعلى الرغم من أن صلاح الدين كتب إليهم من القدس يأمرهم بالاحتراز عند مقاربة العدو، إلا أن أخبار القافلة الضخمة الآتية من مصر لم تلبث أن تسربت إلى الصليبيين بالشام عن طريق البدو والعرب المفسدين[٥]. وكان أن علم صلاح الدين بتربص الصليبيين للعسكر المصرى ومسيرهم للإيقاع به، فبادر بإرسال بعض أمرائه لملاقاة العسكر وتحذيرهم. ومع ذلك فإن ريتشارد استطاع مباغتة القافلة المصرية أثناء الليل- ٢٣ يونية ١١٩٢- فكبسهم قرب الصباح ولم

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩٨ .
(٢) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي، ص ٣٣٣ .
(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٨ هـ. ويروي أبن الأثير أن ريتشارد طلب من أعوانه وصف بيت المقدس له، فلما وصفوها قال هذه مدينة لا يمكن حصرها مهما كان صلاح الدين حياً وكلمة المسلمين مجتمعة.
(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٤٧، ٣٤٩ .
(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٨٣ .

يستطع النجاة بنفسه سوى الشجاع، وأسر الصليبيون عدداً كبيراً، فى حين فر الباقون إلى الكرك وأوغلوا فى البرية[١]. وقد قدر المقريزى عدد أسرى المسلمين فى تلك الواقعة بخمسمائة رجل[٢]. فى حين ذكر ابن شداد أنه قتل من الصليبيين فيها زهاء مائتى فارس، وهو عدد مبالغ فيه[٣]. أما الغنائم التى غنمها الصليبيون من الخيل والجمال والأقمشة والأموال فكانت ضخمة حتى إن المؤرخين ذكروا أن عدد الجمال وحدها بلغ ثلاثة آلاف جمل[٤]. لذلك لا عجب إذا اعتبر المؤخرون المسلمون تلك الكارثة وقعة شنعاء لم يصب الإسلام مثلها من مدة مديدة[٥]. كذلك يروى القاضى ابن شداد أنه حاول أن يسكن ألم صلاح الدين عندما سمع الخبر ويسليه ولكن دون جدوى، فما مر بالسلطان خبر أنكى منه فى قلبه[٦].

ويبدو أن هذه الانتصارات التى أحرزها ريتشارد جعلت الصليبيين يعودون إلى خيامهم وقد طمعوا، فعادوا يفكرون فى السير إلى بيت المقدس[٧]. وكان أن أسرع ريتشارد إلى تقوية الحراسة عند اللد حتى لا تنقطع وصول المؤن إلى معسكر الصليبيين، وفى الوقت نفسه أرسل إلى صور وطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس[٨].

ولاشك أن وصول هذه الأخبار إلى المسلمين فى الوقت الذى قنع صلاح الدين بالبقاء فى بيت المقدس وتقوية استحكاماتها لمواجهة الهجوم الصليبى، كان مما ترك أثراً سيئاً فى الروح المعنوية للجيش الإسلامى. وقد حكى المؤرخون المسلمون أن الأجناد والأمراء أنكروا على صلاح الدين الاستمرار فى تحصين بيت المقدس وإعدادها للحصار، وقالوا لا مصلحة فى ذلك فإنا نخاف أن نحصر ويجرى علينا مثل ما جرى على أهل عكا وعند ذلك تؤخذ بلاد الإسلام أجمع...[٩]. هذا إلى اشتداد تيار

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩٨ .
(٢) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٠٩ .
(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٤٩ .
(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩٨، المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٠٩ .
(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٨٤ .
(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٥٠-٣٥١ .
(٧) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٠٩ .
(٨) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٨٥ .
(٩) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٥٥ .

البغضاء العنصرية فى تلك الفترة داخل جيش صلاح الدين، وبخاصة بين الأكراد والأتراك، فالأكراد لا يدينون الأتراك والأتراك لا يدينون الأكراد(١). وقد بلغت هذه الخلافات فى صفوف المسلمين مسامع الصليبيين فأشار إليها مؤرخوهم(٢). ثم إن بقاء صلاح الدين فى بيت المقدس لم يلبث أن عرض بعض أنحاء دولته للاضطراب. ومن ذلك ما يرويه أبو شامة من اختلال أوضاع أعمال دمشق فى تلك السنة. وهكذا وجد صلاح الدين نفسه فى موقف لا يحسد عليه، وهو الرجل الحريص على الجهاد الراغب فى تطهير البلاد. ويحكى ابن شداد أن صلاح الدين دخل المسد الأقصى وصلى ركعتين ورأيته ساجداً وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاه! وذلك بسبب ما أحس به من سوء الموقف(٣).

على أن الموقف لم يلبث أن تبدل فجأة بسبب اختلاف كلمة الصليبيين وانقسامهم على أنفسهم، بين مؤيدى الزحف على بيت المقدس ومحاصرتها، ومعارضى تلك الفكرة. وقد روى أبو شامة وابن واصل تفاصيل المنافسة التى دارت بين الفريقين. وكان يؤيد فكرة مهاجمة القدس الصليبيون الفرنسيون الذين قالوا إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه، فى حين عارض ريتشارد والإنجليز تلك الفكرة بحجة عدم وجود مياه خارج المدينة، بعد أن أفسد صلاح الدين الآبار. وعندما استحكم الخلاف بين الفريقين تقرر التحكيم وانتهى الأمر برفض الرأى القائل بمهاجمة بيت المقدس، فانسحب الصليبيون ناكصين على أعقابهم إلى الرملة فى أواخر يولية ١١٩٢، ومن هناك بعثوا رسلهم فى طلب الصلح(٤).

وكان لانسحاب ريتشارد رد فعل قوى فى صفوف المسلمين، إذ انتعش صلاح الدين وارتفعت الروح المعنوية لرجاله، ورفض المسلمون التفاوض على أساس الشروط السابقة، بل إن صلاح الدين أوشك أن يبطش بالرسول الذى أوفده هنرى دى شامبنى للمطالبة بإعادة مملكة بيت المقدس(٥).

على أن رغبة ريتشارد فى العودة السريعة إلى بلاده، ورغبة صلاح الدين فى

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩٩ .
(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٥٦ .
(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٩٩ . ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٨٩ .
(٤) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٠٩ .
(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٥٧-٣٥٨ .

التفرغ لشئون دولته دفعت الفريقين إلى الدخول فى مفاوضات جديدة لتصفية الموقف والوصول إلى حل لذلك النزاع الذى طال دون نتيجة. وقد قام بالوساطة فى تلك المفاوضات الحاج يوسف صاحب الأمير سيف الدين المشطوب وأونفروى دى تورون، فدارت المفاوضات بين الطرفين فى جو من التسامح وسعة الأفق. ويفهم من رسالة ريتشارد إلى صلاح الدين أنه لجأ فى مفاوضاته إلى أسلوب يجمع بين التهديد والترغيب، فهو يقول لصلاح الدين لا تغتر بتأخيرى عن منزلى، فالكبش يتأخر لينطح[1] .. وفى الوقت نفسه يقترح على صلاح الدين أن يحكم هنرى دى شامبنى مملكة بيت المقدس ولكن تحت حماية المسلمين، فيكون هو وجيشه تحت إمرة صلاح الدين وفى طاعته وإن استدعيتهم الى الشرق سمعوا وأطاعوا[2].

وقد ارتاح صلاح الدين ورجاله لتلك اللهجة المعتدلة من جانب ريتشارد فأرسل صلاح الدين إليه قائلا إن ابن أختك (هنرى دى شامبنى) يكون عندى كبعض أولادى[3]. وبعد أن تم الاتفاق على هذا المبدأ العام بقيت التفاصيل، لاسيما فيما يتعلق بملكية بيت المقدس ذاتها وبعض المدن الساحلية. وهنا تنازل ريتشارد عن المطالبة بالسيطرة السياسية على بيت المقدس، واكتفى بالتمسك بحق الصليبيين فى حماية الأماكن المقدسة- وبخاصة كنيسة القيامة- مع ضمان حرية الحج والعبادة للصليبيين. ولم يفت ريتشارد أن يشيد بتسامح صلاح الدين وسعة صدره، وعبر عن أمله فى أن يحظى بعض ذلك الكرم الذى اشتهر به صلاح الدين فى معاملته للصليبيين، فقال له: إن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس، فما بخلت عليهم بها وأنا أطلب منك كنيسة (القيامة)[4]. وكان أن وافق صلاح الدين على ذلك، كما وافق على أن يكون للصليبيين ملك البلاد الساحلية من صور إلى يافا، بشرط أن عسقلان وما وراءها تكون خراباً لا لنا ولا لكم. ومن الواضح أن صلاح الدين اهتم تلك المرة بأبعاد سيطرة الصليبيين عن عسقلان- وما يليها من بلدان الساحل تجاه مصر مثل غزة والداروم- حتى لا تؤدى سيطرة الصليبيين على تلك الجهات إلى قطع طريق الاتصال بين مصر والشام. أما داخلية

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٩٠-٣٩١ .
(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٥٩ .
(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٢٠٠ .
(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٦٠ .

فلسطين فقد اتفق على أن تبقى بأيدى المسلمين[١].

على أن الاتفاق لم يتم، وتعثرت المفاوضات بسبب رفض ريتشارد تسليم عسقلان وتخريبها، حتى مقابل اللد التى عرض صلاح الدين إعطاءها للصليبيين، وكان صلاح الدين قد أفاق عندئذ من أزمة هجوم الصليبيين على بيت المقدس فأجاب على إصرار ريتشارد على التمسك بعسقلان وعدم تخريبها، بالقيام بهجوم كبير على يافا فحاصرها ولم يزل يقاتل من فيها من الفرنج إلى أن أخذ البلد عنوة وغنم الناس منها شيئاً عظيماً[٢]. وكان ريتشارد قد اتجه عندئذ شمالا بنية انتزاع بيروت من المسلمين ثم الإبحار فوراً إلى أوروبا[٣]، فانتهز صلاح الدين فرصة ابتعاد ريتشارد من جهة وضعف حامية يافا من جهة أخرى لتنفيذ خطته والاستيلاء على يافا فى أواخر يولية سنة ١١٩٢[٤].

على أن صلاح الدين لم يهنأ بيافا طويلا، لأن حامية المدينة دافعت فى شجاعة نادرة استرعت نظرة القاضى ابن شداد الذى لم يستطع أن يخفى إعجابه ببسالة الصليبيين فى يافا[٥]. ومع أن الصليبيين لم يستطيعوا وقف تيار المسلمين واضطروا إلى إخلاء المدينة، الا أنهم احتفظوا بقلعتها وثبتوا فيها حتى تم الاتفاق على التسليم[٦]. وفى الوقت المحدد للتسليم لاح الأسطول الصليبى أمام يافا فى أغسطس سنة ١١٩٢، يحمل ريتشارد الذى عاد من عكا مسرعاً لإنقاذ يافا. ولم يشأ ريتشارد أن يضيع الوقت فى تلك المرة، وإنما أسرع بإنزال قواته ومهاجمة المسلمين فوراً، وتمكن بفضل تلك السرعة المباغتة من إنزال الهزيمة بالمسلمين فى أول أغسطس سنة ١١٩٢ ومطاردتهم حتى يازور. ولم يتمالك ريتشارد نفسه من الشماتة فى أعدائه، فقال مخاطباً بعض أمراء المسلمين: هذا السلطان عظيم وما فى هذه الأرض للإسلام أكبر ولا أعظم منه، كيف رحل عن المكان بمجرد وصولى[٧]!؟.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٩٠-٣٩١ .

(2) Runciman:, III. P. 69.

(٣) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١١٠ .

(٤) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي، ص ٣٤٢ . ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٩٣-٣٩٤ .

(٥) ورأي الناس هولا عظيما من صبر القوم وثباتهم وسداد حركاتهم وسكناتهم. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٧٠ .

(٦) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٨ هـ.

(٧) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٧٧ .

وكانت القوة التى أتى بها ريتشارد إلى يافا صغيرة لم تتجاوز ألفى رجل، منهم خمسمائة فقط من الفرسان، فأسرع هنرى دى شامبنى عن طريق البحر إلى قيسارية لإحضار المدد(١). على أن صلاح الدين أراد أن يستغل قلة رجال ريتشارد قبل أن يأتيه المدد فحاول القيام بهجوم جديد مفاجئ فى مساء يوم ٥ أغسطس على معسكر ريتشارد، ولكنه لم يجد استجابة وتأييداً من رجاله. بل لقد تجرأ أحد أمراء صلاح الدين– ويعرف بالجناح– عليه وقال له يا صلاح الدين.. قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنيمة وضربوا الناس بالحماقات يتقدمون فيقاتلون. إذا كان القتال فنحن، وإذا كانت الغنيمة فلهم(٢). وهكذا ساء موقف صلاح الدين، وانسحب فى حالة سيئة من خيبة الأمل إلى يازور ومنها إلى النطرون، فى الوقت الذى تحول ريتشارد من الدفاع إلى الهجوم(٣).

صلح الرملة سنة ١١٩٢:

ولم يلبث ريتشارد أن اعتراه المرض فى يافا، فأبت شهامة صلاح الدين وإعجابه بخصمه إلا أن يمده بما احتاج إليه من دواء وفاكهة. ويفهم مما ذكرته المراجع أن ريتشارد دأب فى مرضه على طلب الفاكهة والثلج من صلاح الدين فكان صلاح الدين يستحضرها خصيصاً له ويرسلها إليه(٤). وكان لذلك السلوك من جانب صلاح الدين أطيب الأثر فى نفس ريتشارد، الذى أخذ يشعر عندئذ بمزيد من القلق للأخبار السيئة التى استمرت تترى عليه من بلاده والتى تطلبت عودته على وجه السرعة. وقد أدرك المسلمون أن ريتشارد مضطر إلى العودة إلى بلاده. فذكر القاضى ابن شداد: وكان لعنه الله مضطراً إلى الرواح(٥) بل إن ريتشارد نفسه لم يخف عن المسلمين رغبته فى العودة السريعة لسوء أحوال بلاده أثناء غيابه، فقال لأحد أمراء المسلمين عقب استيلائه على يافا سلم على السلطان وقل له، بالله عليك أجب سؤالى فى الصلح، فهذا الأمر لابد له من آخر، وقد هلكت بلادى وراء البحر، ومافى دوام هذا

---

(1) Groussert: op. Cit, III, p. 175.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٨ هـ. وكان الجناح هذا أخو المشطوب بن علي بن احمد الهكاري.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٥٨٨,

(٤) ورسل الانكلتيري لا تنقطع في طلب الفاكهة والثلج، وأوقع عليه في مرضه شهوة الكمثري والخوخ، وكان السلطان يمده بذلك.... (ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٨٣، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٢٠٣).

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٦٣ .

مصلحة لا لنا ولا لكم[١].

وهكذا أحس ريتشارد بأن الوقت قد حان للعودة إلى بلاده، ولكنه كان لا يستطيع العودة قبل أن يصل إلى حل مع صلاح الدين. حقيقة أن ريتشارد أحرز بعض انتصارات على المسلمين، ولكنها كانت انتصارات جزئية محلية، ومازال صلاح الدين رابضاً فى داخلية بلاد الشام على رأس جيوشه يمتلك بيت المقدس ويتحكم فى دولة قوية تمتد من حلب ودمشق وبيت المقدس الى وادى النيل. وتحيط بالبقايا الصليبية المتناثرة قرب شواطئ الشام.

وسرعان ما تدهورت صحة ريتشارد فى تلك الأثناء تدهوراً ملحوظاً، بحيث بدا أنه إن لم يعجل بالعودة إلى بلاده، فربما أدركه الموت بالشام[٢]. وكان لابد لريتشارد من الاتفاق مع صلاح الدين بأية صورة قبل أن يودع بلاد الشام، وذلك لتأمين موقف الصليبيين بالشام بعد عودته. والواقع أن الاتفاق بين صلاح الدين وريتشارد لم يكن متعذراً، لولا مشكلة عسقلان وغزة والداروم، التى أبى صلاح الدين إلا أن يستردها، وأبى ريتشارد إلا أن يحتفظ بها الصليبيون. وهكذا عاد ريتشارد إلى ملاينة صلاح الدين من جديد، الأمر الذى جعل القاضى ابن شداد لا يتمالك نفسه ويعجب من أسلوب ريتشارد فى المفاوضة فقال انظر إلى هذه الصناعة فى استخلاص الفرص باللين تارة، والخشونة أخرى[٣].

وأخيراً– وتحت تأثير الرغبة الملحة فى العودة إلى بلاده– اضطر ريتشارد إلى التنازل عن ذلك الشرط، وتم عقد صلح الرملة فى ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢[٤]. وهو الصلح الذى نص على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا، بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف. أما عسقلان فتكون للمسلمين، فى حين تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين[٥]. واشترط صلاح الدين دخول بلاد الإسماعيلية (الباطنية)، واشترط الصليبيون دخول صاحب إنطاكية وطرابلس فى

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٩٩ .

(2) King: op. cit. p. 156.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٦٣ .

(٤) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي، ص٣٤٣ .

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٤٠٣ .

الصلح، ورضى الاسبتارية والداوية وسائر مقدمى الإفرنجية بذلك[١]. أما الأماكن المقدسة فقد نصت الاتفاقية على أن تكون للمسيحيين حرية الحج الى بيت المقدس دون مطالبتهم بأية ضريبة مقابل ذلك، وفى الوقت نفسه أعلن صلاح الدين أنّ الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل[٢]. أما مدة الصلح فقد اتفق على أن تكون ثلاث سنوات وثلاثة أشهر[٣]. وناب عن الملك ريتشارد فى التوقيع على الاتفاقية هنرى دى شامبنى وباليان الثانى دى إيلين (باليان ابن بارزان) واونفروى الرابع دى تورون، فى حين مثل الجانب الإسلامى الملك الأفضل والملك الظاهر ابنا صلاح الدين، وأخوه الملك العادل، وغيرهما من الأمراء[٤].

ولا يخفى علينا أن صلح الرملة قوبل بالارتياح التام من الجانبين، بعد أن ملوا جميعا تلك الحرب الطويلة التى لم تنته إلى نتيجة حاسمة، وبعد أن أصبح الطريق إلى الحجاز مفتوحاً أمام المسلمين والطريق إلى بيت المقدس مفتوحاً أمام المسيحيين. ويصور لنا المقريزى عظم الفرحة التى عمت المسلمين والمسيحيين جميعا عند إعلان الصلح فيقول كان يوم الصلح يوماً مشهوداً، عم فيه الطائفتين الفرح والسرور لما نالهم من طول الحرب[٥].

وقد حرص صلاح الدين على أن يتحلى دائما بروح الشهامة والمروءة والتسامح التى ميزت معاملاته مع الصليبيين، فقبل ما طلبه منه هوبرت أسقف سالسبورى من تعيين اثنين من رجال الدين الكاثوليك فى كل من كنيسة القيامة وكنيسة بيت لحم وكنيسة الناصرة، وذلك إلى جانب من كان فى تلك الكنائس من رجال الدين الأرثوذكس والسريان واليعاقبة[٦].

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٢٠٣ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١١٠ .

(٣) هذا ما أجمعت عليه المصادر المعاصرة باستثناء ابن الأثير الذي قال إنها كانت لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر، ولعله تحريف في الكتابة. (الكامل، حوادث سنة ٥٨٨ هـ).

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٤٠٤ (تحقيق جمال الدين الشيال).

(٥) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١١٠ (تحقيق محمد مصطفى زيادة).

(٦) لم يكد يتم صلح الرملة حتي قام هوبرت أسقف سالسبوري بزيارة بيت المقدس انظر: Setton: op. Cit, I. P. 85.

ولم تلبث الحياة الطبيعية أن عادت إلى فلسطين، فأقبل الحجاج المسيحيون على بيت المقدس آمنين، وأخذ النشاط يدب فى طرق التجارة: واختلط العسكران وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا فى طلب التجارة، ووصل خلق عظيم العدد إلى القدس للحج وفتح لهم السلطان الباب فى ذلك، ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم إلى يافا[١]. ولما علم ريتشارد كثرة من يزور بيت المقدس من الحجاج الصليبيين، خشى أن يغضب صلاح الدين لذلك وسير إلى السلطان يسأله منع الزوار واقترح ألا يؤذن لهم إلا بعد حضور علامة من جانبه أو كتاب منه. ولكن صلاح الدين أبى ذلك. ورد عليه بأن أولئك الحجاج وقد وصلوا من ذلك البعد لزيارة هذا المكان الشريف، فلا استحل منعهم![٢] بل إن صلاح الدين بالغ فى إكرام من يرد من حجاج المسيحيين وشرع فى مد الطعام لهم ومباسطتهم ومحادثتهم[٣]. وهذا كله على الرغم من أن صلاح الدين لم يقدم على مصالحة الصليبيين مختاراً، وإنما اضطرته الظروف إلى ذلك اضطراراً، ولو سارت الأمور على ما يشتهى لاستمر فى الجهاد حتى تتحقق غايته الكبرى، وهى تطهير بلاد الشام من الدخلاء الغربيين. ويقسم القاضى ابن شداد – وهو رفيق صلاح الدين وجليسه– على أن صلاح الدين لم يرغب فى الصلح ولكنه رأى المصلحة فى الصلح لشامة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة[٤]. وبذلك لقن صلاح الدين ريتشارد درساً فى التسامح والعدالة، قبل أن يركب البحر فى طريقه إلى الغرب الأوروبى فى ٩ أكتوبر سنة ١١٩٢[٥].

ولم يلبث بوهيموند الثالث أمير إنطاكية أن أقر صلح الرملة، فحضر لزيارة صلاح الدين فى بيروت فى نهاية أكتوبر سنة ١١٩٢، وعندئذ بالغ صلاح الدين فى احترامه وإكرامه ومباسطته، وأنعم عليه بالعمق وزرعان، ومزارع تعمل خمسة عشر ألف دينار...[٦]. وكان بوهيموند قد قام فى العام السابق (أكتوبر سنة ١١٩١)

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٢١٣ .

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٩٢ .

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٣٩٤، المصدر السابق– نفس الصفحة.

(٤) قال ابن شداد والله العظيم.. إن الصلح لم يكن من إيثاره، فانه قال لي في بعض محاوراته في الصلح أخاف أن أصالح، وما أدري أي شيء يكون مني فيقوي به هذا العدو وقد بنيت لهم البلاد. فخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ونري كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلعته (النوادر السلطانية، ص ٣٩١).

(5) Groussert: op. Cit, III, p. 119.

(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٩٨ . أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٢١٧ .

بمحاولة لاسترداد جبلة واللاذقية، ولكن القوات الإسلامية أنزلت به الهزيمة. وعاد إلى إنطاكية مغلولا مخذولا، مما جعله عقب صلح الرملة وسفر ريتشارد يعمل على تحسين علاقته بصلاح الدين، ويفهم مما ذكره أبو شامة أن صلاح الدين ارتاح لأن أمير إنطاكية لجأ إليه مباشرة، دون وساطة هنرى دى شامبنى ملك بيت المقدس[١].

(١) وأعجبه استرساله إليه ودخوله بغير أمان عليه، فلا جرم تلقاه بالإحسان ووافقه. (أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٢١٧).

الفصل الثالث
الشرق الأدنى فى نهاية القرن الثانى عشر وبداية الثالث عشر

هنري دي شامبني وسياسته:

يعتبر المؤرخون الحملة الصليبية الثالثة من الحملات الفاشلة فى تاريخ الحروب الصليبية، لأنها لم تحقق من النتائج ما يتناسب مع ما بذل فيها من جهد ضخم، فضلا عن أنها لم تنجح فى الوصول إلى الهدف الأساسى من مجيئها إلى الشرق وهو استرداد الأماكن المقدسة فى الشام من المسلمين(١). ومع ذلك فإن تلك الحملة قدمت للصليبيين بالشام بعض الإسعافات السريعة التى لا يمكن التقليل من شأنها. ويكفى أنها استردت لهم الساحل القديم لمملكة بيت المقدس بما فيه موانئ صور وحيفا وقيسارية وأرسوف ويافا، فضلا عن عكا التى غدت قاعدة مملكة بيت المقدس الصليبية فى عهدها الجديد(٢). وهكذا صار الوضع ببلاد الشام عند نهاية القرن الثانى عشر يتلخص فى سيطرة الصليبيين على شاطئ البحر وسيطرة المسلمين على داخلية البلاد(٣).

ولعله من الواضح أن مملكة بيت المقدس صارت فى وضعها الجديد ليست إلا مملكة عكا، وأن احتفاظها باسمها القديم وحرصها على ربط نفسها ببيت المقدس لا يغير من حقيقة أمرها، وهى أنها ارتبطت بعكا لا ببيت المقدس. ولاشك أن هذه الصفة الجديدة للمملكة الصليبية بالشام، وعدم ارتباطها بمدينة بيت المقدس بالذات، جعلها تفقد كثيراً من هيبتها الأولى، فضلا عن افتقارها فى عهدها الجديد إلى صفة الدولة المنظمة(٤).

ثم إن تلك المملكة اتخذت صبغة بحرية بحتة. بعد أن فقدت كل مالها من نفوذ داخل فلسطين، وأصبحت لا تضم إلا أراضى ومدنا ساحلية، الأمر الذى جعلها أكثر ارتباطاً بالغرب الأوروبى وأكثر اعتماداً على حماية الأساطيل الإيطالية فى الدفاع عن

---

(1) cam. Med. Hist. vol. 5. p. 311.

(٢) علي الرغم من استيلاء المسلمين علي بيت المقدس، واتخاذ الصليبيين عكا مقراً لمملكتهم الصليبية بالشام إلا أن تلك المملكة ظلت تحتفظ باسم مملكة بيت المقدس.

(3) Setton: op. Cit, I. P. 58.

(4) cam. Med. Hist. vol. 5. p. 312.

كيانها(١). ولعل هذه الحصانة الطبيعية التى تمتعت بها مملكة بيت المقدس فى عهدها الجديد هى التى جعلت تلك المملكة فى عكا أطول عمراً منها فى بيت المقدس، فبينما عاشت المملكة التى أسسها بلدوين الأول فى بيت المقدس سبعة وثمانين عاماً (١١٠٠-١١٨٧)، إذا بالمملكة الجديدة التى أحياها ريتشارد قلب الأسد فى عكا تعيش قرناً كاملاً (١١٩١-١٢٩١)(٢).

وليس معنى ذلك أن مملكة بيت المقدس فى عهدها الجديد- فى عكا- كانت أقوى جانباً وأصلب عوداً مما كانت عليه فى عهدها القديم، إذ لا يخفى علينا أن تلك المملكة غدت منذ إحيائها فى عكا فى نهاية القرن الثانى عشر لا تتمتع بقسط وافر من الاستقلال الذاتى والحرية فى العمل كما كانت الحال من قبل. وذلك بسبب اعتمادها على الغرب فى الدفاع عن كيانها. وهذا فى ذاته جعل القوى الغربية، وبخاصة الجمهوريات الإيطالية، تستغل معونتها فى فرض نوع من الوصاية عليها والإمعان فى التدخل فى شئونها. هذا فضلا عن عوامل الانشقاق والفرقة والبغضاء بين عناصر الصليبيين فى الشام، وهى العوامل التى ظهرت بوضوح بين الفرنسيين والإنجليز أثناء الحملة الصليبية الثالثة والتى استمرت قائمة فى الشام عقب رحيل ملك انجلترا الى بلاده حتى تركت أثراً سيئاً فى إضعاف مركز الصليبيين فى القرن الثالث عشر(٣). وإذا كانت عوامل الضعف هذه لم تعمل فى سرعة، مما مكن مملكة بيت المقدس من أن تعيش فى عكا قرناً كاملاً، فإن السبب فى ذلك إنما يرجع الى الظروف التى أحاطت بالدولة الأيوبية خاصة والقوى الإسلامية فى الشرق الأدنى عامة(٤).

وعلى الرغم من حماسة هنرى دى شامبنى- ملك مملكة بيت المقدس الجديد- ونشاطه وحرصه على تدعيم نفوذه وإحياء المملكة، إلا أنه واجه عقبات من جانب آل لوزجنان من ناحية، ثم البيازنة من ناحية أخرى. وربما أضعف من مركز هنرى دى شامبنى أنه لم يتوج هنرى ملكاً على المملكة على الصليبيين. ولا ندرى فى حقيقة الأمر السبب الذى من أجله لم يتوج هنرى ملكاً على المملكة الصليبية بالشام، فربما كان يرجو أن يؤجل هذه الخطوة حتى يسترد بيت المقدس من المسلمين وعندئذ يتوج فيها، أو ربما لم يجد استعداداً من الكنيسة والرأى العام الصليبى لتتويجه(٥). ومهما

(1) Heyd: op. cit, I, p. 310-359.
(2) Groussert: op. Cit, III, p. 124.
(3) Archer: op, cit, pp. 347-348.
(4) Stevenson: op, cit., p. 292-293.
(5) Runciman: III, P. 28.

يكن من أمر، فقد أضعفت هذه الناحية من نفوذ هنرى دى شامبنى، فى الوقت الذى كان جاى لوزجنان قد استولى على مقاليد الحكم فى جزيرة قبرص، وأخذ يفكر فى استعادة عرشه المفقود بالشام، فاتصل بالأيوبيين ثم البيازنة لتحقيق حلمه الحلو[١].

ويروى أبو شامة أن رسل الملك العتيق (جاى لوزجنان) حضروا لطلب المساعدة من صلاح الدين[٢]. ويبدو أن جاى كان يخشى على مركزه فى قبرص من هجوم الدولة البيزنطية، بدليل ما رواه ابن شداد بعد ذلك من وصول رسل الإمبراطور البيزنطى إسحق الثانى انجيلوس تطلب من السلطان أن يساعده على قصد جزيرة قبرص[٣]. غير أن صلاح الدين لم يستجب لرغبات أحد من الفريقين إذ وجد فى افتراق كلمتهم نصر الإسلام[٤]. ونستطيع نحن أن نؤكد أن تلك الاتصالات التى قام بها كل من الإمبراطور البيزنطى وجاى لوزجنان مع صلاح الدين، لم يكن محورها عندئذ هو مجرد العداء الشخصى بين الإمبراطور البيزنطى وملك قبرص، وإنما أراد كل من هذين الطرفين استغلال عداء صلاح الدين للصليبيين بالشام فى تحقيق مصالح خاصة لنفسه على حساب الصليبيين.

وعندما يئس جاى لوزجنان من مساعدة صلاح الدين، وجه اهتمامه نحو محالفة البيازنة، فتم التحالف بينه وبينهم، وأضفى جاى على البيازنة من الامتيازات ما جعلهم يضعون خطة للاستيلاء على صور وتسليمها إليه[٥]. ولكن هنرى دى شامبنى علم بالمؤامرة فى الوقت المناسب، فحرم على البيازنة أن يقيم منهم فى صور أكثر من ثلاثين فى وقت واحد (مايو ١١٩٣)، وعندئذ رد البيازنة عليه بالقيام بغارات للنهب والسلب على شواطئ المملكة حتى وصلت سفنهم قرب عكا ذاتها. وأخيراً لم يجد هنرى بداً من طرد البيازنة من عكا وغيرها من مدن المملكة ليأمن شرهم[٦]. وهكذا ظل العداء مستحكماً بين هنرى دى شامبنى ملك مملكة بيت المقدس الصليبية من ناحية، والبيازنة وجاى لوزجنان من ناحية أخرى، حتى وفاة الأخير فى

(1) Heyd: op. cit, I, p. p 312-316.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٧٨ .

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٤٠ .

(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٧٨ .

(٥) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٣٣ .

(6) Eracles. II. P. 202.

أبريل سنة ١١٩٤؛ فخلفه أخوه عمورى دى لوزجنان فى حكم قبرص، وهو الذى اتبع سياسة معتدلة غير عدوانية تجاه هنرى دى شامبنى[١].

على أن مشاغل هنرى دى شامبنى لم تقتصر على مملكته، وإنما امتدت أيضاً إلى بقية الإمارات الصليبية، وبخاصة إمارة أنطاكية، التى بات يخشى عليها من نفوذ الأرمن نتيجة للسياسة الضعيفة التى اتبعها بوهيموند الثالث أمير أنطاكية (١١٦٣-١٢٠١). وقد أتاحت الظروف فرصة طيبة لبوهيموند الثالث، إذ على الرغم من استيلاء المسلمين على جبلة واللاذقية ١١٨٨[٢]، إلا أن ثانى أبنائه- وهو بموهيموند الرابع- ورث حكم إمارة طرابلس عند وفاة أميرها ريموند الثالث، وبذلك غدا فى استطاعة بوهيموند الثالث وابنه بوهيموند الرابع ربط إمارتى انطاكية وطرابلس واستغلال مواردهما جميعاً فى تدعيم نفوذهما[٣].

ولكن بوهيموند الثالث لم يكن بالرجل الذى يحرص على مصلحته ومصلحة بلاده، فاختار أن يحالف جاى لوزجنان ملك قبرص خوفاً من أن يكون لكونراد دى مونتفرات مطامع فى طرابلس، فضلاً عن أنه صرف النظر عن محاربة المسلمين ومحاولة استرداد جبلة واللاذقية منهم، وزاد من سوء موقفه أن زوجته سيبل أخذت تلهو، فلم تكتف بخيانته مع المسلمين- كما سبق أن مر بنا[٤]- وإنما أخذت تخونه مع ليو الثانى العظيم صاحب أرمينية الصغرى[٥]. وكان الأمر خطيراً بالنسبة لإمارة أنطاكية ومصالح الصليبيين عامة، لأن ليو الثانى كان يطمع فى امتلاك منطقة الحدود بين أنطاكية وأرمينية، وهى المنطقة الممتدة من قلعة بغراس حتى إياس.

وقد حدث سنة ١١٩١ أن أخلى صلاح الدين قلعة بغراس وهدم تحصيناتها قبل أن يأتى إليها فردريك بربروسا ليحتلها؛ وعندئذ أسرع ليو الثانى إلى احتلال المكان. وعندما طلب بوهيموند إعادة القلعة إلى الداوية رفض ليو، وعندئذ لم يسع بوهيموند سوى أن يرفع شكواه إلى صلاح الدين[٦]. ولم يلبث أن دبر ليو مؤامرة مع سيبل

(1) Runciman:, III. P. 85.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٢٥٨-٢٥٩ .

(3) Groussert: op. Cit, III, p. 127.

(٤) انظر ما سبق، الفصل الثاني من الباب الثاني عشر.

(5) Tournebize: Hist, de I'Armenie. P. 183 & Eracles. II. P. 207.

(6) Runciman:, III. P. 87.

انتهت بالقبض على بوهيموند الثالث عند بغراس فى أكتوبر سنة ١١٩٣، وعندئذ أعلن ليو الثانى أنه لن يفرج عنه إذا منحه أنطاكية ذاتها(١). وسرعان ما جبن بوهيموند الثالث أمام الموقف، فأرسل اثنين من فرسانه الذين كانوا معه إلى أنطاكية ليتخذ الإجراءات لتسليمها للقوات الأرمينية. ولكن أهل أنطاكية من الصليبيين لم يقبلوا ذلك الوضع، وثاروا عليه بطرق أنطاكية أيمرى دى ليموج. وعندما وجدت القوات الأرمينية استحالة دخول أنطاكية بالقوة تراجعت، فى حين عاد ليو الثانى إلى قيليقية ومعه أسيره بوهيموند الثالث الذى ظل حبيساً فى قلعة سيس(٢).

وفى تلك الظروف، لم يجد أيمرى بطرق أنطاكية، وولى عهد الإمارة ريموند، وأخوه بوهيموند الرابع، بداً من الاستعانة بهنرى دى شامبنى ملك مملكة بيت المقدس فى عكا. وكان أن لبى هنرى النداء- كما كان يفعل أسلافه ملوك بيت المقدس من قبل- فركب البحر إلى طرابلس حيث اصطحب بوهيموند الرابع، ثم اتجه الاثنان صوب انطاكية(٣). وقد أدرك هنرى بثاقب بصره أنه ليس من المصلحة إثارة حرب مع الأرمن، وأن مثل هذه الحرب لن يستفيد منها إلا المسلمون، فاتبع طريق المسالمة وذهب بنفسه إلى قيليقية لزيارة ليو الثانى الأرمنى فى عاصمته سيس. وهناك توسط فى تسوية مشكلة الحدود بين ليو وبوهيموند، وتنازل أمير انطاكية لأمير أرمينية عن المنطقة المتنازع عليها حول بغراس. وبعد ذلك اقترح هنرى دى شامبنى زواج ريموند- ابن بوهيموند البكر- من أميرة أرمينية، ضماناً لتوثيق الروابط بين أنطاكية وأرمينية، وتم ذلك الزواج فعلا سنة ١١٩٥(٤). وهكذا نجح الملك هنرى دى شامبنى فى استعادة هيبة ملكية بيت المقدس وجعلها تبدو فى صورة القوة المسيحية الكبرى فى بلاد الشام التى يحتكم إليها وتستعين بها بقية القوى المسيحية المحاربة فى فض مشاكلها(٥).

مولد مملكتين مسيحيتين في الشرق الأدني:

ولم تلبث السنوات العشر الأخيرة من القرن الثانى عشر الميلادى أن شهدت مولد مملكتين مسيحيتين جديدتين فى شرق حوض البحر المتوسط، هما مملكة

(1) Estoire d' Eracles. P.P. 207-208.
(2) Runciman:op, cit, III. P. 88-89.
(3) Eracles. P. 207-214.
(4) Sempad: Chronique de Armenie, p.p. 631-632.
(5) Groussert: op. Cit, III, p. 133.

قبرص ومملكة أرمينية الصغرى. وترجع أهمية هذه الخطوة إلى ما ترتب عليها من تطورات خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية، وإذ قدر لهاتين المملكتين أن تنهضا بعبء محاربة المسلمين أمداً طويلا فى أواخر العصور الوسطى، مما ترك أثراً واضحاً فى تاريخ الشرق الأدنى(١). وجدير بالذكر أن كلا من عمورى لوزجنان فى قبرص وليو الثانى فى أرمينية قد توج ملكاً على بلاده بعد اتصال وتفاهم مع هنرى السادس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة من ناحية والبابوية من ناحية أخرى. وقد ترتب على ذلك أن اعترف ملكا أرمينية الصغرى وقبرص بتبعيتهما للإمبراطورية الغربية، مما ترك أثرا بعيداً فى مستقبل العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية من جهة ومملكتى قبرص وأرمينية الصغرى من جهة أخرى، كما خلف ظلا واضحاً فى مستقبل تاريخ الشرق الأدنى(٢).

هنري دي شامبني والمسلمون:

وفى أثناء رحلة هنرى دى شامبنى إلى انطاكية لتصفية النزاع بين انطاكية وأرمينية، اتصل هنرى بالباطنية وعقد معهم أواصر التحالف والصداقة. والمعروف أن الباطنية امتلكوا عندئذ قلاع شمالى انطرطوس- على الطريق بين عكا وإنطاكية- أهمها حصن الكهف وحصن الكموس وحصن العليقة، فضلا عن حصن مصياب (أو مصياف). وكان راشد الدين سنان شيخ الباطنية قد توفى سنة ١١٩٣، فانتهز خليفته فرصة مرور هنرى دى شامبنى بأراضيه قاصداً إنطاكية، وحاول أن يجدد ما كان بين الباطنية والصليبيين من تحالف، فاعتذر لهنرى عن مقتل كونراد دى مونتفرات ودعاه لزيارة الباطنية فى حصن الكهف. وقد حرص الباطنية أثناء تلك الزيارة على أن يبهروا أنظار ملك الصليبيين بقوتهم وثروتهم، فقدموا إليه كثيراً من الهدايا كما عرضوا عليه محالفتهم واستعدادهم لقتل من يرغب فى اغتياله(٣). ومن الواضح أن الباطنية أرادوا من وراء كل تلك المناورة تحقيق نوع من التوازن بين الصليبيين والأيوبيين، مما يضمن لهم البقاء على حساب الجميع.

أما عن سياسة هنرى دى شامبنى تجاه صلاح الدين نفسه فلم تكن أقل

(1) Stubbs: Seventeen Lectures on the Study of Med. And modern History., p.p 181.
(2) cam. Med. Hist. vol. 2. p. 473 & Brehier: L'Eglise et L'Orient, p. 139.
(3) Eracles: p.p. 210-213 & Ernoul: p. 323-324.

مسالمة، حتى يذكر ابن الأثير أن الملك الصليبى أرسل إلى صلاح الدين يستعطفه ويستميله ويطلب منه خلعه، وقال له أنت تعلم أن ليس القبا والشربوش عندنا عيب، وأنا ألبسهما منك محبة!. وكان أن أرسل له صلاح الدين خلعة سنية، منها القبا والشربوش، ففرح بهما الملك الصليبى وأرتداهما فى عكا[١]. ولم تلبث تلك السياسة التى اتبعها هنرى دى شامبنى أن آتت أكلها، حتى إن ابن الأثير وصفه بأنه كان خير الطبع قليل الشر رفيقاً بالمسلمين محباً لهم![٢].

وهكذا لم يبق أمام هنرى دى شامبنى سوى آل لوزجنان فى قبرص. وهنا أدرك هنرى ضرورة استرضاء عمورى دى لوزجنان الذى خلف أخاه جاى فى حكم الجزيرة سنة ١١٩٤، والذى يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة اللوزجنانية فى قبرص. ومن جهة أخرى فإن عمورى هذا كان سياسياً حازماً، وصفه ابن الأثير بأنه كان رجلا عاقلا يحب السلامة والعافية![٣]. فسعى من جانبه أيضاً لإصلاح ذات البين مع مملكة بيت المقدس فى عكا. ولم تلبث أن حلت المودة محل الخصام بين عمورى ملك قبرص وهنرى دى شامبنى ملك مملكة بيت المقدس، فاختار هنرى- بعد أن عقد الصلح بين أرمينية وإنطاكية- أن يبرح قيليقية بطريق البحر إلى قبرص، حيث استقبله عمورى استقبالا حاراً. ولم تلبث أن تطورت المودة بين الرجلين إلى رباط وثيق بين البيتين الحاكمين فى قبرص وعكا، وذلك بتزويج أبناء عمورى الثلاثة ببنات هنرى الثلاث، وهو الأمر الذى أدى فيما بعد إلى توحيد تاجى قبرص وبيت المقدس فى عكا، وتركيز جميع جهود الصليبيين فى الشرق[٤].

وفاة صلاح الدين وانقسام البيت الأيوبي:

توفى صلاح الدين فى أوائل مارس سنة ١١٩٣ فى دمشق بعد مرض قصير، تاركاً خلفه مملكة واسعة الأطراف، وفراغاً ضخماً لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر أو إخوته أو أبناء إخوته أن يملأه. ويروى القاضى ابن شداد فى النوادر السلطانية مدى حزن المسلمين لوفاة صلاح الدين، فقد توفى فى يوم لم يصب الإسلام

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٨ هـ.
(٢) المصدر السابق.
(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٩٣ هـ.
(٤) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٣٤ .

والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم...[١]. حتى المؤرخون الأوروبيون أفرطوا فى الترحم على صلاح الدين والإشادة بقوته وعدله وتسامحه. واعترفوا بأنه أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية قاطبة[٢].

أما مكانة صلاح الدين فى التاريخ فستظل عظيمة أبد الدهر، إذ يكفى ما قام به فى سبيل توحيد صفوف المسلمين والدفاع عن كيانهم، ثم مواصلة الجهاد فى صورة لا تعرف الملل لطرد الغزاة الدخلاء، ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءعظيماً، بحيث ما كان له من حدث إلا فيه ولا نظر إلا فى آلاته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه. ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده، وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة...[٣].

ومن الواضح أن وفاة صلاح الدين جاءت خسارة كبرى للجبهة الإسلامية المتحدة، إذ أنذرت هذه الوفاة بقيام المنازعات بين الورثة حول تقسيم التركة فى الوقت الذى كان هنرى دى شامبنى ملك مملكة بيت المقدس الصليبية يعمل على توحيد صفوف المسيحيين فى إنطاكية وأرمينية وقبرص وعكا. ولا أقل من أن نلقى نظرة سريعة عابرة على أحوال الدولة الأيوبية عند وفاة صلاح الدين لندرك مدى الخطر الذى كان يتهددها ويهدد كيان المسلمين ووحدتهم فى الشرق الأدنى.

كان الملك الأفضل نور الدين على – وهو الابن الأكبر لصلاح الدين– ملازماً

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٤١٠ .

(2) Runciman:op, cit. III. P. 77-78.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٤٣–٤٤:

وقد رثي العماد صلاح الدين بقصيدة جاء فيها:

بالله أين الناصر الملك الذي … لله خالصة صفت نياته.

أين الذي مازال سلطاناً لنا … يرجي نداء وتنقي سطواته

أين الذي عنت الفرنجة لبأسه … ذلا ومنها أدركت ثاراته

من في الجهاد صفاحة ما أغمدت … بالنصر حتي أغمت صفحاته

فعلي صلاح الدين يوسف دائما … رضوان رب العرش بل صلواته

(أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٥٨٩هـ).

لأبيه عند وفاته[١]، فاحتفظ بدمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين إلى الدروم (١١٩٣–١١٩٦). أما الابن الثانى لصلاح الدين– وهو الملك العزيز عثمان– فكان بمصر وقت وفاة أبيه، فاحتفظ بها(١١٩٣–١١٩٨)، فى حين أخذ الابن الثالث– وهو الملك الظاهر غازى– حلب وجميع أعمالها وشمال الشام (١١٩٣–١٢١٥)[٢]. وأما الملك العادل سيف الدين أبو بكر– أخو صلاح الدين– فقد أخذ الكرك والأردن فضلا عن الجزيرة وديار بكر، وكلها لإقطاعات ثانوية لا تتناسب مع أهمية العادل التى ستزداد وضوحاً مع مضى الوقت[٣]. ويبدو أن السبب فى ذلك هو أن صلاح الدين كان يخشى أطماع العادل وطموحه، الأمر الذى جعله يعزله. ويهمنا الآن أن العادل كان فى الكرك وقت وفاة صلاح الدين، فلما سمع الخبر وصل إلى دمشق بعد أيام، ولم يطل مقامه فيها، وإنما أسرع إلى بلاده بالجزيرة حذراً عليها من أهل الجزيرة[٤]. وأخيراً وزعت الإقطاعات الثانوية على بقية إخوة صلاح الدين وأبناء بيته، فأخذ الظافر خضر بن صلاح الدين بصرى وحوران. وأخذ الأمجد بهرام شاه ابن أخى صلاح الدين بعلبك، وأخذ المجاهد شيركوه الثانى (الصغير) ابن محمد بن شيركوه الكبير عم صلاح الدين، حمص. وأخذ المنصور الأول محمد بن تقى الدين عمر حماة[٥]. وأخذ سيف الإسلام طغتكين– وهو الأخ الرابع لصلاح الدين– اليمن وجزيرة العرب[٦]. فإذا أضفنا إلى ذلك كله تحفز أبناء البيوت القديمة الحاكمة فى الجزيرة، مثل البيت الزنكى ممثلا فى عز الدين مسعود الأول ابن مودود أتابك الموصل(١١٨٠–١١٩٣) وأخيه عماد الدين زنكى الثانى ابن مودود أتابك سنجار (١١٧٠–١١٩٧)، والبيت الأرتقى ممثلا فى قطب الدين سقمان الثانى صاحب كيفا وآمد، وعماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان صاحب خرتبرت، فضلا عن بنى سكمان (شاه أرمن) فى خلاط[٧]... أدركنا حقيقة الموقف فى المحيط الإسلامى المحف بالصليبيين فى الشام.

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٩ هـ.

(٢) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي ص ٣٥٨–٣٥٩ .

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٣٧٨–٣٧٩ .

(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٢٢٦ .

(٥) انظر زامباور: معجم الأنساب ص ١٥٠–١٥٥ .

(٦) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي، ص ٣٦٤ .

(٧) زامباور: معجم الأنساب ص ٣٤٤–٣٤٨ .

ولم تلبث أن نشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبى. ذلك أن صلاح الدين أوصى لابنه الأفضل- صاحب دمشق- بالسلطنة من بعده وحلف له العساكر جميعهم غير مرة فى حياته بمعنى أن تكون له السلطة العليا فى جميع أنحاء الدولة الأيوبية(١). ولكن الأفضل لم يكن بالشخص الذى يصلح لتلك المهمة، لضعفه وسوء سيرته، حتى اتهمه أبو الفدا بأنه كان يشرب الخمر ويقضى نهاره وليله فى اللهو وسماع الأغانى، كما وصفه المقريزى بأنه أقبل على اللعب ليله ونهاره وتظاهر بلذاته(٢)، فى حين وصفه أبو المحاسن بالملك النوام لأنه احتجب عن الرعية واشتغل بلهوه(٣). وزاد من كراهية الناس له أنه نبذ أمراء والده ومستشاريه، ووضع كل ثقته فى وزير جديد هو ضياء الدين ابن الأثير، أخى المؤرخ المشهور، ولم يلبث وزراء صلاح الدين وأمراؤه المستبعدون أن فروا إلى بلاط الملك العزيز بمصر واستعدوه على أخيه الأفضل، فخرج العزيز من مصر فى صيف سنة ١١٩٤ قاصداً الشام، وشرع فى محاصرة الأفضل فى دمشق، الأمر الذى جعل الأفضل بدوره يستنجد بعمه العادل(٤).

وهكذا أتيحت الفرصة للعادل، وهو الرجل الطموح الذى كان يمنى نفسه سنوات قليلة بالزواج من جوانا أخت الملك ريتشارد قلب الأسد ليتمكن من حكم المسلمين والصليبيين جميعاً فى بلاد الشام، كما مر بنا. ومن الواضح أن الملك العادل لم يكن راضياً عن وضعه. لاسيما وأن نصيبه من تركة صلاح الدين لم تتناسب وأهميته، بالنسبة للدور الذى قام به فى حياة صلاح الدين. ولكن العادل كان ذا مكر شديد وخديعة، صبوراً ذا أناة وتؤدة كما وصفه ابن واصل(٥)، فلم يشأ أن يتعجل الحوادث عقب وفاة أخيه صلاح الدين وأخذ يتصرف بأناة ريثما تتضح الأمور. وكان أن استجاب العادل لنداء الأفضل، فالتقى بالملك الظاهر غازى صاحب حلب والمنصور محمد صاحب حماة وأسد الدين شيركوه صاحب حمص والأمجد صاحب بعلبك(٦).

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٩ هـ.

(٢) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١١٨ .

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ١٠-١٢٢ .

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٩٠ هـ. ويروي المؤرخ ابن الأثير عن نفسه أنه كان موجوداً عندئذ بدمشق ويذكر ابن أيبك أن المؤرخ عز الدين ابن الأثير كان أيضا من مستشاري الأفضل الذين أشاروا عليه بأن يستبعد مماليك أبيه. (ابن أيبك: كنز الدرر، ج٧، ص ١٢٤).

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣ ص ٢٧١ .

(٦) المصدر السابق، ج٣ ص ٣٠ .

وقد اتفق هؤلاء جميعاً على منع العزيز من الاستيلاء على دمشق علما منهم أن العزيز عن ملكها أخذ بدلاهم. وعندئذ أدرك العزيز أنه لا قدرة له على مقاومة أولئك الأمراء جميعاً، فانصرف عائداً إلى مصر بعد أن اجتمع مع العادل فى صحراء المزة غربى دمشق، وطيب العادل نفسه وأعطاه إحدى بناته ليتزوجها[١]. أما التسوية التى على أساسها انصرف العزيز والتى تمت فى يوليو سنة ١١٩٤، فقد قضت بأن يحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية وأعمال الغور، فى حين يأخذ العزيز بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين، ويأخذ الظاهر جبلة واللاذقية، وذلك علاوة على ما بأيديهما فعلا[٢]. وبذلك أثبت العادل- بفضل هذه التسوية الهادئة- أنه الرجل الحريص على وحدة البيت الأيوبى والدفاع عن مصالح المسلمين ضد الصليبيين[٣].

ولم يلبث الأفضل أن تمادى فى لذاته بعد انصراف أخيه، فتشاغل عن أمور الناس بإدمان الشارب، هذا وإن كان أبو شامة يحكى أنه عاد إلى صوابه بعد قليل فأقلع عن ذلك وتاب وجد فى الذكر والزهد وأناب[٤]، وكان أن خرج العزيز فى العام التالى (١١٩٤-١١٩٥) على رأس جيشه من مصر قاصداً دمشق لمحاربة أخيه الذى استنجد من جديد بعمه العادل. وفى تلك المرة حرض العادل أمراء العزيز على تركه، فوجد العزيز نفسه فى الطريق إلى دمشق وقد انفض عنه أمراؤه، مما جعله يضطر إلى العودة إلى مصر[٥].

وسرعان ما تم الاتفاق بين الأمراء على أن يأخذ الأفضل مصر، ويترك دمشق للعادل، فجمع الأفضل والعادل جيوشهما واستوليا على بيت المقدس ثم شرعا يزحفان على العزيز فى مصر، حتى وصلا إلى بلبيس وحاصراها، وليس أدل على مهارة العادل فى ذلك الدور من أنه عاد فخاف أن يأخذ الأفضل مصر ولا يسلمه دمشق، فأرسل العادل سراً إلى العزيز يطلب منه الثبات ويتعهد بأن يجعل الأفضل يسرع

(١) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٧٧ .

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٩١ هـ.

(٣) يروي أبو المحاسن أن العادل عندما التقي بالعزيز عثمان قرب دمشق قال له لا تخرب البيت وتدخل عليه الآفة والعدو وراءنا من كل جانب.. ارجع إلي مصر واحفظ عهد أبيك... (النجوم الزاهر ج٦ ص ١٢١).

(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٢٢٩ .

(٥) فلما قارب العزيز دمشق كاتب الملك العادل الأمراء سراً. واستمالهم، وكان الأمراء الصلاحية قد وقع بينهم وبين الأمراء الأسدية تنافس لتقديم العزيز الصلاحية علي الأسدية، فعملت حيل العادل حتي وقعت الوحشة بين الطائفتين.. واتفقوا علي مفارقة العزيز والانضمام إلي العادل والأفضل ومضايقة العزيز. (المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٢٤-١٢٥).

بالانسحاب من أمام بلبيس(١). وهكذا عاد الأفضل إلى دمشق فى حين جعل العادل من نفسه حكماً بين الأخوين المتنازعين، مما مكنه من فرض كلمته عليهما جميعاً ليصبح سيد الموقف(٢).

على أن الأفضل رجع إلى دمشق تلك المرة ليتوب إلى الله توبة نصوحا فلزم الزهد، وأقبل على العبادة ولكنه ترك جميع شئون الحكم فى يد وزيره ضياء الدين ابن الأثير الذى اختلت به الأحوال غاية الاختلال وكثر شاكوه، فضج الناس من سوء إدارته وأعلنوا سخطهم على الأفضل وابن الأثير جميعاً(٣). وهنا وجد العادل أن الأوضاع باتت مهيأة لعزل الأفضل، فذهب إلى العزيز عثمان فى مصر وعقد معه اتفاقية لتحقيق ذلك الغرض، ثم خرج الاثنان- العادل والعزيز- من مصر فى يونية سنة ١١٩٦ قاصدين دمشق فما صدهما عن البلد صاد ولا ردهما راد(٤). وكان أن سقطت دمشق فى أيديهما فى أوائل يولية، وعندئذ حل العادل محل الأفضل فى حكم دمشق وأواسط الشام، فى حين أخذ العزيز لقب السلطنة، وبقيت له مصر، وبيت المقدس، على أن يذكر اسمه فى الخطبة وينقش على السكة. أما الأفضل فقد تركت له مدينة صرخد فى إقليم حوران- شرقى بصرى- ليقيم فيها نسياً منسياً(٥).

الإمبراطور هنري السادس والسيطرة علي الشام:

ولم تلبث أخبار وفاة صلاح الدين وتقسيم دولته والنزاع بين أبنائه أن وصلت إلى الغرب الأوروبى، مما أغرى المتحمسين على القيام بحملة صليبية جديدة تسترد بيت المقدس من المسلمين، لاسيما وأن صلح الرملة الذى عقده ريتشارد مع صلاح الدين كان محدداً بثلاث سنوات وثلاثة أشهر تنتهى فعلا فى ديسمبر سنة ١١٩٥(٦).

وكان من أشد حكام الغرب حماسة للحرب الصليبية عندئذ هنرى السادس إمبراطور ألمانيا (١١٩٠-١١٩٧)، الذى لم يستهدف من وراء ذلك استعادة بيت المقدس فحسب، بل رأى فى الحرب الصليبية فرصة طيبة لتحقيق أحلامه الواسعة فى

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٩١ هـ.
(٢) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٥٩١هـ.
(٣) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٢٩ .
(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣ ص ٦٢ .
(٥) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٦ ص ١٢٦ . أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٢٣١ .
(6) Groussert: op. Cit, III, p. 144.

الشرق بإخضاع الشرقين اللاتينى والبيزنطى للإمبراطورية المقدسة العالمية[١]. وقد أقسم الإمبراطور هنرى السادس القسم الصليبى فى نهاية مايو سنة ١١٩٥، ووضع لحملته برنامجا ضخما يستهدف فتح القسطنطينية أولا ثم بيت المقدس بعد ذلك، ثم إخضاع الدولة البيزنطية والشرق اللاتينى بأجمعه لسلطة الإمبراطورية[٢].

ولم يلبث أن أخذت جموع الصليبيين الألمان تتوافد على بلاد الشام دفعة بعد أخرى سنة ١١٩٧، ويبدو أن الدفعات الأولى من أولئك الألمان جاءت دون قادة أو زعماء، فسلكوا عند نزولهم فى عكا مسلكاً عدائياً تجاه الأهالى من الصليبيين أنفسهم، الأمر الذى جعل هؤلاء الأخيرين يشكون لملكهم هنرى دى شامبنى[٣]. وقد أدرك الملك هنرى دى شامبنى حقيقة تلك الحملة الألمانية ونواياها، وأنها كانت تستهدف استعباد الصليبيين فى الشرق لا تحريرهم من ضغط المسلمين، ولذلك أمر هنرى دى شامبنى رجاله باستخدام القوة ضد أولئك الصليبيين الألمان[٤].

ومهما يكن من أمر، فإن عدم مجئ الإمبراطور هنرى السادس أو أحد كبار الأمراء على رأس تلك الحملة، جعلها تنتهى إلى لا شيء، وكل ما هنا لك هو أنها فتحت باب النزاع بين المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام، فى الوقت الذى باتت مملكة بيت المقدس الصليبية تشكو ضعفاً شديداً فى وضعها الجديد، ولا ترجو أكثر من أن تعيش فى سلام مع جيرانها المسلمين[٥].

الملك العادل والصليبيون:

والواقع أن هنرى دى شامبنى ملك الصليبيين بالشام حرص فى أول الأمر على ألا يبدأ بالعدوان على المسلمين، وإلا كسر صلح الرملة الذى يمتد حتى نهاية سنة ١١٩٥ . حقيقة أن الفوضى التى عمت الدولة الأيوبية عقب وفاة صلاح الدين والمنازعات والحروب بين أبنائه وورثته جعلت من المتعذر الاحتفاظ بحالة من الاستقرار تضمن دوام السلم بين المسلمين والصليبيين. من ذلك أن عز الدين أسامة

---

(1) Setton: op. Cit, I. P.p 117-118.
(2) cam. Med. Hist. vol. 5. p. 473.
(3) Michaud: op, cit. III. P.p. 36-37.
(4) Eracles. II. P. 216.
(5) King: The Knights Hospitallers, p. 166.

أمير بيروت المسلم دأب على تسليح السفن لقطع الطريق على الفرنج والاعتداء على مراكب الصليبيين ونهبها[١] . وعبثاً شكا الصليبيون إلى الملك العادل فى دمشق أو العزيز عثمان فى القاهرة، فلم يمنعا أسامة من ذلك[٢]،ومع ذلك فد تحمل الصليبيون فى صبر بالغ اعتداءات أسامة وأمثاله من حكام المسلمين. وظل الأمر على ذلك حتى مجئ الألمان إلى بلاد الشام سنة ١١٩٧ ، وإذا كان الصليبيون قد استولوا على جبيل فى تلك السنة، فإن هذا الاستيلاء تم بطريقة سلمية هادئة، ولا يمكن بأى حال اعتباره رداً على اعتداءات المسلمين[٣] .

فالألمان الذين وفدوا إلى الشام سنة ١١٩٧ قطعوا خط السلام بهجومهم على الأراضى الإسلامية دون أن يستأذنوا فى ذلك هنرى دى شامبنى ملك المملكة الصليبية بالشام[٤]. بدليل حرص هنرى على تجديد الصلح بينه وبين المسلمين عقب وفاة صلاح الدين[٥] . ولم يستطع الملك العادل السكوت على أولئك الألمان الذين انتشروا فى الساحل وكثروا فيه لاسيما بعد أن قتلوا بعض المسلمين فى أطراف القدس وأسروا وغنموا شيئاً كثيراً[٦]. لذلك أسرع العادل إلى طلب النجدة من بقية أمراء بنى أيوب. من الجزيرة شمالا حتى مصر جنوباً، فعبأوا جيوشهم، وتجمعت هذه الجيوش فى عين جالوت إلى الجنوب الشرقى من الناصرة. ولم تلبث أن أحاطت الجيوش الإسلامية بالألمان قرب عكا ذاتها، أو على وجه التحديد عند رأس الماء بمرج عكا، حسب قول أبى شامة[٧]. وهنا أسرع هنرى دى شامبنى إلى حشد القوى الصليبية. ولكن الهزيمة حلت بالصليبيين فى الموقعة التى دارت بين الجانبين عند تل العجول– قرب غزة– فقتل المسلمون منهم جماعة وأسروا جماعة وجرعوا بغنائم كثيرة[٨] .

وكان أسرع هنرى دى شامبنى بالكتابة إلى الإمبراطور هنرى السادس فى الغرب ينهى إليه تلك البلية ويستحثه على القدوم إلى الشام لنجدة الصليبيين فقال له

(1) Ernoul, p. 315-316 & Eracles. II. P. 228.

ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٩٣ هـ.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٩٣ هـ.

(3) Groussert: op. Cit, III, p. 147.

(4) Eracles. II. P. 216.

(٥) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٢٩ .

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣ ص ٧٤ . المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٤٠–١٤١ .

(٧) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٧٤ .

(٨) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٣٣ .

إن عظام أبيه (فردريك بربروسا) مازالت فى صور وكأنه فى الأسر منتظر الإفراج، فإنه لا يعتبر إلا بالبيت المقدس إذا استخلص[١]. ولكن الملك العادل كان أسرع فى الحركة، فزحف على يافا ودخلها هجما بالسيف[٢]. وكانت يافا عندئذ تابعة تبعية إسمية للملك عمورى لوزجنان ملك قبرص، الذى كان يحكم يافا قبل أن يلى عرش الجزيرة، ومع ذلك فقد بادر هنرى دى شامبنى إلى محاولة نجدة المدينة، فعرض على عمورى لوزجنان إعطاءه يافا ليحكمها حكماً فعلياً مباشراً، مقابل قيامه بالدفاع عنها ضد المسلمين. وقد وافق الملك عمورى لوزجنان فعلا على ذلك العرض، وأرسل أحد رجاله ليتولى قيادة الصليبيين فى يافا. ولكن سرعان ما وردت الأخبار إلى عكا بضعف الاستعدادات التى اتخذها مندوب ملك قبرص فى يافا وأنه لا يبالى بوقوع المدينة فى قبضة المسلمين[٣]. لذلك أسرع هنرى دى شامبنى إلى إعداد العدة للدفاع عن يافا بنفسه، عندما توفى فجأة فى ١٠ سبتمبر سنة ١١٩٧، فى الوقت الذى استولت الجيوش الأيوبية على يافا، وبذلك جاءت خسارة الصليبيين مزدوجة.

ولاشك أن خسارة الصليبيين بوفاة هنرى دى شامبنى فاقت بكثير خسارتهم بضياع يافا، إذ استطاع الصليبيون استرداد يافا مرة أخرى سنة ١٢٠٤ ولكنهم لم يستطيعوا تعويض هنرى دى شامبنى، وهو الرجل الذى عرف بالعقل والشجاعة والقدرة[٤].

عموري لوزجنان وتوحيد عرش قبرص وبيت المقدس:

مات هنرى دى شامبنى فى الوقت الذى تجدد العداء بين المسلمين والصليبيين فى الشام، فكان لابد من البحث عن زوج رابع للملكة إيزابيل لملء عرش المملكة برجل قوى يستطيع الدفاع عن كيان الصليبيين بالشام، وكان أن اتجه التفكير إلى تزويج إيزابيل من عمورى لوزجنان ملك قبرص، وتوحيد تاجى قبرص ومملكة بيت المقدس[٥]. وسرعان ما لقيت هذه الفكرة ترحيباً من مختلف الأطراف: مثل الداوية

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٢٣٣ .

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣ ص ٧٥ .

(3) Mas Latrie: Hist. de l'ile de Chypre. I. p. 144 &

ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٩٣ هـ.

(4) Setton: op. Cit, I. P. 523-529.

(٥) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٣٧ .

والاسبتارية ومعظم أمراء الصليبيين بالشام، فضلا عن البابوية، وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى أغرب[١]. وفعلا تم زواج عمورى من إيزابيل سنة ١١٩٨، وبذلك أصبح الدفاع عن المصالح الصليبية بالشام واجباً مفروضا على ملوك قبرص من آل لوزجنان.

أما عن موقف عمورى لوزجنان من المسلمين، فيلاحظ أنه كان متزناً بعيداً عن التطرف فى خصومته معهم. ولكن ليس معنى ذلك أنه تساهل إلى حد التفريط فى حقوق الصليبيين، وإنما وقف موقفاً حازماً من اعتداءات المسلمين، دون تطرف، وكان عمورى قد جاء من قبرص لنجدة يافا، ولكنه وصل بعد أن سقطت المدينة فعلا فى يد العادل، وعندئذ فكر عمورى فى الاستعاضة عن يافا بمدينة بيروت[٢]. وقد تمكن الصليبيون من الاستيلاء على بيروت فعلا فى أكتوبر سنة ١١٩٨ صفوا صفواً بغير قتال بعد أن هرب منها صاحبها عز الدين أسامة وجميع من معه[٣].

ويضفى المؤرخون أهمية كبيرة على وقوع بيروت فى قبضة الصليبيين، لأنه بصرف النظر عن أنها حتى ذلك الوقت قاعدة للسفن الإسلامية تهدد المواصلات البحرية للصليبيين، فإن السيطرة عليها مكنت الصليبيين من إحكام إشرافهم على شواطئ الشام وبخاصة فيما بين طرابلس وعكا[٤]. هذا فضلا عن أن استيلاء الصليبيين على بيروت شجع بوهيموند الثالث أمير إنطاكية على القيام بمحاولة لاسترداد اللاذقية وجبلة، وهما الميناءان اللذان استولى عليهما صلاح الدين سنة ١١٨٨ . وفعلا قام بوهيموند الثالث بمحاولة للاستيلاء عليهما فى أواخر سنة ١١٩٧ . فركب البحر ونزل عند بانياس، ولكنه وجد أن الملك الظاهر الأيوبى صاحب حلب أخذ حيطته وحصن المدينتين، وإن كان قد هدم ما بداخلهما من مبان ورحل الأهالى استعداداً للطوارئ، وبذلك لم يتمكن بوهيموند من تحقيق غرضه، وعاد من حيث أتى[٥].

---

(1) Stubbs: op. cit, p. 196.
(2) Ernoul, p.p 311-314 and Eracles. P.p 225-227.
(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٩٣ هـ.
(4) Groussert: op. Cit, III, p. 157.
(5) Ernoul, p.p 341-342.

أما الصليبيون الألمان فإنهم فكروا- عقب الاستيلاء على بيروت- فى الزحف بزعامة الملك عمورى للاستيلاء على بيت المقدس، غير أنهم لم يتجهوا نحو بيت المقدس مباشرة، وإنما توقفوا فى الطريق لحصار حصن تبنين. وقد بدأ حصار الحصن فى أواخر نوفمبر سنة ١١٩٧، فهاجمه الصليبيون هجوماً عنيفاً، ولكن المسلمين صمدوا وأصروا على الامتناع وقاتلوا من يحمى نفسه[١]. وفى تلك الأثناء طلب الملك العادل معونة ابن أخيه العزيز عثمان فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقى عنده من عساكر مصر، وذلك فى أوائل فبراير سنة ١١٩٨[٢]. كذلك أتى لنجدة العادل بقية أمراء البيت الأيوبى، مما أخاف الصليبيين الألمان، فى الوقت الذى سمعوا بوفاة إمبراطورهم، هنرى السادس فى الغرب، فآثروا الانصراف عن حصن تبنين، ورحلوا على أعقابهم إلى صور خائبين[٣]. أما الملك العزيز والملك العادل فقد سارا فى أثر الصليبيين يلتقطون من ظفروا به منهم[٤]. وبذلك تبددت الحملة الألمانية فى فبراير سنة ١١٩٨ وانتهت نهاية صامتة دون أن تحقق أثراً يذكر فى بلاد الشام.

على أن ذوبان الحملة الألمانية على ذلك الوجه ألقى على كاهل عمورى الثانى مهمة محاربة المسلمين، وهى الحرب التى أشعل نارها الألمان. ولم يكن عمورى مستعداً عندئذ لحرب طويلة المدى، فى الوقت الذى كان الملك العادل يرغب فى أن يتفرغ لشئون دولة بنى أيوب، كما عاد الملك العزيز فعلا إلى مصر قبل انفصال الحال؛ حيث استدعت ظروفه بقاءه فيها[٥]. وهكذا ساعدت الأوضاع على عقد الصلح بين المسلمين والصليبيين فى أول يولية سنة ١١٩٨، على أساس القواعد التى اتبعت فى صلح الرملة المعقود بين صلاح الدين وريتشارد، مع احتفاظ كل من المسلمين والصليبيين بفتوحاتهم الجديدة، فاحتفظ الصليبيون ببيروت وجبيل، واحتفظ العادل بيافا، فى حين قسمت صيدا بين الطرفين، واتفق على أن تكون مدة الهدنة ثلاث سنين[٦].

---

(1) Eracles. II. P. 222 & ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٩٣ هـ.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٢٣٣، أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٥٩٤هـ.

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٩٣ هـ. أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٥٩٤هـ. أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٢٣٣ Eracles. P. 222.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ص ٧٦.

(5) Michaud: op, cit. III. P.p. 61-63 & ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٩٣ هـ.

(٦) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٤١. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣ ص ٧٨. ويلاحظ أن بعض المصادر الصليبية حددت مدة تلك الهدنة بخمس سنوات وثلاثة أشهر، انظر (Eracles. II. P. 198-208.)

العادل وتوحيد الدولة الأيوبية:

ولم يكد يتم عقد الصلح بين العادل والصليبيين، حتى مرت الدولة الأيوبية بعدة تطورات سريعة انتهت بتوحيدها مرة أخرى تحت زعامة العادل. ذلك أن الملك العزيز، سلطان مصر توفى فى أواخر نوفمبر سنة ١١٩٨، وكان ابنه الأكبر ناصر الدين محمد– الملقب بالملك المنصور– فى العاشرة من عمره، فأرسل فخر الدين جهاركس– المسيطر على زمام الأمور فى مصر– إلى العادل يستدعيه لحكم مصر(١). على أن المماليك الأسدية والصلاحية فى مصر حشدوا سطوة العادل، فاجتمعوا بظاهر القاهرة وقرروا أن الملك المنصور صغير السن لا يتحمل ثقل هذا الفن، ولابد من كبير من أهل بيته يربيه ويدبر الدواوين ويرتب القوانين. ولذلك استدعوا الملك الأفضل من حوران وسلموه مقاليد الأمور فى مصر فى يناير سنة ١١٩٩(٢). وكان العادل عندئذ يحاصر ماردين فى ديار بكر(٣)، فاتفق الملك الأفضل فى مصر مع الملك الظاهر صاحب حلب للقضاء على سيادة عمهما الملك العادل وأخذ دمشق منه(٤).

وعندما علم العادل بمؤامرة أبناء أخيه ضده عاد مسرعاً إلى دمشق، فوصلها فى ٨ يونية سنة ١١٩٩، وأخذ يعد المدينة بسرعة للدفاع. ولم تمض أيام قليلة حتى وصل الأفضل على رأس العسكر المصر والظاهر على رأس العسكر الحبلى، وحاصروا المدينة طوال ستة أشهر حتى غلت الأقوات بدمشق لشدة الحصار، ولكن دون أن يحاولا القيام بهجوم جاد ضدها. وفى تلك الأثناء أخذ العادل يكاتب الأمراء ويستميلهم شيئاً بعد شىء، فانفض كثير من الأمراء عن الأفضل والظاهر وانضموا إلى جانب العادل(٥). وكان ذلك فى الوقت الذى استغل العادل سوء تدبير الأخوين، وأخذ يبذر بذور الخلاف بينهما، حتى انتهى الأمر فى أواخر سبتمبر سنة ١١٩٩ بعودة الأفضل إلى مصر والظاهر إلى حلب(٦). وهنا لم يشأ العادل أن يترك الأفضل يعود بسلام،

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٩٥ هـ.

(٢) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٤٦–١٤٧ . أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٢٣٥ .

(٣) كان النظام– مدير حسام الدين الارتقي صاحب ماردين– قد كتب إلي العادل يستدعيه لتسلم ماردين ويأخذ منه عوضاً عنها، فلما قصدها العادل، لم يف النظام بوعده مما تطلب من العادل محاصرة ماردين عندئذ (ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ٨٠).

(٤) أبو المحاسن: إلنجوم الزاهرة، ج٦، ص ١٤٧ .

(٥) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٤٩ .

(٦) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٢٣٦ .

وإنما تبعه إلى مصر وأنزل الهزيمة بجنده قرب بلبيس[١]، ثم لحق به فى القاهرة حيث استسلم الأفضل وطلب عودته إلى إقطاعه المتواضع فى حوران، على أن تكون مصر للعادل (٥ فبراير سنة ١٢٠٠) . وبذلك استبد (العادل) بملك مصر آمنا من الشركة[٢].

على أن الظاهر والأفضل لم يلبثا أن اتفقا فى العام التالى مرة أخرى وزحفا على دمشق ليحصراها من جديد، وعندئذ أسرع العادل من مصر ليبذر بذور الخلاف بين الأخوين، فعاد الظاهر إلى حلب، واعترف بسيادة عمه ولاطفه وأهدى إليه[٣]، فى حين اختار العادل ألا يعطى الأفضل تلك المرة سوى سميساط وبلادها لاغير[٤]. وهكذا صار العادل سلطان البلاد جميعها وبيده ملك مصر وبيت المقدس ودمشق، فضلا عن أملاكه فى الجزيرة، فى حين بقى الظاهر فى حلب والأفضل فى سميساط تابعين له. أما عن الملك المنصور ابن العزيز- سلطان مصر السابق- فقد أقطعه العادل حماة وأعمالها.

وإذا كان العادل قد نجح فى توحيد الدولة الأيوبية من جديد، فإن ذلك تطلب منه إعادة تنظيم دولته. واستعان فى ذلك التنظيم بأبنائه، فأناب ابنه الكامل محمد فى حكم مصر، وجعل المعظم عيسى فى دمشق، وأعطى الإشراف موسى حران، والأوحد ميارفارقين. أما العادل نفسه فكان له الإشراف التام على جميع تلك الأنحاء وصار ينتقل فى ممالك أولاده، والعمدة فى كل الممالك عليه[٥]. وهكذا تم إعادة الجبهة الإسلامية المتحدة إلى ما كانت عليه، وظهر على رأس هذه الجبهة رجل من أقوى رجال عصره[٦] هو السلطان العادل الذى عرفه الصليبيون بلقبه سيف الدين Saphadin.

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٩٦ هـ.
(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ٢٣٧ .
(٣) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٥٩٨هـ.
(٤) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ١٥٩ .
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٢٧ .
(٦) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٥٩٩هـ.

الباب الرابع عشر

انحراف الحركة الصليبية

"ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم.

لا يستأجرون ساعة ولا يستقدمون"

(التوبة: ١٤)

الفصل الأول
الحملة الصليبية الرابعة

الدعوة للحملة

تولى منصب البابوية سنة ١١٩٨ رجل من أعظم الشخصيات التى وليت هذا المنصب فى العصور الوسطى، هو البابا انوسنت الثالث الذى وضع لنفسه وللكنيسة وللبابوية برنامجاً ضخماً، على رأسه مشروع محو آثار حروب صلاح الدين فى الشرق واغتصاب بيت المقدس مرة أخرى من المسلمين(١) ولم تكد تمر على تولية أنوسنت الثالث مهام منصبه أشهر قليلة حتى دعا- فى منتصف سنة ١١٩٨- للحملة الصليبية الرابعة، ثم أرسل بعد قليل إلى أيمار Aymar بطرق مملكة بيت المقدس يطلب منه إرسال تقرير مفصل إلى روما عن الموقف فى بلاد الشام، ويأمره أن يعنى فى ذلك التقرير بالبيانات الخاصة بمدى قوة حكام المسلمين والعلاقات فيما بينهم وبين بعض(٢).

وسرعان ما أخذت الاستعدادات للحملة الصليبية الرابعة تسير سيراً سريعاً. بفضل جهود جماعة من المتحمسين والدعاة، لم يقلوا فى حماستهم عن دعاة الحملة الصليبية الأولى(٣). غير أنه يلاحظ فى تكوين الحملة الصليبية الرابعة أنها لم تكن حملة شعبية، ولم تكن حملة ملوك وأباطرة، وإنما كانت حملة أمراء، ساهم فيها وتولى قيادتها عدد كبير من البارونات الفرنسيين والفلمنكيين وغيرهم، وإن كانت الغلبة فيها للعنصر الفرنسى. وفى مقدمة هؤلاء جميعاً كان بلدوين التاسع أمير فلاندرز، وأخوه هنرى، وبونيفيس دى مونتفرات، وثيبوت الثالث أمير شامبنى، ولويس أمير بلوا(٤).

والواقع أن التجارب أثبتت فشل الحملات التى تولى قيادتها الملوك والأباطرة. فبينما كانت أكثر الحملات الصليبية نجاحاً الحملة الأولى التى لم يشترك فيها ملك متوج، والتى تولى زعامتها مجموعة من الأمراء، إذا بالحملتين الثانية والثالثة تفشلان بسبب الحزازات العنصرية والخلافات القوية بين الملوك، الذين لم يستطيعوا أن ينسوا

(١) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطي ج١ ص ٣٩١، ٥٠٦.

(2) Luchaire: Innocent III et Question d`Orient, p. 15.

(3) Michaud: op. cit, III, p.p 90-91.

(4) Setton: op, cit, II. P.p 158-159.

فى الشرق ما كان بينهم من منافسات وضغائن فى الغرب(١).

وقد شاءت الظروف أن تمد البابوية بفرصة مواتية، هى وفاة الإمبراطور هنرى السادس فى سبتمبر سنة ١١٩٧، وهو الذى كان بأطماعه الواسعة فى الشرق والغرب جميعاً يمثل خطراً ضخماً على البابوية وأطماعها ومصالحها. وكان هنرى السادس يعد العدة للقيام بحملة يحقق بها أطماعه فى الشرقين البيزنطى والصليبى مما يجعله سيد الموقف فى الشرق الأدنى قاطبة. ولكن وفاة ذلك الإمبراطور المفاجئة– وهو فى شرخ شبابه– أراحت البابوية من كابوس ثقيل ومكنتها من العمل لحسابها لتحقيق مصالحها(٢).

الصليبيون والدولة البيزنطية:

وكانت الخطوة الأولى أمام الصليبيين هى تحديد وجهة الحملة. وهنا رأى صغار النبلاء وعامة الفرسان أن تكون وجهتهم بلاد الشام ليشقوا طريقهم مباشرة إلى بيت المقدس، فى حين رأى كبار الأمراء والقادة أن يستفيدوا من آراء عمورى الأول ملك بيت المقدس الأسبق، ومن نصائح ريتشارد قلب الأسد فيوجهون ضربتهم ضد مصر، بوصفها مركز المقاومة الحقيقى ضد الصليبيين بالشام، والمخزن الكبير الذى استمد منه الأيوبيون مواردهم البشرية والمادية فى محاربة الصليبيين(٣)، وهذا فضلا عن أن إعادة توحيد الدولة الأيوبية تحت زعامة الملك العادل، جعل من الخطورة على الصليبيين أن توجهوا نحو حصار بيت المقدس، فيعرضون أنفسهم للوقوع بين فكى الكماشة، أى بين قوات العادل التى تخرج من مصر وتلك التى تنفذ من دمشق. ثم إنه وجدت عندئذ نسبة كبيرة من التجار الإيطاليين فى موانئ دلتا النيل– وبخاصة فى دمياط والإسكندرية– وهؤلاء سيتعرضون لانتقام السلطات المصرية إذا هاجم الصليبيون بيت المقدس، فالأولى يبدأ الصليبيون بمهاجمة شواطئ مصر الشمالية لحماية أولئك التجار وتأمين الجبهة الجنوبية لفلسطين، ثم بعد ذلك يستطيعون الاستيلاء على بيت المقدس، إما عن طريق المساومة أو عن طريق القوة. وهكذا استقر الرأى على أن تكون مصر مقصد الحملة الصليبية الرابعة(٤).

وبعد أن حدد الصليبيون وجهة حملتهم، بقى عليهم أن يعدوا السفن اللازمة لنقلهم

(1) Fliche: Hist. de L'Eglise p.p. 44-60.
(2) Runciman: op. cit, III, p.p. 108-109.
(3) grousset: op. cit. III, p. 171.
(4) Brehier: L'Eglise et L'Orient. P. 151.

إلى الشواطئ، فاتصلوا بالبندقية وعقدوا معها اتفاقية سنة ١٢٠١ لذلك الغرض، وأخذ الصليبيون يحتشدون فى البندقية فعلا فى صيف سنة ١٢٠٢ انتظاراً لنقلهم إلى شواطئ مصر. ولكن البندقية كانت لا تهتم عندئذ بالصالح الصليبى قدر اهتمامها بدفع ثمن نقلهم بالسفن إلى مصر، لتطلب من الصليبيين مهاجمة مدينة زارا- على الشاطئ المقابل للبحر الادرياتى- واستردادها من ملك هنغاريا وتسليمها للبنادقة ثمناً لنقلهم إلى مصر[١]. وكان أن استجاب الصليبيون لذلك العرض- رغم اعتراض البابوية- فهاجموا زارا ونهبوها فى أكتوبر سنة ١٢٠٢- وهو البلد المسيحى الآمن- مما يدل دلالة واضحة على بداية انحراف الحركة الصليبية، وعدم تمييزها فى ذلك الدور الجديد بين مهاجمة المسلمين ومهاجمة المسيحيين. وزاد الموقف سوءاً أن زارا لم تكد تقع فى قبضة الصليبيين حتى دب الخلاف بينهم وبين البنادقة حول اقتسام الغنائم المسيحية، وتحول الخلاف إلى نزاع مسلح انتهى باتفاق سريع بين الطرفين[٢]. أما البابا أنوسنت الثالث فيقال إن الاستياء بلغ به حداً جعله يصدر قرار الحرمان ضد الحملة الصليبية بأكملها، ثم خفف قراره بعد ذلك وجعله ضد البنادقة المشتركين فيها، بوصفهم مسئولين عن انحراف الحملة الرابعة إلى زارا.

وفى الوقت الذى استعد الصليبيون للإبحار نحو مصر، إذا بثورة تنشب فى القسطنطينية انتهت بخلع إسحق الثانى وفرار ابنه الكسيوس إلى الغرب طالبا المساعدة من البابوية وجموع الصليبيين، أما الثمن الذى عرضه الكيسوس مقابل تلك المساعدة فكان مغرياً حقاً، يتلخص فى إخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية، فضلا عن مساعدة الصليبيين فى حملتهم ضد مصر[٣]. ومن الطبيعى أن يصادف هذا العرض قبولا من البابوية، فى حين وجدت البندقية فيه تحقيقاً لفوائد مادية ضخمة. وهنا نلاحظ أن البنادقة بالذات لم يكونوا مستعدين لمعاداة الملك العادل وحمل الصليبيين إلى شواطئ مصر. نظراً لما صار لهم من مصالح اقتصادية واسعة فى مصر عندئذ[٤]. ولا أدل على نفاق البنادقة مع الصليبيين عندئذ، من أنهم فى الوقت الذى كانوا يساومون الصليبيين على الأجر اللازم لنقلهم إلى شواطئ مصر، إذا بهم يدخلون فى مباحثات اقتصادية مع السلطان العادل، وأرسلوا بعض المبعوثين إلى مصر فعلا سنة ١٢٠٢، فعقدوا اتفاقية مع السلطان العادل، وتعهدوا له بعدم مساعدة أى مشروع صليبى ضد مصر[٥]. وقد

---

(1) Vasiliev: op. cit, vol 2. p. 454.
(2) Runciman: op. cit, II, p.p. 114-115.
(3) Brehier: L'Eglise et L`Orient. P.p, 156-157.
(4) Setton: op, cit, II. PS 161, 170-171.
(5) Runciman: op. cit, III, p.p. 113 & Wiet: L'Egypte Arabe, p. 343.

أضفى الملك العادل بالذات على البنادقة امتيازات تجارية واسعة فى مصر وعقد معاهدة تجارية حققت لهم كثيراً من الفوائد، كما خفض لهم الضرائب وسمح بإقامة فندق آخر جديد لهم بالإسكندرية(١).

وهكذا لم يكن فى صالح البنادقة بأى حال التضحية بمصالحهم التجارية فى مصر، وإثارة القطيعة مع السلطان العادل، فى الوقت الذى سيؤدى اشتراكهم مع الصليبيين فى غزو القسطنطينية إلى تحقيق مكاسب جديدة فى ذلك المركز المهم الواقع على الطريق التجارى بين آسيا وأوروبا، والتقاء البحرين الأسود والأبيض. هذا فضلا عن إتاحة الفرصة للبنادقة ليثأروا من الإمبراطورية التى حرمتهم من امتيازاتهم التجارية فى القسطنطينية. وأضفت تلك الامتيازات على أعدائهم ومنافسيهم من الجنوية(٢). أما الغرض الصليبى والكنيسة وبيت المقدس، فكلها ألفاظ جوفاء فى نظر البنادقة لن يؤدى الجرى وراءها إلا إلى كساد تجارتهم وضياع مصالحهم الاقتصادية ذات الاعتبار الأول فى نظرهم(٣).

فإذا أضفنا الى ذلك كله سوء العلاقة بين الصليبيين والبيزنطيين منذ الحملة الصليبية الأولى، وموقف الإمبراطورية البيزنطية من الحملات الصليبية المتعاقبة منذ سنة ١٠٩٧، واعتقاد البابوية والغرب الأوروبى أن الدولة البيزنطية مسئولة عن عرقلة جهود الصليبيين فى الشرق، وعن فشل كثير من الحملات الصليبية التى سلكت أراضيها، والنفور القديم المتأصل بين الكنيستين الشرقية والغربية، ورغبة البابا انوسنت الثالث فى تحقيق سيادة البابوية العالمية وإدخال الكنيسة الشرقية تحت نفوذه(٤)، أدركنا فى نهاية الأمر لماذا صادفت فكرة اتجاه الصليبيين ضد القسطنطينية قبولا عاماً سريعاً من البابوية والبنادقة والرأى العام فى الغرب الأوروبى جميعا(٥). ولماذا لا يرحب الجميع بغزو القسطنطينية، ويفضلون ذلك عن قصد مصر؟ حقيقة أن فى الاستيلاء على مصر تأمينا للجبهة الجنوبية للصليبيين فى الشام، ولكن أليس فى الاستيلاء على القسطنطينية والدولة البيزنطية أكبر تأمين للجبهة الشمالية للصليبيين؟

---

(1) Heyd: Hist. du Commerce du Levant, p.p. 401-404.
(2) Vasiliev: op. cit, vol 2. p. 458 & Brehier: Vie et Mort de Byzance, p. 366.
(3) cam. Med. Hist: vol 5, p. 329.
(4) O strogorsky: op. cit p.p 368-369 & Brehier: L`Eglise et L`Orient. P. 147.
(5) Runciman: op. cit, III, p.p. 115-116.

حقيقة أن مصر هى المخزن الذى أمد الأيوبيين بالموارد التى استعانوا بها فى محاربة الصليبيين، ولكن أليست الدولة البيزنطية وأراضيها هى الطريق البرى المباشر بين الغرب الأوروبى والأراضى المقدسة فى الشام، وهو الطريق الذى تجب العناية به لحماية خطوط المواصلات بين الصليبيين فى الشرق وقواعدهم الأولى فى الغرب؟.

إن آخر ما يذكره الغرب الأوروبى للدولة البيزنطية هو أن إمبراطورها إسحق الثانى أنجيلوس وضع العراقيل فى وجه الحملة الصليبية الثالثة، ولم يسهل للإمبراطور فردريك بربروسا مهمة عبور أراضى الدولة لمحاربة المسلمين، حتى اضطر فردريك- وهو فى البلقان- إلى أن يبعث إلى ألمانيا يأمر ابنه هنرى بإعداد أسطول لمهاجمة البيزنطيين، كما أرسل إلى البابا يرجوه الدعوة لحملة صليبية ضد الدولة البيزنطية، ويقول إن الحركة الصليبية لن تنجح إلا إذا استولى الصليبيون على القسطنطينية(١). بل لقد حدث أخيراً - سنة ١١٩٥ - أن أرسل إمبراطور القسطنطينية إلى السلطان العزيز عثمان الأيوبى يخبره بنوايا الفرنج ضد مصر، ويتقرب إليه بإفادته أنه أحسن إلى المسلمين فى القسطنطينية وأصلح جامعهم فيها(٢).

الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية:

وهكذا انحرفت الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها الأساسى ورسالتها الدينية، فاتجهت ضد القسطنطينية، واستولى عليها الصليبيون سنة ١٢٠٤ . وعندئذ نسى الصليبيون أنهم فتحوا بلداً مسيحياً، وأنهم اقتحموا أكبر مركز ظل يحمل لواء المسيحية فى الشرق طوال تسعة قرون، وهو المركز الذى لم تفلح محاولات المسلمين المتكررة حتى ذلك الوقت فى الاستيلاء عليه، مما جعل منه البوابة الرئيسة التى تحمى أوروبا المسيحية من جهة الشرق. وكان أن انساح الصليبيون فى طرقات المدينة وشوارعها كالجراد المنتشر، يقتلون من صادفهم من الرجال والنساء والأطفال، بحيث لم يقع بصرهم على تحفة أو ثروة إلا نهبوها، ولم يتركوا أثراً فنياً وأدبياً إلا أفسدوه وخربوه، فشبع منهم من كان جائعاً واغتنى من كان فقيراً. حتى الكنائس والأديرة لم تسلم من عبث الصليبيين، ولم تنج من أيديهم، وهم الذين حملوا شارة الصليب على صدورهم وأكتافهم، وادعوا أنهم خرجوا من بلادهم لخدمة المسيحية ومحاربة المسلمين. وقد

(1) Cam. Med. Hist: vol 5, p. 411.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ص ١٢٩ .

تمنى شاهد عيان– اسمه نقتاس خونياتس– لو كانت العاصمة البيزنطية سقطت فى قبضة المسلمين بدلا من سقوطها فى أيدى الصليبيين. وذكر أن المسلمين عندما استولوا على بيت المقدس لم يفعلوا بالمسيحيين والبيوت المسيحية مثلما فعله الصليبيون بأهل القسطنطينية وكنائسها(١). وحسبنا أن الصليبيين اقتحموا كنيسة القديسة صوفيا وهم سكارى فمزقوا الستائر والبسط والفرش. وداسوا الكتب المقدسة بأقدامهم وحطموا الأيقونات الفضة ذات القيمة الفنية النادرة. والغريب ما يرويه أبو شامة من أن الصليبيين باعوا عندئذ كثيراً من المنهوبات التى استولوا عليها فى القسطنطينية للمسلمين(٢).

وإذا كان هذا هو شأن الصليبيين مع الكنائس، فإنه لم يكن غريباً أن يحرقوا الجامع الذى كان للمسلمين فى القسطنطينية، وهو الجامع القديم الذى بنى فى عصر بنى أمية، والذى سمح الإمبراطور البيزنطى بإقامة الخطبة فيه سنة ١١٨٩ عندما تحسنت العلاقة بينه وبين صلاح الدين(٣)، وعندما أشعل الصليبيون النار فى ذلك الجامع سنة ١٢٠٤، امتدت ألسنة اللهيب إلى المناطق المجاورة وهددت كنيسة أيا صوفيا نفسها، ولم يمكن إخماد النار إلا بعد يومين(٤).

وبعد أن انتهت موجة النهب والسلب، أخذ الشركاء يفكرون فى تقسيم الغنيمة الكبرى فى جو مشبع بروح التباغض بين البنادقة من ناحية والصليبيين من ناحية أخرى. وقد استقر الرأى على اختيار إمبراطور وبطرق جديدين للقسطنطينية، فاشتد التنافس بين زعماء الصليبيين حول الفوز بمنصب الإمبراطورية، حتى انتهى الأمر باختيار بلدوين التاسع– كونت فلاندرز– إمبراطوراً، وتم تتويجه فى كنيسة القديسة صوفيا فى مايو سنة ١٢٠٤ . أما منصب البطرقية فقد اختير له أحد البنادقة– وهو توماس موروسينى– الذى كان أول رجل كاثوليكى يتولى رئاسة كنيسة القسطنطينية(٥).

(1) Vasiliev: op. cit, vol 2. 461.

(٢) وفي شهور هذه السنة، تغلبت طائفة من الفرنج البحرية يعرفون بالبنادقة علي قسطنطينية، وأخرجوا الروم منها بعد حصار وقتال، وحازوا ممتلكاتها وانتهبوا ذخائرها وما حوته كنائسها من آلات ورخام، وحملوه إلي الديار المصرية والشامية فبيع، ووصل منه إلي دمشق رخام كثير، وكان أسامة يعمر داره فحصل منه شيئاً لم يكن قبله مثله، وزخرفها... (أبو شامة: كتاب الروضتين ص ٥٢).

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٣٢٨-٣٢٩ . أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٧٨ .

(4) Brehier: L'Eglise et L'Orient. P. 192.

(5) Ostrogorsky: op. cit, p. 375.

على أن اختيار إمبراطور للدولة وبطرق للكنيسة كان أسهل بكثير من مهمة تقسيم أشلاء الإمبراطورية البيزنطية الساقطة. وهنا لجأ الغزاة الغربيون إلى إقامة دولة إقطاعية وفق النظام الغربى، فأصبح بقية الزعماء والأمراء الصليبيين بمثابة أفصال إقطاعيين للإمبراطور بلدوين، على أن تشمل أملاك الإمبراطور الخاصة القسطنطينية نفسها- ما عدا الحى البندقى، ومعظم تراقيا بما فيه أدرنة، والجزر الواقعة فى الجنوب الشرقى من بحر إيجة- وهى جزر ساموثريس وقوس ولسبوس وساموس وخيوس(١). أما بونيفيس دى مونتفرات فقد أخذ مقدونيا وتساليا، فى حين اقتسم بقية أمراء الحملة الفائض من أراضى الإمبراطورية فى البلقان، كما ظل الباب مفتوحاً أمامهم للتوسع على حساب جيرانهم(٢). ولسنا بحاجة إلى الإشارة إلى أن البنادقة فازوا بنصيب الأسد من تلك الغنيمة، إذ أخذوا حياً كبيراً فى القسطنطينية يباشرون فيه نشاطهم التجارى، واستولوا على معظم الجزائر القريبة من الشاطئ بما فيها جزيرة أيوبيا، هذا زيادة عن بعض المراكز الساحلية فى شبه جزيرة المورة، ورقعة واسعة من الأرض شمالى خليج كورنثة. كذلك ضم البنادقة إلى هذه الممتلكات جزيرة كريت التى اشتروها من بونيفيس دى مونتفرات(٣).

وهكذا غدت الإمبراطورية اللاتينية التى أقامها الصليبيون فى الشرق البيزنطى عبارة عن دولة إقطاعية كبيرة، تعرضت لجميع مساوئ النظام الاقطاعى المعروفة فى الغرب الأوروبى، لاسيما فيما يتعلق بالمنازعات بين الأمراء والأحقاد المستمرة بين الأفصال وأمرائهم(٤). وإذا كانت الإمبراطورية اللاتينية الجديدة قد نجحت إلى حد ما فى كبت هذه المساوئ، فإن هناك إخطاراً أخرى واجهتها، وكان من الصعب التغلب عليها. من ذلك أن زعماء الحملة الصليبية استأثروا وحدهم بالغنيمة، مما ترك صغار الصليبيين فى حالة شديدة من الحنق وخيبة الأمل. هذا بالإضافة إلى روح العداء التى استحكمت بين مختلف العناصر والجنسيات التى تألفت منها الحملة الصليبية الرابعة، كما ظهر ذلك فى المنازعات بين الألمان والبرجنديين، وبين اللمبارديين والفلمنكيين، وبين جميع هؤلاء والبنادقة(٥).

---

(1) Brehier: Vie et Mort de Byzance, p.p. 370-372.
(2) Vasiliev: op. cit, vol 2. p. 493.
(3) Cam. Med. Hist: vol 5, p. 330.
(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 349.
(5) Cam. Med. Hist: vol 5, p. 423.

أما فيما يتعلق بالموقف بين تلك الجموع الغربية اللاتينية من جهة والبيزنطيين الشرقيين من جهة أخرى، فلم تبذل أية محاولة للتوفيق بين الطرفين، ومن ثم ظل التباعد سائداً بين الفريقين. ويبدو أن الغزاة الغربيين كانوا على درجة من الجمود والكبرياء بحيث لم يحاولوا تفهم الحضارة البيزنطية على حقيقتها، فى حين احتقر البيزنطيون أولئك البرابرة الغربيين[١]. والواقع أن البيزنطيين لم يستسلموا لذلك الغزو الكاثوليكى الغربى، وأقاموا عدة ملكيات وإمارات اتصفت بالطابع العنصرى، وذلك فى جبال البانيا وتراقيا والمورة، فضلا عن آسيا الصغرى. وهكذا استمرت الأوضاع حتى استطاع ميخائيل الثامن البيزنطى الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٢٦١؛ وبذلك انتهت الإمبراطورية اللاتينية[٢] التى أقامها الصليبيون فى القسطنطينية سنة ١٢٠٤، وعادت الإمبراطورية البيزنطية إلى سابق عهدها.

نتائج الحملة الصليبية الرابعة:

وبعد؛ فإذا صرفنا النظر عن الدلائل المادية والسياسية للحملة الصليبية الرابعة، ونظرنا إليها من الزاوية الأدبية وحدها، فإننا نجد أن هذه الحملة ارتكبت جرماً بالغاً- لا يغفره التاريخ- فى حق الحضارة الأوروبية وفى حق الفكرة الصليبية ذاتها. وأن ما ارتكبه رجال الحملة الصليبية الرابعة من حماقات ليثبت أن البيزنطيين كانوا على حق عندما نظروا منذ أول الأمر إلى الحروب الصليبية على أنها غزوات بربرية همجية[٣].

أما من ناحية تطور الفكرة الصليبية، فليس هناك من شك فى أن الحملة الرابعة تعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية، إذ فترت بعدها الحماسة الصليبية، واتضح أن المصالح الاقتصادية والتجارية أخذت تحتل المكانة الأولى فى تفكير المعاصرين[٤]. ثم إن الحملة الصليبية الرابعة زادت من البغضاء والعداء بين الكنيستين الشرقية والغربية، وحرمت الصليبيين بالشام من مساعدة إخوانهم المسيحيين فى القسطنطينية وقت الشدة، وجعلت الطريق البرى الى الشام أصعب منالا وأشد خطورة على الصليبيين من ذى قبل[٥]. هذا إلى أن قيام إمبراطورية لاتينية

(1) Ostrogorsky: op. cit, p. 379.

(٢) عن الإمبراطورية اللاتينية التي أقامها الصليبيون في الشرق البيزنطي (سنة ١٢٠٤-١٢٦١) انظر: سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطي ج١ ص ٦٤٣-٦٤٩ (طبعة ١٩٦٦).

(3) Eyre: op. cit, pp. 197-198.

(4) Vasiliev: vol 2. p. 469.

(5) Runciman: op. cit, vol, 3 p. 139.

صليبية فى القسطنطينية والبلقان ترك أثراً خطيراً فى حياة الصليبيين بالشام لأن الإمبراطورية الجديدة بدأت تجتذب كثيراً من المغامرين الغربيين الذين فكروا فى النزوح إلى الشرق، والذين أدركوا أن الحياة فى القسطنطينية- على حطام الإمبراطورية البيزنطية- أنفع وأهدأ بكثير من تلك الحياة القلقة المهددة المليئة بالمتاعب، التى كان يحياها الصليبيون بالشام، بل إن الإمبراطورية اللاتينية التى قامت سنة ١٢٠٤ فى القسطنطينية لم تلبث أن استهوت كثيرين من فرسان الصليبيين فى بلاد الشام ذاتها، فتركوا الممتلكات الصليبية فى الشام تنعى من أقامها، وتسللوا- سراً وعلانية- إما إلى قبرص وإما إلى البلقان لينعموا بقسط من الحياة الهادئة بعيداً عن تهديد المسلمين ومتاعبهم[١]. وهكذا أدت الحملة الصليبية الرابعة- بطريق مباشر أو غير مباشر- إلى إضعاف مركز الصليبيين بالشام، وخراب ديارهم وإقفار بلادهم من المقاتلين، وهى الحملة التى كان مفروضاً فيها أن تنجد الصليبيين بالشام وتخفف عنهم وتدعم مركزهم، وتعينهم على مقاومة الضغط الإسلامى الواقع عليهم. لذلك لاعجب إذا قرر أحد مؤرخى الحروب الصليبية أن الحملة الصليبية الرابعة جاءت نذيراً بفشل الحركة الصليبية بأكملها[٢].

(1) King: The Knights Hospitallers, p. 176.

(2) Grousset: op. cit. Tome III, p. 175.

الفصل الثاني
أحوال الصليبيين بالشام

الصلح بين المسلمين والصليبيين سنة ١٢٠٤:

وفى تلك الأثناء كان الملك عمورى الثانى لوزجنان حريصاً- منذ أن عقد الصلح مع العادل سنة ١١٩٨- على عدم استفزاز المسلمين، وعلى احترام الصلح معهم حتى تأتى الحملة الصليبية الرابعة المزعومة الى الشام[١]، وعندئذ يمكن للصليبيين أن يخوضوا معركتهم ضد المسلمين وهم مطمئنون. من ذلك أن ثلاثمائة فارس من الفلمنكيين وصلوا فى نهاية سنة ١٢٠٢ إلى عكا، ثم لحق بهم فى أوائل العام التالى- سنة ١٢٠٣- بعض جموع صغيرة من الفرنسيين، فاجتمع أولئك الصليبيون ليطالبوا عمورى الثانى بالزحف فوراً ضد المسلمين، ولكن الملك عمورى- وهو الرجل المجرب البعيد النظر- أدرك أن الحماسة وجدها لا تكفى لمحاربة المسلمين، وأن هؤلاء الصليبيين الجدد ليس لهم من وفرة العدد والعدد أو من حسن الزعامة ما يغريه على خرق الهدنة مع المسلمين. لذلك رد عليهم بأنه لا يمكن محاربة الدولة الأيوبية بثلاثمائة فرد، وأشار عليهم بالتريث والصبر لحين تكتمل القوة المناسبة[٢].

على أن الصليبيين المتحمسين لم يستطيعوا مع عمورى صبرا، فاتجه فريق منهم نحو إمارة إنطاكية حيث المجال يسمح بالتنفيس عن طاقتهم الصليبية وحماسهم المكبوتة. وكانت المنطقة الساحلية بين طرابلس والسويدية واقعة تحت سيطرة المسلمين بحكم ملكيتهم لبعض المراكز المهمة فى تلك المنطقة، وأهمها جبلة واللاذقية. ولكن الصليبيين اخترقوا تلك الأراضى فى إصرار وعناد، دون أن يهتموا بالنصيحة[٣]. وفى الوقت نفسه أرسل الداوية رسولا إلى الملك المنصور صاحب حماة يخبره أن أعداداً كبيرة من الصليبيين وصلت من الغرب، وأنهم قاصدون جبلة واللاذقية فى نحو ستين ألف محارب. ومن الواضح أن هذه الأخبار مبالغ فيها، قصد بها الصليبيون إضعاف عزيمة المسلمين، كما قصدوا بها الإرهاب ليجبروا الملك

(1) Stevenson: op. cit, p. 296.
(2) Ernoul, 341 & Eracles p. 247.
(3) Eracles p.p 248-249.

المنصور على مصالحة الصليبيين. ولكن الملك المنصور لم يتأثر لحرب الأعصاب، ورد على رسول الداوية قائلاإنا لا نجزع بما تقول ولا نكترث. ثم تقدم المنصور وأنزل الهزيمة بالصليبيين قرب اللاذقية، وقتل منهم عدداً وساق الأسرى إلى حماة(١).

على أنه ليس معنى حرص عمورى الثانى على احترام الصلح مع المسلمين أنه سمح لهؤلاء بالاعتداء على بلاده وتهديد مصالحه، إذ الواقع أن سياسته اتجهت فى تلك الفترة نحو عدم البدء بالعدوان، مع التأهب لرد أى عدوان من جانب المسلمين. من ذلك أن أميراً مصرياً امتلك قلعة فى منطقة صيدا، دأب على تسليح بعض السفن للقيام بإغارات عدوانية على ممتلكات الصليبيين وسفنهم، حتى إنه استولى على سفينتين للصليبيين قرب شواطئ قُبرص عند نهاية سنة ١٢٠٤(٢). ولم تفلح الشكاوى التى بعث بها عمورى إلى الملك العادل، إذ أعلن الأخير أنه عاجز عن إخضاع ذلك الأمير وكفه عن العدوان. وعندئذ عزم عمورى على الانتقام، فتربص لقافلة من السفن الإسلامية– تبلغ عشرين سفينة– وهى قادمة من مصر إلى موانئ الشام، واستولى عليها بما فيها من بضائع قدرت بنحو ستين ألف دينار، وأسر بحارتها الذين بلغ عددهم المائتين(٣). وبعد ذلك شرع عمورى فى القيام بإغارة على إقليم الجليل مستعيناً بالداوية والاسبتارية، فضلا عن فرسان عكا. ويروى ابن الأثير أن الصليبيين أوغلوا عندئذ حتى كفر كنا– على الطريق بين عكا وطبرية– وأنهم أخذوا كل من بها وأموالهم، بل إنهم عزموا على قصد بيت المقدس لأخذها من المسلمين(٤). وكان أن خرج الملك العادل من دمشق وكتب إلى سائر البلاد يستدعى الجند، ثم نصب معسكره عند جبل الطور، جنوبى كفر كنا. على أنه يلاحظ أن الموقف بين المسلمين والصليبيين تجمد عندئذ فاستمرت الحال على ذلك إلى آخر السنة(٥)، ورفض العادل أن يستجيب لإلحاح أمرائه الذين استحثوه على قصد بلادهم ونهبها، فلم يفعل(٦).

ومن الواضح أن الاعتقاد فى قرب وصول الحملة الصليبية الرابعة إلى الشام أو

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ١٤٣–١٤٨ .

(2) King: The Knights Hospitallers, p. 175.

(3) Eracles p. 359 & Ernoul, p. 355.

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦٠٠ هـ.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص١٥٩ .

(٦) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦٠٠ هـ.

مصر كان له أثره فى جعل كل من المسلمين والصليبيين يؤثرون عدم القيام بعمل حربى حاسم ضد الطرف الآخر. حقيقة أن الأخبار وصلت إلى الشام بنزول الصليبيين فى القسطنطينية. ولكن الجميع ظنوا أن الصليبيين سيحضرون بعد ذلك إلى الشام، وأن القسطنطينية ليست إلا محطة فى طريقهم إلى الهدف النهائى. ولهذا السبب رأى الملك عمورى الثانى أنه ليس من السياسة أن يغامر فى حرب جدية ضد المسلمين قبل وصول الحملة الصليبية الرابعة. فى حين رأى العادل أنه من الخطأ أن يستنفد قواته فى مناوشات محلية، بينما هناك حملة صليبية كبرى فى طريقها إلى بلاد المسلمين، ستتطلب منه كل مدخر من طاقة وجهد. هذا إلى أنه لو فرض وأن العادل دخل ضد عمورى فى حرب وانتصر عليه، فإن ذلك كان سيؤدى إلى لفت الغرب الأوروبى والصليبيين فى القسطنطينية إلى ما يجرى من أحداث فى الشام، مما يجعلهم يسرعون إلى الشام لإنقاذ الصليبيين. ولذلك أظهر الطرفان قدراً كبيراً من الحرص والحكمة والمرونة فى تلك الآونة بالذات[١].

غير أن عمورى الثانى وجد أنه لابد من القيام ببعض المظاهرات العسكرية ليحفظ مكانته أمام الصليبيين جميعاً، ومن تلك المظاهرات خروج عشرين سفينة صليبية من عكا فى ٢٠ مايو سنة ١٢٠٤ لمهاجمة الدلتا، فدخلت فرع رشيد، حيث أقام الصليبيون خمسة أيام يسلبون وينهبون، وبعد أن نهبوا مدينة فوة بالذات عادوا ومعهم الأسرى والغنائم إلى الشام[٢]. وجدير بالذكر أن أبا شامة أبدى ملاحظة لها أهميتها، هى أن تلك الحملة البحرية على الدلتا كانت استكشافية، الغرض منها التمهيد لفتح الديار المصرية، وهو ما حدث فعلا فى الحملة الصليبية الخامسة على مصر سنة ١٢١٧-١٢١٩[٣].

ثم إن المناوشات بين المسلمين والصليبيين لم تنقطع أيضاً فى تلك الفترة فى شمال الشام بفضل ما قام به فرسان الاسبتارية فى حصن الأكراد وحصن المرقب من إغارات دائمة على أراضى المنصور الأيوبى صاحب حماة، ليضطروه إلى تسليم حصن بعرين[٤]. وقد استعان الملك المنصور بقوات بعلبك وحمص، وبذلك أمكنه

---

(1) Grousset: op. cit. III, p. 181.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦٠٠ هـ. أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٠٠ هـ.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ص ٥٠ .

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ١٤٨ .

إنزال هزيمة بالاسبتارية المعتدين فى منتصف مايو سنة ١٢٠٣، ثم هزمهم مرة أخرى هزيمة شنيعة فى أوائل الشهر التالى(١). على أن الاسبتارية لم يرضوا بتلك الهزيمة فجددوا الكرة فى العام التالى وأنزلوا الهزيمة بجيوش الملك المنصور وأوغلوا فى أراضيه حتى وصلوا إلى أبواب حماة نفسها، فنزلوا بضيغة قريبة جداً من الباب الغربى(٢). ويضيف المقريزى أن الصليبيين أغاروا فى تلك السنة أيضاً (١٢٠٤-١٢٠٥) على إقليم حمص حيث قتلوا عدة من المسلمين وغنموا وسبوا شيئاً كثيراً(٣). وعندما اشتدت إغارات الصليبيين على جبلة واللاذقية، أرسل الملك الظاهر صاحب حلب حملة كبيرة ضد حصن المرقب (١٢٠٤-١٢٠٥) فحاصروا الحصن وهدموا برجه وعاد العسكر بعد أن كادوا يفتحون الحصن وأيديهم ملآنة الغنائم(٤).

ولم يلبث أن فقد الملك عمورى الثانى كل أمل فى وصول مساعدة سريعة فعالة من الغرب بعد أن تأكدت لديه أخبار الحملة الصليبية الرابعة، وما كان من اتجاهها نحو القسطنطينية واستقرارها نهائيا هناك. هذا إلى أن بلدوين دى فلاندرز إمبراطور الدولة اللاتينية الجديدة فى القسطنطينية شرع فعلا فى منح إقطاعات فى البلقان لكثير من الفرسان الصليبيين الذين هجروا بلاد الشام إليه، الأمر الذى أضعف من قوى الصليبيين ببلاد الشام وأشعر عمورى الثانى بضرورة الإسراع فى عقد الصلح مع المسلمين(٥). وكان الملك العادل من ناحية أخرى لا يقل رغبة فى عقد الصلح مع الصليبيين، واتباع سياسة مع الغرب الأوروبى تقوم على أساس من التسامح الدينى والعناية بالتبادل التجارى(٦). وهكذا تم الصلح بين الصليبيين والأيوبيين فى سبتمبر سنة ١٢٠٤، وهو صلح حقق للصليبيين كثيراً من المزايا والامتيازات(٧).

ذلك أن الملك العادل ترك للصليبيين - بمقتضى ذلك الصلح- النصف

(١) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٠٠ هـ.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦٠٠ هـ. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ١٦٣ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣ ص ١٦٤,

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ١٦٥ .

(5) Ernoul, ps. 378, 390.

(6) Grousset: op. cit. III, p. 184.

(٧) لم تشر المصادر العربية إشارة واحدة إلي مدة هذا الصلح، فابن الأثير اكتفي بعبارة فاصطلح هو والفرنج. (الكامل، حوادث سنة ٦٠٠ هـ). و ابن واصل: قال تقررت بينهم وبينه هدنة مدة اتفق عليها. (مفرج الكروب ج٣ ص ٩٦٣). والمقريزي: قال تقررت الهدنة مدة. أما المصادر الصليبية فقالت إن مدة الصلح التي اتفق عليها كانت ست سنوات. Ernoul, p. 360 & Eracles II. p. 363.

الخاص بالمسلمين فى صيدا واللد والرملة. كما أعطاهم الناصرة لتسهيل مهمة الحجاج المسيحيين[١]. وفى رواية أبى الفدا والمقريزى وابن واصل أن العادل وافق فى ذلك الصلح على رد يافا للصليبيين، وهى التى كان العادل قد استولى عليها منهم فى أواخر سنة ١١٩٨، كما مر بنا[٢].

انفصال تاجي قبرص وبيت المقدس:

ولم يكد يتم إبرام الاتفاقية السابقة، حتى توفى عمورى الثانى لوزجنان فى أوائل أبريل سنة ١٢٠٥، بسبب أكلة سمك فى عكا. وإذا كانت وفاته المفاجئة فى تلك الظروف قد جاءت خسارة كبرى لمملكة بيت المقدس والصليبيين بالشام، نظراً لما امتاز به من عقل ومقدرة فائقة[٣]؛ فإن ثمة أهمية أخرى لتلك الوفاة هى ما ترتب عليها من انفصال عرى الوحدة بين تاجى مملكة قبرص ومملكة بيت المقدس فى عكا[٤]. ذلك أن مملكة عكا الصليبية عادت إلى صاحبتها إيزابيل ثم إلى كبرى بناتها من هنرى دى شامبنى واسمها مارى، فى حين آل عرش قبرص إلى هيو الأول ابن عمورى، وهو صبى دون العاشرة من عمره[٥].

ولما كانت مارى وريثة عرش مملكة بيت المقدس دون سن الرشد هى الأخرى- إذ كانت فى الرابعة عشرة من عمرها- فقد وضعت المملكة تحت وصاية حنا الأول دى إيلين حاكم بيروت، وكان رجلا عاقلا متزناً فمرت فترة وصايته (١٢٠٥-١٢١٠) فى هدوء وسلام[٦]. على أن الأمر لم يخل من اشتباكات محلية بين المسلمين والصليبيين فى تلك الفترة وبخاصة فى منطقة طرابلس، حيث أراد الاسبتارية فى حصن الأكراد الاستيلاء على مدينة حمص سنة ١٢٠٦-١٢٠٧ . ثم كان أن تكررت هجمات الاسبتارية على حمص فى العام التالى، وفى تلك المرة وصلوا الى أسوار حمص ذاتها ومعهم آلات الحصار للاستيلاء على المدينة[٧].

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦٠٠ هـ.

(٢) وشرطوا أن تكون الهدنة بين الملك العادل والفرنج وسلم إلي الفرنج يافا ونزل عن مناصفات لد والرملة. (أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٠١ هـ). وفيها تم الصلح بين الملك العادل وبين الفرنج، وتقررت الهدنة مدة، وشرطوا أن تكون يافا لهم مع مناصفات لد والرملة، فأجابهم العادل إلي ذلك. (المقريزي: السلوك، ج٣ ص ١٦٤).

(3) King: op. cit, p. 176.

(٤) سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية، ص ٣٨ .

(5) Cam. Med. Hist: vol 5, p. 314.

(6) Setton: op, cit, II. P. 532.

(٧) أبو شامة: كتاب الروضتين، ص ٥٧، ٦٧ .

ويضيف ابن الأثير أن صاحب حمص- المجاهد أسد الدين شيركوه الثانى- استنجد بالملك الظاهر صاحب حلب الذى سير له عسكراً أقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته(١).

وحوالى ذلك الوقت- أى فى شتاء سنة ١٢٠٧- استولى بعض قراصنة الصليبيين من جزيرة قبرص على عدة سفن من أسطول مصر وأسروا من فيها، فغضب السلطان العادل لذلك وخرج على رأس جيش من مصر قاصداً عكا، علما منه أن حنا دى إيلين- الوصى على مملكة بيت المقدس- هو القوى الكبرى الممثلة للصليبيين فى الشرق(٢). وكان أن أرسل العادل إلى الوصى يذكره بالمعاهدة القائمة بين المسلمين والصليبيين، وأن من واجبه بوصفه كبير الصليبيين بالشرق، أن يوقف القبارصة عند حدهم، ولكن الوصى أجاب بأن أهل قبرص ليس لى عليهم حكم، وأن الفرنجة ببلاد الشام لا يتحملون بأى حال مسئولية ما يأتيه قراصنة قبرص من أعمال، ثم أنهى الأشكال أخيراً برد أسرى المسلمين(٣). ولعل قناعة العادل بذلك الحل وإمعانه فى مسالمة الصليبيين كان شيئاً لا يتفق بأى حال وحماسة المسلمين المعاصرين ورغبتهم فى الجهاد، وهى الحماسة التى عبرت عن نفسها فى اجتماعات المسلمين فى جوامع دمشق ونابلس عندئذ كما وصفها أبو شامة(٤).

ثم كان أن انتقل العادل إلى منطقة حصن الأكراد لمحاولة إرهاب الاسبتارية وإبعاد خطرهم عن حمص. وقد نصب العادل معسكره عند بحيرة قدس قرب حمص(٥)، ومن هناك استدعى الملوك من أهل بيته والعساكر، فأتى إليه الملك المنصور صاحب حماة والملك المجاهد صاحب حمص والملك الأمجد صاحب بعلبك، فضلا عن النجدات التى أرسلها ابن أخيه الملك الظاهر صاحب حلب، وأمراء سنجار والموصل والجزيرة وآمد(٦). وعندما اجتمعت لدى العادل قوة بلغت نحواً من عشرة

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦٠٤ هـ. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ١٦٨ .

(٢) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٣٩ .

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦٠٤ هـ.

(٤) روي أبو شامة أنه اجتمع بجامع دمشق أكثر من ثلاثين ألفاً، وأن امرأة قطعت شعرها وبعثت به إلي العادل وقالت أجعله قيداً لفرسك في سبيل الله. (كتاب الروضتين، ص ٧٩-٧٠).

(٥) أبو المحاسن: النجوم، ج٦ ص ,١٩٦

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ١٧٢-١٧٣ .

آلاف فارس، أشاع أنه سيقصد طرابلس، ولكنه قصد حصن الأكراد (يونية سنة ١٢٠٧)، فنازله وأسر خمسمائة رجل، وغنم[١]. غير أن العادل لم يستطع الاستيلاء على حصن الأكراد لحصانته، فاكتفى بالاستيلاء على برج أعناز إلى الجنوب الشرقى من حصن الأكراد، وأسر حاميته وغنم منه أموالا وسلاحاً كثيراً[٢].

وبعد ذلك زحف العادل على طرابلس فى يولية سنة ١٢٠٧ ونصب عليها المجانيق وضيق على أهلها، وعاشت العساكر فى قرى طرابلس وبساتينها.. وقطعوا العين الواصلة إليها وخربوا طرقها[٣]. ويضيف ابن الأثير أن السلطان العادل استولى أثناء زحفه على طرابلس على موضع يسمى القليعات، وهى قلعة صغيرة للصليبيين شمالى عرقة. وقد اكتفى العادل- طبقاً لسياسته المعتدلة تجاه الصليبيين- بتخريب المكان، والاستيلاء على ما فيه، وإطلاق سراح حاكمه[٤].

ومهما يكن من أمر، فإن تلك الحملة التى قام بها العادل على إمارة طرابلس لم تستغرق أكثر من اثنى عشر يوماً، أسرع بعدها بوهيموند الرابع صاحب طرابلس إلى طلب الصلح وسير مالا وثلاثمائة أسير وعدة هدايا[٥] فأجابه العادل إلى ملتمسه[٦]. وهكذا ظلت سياسة العادل تجاه الصليبيين بالشام تتسم بوجه عام بطابع التسامح والبعد عن التشدد.

حنا دي برين ملك بيت المقدس:

وفى سنة ١٢٠٨ بلغت مارى – الوريثة الشرعية لمملكة بيت المقدس الصليبية- سن الرشد، فبدأت مشكلة البحث لها عن عريس مناسب، له من الخبرة والكفاية ما يمكنه من حماية مصالح الصليبيين والدفاع عن كيانهم بالشام[٧]. وكان من الطبيعى أن يتنافس أمراء الصليبيين بالشام- وعلى رأسهم الوصى حنا دى إيلين- على الزواج من الأميرة الشابة، فانعقد مجلس فى عكا يرأسه البطريق لبحث الموضوع، ورأى

(١) المقريزي: السلوك، ج٣ ص ١٦٦،
(٢) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٠٣ هـ.
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ١٧٣،
(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦٠٤ هـ.
(٥) المقريزي: السلوك، ج١ ص ١٦٦ .
(٦) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٠٤ هـ.

(7) Runciman: op. cit, III, p. 132.

المجتمعون الرجوع إلى فيليب أوغسطس ملك فرنسا ليتولى هو اختيار الزوج المناسب[١]. وعندما وصلت السفارة الصليبية إلى فرنسا، اختار فيليب ملك فرنسا حنى دى برين، الذى كان فى الستين من عمره. وكان التفاوت فى السن واضحا بين حنا دى برين وعروسه التى لم تبلغ العشرين بعد. ولكنه كان يجمع فى شخصه الصفات اللازمة للصليبيين بالشام[٢]. وفى سبتمبر سنة ١٢١٠ وصل العريس العجوز المفلس إلى عكا. بعد أن زوده كل من البابا وملك فرنسا بمبلغ من المال يستعين به على مطالب الزواج، فاستقبل بالترحاب من جميع الطوائف. ولم يلبث حنا دى برين أن تزوج من عروسه الشابة بعد قليل، ثم توج ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية فى كاتدرائية صور فى أوائل أكتوبر[٣].

على أنه فى الوقت الذى توج حنا دى برين فى صور، كانت الهدنة بين الصليبيين والمسلمين قد انتهت فى يولية سنة ١٢١٠، فأرسل العادل إلى عكا يطلب تجديدها، ووافق حنا دى برين وبقية طوائف الصليبيين، من اسبتارية وتيتون وغير ذلك. ولكن الداوية اختاروا بحماقتهم المعهودة استئناف الحرب ضد المسلمين، أو على الأقل عدم تجديد الهدنة حتى لا يرتبط الملك الجديد بسياسة معينة[٤]. ويبدو أن الداوية قاموا فعلا ببعض الأعمال الاستفزازية فى تلك الفترة[٥]، الأمر الذى استدعى خروج الملك المعظم– ابن العادل– على رأس جيوشه قاصداً عكا. واشترك معه فى تلك الحملة المؤرخ سبط بن الجوزى الذى أفاض فى وصف حماسة الدماشقة ورغبتهم فى الجهاد، حتى إن النساء قطعن شعورهن ليجدلنها حبالا للمجاهدين. وقد أخذ المعظم هذه الشعور وهو بجامع نابلس وجعلها على وجهه وجعل يبكى، وكان يوماً عظيماً، كما وصف الغنائم التى حصل عليها المسلمون وما أنزلوه بضياع الصليبيين القريبة من عكا من خسائر[٦].

---

(1) Eracles, II, p. 306.

(2) Cam. Med. Hist: vol 5, p. 314.

(3) Eracles p. 310.

(4) King: op cit, p. 318.

(٥) يذكر المقريزي في حوادث سنة ٦٠٧هـ، وفيها تحرك الفرنج ثانياً، فتجهز العادل للسفر إلي الشام. (السلوك ج١ ص ١٧١).

(٦) أبو شامة: كتاب الروضتين، ص ٦٩–٧٠ . فأخربنا وهدمنا وقطعنا أشجارها، وأسرنا جماعة، ولم يتجاسروا أن يخرجوا من عكا.

وإذا كان الملك المعظم قد اكتفى بذلك وتراجع عن عكا، فإنه لم يلبث أن أقام فوق جبل الطور- وهو جبل عال مطل على عكا بالقرب منها وهناك أنشأ قلعة قوية تشرف على إقليم الناصرة وتحمى إقليم الجليل من أية إغارة مقبلة من جانب الصليبيين. وقد اهتم العادل اهتماماً كبيراً ببناء تلك القلعة وأحضر الصناع من كل بلد، واستعمل جميع أمراء العسكر فى البناء ونقل الحجارة[١]. ولما فرغ من بنائها شحنها بالرجال والذخائر والسلاح، مما أثار الرعب فى قلوب الصليبيين، وجعلهم يحسون بأن العادل ينوى القيام قريباً بعمل خطير ضدهم[٢]. وإزاء ذلك لم يسع الداوية سوى أن يخضعوا لرأى بقية طوائف الصليبيين ويقروا مبدأ الصلح مع المسلمين. وكانت الهدنة التى عقدت فى يولية سنة ١٢١١ بين الملك العادل والملك حنا دى برين لمدة ست سنوات(١٢١١-١٢١٧).

ولم تلبث مارى- ملكة مملكة بيت المقدس- أن توفيت سنة ١٢١٢ حزينة على شبابها الضائع، ولكن بعد أن كانت قد أنجبت من زوجها الكهل طفلة اسمتها إيزابيلا أويولاند. وهكذا تعرض عرش المملكة الصليبية مرة أخرى للذبذبة. وساء موقف حنا دى برين الذى كان قد تولى الحكم بوصفه زوجاً للملكة، ولكنه بعد وفاتها لم تعد له صفة شرعية، وذلك وفقاً للقواعد والأصول الإقطاعية. غير أنه تم الاتفاق بسرعة على أن يقوم حنا دى برين بالوصاية على المملكة وعلى ابنته يولاند حتى تبلغ سن الرشد[٣]. وقد حرص حنا دى برين على ألا يضيع سنوات الهدنة مع المسمين سدى، وإنما أخذ يعمل لتصفية مشاكل الصليبيين الداخلية، ويمنيهم بمشروعه لغزو مصر. وكان حنا دى برين قد بادر- عقب عقد الهدنة السابقة مع العادل- بإرسال الرسل إلى روما يطلب إعداد حملة جديدة بحيث تصل الى الشرق عند انتهاء أجل الهدنة[٤].

على أنه يلاحظ أن الهدنة السابقة كانت طويلة المدى، وأن كثيراً من الصليبيين- وبخاصة المنظمات العسكرية كالداوية والاسبتارية- رأوا أنهم لا يستطيعون البقاء عاطلين دون حرب طوال تلك المدة. لذلك شغل الداوية أنفسهم

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣ ص ١٧٦ .
(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٩٠٦ هـ. ابن واصل ج٣، ص ٢١٥-٢١٦ .
(3) Runciman: op. cit, III, p.p. 134.
(4) Eracles p. 317.

عندئذ بمساعدة بوهيموند أمير طرابلس فى الحرب التى قامت بينه وبين ليو الثانى ملك أرمينية حول وراثة حكم إنطاكية، وهى الحرب التى استعان بوهيموند فيها بالأتراك السلاجقة وبالظاهر ملك حلب[١]. أما الاسبتارية فقد استغلوا تلك الهدنة أيضا فى العمل على الجبهة الأرمينية، ولكن ليس فى محاربة الأرمن- كما فعل الجاوية- وإنما فى مساعدتهم فى حربهم ضد سلاجقة الروم، الأمر الذى جعل الملك ليو الثانى الأرمنى يضفى على فرسان الاسبتارية كثيراً من الامتيازات والمنح[٢]. وبفضل مساعدة الاسبتارية، تمكن ليو الثانى ملك أرمينية الصغرى من إنزال الهزيمة بالسلطان عز الدين كيكاوس سلطان سلاجقة الروم وانتزاع عدة مدن مثل هرقلة وقرمان، إلى الجنوب الغربى من قونيه(سنة ١٢١١)[٣].

وهكذا مرت الهدنة بين المسلمين والصليبيين بسلام، فيما عدا مناوشات بسيطة قامت بسبب الإسماعيلية الباطنية فى منطقة طرابلس. ذلك أن الباطنية قتلوا سنة ١٢١٣- فى كنيسة أنطرطوس- ريموند، الابن البكر لبوهيموند الرابع أمير إنطاكية وطرابلس[٤]. وكان عمره ثمانى عشرة سنة، فاهتز الصليبيون لتلك الجريمة. ويبدو أن المحرض للباطنية على ذلك الجرم كانوا فرسان الاسبتارية، أعداء بوهيموند الرابع[٥]. وقد أراد بوهيموند أن ينتقم لمقتل ابنه فأغار على قلاع الباطنية ونازل قلعة الخوابى بالذات، فحاصرها حصاراً شديداً[٦]. وعندئذ استنجد الباطنية بالملك الظاهر ملك حلب الذى أرسل قوة من مائتى محارب لحماية حصن الخوابى، وفك حصاره، وبعث الظاهر إلى الفرنج يعلمهم أنه لا يمكنهم من الإسماعيلية، فرحلوا إلى إنطاكية[٧].

وما كاد ينتهى أجل الهدنة المعقودة بين السلطان العادل والصليبيين حتى كانت خطة حنا دى برين قد أثمرت، وظهر أن استغاثته بالغرب قد أفلحت، فأخذت بعض الجموع الصليبية تشق طريقها إلى الشرق. وقبل أن نتكلم عن تلك الجموع التى

---

(١) انظر الفصل الأول من الباب الخامس عشر.

(2) King: The Knights Hospitallers, p. 185.

(3) Tournebize: Hist de I'Armenie. P. 190.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ٢١٩ .

(5) Runciman: op. cit, III, p.p. 138.

(٦) ويروي المقريزي أن بوهيموند الرابع صاحب طرابلس لم يقم وحده بتلك الهجمات علي الباطنية وإنما شاركه فيها، فرنج قبرص وعكا وطرابلس. (السلوك، ج١ ص ١٧٩- تحقيق محمد مصطفي زيادة).

(٧) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٢٢٤ .

وصلت إلى بلاد الشام فعلا سنة ١٢١٧، يصح أن نشير إلى حلقة طريفة فى تاريخ الحركة الصليبية، وهى فى الوقت نفسه لا تخلو من أهمية نظراً لأنها تعطينا صورة واضحة عن مستوى تفكير المعاصرين فى غرب أوروبا وعقلية القائمين على أمر الدعوة الصليبية.

حملة الأطفال سنة ١٢١٢:

كانت حملة الأطفال من أغرب الحملات التى شهدها تاريخ الحركة الصليبية بأكمله. لذلك أن صبياً فى الثانية عشرة من عمره اسمه ستفن ظهر عند سانت دنيس بفرنسا، حيث كان الملك فيليب أوغسطس عاقداً مجلسه، وقدم للملك رسالة قال فيها إن المسيح سلمه إياها بنفسه أثناء قيامه برعى أغنامه، وأنه أمره فى هذه الرسالة بأن يقوم الأطفال وحدهم بحملة صليبية(١).

ولم يلق الملك فيليب اهتماماً كبيراً لذلك الصبى، ولكن ستفن أصر على الدعوة، وأخذ ينادى بأنه سينجح ومعه إخوته الأطفال الأبرياء فى إنقاذ المسيحية وفى استرداد الأراضى المقدسة، وأنهم إذا ما زحفوا إلى الشام ستنشق أمامهم البحار- كما انشق البحر الأحمر أمام موسى- ليصلوا إلى هدفهم سالمين. وهكذا أخذ ستفن يجوب أنحاء فرنسا يدعو لحملته، حتى اجتمع حوله عدد كبير من الأطفال قدرتهم المراجع بخمسين ألف طفل، كلهم دون الثالثة عشرة(٢). وكان بين أولئك الأطفال عدد من أبناء الأمراء وعدد من البنات، فزحفوا جميعاً عن طريق تورز وليون إلى مرسيليا مشياً على الأقدام.

وقد ساعد المستوى الفكرى للناس فى العصور الوسطى على الاعتقاد فى صحة دعوة ستفن، وفى أن أولئك الأطفال سيحققون من الأعمال ضد المسلمين ما عجز عنه الكبار، فاستقبلهم أهل مرسيليا استقبالا هائلا، وأقبل الناس جميعاً نحو شاطئ البحر ليروا المعجزة قد تحققت بانشقاق البحر أمام أطفال المسيح، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، مما أثار شعوراً بخيبة الأمل. وبعد أن بقى الأطفال بضعة أيام فى مرسيليا، تطوع اثنان من أثرياء التجار بنقلهم إلى الشرق، إذ ربما تحققت المعجزة فى الأراضى

(1) Setton: op, cit, II. P. 330.
(2) King: op. cit, p. 186.

المقدسة واستطاع أولئك الأطفال أن ينزلوا الهزيمة بالمسلمين، وفعلا حملتهم سبع سفن كبار، أبحرت بهم فى عرض البحر. ومن ذلك الوقت لم يسمع الغرب شيئاً عن مصير أولئك الصغار[١].

ولم تلبث أن انتقلت العدوى إلى ألمانيا بعد بضعة أسابيع من رحيل ستفن ورفاقه، فظهر فى حوض الراين صبى اسمه نيقولا، قام بدعوة مشابهة، ونادى بأن الأطفال قادرون على أن يحققوا ما عجز عنه الكبار، وبأن البحر سينشق أمامهم ليصلوا إلى مأربهم، ولكن الأطفال الألمان لم يلجأوا- مثل إخوانهم الأطفال الفرنسيين- إلى غزو الأراضى المقدسة بالقوة، وإنما نادوا بأنهم سينجحون فى تحويل المسلمين جميعا إلى المسيحية عن طريق التنصير.. وهكذا لم يلبث أن اجتمع بضعة آلاف من الأطفال الألمان فى كولونيا، ومنها زحف عشرون ألفاً - بزعامة نيقولا نفسه- إلى ايطاليا عن طريق ممرات الألب[٢] وكانت الرحلة شاقة، فلم يصل من الأطفال إلى جنوا إلا ثلثهم تقريباً، فى حين هلك الباقون فى الطريق. وقد تخلف بعض الأطفال الألمان فى إيطاليا ولم يستطيعوا مواصلة الرحلة فتبناهم الإيطاليون، فى حين ركب فريق منهم السفن وأبحروا من بيزا وبرنديزى قاصدين الشرق.

وحتى الآن لا يعرف التاريخ شيئا ثابتاً عن مصير أولئك الأطفال الفرنسيين والألمان الذين ركبوا البحر قاصدين الشرق، وإن كانت بعض الروايات تشير إلى أن الأمواج قذفت بهم على شواطئ شمال إفريقية حيث بيعوا فى أسواق الرقيق، وحمل بعضهم إلى الإسكندرية وبغداد[٣].

الحملة الهنغارية سنة ١٢١٧:

على أن البابوية لم تكن لتقنع بتلك الجهود التى قام بها الأطفال، وإنما دعا البابا أنوسنت الثالث لحملة صليبية جديدة ١٢١٣، وقال فى بيانه إن المسلمين بنوا حصناً جديداً على جبل الطور، وهو المكان الذى شهد عظمة المسيح ومجده، وأنهم باتوا يهددون عكا، وهى آخر ما تبقى من مملكة بيت المقدس[٤]. وفى تلك المرة أعلن

(1) Runciman: op. cit, III, p.p. 139-144.
(2) Michaud: op. cit, III, p. 378 & Setton: op, cit, II. P.p. 333-334.
(3) Setton: op, cit, II. 336.
(4) Michaud op. cit, III, p. 380.

البابا أن الحملة الصليبية الجديدة يجب أن تتجه نحو الشام مباشرة لتعويض الجهد الذى بدده رجال الحملة الرابعة فى القسطنطينية. وهكذا أخذت الاستعدادات تجرى فى الغرب الأوروبى للحملة المنتظرة، وكانت النية متجهة إلى أن يشترك فيها البابا أنوسنت الثالث نفسه، لولا وفاته سنة ١٢١٦[١].

وكان أن وصلت الحملة المنتظرة الصليبية إلى الشام فى خريف ١٢١٧، وجلها من الهنغاريين والألمان تحت زعامة ليوبولد السادس دوق النمسا، وأندرية الثانى ملك هنغاريا، ثم لحق بهما هيو ملك قبرص، وفى نهاية أكتوبر ١٢١٧ عقد مجلس الحرب فى عكا، واتفق فيه زعماء الصليبيين على البدء بمهاجمة القلعة الجديدة التى شيدها العادل على جبل الطور للسيطرة على إقليم الجليل[٢].

وعندما علم العادل بحركة الصليبيين، أتى مسرعاً من مصر، فمر فى طريقه بالرملة واللد ومنها إلى نابلس مؤملا أن يقطع الطريق على الصليبيين عند عين جالوت.. ولكنه وجد أن الصليبيين سبقوه الى تلك المنطقة، فآثر الارتداد إلى بيسان قرب مصب نهر جالوت[٣]. وكان الملك المعظم ابن العادل يبغى قتال الصليبيين مباشرة، وعارض أباه فى انسحابه إلى بيسان، ولكن العادل نهر ابنه وشتمه بالعجمية وقال له: أقاتل؟ أقطعت الشام مماليكك، وتركت من ينفعنى من أبناء الناس![٤] ثم كان أن فوجئ العادل باتجاه الصليبيين نحو بيسان وعدتهم ألف من الفرسان وثمانية آلاف من المشاة[٥]، وعندئذ خشى عن لقيهم ولم يتكامل عنده العساكر الإسلامية أن يكسروه فاتجه صوب دمشق ونزل عند مرج الصفر[٦].

وكان انسحاب العادل من بيسان مخيباً لآمال أهلها الذين لم يستطع الفرار منهم سوى قلة قليلة[٧]، فى حين وجد الصليبيون المدينة خالية من كل وسائل الدفاع،

(1) Grousset: op. cit. III, p. 196.

(2) Brehier: L'Eglise et L'Orient. P. 191-192.

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤ هـ. المقريزي: السلوك، ج٣ ص ١٨٦ .

(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين، ص ١٠٢ . المقريزي: السلوك، ج٣ ص ١٨٦ . وتفيد هذه العبارة أن أبناء البيت الأيوبي– وهم أكراد الأصل– كانوا لا يزالون يتكلمون بلسان غير عربي إذا أرادوا ألا يفهم كلامهم أحد من رفقائهم العرب أو الأتراك.

(5) Eracles, II, p.p. 323-324.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ٢٥٥–,٢٦٥

(٧) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤ هـ.

فاستولوا عليها وعلى المنطقة المحيطة بها وغنموا منها غنائم وفيرة، إذ وجدوا بها من الأسواق والغلال والمواشى شىء لا يعلمه إلا الله تعالى(١). وفى ١٠ نوفمبر سنة ١٢١٧ عبر الصليبيون الأردن وأوغلوا حتى وصلوا إلى نوى (٢). وبعد أن حاصر الصليبيون بانياس ثلاثة أيام، عادوا إلى عكا مرة أخرى عبر الأردن ومعهم من الغنائم والسبى ما لا يحصى، سوى ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا(٣).

وفى تلك الأثناء عم الهلع المدن الإسلامية بالشام، فأرسل العادل ابنه المعظم لإعداد الدفاع عن بيت المقدس، كما أصدر تعليماته لحماية دمشق وإفساد ما حولها من مزارع وعيون ومروج ففرح الناس وابتهلوا إلى الله، وكثر ضجيجهم بالجامع(٤). أما العادل نفسه فقد بقى فى مرج الصفر يرقب الموقف ويتأهب للطوارئ، وكتب إلى ملوك الشرق يدعوهم لنجدته، فكان أول من وصل إلى دمشق أسد الدين شيركوه صاحب حمص ومعه رجاله، ففرح أهل دمشق لتلك النجدة، وولم يبق بالبلد أحد إلا خرج لتلقيه وكان يوماً مشهوداً(٥).

أما الصليبيون، فبعد أن استراحوا بعض الوقت فى عكا اتجهوا لحصار الصحن الذى بناه المسلمون على جبل الطور(٦). وقد استمر حصار الصليبيين للحصن من ٢٩ نوفمبر حتى ٧ ديسمبر سنة ١٢١٧، هاجموا خلالها القلعة هجوماً عنيفاً وكادوا يملكونها، ولكنهم مع ذلك لم يفلحوا فى الاستيلاء عليها، فعادوا أدراجهم خائبين إلى عكا(٧). ولما رأى الملك العادل مدى المتاعب التى سببتها له القلعة الجديدة خربها إلى أن ألحقها بالأرض لأنها بالقرب من عكا ويتعذر حفظها(٨).

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ص ١٠٢ .

(٢) أبو الفدا: المختصر، ص ١٤، أبو شامة: كتاب الروضتين، ص ١٠٢–١٠٣ ونوي بليدة من أعمال حوران..

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ٢٥٥ . ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤ هـ. Eracles p. 324.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٣ ص ١٨٦ .

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ١٠٢ .

(٦) ولم يشترك ملك هنغاريا مع بقية الصليبيين في حصار حصن الطور. انظر King: op. cit, p. 188.

(٧) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ٣٥٧ . ويروي المقريزي وابن واصل أن سبب انصرافهم عن قلعة الطور أن بعض ملوكهم قتل هناك أثناء حصارهم لها.

(٨) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤ هـ. ويذكر أبو شامة أن العادل استدعي ولده المعظم وقال:قد بنيت هذا الطور وقد يكون سبباً لخراب الشام... ورأي من المصلحة خرابه ليتوفر من فيه من المسلمين والعدد علي حفظ دمياط. ويفهم من هذا النص أن هدم حصن الطور لم يتم إلا بعد أن لاح الخطر الصليبى علي دمياط كما سيلي فيما بعد. (أبو شامة: كتاب الروضتين، ص ١٠٩).

وبعد أن قام الصليبيون الهنغاريون بعدة غارات صغيرة فى جبال الشام قرب مرج عيون وشقيف أرنون تعرضوا فيها لمصاعب جمة بسبب وعورة البلاد[١]؛ فكر ملك هنغاريا فى العودة إلى أوروبا عن الطريق البرى، فاتجه من عكا إلى طرابلس حيث زار الاسبتارية فى حصنى الأكراد والمرق، ثم اتجه إلى طرسوس ومنها إلى أوروبا عن طريق الأناضول سنة ١٢١٨[٢].

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الهنغارية دون أن تحقق عملا ذا أهمية بالنسبة للموقف فى الشام، اللهم سوى هدم حصن الطور، الذى هدمه العادل بنفسه. أما حنا دى برين فقد وجه نشاطه فى أوائل سنة ١٢١٨ نحو تحصين قيسارية وعثليث، وذلك قبل أن يقوم بحملته الصليبية الكبرى ضد مصر[٣].

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٠٣ .King: op. cit, p. 188

(2) Grousset: op. cit. III, p. 206.

(3) Eracles p. 325-326 & Ernoul, p. 121-122.

الفصل الثالث

الحملة الصليبية الخامسة في مصر

مصر والحروب الصليبية:

يدل الاتجاه العام للحركة الصليبية منذ بداية القرن الثالث عشر على أن مصر بالذات موضع اهتمام دعاة الحروب الصليبية وزعمائها، بعد أن آمن الصليبيون بالشام وأنصارهم فى الغرب الأوروبى بأن مصر هى مركز المقاومة الحقيقية فى العالم الإسلامى ضد الحركة الصليبية، وأنه منذ نجح نور الدين فى توحيد مصر والشام فى إطار جبهة واحدة والصليبيون شبه مطوقين بالمسلمين. هذا فضلا عما أثبتته التجارب فعلا من أن الأيوبيين كثيراً ما اعتمدوا على مصر- ذات الموارد البشرية والمالية الضخمة- فى الحصول على أدوات الجهاد. فاستمدوا منها ما لزمهم من قوة ورباط الخيل. أما الصليبيون فقد أحسوا مع مضى الوقت وفتور الحماسة الصليبية أن الطريق بينهم فى الشام وبين أصولهم فى الغرب الأوروبى كان طويلا وبطيئاً، فإذا طلبوا نجدة أتتهم بعد أشهر أو سنوات، وربما شغل الأوروبيون بما طرأ على عالمهم فى أواخر العصور الوسطى من تيارات جديدة فكرية وسياسية واقتصادية، أنستهم بيت المقدس وفلسطين والحرب الصليبية نفسها.

وبعبارة أخرى فإن دعاة الحركة الصليبية والمتحمسين لها وصلوا فى نهاية القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر إلى نتيجة حاسمة لا شبهة فيها ولا جدال حولها، هى أن مفاتيح بيت المقدس توجد فى القاهرة، وأن عليهم البدء بمصر أولا بوصفها الطريق الطبيعى- الذى لا طريق غيره- للوصول بهم إلى بيت المقدس. وقد ظهرت هذه العقيدة بوضوح فى أقوال زعماء الحركة الصليبية ودعاتها، فهم حيناً يشبهون مصر بأنها رأس الأفعى وأحياناً يشبهونها بأنها مخزن الإمدادات فى العالم الإسلامى. ومرة ثالثة يشبهونها بالقلب فى الجسم.. إلى غير ذلك من التشبيهات العديدة التى فاضت بها كتب دعاة الحروب الصليبية فى أواخر العصور الوسطى، والتى إن دلت على شىء فإنما تدل على أن الصليبيين أدركوا أن الخطر الحقيقى الذى هدد بقاءهم واعترض وجودهم وعرقل مشاريعهم فى بلاد الشام إنما نبع من مصر بالذات.

وجدير بالذكر أن المؤرخين المسلمين المعاصرين أدركوا هذه الحقيقة وفسروا فى ضوئها اتجاه الحملات الصليبية ضد مصر منذ القرن الثالث عشر. فالمؤرخ ابن واصل يقول إن الصليبيين تشاوروا سنة ١٢١٨، فأشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية أولا، وقالوا إن الملك صلاح الدين إنما استولى على الممالك وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها، فالمصلحة أن نقصد أولا مصر ونملكها، وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد!! ويشهد هذا النص على أن المعاصرين أدركوا أن صلاح الدين لم يمكنه إخراج الصليبيين من القدس إلا بعد أن ملك مصر واستمد منها القوة اللازمة للجهاد، كما يشهد على إحساس الصليبيين بأنهم إذا أخذوا مصر فلن تبقى فى طريقهم بعد ذلك أية عقبة لأخذ بيت المقدس[١].

فإذا انتقل ابن واصل إلى حملة لويس التاسع على مصر بعد ذلك بثلاثين سنة، فإنه يقول عن ملك فرنسا فى حديثه نفسه بأنه يستعيد البيت المقدس إلى الفرنج.... وعلم أن ذلك لا يتم له إلا بملك الديار المصرية...![٢].

فاستيلاء الصليبيين على بيت المقدس لا يتم لهم إلا بملك مصر، وعلى ذلك يجب أن يوجه الصليبيون جهودهم ضد مصر أولا، لأن فيها مفتاح بيت المقدس.

ومهما يكن من أمر، فإن إدراك هذه الفكرة، والإيمان بها كان سبباً لتغيير مهم خطير طرأ على اتجاه الحركة الصليبية، إذ أخذت مصر منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادى تستأثر بجهود الصليبيين، ووضعت الخطط الخاصة بجميع الحملات الصليبية- ماعدا النذر اليسير منها- منذ بداية القرن الثالث عشر على أساس الاتجاه ضد مصر لضرب المسلمين فى قلبهم النابض. وإذ كانت بعض الحملات الصليبية منذ القرن الثالث عشر لم تتجه إلى مصر، فإن ذلك جاء خروجاً عن القاعدة وشذوذاً على المبدأ العام الذى سارت عليه الحركة الصليبية فى عهدها الجديد. ولعلنا نذكر ما سبق أن رددناه من أن الحملة الصليبية الرابعة ذاتها وضعت خطتها على أساس غزو مصر والنزول بالإسكندرية أو دمياط، ثم الزحف على القاهرة، لولا الأغراض

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ٢٥٨ (تحقيق المرحوم الأستاذ الشيال).

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، حوادث سنة ٦٤٧هـ، ورقة ٣٥٦ في (مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية).

الخاصة التى انحرفت بتلك الحملة عن طريقها المرسوم، والتى جعلتها تتجه نحو **القسطنطينية**.

والواقع أن تفكير الصليبيين فى مصر بالذات لم يكن جديداً ولا ترجع بدايته إلى نهاية القرن الثانى عشر، وإنما هو تفكير قديم قدم الحروب الصليبية ذاتها. وقد رأينا فى صفحات هذا الكتاب السابقة كيف فكر جودفرى جى بوايون– أول حكام جودفرى قد مات فى العام التالى قبل أن ينفذ مشروعه ضد مصر، فإن خليفته وأخاه الملك بلدوين الأول شرع فعلا فى غزو مصر سنة ١١١٦، ومازال ينتقل من أيلة إلى سيناء حتى وصل إلى الفرما وتنيس على شاطئ بحيرة المنزلة. كذلك رأينا كيف أدى مولد الجبهة الإسلامية المتحدة إلى أن أصبحت مصر جزءاً من دولة نور الدين سنة ١١٦٩، وهو الأمر الذى لم يتم بعد منافسة شديدة بين نور الدين والصليبيين حول الفوز بمصر، مما تطلب من عمورى الأول ملك بيت المقدس القيام بحملاته الأربع الشهيرة على مصر (١١٦١–١١٦٨). وقد أوصلت هذه الحملات الصليبيين إلى بلبيس والقاهرة، بل إلى الصعيد والإسكندرية، وإذا كان الصليبيون قد فشلوا فى الاحتفاظ بمصر، فإن فشلهم كان أدعى لإحساسهم بخطورة موقفهم فى بلاد الشام، بعد أن غدا نور الدين – ومن بعده صلاح الدين– يطوقان ممتلكات الصليبيين من الشمال والجنوب، وقد ظهر أثر ذلك مباشرة فيما أصاب الصليبيين على يد صلاح الدين فى حطين، ثم فى ضياع بيت المقدس سنة ١١٨٧، الأمر الذى استدعى مجئ الحملة الصليبية الثالثة إلى الشام سنة ١١٩١ لاستعادة بيت المقدس من صلاح الدين. ولعل فشل هذه الحملة فى تحقيق الهدف الذى أتت من أجله هو الذى أقنع أبرز قادتها– وهو ريتشارد قلب الأسد– كما أقنع الغرب الأوروبى بأن الاستيلاء على مصر يجب أن يسبق أية محاولة لاسترداد بيت المقدس. ووفقاً لهذه الخطة الجديدة تمت دعوة للحملة الصليبية الرابعة– وهى الحملة التى لولا انحرافها إلى القسطنطينية لنزلت بشمال الدلتا وفقاً للخطة المرسومة لها.

وهكذا يبدو لنا أن تفكير الصليبيين فى غزو مصر ومحاولة ذلك الغزو لم يكن شيئاً جديداً فى أوائل القرن الثالث عشر. لكن الجديد فى الأمر هو أن الصليبيين آمنوا فى نهاية القرن الثانى عشر وبداية الثالث عشر بأن الاستيلاء على مصر ضرورى

لتأمين مشاريعهم وبقائهم فى فلسطين، وأنه بدون سيطرتهم على مصر لن تستقر حياتهم فى الشام. وهذا هو السر فى إصرار الحملات الصليبية منذ بداية القرن الثالث عشر على الاتجاه نحو مصر بالذات. وإذا كانت الحملة الصليبية الرابعة قد خرجت عن الخطة الموضوعة لها واتجهت إلى القسطنطينية بدلا من مصر فإن الحملة الخامسة التزمت بالطريق المرسوم واتخذت مصر ميداناً لها.

حنا دي برين ومهاجمة مصر:

وكان حنا دى برين ملك مملكة بيت المقدس شيخاً كبيراً، وله من التجارب وبعد النظر ما جعله يؤمن بفكرة مهاجمة مصر. وفى ذلك الوقت (١٢١٧-١٢١٨) استمرت جموع الصليبيين تفد كل يوم على بلاد الشام تلبية للدعوة التى وجهها البابا أنوسنت الثالث ثم تعهدها بعده البابا هونريوس الثالث. وقد أراد حنا دى برين أن يستغل تلك الجموع الصليبية التى وفدت على بلاد الشام بعد سفر ملك هنغاريا ففكر فى القيام بحملة على الدلتا: الإسكندرية أو دمياط، وأيده فى تفكيره هذا الصليبيون فى بلاد الشام، وعلى رأسهم الداوية والاسبتارية، فضلا عن الصليبيين فى قبرص(١).

وبعد أن ترك حنا دى برين فى عكا حامية قوية قوامها خمسمائة فارس- خوفاً من تعرضها لهجوم المسلمين فى غيابه- خرج على رأس ما استطاع جمعه من السفن والرجال فى ٢٧ مايو سنة ١٢١٨ قاصداً دمياط. وفى تلك المرة ترك الصليبيون زعامة الحملة لحنا دى برين، بعدما صادفوه من متاعب فى الحملة الهنغارية عندما سلموا زمامهم لملك هنغاريا(٢). ولم يفت الصليبيين كذلك أن يتصلوا بنجاشى الحبشة المسيحى ليتعاون معهم فى ضرب الإسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة(٣).

وكان المفروض أن يستفيد الصليبيون من الدروس السابقة والتجارب التى مر بها ملكهم عمورى عندما هاجم مصر سنة ١١٦٨، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، وقد أثبت الملك عمورى الأول أن الوصول إلى القاهرة أمر سهل عن طريق الصحراء الشرقية. ونجح أكثر من مرة فى الوصول إلى القاهرة عن ذلك الطريق. ولكن عمورى الأول كانت له قاعدة حربية كبرى فى جنوب فلسطين- هى مدينة عسقلان- استطاع أن يعتمد عليها فى

(1) Brehier: L'Eglise et L'Orient. P.p. 191-192.

(2) Eracles p. 329.

(3) Coulbeaux: Hist d'Abyssinie, ps. 556, 566.

غزو مصر عن طريق الشام. أما حنا دى برين، فلم يجد للصليبيين أية قاعدة يمكنهم الارتكاز عليها لغزو مصر برياً. وهكذا اختار الصليبيون النزول بدمياط، لا لأن دمياط أقرب الموانئ المصرية إلى الصليبيين بالشام فحسب، بل لأن فرع دمياط يمثل أيضا طريقاً طبيعياً ووسيلة سهلة للمواصلات تربط الغزاة بحرياً بقواعدهم فى الشام. ونسى الصليبيون ما يمكن أن يتعرضوا له فى غزوهم مصر عن طريق النيل من عقبات طبيعية تتمثل فى السدود والترع والقنوات، مما يجعل وصولهم إلى القاهرة أمراً متعذراً[١].

وكان أن وصلت السفن الصليبية إلى مصب فرع دمياط فى أواخر مايو سنة ١٢١٨، فنصب الصليبيون معسكرهم على الضفة الغربية للنيل المواجهة لمدينة دمياط، وقد وجد الصليبيون المدينة محصنة تحصيناً قوياً، إذ كانت تمتد بعرض مجرى النيل مآصر، وهى سلاسل من حديد عظام القدر والغلظ، تمتد فى النيل لتمنع المراكب الواصلة فى بحر الملح من عبور أرض مصر[٢]. هذا بالإضافة إلى برج السلسلة، وهو بمثابة حصن بناه المسلمون وسط مجرى النهر لحماية المدينة ودفع أى عدوان يقع عليها[٣]. وعندما علم الكامل– الذى كان ينوب عن أبيه السلطان العادل فى حكم مصر– بنزول الصليبيين فى مواجهة دمياط، أسرع على رأس جيشه ونصب معسكره جنوبى دمياط عند منزلة العادلية، ليكون على اتصال بالمدينة من ناحية ويمنع الصليبيين من العبور إليها من ناحية أخرى، هذا فى الوقت الذى استدعى العادل ابنه الملك الأشرف فسار فى عسكره إلى حمص ودخل بلاد الفرنج ليشغلهم عن محاصرة دمياط[٤].

ولم يلبث أن أدرك الصليبيون فداحة الخطأ الذى وقعوا فيه برسوهم على الضفة الغربية للنيل بدلا من الضفة الشرقية القائمة مدينة دمياط ذاتها، مما أثار أمامهم مشكلة صعبة هى كيفية عبور النيل. هذا فضلا عن أنهم أضاعوا كثيراً من الوقت حيث نزلوا، مما أعطى المسلمين فرصة كافية للاستعداد والدفاع حتى صار عند الكامل من المقاتلة مالا يكاد ينحصر عدده[٥]. وهكذا قضى الصليبيون ثلاثة أشهر

(1) King: op. cit, p. 190.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣ ص ١٨٨ . وانظر كذلك ميخائيل عواد: المآصر في بلاد الروم والإسلام ص ٤٠–٤٤,

(3) Eracles p. 326-327.

– وقد بني في النيل برج كبير منيع، وجعلوا فيه سلاسل من حديد غلاظ، ومدوها في النيل إلي سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة في البحر المالح أن تصعد في النيل إلي ديار مصر.(ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤ هـ).

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب ج٣، ص ١٨٠ (تحقيق سامي الدهان).

(٥) المقريزي: السلوك، ج١ ص ١٨٩ .

كاملة يهاجمون برج السلسلة عن طريق آلات ومرمات وأبراج يزحفون بها إلى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه[١]. وأخيراً تمكن الصليبيون فى ٢٤ أغسطس سنة ١٢١٨- أى ثلاثة أشهر- من الاستيلاء على برج السلسلة وقطع المآصر التى كانت تعترض مجرى النهر وتحول دون دخول السفن الصليبية فيه[٢]. ولاشك أن سقوط برج السلسلة فى قبضة الصليبيين وتحطيم تلك المآصر التى تحمى مجراه جاء خسارة كبرى. إذ اعتبر المعاصرون ذلك البرج قفل الديار المصرية[٣]. ويقال إن الملك العادل لم يحتمل ذلك الخبر فدق بيده على صدره ومرض مرض الموت ثم توفى فى نهاية أغسطس سنة ١٢١٨[٤].

ولكى يسد الكامل مجرى النيل فى وجه الصليبيين، حاول إقامة جسر عظيم بعرض المجرى، ولكن الصليبيين قطعوا ذلك الجسر. وعندئذ لجأ الكامل إلى عدة مراكب وملأها وخرقها وغرقها فى النيل، لتعوق تقدم السفن الصليبية[٥]. ولكن الصليبيين مرة أخرى تغلبوا على تلك الصعوبة، فلجأوا إلى خليج هناك يعرف بالأزرق كان النيل يجرى فيه قديما، فحفروه حفراً عميقاً وأجروا فيه الماء إلى البحر المتوسط، وبذلك تمكنت سفنهم من دخول النيل حتى وصلوا إلى موضع يقال له بورة يقابل منزلة العادلية، حيث أقام الكامل[٦]. وبذلك أصبح فى استطاعة الصليبيين مهاجمة المعسكر الأيوبى عن طريق البحر.

وفى الوقت الذى بدا من الممكن أن يتقدم الصليبيون فى عملياتهم الحربية ضد المسلمين، بفضل قيادة حنا دى برين، أظهرت الأحداث خلاف ذلك. ذلك أنه أعقب سقوط برج السلسلة فى أيدى الصليبيين خللا ظاهراً فى عملياتهم الحربية، بعد أن اعتقد كثير من المحاربين أن مهمتهم قد انتهت بسقوط ذلك البرج، وأنهم أوفوا فعلا بقسمهم الصليبى، فانسحبوا عائدين إلى بلادهم. وهكذا صار على حنا دى برين أن

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤ هـ.

(٢) المصدر السابق. Eracles p.p. 327-328.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٠٩ .

(٤) المصدر السابق، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص ١٥ (تحقيق حسنين محمد ربيع). المقريزي: السلوك، ج١ ص ١٩٠ .

(٥) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤ هـ. ابن واصل، ج٤ ص ١٥ .

(٦) المقريزي: السلوك، ج١ ص ١٩٥ .

ينتظر وصول إمدادات جديدة، وهى الإمدادات التى وصلت من أوروبا فعلا فى سبتمبر سنة ١٢١٨[١]. على أنه يلاحظ أنه جاء فى صحبة هذه الإمدادات الكاردينال بلاجيوش مندوباً عن البابا وقائداً على الصليبيين فى حملتهم على مصر، فأدى هذا الازدواج فى القيادة إلى إنزال أبلغ الضرر بالحملة الصليبية الخامسة ومستقبلها، كما سيلى فيما بعد[٢].

الاشتباكات بين المسلمين والصليبيين بالشام:

ولم تكد أخبار تلك الانتصارات التى أحرزها الصليبيون أمام دمياط تصل إلى الشام، حتى تشجع إخوانهم فى عكا، فخرج فريق من حاميتها لمطاردة بعض المسلمين الذين أغاروا على الضياع القريبة. ويروى أبو شامة أن الفرسان الصليبيين الذى قاموا بعملية المطاردة هذه كانوا من الداوية- وعددهم نحو مائة وعشرين فارساً- فتمادوا فى المطاردة بحماقتهم المعهودة، ثم لحقت بهم بعد ذلك بقية الحامية الصليبية فى عكا، حتى أحاط بهم جيش أيوبى عدته بضعة آلاف من الدماشقة قرب القيمون، فأبادوا الصليبيين أولا عن آخر (٢٩ أغسطس سنة ١٢١٨) ولم ينج منهم إلا مائة فارس من الداوية، أسروا وسيقوا إلى بيت المقدس منكسة أعلامهم[٣].

ولكى يصرف الملك المعظم أنظار الصليبيين عن مصر، رأى أن يلحق النصر السابق بمهاجمة قيسارية، فخرج لهدم قلعتها الجديدة ومعه عدد ضخم من آلات الحصار. ولم يكن لدى الصليبيين عندئذ بالشام من القوة ما يمكنهم من الدخول فى معركة كبرى ضد المسلمين، فدخل المسلمون المدينة وهدموا[٤]. وبعد ذلك اتجه المعظم لمهاجمة عثليث، وظن أنه سيفعل بها مثلما فعل بقيسارية، ولكن الداوية فى عثليث تحصنوا فى قلعتهم وخزنوا كميات كافية من المؤن والمياه تكفى لمقاومة حصار طويل، مما جعل المعظم لا يتمكن من تحقيق غرضه فانصرف عنها[٥]. وفى تلك الأثناء- أو قبل ذلك بقليل (يونية ١٢١٨)- لجأ الابن الثالث للسلطان العادل- وهو الأشرف موسى- إلى مهاجمة الصليبيين فى إمارة طرابلس فدخل بلاد الفرنج

(1) King: op. cit, p. 192.

(2) Setton: op, cit, II. P. 403.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين ج٢، ٢ ١٠٩ & Eracles p.p. 330-331.

(4) Eracles p.p. 334.

(5) Ernoul, p. 433.

وأشغلهم عن دمياط، وأغار على حصن صافيتا وحصن الأكراد. غير أن الأشرف لم يستطع أن يستمر طويلا فى أعماله الحربية فى تلك المنطقة، بسبب الحرب بينه وبين سلاجقة الروم، مما استدعى عودته(١).

ولكن يبدو أن المعظم كان- على الرغم من انتصاراته السابقة على الصليبيين بالشام- متخوفاً من نتيجة الحرب فى مصر، وما قد تؤدى إليه من التأثير فى مركز المسلمين بالشام. لذلك أسرع المعظم سنة ١٢١٩ إلى تدمير عدة حصون قوية فى فلسطين خشية سقوطها فى أيدى الصليبيين. ومن الحصون التى دمرها المسلمون الطور(٢) وتبنين وبانياس ثم صفد(٣). بل أخطر من هذا كله فكر المعظم فى هدم مدينة بيت المقدس، وشرع فعلا فى هدم أبراجها وسورها فى مارس سنة ١٢١٩ حتى لا يحصل منها الصليبيون على أية فائدة، الأمر الذى أوقع المدينة فى حالة بالغة من الفوضى والأسى(٤).

ولعل فى هذه الأعمال التى قام بها المعظم ما يشير إشارة واضحة إلى تخوف المسلمين عندئذ من عاقبة الحرب ضد الصليبيين، أو ربما كانت النية متجهة فى ذلك الوقت إلى مقايضة الصليبيين ببيت المقدس مقابل جلائهم عن مصر، ولكن بدلا من أن يأخذوا المدينة سليمة قوية الاستحكامات، أراد المعظم أن يسلمها لهم خراباً مقوضة البناء(٥).

سقوط دمياط:

وعند وفاة السلطان العادل فى ٣١ أغسطس سنة ١٢١٨، خلفه ابنه البكر الملك الكامل فى حكم مصر، وابنه الملك المعظم فى حكم دمشق. وكان على الكامل مهمة

---

(١) أبو أيبك: كنز الدرر، ج٧، ص ١٩٦، أبو شامة: كتاب الروضتين ج٢، ص ١٠٩ . ابن العديم: زبدة الحلب، ج٣، ص ١٨٠ .

(٢) انظر ما سبق، بخصوص أن حصن الطور كان قد تم تدميره في حياة العادل ص ٩٥٩ .

(٣) تشير بعض المصادر إلي أن حصن كوكب دمر أيضا في ذلك الوقت (سنة ١٢١٩م) في حين ذكر ابن الأثير (٦٠٩هـ) وابن واصل (٦٠٨هـ) أن حصن كوكب دمر في حياة الملك العادل (سنة ١٢١٢م).

(٤) فوقع البلد في ضجة مثل يوم القيامة، وخرج النساء المخدرات والبنات والشيوخ والعجائز والشبان والصبيان إلي الصخرة والأقصي، فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم، بحيث امتلأت الصخرة ومحراب الأقصي من الشعور، وخرجوا هاربين وتركوا أموالهم وأثقالهم... وامتلأت بهم الطرق فبعضهم إلي مصر وبعضهم إلي الكرك وبعضهم إلي دمشق. (أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١١٥).

(5) Grousset: op. cit. III, p. 214.

طرد الصليبيين من مصر، فى حين قام المعظم بحراسة جبهة الشام، حيث واصل هجماته على الصليبيين ليضطر حنا دى برين إلى صرف النظر عن مصر.

وفى ٩ أكتوبر ١٢١٨، قام الملك الكامل بمهاجمة معسكر الصليبيين فى بورة– فى مواجهة دمياط– فعبر النيل على رأس أربعة آلاف من رجاله وقام بهجوم مباغت على المعسكر الصليبى، ولكنهم كانوا على حذر، فصمدوا للمسلمين وتغلبوا عليهم؛ وعندئذ اضطر الكامل ورجاله إلى التراجع إلى الضفة الشرقية للنيل بعد أن خسروا كثيراً من الضحايا. وقد أراد الصليبيون أن يتوجوا نصرهم السابق بالعبور إلى ضفة دمياط، ولكن محاولتهم باءت بالفشل(١). وزاد من موقف الكامل سوءاً أن قبائل البدو نزحت من سيناء والشرقية لتستفيد من حالة الفوضى التى أعقبت نزول الصليبيين بالدلتا، فقطع البدو والأعراب الطرق وأغاروا على القرى ونهبوا وأفسدوا وبالغوا فى الإفساد، فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج(٢).

على أن الخطر الداخلى الكبير الذى هدد الملك الكامل عندئذ جاء من جانب أحد قواده، وهو عماد الدين أحمد بن على المعروف بابن المشطوب. وكان ذلك الرجل الكردى أكبر أمير بمصر وله لفيف كثير، وجميع الأمراء ينقادون إليه ويطيعونه. وقد دبر ابن المشطوب مؤامرة كبرى داخل معسكر الكامل انضم إليه فيها معظم قادة الجيش الأكراد، واستهدفت المؤامرة عزل الكامل وإحلال أخيه الصغير– الفائز بن العادل– محله فى الحكم(٣). وعندما علم الكامل بالمؤامرة، لم يشأ أن يواجه المتآمرين بالحقيقة، وإنما أخذ يداريهم لكونه فى قبالة العدو ولا يمكنه المقامرة(٤). وبذلك ساء موقف الكامل فجأة، أمام الخطر الصليبى من جهة، وتآمر قادة جيشه من جهة أخرى، فتولاه القلق حتى فكر فى الفرار من مصر والالتجاء إلى اليمن، حيث كان ابنه المسعود يتولى حكمها، لولا أنه علم بقرب وصول أخيه المعظم من الشام، فآثر التسلل فى مساء ٥ فبراير سنة ١٢١٩ من معسكره فى العادلية قاصداً أشمون طناح(٥).

---

(1) Runciman: op. cit, III, p.p. 155-156.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤ هـ.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ١٩٥–١٩٦ .

(٤) ابو المحاسن: النجوم، ج٦ ص ٢٣٠ .

(٥) المقريزي: السلوك، ج٣ ص ١٩٦ .

وعندما أصبح الصباح ولم يجد الجند السلطان بينهم، هجروا أيضاً المعسكر تاركين خلفهم كل ما معهم من مؤن وسلاح، وبذلك جاءت الفرصة مواتية للصليبيين فعبرو نهر النيل إلى الضفة الشرقية آمنين بغير منازع ولا ممانع، دون أن يصادفوا أية مقاومة، واستولوا على معسكر العادلية، وغنموا ما في معسكر المسلمين فكان عظيم يعجز العادين[1]. وبنجاح الصليبيين في عبور نهر النيل بدأت المرحلة الثانية أمام حملة حنا دى برين، وهى حصار دمياط والاستيلاء عليها.

وهكذا ساء الموقف فى مصر نتيجة لفرار الكامل، فعظم البلاء واشتد الكرب وألح الفرنج فى القتال، إلا أن يملكوا البلاد، مما أنذر بانهيار جبهة المسلمين انهيار تاماً. لولا استجابة المعظم عيسى لنداء أخيه الكامل، وحضوره إلى مصر، وبذلك قويت به شوكته[2]. ذلك أن المعظم أعاد الثقة إلى نفس أخيه الكامل، وعنف ابن المشطوب ونفاه إلى الشرق-حسب تعبير أبى شامة- وذلك بعد أن استدرجه بعيدا عن المعسكر حيث أسلمه إلى جماعة من أصحابه وعهد إليهم بالذهاب به إلى الشام[3] ليسجن فى الكرك، فى حين نفى الفائز إلى سنجار حيث مات فى الطريق[4]. ثم تقدم الجيش الإسلامى من جديد، واحتل موقعه عند فارسكور جنوبى العادلية، ليتمكن المسلمون من مهاجمة الصليبيين من الخلف إذا هاجموا دمياط، وبذلك يقعون بين حامية دمياط فى الشمال وجيش فارسكور فى الجنوب. وبفضل هذه الإجراءات الجديدة التى اتخذها المعظم استطاعت دمياط الصمود، وقاومت ببسالة الحصار الصليبى تسعة أشهر، رغم المحاولات العنيفة التى بذلها الصليبيون للاستيلاء عليها. وتذكر بعض المصادر الصليبية أن الكامل والمعظم أرسلا يطلبان المساعدات من جميع أنحاء العالم الإسلامى، وبخاصة الخليفة العباسى الذى لقبته المصادر الصليبية بلقب بابا الإسلام[5]. كذلك ذكر المقريزى أن السلطان الكامل بعث إلى الآفاق سبعين رسولا، يستنجد أهل الإسلام على قتال الفرنج ويستحثهم على إنقاذ المسلمين

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤ هـ. Ernoul, p. 419-420.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ص ١٩٧، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص ١٧ (تحقيق حسنين ربيع).

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١١٦ . هذا وقد ذكر المقريزي أن ابن المشطوب نزل بحماة عند الملك المنصور ومعه أربعة من خدمه. (السلوك، ج١، ص ١٩٧).

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٣٠-٢٣١ .

(5) Ernoul, p. 421.

وإغاثتهم، ويخوفهم من تغلب الفرنج على مصر، فإنهم متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها(١).

وإذا كانت المصادر قد أشارت إلى وصول النجدات من حماة وحلب إلى الكامل(٢)، فإن الصليبيين أيضاً جاءتهم نجدة قوية فى فبراير سنة ١٢١٩ من قبرص، فضلا عن بعض الفرنسيين الذين أتوا من الغرب(٣). هذا كله بالإضافة إلى الإمدادات والمؤن والأطعمة التى ظلت ترد إليهم تباعا من جزيرة قبرص(٤) ويبدو أن وصول تلك الإمدادات للصليبيين قوت مركزهم أمام دمياط، الأمر الذى جعل الكامل يشعر بالحرج البالغ، لاسيما وأن الأخبار بدأت تصل إليه عندئذ عن تقدم جيوش جنكزخان وتهديده للدولة الخوارزمية مما أثار مشكلة الدفاع عن الجبهة الشرقية للعالم الإسلامى ضد المغول. لذلك عرض الكامل على الصليبيين أسخى عرض يمكن التقدم به وهو استعداده للموافقة على إحياء مملكة بيت المقدس الصليبية القديمة، باستثناء حصن الكرك ووادى العربة، أى إعادة المملكة إلى ما كانت عليه فى فلسطين قبل حطين سنة ١١٨٧ باستثناء الأردن، وذلك كله مقابل جلاء الصليبيين عن مصر(٥).

ولما وصل ذلك العرض إلى الصليبيين قبله الملك حنا دى برين وأمراء مملكته والصليبيون الفرنسيون. لكن المندوب البابوى بلاجيوس– وهو القائد الأعلى للحملة– ركب رأسه ورفض العرض الذى تقدم به الكامل، وأيده فى موقفه الداوية والاسبتارية(٦). ويبدو أن الإيطاليين بوجه خاص كانوا من وراء رفض المندوب البابوى، لأن البيازنة والجنوية والبنادقة الذين عارضوا مهاجمة مصر من قبل، رأوا الآن فى احتلال الدلتا مكسباً تجاريا ضخما يفوق استرداد بيت المقدس(٧). ولو كانت الحروب الصليبية لاتزال عندئذ محتفظة بصبغتها الدينية حريصة على غايتها التى من المفروض أنها بدأت من أجلها لقبل الصليبيون عرض السلطان الكامل، ولرأوا فيه

(١) المقريزي: السلوك، ج٣ ص ١٩٥ .

(٢) المصدر السابق.

(3) Eracles p.p 339-340.

(٤) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٣٩–٤٠ .

(5) King: op. cit, p. 194.

(6) Setton: op, cit, II. P. 409.

(7) Grousset: op. cit. III, p. 223.

فرصة طيبة لاسترداد بيت المقدس دون عناء. ولكن رفض الصليبيين جاء مصداقاً لما سبق أن ذكرناه من أن الحرب الصليبية فى القرن الثالث عشر انحرفت عن هدفها الدينى الذى ادعت أنها قامت من أجله، إلى أغراض أخرى دنيوية عديدة.. وهكذا أضاع بلاجيوس فرصة ثمينة برفضه عرض الملك الكامل، وهى فرصة سيندم عليها الصليبيون حيث لا ينفع الندم.

وثمة خطأ آخر وقع فيه بلاجيوس زعيم الحملة، وشيعته من الداوية والإيطاليين، وهو إصرارهم على توجيه هجماتهم ضد معسكر الكامل والمعظم فى فارسكور بدلا من الاكتفاء بحصار دمياط[1]. وعندما اعترض الملك حنا دى برين وأمراؤه على تلك الخطة اتهمه بلاجيوس وحزبه بالخيانة والضعف، وشرعوا فى ٢٩ أغسطس سنة ١٢١٩ يهاجمون معسكر المسلمين. وكانت النتيجة فشل الهجوم وفرار الصليبيين ووقوع بعضهم في الأسر، مما دعم مركز المسلمين وأعاد الثقة الى نفوسهم[2]. على أن الملك الكامل أراد أن يستغل ذلك النصر ليستأنف ضغطه على الصليبيين لقبول عرضه الخاص بالجلاء عن مصر مقابل إعطائهم القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل! ماعدا الكرك والشوبك... وعندئذ أبى الفرنج وقالوا لا نسلم دمياط حتى تسلموا ذلك كله. وكان أن رضى الكامل بمطالب الصليبيين، ولكن بلاجيوس– ومن ورائه الإيطاليون والداوية والاسبتارية– ظلوا يغالون فى طلباتهم، وأنبوا حنا دى برين وأمراءه لاستعدادهم للتساهل مع الكامل[3]. والواقع أن هذا الشقاق الذى بدا واضحاً بين زعيمى الحملة الصليبية الخامسة– حنا دى برين والمندوب البابوى بلاجيوس– كان السبب الرئيس فى إضاعة الفرصة وفشل الحملة[4].

ومن الواضح أن الذى دفع الكامل إلى تكرار عرضه على الصليبيين مرة بعد أخرى، هو إحساسه بسوء موقفه، لأن النيل جاء فيضانه منخفضاً فى تلك السنة، مما هدد البلاد بالمجاعة وغلت الأسعار بأرض مصر.. فكانت من أشق السنين وأشدها

(1) Runciman: op. cit, III, p. 159.
(2) Eracles p.p. 340-341.
(3) Eracles p. 342.
(4) King: op. cit, p. 192.

على مصر[١]. ثم إن المعظم نفسه اعتراه القلق وأخذ يفكر فى العودة إلى الشام، فى الوقت الذى ساء موقف حامية دمياط وتعرضت للمجاعة والوباء فنهكتهم الأمراض وغلت عندهم الأسعار.. وامتلأت الطرقات من الأموات وعدمت الأقوات[٢]. أما الصليبيون فقد وصلتهم فى سبتمبر سنة ١٢١٩ نجدة قوية من الإنجليز والفرنسيين، وعندئذ ضيق الصليبيون الخناق على دمياط، فازدادت حالتها سوءاً[٣]. وعبثاً حاول الكامل إمداد دمياط بخمسمائة من مماليكه بقيادة ابن الجرخى ومعهم معونة من المؤن والأهالى، إذ وقعت تلك النجدة فى أيدى الصليبيين فاستولوا على ما معها وقتلوا جميع رجالها، وصفت رءوس القتلى على الخنادق[٤].

وأخيراً- وبعد حصار تسعة أشهر كاملة- لم تستطع دمياط الباسلة الاستمرار فى مقاومة حصار الصليبيين، فاقتحمها الغزاة فى ٥ نوفمبر سنة ١٢١٩ وغدروا بأهلها ووضعوا فيهم السيف قتلا وأسرا، وباتوا تلك الليلة يفجرون بالنساء...[٥]. ويبدو أن الصليبيين أرادوا أن يجعلوا من دمياط مركزاً منيعاً دائماً لهم، لا يقل أهمية عن عكا وصور فبالغوا فى عمارتها وتحصينها، وأسكنوا جالية كبيرة من الغربيين فيها[٦]، وجعلوا جامعها كنيسة وبثوا سراياهم فى القرى يقتلون ويأسرون، فعظم الخطب واشتد البلاء[٧]. والواقع أن الصليبيين وجدوا فى دمياط مركزاً تجارياً وحربياً فريداً، يهيئ لهم السيادة البحرية التامة على شرق حوض البحر المتوسط، ويهددون منه القاهرة، ويقطعون المواصلات بين مصر وبقية بلاد البحر المتوسط، ولا أدل على أهمية دمياط فى نظر الصليبيين من المنازعات التى نشبت فيما بينهم وبين بعض عقب سقوطها بسبب التنافس حول ملكيتها، فبدأ النزاع بين الملك حنا دى برين والمندوب البابوى

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٠٦ .

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠١، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص ١٩ (تحقيق حسنين محمد ربيع).

(3) Eracles p.p. 342-343.

(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١١٦ . أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٣٨، ويروي ابن واصل كيف دأب بعض المسلمين علي المغامرة ودخول دمياط سباحة في النيل ومراكب الفرنج به محيطة، ليقوي قلوب أهلها ويعدهم وصول النجد لإزاحة العدو عنهم (مفرج الكروب، ج٤، ص١٩، تحقيق حسنين ربيع).

(٥) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤ هـ. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٣٨ . ويروي أبو شامة أنه كان بدمياط عندئذ الشيخ أبو المحسن بن قفل، فلما علم الصليبيون أنه من مشايخ المسلمين ويؤوي إليه الفقراء لم يتعرضوا له. (كتاب الورضتين ج٢، ص ١١٧).

(٦) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤ هـ.

(٧) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٠١ .

بلاجيوس، ثم بين الفرنسيين والإيطاليين، وأخيراً بين الملك حنا والفرنسيين والاسبتارية والداوية من جانب الإيطاليين من جانب آخر، حتى استقر الرأى أخيراً على عرض الأمر على البابا وانتظار حكمه(١).

أما عن جانب المسلمين، فإن خسارتهم بضياع دمياط كانت فادحة، زاد من وقعها أنها جاءت فى الوقت الذى أخذ المغول بزعامة جنكزخان يقوضون أركان الجانب الشرقى من العالم الإسلامى، فاستولوا على خوارزم وبلاد ما وراء النهر ومعظم فارس، وسقطت بخارى فى أيديهم فى فبراير سنة ١٢٢٠ . ولم يلبث أن أوغل المغول فى عراق العجم فدمروا الرى وهمذان وقزوين، وأصبحوا على أبواب عراق العرب وبغداد(٢). وكان أن ارتعدت فرائص الخليفة الناصر العباسى، فى بغداد لتلك الأخبار، وبعث يستنجد بالملك الأشرف موسى الأيوبى حاكم خلاط والجزيرة ويأمره بالحضور بنفسه فى عساكره ليجمع الجميع على قصد التتر وقتالهم. ولكن الأشرف الأيوبى كان فى شغل بنجدة أخيه الكامل، فاعتذر إلى الخليفة بأخيه وقوة الفرنج، وأتى إلى مصر لإنقاذها من الحملة الصليبية الخامسة(٣).

وهكذا أمسى العالم الإسلامى مطوقاً بخطر المغول من الشرق والصليبيين من الغرب، الأمر الذى جعل المؤرخ المعاصر ابن الأثير يرسل زفرة عميقة يقول إن المسلمين منذ أن بعث نبيهم عليه الصلاة والسلام لم يمروا بمثل تلك المحنة(٤). وإزاء تلك الأخطار الجسيمة– والخطر الصليبى بوجه خاص إلى تفاقم بسقوط دمياط– اتجه الملك المعظم الى الشام لاستئناف تدمير تحصينات بيت المقدس وغيرها من القلاع، وإعداد دمشق للدفاع، ثم عاد ومعه أخوه الملك الأشرف موسى صاحب خلاط والجزيرة، على رأس جنديهما لمساعدة الكامل(٥).

---

(1) Michaud: op. cit, III p. 472-477 & King: op. cit, p. 194.

(2) D'Ohsson: Hist des Mongols I p 216 F

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٧ هـ.

(٤) يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٦١٧هـ (الكامل) ما نصه: لم ينل المسلمين أذي وشدة منذ جاء النبى صلي الله عليه وسلم إلي هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه الآن. هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربوها.. والعدو الآخر الفرنج قد ظهروا من بلادهم في أقصي بلاد الروم بين العرب والشمال ووصلوا إلي مصر. فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها. ولم يقدر المسلمون علي إزعاجهم عنها ولا إخراجهم منها. وباقي ديار مصر علي خطر. فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم...

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٤١ .

الصليبيون والزحف علي القاهرة:

والواقع أنه لم يكن الأشرف ورجاله هم الذين أنقذوا الملك الكامل، وإنما أنقذه انقسام الصليبيين وأخطاؤهم، تلك الأخطاء التى كان المندوب البابوى بلاجيوس هو المسئول الأول عنها وعما أنزلته بالصليبيين من أضرار ومصائب، ذلك أن بلاجيوس ادعى لنفسه سلطة مطلقة على الصليبيين فى دمياط، وتجاهل كل رأى أو حق لحنا دى برين ملك بيت المقدس[١]. وقد استاء حنا دى برين لذلك الوضع فانتحل بعض الأعذار، وعاد إلى عكا فى أواخر مارس سنة ١٢٢٠ تاركاً بلاجيوس يضيع على الصليبيين بقية عام ١٢٢٠ والنصف الأول من عام ١٢٢١ فى ركود تام[٢]. ثم إن بلاجيوس أصدر أوامر مشددة تحد من النشاط البحرى للصليبيين بين دمياط وعكا- سواء فى السفن أو المسافرين، فاستغل المسلمون ذلك الوضع للسيطرة على مياه البحر بين دمياط وعكا، كما قامت السفن الإسلامية بإغراق وإحراق عشر سفن للحجاج الصليبيين بين الإسكندرية وقبرص وعكا ودمياط[٣].

ولم يلبث الملك الكامل أن جدد عرضه السلمى على الصليبيين، وفى تلك المرة يذكر ابن الأثير أنه عرض عليهم مقابل الجلاء عن دمياط تسليمهم البيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية، وجميع ما فتحه صلاح الدين من الفرنج بالساحل، ماعدا الكرك. ولكن بلاجيوس رفض من جديد ذلك العرض الكفيل بمحو آثار معركة حطين ، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب القدس ليعمروه بها، فلم يتم بينهم أمر وقالوا لابد من الكرك![٤]. ويبدو أن إصرار بلاجيوس على موقفه وتباطؤه فى الزحف على القاهرة كان نتيجة الأخبار المتتابعة التى وصلت إلى الصليبيين عند دمياط عن قرب وصول الإمبراطور فردريك الثانى على رأس حملة صليبية كبيرة، بل إن الإمبراطور نفسه أرسل مندوبين عنه إلى الصليبيين فى دمياط إشارة إلى قرب وصوله[٥].

(6) Setton: op, cit, II. P. 419-420.

(2) Brehier: L'Eglise et L'Orient. P. 195-196.

(3) Grousset: op. cit. III, p. 232-234. ويلاحظ أن هذه هي رواية المصادرة الصليبية، أما المصادر العربية فتقول: وقدر الله سبحانه بوصول مرمة عظيمة في البحر للفرنج، وحولها عدة حراقات تحميها، وسائرها مشحونة بالميرة والسلاح وسائر ما يحتاج إليه. فأوقع بها شواني الإسلام وكانت بينهما حرب أنزل فيها نصره علي المسلمين فظفروا بها وبما معها من الخراقات. (المقريزي: السلوك ج١ ص ٢٠٧).

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤ هـ.

(5) Runciman: op. cit, III, p. 165.

ثم كان أن وصل لويس دوق بارفاريا على رأس قوة كبيرة إلى دمياط، فتشجع بلاجيوش، وقرر فى أواخر يونية سنة ١٢٢١ الزحف على القاهرة. وأرسل إلى الملك حنا دى برين فى عكا يطلب منه الحضور للمشاركة فى تلك العملية[١]. وقد تمنع حنا دى برين عن الحضور فى أول الأمر نتيجة لسياسة بلاجيوس وتحكمه، ولكنه خشى بعد ذلك أن يتعرض للوم الرأى العام المسيحى ويتهم بعرقلة الجهود الصليبية، فحضر الى دمياط ووصلها فى ٧ يولية سنة ١٢٢١، فى الوقت الذى كان الصليبيون قد شرعوا فعلا فى التحرك جنوباً صوب القاهرة بمحاذاة النيل[٢].

وكان الملك الكامل عقب استيلاء الصليبيين على دمياط قد نقل معسكره من فارسكور إلى قبالة طلخا، حيث خيم بالمنزلة التى شيدها على الشاطئ الشرقى للنيل فى مقابلة طلخا لتحمى الطريق إلى القاهرة، وأطلق على هذه المنزلة أو القلعة الجديدة اسم المنصورة[٣]. وفى تلك المرحلة الحرجة، فعل الأيوبيون كل ما فى وسعهم لمواجهة الزحف الصليبى على القاهرة، فجمعوا الناس من أهل القاهرة ومصر وسائر النواحى، ما بين أسوان إلى القاهرة.. واجتمع من المسلمين عالم لايقع عليه حصر... وقدمت النجدات للملك الكامل من بلاد الشام...[٤]. وفى ٢١ يولية سنة ١٢٢١ اجتمع الإخوة الثلاثة- المعظم والأشرف والكامل أبناء العادل- فى المنصورة، ومعهم جيوشهم على استعداد لمواجهة الصليبيين[٥].

ولم يكن الصليبيون أقل استعداداً للزحف على القاهرة، بعد أن خرجت أمم الفرنج من داخل البحر تريد مدد الفرنج على دمياط، فوافى دمياط منهم طوائف لا يحصى لهم عدد. فلما تكامل جمعهم بدمياط خرجوا منها فى حدهم وحديديهم، وقد زين لهم سوء عملهم أن يملكوا أرض مصر[٦]. وعندما علم الكامل بنية الصليبيين فى الزحف على القاهرة جدد عرضه عليهم للمرة الأخيرة، ولكن بلاجيوس وشيعته

(1) Eracles: II, p. 443.

(2) Archer: op. cit, p. 378.

(٣) ولم يلبث المنصور أن نمت بسرعة بحكم ميزة موقعها من ناحية، فضلا عن جهود السلطان الذي شرع في بناء الدور والفنادق والحمامات والأسواق بمنزلة المنصور. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٠١ وما بعدها، ابن واصل، ج٤ ص ٣٣,

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٠٢-٢٠٣ .

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٢٨ .

(٦) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٠٣ .

امتنعوا، وقال لابد أن تعطونا خمسمائة ألف دينار لنعمر بها ما خربتم من أسوار القدس، مع أخذ ما ذكر من البلاد، وأخذ الكرك والشوبك أيضا![١].

وهكذا تقدم الجيش الصليبى وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات هى بحيرة المنزلة شرقاً وفرع دمياط غرباً والبحر الصغير جنوباً. ثم إن السفن الإسلامية وقفت فى النيل لتسد الطريق فى وجه السفن الصليبية وتحول دون اتصال الصليبيين أثناء زحفهم بقاعدتهم فى دمياط ومنعهم أن تصل إليهم الميرة من دمياط[٢]. وكان أن وصل الصليبيون إلى المكان الذى أطلق عليه المؤرخ أبو المحاسن اسم رأس الجزيرة، وهى نقطة تفرع البحر الصغير (بحر أشمون) من فرع دمياط، وتمثل رأس مثلث يحيط به الماء من ثلاث جهات[٣]. ويحدد المقريزى الوقت عندئذ بأنه كان أول ليلة من توت (أغسطس سنة ١٢٢١)، بمعنى أنه وقت ارتفاع فيضان النيل وقسوة حرارة الجو، والفرنج لا معرفة لهم بحال أرض مصر ولا بأمر النيل..[٤]. ولم يلبث أن قطع المسلمون السدود، فلم يشعر الصليبيون إلا وقد غرقت أكثر الأرض المحيطة بهم بحيث لم يبق لهم سوى ممر ضيق يستطيعون العودة عن طريقه إلى دمياط، وعندئذ تنبه الصليبيون إلى خطورة موقفهم، فأرادوا الارتداد بسرعة نحو دمياط، ولكن الكامل كان قد أنزل عند شار مساح (شمالى شربين) ألفى فارس فى آلاف من العربان ليحولوا بين الفرنج وبين دمياط[٥] وبذلك قطع المسلمون خط الرجعة على الصليبيين وملكوا الطريق الذى يسلكه الفرنج إن أرادوا العودة إلى دمياط، فلم يبق لهم خلاص[٦].

فشل الصليبيين وجلاؤهم عن دمياط:

وهكذا ساء موقف الصليبيين فى دلتا النيل بعد أن فتح المسلمون السدود وحطموا الجسور وكان البحر زايداً جداً... وفتح المسلمون عليهم الترع من كل

(١) المصدر السابق ص ٢٠٧, ولا يخفي علينا أن إلحاح الكامل في طلب الصلح يعبر عن شعور القلق الذي انتاب البلاد والعباد في تلك المرحلة بعد أن سقطت دمياط و أشرفت الديار المصرية علي أن تملك ولو ملكت لم يبق بالشام ولا غيره معهم ملك أحد. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص ٩٠ (تحقيق حسنين ربيع).

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٤١ .

(٣) المصدر السابق، ص٢٣١ .

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٠٧ .

(٥) المصدر السابق: ص ٢٠٣ .

(٦) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤ هـ.

مكان[١]. وسرعان ما تجمد موقف الصليبيين عند بلدة البرامون، فلا هم يستطيعون العودة إلى دمـياط، ولاهم يستطيـعون القتال فى الوحل بعد أن بلغت المياه ركبهم، وأخيراً لم يبق أمام الصليبيين سوى طلب الصلح بعد أن عاينوا الهلاك، فأرسلوا إلى السلطان الكامل فى ٢٨ أغسطس سنة ١٢٢١ يعرضون استعدادهم لترك دمياط والجلاء عن البلاد، مقابل السماح لهم بالخروج من المأزق الذى وقعوا فيه وتركهم يعودون إلى بلادهم سالمين[٢].

وقـد قـبل الكامل ذلك العـرض، على الرغم من مـعـارضـة أخـويه- المعظم والأشرف- وهما اللذان أرادا استغلال الأزمة التى وقع فيها الصليبيون للقضاء عليهم، فى حين كـان الكامل يتـوقع مـجئ الإمبـراطور فـردريك الثـانـى على رأس حـملتـه الصليبية، فينتقم مما حل بالصليبيين ويحتفظ بدمياط[٣]. على أن الكامل اشترط على الصليبيين أن يبعثوا إليه برهائن من ملوكهم- لا أمرائهم- يبقون لديه حتى يسلموا دمياط، فوافق الصليبيون على ذلك وأرسلوا إلى الكامل عشرين من كبرائهم- على رأسهم حنا دى برين نفسه وبلاجيوس مندوب البابا- فى حين بعث الكامل إليهم مقابل ذلك ابنه الصالح نجم الدين ومعه جماعة من خواصه[٤]. وعندما وصل ملوك الصليبيين وأمراؤهم إلى الكامل، أكرم وفادتهم وأنعم عليهم وضرب لهم الخيام[٥].

وأخيراً تم جلاء الصليبيين عن دمياط فى ٧ سبتمبر سنة ١٢٢١، فدخلها الملك الكامل فى اليوم التالى. وقد أبحر الصليبيون الغربيون إلى أوروبا، فى حين عاد حنا دى برين ورجاله إلى الشام، بعد أن عـقـد هدنة مع الأيوبيين لمدة ثمـان سنوات (١٢٢١-١٢٢٩) بشرط أن كلا من الفريقين يطلق ما عنده من الأسرى[٦]. وهكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة بعد أن كان متوقعاً لها النجاح، وأضاع الصليبيون من

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ١٢٩ .

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٤١ .

(٣) يقول أبو شامة وأبو المحاسن إن الذي دفع الكامل علي إجابة الصليبيين إلي الصلح هو حرصه علي سرعة خلاص دمياط، ولو صبر الكامل يومين لأخذهم برقابهم. (كتاب الروضتين، ج٢، ص ١٠٩، النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٤٢).

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٠٨ .

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ص ١٢٩ .

(٦) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٠٩ .

أيديهم فرصة الحصول على بيت المقدس وتوابعها من المدن والحصون مقابل الجلاء عن دمياط، فاضطروا إلى الجلاء أخيراً دون مقابل. وكما قال ابن الأثير، إن الله تعالى أتى المسلمين ظفراً لم يكن فى حسابهم، فإنهم كانت غاية أمانيهم أن يسلموا البلاد التى أخذت منهم (من الفرنج) بالشام ليعيدوا دمياط، فرزقهم الله إعادة دمياط وبقيت البلاد بأيديهم على حالها..[١].

وشاءت الظروف أن تصل النجدة التى طال انتظار الصليبيين لها فى نفس اليوم الذى تسلم المسلمون دمياط، وكانت نجدة ضخمة عظيمة. ولو بكرت تلك النجدة فى الوصول إلى الصليبيين فى دمياط لامتنعوا عن تسليمها على قول ابن واصل[٢].

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤ هـ.

(٢) مفرج الكروب، ج٤، ص٩٩ (تحقيق حسنين ربيع).

الباب الخامس عشر

الصليبيون بين مصر والشام

"وحيل بينهم وبين مايشتهون كما
فعل بأشياعهم من قبل إنهم
كانوا فى شك مريب"
(سبأ: ٥٤)

الفصل الأول

فردريك الثاني واسترداد بيت المقدس

اضطراب أحوال الصليبيين في شمال الشام:

اضطربت أحوال إمارة إنطاكية فى أوائل القرن الثالث عشر لوفاة أميرها بوهيموند الثالث سنة ١٢٠١، وما أعقب تلك الوفاة من مشاكل الوراثة ونزاع مع مملكة أرمينية الصغرى. وكان لبوهيموند الثالث أمير إنطاكية ولدان، أكبرهما ريموند الذى تزوج من الأميرة الأرمينية أليكس سنة ١١٩٥ ثم توفى فى حياة أبيه سنة ١٢٠٠ بعد أن أنجب من زوجته الأرمينية طفلا هو ريموند روبان. والثانى هو بوهيموند الرابع الذى ورث حكم إمارة طرابلس سنة ١١٨٧[١]. ووفقاً لأحكام القانون الإقطاعى صار مفروضاً أن ينتقل حكم إمارة إنطاكية لريموند روبان بوصفه ابن الوريث الشرعى للإمارة، ولكن الصليبيين فى إنطاكية عز عليهم أن تنتقل إماراتهم إلى أمير، أمه أرمينية ويتمتع بعطف ليو الثانى ملك أرمينية، فاستدعوا بوهيموند الرابع أمير طرابلس– وعم ريموند روبان– ليفرضوا عليه حكم إنطاكية[٢]. وهكذا قام صراع عنيف فى إنطاكية بين أميرها الجديد بوهيموند الرابع من ناحية، وملك أرمينية ليو الثانى المدافع عن حقوق ريموند روبان وأمه من ناحية أخرى.[٣]. وفى ذلك الصراع اعتمد بوهيموند الرابع على الفرنجة والبيزنطيين الأرثوذكس أعداء الأرمن الألداء، فضلا عن الداوية الذين كانوا فى نزاع دائم مع أرمينية حول ملكية حصن بغراس وغيره من الحصون الواقعة قرب الحدود بين بلاد الشام وأرمينية الصغرى[٤].

وعندما هاجم ليو الثانى الأرمينى إنطاكية سنة ١٢٠٣، لجأ بوهيموند الرابع إلى قلعة المدينة واعتصم بها ونادى بشعار الملك الظاهر[٥]، بل إنه أرسل رسالة إلى الملك الظاهر غازى على جناح طائر يستنجد به. وهكذا وجد الظاهر صاحب حلب فرصة

(1) Grousset: op. cit. Tome III, p. 246.

(2) Eracles p. 313.

(3) Stevenson: op. cit, p. 299.

(4) King: op. cit, p. 173.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ١٥٥ . والمقصود هنا الملك الظاهر غياث الدين أبو الفتح غازي الأول الأيوبي صاحب حلب.

طيبة لإدخال إنطاكية تحت حمايته، فخرج مسرعاً إلى إنطاكية، وعندئذ انسحب ملك أرمينية عائداً إلى بلاده[١]. ولم يلبث أن لجأ ليو الثانى الأرمينى إلى الانتقام من الداوية والملك الظاهر جميعاً، بوصفهم حلفاء بوهيموند الرابع، فهاجم بعض قلاع الداوية القريبة، كما هاجم حصن دربساك التابع للملك الظاهر سنة ١٢٠٥[٢]. وقد نجح الأرمن فى إنزال الهزيمة ببعض القوات الأيوبية، كما انتشروا فى أرض العمق ونهبوا من كان فيه من التركمان، ثم عادوا إلى بلادهم محملين بالغنائم وبصحبتهم الأسرى[٣]. وبذلك أدت مشكلة الوراثة فى إنطاكية إلى حرب بين الملك الظاهر صاحب حلب وليو الثانى (ابن لاون) صاحب أرمينية. وعندما استمر الأرمن فى إغاراتهم على أعمال حلب أرسل الملك الظاهر غازى لقتالهم جيشاً بقيادة فارس الدين ميمون القصرى، ولكن الأرمن أنزلوا به الهزيمة سنة ١٢٠٦[٤]. ولما بلغت أخبار تلك الهزيمة الملك الظاهر، خرج من حلب قاصداً حارم، وعندئذ هرب ملك الأرمن. وكان ليو الأرمنى قد بنى قلعة قرب دربساك فاستولى عليها الملك الظاهر وخربها[٥].

ثم إن الملك الظاهر أراد تقوية التحالف مع إنطاكية، من أجل القيام بأى عمل إيجابى ضد ليو الثانى الأرمنى، فقصد إنطاكية وطلب من بوهيموند الرابع الاشتراك معه بعشرة آلاف راجل لمهاجمة أرمينية الصغرى، والقضاء على ليو واستئصال شأفته وقلع أثره[٦]. ولما وصل خبر ذلك الى مسامع الملك ليو الثانى الأرمنى، خشى عاقبة التمادى فى معاداة الملك الظاهر، ووجد أن من صالحه أن يفرق بين الحليفين بمصالحة الملك الظاهر، فأرسل إليه يبذل الطاعة وأن يهدم الحصن الذى بناه قرب دربساك[٧]. وبذلك خرج الملك الظاهر من المعركة وبقى المسيحيون فى شمال الشام ينازعون بعضهم بعضاً.

---

(١) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٠٠ هـ. المقريزي: السلوك، ج١ ص ١٦٢-١٦٣ .

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ١٧٠ .

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، ج٣، ص ١٥٧ .

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦٠٢ هـ. أبو شامة: كتاب الروضتين، ص ٥٣ .

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٦ ص ١٩٠ .

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ١٧١ .

(٧) ابن العديم: زبدة الحلب، ج٣، ص ١٥٨ (تحقيق سامي الدهان) ومن الواضح أن هذا الرأي يتعارض مع ما ذكره أبو المحاسن من أن الملك الظاهر كان قد استولي فعلا علي القلعة المملوكة للأرمن قرب دربساك وخربها، كما سبق أن ذكرنا.

ولم تلبث مشكلة الوراثة فى إنطاكية أن اتسعت لتتخذ نزاعا مذهبيا عنيفا، عندما تعصب رجال الدين الأرثوذكس لبوهيموند الرابع، فى حين أيد بطرق إنطاكية الكاثوليكى ريموند روبان(١) . على أن تأييد الأرثوذكس لبوهيموند الرابع سرعان ما أدى إلى استثارة عداء الاسبتارية ونقمة معظم جمهور الفرنجة عليه، بحيث لم يعد يعتمد على مؤازرة الداوية. ومن الواضح أن تأييد الداوية لبوهيموند الرابع وعدائهم لملك الأرمن، إنما كان فى حقيقة أمره نزاعاً بين الداوية والأرمن حول حصن بغراس(٢) .

وفى الوقت الذى شغل بوهيموند الرابع بثورة بعض أمرائه ضده فى طرابلس سنة ١٢٠٦، كان عليه أن يواجه موقف بطرق إنطاكية العدائى منه، وهو البطرق بطرس أنجولم الذى لم يكتف بتأييد حق ريموند روبان فى إنطاكية وإنما جمع حوله مختلف عناصر المقاومة ضد بوهيموند الرابع، حتى صارت المدينة كلها فى حالة ثورة ضده سنة ١٢٠٧–١٢٠٨(٣) . وفى ذلك الوقت كان ليو الثانى ملك أرمينية وقريبه روبان على مقربة من إنطاكية، على رأس جيش من الأرمن يرقبان الموقف، حتى إذا ما فتح لهم الثوار أبواب المدينة دخلوها. وكان البطرق فى استقبال ريموند، وأعلنه الأمير الأوحد على إنطاكية، فى حين احتمى بوهيموند الرابع وأعوانه من الداوية بقلعة المدينة(٤) .

ولم يلبث أن قام بوهيموند الرابع بهجوم مضاد، فخرج من قلعة إنطاكية وباغت الأرمن، حتى اضطر ليو الثانى وريموند روبان إلى الانسحاب نحو بغراس. ثم حدث سنة ١٢٠٨–١٢٠٩ أن تحالف غياث الدين كيخسرو سلطان سلاجقة الروم والملك الظاهر غازى صاحب حلب مع الداوية ضد ملك أرمينية، وغزوا بلاده وعاثوا فيها فساداً وفتحوا بعض قلاعها وخربوها(٥)، الأمر الذى جعل ليو الثانى ملك أرمينية يطلب معونة الملك العادل، عم الظاهر. وعندئذ وافق كيخسرو والظاهر على الصلح مع ليو، بعد أن تعهد برد حصن بغراس إلى الداوية وأن لا يعرض لإنطاكية بعد ذلك(٦) . هذا وإن كان ليو الثانى لم يرد بغراس إلا بعد أن اغتصبها منه الداوية بالقوة

(1) Eracles p. 257.
(2) Grousset: op. cit. III, p. 252.
(3) Runciman: op. cit, III, p.p. 137-138.
(4) Setton: op, cit, II. P. 535.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ١٨٧ .
(٦) ابن العديم: زبدة الحلب، ج٣ ص ١٦٠ .

سنة ١٢١١، أما إنطاكية فظلت تتلاقفها أيدى بوهيموند الرابع وريموند روبان، فأخذها الأخير فى فبراير سنة ١٢١٦ وظل يحكمها ثلاث سنوات، حتى استردها بوهيموند الرابع نهائياً سنة ١٢١٦ وحكمها حتى وفاته سنة ١٢٣٣[١]. وقد عزم بوهيموند الرابع فى تلك المدة على الانتقام من الاسبتارية لمناصرتهم خصمه، فحرمهم من جميع ممتلكاتهم فى إنطاكية وطرابلس، الأمر الذى جعلهم يرفعون شكواهم أكثر من مرة للبابوية[٢].

ولاشك أن نجاح بوهيموند الرابع أدى إلى وحدة إنطاكية وطرابلس، وهى الوحدة التى استمرت حتى استيلاء المماليك على المدينتين. ولكن النزاع حول حكم إنطاكية جاء عاملا قوياً من عوامل إضعاف الصليبيين فى شمال بلاد الشام، بعد أن أدى إلى تضارب طوائفهم بعضهم مع بعض، فاصطدم الداوية بالاسبتارية، والأرثوذكس بالكاثوليك، والأرمن بالفرنجة، مما عاد بالخسارة على المسيحيين جميعاً[٣]. أما مملكة أرمينية الصغرى التى كانت حصناً فى جنب شرق آسيا الصغرى، والتى طمع ملكها ليو الثانى فى مد نفوذه وسيطرته على إنطاكية وحوض نهر العاصى، فقد أدى بها ذلك النزاع إلى شغلها عن سلاجقة الروم، الذين استغلوا الفرصة واحتلوا الجزء الغربى من قيليقية الأرمينية. ولم يلبث أن توفى ليو الثانى فى أوائل سنة ١٢١٩، مما عرض أرمينية الصغرى لفترة من القلاقل والاضطرابات انتهت سنة ١٢٢٦ بقيام الملك هيثوم الأول فى حكم أرمينية، وهو الذى يعتبر من أعظم الشخصيات التى يعتز بها تاريخ المملكة[٤].

ومهما يكن من أمر، فإن موقف الصليبيين ساء فى شمال الشام، فى الوقت الذى انتهت الحملة الصليبية الخامسة على مصر بالفشل، مما جعل الأنظار تتجه من جديد نحو البابوية والغرب الأوروبى لإرسال حملة صليبية قوية تسند الصليبيين بالشام وتمكنهم من الصمود- ولو إلى حين- فى وجه الانحلال الداخلى والضغط الخارجى الذى تعرضوا له فى النصف الأول من القرن الثالث عشر. ولكن هل كان الغرب الأوروبى فى العقد الثالث من القرن الثالث عشر على استعداد لتقديم المعونة

(1) Rey: Hist. des Princes d`Antioche, p. 385.
(2) Delaville Le Roulx: Hospitaliers, p. 148-149.
(3) King: op. cit, p. 193.
(4) Iorga: L'Armenie Cilicienne, p.p. 119-120.

المطلوبة للصليبيين بالشام بنفس الحماسة والقوة التى قدم بها معونته لهم فيما قبل؟ إن الإجابة على هذا السؤال تتطلب إلقاء نظرة عامة سريعة على أحوال الغرب الأوروبى فى ذلك الوقت.

الموقف بين البابوية والإمبراطورية في غرب أوروبا:

شهد الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى نزاعا حاداً بين البابوية والإمبراطورية المقدسة، استمر من سنة ١٠٥٧ حتى سنة ١٢٥٠ تقريباً، ومر بأدوار عديدة تخرج عن نطاق بحثنا[١]. ومهما تتعدد الأسباب الظاهرية التى أدت إلى إثارة الحرب بين الفريقين فى كل دور، فإن السبب الحقيقى الذى كمن وراء ذلك النزاع بجميع أدواره هو مبدأ السمو والتنافس بين السلطتين الكنسية والعلمانية، حول سيادة العالم، فأيهما أسمى: الباب أو الإمبراطور؟ وأيهما يجب أن تكون له الكلمة الأولى فى العالم الغربى السلطة الكنسية أم السلطة الزمنية؟ هذه هى المشكلة الحقيقية التى ألقت بغرب أوروبا فى صراع مرير فى الوقت الذى كانت رحى الحرب لا تنقطع بين الصليبيين والمسلمين فى أسبانيا والمغرب من ناحية، وفى الشرق الأدنى من ناحية أخرى.

وكان بطل الدور الثالث من أدوار النزاع بين البابوية والإمبراطورية، هو الإمبراطور فردريك الثانى، الذى ساعدته البابوية فى الحصول على حقه فى عرش الإمبراطورية والقضاء على خصمه أوتو الرابع سنة ١٢١٤، دون أن تدرى البابوية أن هذا الإمبراطور الجديد الذى جمع فى قبضته بين عرشى ألمانيا والصقليتين، سيكون أخطر خصم لها فى القريب العاجل. ذلك أن فردريك الثانى لم يكد يفرغ من مشاكله فى ألمانيا، حتى اتخذ ايطاليا وصقلية مسرحاً لجهوده، مما أثار مخاوف البابوية، وهى الحريصة عندئذ على كبت كل سلطان سياسى، يهدد حقوقها فى إيطاليا[٢]. وازدادت مخاوف البابوية عندما اتضح لها أن فردريك الثانى غير قانع بصقلية وجنوب إيطاليا، وإنما أخذ يعمل على توطيد نفوذه فى شمالها، أى فى لمبارديا. حقيقة أن فردريك الثانى حرص – حتى ذلك الوقت– على احترام مركز البابوية وحقوقها فى إيطاليا، ولكن سيطرة الإمبراطور على جنوب إيطاليا وشمالها أنذرت بوقوع الأملاك البابوية بين شقى الرحى، مما جعل البابا ينظر إلى محاولات فردريك وسياسته بعين ملؤها

---

(١) عن حوادث هذا النزاع ونوادره انظر: سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطي، ج١ ص ٣٥٠–٤٠٦ (طبعة ١٩٦٦).
(2) Barraclough: The Origins of Modern Germany p.p. 222-223.

الشك والخوف مما سيتمخض عنه المستقبل(١).

وكان فردريك الثانى قد وعد البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٥ بالقيام بحملة صليبية، كما وعده بفصل حكم صقلية عن تاج الإمبراطورية، ولكنه عاد وأخذ يماطل فى الوفاء بوعوده، كما توج ابنه هنرى سنة ١٢٢٠ ملكا ليخلف أباه فى حكم صقلية والإمبراطورية جميعاً، مما ضايق البابوية وأفزعها(٢). وفى سنة ١٢٢٠ تم تتويج فردريك الثانى إمبراطوراً فى كنيسة القديس بطرس بروما، بعد أن جدد العهد للبابوية بالقيام بالحملة الصليبية المزعومة. ويبدو أن فردريك لم يكن جاداً فى مشروعه الصليبى، فى الوقت الذى كانت البابوية تتوق لإرسال حملة صليبية على وجه السرعة لإصلاح الموقف الذى نجم فى الشرق الأدنى عن فشل الحملة الصليبية الخامسة على مصر سنة ١٢٢١(٣). وهنا يصح أن نشير إلى أن حنا دى برين ملك بيت المقدس، ذهب بنفسه إلى إيطاليا فى خريف سنة ١٢٢٢ ليشرح للبابا والإمبراطور سوء موقف الصليبيين فى الشام بعد فشل الحملة الخامسة على مصر، ويستحث الغرب على إرسال المساعدة العاجلة، كما زار فرنسا وانجلترا وأسبانيا ليطلب من ملوكها النجدة السريعة(٤).

وقد سبق أن أشرنا إلى أن حنا دى برين كان قد أنجب من زوجته مارى ملكة بيت المقدس ابنة وحيدة هى يولاند وريثة مملكة بيت المقدس الصليبية. ولكى يشجع البابا خصمه الإمبراطور فردريك الثانى على القيام بحملته الصليبية المزعومة، أيد فكرة زواج فردريك من يولاند، حتى تصبح للإمبراطور مصلحة فعلية فى التوجه إلى الشام، الأمر الذى جعل البابا يشترط على الإمبراطور أن يتم الزواج فى الشام نفسها. ولكن فردريك الثانى استدعى عروسه إلى صقلية حيث تم الزواج سنة ١٢٢٥ . وفى ٢٥ يوليو من ذلك العام تعهد فردريك للبابا فى سان جرمانو بأن ينفذ مشروعه الصليبى فى أغسطس سنة ١٢٢٧، كما تعهد بإيداع كفالة قدرها ألف أوقية من الذهب فى خزينة البابوية بروما، ولا ترد إلى الإمبراطور إلا إذا وفى بوعده(٥).

---

(١) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٣٩٥ وما بعدها.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 364-365.

(3) Runciman: op. cit, III, p.p. 176-177.

(4) Archer: op. cit, p. 177.

(5) Runciman: op. cit, III, p.p. 177.

على أن فردريك الثانى لم يخط خطورة واحدة فى سبيل تنفيذ وعده الصليبى. هذا إلى أنه لجأ بعد تتويجه إمبراطوراً إلى فرض قيود مشددة على رجال الكنيسة استهدفت الحد من نفوذهم وانتقاص حقوقهم، بل إنه عقد مؤتمراً فى كريمونا سنة ١٢٢٦ أعلن فيه تمسكه بحقوق الإمبراطورية كاملة، لاسيما فيما يتعلق بالسيادة على لمبارديا(١). وقد فرغت المدن الإيطالية فى لمبارديا– وهى الحريصة على استقلالها وسيادتها– من سياسة فردريك الثانى، فجددت حلفها ضد الإمبراطور. هذا فى الوقت الذى كان صبر البابا هونريوس الثالث قد نفد، فأخذ يتأهب هو الآخر لمحالفة المدن اللمباردية ضد الإمبراطور، عندما توفى البابا فى مارس سنة ١٢٢٧، مما أجل فتح باب النزاع من جديد بين البابوية والإمبراطورية(٢).

فردريك الثاني والمسلمون:

والواقع أن هناك عدة ظروف تجمعت لتجعل من فردريك الثانى شخصية من أبرز الشخصيات التى شهدتها العصور الوسطى وأشدها غرابة، ذلك أنه ولد لأب ألمانى وأم نصف إيطالية، وتربى وتعلم فى صقلية على مقربة من المؤثرات العربية والبيزنطية، فنشأ فيلسوفاً محباً للجدل والرياضيات(٣)، وأجاد ست لغات من بينها اللغة العربية، وتذوق الشعر العربى وغير العربى، هذه كله فضلا عن مهارته فى ميادين السياسة والحرب والقانون، حتى أطلق عليه المؤرخون أعجوبة الدنيا (٤).Stupor Mundi

ويمكن القول بأنه من الأسباب التى جعلت فردريك الثانى يماطل فى القيام بحملته الصليبية، عدم توافر الحافز الذى يدفعه إلى تلك الخطوة، والى الدخول فى حرب ضد الإسلام والمسلمين بالذات(٥)، وهو الذى نشأ فى صقلية فى كنف الحضارة الإسلامية وشب على حب المسلمين وحضارتهم. وقد ذكر القاضى جمال الدين ابن واصل فى هذا المعنى أن فردريك كان متميزاً عالماً محباً للحكمة والمنطق والطب،

---

(1) Kantorowicz: Fredrick the Second, p. 139.
(2) Cam. Med. Hist: vol 6, p. 144-145.
(٣) سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطي، ص ١١١–١٢٩ .
(4) Kantorowicz: op, cit, p. 393-395.
(5) Bryce: The Holy Roman Empire, p.p. 203-204.
سعيد عاشور: الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي.
(بحث في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية– مجلد ١١ سنة ١٩٦٣).

ميالا إلى المسلمين لأن مقامه فى الأصل ومرباه بلاد صقلية... وأهل الجزيرة غالبهم المسلمون[١]. كذلك أفاض جمهرة المؤرخين العرب فى وصف حب فردريك للمسلمين وإعجابه بحضاراتهم وعلومهم وتقريبه لهم واستخدامهم فى حاشيته، حتى إن المؤذنين المسلمين كانوا يؤذنون للصلاة عند كل فرض فى معسكره. كذلك ذكر المقريزى أن فردريك كان عالماً متبحراً فى علم الهندسة والحساب والرياضيات! وأنه بعث للملك الكامل بعدة مسائل مشكلة فى الهندسة والحكمة والرياضة، فعرضها الملك الكامل على الشيخ علم الدين قيصر الحنفى- المعروف باسم تعاسيف- وأرسل جوابها إلى الإمبراطور[٢].

وهنا يلاحظ أن السلطان الكامل عرف هو الآخر بتسامحه الدينى وولعه بالتاريخ والفلسفة والعلوم، لدرجة أنه كان يحتفظ بجوار مخدعه فى القلعة بجماعة من العلماء ينامون قربه ليتناقش معهم كل ليلة فى مختلف العلوم[٣]. ولعل هذا التوافق فى الميول والطباع والاتجاهات بين الكامل وفردريك هو الذى جعل الحملة الصليبية السادسة تتسم بمسحة من التسامح المطلق ليس له نظير فى أية حملة صليبية أخرى. وقد دفع ذلك بعض الكتاب إلى اتهام فردريك الثانى بممالأة الإسلام على حساب المسيحية، فى حين نادى البعض الآخر- مثل فولتير ومونتسكيو- بأن كراهية فردريك الثانى للبابوية والكنيسة الغربية هى التى دفعته إلى حب الإسلام والمسلمين[٤]. وثمة قصة متواترة فى المصادر خلاصتها أنه بينما كان فردريك فى عكا، سأل الأمير فخر الدين- الوسيط فى المباحثات بينه وبين الكامل- عن الخليفة وكنه الخلافة، فحكى له أنه ينحدر من نسل الرسول وأنه ورث عنه حقوقه فى حكم المسلمين، وعندئذ أجاب فردريك بأن ذلك من المنطق السليم، لا مثل البابا الدجال الذى لا تربطه صلة قربى بالمسيح ومع ذلك يدعى الحق فى حكم المسيحيين[٥]!!.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٣٤ (تحقيق حسنين ربيع).

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٢٣٢.

(٣) وكان الكامل يحب أهل العلم ويؤثر مجالسهم... وكان يناظر العلماء، وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها، فمن أجاب عنها قدمه وحظي عنده... وكانت تبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم... فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه. المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٥٨-٢٥٩ . ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص ١٥٨ (تحقيق حسنين ربيع).

(4) Grousset: op. cit. III, p. 280.

(5) Kantorowicz: op, cit, p. 192-193.

استنجاد السلطان الكامل بالإمبراطور فردريك الثاني:

وثمة سبب قوى للتقارب الذى تم بين السلطان الكامل الأيوبى والإمبراطور فردريك الثانى، هو اتجاه السلطان نحو الاستعانة بالإمبراطور فى مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية التى هددته وهددت دولته. أما هذه الأخطار، فقد أتت من ناحية أخيه المعظم أولا ثم الخوارزمية الذين هددوا الجبهة الشرقية للدولة الأيوبية ثانيا[١].

ذلك أن الارتباط بين أبناء العادل الثلاثة، الكامل والمعظم والأشرف، وهو الارتباط الذى يرجع إليه الفضل فى التغلب على الحملة الصليبية الخامسة- لم يلبث أن انفرط عقده فى نهاية سنة ١٢٢٣ وأوائل سنة ١٢٢٤ نتيجة لأطماع المعظم عيسى وجشعه[٢] . من ذلك أن المعظم هاجم حماة واستولى على بعض أعمالها مثل المعرة وسليمة. وكانت حماة وأعمالها لابن عمه الناصر صلاح الدين قلج أرسلان، فغضب الأشرف والكامل لذلك، وأرسل الكامل إلى أخيه المعظم يطلب منه الرحيل عن حماة فتركها وهو حنق[٣]! وكان ذلك بداية الخلاف بين المعظم من ناحية وأخويه الكامل والأشرف من ناحية أخرى.

غير أن الأشرف هرع إلى أخيه المعظم فى دمشق سنة ١٢٢٦ طالباً منه العمل بسرعة لتوحيد جبهة البيت الأيوبى أمام خطر الخوارزمية الذين باتوا يهددون الدولة الأيوبية قاطبة. وكان الأشرف أكثر إحساساً بخطرهم بحكم متاخمة بلاده- فى الجزيرة وخلاط – لهم[٤]. وعندئذ استغل المعظم الفرصة التى أتيحت له فقبض على

---

(١) سعيد عاشور: الإمبراطور فردريك الثانى والشرق العربي بحث نشر في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد الحادى عشر، سنة ١٩٦٣ .

(2) Wiet: L'Egypte Arabe, p. 350-351.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢١٤, أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٢٠ هـ.

(٤) كان ظهور الخوارزمية علي مسرح الشرق الأدني في تلك الفترة رد فعل مباشر للغزو المغولي، بعد أن دمر جنكزخان دولة الأتراك الخوارزمية سنة ١٢٢٠-١٢٢٢ وقد اضطر السلطان جلال الدين منكبرتي شاه خوارزم إلي الفرار عندئذ إلي الهند، حتي إذا ما علم بعودة جنكزخان إلي قراقوم في جوف آسيا، رجع جلال الدين إلي فارس حيث التف حوله الأتراك الخوارزمية من جديد. وأقام دولته مرة أخري متخذاً أصفهان عاصمة له. وبدلا من أن يعمل جلال الدين في ذلك الدور علي حماية العالم الإسلامى من خطر المغول قام بمهاجمة الخليفة الناصر العباسى في العراق. وطارد جيوشه حتي قرب بغداد سنة ١٢٢٥ . وبعد ذلك اتجه جلال الدين إلي مهاجمة إقليم جورجيا علي مقربة من أملاك الملك الأشرف بن العادل الأيوبى، الأمر الذي جعل الأشرف يهرع إلي دمشق طالباً مساعدة أخيه المعظم، انظر: D'Ohsson: Hist. des Mongols, III p. 5-19 & العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٤هـ. المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢١٥ وما بعدها .. النويري: نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٩٧ وما بعدها.

أخيه الأشرف فى دمشق ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تعهد له بمساعدته فى الاستيلاء على حمص وحماة، ثم فى مهاجمة أخيهما الثالث، وهو الكامل فى مصر. وقد تعهد الأشرف بكل ذلك، ولكنه ما كاد يفلت من يد المعظم حتى رجع عن جميع ما تقرر بينه وبين أخيه المعظم وتأول فى أيمانه التى حلفها أنه كان مكرها عليها وأكد تحالفه مع الكامل وأخبره بكل ما حدث[١].

على أن وجه الخطورة فى النزاع الذى نشب عندئذ بين أبناء العادل، هو أن الفريقين المتنازعين استعانا بقوى خارجية، فاستنجد الملك الكامل بالإمبراطور فردريك الثانى، فى حين استعان المعظم بالخوارزمية وسلطانهم جلال الدين خوارزم شاه[٢]. من ذلك ما يرويه المقريزى من أن المعظم كاتب جلال الدين واتفق معه معاندة لأخيه الكامل ولأخيه الملك الأشرف[٣]. وكان أن رد الكامل على ذلك بأن طلب من الإمبراطور فردريك الثانى أن يحضر إلى الشام والساحل ويعطيه البيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل. ولهذا الغرض أرسل الكامل إلى الإمبراطور مبعوثاً خاصاً، هو الأمير فخر الدين يوسف[٤].

وهكذا التهب الموقف فى الشرق الأدنى، فحاصر السلطان جلال الدين الخوارزمى خلاط- عاصمة الأشرف- فى يونية ١٢٢٦، كما أرسل جلال الدين إلى المعظم خلعة لبسها وشق بها دمشق وقطع الخطبة للملك الكامل[٥]. وكان أن استعد الكامل للزحف على الشام، مما أنذر باشتعال نار الحرب الأهلية بين المسلمين بعضهم وبعض فى سبتمبر سنة ١٢٢٧ . ومن جهة أخرى- وهذا ما يهمنا فى الموضوع الخاص بالنزاع بين أبناء العادل- فإن رسالة السلطان الكامل وصلت إلى الإمبراطور فردريك فتجهز الإمبراطور ملك الفرنج لقصد الساحل[٦]. وقد أحسن فردريك الثانى استقبال الأمير فخر الدين مبعوث السلطان الكامل، ثم رد الإمبراطور على السلطان بسفارة مماثلة تحمل هدية سنية وتحف غريبة، فتلقى الكامل رسول الإمبراطور

---

(١) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٢٣ هـ. العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٤هـ.
(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٢١-٢٢٣ .
(٣) المصدر السابق ص ٢١٦ .
(٤) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٤هـ. المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٢١-٢٢٢ .
(٥) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٢٢ .
(٦) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٤هـ المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٢٢ .

وهديته بالسرور البالغ وأكرمه إكراماً زائداً. كذلك اهتم الكامل بإعداد هدية فاخرة للإمبراطور فيها من تحف الهند واليمن والعراق والشام ومصر والعجم(١). وفى طريق عودة السفارة الإمبراطورية إلى الغرب، مرت بدمشق لتطلب من المعظم تسليم بيت المقدس للإمبراطور، ولكن المعظم أغلظ له وقال: قل لصاحبك ما أنا مثل الغير وماله عندى سوى السيف(٢).

الحملة الصليبية السادسة:

وفى الوقت الذى كان الملك الكامل يلح على الإمبراطور فردريك الثانى فى الحضور إلى الشرق لمساعدته ضد المعظم والخوارزمية، أخذ البابا هنريوس الثالث من ناحية أخرى يواصل ضغطه على الإمبراطور للوفاء بعهده والقيام بحملته الصليبية لإصلاح الوضع الذى غدا فيه الصليبيون بالشرق بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة. وإذا كان البابا هنريوس الثالث قد توفى سنة ١٢٢٧، فإن خليفته جريجورى التاسع(١٢٢٧-١٢٤١) امتاز بقوة الإرادة رغم تقدم سنة، فأبى قبول الأعذار التى طالما انتحلها فردريك الثانى لتأجيل حملته الصليبية، وأصر على ضرورة رحيل الإمبراطور إلى الشرق فوراً(٣). وكان أن أبحر الإمبراطور فعلا من برنديزى قاصداً بلاد الشام، ولكنه عاد بعد أيام مدعياً المرض، مما جعل البابا يعتبر المرض تمارضاً، فأصدر قرار الحرمان ضد الإمبراطور فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٢٢٧(٤).

وجدير بالذكر أن توقيع هذا القرار على الإمبراطور لم يكن سببه مماطلة فردريك الثانى فى تنفيذ وعده الصليبى فحسب، بل أيضاً تخوف البابوية من سياسة فردريك الثانى فى إيطاليا بوجه عام وتجاه البابوية بوجه خاص(٥). ومهما يكن من أمر، فإن هذا الإجراء فتح النزاع على مصراعيه من جديد بين الإمبراطورية والبابوية، وهو النزاع الذى أسهمت فيه المدن اللمباردية بسهم وافر(٦). وثمة حقيقة أخرى هى أن فردريك الثانى عندما ادعى المرض وعاد إلى إيطاليا فى ١٢ سبتمبر،

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٢٢ .

(٢) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٤هـ.

(3) Cam. Med. Hist: vol 6, p. 416.

(4) Kantorowicz: op, cit, p. 146.

(5) Creighton: A Hist of Papacy, 26.

(6) Baraclough: op. cit, p. 230.

لم يعد على رأس حملته كلها، إذ إن الفرقة الثالثة من جيشه فقط هى التى صحبته فى رحيله وعودته، بينما سبقت الفرقتان الأولى والثانية الإمبراطور إلى الشام ولم تعرفا نبأ مرضه وعودته(١). وقد أدرك هذه الحقيقة المؤرخ ابن الأثير، فأشار فى حوادث سنة ٦٢٥هـ إلى وصول الفرنج من الغرب وصقلية إلى الشام، ثم أشار فى حوادث سنة ٦٢٦هـ إلى وصول الإمبراطور نفسه وكانت عساكره قد سبقته ونزلوا بالساحل(٢).

ويبدو أن هجوم البابا على الإمبراطور كان عنيفا تلك المرة، فأدرك الإمبراطور أن مصلحته تستدعى القيام بحملته الصليبية حتى يفوت على البابا غرضه فى إظهار الإمبراطور فى صورة المسيحى العاق. وكان أن خرج فردريك الثانى على رأس قوة صغيرة من رجاله- بعد أن انفض عنه كثيرون نتيجة لقرار الحرمان الصادر ضده- وقصد عكا فى يونية سنة ١٢٢٨(٣). وفى ذلك الوقت كان وضع مملكة بيت المقدس، زوال وصاية أبيها حنا دى برين، الذى نزع إلى القسطنطينية للقيام بالوصاية على الإمبراطور الصغير بلدوين الثانى. ثم إن يولاند ملكة المملكة الصليبية وزوجة فردريك الثانى لم تلبث أن توفيت فى ابريل سنة ١٢٢٨ بعد أن أنجبت ولداً- هو كونراد صاحب الحق الشرعى فى مملكة الصليبيين بالشام. وعلى ذلك فقد انحصرت حقوق فردريك الثانى فى بيت المقدس عند وصوله إلى الشام سنة ١٢٢٨ فى كونه وصيا على الصغير، ابنه من يولاند، وهو الطفل الذى غدا صاحب الحق الشرعى فى مملكة بيت المقدس الصليبية(٤).

ونستطيع أن نقرر- فى ضوء الأحداث والظروف التى أحاطت بالحملة الصليبية السادسة- أن تلك الحملة كانت من أغرب الحملات الصليبية قاطبة. فإذا كانت الحملات الصليبية- السابقة واللاحقة- قد حظيت بعطف البابوية وتمتعت ببركتها، فإن حملة فردريك الثانى جاءت ملعونة من الباب، وعلى رأسها إمبراطور محروم من الكنيسة. وإذا كانت بقية الحملات الصليبية التى وفدت من الغرب قد حرصت على جلب ما أمكنها جلبه من الرجال والسلاح والخيل لمنزلة المسلمين، أن

(1) Kantorowicz: op, cit, p. 170.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦٢٦ هـ.

(3) Archer: op. cit, p. 381.

(4) Runciman: op. cit, III, p. 177.

فردريك لم يحضر معه سوى خمسمائة فارس، وهى قوة صغيرة لا تستطيع منازلة المسلمين فى معركة محلية محدودة(١). وإذا كانت الحملات الصليبية التى خرجت من الغرب قد فاضت بروح العداء ضد المسلمين والرغبة فى التشفى والانتقام منهم، فإن حملة فردريك خلت تماماً من هذه الروح، وبدت كأنها نزهة جميلة خرج فيها إمبراطور الغرب ليقوم بزيارة ودية لصديقه سلطان الشرق(٢).

أما عن رجال فردريك الذين سبقوه إلى الشام، فقد وصل صحبتهم بعض الإنجليز والفرنسيين، وهؤلاء جميعاً لم يتمكنوا من الحركة والشروع فى أمر الحرب انتظارا لوصول الإمبراطور من ناحية ولقلة عددهم من ناحية أخرى(٣). وثمة سبب آخر يضيفه ابن الأثير هو أن المعظم كان لايزال حيا وقت وصول تلك الجماعات الصليبية، وكان المعظم شهماً شجاعاً مقداماً، فلم يستطع الصليبيون القيام بأى نشاط فى بلاد الشام الا بعد وفاته(٤). وكان ذلك عندما وجد الصليبيون أن الإمبراطور فردريك الثانى قد تأخر عليهم، فشغلوا أنفسهم بتحصين قيسارية ويافا وغيرها من مدن الساحل. وقد اتجه الصليبيون الفرنسيون نحو صيدا التى كانت أراضيها مناصفة بين المسلمين والفرنجة وسورها خراب، فعمروها وطردوا المسلمين من نصيبهم، وحصنوا جزيرة قلعة البحر عند الطرف الشمالى الشرقى من الميناء(٥). أما الصليبيون الألمان فقد أعادوا بناء حصن القرين إلى الشمال الشرقى من عكا، ثم قاموا بعد ذلك- فى ربيع سنة ١٢٢٨- بإعادة بناء قلعة قياسرية التى كان المعظم قد هدمها(٦). وأخيراً وصل رجال الإمبراطور إلى عكا فى ابريل سنة ١٢٢٨، فى حين تخلف الإمبراطور نفسه فى قبرص، فجاء وصولهم مخيباً لآمال الصليبيين والملك الكامل جميعاً(٧).

على أنه يبدو أن الملك الكامل لم يعد فى حاجة إلى مساعدة الإمبراطور

(١) سعيد عاشور: الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي (بحث في مجلة الجمعة للدراسات التاريخية- مجلد ١١ سنة ١٩٦٣).

(2) Grousset: op. cit. III, p. 281.

(3) Stevenson: op. cit, p. 308.

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦٢٥ هـ، ٦٢٦هـ.

(5) Eracles p. 371- 372 &. ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦٢٥ هـ.

(6) King: op. cit, p. 208.

(٧) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص ٣٤.

فردريك الثانى عند وصول الأخير إلى الشرق، لأن الملك المعظم صاحب دمشق- ومصدر الخطر على الكامل- كان قد توفى فى ١٢ نوفمبر سنة ١٢٢٧ وخلفه ابنه الناصر داود، وهو شاب صغير فى العشرين من عمره ليست له من الخبرة أو القوة ما يجعله مصدر خطر على الكامل أو غير الكامل. بل إن الناصر داود لم يلبث أن اشتغل باللهو وأعرض عن مصالح الدولة[١]. وعلى ذلك لم تعد هناك حاجة للملك الكامل إلى معونة الإمبراطور فردريك الثانى.

فردريك الثاني في قبرص:

وكان فردريك الثانى قد اختار أن يمر فى طريقه من صقلية إلى الشام بجزيرة قبرص، ليجعل تبعية تلك الجزيرة للإمبراطورية الغربية تبعية فعلية. فمنذ أن استعان عمورى لوزجنان بالإمبراطور هنرى السادس فى تتويجه ملكاً على الجزيرة سنة ١١٩٧، وقبرص من الناحية النظرية تتبع الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وقد قام الإمبراطور فردريك الثانى بعدة محاولات لتقوية روابط تلك التبعية، آخرها المطالبة لنفسه بالوصاية على الطفل هنرى الأول لوزجنان بعد وفاة أبيه هيو الأول لوزجنان سنة ١٢١٨ . ولكن الوصى على هنرى- وهو فيليب دى إيلين- عجل بتتويج هنرى فى نيقوسيا سنة ١٢٢٥، وأيده فى تلك الخطوة أعضاء بيت لوزجنان ليقطعوا على الأباطرة الألمان حبل أطماعهم فى الجزيرة. ولما مات فيليب دى إيلين سنة ١٢٢٨، حل محله فى الوصاية ابنه حنا دى إيلين على غير رضى من الملكة الوالدة[٢]، وصادف أن حدث ذلك فى الوقت الذى مر فردريك الثانى بجزيرة قبرص وهو فى طريقه إلى عكا، فاستعانت به الملكة الوالدة وطلبت معونته ضد حنا دى إيلين[٣].

وقد وجد فردريك الثانى فى تلك الاستعانة فرصته لنشر سلطانه الفعلى على جزيرة قبرص وتوسيع نفوذه فى الشرق، مما يساعده على تحقيق فكرة الإمبراطورية العالمية من ناحية ويقوى مركزه فى نظر السلطان الكامل الأيوبى من ناحية أخرى.

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٢٥ .

(2) Stubbs: Stevenson Lectures. p. 199-200.

(3) Kantorowicz: op, cit, p. 192. Stubbs: op. cit, p. 200.

هذا فضلا عن أن موارد قبرص كافية لتغطية نفقات حملته الصليبية على الشام[١].

ولهذه الاعتبارات توقف فردريك الثانى فى ميناء ليماسول بجزيرة قبرص فى ٢١ يولية سنة ١٢٢٨، حيث استقبل استقبالا طيباً. وأصبحت الجزيرة– وفقاً لقانون الإقطاع الجرمانى– تابعة للإمبراطور فردريك الثانى. وقد بادر الإمبراطور بتعيين نائب صقلى عنه فى قبرص، كما بث الحاميات فى مختلف أنحاء الجزيرة وعين موظفين ماليين لجمع الدخل والضرائب[٢]. وأخيراً– فى سبتمبر سنة ١٢٢٨– أبحر فردريك الثانى من فاماجوستا بقبرص قاصداً عكا، فوصلها بعد أربعة أيام.

الموقف في بلاد الشام عند وصول فردريك الثاني:

خرج فردريك الثانى من بلاده قاصداً الشرق معتمداً على فكرة واحدة، هى الحصول على بيت المقدس من الملك الكامل، مقابل ما يقدمه له من مساعدات ضد أخيه الملك المعظم صاحب دمشق. ولكن فردريك أصيب بخيبة أمل شديدة عندما وصل إلى الشام فوجد أن الموقف تبدل بوفاة المعظم، واتفاق أخويه الكامل والأشرف على اقتسام بلاده. بل إن الكامل خرج فعلا من مصر على رأس جيشه واحتلت قواته بيت المقدس ونابلس فى صيف سنة ١٢٢٨[٣].

وكان الملك الناصر داود– ابن المعظم– أضعف من أن يقوم بمحاولة جدية لحماية ملكه الذى ورثه عن أبيه، فاستنجد بعمه الأشرف ضد عمه الكامل؛ وحضر الأشرف إلى دمشق فى أغسطس سنة ١٢٢٨ متظاهراً بحماية ابن أخيه. وهكذا سبك العمان دورهما، فأرسل الأشرف من دمشق رسالة إلى الكامل يستعطفه ويعرفه أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعة له وموافقة لأغراضه والاتفاق معه على منع الفرنج عن البلاد؛ ورد عليه الكامل بأنه أيضاً ما حضر إلى الشام إلا لدفع الفرنجة الذين احتلوا صيدا وجزء من قيسارية، وأن واجبهما حماية بيت المقدس التى فتحها عمهما صلاح الدين[٤].

ويروى ابن الأثير أن الكامل انسحب بعد ذلك إلى تل العجول– جنوبى غزة– لمراقبة الموقف، فى حين استولى الخوف على الأهالى وخشوا أن يستولى الصليبيون

(١) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٤١ .

(2) Kantorowicz: op, cit, p. 181.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٢ ٦ .

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦٢٥ هـ.

على بيت المقدس وبقية بلاد الشام إذا عاد الكامل إلى مصر. ولم يلبث الأشرف أن لحق بأخيه الكامل فى تل العجول، وهناك اتفق الأخوان على اقتسام ملك المعظم، فحاصرا الناصر داود فى دمشق ثلاثة أشهر حتى اقتحماها فى ١٢ يوليو سنة ١٢٢٩[١]. وكان أن ترك الكامل لأخيه الأشرف دمشق، وعوض الناصر داود عنها بالكرك والبلقان والصلت والأغوار والشوبك، وأخذ الكامل لنفسه البلاد الشرقية التى كانت عينت للناصر وهى حران والرها وغيرهما من البلاد التى كانت بيد الملك الأشرف، ثم نزل الناصر داود عن الشوبك وسأل عمه الكامل فى قبولها فقبلها[٢].

وما دام الوضع قد استقر بين أبناء البيت الأيوبى بالشام على النحو السابق فإن الكامل لم يعد محتاجاً إلى مساعدة الإمبراطور فردريك الثانى. ولكن فردريك لم يأت إلى عكا إلا باستدعاء الكامل له على قول المقريزى[٣]. ويصور لنا المؤرخون مدى حيرة الكامل فى موقفه إزاء فردريك، لأنه هو الذى استدعاه وألح عليه فى الحضور. من ذلك ما يقوله المؤرخ أبو الفدا من أن الملك الكامل قد استدعى الإمبراطور فردريك إلى قصد الشام بسبب أخيه المعظم، فوصل الإمبراطور وقد مات المعظم، فنشب له الملك الكامل[٤]. أما ابن واصل والمقريزى فيقولان تحير الملك الكامل ولم يمكنه دفعه ولا محاربته لما كان تقدم بينهما من الاتفاق، فراسله ولاطفه!![٥].

وإذا كان الكامل قد أحس بأنه ليس فى مصلحته فى تلك الظروف أن يصطدم بالصليبيين بالشام أو يثير حرباً معهم، نظراً للخلافات الداخلية بين أبناء البيت الأيوبى من ناحية، ولتخوف الأيوبيين من الخوارزمية ومن خلفهم المغول من ناحية أخرى، فإنه كان يحس فى الوقت نفسه بأن أى تساهل مع الصليبيين أو تفريط فى حقوق المسلمين سيثير ضده الرأى العام فى البلاد الإسلامية وخاصة فى دمشق[٦].

أما عن موقف فردريك الثانى فلم يقل حرجاً وحساسية، لأنه خرج من بلاده محروماً من الكنيسة مغضوباً عليه من البابوية، معتمداً على وعد الكامل له بإعطائه

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٢٧ . ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦٢٦ هـ.

(٢) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٢٦ هـ.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٢٨-٢٢٩ .

(٤) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٢٥ هـ.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ١٨٧ . المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٢٩ .

(6) Setton: op, cit, II. P. 454.

بيت المقدس لإصلاح مركزه فى الغرب الأوروبى. ولو كان فردريك يعلم أن الكامل سينكث بوعده لما خرج أصلا الى الشرق، أو لاستعد استعداداً جدياً لحرب المسلمين، وجلب معه جيشاً كبيراً للدفاع عن كيان الصليبيين. ولكن بعد أن جرت الأمور على ما جرت عليه، ماذا فعل فردريك بالخمسمائة فارس الذين أحضرهم معه؟ إنه لا يستطيع الاعتماد تماماً على تعاون الصليبيين فى بلاد الشام معه، لأن أى مسيحى مخلص يأبى أن يتعاون مع رجل محروم من الكنيسة مطرود من رحمتها، حتى ولو كان هذا الرجل إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة. وإذا هو رجع فاشلا إلى الغرب ماذا سيكون موقفه بعد أن أعطى البابوية سلاحاً جديداً للتشهير به والإقلال من شأنه؟ فالمسألة بالنسبة لفردريك الثانى كانت تعنى مستقبل عرشه فى الغرب الأوروبى ومصير المعركة بينه وبين البابوية، لأن نجاحه فى استرداد بيت المقدس سيكون قبل كل شىء انتصاراً له على البابوية. ومصداق ذلك ما قاله فردريك الثانى للمسلمين فى الشرق من أنه ما له غرض فى القدس ولا غيره، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج[١].

ولعله من الغريب أن نسمع عن البابوية – وهى التى ملأت الدنيا صياحاً وعويلا على ضياع بيت المقدس من قبضة الصليبيين سنة ١١٨٧ – أنها أخذت تعمل على ألا ينجح الإمبراطور فردريك الثانى فى استرداد تلك المدينة حتى لا يكسبه ذلك شرفاً ونصراً فى معركته ضدها. لذلك أخذت البابوية ترسل الرسل والخطابات إلى السلطان الكامل تحرضه على عدم تسليم بيت المقدس للإمبراطور.. ولاعجب فالبابا كان يعلم أنه لو قدر لفردريك الانتصار فى مهمته، فإن ذلك سيكون فى نظر المعاصرين بمثابة حكم الله للإمبراطور المحروم؛ وفى هذا فصل الخطاب بين فردريك وجريجورى أو بين الإمبراطورية والبابوية[٢].

وهكذا لم يبق أمام فردريك الثانى سوى سلاح واحد، هو سلاح المفاوضة والاستعطاف، واستخدام كل الوسائل الدبلوماسية للوصول إلى غرضه والحصول على بيت المقدس.

---

(١) سعيد عاشور: الامبراطور فردريك الثانى والشرق العربي (بحث فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية).
المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٣٠ .

(2) Kantorowicz: op, cit, p. 185.

صلح يافا سنة ١٢٢٩:

ولم يكد الإمبراطور فردريك الثانى يصل إلى عكا حتى بادر بإرسال سفارة من رسولين إلى السلطان الكامل، تحمل له هدايا نفسية- من منسوجات حريرية وأوان ذهبية وفضية- وتطالبه بتحقيق وعدة وتسليم بيت المقدس. غير أن الكامل تنكر لوعده وأعلنها فى صراحة أنه كان سيعطى بيت المقدس للإمبراطور ثمناً للمساعدة التى يقدمها الأخير له، أما وقد تبدلت الظروف واستغنى السلطان عن المساعدة، فلا داعى لدفع ذلك الثمن، لاسيما وأن التفريط فى بيت المقدس سيؤذى شعور المسلمين عامة[١].

وهكذا طالت المفاوضات، وساء موقف الإمبراطور دون أن تفلح جهود مندوب السلطان فى الوصول إلى حل يرضى الطرفين. وفى فترة المفاوضات هذه، اتجه فردريك إلى يافا وقام بتحصينها فى نوفمبر سنة ١٢٢٨[٢]. ولكنه تلقى عندئذ أخباراً سيئة من صقلية، تفيد أن البابا أصدر ضده قرار الحرمان مرة أخرى، وأباح لرعاياه الاعتداء على ممتلكاته، كما نشرت البابوية إشاعة فى الغرب بأن الإمبراطور قد مات، وادعى البابا لنفسه حق الوصاية على الإمبراطورية[٣]. وكان لهذه الأخبار أثرها فى نفس الإمبراطور الذى أحس بضرورة عودته إلى بلاده. ولكنه أدرك أن رجوعه فاشلا سيزيد الطين بلة ويضاعف من حرج موقفه أمام الرأى العام فى الغرب الأوروبى. لذلك لجأ فردريك الثانى إلى سلاح الاستعطاف والتذلل للسلطان، حتى يحكى أنه كان يبكى فى بعض مراحل المفاوضات[٤]. ويفسر هذا الشعور رسالة أرسلها فردريك الثانى إلى السلطان الكامل الأيوبى أثناء المفاوضات يقول فيها أنا

---

(1) Michaud: op. cit, III. p. 514-516.

(2) King: op. cit, p. 207-208. Stevenson: op. cit, p. 311.

(٣) أرسل الإمبراطور فردريك الثانى بعد عودته إلي غرب أوروبا رسالة طريفة إلي صديقه فخر الدين يوسف مندوب السلطان الكامل في المفاوضات بينه وبين الإمبراطور، وحكي في هذه الرسالة بعض ما فعله البابا أثناء غيابه في الشرق. فقال: بسم الله الرحمن الرحيم من قيصر العظيم إمبراطور رومية فردريك... وبعد علمنا أنه محب لسماع السار من أبنائنا، فنشعره أن البابا باء بالغدر والخديعة.. اخذ إحدي قلاعنا المنيعة.. واضطر إلي أن زعم أننا متنا، وحلف القرذنالية علي ذلك وعلي أن رجوعنا مستحيل، وراوضوا العامة بمثل هذه الأباطيل، وأنها ليس أحد بعدنا يحسن جراية بلادنا وحفظها برسم ولدنا مثل البابا... فعند وصولنا إلي ميناء برنديس المصونة. أهل أعداءنا الجزع وحل بهم الروع والفزع ونكصوا إلي ورائهم خاسرين.... المكتبة الصقلية، ج٢ ص ٣٤ باب ١٠٣ من التاريخ المنصوري تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان لأبي الفضائل العموي.

(4) Kantorowicz: op, cit, p. 185.

مملوكك وعتيقك، وليس لى عما تأمره خروج. وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى، فإن رجعت خاياً انكسرت حرمتى بينهم.. وهذا القدس فهى أصل اعتقادهم وضجرهم، والمسلمون قد أخربوها فليس لها دخل طائل، فإن رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه!.. ويرتفع رأسى بين ملوك البحر[١].

ولم تلبث تلك الاستعطافات أن آتت أكلها وأفلحت فى التأثير على الكامل، وهو السلطان المتسامح البعيد عن التطرف فى علاقاته مع الصليبيين، والذى سبق أن عرض مراراً عليهم بيت المقدس مقابل الجلاء عن دمياط. هذا إلى أن ما قام به فردريك الثانى من تحصين يافا، جاء بمثابة مظاهرة عسكرية جعلت الكامل يخشى اتفاق الإمبراطور وبقية الجموع الصليبية بالشام للقيام بعمل حربى ضده، وهو الشعور الذى فسره المقريزى بقوله إن الكامل خاف من غائلته عجزا عن مقاومته[٢]. وكانت المغامرة فى حرب ضد الإمبراطور والصليبيين عندئذ تعنى بالنسبة للكامل وقوعه بين ثلاثة أعداء، هم ابن أخيه الناصر داود من ناحية والصليبيين من ناحية أخرىْ، ثم الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين- الذى استنجد به الناصر داود- من ناحية ثالثة. وفى ضوء هذه الحقائق كلها- وتحت تأثير رسول الكامل فى المفاوضات، وهو الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ- وافق الكامل على عقد اتفاقية يافا مع الإمبراطور فردريك الثانى فى ١٨ فبراير سنة ١٢٢٩[٣].

وبمقتضى تلك الاتفاقية تقرر الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات، على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة، فضلا عن تبنين وصيدا بأكملها[٤]. وبخصوص بيت المقدس اشترط الصلح على أن تبقى بيت المقدس على ماهى عليه من الخراب، ولا يجدد سورها، وأن يكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج. وأن الحرم- بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى يكون بأيدى المسلمين، لا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط، ويتولاه قوام من المسلمين ويقيمون فيه

(١) المكتبة الصقلية ج٢ ص ١٤ (ذيل الباب الثانى والسبعين من كتاب الوافي بالوفيات).

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٣٠.

(3) King: op. cit, p. 208.

(٤) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٦هـ.

شعار الإسلام من الأذان والصلاة[١].

وهكذا استطاع فردريك الثانى- مع ضعف إمكاناته- أن يحقق من المكاسب ما عجزت عنه جهود ريتشارد قلب الأسد بإمكاناته الضخمة، مع ملاحظة أن فردريك حصل على بيت المقدس دون أن يدخل معركة أو يخسر رجلا واحداً[٢].

ولم يلبث أن أرسل السلطان الكامل فنودى بالقدس بخروج المسلمين منه وتسليمه إلى الفرنج[٣]. ولكن تسلم بيت المقدس للصليبيين بتلك السهولة، وهى المدينة التى استردها صلاح الدين بعد جهاد عنيف، أثار موجة عارمة من السخط والأسى فى العالم الإسلامى، فاستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم مالا يمكن وصفه[٤]. ويفصل المقريزى مدى الأسى الذى حل بالمسلمين لسماع خبر تفريط الكامل فى بيت المقدس فيقول: فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه فى غير وقت الأذان.. فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشائعات عليه فى سائر الأقطار[٥]. أما فى مدينة دمشق فقد أقيم مجلس وعظ رثى فيه بيت المقدس بأشعار شهيرة ذكرها المؤرخون. وهكذا قامت القيامة فى جميع بلاد الشام، واشتدت العظائم بحيث إنه أقيمت المآتم!![٦].

ويبدو أن السلطان الكامل أحس أنه تورط مع ملك الفرنج على قول المقريزى، فحاول أن يهون من أمر تسليم بيت المقدس للصليبيين، ويبرر مسلكه فى تلك الاتفاقية فقال إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر خراب، والمسجد على حاله وشعار الإسلام قائم، ووالى المسلمين متحكم فى الأعمال والضياع[٧]. ثم إن الإمبراطور فردريك أحس أيضاً بما سببته الاتفاقية من حرج للسلطان الكامل فاعتذر للأمير فخر الدين بأنه

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٣٠ .

(2) Brehier: L`Eglise et l`Orient. P. 203.

(٣) لمقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٣١ .

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٦٢٦ هـ.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٣١ .

(٦) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٦هـ. أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٢٦ هـ.

(٧) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٣٠ .

لولا يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئاً من ذلك(١).

ولم يكن المسلمون وحدهم هم الذين أظهروا استياءهم من اتفاقية يافا سنة ١٢٢٩، بل قابل الصليبيون أيضا تلك الاتفاقية بالغضب والاستياء، وعبروا عن غضبهم بصور شتى. فبعضهم قال إن كرامة المسيحية كانت تقتضى أن يؤخذ بيت المقدس من المسلمين بحد السيف، لا عن طريق الاستجداء والاستعطاف مثلما فعل فردريك الثانى(٢)، لاسيما وأنه ترتب على حصول الصليبيين على المدينة بالطريق السلمى أن المسلمين احتفظوا بكثير من حقوقهم فيها، كما استبقوا لأنفسهم المسجد الأقصى وقبة الصخرة وهو ما لا يجب أن يكون.. والبعض الآخر قال بأنه لا قيمة لحصول الصليبيين على بيت المقدس بدون الأردن والكرك، وأنه لو كان هذا الحل مقنعاً فى نظر المسيحيين لرضوا به عندما عرضه الكامل على الصليبيين فى مصر أيام الحملة الصليبية الخامسة، ولكنهم رفضوه عندئذ لأنهم أدركوا أنه لابد من إحياء مملكة بيت المقدس كاملة بما فيها أراضيها فى الأردن(٣).. أما الداوية والاسبتارية فقالوا إنه لا قيمة لأى عمل أو نجاح يحققه إمبراطور محروم من الكنيسة مطرود من رحمتها. هذا فضلا عن غضب الداوية لأن الإمبراطور سمح للمسلمين بالاحتفاظ بالمسجد الأقصى الذى كان مركزاً للداوية قبل حطين(٤). وأخيراً فإن أمراء الصليبيين المحتلين لم يستطيعوا أن يخفوا حقدهم على الإمبراطور الذى أعلن نفسه ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية، والذى لم يقبل من أحدهم رأياً خلاف رأيه، فانضموا إلى زمرة الساخطين(٥). وكان أن وقع جيرولد -"Gerold بطرق مملكة بيت المقدس- قرار الحرمان على المدينة المقدسة نفسها وعلى من فيها من المسيحيين إذا هم استقبلوا الإمبراطور المحروم من الكنيسة(٦).

وهكذا لا يعترف أحد بفضل الإمبراطور فردريك الثانى، وتنكرت جميع طوائف المسيحيين له، ويخسوه العمل الكبير الذى أداه لهم باسترداد بيت المقدس دون عناء.

---

(١) المصدر السابق.

(2) Stevenson: op. cit, p. 313.
(3) Runciman: op. cit, III, p. 188.
(4) Setton: op, cit, II. P. 456-457.
(5) King: op. cit, p. 208.
(6) Cam. Med. Hist: vol 6, p. 314.

فردريك الثاني في بيت المقدس:

ولم يكن هناك متسع من الوقت أمام فردريك لمزيد من النقاش والجدل، فشق طريقه إلى بيت المقدس عقب الفراغ مباشرة من عقد صلح يافا، ودخل المدينة المقدسة فى يوم السبت ١٧ مارس سنة ١٢٢٩ ليتسلمها من يد القاضى شمس الدين قاضى نابلس الذى أرسله الكامل مع الإمبراطور فى خدمته. وفى اليوم التالى- يوم الأحد- دخل الإمبراطور كنيسة القيامة ليتوج نفسه بيده، بعد أن رفض أحد من رجال الكنيسة أن يقوم بتتويج إمبراطور محروم[(١)]. ويرى بعض المؤرخين أن الإمبراطور فردريك الثانى قصد أن يتوج نفسه بيده فى كنيسة القيامة- وتعمد ذلك- إشارة منه فى ذلك المكان ذى الأهمية الدينية القصوى إلى أنه لم يأخذ التاج عن وساطة الكنيسة أو من يد أحد رجال الدين. وإنما أخذ الإمبراطور تاجه وتلقى سلطانه من الله مباشرة[(٢)].

وبعد أن عقد الإمبراطور فردريك الثانى مجلساً صغيراً لبحث شئون الدفاع عن بيت المقدس، فكر فى زيارة المسجد الأقصى. وهناك علم الإمبراطور أن السلطان الكامل أصدر أوامره إلى المؤذنين بعدم إقامة الأذان طيلة وجود الإمبراطور فى المدينة إعظاماً للملك واحتراماً له، فاستاء فردريك لذلك، وقال للقاضى شمس الدين أخطأت فيما فعلت، والله إنه كان أكبر غرضى فى البيت المقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل.. [(٣)]. ثم إن فردريك الثانى رأى قسيساً بيده الإنجيل يهم بدخول المسجد الأقصى، فزجره الإمبراطور وطرده، وهدد كل من يدخل المسجد الأقصى من الفرنج بغير إذن، وقال إنما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه، فلا يتعدى أحد منكم طوره[(٤)].

وهكذا أخذ فردريك يقوم بأعمال وتصرفات أثارت دهشة المسلمين والمسيحيين سواء، مما جعل المؤرخ العينى يتشكك فى صدق عقيدته ويقول عنه إنه كان دهرياً يتلاعب بالنصرانية[(٥)].

(1) Archer: op. cit, p. 382.
(2) Kantorowicz: op, cit, p. 199.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٣١ .
(٤) المصدر السابق. سعيد عاشور: الإمبراطور فردريك الثانى والشرق العربى.
(٥) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٦هـ، اي أنه كان وجودياً ملحداً.

عودة فردريك الثاني:

وفى يوم الإثنين ١٩ مارس ١٢٢٩ وصل الى بيت المقدس بطرس أسقف قيسارية ليوقع قرار الحرمان على المدينة وفقاً لقرار البطرق جيرولد. وقد استاء الإمبراطور فردريك الثانى لهذه الإهانة البالغة، وترك بيت المقدس غاضباً إلى يافا، حيث مكث هناك يوماً واحداً، ثم غادرها إلى عكا ليصلها يوم ٢٣ مارس[١]. وهناك وجد فردريك مدينة عكا فى حالة ثورة أهلية، بعد أن انتقل النزاع بين الجلفين والجبللينيين من الغرب الأوروبى إلى الشرق الأدنى صحبه الإمبراطور فردريك، وظل ذلك الصراع مستحكماً بين الصليبيين بالشام حتى سقوط عكا سنة ١٢٩١[٢] ذلك أن الجنوية والبنادقة فى عكا كانوا حانقين على البيازنة أنصار الإمبراطور[٣]. فى حين استشاط نبلاء مملكة بيت المقدس غضباً لأن فردريك لم يحترم قوانين مملكتهم، ولم يعمل حساباً لرأيهم، وأباح لنفسه- قبل أن يتوج نفسه فى كنيسة القيامة- أن يعقد اتفاقية مع السلطان الكامل دون أخذ رأيهم، فضلا عن أنه فى نظرهم كان مغتصباً للعرش وجاء تتويجه غير شرعى[٤].

ثم جاء وصول فردريك الى عكا ليزيد النار لهيباً، إذ أراد أن يظهر احتجاجه على مسلك البطرق جيرولد فجمع رجال الدين والحجاج وغيرهم، وبرر أمامهم سياسته تجاه المسلمين، ولاسيما فيما يتعلق بصلح يافا الذى عقده مع السلطان الكامل. على أن فردريك قوبل بالمعارضة وعدم الرضى، فلجأ بعد ذلك إلى اتخاذ بعض الإجراءات العنيفة، مستعيناً بجنده اللمبارديين والبنازنة، فأغلق أبواب عكا ووضع حراسة مشددة حول بيت الداوية وقصر البطرق[٥]. وسرعان ما سرت الإشاعات فى عكا بأن الإمبراطور ينوى هدم قلعة الداوية فى عثليث وأنه سيقبض على بعض أعداله مثل مقدم الداوية وحنا دى إبلين صاحب بيروت وينفيهم إلى أبوليا، مما زاد من كهربة الجو داخل عكا[٦].

(1) Runciman: op. cit, III, p. 190.

(٢) أطلق اسم الجلفين في تاريخ أوروبا في العصور الوسطي علي أعداء الإمبراطورية بوجه عام في نزاعها ضد البابوية، في حين أطلق اسم الجبللينيين علي أنصار الإمبراطورية وأعداء البابوية بوجه عام.
للتفصيل انظر: سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطي، ج١ ص ٣٧١ (طبعة ١٩٦٦).

(٣) كانت بيزا من المدن اللمبادية القليلة التي وقفت في صف الإمبراطور أثناء نزاعه مع البابوية في ايطاليا.

(4) Eracles. II. p. 374.

(5) Runciman: op. cit, III, p. 191 & King: op. cit, p. 209.

(6) Grousset: op. cit. III, p. 320.

والواقع أن مصالح الإمبراطور فردريك الثانى فى الغرب كانت أهم بكثير من مصالحه في الشرق. ولم تلبث أن وصلته الأخبار- وهو فى عكا- باعتداء الجيوش البابوية على أراضيه وممتلكاته فى إيطاليا، وبأن حمية حنا دى برين- ملك بيت المقدس السابق- تحالف مع البابا ضده. لذلك أبحر فردريك الثانى من عكا فى أول مايو سنة ١٢٢٩، قاصداً قبرص حيث قضى عدة أيام، ثم بارحها إلى إيطاليا فوصلها فى ١٠ يونية سنة ١٢٢٩[1].

وعلى ذلك الوجه انتهت الحملة الصليبية التى اتصفت بالغرابة من بدايتها حتى نهايتها. ومهما يقال فى أمر فردريك الثانى وتصرفاته، فإنه لا يمكن إنكار قيمة الكسب الكبير الذى حققه للمسيحية، باسترداده بيت المقدس دون عناء. وقد حاولت البابوية أن تقلل من شأن ذلك العمل، ولكنها لم تستطع المضى فى غيها طويلا، فاضطرت إلى الاعتراف أخيراً بما حققه الإمبراطور فردريك الثانى من كسب للمسيحية وعقدت معه صلح سان جرمانو سنة ١٢٣٠، وبمقتضاه رفع قرار الحرمان عن الإمبراطور[2].

(1) Cam. Med. Hist: vol 6, p. 147.

(٢) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطي، ج١ ص ٣٩٩ (١٩٦٦).

الفصل الثاني

بلاد الشام في الربع الثاني من القرن الثالث عشر

اضطراب أحوال الصليبيين في الشرق:

شهدت السنوات التى أعقبت رحيل الإمبراطور فردريك الثانى من الشرق اضطراب أحوال الصليبيين فى الشرق الأدنى عامة، سواء فى قبرص أو فى بلاد الشام. ففى قبرص كان فردريك قد عين خمسة من النبلاء القبارصة للوصاية على الملك الصغير هنرى الأول لوزجنان، وأمر الإمبراطور أولئك الأوصياء بطرد أشياع آل إيلين من الجزيرة. فتعهدوا بذلك، كما تعهدوا بدفع عشرة آلاف مارك للإمبراطور(١). وللحصول على هذا المبلغ لجأ الأوصياء إلى فرض ضرائب باهظة على الأهالى، فضلا عن مصادرة أملاك آل إيلين. وكان أن لجأ أحد أفراد هذه الأسرة إلى الاستنجاد بحنا دى إيلين فى الشام، الذى خرج فوراً من عكا على رأس بعض الصليبيين المغامرين، ونزل على شاطئ قبرص، وزحف على نيقوسيا عاصمة الجزيرة، وفى الموقعة التى دارت بين آل إيلين والأوصياء الألمان على قبرص فى يولية سنة ١٢٢٩، حلت الهزيمة بالأوصياء، وفر بعضهم، حتى تم القضاء على حركتهم نهائياً فى صيف سنة ١٢٣٠ . وهكذا تولى حنا دى إيلين الوصاية على عرش قبرص والإشراف على حكومتها حتى بلوغ الملك حنا الأول لوزجنان سنة ١٢٣٢(٢).

على أن الإمبراطور فردريك الثانى لم يستطع أن يغفر لحنا دى إيلين فعلته، فلم يكد يعقد مع البابا جريجورى التاسع صلح سان جرمانو فى صيف سنة ١٢٣٠ حتى أعلن حرمان حنا دى إيلين وأبنائه وأشياعه من إقطاعاتهم، وأعد فى ميناء برنديزى قوة من ستمائة فارس وسبعمائة من المشاة، فضلا عن ثلاثة آلاف من البحارة تحت قيادة ريتشارد فلانجيرى، لإرسالهم إلى الشرق لتدعيم نفوذ الإمبراطور فى الشام وقبرص(٣).

وكان حنا دى إيلين عندئذ فى عكا عندما وصلته أخبار الحملة الإمبراطورية، فبادر بالرحيل الى قبرص ومعه فرسانه، حيث أسرع إلى تعبئة قوات الجزيرة استعداداً

(1) Eracles. II. p. 376.
(2) Hill: A hisrory of Cyprus, II, p. 100-107.
(3) Richard: Le Royaume Latin, 239.

للمعركة المنتظرة مع الإمبراطورية[١] . ولما تعذر على الجيش الإمبراطورى النزول على شاطئ الجزيرة بسبب الاستعدادات التى اتخذها حنا دى إيلين، اتجه فلانجيرى إلى بيروت رأساً، فاستولى على المدينة فى سهولة، وترك جزءاً من قواته لمحاصرة قلعتها، فى حين زحف هو على صيدا وصور وعكا فاحتلها جميعاً[٢] . وفى عكا دعا فلانجيرى أمراء المملكة للاجتماع به، وأطلعهم على خطاب اعتماد من الإمبراطور بوصفه مندوباً عنه، ثم طالب بمصادرة جميع ممتلكات آل إيلين بالشام. وهنا عارض الأمراء ذلك الطلب، وانضم إليهم تجار عكا الذين ألفوا مجلساً بلدياً لحكم عكا واختاروا حنا دى إيلين رئيساً له[٣] .

وعندما سمع حنا دى إيلين بتلك الأخبار، اصطحب جيشاً من قبرص وقصد الشام حيث أنزل قواته جنوبى طرابلس فى أواخر فبراير سنة ١٢٣١ ، ثم زحف على بيروت واستولى عليها؛ وقوى مركزه فيها، كما استولى على صيدا، ولكن فلانجيرى الذى عسكر فى صور كان أقوى جانباً بفضل جنوده الإيطاليين، فضلا عن مساعدة الفرسان التيتون والبيازنة له فى بلاد الشام. ولم يلبث أن أرسل فلانجيرى قوة إلى قبرص أخذت تهاجم معاقل الجزيرة فى غياب حنا دى إيلين، مما جعل الموقف معقداً فى قبرص وبلاد الشام سواء[٤] . وعندما انتقل فلانجيرى نفسه إلى قبرص فى مايو سنة ١٢٣٢ لحق به حنا دى إيلين وهنرى ملك قبرص. وكان أن دارت عدة معارك فى قبرص بين فلانجيرى وحنا دى إيلين انتهت بهزيمة القوات الإمبراطورية التى استثارت كراهية أهل قبرص بسبب سلوكها وجشعها. وفى شهر أبريل سنة ١٢٣٢ كانت جزيرة قبرص قد خضعت تماماً للملك هنرى لوزجنان وآل إيلين. أما فلانجيرى فقد قصد هيثوم الأول ملك أرمينية لطلب معونته، فلما فشل عاد إلى إيطاليا ليحكى قصة فشله للإمبراطور ويطلب معونته[٥] .

مملكة بيت المقدس الصليبية:

وإذا كانت مملكة قبرص الصليبية قد استطاعت سنة ١٢٣٣ أن تخلص نفسها

(١) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص ٢٤ .

(2) Eracles. II. p. 386.

(3) Runciman: op. cit, III, p. 197.

(4) Archer: op. cit, p. 384.

(5) King: op. cit, p. 212.

من سيطرة الإمبراطورية المقدسة، فإن مملكة بيت المقدس الصليبية ظلت حتى سنة ١٢٦٨ تابعة- من الناحية القانونية على الأقل- للإمبراطورية. وطوال هذه الخمس والثلاثين سنة كان لدى أباطرة الغرب ما يشغلهم عن ممتلكاتهم فى الشرق، مما جعل مملكة بيت المقدس تلك السنين الطويلة دون ملك مقيم فيها يرعى شئونها وينظم أمورها ويدافع عن حقوقها[١]. وليس بخاف علينا أن الفترة من سنة ١٢٣٣ حتى ١٢٦٨ كانت فترة حاسمة فى تاريخ الشرق الأدنى نظراً لما شهدته من أحداث جسام كان من الممكن أن يستغلها الصليبيون لقلب الموقف فى بلاد الشام لصالحهم. وحسبنا ما تم فى تلك السنوات من سقوط الدولة الأيوبية وظهور المغول على مسرح العراق والشام، مما أتاح للصليبيين فرصة ذهبية لمحالفة تلك القوة الوثنية الجديدة وتشكيلها فى قالب مسيحى، ثم استخدامها فى تطويق عالم الإسلام فى الشرق الأوسط وإنزال أبلغ الضرر به. ولكن شيئا من ذلك كله لم يحدث نتيجة لافتقار الصليبيين فى الشام إلى القيادة الرشيدة التى توجههم وتسهر على مصالحهم[٢].

والواقع أنه إذا كان الإمبراطور فردريك الثانى قد نجح فى استرداد بيت المقدس للصليبيين بمقتضى صلح يافا سنة ١٢٢٩ إلا أن مدينة القدس فى عهدها الجديد (١٢٢٩-١٢٤٤) لم تتمتع بشىء من أهميتها السابقة التى كانت لها فى المجتمع الصليبى (١٠٩٩-١١٨٧) قبل أن يفتحها صلاح الدين. ذلك أن مدينة بيت المقدس ظلت منذ صلح يافا سنة ١٢٢٩ حتى غزاها الخوارزمية سنة ١٢٤٤ مدينة مفتوحة غير محصنة، من حق المسلمين أن يدخلوها ويشرفون على بيوتهم الدينية داخلها. ولو كان فردريك الثانى قد حصن بيت المقدس وعمر أسوارها وأبراجها وترك فيها حامية صليبية قوية لتغير مجرى الأمور، ولكن بقاءها على ذلك الوضع قسمة بين النفوذين الإسلامى والصليبى، جعل كل جانب يخشى النزوح إليها والمتاجرة معها والاستقرار فيها، حتى غدت بيت المقدس فى ذلك الدور من أدوار تاريخها مدينة فقيرة تشكو قلة السكان من المسلمين والصليبيين سواء، ولم يبق لها سوى مكانتها الدينية لاغير. وهذا هو السر فى أن حكومة مملكة بيت المقدس الصليبية لم تنزح إلى بيت المقدس عقب صلح يافا سنة ١٢٢٩ واستمرت تلك الحكومة تتخذ عكا قاعدة لها[٣].

(1) Setton: op, cit, II. P. 557-559.
(2) Grousset: op. cit. III, p. 351.
(3) King: op. cit, p. 209.

وكان أمراء بيت المقدس قد عرضوا على الإمبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٣٠ أن يرسل ابنه كونراد الرابع- الذى أنجبه من زوجته يولاند- إلى الشام ليقيم ملكاً على مملكة الصليبيين، بوصفه الممثل الوحيد للسلالة الشرعية لملوك المملكة، ولكن الإمبراطور فردريك رد على السفارة التى ذهبت إليه من بلاد الشام لعرض ذلك الطلب بالرفض[١]. ثم كانت الحملة الإمبراطورية على قبرص وبلاد الشام بقيادة فلانجيرى، وهى الحملة التى انتهت بالفشل، مما ترك بلاد الشام الصليبية فى حالة شديدة من التفكك والانقسام. ذلك أن صور ظلت فى يد القوات الإمبراطورية، وخضعت بيروت لصاحبها حنا دى إيلين، وقام فى عكا سنة ١٢٣٢ قومون أول مجلس بلدى يرأسه حنا دى إيلين نفسه، تولى حكمها. أما بيت المقدس فقد حكمها مندوب عن الإمبراطور، فى حين ظلت بقية المدن الصليبية فى بلاد الشام مستقلة عن النفوذ الامبراطورى[٢].

وعندما أدرك الامبراطور فردريك الثانى فشل تجربته فى إخضاع أمراء الشام الصليبيين بالقوة لجأ إلى الوسائل الودية، فانتهز فرصة عودة أسقف صيدا من روما إلى الشام، وأعطاه رسالة إلى أمراء الشام يفيدهم أنه عزل فلانجيرى من منصبه بوصفه نائباً عنه فى الشام، وأحل محله أحد أمراء الشام، وهو فيليب دى موجاستل. ولكن أمراء الشام لم يقروا هذا العرض، إذ كان فيليب جى موجاستل من أشد أنصار فلانجيرى[٣]. وعندما استمرت الفوضى ناشبة فى الشام أرسل البابا سنة ١٢٣٥ رئيس أساقفة رافنا مندوباً عنه لحل الإشكال، فاقترح ذلك المندوب أن يدخل الأمراء فى طاعة فلانجيرى- الذى كان قد عاد إلى صور- ولكن الأمراء عارضوا ذلك الاقتراح. ثم عاد البابا فى فبراير سنة ١٢٣٦ وكتب إلى أمراء الشام يخبرهم بأن فردريك- بوصفه وصياً على كونراد صاحب الحق الشرعى فى تاج مملكة الصليبيين بالشام- له الحق فى الإشراف على شئون الصليبيين، وأن أمراء الشام أساءوا التصرف إزاء حكامهم ولكن عفا الله عما سلف، وأن البابا يرى العفو عن جميع أمراء الشام ماعدا آل إيلين الذين تجب محاكمتهم أمام محكمة عليا. أما قومون عكا فينبغى حله فوراً[٤].

---

(1) Eracles. II. p. 380.
(2) Richard: Le Royaume Latin, 241-242.
(3) Runciman: op. cit, III, p.203.
(4) Estoire d`Eracles, II, p. 406-407.

ولكن أمراء الشام لم يقبلوا أيضاً ذلك العرض البابوى، فاستمر الموقف على ماهو عليه. ولم يلبث أن مات حنا دى إيلين سنة ١٢٣٦، ففقد الصليبيون بوفاته حاكماً عاقلاً شجاعاً(١). وكان البابا نفسه يرى أن العلاج الوحيد لذلك الوضع هو توحيد مملكتى قبرص وبيت المقدس، وإن كان هذا الحل لم يرض أمراء الشام الذين تمسكوا بكونراد الرابع- ابن فردريك- بوصفه الوريث الشرعى الوحيد لمملكة بيت المقدس(٢).

مشاكل إمارتي إنطاكية وطرابلس:

ولم تكن أحوال الصليبيين فى شمال الشام فى تلك الفترة أكثر استقراراً منها فى جنوبه. والمعروف أن صلح يافا الذى عقد بين السلطان الكامل والإمبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٢٩ لم يتعرض لأحوال هاتين الإمارتين، أو لأملاك الداوية والاسبتارية فى تلك الجهات. وقد استغل الاسبتارية الظروف التى ألمت بالبيت الأيوبى عندئذ، وأغاروا على منطقة بعرين بارين فى خريف سنة ١٢٢٩، ونهبوا بلاده، وأعماله وأسروا وسبوا وقتلوا، ومن جملة من ظفروا به طائفة من التركمان(٣). ويبدو أن الملك المظفر تقى الدين محمود (الثانى) صاحب حماة لم يكن مستعداً للصمود فى وجه ذلك العدوان، الأمر الذى جعله يتعهد بدفع جزية للاسبتارية فى حصن الأكراد. ولما لم يف الملك المظفر بوعده زحف عليه الاسبتارية ومعهم الداوية بقوة كبيرة، ولكن الملك المظفر أنزل بهم الهزيمة عند أفيون بين بعرين وحماة فى أغسطس سنة ١٢٣٠، وعاد إلى حماة وأمامه الأسرى، مما جعل الشعراء يمدحونه ويقارنون سلوكه بسلوك السلطان الكامل(٤).

وفى شهر مارس سنة ١٢٣٣ توفى بوهيموند الرابع صاحب إنطاكية وطرابلس، فحل بعده ابنه بوهيموند الخامس الذى شارك هو الآخر فى النزاع بين الاسبتارية والمظفر تقى الدين صاحب حماة. ذلك أن الحرب تجددت بين الطرفين سنة ١٢٣٣

---

(1) Stevenson: op. cit, p. 315.
(2) Richard: Le Royaume Latin, 246.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٠٣ .
(٤) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٧هـ. وما قيل في تلك المناسبة:

أما الفرنج فقد أخمدت نارهم ... ولم نزل إضرام وتوقيد
من بعد ما حاد أملاك الطوائف عن ... حفظ البلاد وألقوا بالمقاليد

بسبب رغبة الاسبتارية فى الحصول على أموال فرضوها على المظفر. وفى تلك المرة استعان الاسبتارية بجميع قوى الفرنجة مثل الداوية وإمارة إنطاكية- طرابلس، ومملكة بيت المقدس، فضلا عن الصليبيين فى قبرص[١]. وبعد أن تجمعت تلك القوى الصليبية جنوبى حصن الأكراد، زحف الصليبيون ليلا على بعرين فاحتلوها ماعدا قلعتها التى احتمى بها الأهالى، ثم قاموا ببعض الأعمال العدوانية فى المناطق القريبة، وعادوا بعد أسبوع إلى حصن الأكراد محملين بالأسلاب دون أن يصطدموا بالمسلمين.

ويبدو أن عودة الصليبيين السريعة- على الرغم من قوتهم- إنما ترجع إلى عدم رغبتهم فى إثارة حرب عامة ضد المسلمين فى تلك الظروف السيئة التى مرت بها القوى الصليبية فى الشرق الأدنى عندئذ[٢]. ولا يستبعد أيضاً أن يكون الصليبيون قد سمعوا عندئذ بتجمع جيش أيوبى كبير يقصد التحرك نحو الشمال، واشترك فيه الملك الكامل صاحب مصر، والملك الأشرف صاحب دمشق، والملك الناصر داود صاحب الأردن، والمجاهد شيركوه صاحب حمص، وغيرهم من أعضاء البيت الأيوبى[٣]. ولعل تحرك تلك القوة الأيوبية الضارية حول الشمال أثار مخاوف الصليبيين. وإن كانت تلك المخاوف قد تبددت عندما علموا أن الأيوبيين قصدوا فى صيف سنة ١٢٣٤ خلاط التى كانت تابعة للملك الأشرف، للدفاع عنها ضد علاء الدين كيقباذ الأول ابن كخسروا سلطان سلاجقة الروم[٤]، وهو الذى انتزع خلاط من أيدى نواب الملك الأشرف[٥]. ولما كان الملك الكامل يرغب فى أن يتفرغ الأيوبيون لمحاربة السلاجقة، فإنه بدلا من أن يساعد المظفر تقى الدين صاحب حماة ضد الاسبتارية أقنعه بأن يدفع لهم الجزية المطلوبة[٦].

وفى ذلك الوقت تجددت المنازعات مرة أخرى بين بوهيموند الخامس أمير إنطاكية وطرابلس (١٢٣٣-١٢٥١) وملك أرمينية الصغرى الجديد هيثوم الأول

(1) Eracles. II. p. 403 & King: op. cit, p. 214.

(2) Grousset: op. cit. III, p. 392.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٤٧ (تحقيق محمد مصطفي زيادة).

(٤) ابو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٣١ هـ.. Eracles. II. p. 405.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب ج٣، ص ٢١٦ .

(6) Eracles. II. p. 405.

(١٢٦٦-١٢٦٩) . ذلك أن بيت هيثوم لم يصل إلى حكم أرمينية الصغرى إلا بعد التخلص من أحد أبناء البيت الحاكم فى إنطاكية، وهو فيليب أخو بوهيموند الخامس. ولم يستطع بوهيموند الخامس طوال حكمه أن ينسى للأرمن أنهم استدعوا أخاه ليتولى الحكم ثم تخلصوا منه بالقتل[١]. هذا إلى أن الداوية من ناحية أخرى استمروا فى نزاع دائم مع أرمينية الصغرى حول حصن بغراس، الذى ظل الأرمن يطمعون فى الاستيلاء عليه. وكان أن نظم بوهيموند- بالاشتراك مع الداوية- حملة على أرمينية الصغرى سنة ١٢٣٣، ولكن مشروع الحملة فشل لاختلاف الشريكين[٢].

وإذا كان الداوية قد احتفظوا فى تلك الفترة بحصن بغراس ذى الموقع المهم على الطريق بين قيليقية وشمال الشام، فإن الأيوبيين فى حلب احتفظوا أيضاً بحصن دربساك، الذى كان فيما مضى تابعاً للداوية حتى استولى عليه صلاح الدين سنة ١١٨٨، والذى كان لا يقل أهمية عن بغراس نظراً لموقعه بين أرمينية وإنطاكية. وكانت المسافة بين بغراس ودربساك قليلة لا تتعدى بضعة كيلومترات مما جعل الحرب لا تنقطع بين الداوية فى الأولى والمسلمين فى الثانية[٣]. من ذلك أن العزيز صاحب حلب قام بهجوم على بغراس سنة ١٢٢٦ وبعد وفاة العزيز سنة ١٢٣٦ خلفه ابنه الناصر صلاح الدين فى حكم حلب وكان صغيرا فتولى الوصاية عليه بعض الأمراء وجدته ضيفة خاتون[٤]. وقد استأنف الحلبيون فى ذلك الوقت الهجوم على الداوية فى بغراس وأوشكوا أن يستولوا على ذلك الحصن، لولا تدخل بوهيموند الخامس صاحب إنطاكية مما أدى إلى عقد الهدنة بين الطرفين[٥].

ولم يلبث أن نقض الداوية تلك الهدنة بدافع الطمع فى الاستيلاء على دربساك فأغاروا عليها فى صيف سنة ١٢٣٧، ولكن دربساك قاومتهم، وقاتل أجناد القلعة قتالا شديداً، واشتغلوا بقتالهم إلى أن وصل الخبر إلى عسكر حلب. وكان أن وصلت قوة كبيرة من حلب انقضت على الداوية، وانتهى مصير معظمهم إلى القتل أو الأسر حيث لم ينج منهم إلا القليل[٦]. وبعد ذلك قفل الجيش الحلبى بغراس نفسه، مما ساعد على استقرار السلام بين حلب من ناحية وإنطاكية والداوية من ناحية أخرى[٧].

---

(1) Iorga: L`Armenie Clicienne, p. 129.

(2) Eracles. II. p. 405.

(3) King: op. cit, p. 219-220.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٥٥, وقد قال ابن العديم عن تسمية ضيفة خاتون هذه انه كان عند أبيها(الملك العادل) ضيف عندما أخبر بولادتها، فسماها ضيفة (زبدة الحلب، ج٣ ص ٢٦٦).

(٥) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٣٤ هـ.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب، ج٣ ص ٢٣١ (تحقيق سامي الدهان).

(٧) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٣٤ هـ.

جمود الأيوبيين تجاه الصليبيين بالشام:

ولا أدل على خور الأيوبيين وانحلال أمورهم فى الربع الثانى من القرن الثالث عشر من جمودهم أمام الصليبيين بالشام، وعدم محاولتهم استغلال الظروف السيئة التى بات فيها الصليبيون، بعد أن عاد فردريك الثانى إلى الغرب، تاركاً للصليبيين فى الشام دون ملك قوى أو شخصية بارزة ترعى مصالحهم وتذود عنهم. وإذا كان المسلمون قد أظهروا أسفهم العميق على ضياع مدينة بيت المقدس لقمة سائغة للصليبيين، فإنهم لم يحاولوا فى تلك الفترة استرداد المدينة رغم بقائها غير محصنة مهدمة الأسوار، ورغم عدم وجود ملك قوى أو جيش كبير للصليبيين فيها[١].

وربما كان السبب فى حرص الأيوبيين على عدم إثارة حرب مع الصليبيين بالشام عندئذ، هو تخوفهم من الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرتى. ذلك أن الخوارزمية لم يكتفوا بتهديد الخلافة العباسية فى بغداد، وإنما أبوا على محاكاة المغول فى تدميرهم البلاد التى يجتاحونها أو يسلكونها، حتى ولو كانت هذه البلاد إسلامية. ولم يكن الكامل والأشرف مبالغين فى مخاوفهما من الخوارزمية، إذ نجح جلال الدين فى الاستيلاء على خلاط(أخلاط) فى ابريل سنة ١٢٣٠، بعد حصار ستة أشهر، وعندئذ دخل المدينةفوضع السيف فى الناس وأسرهم فى القتل والنهب[٢]. وكان من جملة الأسرى زوجة الملك الأشرف، فأنتهك السلطان جلال الدين عرضها فى نفس الليلة التى استولى فيها على المدينة[٣].

وقد أفزعت همجية الخوارزمية حكام المسلمين فى البلدان المجاورة، فتناسوا ما بينهم من خصومات للقضاء على الخطر، وتحالف الأيوبيين مع عدوهم السابق علاء الدين كيقباذ الأول سلطان سلاجقة الروم ضد جلال الدين الخوارزمى[٤]. وكان أن تم اجتماع قوات الأيوبيين تحت زعامة الملك الأشرف بقوات السلاجقة تحت قيادة كيقباذ فى سيواس، ومنها زحف الحلفاء على خلاط. وفى المعركة التى دارت بين الفريقين قرب أرزنجان فى أغسطس سنة ١٢٣٠، حلت الهزيمة ساحقة بالخوارزمية،

---

(1) Setton: op, cit, II. P. 704.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٣٨ . النويري: نهاية الأرب، ج٢٧، ص ٢٨٥-٢٨٦ (تحقيق المؤلف).

(٣) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٢٨ هـ.

(4) Setton: op, cit, II. P. 703.

وفر سلطانهم إلى أذربيجان، بعد أن قتل معظم عسكره، وامتلأت الجبال والأودية منهم وشبعت الوحوش والطيور من رممهم[١]. وبذلك استرد الأشرف خلاط، وتم الصلح بعد قليل مع جلال الدين، الذى لم يلبث أن قتل سنة ١٢٣١، وعندئذ تمزقت دولته شر ممزق وهامت جموع الخوارزمية فى كثير من بلدان الشر الأدنى تعرض خدماتهم على من يرغب فى شرائها من حكام المسلمين[٢].

ومع ذلك فإن الأيوبيين بالشام كانوا لا يستطيعون أن يأمنوا على أنفسهم وبلادهم، لأن الخطر لم يكن خطر الخوارزمية فحسب، بل كانت من وراء هؤلاء الخوارزمية جحافل المغول. وإذا كانت الحركة التوسعية للمغول قد توقفت قليلا عقب وفاة جنكزخان، إلا أنهم عادوا واستأنفوها، ففتحوا بلاد فارس سنة ١٢٣١، وعندئذ لم يجرؤ جلال الدين الخوارزمى على الوقوف فى وجههم، وإنما فر بهدوء إلى ديار بكر حيث قتل، كما سبق أن أشرنا[٣]. ولم يلبث أن استولى المغول على سائر ما كان بيد الخوارزمى من بلاد[٤]. وبذلك غدت الخطوة التالية أمامهم هى وضع أيديهم على العراق وتهديد أملاك الأيوبيين فى الجزيرة وسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى.

وكان المفروض أن يحاول الأيوبيون فى ذلك الوقت التحالف مع سلاجقة آسيا الصغرى ضد خطر المغول، كما تحالفوا من قبل ضد جلال الدين الخوارزمى. ولكن علاء الدين سلطان قونية(١٢١٩-١٢٣٧) أراد أن يستغل الموقف الناجم عن مقتل جلال الدين الخوارزمى لمنازعة الأيوبيين ملكية خلاط والرها وحران (١٢٣٣-١٢٥٣)[٥]. لذلك نهض الملك الكامل لدفع خطر علاء الدين، فجمع حوله جميع القوى الأيوبية، وزحف على الأناضول سنة ١٢٣٤ . على أن الخلاف لم يلبث أن دب بين ملوك بنى أيوب، فاجتمع أسد الدين شيركوه صاحب حمص بالأشرف صاحب دمشق وقال له إن حكم الكامل على الروم (سلاجقة الروم) أخذ جميع ما بأيدينا[٦]. وهكذا اتفق ملوك بنى أيوب على السلطان الكامل وكتبوا إلى السلطان علاء الدين

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٢٧٣ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٤١، (ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، ج٣ ، ق٢، ص٤٦٠-٤٦٤).

(3) D'Ohsson: Hist. des Mongols, III, p. 62.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٤٢.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٤٧.

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٢٨٢-٢٨٣.

بالميل معه وخذلان الكامل[1]، فاضطر الكامل إلى العودة من حيث أتى، فى حين احتل السلاجقة سنة ١٢٣٥ آمد وخرتبرت وحران والرها.

نهاية السلطان الكامل وقيام الصالح أيوب في حكم مصر:

ولم يقتصر الانقسام فى العالم الإسلامى عندئذ على ما حدث من عداء بين سلاجقة الروم والأيوبيين، بل إن البيت الأيوبى لم يلبث أن انقسم على نفسه، فانشق الملك الأشرف صاحب دمشق على أخيه الأكبر السلطان الكامل بعد أن كان حريصا حتى ذلك الوقت على محالفته[2]. وبدأ يدبر ثورة شاملة ضد الكامل مستعيناً فى ذلك بأسد الدين شيركوه صاحب حمص وضيفه خاتون الوصية على حلب[3]. على أن الظروف شاءت أن يموت الملك الأشرف فى أواخر أغسطس سنة ١٢٣٧ قبل نشوب الحرب الأهلية بين أبناء البيت الأيوبى[4].

وكان الأشرف قد أوصى قبل وفاته بأن يخلفه فى ملك دمشق أخوه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب بصرى. ولم يكد الصالح يتسلم زمام الأمور فى دمشق حتى أعاد تكوين الحلف الأيوبى ضد الكامل، وبعث إلى المجاهد صاحب حمص وإلى المظفر صاحب حماة وإلى الحلبيين، ليحلفوا له ويتفقوا معه على القاعدة التى تقررت بينهم وبين الأشرف على مخالفة الكامل[5].

وفى تلك المرة استجاب جميع ملوك البيت الأيوبى للصالح إسماعيل باستثناء المظفر تقى الدين الثانى صاحب حماة والناصر داود صاحب الأردن والكرك. على أن السلطان الكامل أسرع بالحضور من مصر وقضى على تلك الحركة بعد أن حاصر دمشق وقطع عنها المياه فى أواخر سنة ١٢٣٧ وأوائل سنة ١٢٣٨ حتى استسلمت له المدينة. وهكذا انتهى الأمر بعزل الصالح إسماعيل عن دمشق وإعطائه إقطاعاً صغيراً

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٤٩ ، ذكر أبو المحاسن سبب الخلاف بين الملك الأشرف وأخيه الكامل، فقال إن الأشرف طلب من الكامل الرقة وقال الشرق كله صار له وأنا أركب كل يوم في خدمته فتكون الرقة برسم عليق دوابي. فأبي الكامل وقال له: ما يكفيك كرسي بني أمية، (دمشق) فوقعت الوحشة بينهما بسبب ذلك. (النجوم الزاهرة، ج٦ ص٢٨٢-٢٩٧).

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٥٤.

(٣) أبو المحاسن: ج٦ ص ٣٠٠ .

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٥٦ .

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، ج٣ ص ٢٣٣ . ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص ١٤٧ (تحقيق حسنين ربيع).

فى بعلبك والبقاع وبصرى والسواد[١].

أما السلطان الكامل نفسه فلم يلبث أن توفى بعد قليل، فى أوائل مارس سنة ١٢٣٨ ، وقد أجمع المؤرخون على مدح السلطان الكامل، فوصفه أبو الفدا بأنه كان ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير[٢]، فى حين أفاض المقريزى فى وصف حبه للعلم العلماء، وهى الناحية التى قاربت بينه وبين الإمبراطور فردريك الثانى، ثم أشاد بعدله وعدم حبه لسفك الدماء واستتباب الأمن فى عهده، حتى إن الرمل- فيما بين العريش ومصر- كان يمر فيه الواحد بالذهب الكثير والأحمال من الثياب من غير خوف[٣]. هذا إلى ما لمسناه فى تصرفاته من تسامح بلغ حد التطرف بل التفرط أحياناً، وهى صفات ورثها عن عمه صلاح الدين وأبيه العادل الكبير.

وقد جاءت وفاة السلطان الكامل نذيراً بتفكك الدولة الأيوبية وانهيارها. حقيقة أن العادل الصغير (الثانى)- ابن الكامل- خلفه فى ملكه، وصارت له السلطنة والسلطة العليا فى الدولة الأيوبية ولكن الأوضاع فى الشام نفسها اضطربت بعد أن دخل المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص فى حرب ضد المظفر تقى الدين الثانى صاحب حماة، فى حين استولى الملك الصالح نجم الدين أيوب- ابن الكامل- على دمشق سنة ١٢٣٩ ، مما أوقعه فى نزاع مع أخيه السلطان العادل الصغير[٤].

وفى ذلك النزاع استعان كل واحد من الأخوين المتنازعين بأنصار من أبناء البيت الأيوبى نفسه، فاعتمد العادل الصغير (الثانى) على شيركوه ملك حمص، واعتمد الصالح أيوب على المظفر تقى الدين الثانى ملك حماة. هذا فضلا عن أن كل فريق منهما استعان بجموع من الخوارزمية الذين تفرقوا فى بلاد الشام وآسيا الصغرى بعد مقتل سلطانهم جلال الدين منكبرتى. ثم حدث فى نهاية سنة ١٢٣٩ أن استطاع الصالح إسماعيل- عم العادل الثانى (الصغير) والصالح أيوب- أن يسترد دمشق التى كان أخوه السلطان الكامل قد طرده منها، وأن يطرد بدوره الصالح أيوب من

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٥٦-٢٥٧ .
(٢) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٣٥ هـ.
(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٥٩ .
(٤) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٦٨ ، ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، ج١ ، ق١ ، ص ٢٠٢-٢٠٣ .

دمشق[١] . وقد ظل الصالح إسماعيل يحكم دمشق خمس سنوات (١٢٤٠-١٢٤٥) فى حين وقع الصالح أيوب فى قبضة الناصر داود صاحب الأردن والكرك، حتى أطلق الأخير سراحه واتفق معه على القيام بحملة ضد مصر لانتزاعها من السلطان العادل الثانى[٢] . وكان الأمراء الأكابر فى ذلك الوقت قد استاءوا من الملك العادل الثانى لكثرة تحجبه واشتغاله باللهو عن مصالح الدولة[٣] . فقبضوا عليه فى نهاية مايو سنة ١٢٤٠ وعزلوه، واستدعوا بدله الصالح نجم الدين أيوب- ابن الكامل- الذى دخل القاهر فى ١٩ يونية سنة ١٢٤٠ ليصبح سلطاناً على مصر (١٢٤٠-١٢٤٩)[٤] .

ولم يلبث النزاع الذى دب بين الصالح أيوب من جهة وعمه الصالح إسماعيل ملك دمشق الجديد من جهة أخرى، والذى شارك فيه بقية أفراد البيت الأيوبى فى الشام- مثل ملوك حمص وحماة والأردن- أن أوقع الدولة الأيوبية فى حالة شديدة من الفوضى، فى الوقت الذى تعرضت بلاد الشام لغزو جموع الخوارزمية من ناحية، وتهديد المغول من ناحية ثانية، ثم مجئ حملة صليبية إلى الشام من ناحية ثالثة[٥] .

الحملة الصليبية الفرنسية سنة ١٢٣٩:

انتهى أجل الصلح الذى عقده الإمبراطور فردريك الثانى مع السلطان الكامل سنة ١٢٣٩ ، فى الوقت الذى كان الصليبيون بالشام مازالوا دون ملك يرعاهم أو رأس تدبر أمورهم، كما ظلت مدينة بيت المقدس منذ استيلاء الصليبيين عليها ١٢٢٩ مدينة مفتوحة ليس لها من وسائل الدفاع أو الحماية ما يكفل الدفاع عنها ضد أية محاولة تستهدف طرد الصليبيين منها[٦] .

ولعل هذه الاعتبارات كلها أثارت قلق البابوية وخوفها على بيت المقدس بالذات، فدعت لحملة صليبية جديدة، وصادفت هذه الدعوة قبولا فى فرنسا بوجه خاص، حيث استجاب لها عدد كبير من زهرة الفرسان، على رأسهم بعض كبار

(١) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٣٦ هـ. أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٦٩ .
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣١٠ .
(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص٢٧٥ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٩٥ .

(5) Grousset: op. cit. III, p. 372.
(6) King: op. cit, p. 209-221.

الأمراء مثل ثيبوت الرابع "Thibut IV" أمير شامبنى وملك نافارى، وهيو الرابع أمير برجنديا، وبطرس موكلرك أمير بريتانى وغيرهم (١).

وفى أول سبتمبر ١٢٣٩، وصل ثيبوت الرابع قائد الحملة إلى عكا على رأس ألف وخمسمائة فارس، عدا المشاة. وهنا نلاحظ على تلك الحملة الفرنسية أنها افتقرت تماماً إلى المرونة السياسية التى امتازت بها حملة ريتشارد قلب الأسد ثم حملة فردريك الثانى، فلم يحاول الصليبيون الفرنسيون أن يستغلوا المنازعات العنيفة التى قامت داخل الدولة الأيوبية عقب وفاة الملك الكامل سنة ١٢٣٨ وإنما اتخذوا طابعاً حربياً جامداً. مما جعل حملتهم تنتهى بالفشل(٢).

وعندما علم الناصر داود صاحب الأردن بنزول الصليبيين فى عكا، خرج على رأس جيش صغير قاصداً القدس. وكان الصليبيون قد عمروا القدس وحصنوها، وبذلك نقضوا الشروط المتفق عليها مع المسلمين، فتحجج الناصر داود بما فعله الصليبيون، واستولى على القدس وأخرج منه الفرنج فساروا إلى بلادهم(٣). وهكذا لم يكد الصليبيون الفرنسيون يجمعون شملهم فى عكا حتى سمعوا نبأ استيلاء المسلمين على بيت المقدس، وعندئذ اجتمع زعماء الحملة بأمراء الصليبيين بالشام، لدراسة الموقف وتحديد الخطوة التى يجب أن يتخذها المسيحيون. ولم يلبث أن انقسم الصليبيون على أنفسهم فرأى بعضهم أن تقصد الحملة مصر بوصفها القلب النابض فى الدولة الأيوبية، فإذا استولى الصليبيون على دمياط أو الإسكندرية، أمكنهم عمل مقايضة مع الأيوبيين، فيستردون بيت المقدس بسهولة(٤). ورأى البعض الآخر أن يتجه الصليبيون ضد دمشق مباشرة، هذا فى حين نادى فريق ثالث بالاتجاه إلى صفد- إلى الشمال الغربى من طبرية- والاستيلاء عليها من المسلمين وتحصينها، ليصبح للصليبيين قاعدة حصينة فى داخلية بدلا الشام، يتخذونها مركزاً لعملياتهم الحربية ضد دمشق وبيت المقدس جميعاً. أما الفريق الرابع فقد أصر على أن يتجه الصليبيون إلى بيت المقدس مباشرة، وتركيز الجهود فى الاستيلاء عليها. وأخيرا استقر رأى الصليبيين

---

(1) Eracles p. 413-414.

(2) Setton: op, cit, II. P. 463.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص٢٩١ . العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٣٧هـ.

(4) Richard: Le Royaume Latin, 251.

على أن يقصدوا عسقلان أولا لهدم تحصيناتها والاستيلاء عليها. وبعد ذلك يقصدون دمشق لانتزاعها من المسلمين.[١].

ومن الواضح أن هذا الاتجاه المزدوج للصليبيين، كان من شأنه أن يوقعهم فى عداء مع العادل الثانى الذى كان لايزال سلطان مصر الذى تتبعه عسقلان ثم مع الصالح إسماعيل ملك دمشق الجديد. وقد أسرع الصالح إسماعيل عندما سمع بنية الصليبيين – إلى تحصين دمشق، فى حين بادر العادل الثانى إلى إرسال قوة كبيرة من مصر إلى غزة للدفاع عن عسقلان[٢].

وأخيراً غادر الصليبيون عكا فى أوائل نوفمبر قاصدين عسقلان عن طريق يافا. ولعل نجاح الصليبيين أثناء طريقهم فى الاستيلاء على قافلة إسلامية محملة بالبضائع ومتجهة نحو دمشق، شجع جماعة كبيرة على الانشقاق عن بقية الجيش الصليبى والاندفاع نحو غزة للقضاء على الجيش الذى أرسله العادل الثانى والذى سمع الصليبيون بأن عدته تبلغ ألف جندى فقط[٣]. ولم يستطع ثيبوت الرابع قائد الحملة أن يثنى أولئك المتهورين عن عزمهم بعد أن اشتد معهم فى الحصول على الغنيمة وحدهم، مما يدل على فوضى الحملة الصليبية وضعف قيادتها. وكان أن انتهى الأمر بتمزيق تلك القوى الصليبية على يد المسلمين قرب غزة فى ١٣ نوفمبر سنة ١٢٣٩، وقتل منهم ألف وثمانمائة، ولم يقتل من المسلمين غير عشرة! وأسر بعض زعماء الصليبيين وأمرائهم فضلا عن مائتين وخمسين راجلا سيقوا إلى القاهرة[٤]. وعندما وصلت أخبار تلك الكارثة إلى بقية الجيش الصليبى عند عسقلان، اضطر الصليبيون إلى الانسحاب فى ١٤ نوفمبر إلى يافا ومنها إلى عكا[٥].

وقد بلغ من جهل الصليبيين بأحوال الأيوبيين عندئذ، أنهم ظنوا أن المسلمين سيطاردونهم بعد الانتصار الذى أحرزوه عليهم فى غزة. وحقيقة الأمر أن النزاع كان

---

(1) Stevenson: op. cit, p. 317.

(٢) كان هذا الجيش الذي رأسه العادل الثانى إلي غزة سنة ١٢٣٩، بقيادة ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي. الذي أشار إليه أبو الفدا أكثر من مرة. وبيبرس هذا غير الأمير بيبرس البندقداري الذي تولي سلطنه المماليك فيما بعد وتلقب بالظافر. إذ أن الأول أكبر من الظاهر بيبرس وأقدم منه، ولا يتعدي الأمر مجرد التوافق بين الرجلين في الاسم والشهرة. (النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٧٢، سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ص ٢٠، ٢١).

(3) Runciman: op. cit, III, p. 214.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٢٩٢ . أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٧٠ .

(5) Setton: op, cit, II. P.p. 476-477.

قد استحكم وقتذاك بين أبناء البيت الأيوبى- كما سبق أن أشرنا- الأمر الذى جعل الملك المظفر تقى الدين صاحب حماة يطلب معونة الصليبيين ضد خصومه، شيركوه صاحب حمص والصالح إسماعيل صاحب دمشق وضيفة خاتون الوصية على حلب[١]. على أنه حدث بعد أن قبل الصليبيون عروض صاحب حماة وساروا إلى طرابلس لمساعدته، أن سحب المظفر يده من أيديهم ورفض أن يتعاون معهم، مما جعلهم يعودون إلى عكا حانقين[٢].

ثم كان أن تمت فى صيف سنة ١٢٤٠ المؤامرة التى انتهت بعزل العادل الثانى حاكم مصر وقيام الصالح نجم الدين أيوب بدله فى السلطنة(١٩ يونية سنة ١٢٤٠)، كما سبق أن أشرنا[٣]. وقد استاء الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق لذلك الانقلاب، لاسيما وأن الصالح أيوب أراد أن يرضى حليفه الناصر داود صاحب الكرك فوعد بمساعدته فى الحصول على دمشق من الصالح إسماعيل[٤]. وهكذا لم يجد الصالح إسماعيل قوة أمامه يمكنه أن يستعين بها سوى قوة الصليبيين، فمد يده إليهم وطلب محالفتهم، ضد الصالح أيوب فى مصر والناصر داود فى الأردن، وفى مقابل ذلك تعهد الصالح إسماعيل بإعطاء الصليبيين مدينة بيت المقدس وإعادة مملكة الصليبيين إلى ما كانت عليه قديماً بما فيها الأردن[٥]. ولكى يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين بادر فوراً بتسليمهم القدس وطبرية وعسقلان[٦]! فضلا عن قلعة الشقيف أرنون وأعمالها، وقلعة صفد وبلادها ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها وجبل عاملة وسائر الساحل[٧]. وبذلك عادت بيت المقدس مرة أخرى فى حيازة الصليبيين[٨].

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، ج٣ ص ٢٤٧-٢٤٨ .

(٢) أبو الفداء: المختصر، حوادث سنتي ٦٣٧هـ، ٦٣٨هـ.

(٣) انظر ما سبق في هذا الفصل.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٢٢ .

(5) Eracles p. 418. ويقول أبو الفدا لما قوي خوف الصالح إسماعيل صاحب دمشق من ابن أخيه صاحب مصر، سلم صيدا والشقيف إلي الفرنج ليعضدوه ويكونوا معه. (حوادث سنة ٦٣٩هـ).

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٢٢.

(٧) المقريزي: السلوك، ج١ ص٣٠٣.

(٨) وتسلم الفرنج حرم القدس وغيره، وعمروا قلعتي طبرية وعسقلان وحصنوهما. (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٢).

وسرعان ما ثار الرأى العام الإسلامى فى مصر والشام على الصالح إسماعيل مثلما ثار من قبل ضد السلطان الكامل. ويروى أبو الفدا أن المسلمين حنقوا على الصالح إسماعيل لتفريطه فى بلادهم وعظم على المسلمين وأكثروا التشنيع على الملك الصالح إسماعيل[١]. أما المقريزى فيروى أن اثنين من أئمة الإسلام فى دمشق، هما شيخا الشافعية والمالكية عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام والفقيه أبو عمرو بن الحاجب، نددا بمسلك الصالح إسماعيل وطردهما، ففر الأول إلى الصالح أيوب فى مصر والثانى إلى الناصر داود فى الكرك[٢].

ثم إن الحامية الإسلامية فى الشقيف أرنون رفضت أن تسلم الحصن للصليبيين وأبت تنفيذ الأوامر المتكررة التى أصدرها لها الصالح إسماعيل فى ذلك الصدد. وأخيرا اضطر الصالح إسماعيل إلى الحضور بنفسه لمحاصرة الشقيف أرنون، حتى سلمت الحامية وعندئذ عاقب أفرادها. أما الصليبيون فقد أسرعوا إلى استلام القدس، كما حصنوا قلعتى طبرية وعسقلان، ثم رابطوا بعد ذلك بين يافا وعسقلان، وكان أن وعدهم الصالح إسماعيل بأنه إذا ملك مصر أعطاهم بعضها وعندئذ حشدوا قواهم واتجهوا صوب غزة[٣]. وتروى بعض المصادر أن الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق والملك المنصور إبراهيم الأيوبى صاحب حمص[٤] حضرا أيضا على رأس جيوشهما قرب يافا لمعاونة الصليبيين فى تلك المهمة.

وإذا كان الصالح إسماعيل قد تمكن من إنزال الهزيمة بالملك الناصر داود الذى اضطر إلى الفرار إلى الكرك، إلا أن الموقف اختلف عند اصطدام الصالح إسماعيل بجيوش السلطان الصالح أيوب قرب غزة. ذلك أن القوات الشامية التابعة للصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم لم تقبل فكرة محالفة الصليبيين ضد إخوانهم المصريين، فلم يلبثوا أن انفضوا عنه عند غزة، وانضموا إلى القوات المصرية ليشتركوا جميعا فى مهاجمة الصليبيين. وهكذا «ساقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة، ومالوا

---

(١) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٣٩ هـ.
(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣٠٤، ٣٠٨ . أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٧٠
(٣) خلف المنصور إبراهيم الأيوبى أباه المجاهد شيركوه الثاني في حكم حمص سنة ١٢٤٠ وظل يحكمها حتي سنة ١٢٤٦م (زامباور: معجم الأنساب ص ١٥٣).
(4) Eracles. II. p. 409 & أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٢٢,

جميعا على الفرنج فهزموهم وأسروا منهم خلقاً لا يحصون» [١] أما الصليبيون، فكانت خيبة أملهم كبيرة بعد أن ظلوا يمنون أنفسهم بالحصول على جزء من مصر وفقما وعدهم الصالح إسماعيل، فانسحبوا إلى عسقلان حيث عقدوا الصلح مع الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٤٠ [٢].

ولم تلبث الحملة الفرنسية أن بارحت عكا عائدة إلى الغرب فى سبتمبر سنة ١٢٤٠، بعد أن استعادت للصليبيين بيت المقدس وصفد وعسقلان، فضلا عن بعض القلاع الداخلية.

الحملة الصليبية الإنجليزية (١٢٤٠-١٢٤١):

ولم يكد ثيبوت الرابع وحملته يرحلون إلى غرب أوروبا، حتى وصل إلى عكا فى ١١ أكتوبر سنة ١٢٤٠ ريتشارد كورنوول– أخو هنرى الثالث ملك انجلترا– على رأس بعض الجموع الصليبية [٣]. وقد رفض ريتشارد عند وصوله إلى أرض الشام المشاركة فى النزاع القائم عندئذ بين الاسبتارية– الذين أيدوا مبدأ الصلح مع مصر– والداوية الذين كانوا يرون ضرورة تحالف الصليبيين مع دمشق وليس مع مصر. أما ريتشارد كورنوول فاختار أن يوجه جهود الصليبيين جميعا نحو عسقلان لتقوية استحكاماتها، وبذلك يأمن الصليبيون فى الشام أى هجوم من جانب مصر [٤]. وبعد أن أتم ريتشارد تحصين عسقلان فى مارس سنة ١٢٤١، أجاب الصالح أيوب طلبه الخاص باحترام الصلح المعقود بينه وبين ثيبوت الرابع، وبمقتضى ذلك الصلح اعترف الصالح أيوب بحق الصليبيين فى ملكية الشقيف أرنون، وإقليم الجليل، بما فيه من حصون ومدن تبنين وهونين وطبرية والطور وكوكب فضلا عن بيت المقدس وبيت لحم ومجدل يابا وعسقلان [٥].

وأخيراً أبحر ريتشارد كورنوول من عكا عائدا إلى الغرب فى أوائل مايو سنة ١٢٤١ بعد أن نجح بحسن سياسته فى إتمام العمل الذى قام به ثيبوت الرابع.

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣٠٥ . أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٢٣ . ويضيف المقريزي أن الصالح أيوب استخدام أسري الصليبيين في تلك الموقعة في تعمير قلعة الروضة والمدارس الصالحية بالقاهرة.

(2) Eracles. II. p. 418-420.

(3) Archer: op. cit, p. 387.

(4) Eracles. II. p. 421.

(5) Grousset: op. cit. III, p. 394.

الحروب الأهلية بين الصليبيين بالشام:

ولم يكد ريتشارد كورنوول يغادر بلاد الشام عائدا إلى الغرب، حتى دخل الصليبيون فى بلاد الشام مرحلة جديدة من مراحل تاريخهم بالأرض المقدسة، وقد اتصفت هذه المرحلة باشتداد تيار المنازعات والحروب الأهلية فيما بينهم وبين بعض، وبخاصة الداوية والاسبتارية. وفى أثناء الحرب التى نشبت بين الفريقين، حرص الداوية– الذين كانوا يعارضون الصلح مع الصالح أيوب فى مصر– على نقض الصلح والاعتداء على المسلمين(١). وعندما واصل الداوية وأشياعهم من الصليبيين المتطرفين عدوانهم على المسلمين فى منطقة الجليل، رد الملك الناصر داود صاحب الأردن بالتضييق عليهم وعلى تجارتهم. وعندئذ فكر الداوية فى الانتقام، فخرجوا من عكا ويافا، واعتدوا على نابلس ونهبوا وقتلوا وأسروا وأخذوا منبر الخطيب، وذلك فى آخر أكتوبر سنة ١٢٤٢(٢). ولم يسع السلطان الصالح أيوب إزاء ذلك سوى إرسال جيش من مصر يبلغ ألف فارس. اجتمع بقوات الناصر داود عند غزة، واتجه المسلمون من هناك لمهاجمة يافا، لولا تراجع الصليبيين واسترضاؤهم الصالح، فسحب قواته إلى مصر(٣).

وفى تلك الأثناء، كان فلانجيرى– مندوب الإمبراطور فردريك الثانى ونائبه، لا يزال محتفظا بمدينة صور. وقد اختار فلانجيرى أن يستغل النزاع بين الداوية والاسبتارية لاستعادة نفوذ الإمبراطورية فى بلاد الشام، ولما وجد أن الاسبتارية يؤيدون سياسة التحالف مع مصر، وهى السياسة نفسها التى اتبعها الإمبراطور فردريك الثانى– انضم إلى جانبهم ضد الداوية، ثم زحف على عكا فى ربيع سنة ١٢٤٣ للاستيلاء عليها بمساعدة الاسبتارية. ولكن فيليب دى مونتفورت– صاحب تبنين– كان عندئذ فى عكا، فاستعان بالجنوية والبيازنة، وتغلب على فلانجيرى الذى هرب من عكا عائدا إلى صور(٤). ولم يلبث أن استدعى الإمبراطور فردريك الثانى فلانجيرى إلى إيطاليا، عندما أيقن فشل سياسته، فى حين كان كونراد– ابن فردريك ويولاند– قد بلغ الخامسة عشرة من عمره، وجاز له أن يباشر حقه الشرعى فى حكم

(1) King: op. cit, p. 224.
(2) Matthieu paris. IV p. 197 & المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣١١ .
(3) Stevenson: op. cit, p. 321.
(4) Runciman: op. cit, III, p. 220.

مملكة بيت المقدس. ولكنه لم يذهب الى الشام واكتفى بأن أرسل توماس أكيرا نائباً عنه[١]. على أن الصليبيين فى عكا انتهزوا فرصة سفر فلانجيرى إلى الغرب وزحفوا على صور، واستولوا عليها فى يونية سنة ١٢٤٣، بمساعدة أساطيل البنادقة والجنوية[٢].

وهكذا زال آخر للنفوذ الإمبراطورى فى بلاد الشام، حيث ظل الصليبيون غارقين فى الفوضى دون رئيس أو ملك يسوى أمورهم. وإذا كان الأمراء الصليبيون بالشام قد استملحوا ذلك الوضع نظراً لما فيه من توافق مع مصالحهم الشخصية، فإن الحوادث سرعان ما أثبتت أنه جاء كارثة على الصليبيين جميعاً فى بلاد الشام.

الخوارزمية واسترداد بيت المقدس:

ولم يلبث أن نشب الخلاف مرة أخرى بين الصالح أيوب فى مصر وعمه الصالح إسماعيل فى دمشق، وساند الأخير الناصر داود فى الأردن. وكان أن لجأ الأخيران إلى طلب مساعدة الفرنجة، ووافقا مقابل تلك المساعدة على أن تكون الحرم الشريف، بما فيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وهى الأماكن التى ظلت– ولو نظرياً– فى حوزة المسلمين منذ أن تسلم الصليبيون بيت المقدس بمقتضى اتفاقية يافا مع الإمبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٢٩[٣]. وفى ذلك الوقت نفسه عرض السلطان الصالح أيوب على الصليبيين محالفته ضد ملكى دمشق والأردن مقابل الثمن نفسه الذى عرضه هذان الملكان[٤]. وبذلك يكون الملوك الأيوبيون الثلاثة، الصالح أيوب والصالح إسماعيل والناصر داود قد أقروا فى تلك السنة ١٢٤٣–١٢٤٤ مبدأ استيلاء الصليبيين على الحرم الشريف، الأمر الذى جعلهم يسيطرون فعلا على تلك الأماكن الطاهرة فتسلموا الصخرة المقدسة والأقصى وما فى الحرم الشريف من المزارات على قول ابن واصل. ثم إنهم تعمدوا الإساءة إلى تلك الأماكن الطاهرة، مما آذى شعور المسلمين إيذاء بالغاً. وقد مر القاضى جمال الدين ابن واصل ببيت المقدس سنة ١٢٤٤ فقال رأيت الرهبان على الصخرة وعليها قنانى الخمر، ورأيت الجرس فى المسجد

---

(1) Setton: op, cit, II. P. 559-565.
(2) Grousset: op. cit. III, p. 403-404.
(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣١٥ .
(4) Grousset: op. cit. III, p. 408.

الأقصى، وأبطل الأذان بالحرم...[١].

والملحوظ أن الصليبيين اتبعوا فى ذلك الوقت سياسة ذات وجهتين مع ملك دمشق وسلطان مصر، وذلك للاحتفاظ بالمكاسب التى حققوها على حساب المسلمين جميعا دون عناء. على أن الصليبيين كانوا لا يستطيعون المضى طويلا فى تلك السياسة، ولم يلبثوا أن أحسوا بأنهم لابد لهم من مظاهرة أحد الطرفين.. وعندئذ انتصرت سياسة الداوية الخاصة بمهاجمة مصر[٢]. فاختار الصليبيون الوقوف فى جانب الصالح إسماعيل صاحب دمشق، لأنه أقرب إليهم، فهم أكثر إحساساً به وأشد حاجة إلى مسالمته، فضلا عن أن التحالف مع الصالح إسماعيل يعنى التحالف مع الناصر داود صاحب الأردن والمنصور إبراهيم ملك حمص. وسرعان ما فكر هؤلاء الملوك الثلاثة فى غزو مصر بمساعدة الصليبيين. فجمعوا قواتهم عند غزة، ومر المنصور صاحب حمص بعكا[٣] ليغرى الصليبيين على مشاركتهم غزو مصر بعد أن مناهم ببلاد ومناطق جديدة فى الشام، كما وعدهم بجزء من بلاد مصر[٤]. أما الصالح أيوب سلطان مصر فلم يجد بداً فى ذلك الموقف الحرج من الاستعانة بالخوارزمية، مما أدى إلى تحول الموقف فى بلاد الشام تحولا سريعاً.

وقد سبق أن ذكرنا كيف هامت جموع من الخوارزمية على وجهها فى الجزيرة وشمال الشام، بعد مقتل سلطانهم جلال الدين منكبرتى سنة ١٢٣١ وغزو المغول لأذربيجان وأرمينية الكبرى. وقد استقر جزء كبير من أولئك الخوارزمية فى الجزيرة حول الرها وحران ونصيبين، ومن هناك أخذوا يشنون غارات على المناطق القريبة بغية السلب والنهب[٥]. وهكذا تكررت إغارات الخوارزمية منذ سنة ١٢٤١ على حلب ومنبج والمعرة وغيرها من مدن الشام، حيث ارتكبوا من الزنا والفواحش والقتل ما ارتكبوه التتر[٦].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣٣ . العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤١هـ. أبو الفداء المختصر، حوادث سنة ٦٤١هـ. أبو المحاسن : النجوم، ج٦ ص ٣٢٢-٣٢٣ .

(2) Stevenson: op. cit, p. 322.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٢٢ .

(٤) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٤٢ هـ.

(5) Setton: op, cit, II. P. 673-674.

(٦) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٣٨ هـ.

وإزاء ذلك الخطر المشترك، تحالف الصالح إسماعيل صاحب دمشق والمنصور إبراهيم صاحب حمص وضيفة خاتون الوصية على حلب، واستطاعت تلك الجيوش المتحالفة أن تنزل بالخوارزمية أقبح هزيمة وتبدد شملهم، وتقطع دابرهم[١]، وكان ذلك قرب الرها فى أوائل ابريل سنة ١٢٤١، وبعد تلك الهزيمة تم طرد الخوارزمية من الرها ونصيبين وغيرهما من الأماكن التى كانوا قد احتلوها فى الجزيرة[٢]. وقد ظل الخوارزمية بعد الهزيمة السابقة لا يجرؤون على دخول بلاد الشام، واستقر جزء كبير منهم فيما بين الرها وحران يواصلون إغاراتهم للسلب والنهب ويعرضون خدماتهم على من يشتريها، حتى استعان بهم الصالح أيوب سنة ١٢٤٤ ضد ملوك دمشق والأردن وحمص الذين عزموا على غزو مصر بمساعدة الصليبيين[٣].

ولم تكد دعوة الصالح أيوب تصل إلى الخوارزمية حتى اندفع عشرة آلاف منهم فى فرحة كبرى نحو بلاد الشام الصليبية، فأغاروا على المدن والقلاع التى صادفتهم فى طريق دمشق. وكانت دمشق نفسها حصينة فاتجهوا صوب الجليل حيث استولوا على طبرية، ثم على نابلس، ومنها قصدوا بيت المقدس،وهم ينهبون ويقتلون ويسبون[٤]. وكانت بيت المقدس عندئذ أشبه بمدينة مفتوحة ضعيفة التحصين، وليس فيها ملك أو زعيم صليبى يدافع عنها، فاستنجد من فيها من الصليبيين بأمير إنطاكية وطرابلس وبوهيموند الخامس، وملك قبرص هنرى الأول، فضلا عن الصليبيين فى عكا وحلفائهم ملوك حمص ودمشق والأردن. ولكن أحداً من هذه الأطراف لم يلب النداء، إذ كان الصليبيون فى الشام وقبرص فى شغل بمشاكلهم الخاصة بعد أن انحلت أوضاعهم، فى حين كان ملكا دمشق وحمص– وهما حليفا الصليبيين– لا يجسران على التدخل فى ذلك الموقف لحماية مصالح الصليبيين فى بيت المقدس مما يعرضهما لنقمة الرأى العام فى البلدان الإسلامية[٥].

وهكذا اقتحم الخوارزمية بيت المقدس فى ١١ يولية سنة ١٢٤٤ واستولوا عليها

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٩٢–٢٩٣ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ص٣٠٣، ٢٥٧ .

(٣) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٦٤ ٢٢٨ هـ. المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣١٥ .

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣١٦ .

(5) Richard: Le Royaume Latin, 260.

فى سهولة[١]، وعندئذ طلب من بالمدينة من الفرنجة من الملك الناصر داود صاحب الأردن تأمين خروجهم، فتوسط لهم وخرج ستة آلاف منهم فى شهر أغسطس قاصدين يافا. ولكن لم يكد هؤلاء يبتعدون عن بيت المقدس حتى دبر لهم الخوارزمية خدعة حربية وقتلوا منهم أكثر ألفين، فى حين تعرضت البقية الباقية للمطاردة طوال طريقهم إلى يافا، بحيث لم يصل منهم أكثر من ثلاثمائة فقط[٢]. أما كنيسة القيامة وغيرها من الأماكن الدينية المسيحية داخل بيت المقدس، فقد اعتدى عليها الخوارزمية ودمروا وأتلفوا معظمها[٣]. وبذلك عادت بيت المقدس نهائياً إلى المسلمين، ولم يقدر لجيش مسيحى أن يقترب منها بعد ذلك حتى الحرب العالمية الأولى.

وبعد أن قام الخوارزمية بعملية نهب واسعة النطاق فى بيت المقدس، اتجهوا صوب غزة للاجتماع بالعسكر المصرى الذى أرسله السلطان الصالح أيوب بقيادة المملوك ركن الدين بيبرس لمحالفتهم (أكتوبر ١٢٤٤)[٤]. وفى ذلك الوقت كانت قوات الحلف الشامى- الصليبى قد اتجهت من عكا نحو غزة، ومع الجيوش الصليبية كان المنصور إبراهيم صاحب حمص وصحبته قوات دمشق كما أتتهم نجدة الناصر داود صاحب الكرك[٥]. ويأسف المقريزى لاشتراك أولئك الأيوبيين مع الصليبيين، ويقول إن الفرنج رفعوا الصلبان على عسكر دمشق وفوق رأس المنصور صاحب حمص[٦]. وفى موقعة غزة الثانية التى دارت فى ١٧ أكتوبر سنة ١٢٤٤ بين الخوارزمية وجيوش الصالح أيوب من ناحية والصليبيين وجيوش حمص ودمشق والأردن من ناحية أخرى، حلت الهزيمة ساحقة بالصليبيين ومن انضم إليهم من منافقى المسلمين حتى قدر عدد قتلى الصليبيين بأكثر من ثلاثين ألفاً، فى حين سبق الأسرى إلى مصر[٧].

ولاشك أن هذه كانت أعظم كارثة حلت بالصليبيين منذ موقعة حطين سنة ١١٨٧، حتى أطلق المؤرخون على موقعة غزو الثانية فى أكتوبر سنة ١٢٤٤ اسم

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣ (تحقيق حسنين ربيع).

(2) Matthieu paris. IV p. 338-340

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣١٦ . العيني: عقد الجمال، حوادث سنة ٦٤٢ هـ.

(٤) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٧٤ .

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٢٣ .

(٦) المقريزي: السلوك، ج١ ص٣١٧ .

(٧) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٧٤ . المقريزي: السلوك، ج١ ص٣١٧ .

حطين الثانية[١]. ويكفى لكى نأخذ فكرة عامة عن مدى خسارة الصليبيين أن نذكر أنه اشترك فى موقعة غزة الثانية ثلاثمائة من الداوية لم ينج منهم سوى ثلاثة وثلاثين، واشترك فيها مائتان من الاسبتارية لم ينج منهم سوى ستة وعشرين، فى حين فقد الباقون بين قتلى وأسرى. وكان مقدم الداوية بين القتلى ومقدم الاسبتارية بين الأسرى[٢].

ويبدو أن الخوارزمية كانوا يأملون فى أن يكافئهم الصالح أيوب بالسماح لهم بالاستقرار فى مصر، ولكنه خشى على ما يترتب على دخولهم مصر من ضرر بالبلاد والعباد. فأباح لهم الاستقرار بالشام على حساب الصليبيين. ولم تلبث جموع الخوارزمية أن أخذت تغير على ممتلكات الصليبيين وضياعهم حتى وصلوا قرب عكا[٣]. وفى تلك الأثناء تخلى الجيش المصرى عن الخوارزمية واتجه لعقاب صاحبى الكرك ودمشق لتحالفهما مع الصليبيين، فأخذ من الأول- وهو الناصر داود- القدس والخليل وبيت جبريل (جبرين) والأغوار، وبذلك لم يبق للناصر سوى الكرك والبلقاء والصلت وعجلون[٤]. أما الصالح إسماعيل صاحب دمشق، فقد أرسل السلطان الصالح أيوب حملة ضده بقيادة الصاحب معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ لمهاجمة دمشق. ويروى أبو شامة أن الرعب وقع فى قلب صاحب دمشق، فاستعد للحصار، وخرب كثيراً من الرباع خارج المدينة كما خرب جسر بابا توما فغرقت المساكن التى على حافة نهر بردى[٥]. على أن الصالح إسماعيل- وكان معه المنصور إبراهيم صاحب حمص داخل دمشق- لم يستطيعا المقاومة لعدم الميرة بالقلعة ولتخلى الحلبيين عنه[٦]، فاستسلمت دمشق لقوات الصالح أيوب فى أكتوبر سنة ١٢٤٥، وكانت شروط التسليم أن يسمح للصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم بالخروج سالمين بأموالهما، وأن يعوض الصالح عن دمشق ببعلبك وبصرى وأعمالها، وأن يكون للمنصور حمص وتدمير والرحبة[٧].

---

(1) Grousset: op. cit. III, p. 415. وقد أطلق على هذه الموقعة غزة الثانية تمييزاً لها عن موقعة غزة الاولي سنة ١٢٣٩م.

(2) Stevenson: op. cit, p. 232.

(3) King: op. cit, p. 239.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ص٣١٨٧ .

(٥) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٧٤، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥ ، ص ٣٤٨-٣٤٩ .

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٢٤ .

(٧) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣٢١ .

على أن الخوارزمية لم يلبثوا أن استاءوا من الصالح أيوب، لأنهم ظنوا أنه سيجزل لهم العطاء بعد أن ساعدوه فى التغلب على خصومه وفى تملك بلاد الشام؛ فطمعوا فى الأخبار العظيمة[١]، وظنوا أن الصالح أيوب يقاسمهم البلاد[٢]. ولكن حدث بعد استيلاء الصالح على دمشق أن منع الخوارزمية من دخولها وأقطعهم الساحل، فتغيرت نياتهم واتفقوا على الخروج عن طاقة السلطان[٣]. وكان أن ثار الخوارزمية بالشام، واعتدوا على داريا ونهبوها، ثم اتصلوا بالأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى وهو أكبر أمراء الصالح نجم الدين أيوب- وكان فى غزة- وحسّنوا له الانضمام إليهم فى ثورتهم ضد الصالح أيوب[٤]. كذلك انتهز الناصر داود صاحب الكرك والصالح إسماعيل طريد دمشق الفرصة للانتقام من الصالح أيوب. ولم يلبث الصالح أيوب أن فقد ما استولى عليه أخيراً فى فلسطين- مثل نابلس والخليل وبيت جبريل (جبرين) والأغوار- بل لقد زحف الخوارزمية على دمشق وحاصروها ثلاثة أشهر، حتى مات كثير من الناس جوعاً وهلك عالم عظيم من الجوع والوباء[٥]. على أن السلطان الصالح أيوب لم ييأس فى ذلك الموقف، ولجأ إلى أعمال الحيلة والتدبير فاستمال إليه الحلبيين، فضلا عن المنصور إبراهيم صاحب حمص، كما استدعى الأمير ركن الدين بيبرس إلى مصر حيث قبض عليه الملك الصالح بعد ذلك وأعدمه[٦]. وبفضل هذه الإجراءات تمكنت جيوش الصالح أيوب وحلفائه من إنزال هزيمة ساحقة بالخوارزمية بين بعلبك وحمص فى ٢٠ مايو سنة ١٢٤٦ فتبدد شملهم ولم تقم لهم بعد قائمة[٧].

ولكن يلاحظ أن القضاء على الخوارزمية كان لا يعنى توقف الحرب ضد الصليبيين بالشام، إذ استمرت هذه الحرب دائرة، وحمل عبئها الجيش المصرى تحت

(١) أبو المحاسن: النجوم، ج٦ ص ٣٢٤ . والمقصود بالأخبار الإقطاعات.
(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ص٣٢٢ .
(٣) المصدر السابق، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٥٠ .
(٤) روي أبو المحاسن أن أم الأمير بيبرس المذكور كانت خوارزمية وأنه تزوج منهم ولذلك مال اليهم. (النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٢٥).
(٥) أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٧٨ .
(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٢٢ ، ٣٢٥ . وقد سبق أن أشرنا إلي أن بيبرس هذا غير الظاهر بيبرس الذي تولي سلطنة المماليك فيما بعد. (سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ص٢١).
(٧) المقريزي: السلوك، ج١ ص٣٢٤ . وكفي الله الناس شرهم، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٥٩ .

قيادة الأمير فخر الدين بن الشيخ. وفى ١٧ يونية سنة ١٢٤٧ استولت جيوش الصالح أيوب على قلعة طبرية من الصليبيين[١]. وبعد ذلك حاصرت الجيوش المصرية عسقلان، التى كانت فى حمص الاسبتارية. ولما اتضح أن الأساطيل الإيطالية تمد المدينة بالمؤن والإمدادات[٢]، أرسل الصالح أيوب من الإسكندرية ودمياط اثنتين وعشرين سفينة لإحكام الحصار على عسقلان من ناحية البحر. وأخيراً استطاعت قوات الأمير فخر الدين اقتحام عسقلان فى منتصف أكتوبر سنة ١٢٤٧، وعندئذ أمر بتدمير تحصيناتها وتخريبها حتى لا يتخذها الصليبيون مرة أخرى قاعدة للهجوم على المسلمين.[٣]

وهكذا انحسرت حدود الصليبيين إلى أبواب يافا، فى الوقت الذى استردت الدولة الأيوبية وحدتها، وصار السلطان الصالح أيوب يسيطر على القاهرة ودمشق وبيت المقدس. وكان أن أقام بالشام من نوفمبر سنة ١٢٤٨ حتى أبريل سنة ١٢٤٩، حيث هرع إليه ملك حماة المنصور الثانى والأشرف ملك حمص، وغيرهما من ملوك البيت الأيوبى بالشام لتقديم فروض الولاء والطاعة. كذلك زار الصالح أيوب مدينة بيت المقدس، بعد أن عادت إلى أحضان الدولة الإسلامية فقوى تحصيناتها ودعمها، وحضر إليه فيها كثير من ملوك الشام المسلمين ليقدموا إليه فروض الولاء والتبعية[٤].

وفى الوقت الذى أفاقت الدولة الأيوبية وأحرزت ذلك القدر من النجاح، كانت أحوال الصليبيين تسير من سئ إلى أسوأ، ليس فقط فى عكا وإنما أيضا فى إمارة إنطاكية وطرابلس التى كان صاحبها بوهيموند الخامس (١٢٣٣-١٢٥١) ضعيف الشخصية خاملا، فقنع بالإقامة فى طرابلس وترك إنطاكية لإغارات التركمان وغيرهم من الجيران[٥]. وكانت الأزمة الكبرى التى عاناها الصليبيون فى الشام عند منتصف القرن الثالث عشر هى عدم وجود زعامة رشيدة ترعى أموزهم وتحافظ على كيانهم. وهكذا صار لابد أن يقوم الغرب الأوروبى بعمل إيجابى جديد ليساعد الصليبيين فى الشرق على البقاء، ولو إلى حين.

---

(1) Eracles. II. p. 432-433 & أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٤٥ هـ.

(2) King: op. cit, p. 240.

(3) Eracles p. 433-434 & ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٧٨ . العينة: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٥هـ،

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ص,٣٢٧

(5) Eracles. II. p. 435.

الفصل الثالث

الحملة الصليبية السابعة علي مصر

الغرب الأوروبي والحماسة الصليبية:

استرد عماد الدين زنكى الرها من الصليبيين سنة ١١٤٤، وعندئذ قامت قيامة الغرب الأوروبى، مما أدى إلى مجئ الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق. وبعد ذلك بمائة عام بالضبط، استرد المسلمون بيت المقدس سنة ١٢٤٤ واعتدى الخوارزمية على بعض المواضع المسيحية فيها فكان رد الفعل عنيفاً أيضاً فى غرب أوروبا، مما ترتب عليه مجئ الحملة الصليبية السابعة بزعامة لويس التاسع إلى الشرق.

ومع أن الطريقة التى استجاب بها الغرب الأوروبى لنداء الصليبيين فى الشرق جاءت واحدة فى المرتين، إلا أننا نلاحظ أن الأوضاع فى غرب أوروبا فى منتصف القرن الثالث عشر اختلفت عما كانت عليه فى منتصف القرن الثانى عشر. ففى سنة ١٢٥٠، كانت النهضة الأوروبية الوسيطة قد أخذت تؤتى أكلها، وأدت بالناس والمجتمع الغربى إلى التفكير فى مثل جديدة وآمال جديدة وأهداف جديدة وحياة جديدة، الأمر الذى غير من نظرة المعاصرين إلى الحياة، وجعلهم يتجهون بنشاطهم نحو آفاق تتفق مع ما آمنوا به من مثل وآمال وأهداف جديدة[١].

والواقع أنه كان من الصعب فى عصر شهد نمو المدن وتضخم نشاطها الاقتصادى، ونمو الملكيات وازدياد نفوذ الملوك على حساب أمراء الإقطاع، ونشأة الجامعات وما ارتبط بها من علوم حديثة، وظهور الآراء والمذاهب الهرطقية التى انتقدت الكنيسة واستهدفت الحد من سطوتها، وازدهار الفن القوطى... كان من الصعب فى عصر شهد كل هذه التطورات أن يظل الناس عبيداً للكنيسة ورجالها، وأن يستنفدوا كل طاقاتهم وإمكاناتهم فى حروب ضد المسلمين أثبتت التجارب عدم جدواها وقلة نفعها[٢].

وهكذا بدا أنه إذا كان الغرب الأوروبى قد لبى الدعوة الصليبية عند منتصف القرن الثالث عشر، فإنه لباها بروح غير الروح، وحماسة غير الحماسة التى لبى بها

---

(١) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ص٩١، ١٠٠ (١٩٦٨) وكذلك ص ٤٣٩-٤٤٠.

(2) Cheyney: The Dawn of New Era. p. 1-246.

الدعوة لتلك الحرب عند منتصف القرن الثانى عشر. لقد كانت جميع الشواهد تدل على أن عصر أنسلم وبطرس الناسك قد مضى وولى، وليفسح المجال أمام آفاق جديدة وعصر جديد، هو عصر روجر بيكون وألبرت الكبير (ماجنوس)[١].

حملة لويس التاسع:

وكان بطرق بيت المقدس قد بادر بإرسال سفارة إلى الغرب الأوروبى عقب استيلاء الخوارزمية على بيت المقدس سنة ١٢٤٤ ليشرح للبابوية وملوك الغرب وأمرائه خطورة موقف الصليبيين بالشام، ويطلب منهم المعونة العاجلة[٢]. وقد غادرت تلك السفارة ميناء عكا فى أواخر نوفمبر سنة ١٢٤٤، وكانت مؤلفة من أسقف بيروت وبطرق إنطاكية، فأدت جهودهما إلى عقد مجمع ليون فى صيف سنة ١٢٤٥، وهو المجمع الذى قرر ضرورة إنفاذ حملة صليبية جديدة إلى الشرق لتدارك الموقف قبل فوات الأوان.[٣] ولكن الصراع كان قد اشتد عندئذ مرة أخرى فى الغرب الأوروبى بين البابوية والإمبراطورية، الأمر الذى حال دون تكاتف بلدان الغرب الأوروبى، وبخاصة ألمانيا وإيطاليا فى المشروع الصليبى الجديد[٤]. وكان لويس التاسع ملك فرنسا- وهو الرجل الذى اشتهر فى التاريخ بورعه وتقواه حتى لقب بالقديس- قد أصيب بمرض خطير فى أواخر سنة ١٢٤٤، فنذر أثناء مرضه أن يقوم بحملة صليبية إذا شفى. ولما تم شفاؤه، وجد فى تلك الدعوة الجديدة فرصة طيبة للوفاة بنذره. وما زال يعد العدة لحملته طوال سنوات ثلاث، حتى أبحر من فرنسا فى أواخر أغسطس سنة ١٢٤٨ قاصداً الشرق، مصطحباً معه زوجته وإخوته روبرت دى أرتو وشارل دى أنجو، فضلا عن عدد آخر من كبار الأمراء الفرنسيين وصغارهم[٥].

وهكذا اتخذت الحملة الصليبية السابعة طابعاً فرنسياً بحتاً فزعيمها ملك فرنسا، والمشتركون فيها غالبيتهم الساحقة من الفرنسيين، مما جعلها بعيدة عن الصبغة الدولية[٦]. كذلك يلاحظ أنه على الرغم من المسحة الدينية التى اتصفت بها الحملة الصليبية السابعة والتى برزت فى زعامتها، إلا أن تلك الحملة اتخذت طابعاً استيطانياً

(1) Archer: op. cit, p. 390-391.
(2) Matthieu paris. p. 428-448.
(3) Brehier: L'Eglise et L`Orient, p. 217-218.
(٤) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى ج١ ص ٤٠٢ (١٩٦٦).
(5) Joinville: Ouvres (ed. De Wailly). P. 61-65.
(6) Stevenson: op. cit, p. 325.

فرنسياً، فجاءت مثل الحملة الصليبية الأولى أداة ووسيلة لتدعيم النفوذ الفرنسى فى الشرق الأدنى. ثم إن الصبغة الفرنسية التى امتازت بها تلك الحملة كانت سببا رئيساً من أسباب النجاح المعنوى الذى أحرزته فى الشرق، لأن الصليبيين أنفسهم فى بلاد الشام فى القرن الثالث عشر، غلب عليهم الطابع الفرنسى فعلا، كما كان كبار أمرائهم ينحدرون من أصل فرنسى، حتى لقد وصف بعض المؤرخين الحركة الصليبية بأنها حركة توسع فرنسية فى العصور الوسطى(١). هذا مع ملاحظة أن البيوت الحاكمة فى القسطنطينية والمورة وقبرص وإنطاكية وطرابلس وبيروت وصيدا وعكا ويافا، كان معظمهم يرتبط بفرنسا من ناحيتى الأصل والميول. لذلك كله رحب الشرق الصليبى الفرنسى بملك فرنسا عند مجيئه، ولم يحجم ملوكه وأمراؤه عن السير فى ركاب لويس التاسع وتحت قيادته، أو إمداده بفرق من جندهم تعمل معه وتأتمر بأمره(٢).

وجدير بالذكر أن فردريك الثانى– إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى الغرب– وقف من الحملة الصليبية السابعة موقفاً يدعو إلى العجب والدهشة. وكان المفروض فى الإمبراطور فردريك الثانى، وهو صاحب المصالح الكبيرة فى بلاد الشام بوصفه والد كونراد الوريث الشرعى لمملكة بيت المقدس– أن يؤيد لويس التاسع فى حملته وجهوده لاستعادة أملاك الصليبيين المفقودة أخيراً بالشام. وكان عليه أن يذكر بالإضافة إلى ذلك ما أداه لويس التاسع من خدمات للإمبراطورية أثناء نزاعها مع البابوية عن طريق وقوفه على الحياد بين الطرفين المتنازعين من ناحية ومحاولة التوفيق بينهما من ناحية أخرى(٣). ولكن فردريك الذى لم يجرؤ على معارضة مشروع لويس التاسع الصليبى فى أوروبا– بل على العكس قام بتموين الحملة الصليبية عند مرورها بصقلية فى طريقها الى قبرص– لجأ إلى تخويف الملك لويس من عاقبة مهاجمة مصر. وعندما رأى إصرار لويس، أرسل فردريك إلى السلطان الصالح :لأعرفه عزم قصد ريدافرانس على الديار المصرية وأحذره منه، وأشير عليه بالاستعداد له.. وكان ذهابى إلى مصر ورجوعى فى زى تاجر. ولم يشعر أحد باجتماعى بالملك الصالح خوفا من الفرنج أن يعلموا ممالأة الإمبراطور للمسلمين عليهم. وذلك على لسان الرسول نفسه»(٤).

(1) Longnon: Les Francais d`Outremer au Moyen Age. P. 103.

(2) Joinville: p.137-140.

(3) Lavisse: Hist. de France III, 2, p. 85-87.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب ج٤ ص ٢٤٧ تحقيق حسنين محمد ربيع. وأنظر أيضا نفس الكتاب، حوادث سنة ٦٤٦هـ.

والواقع أنه بعد أن عاد فردريك الثانى إلى إيطاليا من الشرق سنة ١٢٢٩ ظل محتفظاً بعلاقاته الطيبة مع السلطان الكامل، حتى إنه أرسل سنة ١٢٣٣ هدية من بضعة حيوانات نادرة إلى السلطان(١)، كذلك كان النص الذى ذكره كل من ابن أيبك والمقريزى فى خططه، وسبط بن الجوزى صاحب مرآة الزمان صريحاً، إذ يفيد أن الإمبراطور فردريك الثانى أرسل رسولا متخفياً فى زى تاجر، قابل السلطان الصالح نجم الدين أيوب وأخبره أن الملك الفرنسى عازم على المسير الى أرض مصر وأخذها(٢). وهكذا بدأ لويس التاسع رحلته إلى الشرق فى جو تحوطه الخيانة والدسيسة، لاسيما وأن البنادقة– وهم أكبر قوة بحرية فى حوض البحر المتوسط عندئذ عارضوا أيضا فكرة مهاجمة مصر، نظراً لما للروابط والمعاهدات التجارية التى ربطتهم بها، فضلا عن مصالحهم الضخمة فى الإسكندرية بالذات(٣).

ومهما يكن من أمر، فقد بارحت حملة لويس التاسع أوروبا فى تلك الظروف لتصل الى ميناء ليماسول فى قبرص فى سبتمبر سنة ١٢٤٨ . وهناك أحس الصليبيون وكأنهم فى بلدهم بفضل رعاية هنرى الأول ملك قبرص وحسن ضيافته واستقباله لهم، الأمر الذى اختلف اختلافاً بيناً عن موقف القبارصة من فردريك الثانى وحملته

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٢٨٣ . وتروى المصادر أن فردريك الثانى حزن حزناً شديداً لوفاة صديقه السلطان الكامل الأيوبى، وذكر فى رسالة له إلى ملك انجلترا مدى خسارته فى الشرق لوفاة صديقه المسلم السلطان الكامل. هذا إلى أن فردريك الثانى بادر بإرسال أحد رجاله وإسمه روجر الصقلى– إلى مصر لتعزية الصالح أيوب فى وفاة أبيه الكامل وعمل معاهدة جديدة بين فردريك والصالح أيوب. أنظر: Kantorowicz: op, cit, p. 557.

(٢) ذكر ابن أيبك (كنز الدرر، ج٧، ص ٣٦٦) عن حركة لويس التاسع؛ لما أحس به الانبرور (فردريك) كتب كتابا إلى السلطان الملك الصالح يعرفه بوصول الفرنسيس إليه وهو طالب لثغر دمياط... فكن منه على حذر، كذلك ذكر المقريزى فى الواعظ والاعتبار ج١ ص ٢١٩ (طبعة بولاق) ما نصه: ونزل (الصالح أيوب) بقلعة دمشق، فورد عليه رسول الإمبراطور ملك الفرنج الألمانية بجزيرة صقلية فى هيئة تاجر، وأخبره بان بواش الذى يقال له رواد فرنس (لويس التاسع) عازم على المسير إلى ارض مصر وأخذها، فسار السلطان من دمشق وهو مريض فى محفة ونزل بأشمون طناح فى المحرم سنة سبع وأربعين... ، هذا وقد سمى لويس التاسع فى المصادر العربية باسم بواش. (أبو المحاسن: الزاهرة، ج٧ ص ٢١١). أما سبط بن الجوزى صاحب مرآة الزمان فقد ذكر ما نصه: إذ كانت الأخبار تتواتر الى الملك بحركة ريد فرنس (لويس التاسع) من جهة الإنبرور ملك بلاد الإنبردية وأبيولية، فإنه كان مصافياً للملك الكامل أبيه، فكذلك له.. Amari: Biblioteca Arabo Sicula, vol 3, p. 517. والغريب أن أحداً من المؤرخين المحدثين الذين عالجوا موضوع حملة لويس التاسع على مصر لم ينتبه إلى هذه النصوص، واكتفوا بما ورد فى المصادر الأوروبية من إشارات سطحية غير محددة إلى الاتصالات بين فردريك الثانى والصالح أيوب، لأن مفتاح معرفة أخبار تلك الاتصالات كان فى بلاط الصالح أيوب فى الشرق.

(3) Heyd: Hist. du Commerce 1. p. 409-412.

بقبرص قبل ذلك بعشرين سنة. ثم إن السلطات القبرصية ساعدت لويس التاسع فى الحصول على كميات ضخمة من التموين لرجاله سواء من النبيذ أو الغلال[١]. وبذلك أتاحت الأشهر العديدة التى قضاها لويس التاسع فى قبرص (سبتمبر ١٢٤٨- مايو ١٢٤٩) فرصة طيبة للصليبيين، استجموا فيها وحصلوا على ما يلزمهم من مؤن، فضلا عن المساعدات البشرية التى حصل عليها لويس التاسع من ملك قبرص وغيره من زعماء الصليبيين الذين وفدوا من عكا[٢].

ويستفاد مما ذكره جوانفيل أن لويس التاسع إنما قصد بقضاء شتاء ١٢٤٨- ١٢٤٩ فى قبرص أن يستفيد من عنصر المباغتة فى مهاجمة مصر، فينتظر فى الجزيرة حتى تحين الفرصة المناسبة لمفاجأة الصالح أيوب. ومع ذلك فإن الأشهر التى قضاها لويس التاسع فى قبرص لم تمر دون القيام ببعض الاتصالات المفيدة لمصلحة الصليبيين. فبالإضافة الى ما تم من اتصال فى تلك الأثناء بين لويس التاسع والمغول- كما سنفصل فيما بعد- أسرع فرنج الساحل ككله[٣] وزعماء الداوية والاسبتارية إلى قبرص للتشاور مع ملك فرنسا فى أمر الحملة المقبلة على مصر من ناحية، وفى المصالح التى تهم الصليبيين بالشام من ناحية أخرى. وكان لويس التاسع حريصاً على ألا تؤدى حملته على مصر إلى إهمال الدفاع عن الشام، فأرسل إلى هيثوم الأول ملك أرمينية يطلب منه إمداد بوهيموند الخامس أمير إنطاكية ببعض مئات من المحاربين لرد إغارات التركمان. هذا إلى ما قام به لويس التاسع أثناء وجوده فى قبرص من جهود للتوفيق بين البيازنة والجنوية فى عكا، بعد أن تأزم الموقف بين الجانبين وتطور إلى نزاع مسلح بين الفريقين[٤].

استيلاء لويس التاسع على دمياط:

وفى شهر مايو سنة ١٢٤٩ كان لويس التاسع قد جمع قواته وسفنه فى ليماسول استعداداً للإبحار إلى مصر، فى الوقت الذى كانت الدولة الأيوبية فى مصر والشام

(1) Joinville, 57 & 62.
(2) Idem: 82.
(٣) المقريزى: السلوك، ج١ ص٣٣٣ .
(4) Heyd: Hist. du Commerce 1. p. 343-344.

لاتزال تعانى الكثير من المتاعب بسبب المنازعات بين أمراء بنى أيوب. من ذلك ما كان هناك عندئذ من نزاع عنيف بين الناصر يوسف ملك حلب والأشرف موسى ملك حمص[١]. وعندما استولى الحلبيون على حمص سنة ١٢٤٨، خرج الصالح أيوب من مصر قاصداً دمشق، ومن هناك أرسل قواته بقيادة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ لاسترداد حمص، فاستمرت تحاصرها طوال شتاء ١٢٤٨-١٢٤٩، حتى إذا ما أحس الصالح أيوب بتجمعات الصليبيين فى قبرص وبأن الخطر يهدد مصر فعلا، اضطر إلى عقد الصلح مع ملك حلب، وهو الصلح الذى توسط فيه الخليفة العباسى فى بغداد،على أن تستقر حمص بيد الحلبيين[٢].

وقد أراد الداوية استغلال تلك الظروف التى ألمت بالبيت الأيوبى فى مصر والشام عندئذ للحصول على مكاسب فى إقليم بيت المقدس. ولكن لويس التاسع عارض- وهو فى قبرص- هذا الاتجاه معارضة شديدة، وحذر الداوية من القيام بأى اتصال مع المسلمين بالشام. وربما رأى لويس التاسع أن الطريق السليم للحصول على بيت المقدس هو البدء بغزو مصر، وأن مفتاح المدينة المقدسة موجود فعلا فى القاهرة، ولا فائدة من أن يقوم الصليبيون فى الشام بالاستيلاء على بيت المقدس، ثم تخرج الجيوش الأيوبية من مصر لهدم البناء الصليبى بالشام[٣].

وأخيراً وصل لويس التاسع على رأس حملته أمام دمياط فى أوائل يونية سنة ١٢٤٩، وقد قدر المؤرخ أبو الفدا عدد الجيش الصليبى فى حملة لويس التاسع بنحو خمسين ألف مقاتل، وهو عدد مبالغ فيه بغير شك[٤]. وهنا نلاحظ أن لويس بدأ بحرب الأعصاب، واتبع أسلوباً أشبه بالأسلوب الذى كان يتبعه المغول فى ذلك العصر من إرسال رسائل تفيض بالتهديد والوعيد ليسقط فى يد خصمهم ويبادر إلى الاستسلام. ذلك أن لويس التاسع لم يكد يصل إلى دمياط حتى بعث إلى السلطان

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٢٨.

(٢) المقريزى: السلوك، ج١ ص٣٣١. أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٤٦ هـ. ويقول ابن واصل: وإنما أجاب السلطان الملك الصالح إلى الصلح لأمرين: أحدهما ما كان به من المرض. والثانى أنه بلغه حركة الفرنج وقصدهم الديار المصرية فى جموع عظيمة من داخل البحر، فرأى أن الصلح والاتفاق متعيناً عليه. (مفرج الكروب، ج٢ ورقة ٣٥٥ ب- مخطوط).

(3) Grousset: op. cit. III, p. 434.

(٤) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٤٧ هـ.

الصالح نجم الدين أيوب بكتاب أخبره فيه بأن مسلمي الأندلس يحملون إلينا الهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال، ونرمل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلى منهم الديار. فلو حلفت لى بكل الأيمان، ودخلت على القسوس والرهبان، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان، ما ردنى ذلك عن الوصول إليك.. وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى بملء السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا... ومن يقارن بين أسلوب هذه الرسالة ورسالة هولاكو إلى قطز- كما سنشير فى الباب الآتى- يجد التوافق شديداً فى المعانى والأفكار. ومهما يكن من أمر، فإن رسالة لويس التاسع وصلت السلطان الصالح أيوب وهو يعانى آلام مرض الموت، فاغرورقت عيناه، وكتب الرد إلى لويس التاسع يندد بغروره، ويذكره بما فعله المسلمون بالصليبيين: فلو رأت عيناك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وإخرابنا منكم الديار الأواخر والأوائل، لكان منك أن تعض على أناملك للندم[١].

وكانت الأشهر الثمانية التى قضاها لويس التاسع فى قبرص قد أتاحت للصالح أيوب فرصة طيبة للاستعداد، ولو أنه بدا غير متأكد من المكان الذى ستنزل به الحملة، وعما إذا كان هذا المكان بشواطئ مصر أو الشام. وعندما تأكد الصالح أيوب بأن مصر هى مقصد لويس التاسع، انتقل اليها فوراً من الشام- على الرغم من مرضه ورابط عند أشمون طناح- قرب دكرنس- ليكون فى مقابلة الفرنج إذا وصلوا إلى دمياط[٢]. ولا شك أن التحذير الذى أرسله الإمبراطور فردريك الثانى أفاد الصالح أيوب، فأسرع الى تحصين دمياط، بعد أن أثبتت التجارب اختيار الصليبيين لها نقطة ارتكاز للاستيلاء على مصر. لذلك شحن دمياط بالآت عظيمة وذخائر وافرة وجعل فيها بنى كنانة. وهم مشهورون بالشجاعة[٣]. كذلك عهد الصالح أيوب إلى الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ- الصديق القديم للإمبراطور فردريك- بالوقوف على رأس قوة على البر الغربى لفرع دمياط لمنع الصليبيين من النزول على ذلك البر[٤].

(١) المقريزى: السلوك، ج١ ٣٣٤-,٣٣٥

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ورقة ٣٥٥ ب (مخطوط).

(٣) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٤٧ هـ.

(٤) النويرى: نهاية الأرب، ج٢٧ ورقة ٩٠ (مخطوط). ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ورقة ٣٥٥-٣٥٦ (مخطوط).

وهكذا وصل لويس التاسع إلى دمياط ليجد المدينة طيبة التحصين، وأمامها الجيش الأيوبى يحول دون نزول القوات الصليبية إلى البر، فقرر النزول على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط، وبدأت عملية إنزال الجيش الصليبى فعلاً فى ٥ يونية سنة ١٢٤٩[١]. على أن نزول الصليبيين على الشاطئ لم يتم فى سهولة إذ تصدى لهم الجيش الأيوبى، ودارت معركة على رمال الشاطئ بين الفريقين اضطرت فيها خيول المسلمين إلى خوض مياه البحر[٢]. ولكن الصليبيين تفوقوا فى تلك المعركة بفضل كثرة عددهم، فقتل الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام، والأمير صارم الدين أزبك الوزيرى، واضطر الأمير فخر الدين نفسه إلى عبور النيل ليلا ومعه بقية رجاله إلى الضفة الشرقية حيث توجد مدينة دمياط، ولكنه لم يجرؤ على الوقوف عند دمياط نفسها وإنما اتجه إلى الجنوب منها صوب أشمون طناح[٣].

ولم يلبث أن استولى الرعب على أهل دمياط، فتركوا مدينتهم بما فيها هاربين، بعد أن أشعلوا النار فى سوق المدينة[٤]. بل إن بعض عرب كنانة الذين عهد إليهم الصالح أيوب بالدفاع عن المدينة ولوا الأدبار أيضاً وتركوا أبواب المدينة مفتوحة، وفاتهم عند فرارهم أن يقطعوا الجسر الذى يربط دمياط بالضفة الغربية للنيل[٥]. وهكذا صارت دمياط مدينة مفتوحة خالية من وسائل الدفاع، فدخلتها جيوش لويس التاسع فى سهولة بالغة فى ٦ يونية سنة ١٢٤٩ وتملكها بغير قتال. ويروى المقريزى أن الصليبيين عندما رأوا أبوابها مفتحة ولا أحد يحميها، خشوا أن تكون مكيدة، فتمهلوا حتى ظهر أن الناس قد فروا وتركوها، فدخلوا المدينة بغير كلفة ولا مؤنة حصار، واستولوا على ما فيها من الآلات الحربية والأسلحة العظيمة والعدد الكثيرة، والأقوات والأزواد والذخائر والأموال والأمتعة، وغير ذلك صفواً وعفواً[٦].

وهنا يتهم المؤرخون المعاصرون – وخاصة ابن واصل – الأمير فخر الدين

---

(1) Joinville, p. 91.
(2) Idem: 86-87.
(٣) المقريزى: السلوك، ج١ ص ٣٣٥ .
(4) Eracles. p. 591.
(٥) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٤٧ هـ، Joinville, p. 90-91.
(٦) المقريزى: السلوك، ج١ ص٣٣٦ .

بالتفريط فى دمياط، لأنه لو ثبت وأقام لامتنعت على الصليبيين، كما حدث قبل ذلك بثلاثين سنة فى حملة حنا دى برين[١]. وربما كان السبب فى تعجل فخر الدين فى الفرار، هو اعتقاده بأن السلطان المريض– الملك الصالح أيوب – قد توفى فعلا، فى الوقت الذى كان فخر الدين ذا أطماع تترقى إلى الملك، مما جعله يسرع لتحقيق أطماعه تاركاً دمياط لقمة سائغة للصليبيين[٢].

ومهما يكن من أمر، فإن الحملة الصليبية السابعة صادفت نجاحاً كبيراً فى الاستيلاء على دمياط، إذا تذكرنا أن الحملة الخامسة بزعامة حنا دى برين لبثت أمام دمياط ثمانية عشر شهراً، بذلت فيها جهداً طويلاً شاقاً حتى تم لها الاستيلاء على المدينة. ولم تغب هذه المقارنة عن المقريزى الذى يعجب من ذلك ويقول: وقد كانت دمياط فى أيام الملك الكامل لما نازلها الفرنج أقل ذخائر وعدداً منها فى هذه النوبة، ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة، وعندما فنى أهلها بالوباء والجوع، وكان فيها هذه المرة أيضا جماعة من شجعان بنى كنانة فلم يغن ذلك شيئا[٣]. والواقع أن سقوط دمياط بتلك السهولة كان مصيبة لم يجر مثلها على حد قول أبى المحاسن[٤]، نظراً لقوة تحصيناتها، فضلا عن أهميتها فى تجارة مصر[٥]. ولم يلبث الصليبيون أن وجدوا فى دمياط قدراً كبيرا من المؤن، فأخذوا يعملون فى سرعة لتحويلها إلى مدينة فرنجية، وبدءوا بتحويل جامع دمياط إلى كنيسة باسم نوتردام (مريم العذراء) وعينوا لها بطرقاً كاثوليكيا[٦].

على أن الصليبيين لم يحاولوا فى حملتهم هذه– سنة ١٢٤٩– أن يستفيدوا من الأخطاء التى وقعت فيها الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢١٩ . ذلك أنه كان المفروض أن يبادر لويس التاسع بالزحف إلى داخلية البلاد لمحاولة ضرب الجيش الأيوبى ضربة مفاجئة سريعة. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، إذ أضاع الصليبيون فى دمياط خمسة أشهر كاملة (يونية – نوفمبر سنة ١٢٤٩). وربما أراد لويس أن ينتظر حتى انحسار فيضان النيل، والذى كان سبباً فى فشل حملة حنا دى برين على مصر قبل ذلك بثلاثين سنة[٧]. ومهما يقال فى أن لويس التاسع إنما أضاع تلك الأشهر

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ورقة ٣٥٦ (مخطوط).
(٢) المصدر السابق ورقة ٣٦٦ .
(٣) المقريزى: السلوك، ج١ ص ٣٣٥
(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٣٠ .
(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ورقة ٣٥٦–٣٥٧ (مخطوط)، العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٧هـ.
(6) Michaud: op. cit, Tome 4, 144.
(7) Runciman: op. cit, III, p.p. 263.

الطويلة فى دمياط منتظراً مقدم أخيه ألفونس دى لواتيه ومعه الإمدادات التى طلبها الملك، أو غير ذلك من الأسباب والأعذار، فإن النتيجة هى أن لويس التاسع أعطى خصومه فرصة طيبة للاستعداد وإعادة تنظيم جيوشهم، فضلا عما اعترى الجيش الصليبى خلال أشهر الركود هذه من فساد وخمول[١]. وكان الصالح أيوب قد عاقب أمراء بنى كنانة عقاباً قاسياً لفرارهم من دمياط وإهمالهم الدفاع عنها فأمر بشنق بنى كنانة فشنقوا عن آخرهم[٢]. أما المماليك الأترك وقائدهم فخر الدين، وهم الذين لم يثبتوا أمام الفرنسيين عند نزولهم الى البر، فقد وبخهم السلطان ونهرهم وقال لهم: ما قدرتم تقضون ساعة بين يدى الفرنج.... وقد تخوف أولئك المماليك من نوايا السلطان الصالح أيوب وأرادوا قتله، فقال لهم فخر الدين ابن الشيخ اصبروا عليه فهو على شفا. فإن مات فقد استرحتم منه، وإلا فهو بين أيديكم...[٣].

والواقع أن المرض لم يلبث أن اشتد على الصالح أيوب بحيث لم يقو على النهوض من الفراش، فحمل إلى قلعة المنصورة[٤]، حيث ظل وهو على فراش الموت ينظم شئون الدفاع، فأرسل يطلب الإمدادات من القاهرة وجاءت الشوانى وفيها العدد الكامل والرجال والمقاتلة[٥]. وفى تلك الأثناء كان الجيش الصليبى قد عاد الى الضفة الغربية للنيل، حيث عسكر فى مواجهة دمياط، ولم يبق منهم فى دمياط نفسها إلا النساء وغير القادرين[٦]. وقد استغل المسلمون ذلك الوضع الجديد المكشوف للصليبيين- بعيدين عن حماية مدينة دمياط وأسوارها- وأخذوا فى الإغارة على الفرنج ومناوشتهم وأسر ما يمكن أسره من فرادى الصليبيين. وهؤلاء الأسرى كانوا يرسلون تباعاً إلى القاهرة، وأشار إليهم المقريزى[٧]. ويبدو أن تلك الإغارات بلغت

(١) محمد مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع على مصر، ص ١٢٠-١٢١ .

(٢) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٤٨ هـ.

(٣) العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٧هـ.

(٤) ذكر أبو الفدا أن مرض الملك الصالح أيوب كان السل والقرحة. (المختصر، حوادث سنة ٦٤٧هـ). فى حين ذكر أبو المحاسن والمقريزى أنه أصيب بقرحة فى رئته وناسور امتد إلى فخده الأيمن، وأكل جسمه. (النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٢٨، السلوك، ج١ ص ٣٤٢).

(٥) العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٧هـ.

(6) Grousset: op. cit. III, p. 447.

(٧) فلما كان يوم الاثنين سلخ شهر ربيع الأول وصل إلى القاهرة من أسرى الفرنج الذين تخطفهم العرب ستة وثلاثين أسيراً منهم فارسان. وفى خامس شهر ربيع الأخر وصل سابعة وثلاثين أسيراً. وفى سابعه وصل اثنان وعشرون أسيراً. وفى سادس عشرة وصل خمسة وأربعون أسيراً.. (السلوك، ج١، ص ٣٣٧).

درجة من الخطورة أزعجت لويس التاسع، حتى إنه فرض حراسة مشددة حول المعسكر الصليبى يتناوبها الجند طوال الليل(١).

وأخيرا وصل الفونس دى بواتيه ومعه المدد المنتظر فى أواخر أكتوبر سنة ١٢٤٩، فعقد الصليبيون مجلساً للحرب لتقرير الخطوة التالية. وهنا رأى بعض الزعماء الصليبيين أن يتجهوا نحو الإسكندرية للسيطرة على السواحل المصرية من ناحية، وقطع مصر عن الاتصال بالعالم الخارجى وحرمانها من نشاطها التجارى من ناحية أخرى، لاسيما وأن تفوق الأسطول الصليبى سيتيح فرصة طيبة للصليبيين لإتمام هذه الخطوة بنجاح(٢). ولكن البعض الآخر فضل الزحف على القاهرة لطعن مصر فى قلبها. وقد انتصر الرأى الأخير، فانتقل الصليبيون إلى الضفة الشرقية للنيل، وشرعوا فى الزحف على القاهرة فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٢٤٩(٣).

ولم يكد الصليبيون يشرعون فى الزحف من دمياط جنوباً، حتى توفى السلطان الصالح أيوب فى المنصورة فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٩(٤). ولاشك أن وفاة الصالح أيوب فى تلك الظروف الحرجة جاءت خسارة كبرى لعدم وجود من يحل محله بسرعة فى حكم البلاد، وفى مواجهة الخطر الناجم عن الغزو الصليبى. وكان للصالح أيوب ابن واحد اسمه توران شاه، وهو شاب عديم الخبرة، عينه أبوه نائباً عنه فى حصن كيفا وديار بكر(٥). وفى تلك الظروف ظهرت على المسرح شجر الدر- أرملة الصالح أيوب- لتقوم بدور بارز حفظه لها التاريخ، فأخفت خبر موت زوجها بحيث لم يعلم بذلك الخبر- عداها- سوى الطواشى جمال الدين محسن والأمير فخر الدين ابن الشيخ، فكتموا ذلك خوفاً من الفرنج، وجمعت شجر الدر الأمراء وقالت لهم: إن السلطان يأمركم أن تحلفوا له، ثم من بعده لولده المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا،

---

(1) Joinville, p. 96-98.

(2) Setton: op, cit, II. P. 67.

(3) Joinville, p. 100 & Matthieu paris. VI, p. 161.

(٤) أجمعت المصادر على أن الصالح أيوب توفى بعد يومين من شروع الصليبيين فى الزحف من دمياط. غير انه بفهم من رواية المقريزى أن الصليبيين لم يشرعوا فى زحفهم من دمياط الا بعد وفاة السلطان الصالح أيوب، وأما الفرنج فما هو الا أن فهموا أن السلطان قد مات حتى خرجوا من دمياط. (السلوك ج١ ص ٣٤٦).

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٦٤ .

وللأمير فخر الدين ابن الشيخ بأتابكية العسكر...[١]. ثم إن شجر الدر أرسلت الفارس أقطاى - كبير المماليك البحرية وقتئذ- لاستحضار المعظم تورانشاه على عجل من حصن كيفا. وفى الوقت نفسه سارت الاستعدادات الخاصة بالدفاع سيراً طبيعياً، واستمرت الكتب والمراسيم تخرج بتوقيع السلطان المتوفى كأنه حى على قيد الحياة[٢].

ولكن حدث على الرغم من هذه الاحتياطات أن تسرب خبر وفاة السلطان- لا إلى المصريين فحسب- بل إلى الصليبيين أيضاً، وعندئذ رأى لويس التاسع أن يسرع بالهجوم ليستفيد من الظروف السيئة التى أمست فيها البلاد، وليتمكن من إنزال ضربته قبل وصول المعظم تورانشاه[٣].

هزائم الصليبيين بين المنصورة وفارسكور:

وعندما تحرك الجيش الصليبى من دمياط فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٢٤٩، اختار أن يسلك للزحف على القاهرة طريق الدلتا، وهو طريق كثير الترع والقنوات. وكان أن سار الصليبيون على الضفة الشرقية لفرع دمياط بحذاء النيل جنوباً فى المنطقة التى أطلق عليها العينى اسم جزيرة دمياط[٤]، وهى عبارة عن مثلث تحده من الشمال الشرقى بحيرة المنزلة ومن الغرب فرع دمياط. ومن الجنوب الشرقى فرع أشمون طناح (بحر أشمون) المعروف اليوم باسم البحر الصغير. وعند رأس المثلث من ناحية الجنوب الغربى، أى عند نقطة تفرع بحر أشمون من فرع دمياط تقع المنصورة إلى الجنوب من نقطة التفرع. ومعنى ذلك أن بحر أشمون كان يعترض طريق الصليبيين فى زحفهم جنوباً تجاه المنصورة ثم القاهرة، وهو الأمر الذى أعطى الأمير فخر الدين قائد الجيش فرصة طيبة لاستغلال تلك الظروف الطبيعية فى الدفاع. وقد أقام الأمير فخر الدين نفسه فى المنصورة، ومنها أخذ ينظم هجمات مفاجئة ضد الصليبيين فى زحفهم لعرقلة ذلك الزحف. ومن هذه الهجمات ما حدث فى ٧ ديسمبر سنة ١٢٤٩

١) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٤٧ هـ.

٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ورقة ٣٦٢-٣٦٣ (مخطوط).

(3) Michaud: op, cit, Tome 4 p. 154-155.

٤) العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٧هـ.

من قيام ستمائة فارس من الجيش الأيوبى بمهاجمة الصليبيين بين فارسكور وشرمساح (شارمساح)[١]، وإن كانت الهزيمة قد حلت بالمسلمين، وقتل بعض أمرائهم، ومنهم العلائى أمير مجلس[٢]. ومع ذلك فقد نجح المسلمون فى أسر أعداد كبيرة منهم، حتى إنهم أسروا فى ليلة واحدة خمسين أسيراً، وهؤلاء كانوا يرسلون إلى القاهرة أولا بأول. وهكذا تقدم الصليبيون فى زحفهم، وسارت إلى جانبهم فى النيل بعض سفنهم تحمل إليهم المؤن من دمياط، فمروا بشرمساح والبرامون، حتى وصلوا فى ٢١ ديسمبر إلى رأس جزيرة دمياط- وهى نقطة تفرع بحر أشمون من فرع دمياط فى مقابلة المنصورة- وصار بينهم وبين المسلمين بحر أشمون[٣].

وإذا كان المصريون قد استطاعوا شن هجمات على الصليبيين من قبل أثناء زحفهم، فإن وصول الصليبيين إلى ذلك الموقع الحصين حيث احتموا بالمياه من جهتين، جعلهم بعيدين عن منال المسلمين، لاسيما وأن لويس التاسع حفر فى الجهة الثالثة- أى فى ظهر الجيش الصليبى- عدة حفر ملأها بالماء حتى لا يتمكن المغيرون من الوصول إلى معسكره. هذا فى الوقت الذى رابطت السفن الصليبية أمام المعسكر الصليبى فى النيل لتحميه من أى هجوم يأتى من جانب النهر[٤]. ومع ذلك لم يعدم المسلمون وسيلة لمهاجمة الصليبيين وكانوا يتحيلون فى خطفهم بكل حيلة[٥].

على أن الصعاب لم تلبث أن واجهت لويس التاسع عندما وجد نفسه شبه محصور فى تلك المنطقة، لا يستطيع العبور إلى المنصورة، والمسلمون أمامه على الضفة الأخرى للنهر تتزايد أعدادهم وتكتمل استعداداتهم يوماً بعد يوم. هذا، وإن كان لويس التاسع قد استطاع أن يعبر بحر أشمون عن طريق مخاضة اسمها مخاضة سلمون دلة عليها أهل بلدة سلمون وغالبيتهم من غير المسلمين[٦]. وفى ٨ فبراير سنة

(١) العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٧هـ.

(٢) المقريزى: السلوك، ج١ ص٦٤٧هـ.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٣٧.

(٤) العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٧هـ.

(٥) يروى المقريزى أن شخصاً أخذ بطيخة ادخل فيها رأسه وغطس فى الماء إلى أن قرب من الفرنج فظنوه بطيخة، فما هو إلا أن نزل أحدهم فى الماء ليتناولها إذ اختطفه المسلم وعام به حتى قدم به إلى المسلمين. (المقريزى: السلوك، ج١ ص٣٤٨).

(٦) العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٧هـ.


البحر المتوسط
دمياط
العادلية
فارسكور
بحيرة المنزلة
شارمساح
البرمون
سلمون
طلخا
بحر أشموم
أشموم طناح
جديلة
المنصورة
فرع دمياط
حملة لويس التاسع على مصر
عاشور

١٢٥٠ أخذ الصليبيون يعبرون بحر أشمون عن طريق تلك المخاضة. ولم يكد الأمير فخر الدين يعلم بعبور الصليبيين بحر أشمون، حتى أسرع على الفور فى الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة، فجمع رجاله ووقف قبالة الصليبيين. ولكن فخر الدين لم يلبث أن وقع فى كمين نصبه له الداوية وقتل على الأثر، مما أنزل خسارة فادحة بالجيش الأيوبى فى تلك الظروف إذ تفرق المسلمون يميناً وشمالاً وكادت أن تكون الهزيمة بالكلية[١].

على أن روبرت دى أرتوا- أخا لويس التاسع- عبر بحر أشمون مع مقدمة الجيش الصليبى، وعندئذ ارتكب حماقة كبرى، إذ لم يشأ أن ينتظر عبور بقية الجيش الصليبى ومعهم لويس التاسع نفسه- طبقاً للخطة الموضوعة؛ وإنما بادر فاقتحام المنصورة دون أن يسمع إلى أوامر الملك بعدم الإقدام على تلك الخطوة[٢]. وهكذا أوغل فرسان الصليبيين داخل المنصورة فى الوقت الذى كان المسلمون قد وجدوا قائداً جديداً فى شخص بيبرس البندقدارى الذى تزعم المماليك الصالحية فى معركة المنصورة ضد الصليبيين. وكان الموقف خطيراً، حتى أطلق ابن واصل على ذلك اليوم يوم الكبسة[٣]. ولكن المماليك البحرية بوجه خاص أنقذوا الموقف، فانقضت الطائفة التركية من الجامدارية والبحرية الصالحية، وحملوا على الفرنجة حملة زعزعت وهدمت بنيانهم، وأناخوا عليهم حرباً دراكاً وقتلا وإهلاكاً، فكانت عدة القتلى منهم ألفاً وخمسمائة، وولوا منهزمين...[٤]. وكان على رأس القتلى روبرت دى أرتوا نفسه، فضلا عن عدد كبير من أمراء الصليبيين. أما فرسان الداوية فقد قتل منهم نحو مائتين وخمسة وثمانين فارساً، ولم يستطع الهرب سوى أربعة أو خمسة فقط[٥]. وهكذا كانت المنصورة مقبرة الجيش الصليبى على حد تعبير أحد المؤرخين الأوروبيين[٦]، أو أول ابتداء النصر على الفرنج على قول المقريزى[٧].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ورقة ٣٦٦ (مخطوط). العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٧هـ.

(2) Matthieu paris. VII. 74-77 & Joinville, p.p. 118-119.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ورقة ٣٦٦ (مخطوط).

(٤) العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٧هـ.

(٥) محمد مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع على مصر، ص ١٥٦-١٥٧ .

(6) Grousset: op. cit. III, p. 465.

(٧) المقريزى: السلوك، ج١ ص٣٥١ .

أما لويس التاسع فقد جزع لتلك الصدمة، ولكنه تمالك نفسه، فأقام جسراً عظيماً من الصنوبر عبر عليه النيل مع رجاله ليتدارك الموقف(١)، ولكن المماليك استبسلوا بعد انتصارهم على مقدمة الجيش الصليبى، فقاموا يوم الجمعة ١١ فبراير بهجوم عام على المعسكر الصليبى، واشترك معهم مشاة المسلمين فضلا عن جموع العريان. وفى تلك المرة قاد الملك لويس التاسع المعركة بنفسه وأظهر شجاعة كبيرة وعزيمة قوية، فنظم جيشه تنظيما دقيقا، وثبت فى المعركة حتى اضطر المسلمون إلى التراجع فى المساء نحو المنصورة بعد أن تركوا أثقالهم(٢).

وعلى الرغم من شجاعة لويس التاسع وثباته، إلا أن موقف الصليبيين أخذ يزداد سوءاً فى سرعة واضحة، بعد أن قلت المؤن وفقدوا نسبة كبيرة من فرسانهم فى معركة المنصورة. ثم جاء انتشار الأمراض والحميات فى معسكرهم ليزيد الطين بله. وكان ذلك فى الوقت الذى وصل المعظم تورانشاه إلى المنصورة فى نهاية فبراير سنة ١٢٥٠ – بعد أن أعلن سلطاناً وهو فى دمشق أثناء طريقه إلى مصر – فأدى وصوله إلى ارتفاع الروح المعنوية عند المصريين وتيمن الناس بطلعته(٣). وعندئذ أدرك لويس استحالة الزحف على القاهرة، وبدأ يفكر فى العودة إلى دمياط، لاسيما وأن دمياط مدينة حصينة لها أهميتها مما يمكنه من أن يحتمى ورجاله فيها، أو على الأقل يستغلها فى مساومة المسلمين عليها. وكل ما كان يخشاه لويس التاسع عندئذ هو أن يتعرض لكارثة حربية أثناء انسحابه إلى دمياط، ولذلك تردد فى اتخاذ تلك الخطوة، وظل الصليبيون حتى خامس إبريل يراودهم الأمل فى معاودة الهجوم على المنصورة من جديد.

وزاد من سوء موقف الصليبيين فى ذلك الدور المواصلات بينهم وبين قاعدتهم فى دمياط، مما هددهم بالجوع وفرض عليهم أن يتدبروا حقيقة موقفهم بسرعة. فحتى ذلك الوقت كانت السيطرة على مياه النيل فيما بين دمياط وبحر أشمون – للسفن الصليبية، التى نجحت فى إمداد المعسكر الصليبى بكل ما احتاج إليه من

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٤٦٣ . هذا وإن كانت المصادر الصليبية تروى أن هذا الجسر أقيم من السفن. (انظر: جوزيف نسيم يوسف: لويس التاسع فى الشرق الأوسط، ص ٥٢).

(2) Joinville, p. 134-136.

(٣) المقريزى: السلوك، ج١ ص٣٥١–٣٥٣ . أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٦٤ .

إمدادات ومؤن. ولكن السلطان تورانشاه بنى عدة سفن وحملوها مفصلة على الجمال إلى بحر المحلة، وطرحوها فيه وشحنوها بالمقاتلة، وبذلك قطع الطريق على السفن الصليبية وحال دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم فى دمياط. ولم تلبث سفن المسلمين أن انقضت على المراكب الصليبية، وأخذتها أخذا وبيلا[١]. ويذكر العينى أن السفن الإسلامية استولت فى ١٦ مارس على اثنتين وخمسين سفينة للفرنجة قرب مكان معروف باسم مسجد النصر، وكانت السفن الفرنجية محملة بالميرة والمؤن.[٢] ويضيف ابن واصل أن المسلمين استولوا على جميع من كان فى المراكب الصليبية من أسرى عدتهم ألف رجل، وحملت الأسرى على الجمال وقدم بهم إلى العسكر[٣]. كذلك يروى المقريزى أخبار ثلاث معارك نيلية بين السفن الإسلامية والصليبية وانتصرت فيها جميعاً سفن المسلمين وبذلك انقطع المدد من دمياط عن الفرنج، ووقع الغلاء عندهم وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ولا يقدرون على الذهاب، واستضرى المسلمون وطمعوا فيهم[٤]. ويتفق جوانفيل مع المقريزى فى أن عدد السفن الصليبية التى استولى عليها المسلمون فى تلك الفترة يقرب من ثمانين سفينة[٥].

وهكذا لم يبق أمام لويس سوى أن يسوق رجاله ويرجع من حيث أتى، بعد أن أصبح الصليبيون محبوسين لا يستطيعون المقام ولا الذهاب[٦]. وفعلا استعد الصليبيون للانسحاب فأحرقوا ما عندهم من الخشب وأتلفوا مراكبهم ليفروا إلى دمياط[٧]، ولكن عملية الانسحاب فى تلك الظروف لم تكن سهلة، إذ أدرك لويس أن جيشه سيتعرض لمطاردة قاسية من المسلمين، ربما عصفت به وبحملته. لذلك لجأ لويس- قبل أن يبدأ فى الانسحاب- إلى فتح باب المفاوضات مع المسلمين، على أساس ترك دمياط مقابل أخذ بيت المقدس للصليبيين[٨]. ومن الواضح أن لويس أراد

---

(١) المقريزى: السلوك، ج١ ص٣٥٣ .

(٢) العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٧هـ.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ١٨٧ .

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ورقة ٣٦٨ (مخطوط).

(5) Joinville, p. 160.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ورقة ٣٦٨ (مخطوط).

(٧) المقريزى: السلوك، ج١ ص٣٥٤ .

(8) Joinville, p. 164 and ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ورقة ٣٦٩ (مخطوط).

بهذا العرض أن يضرب عدة عصافير بحجر واحد، فيسترد بيت المقدس فى الوقت الذى يشعر بعجزه عن الاحتفاظ بدمياط، ثم يضمن لنفسه ولجيشه انسحاباً آمناً سليما من مصر دون أن يتعرض لمطاردة المسلمين وأذاهم.

ولكن عرض لويس التاسع جاء متأخراً بعد فوات الأوان. ولو أنه تقدم بطلبه هذا قبل ذلك ببضعة أشهر لكان وجيهاً ولأمكن للمسلمين أن ينظروا فيه. أما وقد جاء بعد أن أصبح معروفاً لدى المسلمين ما يعانيه الصليبيون من ضعف وعناء ونقص فى الأقوات، فإن تورانشاه رفض طلب لويس(١).

وفى ٥ ابريل سنة ١٢٥٠ بدأ الصليبيون يتراجعون نحو دمياط بحذاء الضفة الشرقية لفرع دمياط/ فى حين حمل المرضى منهم فى السفن. والواقع أن العملية لم تكن انسحاباً بالمعنى المعروف فى الحرب، وإنما كانت عملية هروب إلى دمياط، كما أسماها ابن واصل(٢). وكان الصليبيون قد أقاموا – كما سبق أن أشرنا – جسراً على بحر أشمون فسهوا عن قطعه(٣)، وعندئذ عبر خلفهم المماليك وركبوا أقفيتهم أى ساروا فى أعقابهم يهاجمونهم من كل ناحية(٤). وعلى الرغم من الصعوبات الكثيرة التى نزلت بهم من جراء هجمات المماليك، إلا أن لويس التاسع أظهر كفاية واضحة فى تنظيم صفوف الصليبيين حتى وصلوا إلى شرمساح عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط(٥).

ولم تكد مقدمة الجيش الصليبى تصل إلى فارسكور (فارس كور) حتى غلب المرض على لويس التاسع ومعظم رجال جيشه. هذا فى الوقت الذى أحدق المسلمون بهم يتخطفونهم طول الليل قتلا وأسراً(٦). وعندما تأكد المسلمون من سوء موقف الصليبيين، اختاروا أن يشنوا عليهم هجوماً عند فارسكور(٧). وكان لويس التاسع قد اشتد به الإعياء والمرض، فلم يقو على القتال، وقاده أحد رجاله ليستريح فى منية أبى عبد الله، وهى إحدى

(1) Grousset: op. cit. III, p. 479.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٣٦٩. وقد كرر ابن واصل هذه العبارة فى بداية سنة ٦٤٨هـ، فى نفس الورقة من المخطوطة.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٦٤.

(٤) المقريزى: السلوك، ج١ ص٣٥٥.

(٥) العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٨هـ.

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٦٤.

(٧) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ورقة ٣٦٩ (مخطوط).

قرى شرمساح. وفى الموقعة التى دارت بين المسلمين والصليبيين عند فارسكور، حلت الهزيمة ساحقة بالصليبيين، ووقع الجيش الصليبى بأجمعه تقريباً بين قتلى وأسرى[١]. وكان من جملة الأسرى لويس التاسع نفسه الذى سيق مكبلا بالأغلال إلى المنصورة حيث سجن فى دار القاضى فخر الدين إبراهيم بن لقمان، وعهد إلى الطواشى صبيح المعظمى بحراسته[٢]. ويروى ابن أيبك أن تورانشاه أكرم لويس التاسع فى أسره فخصص له من يقوم بخدمته، كما رتب له كل ما يحتاج إليه من مأكل ومشرب[٣]. كذلك يروى أبو المحاسن أن لويس بقى فى دار ابن لقمان مكرما غاية الكرامة، وأن تورانشاه أرسل إليه خلعة ولكنه رفض أن يلبسها، كما أقام له دعوة عظيمة فامتنع الملعون أيضاً عن حضورها، وقال: أنا ما آكل طعامه وما يحضرنى إلا ليهزأ بى عسكره ولا سبيل إلى هذا[٤].

ولم يهتم المسلمون كثيراً- وهم فى نشوة نصرهم- بأمر دمياط، إذ باتوا يعتقدون أن استردادها صار أمراً مفروغاً منه، وإنما أخذوا يخططون للاستيلاء على جميع الممتلكات الصليبية بالشام، عن طريق الضغط على لويس التاسع، ولكن لويس أجاب بأنه لا سلطان له على الصليبين وممتلكاتهم فى الشام، وأن تلك الجهات إنما تتبع الإمبراطور فردريك الثانى[٥]. وعبثاً حاول تورانشاه تهديد ملك فرنسا لانتزاع به ما يريدون[٦]. وكان أن اغتاظ تورانشاه لموقف الملك الفرنسى، فصمم على غزو الشام، كما غالى فى شروط الصلح مع الصليبيين فطالب بمبلغ ضخم من المال مقابل فداء الجيش الفرنسى، على أن يكون تسليم دمياط ثمناً لفداء الملك الفرنسى نفسه[٧]. وقد وافق لويس على تلك الشروط، وأبرمت معاهدة بينه وبين تورانشاه تقضى بأن يستمر الصلح لمدة عشر سنوات، وأقسم الطرفان على احترام شروط الصلح[٨].على أن تورانشاه لم يلبث أن قتل قبل أن يتم تنفيذ الاتفاقية السابقة مع الصليبيين. ولعل أهم

(١) قدر المؤرخون قتلى الصليبيين فى موقعة فارسكور بثلاثين ألفاً. أما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج. (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٦٧).

(٢) المقريزى: السلوك، ج١ ص٣٥٦ .

(٣) ابن أيبك: كنز الدرر، ج٧، ص ٣٨١ (تحقيق المؤلف).

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٦٦ .

(5) Joinville, p. 184-186.

(6) Idem: 186-187.

(٧) محمد مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع على مصر، ص٢٠٦ .

(٨) جوزيف نسيم يوسف: لويس التاسع، ص٦١ .

ما ترتب على مقتل تورانشاه من تطور خطير فى تاريخ الشرق الأدنى هو سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك فى حكم مصر والشام.

قيام سلطنة المماليك:

توسع سلاطين الأيوبيين وملوكهم فى شراء مماليك صغار من الرقيق الأبيض من بلاد القفجاق وما وراء النهر، وتربيتهم ليتخذوا منهم قوة يعتمدون عليها فى تثبيت حكمهم والوقوف فى وجه خصومهم. وقد ظل أولئك المماليك الأتراك أداة سهلة لينة فى يد سادتهم الأيوبيين، طالما كان أولئك السادة محتفظين بقوتهم وهيبتهم(١). وإلى جموع المماليك بالذات يرجع الفضل فى احتفاظ خلفاء صلاح الدين- وبخاصة العادل والكامل- بتفوقهم الحربى وصمودهم فى وجه الصليبيين بالشام، ولكن لم يكد الخلاف يدب بين أبناء البيت الأيوبى وتستحكم الحروب والمنازعات فيما بينهم، حتى ازداد نفوذ المماليك، وأصبحوا الأداة التى لا غنى عنها لملوك الأيوبيين للاحتفاظ بسلطانهم. وبالتالى فقد تضخم نفوذ المماليك السياسى فى الدولة نتيجة لشعورهم بأهميتهم الحربية، ولا أدل على ازدياد نفوذ المماليك السياسى فى الدولة الأيوبية عندئذ من أنهم هم الذين دبروا المؤامرة لخلع العادل الثانى وإحلال الصالح أيوب محله(٢)، الأمر الذى جعل الصالح أيوب يشعر بفضلهم عليه، فازداد نفوذهم فى عصره زيادة ملموسة بعد أن كثرت أعدادهم، وظهر أن الصالح لا يمكنه أن يستغنى عنهم. ويروى العينى عن الصالح أيوب أنه جمع من المماليك الترك ما لم يجمع غيره من أهل بيته، حتى كان أكثر أمراء العسكر مماليكه، ورتب جماعة من المماليك الترك حول دهليزه وسماهم البحرية(٣).

وهؤلاء المماليك هم الذين اعتمد عليهم الصالح أيوب فى صد لويس التاسع وحملته عن مصر. فلما نجح الصليبيون فى النزول إلى البر وسقطت دمياط فى أيديهم، عنفهم الصالح أيوب، فخشوا غضبته وأرادوا قتله لولا مرضه الذى جعلهم ينتظرون وفاته الطبيعية، كما سبق أن أشرنا(٤). ولم يلبث المماليك - عقب وفاة الصالح أيوب- أن أظهروا بطولة نادرة فى موقعتى المنصورة وفارسكور، فبدت منهم الهمة العالية والتقدم العظيم.. وكان لهم الحظ الأوفى والأوفر...(٥). وبعبارة أخرى

(١) سعيد عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، ص ١-٤ .

(٢) المقريزى: السلوك، ج١ ص٬٢٩٥

(٣) العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٧هـ.

(٤) المصدر السابق.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ورقة ٣٦٩ (مخطوط). ويعبر ابن أيبك عن ذلك بقوله: ظفرت أسود الترك بكلاب الفرنج. كنز الدرر، ج٧، ص٣٧٧- تحقيق المؤلف.

فإن الكسرة التى حلت بالصليبيين على مسرح المنصورة- فارسكور، إنما يرجع الفضل الأول فيها إلى طائفة المماليك البحرية، وقائدهم الأمير بيبرس البندقدارى.(١) ولا يخفى أثر هذه الانتصارات التى أحرزها المسلمون عندئذ فى تغيير مصير الحملة الصليبية السابعة، وإنقاذ مصر من غزو الصليبيين، الأمر الذى جعل المماليك يشعرون بأهميتهم، ويعتدون بقوتهم؛ فى الوقت الذى كانت الدولة الأيوبية فى مصر تعانى الكثير من مظاهر الخور والضعف، وبخاصة بعد وفاة الصالح أيوب(٢).

ذلك أن السلطان المعظم تورانشاه- الذى خلف أباه الصالح أيوب فى حكم مصر- لم يكن بالرجل الذى يصلح للموقف الذى صارت فيه البلاد عند منتصف القرن الثالث عشر؛ ليس بسبب عدم معرفة المصريين به فحسب بل أيضا لسوء أخلاقه الشخصية وجهله بشئون الحكم والسياسة، حتى لقد وصفه ابن الجوزى بأنه كان سئ التدبير والسلوك ذا هوج وخفة(٣). وقد أحضر تورانشاه معه من حصن كيفا مجموعة من الندماء، وزع عليهم الإقطاعات والوظائف التى حرم منها أصحابها من المماليك البحرية. ويبدو أن تورانشاه حسد البحرية على المكانة التى حققوها لأنفسهم فى نظر المعاصرين بعد انتصاراتهم على الصليبيين على مسرح المنصورة- فارسكور، فأحس أنهم يزاحمونه فى السلطان وأراد أن يتخلص منهم فى سرعة. من ذلك ما ترويه المراجع من أنه كان يشرب الخمر، ويضرب الشموع المصفوفة أمامه واحدة بعد أخرى حتى تنقطع، ويقول هكذا أفعل بالبحرية، ويسمى كل واحد منهم باسمه(٤). وهكذا أخذ المماليك البحرية يتخوفون من تورانشاه ونواياه، وباتوا يتربصون به الدوائر؛ فى الوقت الذى لم يحفظ تورانشاه الجميل لزوج أبيه شجر الدر، ونسى أنها صانت له ملك أبيه وأرسلت تستدعيه على عجل من كيفا لتولى السلطنة. ذلك أنه اتهمها بأنها أخفت ثروة أبيه، وأرسل إليها يتهددها ويطالبها بما تحت يدها من الجواهر، فداخلها منه خوف كثير.. وكاتبت المماليك البحرية(٥).

(١) سعيد عاشور: العصر المماليكى، ص ٧-٨ .

(2) Setton: op, cit, vol. 5. P. 738-739.

(٣) سبط بن الجوزى: مرآة الزمان، حوادث سنة ٦٤٨هـ.

(٤) المقريزى: السلوك، ج١ ص٣٥٩، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٧١ .

(٥) المصدر السابق، ص٣٥٨ .

وفى ٢ مايو سنة ١٢٥٠ هجم المماليك البحرية على تورانشاه، فحاول الاحتماء ببرج من الخشب كان قد نصب له بفارسكور. ولكن المماليك أشعلوا النار فى البرج، وعندئذ ألقى تورانشاه بنفسه فى نهر النيل طلباً للنجاة. ولم يتركه المماليك وإنما لاحقوه بسهامهم، فمات جريحاً غريقاً محترقاً، وصاح فى المماليك ما أريد ملكا!... دعونى أرجع إلى الحصن (كيفا) يا مسلمين... ما فيكم من يصطنعنى ويجبرنى[١]. ولكن أحداً لم يتقدم لنجدته، وتركت جثته ملقاة فى العراء على شاطئ النهر ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يتجاسر على دفنه إلى أن شفع فيه رسول الظيفة[٢].

وبمقتل تورانشاه انتهى حكم الأيوبيين فى مصر، لأن المماليك اختاروا للحكم السلطانة شجر الدر أرملة الصالح أيوب، وكانت بحكم أصلها أقرب إلى المماليك منها إلى الأيوبيين، ولذلك يمكن اعتبارها أولى سلاطين المماليك فى مصر[٣]. ولما كانت شجر الدر امرأة، وهو أمر لم يألفه المسلمون أن تحكمهم امرأة، فضلا عن الموقف الذى مرت به البلاد عندئذ لأن الصليبيين كانوا لا يزالون يحتلون دمياط، مما تطلب وجود رجل قوى فى الحكم، فقد استقر الرأى على أن يتزوج شجر الدر من الأمير عز الدين أيبك التركمانى أتابك العسكر. ولم يلبث أن أعلن أيبك سلطاناً فى نهاية يولية سنة ١٢٥٠، وإن ظلت شجر الدر مستولية على أيبك فى جميع أحواله ليس له معها كلام[٤].

وهكذا قامت دولة المماليك فى حكم مصر، تلك الدولة التى نفخت فى المسلمين فى الشرق الأدنى روحاً جديدة منذ منتصف القرن الثالث عشر، وهيأت لهم طاقة أشبه بالطاقة التى زود بها السلاجقة الدولة الإسلامية فى القرن الحادى عشر. وإذا كان قيام دولة المماليك فى منتصف القرن الثالث عشر يعتبر بداية دور جديد فى تاريخ مصر والشام، فإن قيام تلك الدولة لا يقل أهمية فى تاريخ الحروب الصليبية

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٧١. ويروى ابن أيبك (كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧، ص ٣٨٢) أن البحرية عندما وثبوا على تورانشاه صاح، من يجيرنى؟، فقال البحرية، ولا والله، ما نبقيك، فإنك لا تبقينا.

(٢) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٤٨ هـ. أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٨٥.

(٣) كانت شجر الدر تركية الجنس وقيل بل أرمينية، اشتراها الملك الصالح أيوب وحظيت عنده (المقريزى: السلوك، ج١ ص٣٦١).

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٧٤.

ذاتها[١]، وللمؤرخ ابن واصل عبارة مشهورة وصف بها المماليك إذ قال إنهم كانوا داوية الإسلام أى أبطاله وفرسانه الذائدون عنه، مثلما كان الداوية يذودون عن كيان الصليبيين بالشام[٢]. وسنرى فى الباب الآتى أنه لم يكد يمضى على قيام سلطنة المماليك نيف وأربعون سنة، إلا وكان قد تم تطهير بلاد الشام من كافة البقايا الصليبية، وبذلك عادت الأرض الطيبة إلى أصحابها بعد طرد الدخلاء الغربيين منها.

(١) سعيد عاشور: العصر المماليكى، ص ١٣-١٥ .

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ورقة ٣٦٩ ب (مخطوط).

الباب السادس عشر

المماليك وطرد البقايا الصليبية من الشام

"ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها
ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون"

(النمل: ٣٧)

الفصل الأول
لويس التاسع في الشام

الصلح مع لويس التاسع واسترداد دمياط:

لم يكد المماليك البحرية يتخلصون من السلطان المعظم تورانشاه حتى وجهوا اهتمامهم من جديد إلى الصليبيين الذين كانوا لا يزالون يحتلون دمياط، فقتلوا عدداً كثيراً من الأسرى وأخذوا يتهددون لويس التاسع نفسه ويتوعدونه بالانتقام(١). وتحت تأثير تلك التهديدات تم فتح باب المفاوضات من جديد بين المسلمين والصليبيين، فناب عن الطرف الأول الأمير حسام الدين ابن أبى على الهذبانى لما يعلمونه عن عقله ومشورته(٢)، وناب عن الطرف الثانى الأخوان بلدوين الثانى دى إيلين وجاى دى إيلين، ومعهما كونت فلاندرز وكونت سواسون. وأخيراً وافق المماليك على إطلاق سراح الملك لويس وأمرائه مقابل جلاء الصليبيين عن دمياط، وفك أسر من لديهم من المسلمين بشرط ألا يقصد سواحل الإسلام مرة أخرى. وتعهد المماليك أيضاً بإطلاق سراح أسرى المسيحيين منذ عهد العادل الأيوبى(٣). أما بقية أسرى الصليبيين الذى سيقوا إلى القاهرة، فقد تم الاتفاق على ألا يتم إطلاق سراحهم إلا مقابل ثلاثمائة ألف دينار، يدفع نصفه عاجلا والنصف الآخر بعد وصول الملك إلى عكا(٤).

وفى تلك الأثناء كانت الملكة مارجريت- زوجة لويس التاسع- باقية فى دمياط، حيث وضعت مولوداً أثناء أسر زوجها فى المنصورة. وقد أراد البحارة الإيطاليون- من الجنوية والبيازنة وغيرهم- أن يتعجلوا تسليم دمياط والجلاء عنها عندما علموا بأسر الملك، ولكن الملكة وقفت موقفاً جريئاً، وقاومتهم فى حزم، لأنها أدركت أن دمياط كانت الورقة الأخيرة فى يدها التى يستطيع الصليبيون أن يساوموا عليها لإطلاق سراح لويس(٥). وقد تحقق بعد نظر ملكة فرنسا عندما تم الصلح بين المماليك والصليبيين على أساس إطلاق سراح زوجها مقابل تسليم دمياط، وحدد أجل

(1) Joinille, p. 164.Cam. Med Hist. vol. 6, p. 357.

(٢) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٨ هـ.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدا والخبر، ج٣ ص ٣٧٣ .

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٦٩ .

(5) Groisset: op, cit, III, p. 461.

الصلح بعشر سنوات. وفى ٦ مايو سنة ١٢٥٠ تسلم المماليك دمياط، وأطلق سراح الملك لويس التاسع بعد دفع مقدم الفدية المتفق عليها[١].

وكان أن غادر لويس التاسع دمياط فى ٨ مايو سنة ١٢٥٠ ليصل عكا فى ١٣ مايو حيث استقبل استقبال البطل المنقذ. وكان الصليبيون فى الشام قد بلغوا عندئذ درجة يرثى لها من الضعف واليأس والانحلال، بعد أن أفقدتهم هزيمة فارسكور هيبتهم وحرمتهم من عماد قوتهم وزهرة جيشهم. ذلك أن تلك الهزيمة لم يترتب عليها حرمان الصليبيين من النجدة الغربية التى ظلوا يمنون أنفسهم بها لتدعيم مركزهم فى الشرق فحسب، بل ذهب ضحيتها أيضاً عدد ضخم من فرسان الشام وقبرص ومحاربى الداوية والاسبتارية، مما جعل الصليبيين فى الشام بالذات يعيشون تلك الفترة من تاريخهم تحت رحمة ما عسى أن تتمخض عنه الظروف وتطورات الأحداث[٢]. وزاد موقف الصليبيين حرجاً فى ذلك الدور، عدم وجود وحدة تنظمهم فى بلاد الشام. وعدم وجود زعيم يدين له الجميع بالطاعة ويقبلون حكمه فيما ينشب بينهم من خلاف، وهذا هو السر فى أن الصليبيين بالشام رحبوا بالملك لويس التاسع ترحيباً بالغاً عقب إطلاق سراحه ووصوله إلى عكا، إذ رأوا فيه الشخصية السامية الكفيلة بحل مشاكلهم العاجلة. ولا عجب أن أصبح لويس التاسع فى الفترة التى قضاها بالشام هو الحاكم الفعلى للصليبيين فى تلك البلاد[٣].

والواقع أنه إذا كان لويس التاسع قد أقام فى الشام عقب إطلاق سراحه من مصر، وإذا كانت إقامته قد طالت فى الشام، فإنه لم يفعل ذلك إلا مضطراً. ذلك أنه كان قد ترك مملكته فى فرنسا تحت وصاية أمه بلانش القشتالية، فاستغل الإنجليز تلك الفرصة وأغاروا على فرنسا فى غيابه، وأرسلت إليه أمه تخبره بذلك وتطلب منه سرعة الحضور[٤]. لذلك عقد لويس التاسع مجمعاً فى عكا فى ٢٦ يونية سنة ١٢٥٠ لمناقشة موضوع عودته الى بلاده. فوافق بعض الأمراء على ذلك، بشرط أن يذهب لويس إلى فرنسا ليعود على رأس حملة جديدة تدعم مركز الصليبيين فى الشام[٥]، فى حين

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣٦٣.

(2) Rothelin (Rec, Hist. Occ. II 7, p. 622.

(3) Runciman: op. cit, III, p. 275.

(4) Cam. Med Hist. vol. 6, p. 358.

(5) Michaud: op, cit, Tome 4, 256-258.

عارض البعض الآخر– وعلى رأسهم جوانفيل– سفر الملك، ونادوا بأن وجوده فى الشام ضرورى فى تلك الأزمة التى يمر بها الصليبيون. وكان أن استجاب الملك لويس لرأى جوانفيل فقرر البقاء بعض الوقت فى الشام، على أن يترك لأمرائه ورجاله حرية البقاء معه أو العودة إلى فرنسا[١]. ولا يخفى علينا أنه كان من الصعب على ملك عظيم مثل لويس التاسع أن يعود إلى الغرب مباشرة عقب أسره وإطلاق سراحه دون أن يحاول القيام بعمل ما فى الشرق يمحو من أذهان المعاصرين ذكريات المنصورة وهزائمها[٢].

وقد قضى لويس التاسع أربع سنوات فى الشام(١٣ مايو ١٢٥٠– ٢٤ أبريل ١٢٥٤) عمل فيها جاهداً لتصفية الخلافات بين أمراء الصليبيين بعضهم وبعض من ناحية، والمماليك فى مصر من ناحية ثانية، ثم القيام بمحادثات مهمة مع المغول ، ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالحرب الصليبية من ناحية ثالثة.

لويس التاسع بين الأيوبيين والمماليك:

وقد شاء حسن حظ الصليبيين أن ينقسم المسلمون فى الشرق الأدنى على أنفسهم فى تلك الفترة بالذات. ذلك أن بنى أيوب فى الشام لم يرضوا عما حدث فى مصر من انقلاب أدى إلى نقل مقاليد الحكم من أيدى الأيوبيين إلى أيدى المماليك. وقد أدرك ملوك بنى أيوب بالشام أن المماليك لن يقنعوا بحكم مصر، وإنما سيعملون على ضم الشام أيضاً تحت حكمهم. لذلك أخذ الأيوبيون فى الشام يوحدون جهودهم لمواجهة ذلك الخطر الجديد الذى هددهم من جانب المماليك. وصادف عندئذ أن رفض المماليك القيمرية[٣] فى دمشق الاعتراف بالتغيير الذى جرى فى مصر،

(1) Eracle: p. 622-623.

(٢) ويبدو أن الشائعات ترددت عندئذ بأن لويس التاسع ينوي أن يقصد مصر مرة أخري علي رأس حملة صليبية جديدة، مما جعل جمال الدين يحيي بن مطروح ينظم قصيدته الشهيرة التي نقتبس منها:

قل للفرنسيس إذا جئته   مقال صدق عن قؤول فصيح
أتيت مصر تبتغي ملكها   تحسب أن الزمر ياطبل ريح
خمسون ألفاً لا تري منهم   إلا قتيلا أو أسيراً جريح
وقال لهم إن أضمروا عودة   لأخذ ثأر أو لعقد صحيح
دار ابن لقمان علي حالها   والقيد باقي والطواشي صبيح

(أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣٦٩–٣٧٠). وفي كتاب السلوك للمقريزي (ج١، ص ٣٦٤): سبعون ألفاً لايري منهم.......

(٣) ينسب المماليك القيمرية إلي قيمر، وهي قلعة في الجبال بين الموصل وخلاط وهم أكراد. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج٤ ص ٤٢٤ (طبعة بيروت).

فامتنعوا عن الدخول فى طاعة شجر الدر وسلموا دمشق للناصر يوسف صاحب حلب فى يوليو سنة ١٢٥٠[١]. هذا إلى أن الملك المغيث عمر الأيوبى استقل بالكرك والشوبك– وهما تابعان لمصر– كما استولى الملك السعيد حسن بن عبد العزيز عثمان على قلعة الصبيبة بالشام[٢]. وبذلك صار البيت الأيوبى قوة كبيرة بالشام، وأخذ الأيوبيون يعدون العدة للاحتفاظ لأنفسهم بملك الشام فحسب، بل أيضاً لغزو مصر واسترجاعها تحت حكمهم، والقضاء على دولة المماليك الناشئة[٣].

ومن الواضح أن الأيوبيين اعتمدوا فى موقفهم هذا على فكرة أنهم أصحاب الحق الشرعى فى الحكم، وأنهم من سلالة أيوب ويرتبطون بصلاح الدين نفسه، فى حين أن المماليك ليسوا إلا مغتصبين للملك، فضلا عن أصلهم المجرح لأنهم مماليك «مسهم الرق». ولكى يدعم المماليك مركزهم فى نظر الرأى العام فى العالم الإسلامى لجأوا إلى حيلة مكشوفة، فاستحضروا أحد أبناء البيت الأيوبى– وهو الأشرف موسى– وكان طفلا صغير السن، وجعلوه سلطاناً تحت وصايتهم (أغسطس ١٢٥٠)[٤]. على أن هذه الخدعة لم تنطل على الرأى العام، الذى عطف على الأيوبيين وظل متعلقاً بحكمهم، وبفضل هذا الشعور استطاع الناصر يوسف أن يزحف على غزة دون صعوبة. مما جعل الطريق إلى مصر مفتوحاً أمامه[٥]. ويبدو أن تطور الأمور فى الشام على ذلك الوجه أزعج المماليك الذين لم تكن الأمور قد استقرت لهم تماماً فى مصر فوقع تشويش كبير بالقاهرة ، وعندئذ أعلن أيبك أن مصر تابعة للخليفة العباسى المعتصم بالله وأنها من جملة ممتلكاته ، ونودى فى القاهرة ومصر أن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسى[٦]. ولما وجد أيبك أن هذا الحل وحده غير كاف، أرسل جيشاً من ألفى فارس من فرسان المماليك بقيادة فارس الدين أقطاى مقدم البحرية، فاحتلوا غزة فى أكتوبر سنة ١٢٥٠ بعد أن أوقعوا بمن كان فيها من عسكر الناصر يوسف الأيوبى[٧].

(١) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٧ ورقة ٩٧ (مخطوط). المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣٦٦، ابن أيبك: كنز الدرر، ج٨ ص١٢-١٣ .

(٢) العيني: عقد الجمان، ج ١٨ قسم ٢ ورقة ٣١٨ (مخطوط). المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣٦٦ .

(٣) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٤٨هـ.

(٤) واختاروا أن يقيموا صبياً عليهم من بني أيوب يكون له اسم السلطنة وهم يديرونه كيفما شاءوا ويأكلون الدنيا به.... (أبوالمحاسن: النجوم، ج٧ ص ٥)

(٥) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣٦٦-٣٧٠. Wiet: L'Egypte Arabe, p. 405.

(٦) ابن أيبك: كنز الدرر، ج٨ ص٤ المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣٧٠.

(٧) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٤٨هـ. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ورقة ٣٧٦-٣٧٧ (مخطوط).

ومـرة أخـرى لـم يرض الأيوبيـون عن تلك الهـزيمة، ولـم يرتضـوا لأنفسـهم الخضوع لمماليكهم، فجمعوا قواتهم فى دمشق حيث التفت حول الناصر يوسف من بقية أمراء بنى أيوب بالشام، وخرجوا منها فى ١١ سبتمبر سنة ١٢٥٠ قاصدين مصر لغزوها. وبعد أن عبروا صحراء سيناء وصلوا إلى كراع قرب العباسة فى الشرقية- على الطريق الى القاهرة- حيث دارت فى ٢ فبراير سنة ١٢٥١ المعركة التى قررت مستقبل دولة المماليك[١]. وقد بدأت المعركة بانكسار الجناح الأيسر للجيش المماليكى، ولكن أيبك ثبت فى المعركة ومعه قلب الجيش وميمنته. وكان جيس الناصر يوسف الأيوبى يضم قـوة كـبيـرة من المماليك العزيزية- وهم مماليك أبيـه الملك العزيز- وهؤلاء المماليك أتراك يميلون إلى البحرية لعلة الجنسية، فدفعتهم رابطة الدم إلى ترك صفوف الأيوبيين وسط المعركة والانضمام إلى المماليك البحـرية[٢]. وهكذا دارت الدوائر على الجيش الأيوبى فمال عليهم (الملك المعز أيبك) بمن معه قتلا وأسراً حتى بدد شملهم[٣]. وكان الناصر يوسف نفسه أول من ولى الأدبار تاركاً جيشه دون قائد أو زعيم. أما أيبك فقد عاد إلى القاهرة فى ٥ فبراير سنة ١٢٥١ منتصراً ومعه عدد من أمراء الأيوبيين الذين حبسوا فى قلعة الجبل[٤].

وهكذا اجتازت الدولة المماليكية الناشئة أول امتحان صادفته، الأمر الذى جعل موقعة العباسة من المواقع المهمة فى التاريخ، نظراً لما ترتب عليها من تدعيم سلطنة المماليك فى مصر وهى السلطنة التى قدر لها أن تظل قائمة أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان (١٢٥٠-١٥١٧).

على أنه ليس معنى هزيمة الناصر يوسف الأيوبى قرب العباسة أن الموقف تجمد بين الأيوبيين والمماليك عند ذلك الوضع، فقد كان بنو أيوب مازالوا مسيطرين على القطاع الإسلامى فى بلاد الشام، بما فيه حلب ودمشق وبيت المقدس، وهو وضع لا يمكن أن يخدم قضية المسلمين فى حربهم ضد المسلمين لأن قوة المسلمين فى عصر الحروب الصليبية إنما نبعت دائما من وحدتهم.

(١) ابن أيبك: كنز الدرر، ج٨ ص ١٧ .

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ورقة ٣٨٢-٣٨٣ (مخطوط). المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣٧٤ .

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٩ .

(٤) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٤٨هـ. المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣٧٨ .

وفى تلك الظروف السيئة التى أحاطت بالمسلمين في الشرق الأدنى، شاء حسن حظ الصليبيين أن يكون على رأسهم لويس التاسع ملك فرنسا الذى أخذ يسعى للاستفادة من الانشقاق الذى حدث بين مصر والشام ليحقق مكاسب للصليبيين على حساب المسلمين جميعاً[١]. ويؤكد جوانفيل أن المماليك خرقوا المعاهدة التى عقدوها مع لويس التاسع، وأنهم عند دخولهم دمياط اعتدوا على مرضى الصليبيين ومعداتهم[٢] وقد ذكر أبو المحاسن ما يؤيد رأى جوانفيل فقال إن المماليك دخلوا دمياط فنهبوا وقتلوا من بقى من الفرنج[٣]. ومع أن ابن واصل – وهو معاصر– لم يذكر إشارة تؤيد هذا القول، إلا أن سكوته لا ينفى رأى جوانفيل. ومهما يكن من أمر، فإن لويس التاسع أرسل سفارة من عكا إلى القاهرة للاحتجاج على خرق الاتفاقية المعقودة بينه وبين المماليك[٤]. ولم يكن فى مصلحة المماليك أن يدخلوا فى عداء مع الملك لويس والصليبيين قبل أن يؤمنوا ظهورهم من ناحية الأيوبيين بالشام، لذلك حرص المعز أيبك على استرضاء لويس، وأفرج عن دفعات من أسرى الصليبيين بلغت نحواً من ثلاثة آلاف أسير. ولا أدل على حرص أيبك على استرضاء لويس التاسع فى تلك الفترة بالذات، من أنه أرسل إليه هدية عبارة عن فيل وحمار وحش[٥].

ولم يلبث لويس التاسع أن وجد نفسه بين الأيوبيين فى الشام والمماليك فى مصر، كل طرف من الطرفين يخطب وده ويحاول محالفته ضد الطرف الآخر. وإذا كان المماليك قد أفرجوا عن بعض أسرى الصليبيين وأرسلوا الهدايا إلى لويس التاسع، فإن الناصر يوسف الأيوبى أرسل هو الآخر سفارة إلى الملك لويس التاسع، فى عكا يعرض عليه محالفته ويعده بإعطائه مدينة بيت المقدس[٦]. على أنه يلاحظ أن هذا العرض الأيوبى وصل إلى لويس

(1) Groisset: op, cit, III, p. 500.

(2) Joinille, p. 200-201.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٣٦٩ .

(4) Joinille, p. 254.

(5) Idem. P. 254-256.

وفي تلك الفترة بالذات استقر الرأي علي تخريب دمياط، خوفا من أن يستغل الصليبيون الخلاف بين الأيوبيين والمماليك، ويملكوا الثغر، ويصعب خلاصه عليهم، فاتفق رأيهم علي خرابه فهدموه (ابن أيبك: كنز الدرر، ج٨، ص١٥) .وانظر أيضا صبح الأعشي للقلقشندي، ج٣، ص٤٠٦ .

(6) Runciman: op. cit, III, p. 275.

التاسع قبل أن يطلق المماليك فعلا سراح أسرى الصليبيين، ولذلك وجد الملك لويس التاسع نفسه لا يستطيع قبول العرض الأيوبى وإلا ضحى بأرواح اثنى عشر ألف أسير صليبى كانوا لا يزالون فى مصر. لذلك رد الملك لويس على الناصر يوسف معتذرا عن محالفته فى تلك الظروف، وأعلمه باستيائه هو الآخر من المماليك لخرقهم الاتفاقية المعقودة بينه وبينهم، ويعده بمحالفته إذا لم يقبل المماليك الإفراج عن بقية أسرى الصليبيين[١].

وكان أن ضيع المماليك على الناصر يوسف الفرصة- كما سبق أن رأينا- فأفرجوا عن دفعات من الأسرى، وأرسلوا الهدايا إلى الملك الفرنسى، وبذلك حقق لويس التاسع أول مكاسبه نتيجة للخلاف بين الأيوبيين والمماليك. وهنا نلاحظ أن المماليك قبل أن يطلقوا سراح الأسرى الصليبيين اشترطوا على الملك لويس التعهد لهم بعدم محالفة الأيوبيين، فقبل ذلك، ولكن بعد أن وعده المماليك من جانبهم بإعطائه بيت المقدس، ويبدو أن لويس التاسع أحس بقوة موقفه فى تلك المحادثات التى أجراها مع المماليك، فاستغل فرصة سفارة وصلته من المماليك تعرض عليه التحالف ضد الناصر يوسف، واشترط عليهم لإتمام ذلك التحالف إرسال رؤوس الفرنج المعلقة على أسوار القاهرة، وجميع أسرى الصليبيين الذين وقعوا فى أسر المسلمين منذ موقعة غزة الثانية سنة ١٢٤٤، فضلا عن إعفاء الملك لويس من متأخر الفدية المستحقة عليه بموجب صلح دمياط[٢]. وقد وافق المماليك على جميع هذه المطالب، فضلا عن موافقتهم على تسليم بيت المقدس للصليبيين إن نصروهم على الشاميين[٣]. وهكذا تم عقد معاهدة شاملة بين المماليك فى مصر والملك لويس التاسع فى مايو سنة ١٢٥٢، وافق فيها المماليك على مطالب لويس السابقة، مقابل تعهده لهم بالاشتراك معهم فى القيام بحملة ضد الناصر يوسف الأيوبى، على أن تلتقى جيوش الحلفاء قرب يافا فى أواخر مايو سنة ١٢٥٢[٤].

وعندما علم الملك الناصر يوسف الأيوبى بما تم من تحالف بين المماليك والصليبيين، خشى عاقبة الغزو الذى ستتعرض له بلاده فى الشام، فأسرع إلى إرسال قوة من أربعة آلاف رجل، عسكروا عند تل العجول قرب غزة، حتى يحولوا دون اجتماع المماليك والصليبيين[٥]. أما لويس التاسع فقد

(1) Joinille: op. cit, p. 252-254.

(2) Idem. P. 256.

(٣) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٥١ هـ (ج ١٨ قسم ٢ ورقة ٣٤٤- مخطوط).

(4) Joinille, p. 282.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣٨١.

خرج – وفقاً للمعاهدة بينه وبين المماليك– على رأس قوة من ألف وخمسمائة محارب إلى يافا حيث ظل مرابطاً هناك من مايو سنة ١٢٥٢ حتى يونية من العام التالى فى انتظار وصول حلفائه المماليك[١] . ولكن حدث عندما بلغ النزاع بين المماليك والأيوبيين تلك الدرجة من الخطورة أن تدخل المستعصم بالله العباسي– وهو الذى كان أكثر إحساساً باقتراب خطر المغول من بلاده– فأرسل الشيخ نجم الدين البادرائى للتوسط بين المسلمين فى مصر والشام ومنع أى صدام بينهم، وهو الصدام الذى لن يستفيد منه إلا الصليبيون الدخلاء وحدهم[٢] . وبفضل تلك الوساطة تم الصلح بين المماليك والأيوبيين فى أول ابريل سنة ١٢٥٣ ، فاعترف الناصر يوسف بسيادة المماليك على مصر وبلاد الشام حتى نهر الأردن، واعترف المماليك بسيادة الأيوبيين على بقية بلاد الشام، وأن يدخل فيه للمصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله[٣] .

وهكذا أدت وساطة الخليفة العباسى إلى ضياع الفرصة التى أتيحت للملك لويس للحصول على بيت المقدس عن طريق استغلال الموقف بين الأيوبيين والمماليك.

لويس التاسع وتدعيم مركز الصليبيين بالشام:

على أن جهود لويس التاسع للاستفادة من الموقف بين الأيوبيين بالشام والمماليك فى مصر، لم تكن إلا جانباً واحداً من جوانب نشاطه المتعددة فى تلك الفترة التى قضاها بالشام. ذلك أنه اهتم عندئذ أيضا بتنظيم الدفاع عن المملكات والبلدان الصليبية، وبخاصة عكا التى شرع فى العناية بتحصينها غداة وصوله إليها فى مايو سنة ١٢٥٠[٤]. كذلك اهتم لويس بتحصين حيفا وقيسارية فى العام التالى، حتى إذا ما كان مايو سنة ١٢٥٢ ، انتقل إلى يافا وقضى فى تحصينها حتى يونيو سنة ١٢٥٣ ، بعد أن تعرضت أكثر من مرة لغزوات الأيوبيين[٥] . وفى جميع تلك المدن استقبل لويس التاسع من الصليبيين استقبالا حاراً يشهد على حبهم له وفرحهم بوجوده بينهم[٦] .

---

(1) Joinille, p. 282.

(٢) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٥١ هـ. نسبة الي بلدة بادرايا من عمل واسط بالعراق وقدورد الاسم في كتاب السلوك نجم الدين البادرائي، وذكره أبو الفداء نجم الدين البادراي. أما العيني فقد ذكره في عقد الجمان القادري، وهو تحريف– انظر كتاب السلوك المقريزي (ج١ ص ٧٣٢– ٣٨٣) . وكذلك النجوم الزاهرة لأبي المحاسن (ج٧، ص ١٢، حاشية ٢) .

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣٨٥، أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥١هـ.

(4) King: op. cit, p. 249.

(5) Archer: op. cit. p. 401.

(6) Joinille, p.p. 282-284.

ولم يلبث أن ظهرت أهمية هذه الإجراءات الدفاعية التى اتخذها الملك لويس عندما تم الصلح بين الأيوبيين والمماليك، وأصبح لا يوجد شاغل يشغل الفريقين عن معاودة الحرب ضد الصليبيين. من ذلك أن الجيش الأيوبى الذى كان قائماً فى غزة لمنع قوات المماليك من دخول الشام، شرع فى العودة الى دمشق عقب الصلح، فأغار الأيوبيون على يافا أثناء مرورهم بها فى ٦ مايو سنة ١٢٥٣، ولكن دون أن تتخذ تلك الإغارة شكل هجوم عام[1]. ولما وجد الجند الأيوبى أن يافا على درجة قوية من التحصين بفضل جهود لويس التاسع، انتقلوا الى عكا حيث طلبوا خمسين ألف دينار من الصليبيين، وإلا دمروا المروج والمزارع الصليبية المحيطة بعكا. ولكن حامية المدينة تصدت لهم، ووقفت موقفاً حازماً جعل الدماشقة ينسحبون بعد قليل[2]. ثم كان أن اتجه الجيش الأيوبى بعد ذلك صوب صيدا، فوصلوها قبل أن تتم التحصينات التى كان الملك لويس قد أمر بإقامتها فيها. لذلك كانت صيدا هى المدينة الصليبية التى استطاع الأيوبيون أن ينالوا منها فى ذلك الدور، فاقتحموها فى يونية سنة ١٢٥٣، وقتلوا كثيراً من أهلها، ونهبوها، ثم عادوا بعد ذلك إلى دمشق ومعهم عدد كبير من الأسرى وقدر ضخم من الغنائم[3].

وكان لويس التاسع مشغولا عندئذ بتحصين يافا، فأسرع على رأس الجيش الصليبى إلى صيدا عندما سمع باعتداء الأيوبيين عليها. ولم يفت الملك لويس أن ينتقم من الأيوبيين لما حل بصيدا، فأرسل قوة من الجيش الصليبى لمهاجمة بانياس التبعة لدمشق والقريبة منها. على أن لويس التاسع أوشك أن يقع فى خطأ جسيم، عندما هم وهو فى طريقه إلى صيدا بإرسال قوة للاستيلاء على نابلس التى كانت تابعة للمماليك فى مصر، لا للأيوبيين فى دمشق[4]. وكان الأيوبيون هم الذين هاجموا صيدا واعتدوا عليها، لذلك لا يوجد سبب معقول لتبرير عدوان الصليبيين على نابلس عندئذ، سوى حنق لويس التاسع على المماليك لأنهم تخلوا عنه، وعقدوا الصلح مع الأيوبيين، وتركوه وحيداً أمام الجبهتين.

(1) Idem. P. 284, 294-296.
(2) Idem. P. 298-302.
(3) Groisset: op, cit, III, p. 503.
(4) Joinille, p. 503.

أما الصليبيون الذين هاجموا بانياس فقد نجحوا فى اقتحامها وقتل بعض أهلها، فى حين فر الباقون للاحتماء بقلعة الصبيبة القريبة. ولما حاول الصليبيون مطاردتهم ردتهم حامية الصليبية، ثم عاد الصليبيون بعد ذلك إلى صور. وقد أفاد الصليبيون من تلك التجربة، فاهتموا بتحصين مدن الساحل، ولم يغادر لويس التاسع صور إلا بعد أن أشرف بنفسه على بناء تحصيناتها وأسوارها[١].

على أن جهود لويس التاسع فى تدعيم مركز الصليبيين بالشام لم يقتصر فى تلك السنوات الأربع على تحصين المدن وبناء الأسوار، وإنما باشر الملك الفرنسى سلطاته كاملة بوصفه كبيراً للعائلة وزعيما للصليبيين فى الشام، فأخذ يعمل دائما على رفع الروح المعنوية للصليبيين وفض ما بينهم من خلافات، بحيث يمكن القول بأن لويس التاسع كان ملكاً غير متوج على مملكة بيت المقدس الصليبية فيما بين مايو ١٢٥٠، وإبريل سنة ١٢٥٤[٢]. ولم تستطع هيئة من الهيئات أو أمير من أمراء الصليبيين بالشام أن يعصى للملك لويس التاسع أمراً أو يرد له طلباً، بل أظهر لويس من الحزم فى معاملة مختلف الأطراف الصليبية ما جعل الجميع يعملون حساباً لكلمته. وخير مثل على ذلك موقف لويس من الداوية الذين- شأنهم شأن بقية فرق هيئات الفرسان ببلاد الشام فى ذلك الوقت- اعتبروا أنفسهم هيئة مستقلة أو دولة داخل الدولة، لهم جيوشهم وأموالهم وأملاكهم الخاصة بهم[٣]. وقد حدث أثناء وجود الملك لويس فى قيسارية (مارس ١٢٥١-١٢٥٢) أن استباح مقدم الداوية لنفسه أن يقوم بمحادثات شخصية مع الملك الناصر يوسف الأيوبى دون أن يستأذن الملك لويس فى ذلك. وكان الداوية بالذات غير موافقين على سياسة الملك الخاصة بمحالفة المماليك من أجل إطلاق سراح أسرى الصليبيين، ويرون فى محالفة الأيوبيين فى دمشق بدلا من المماليك فى القاهرة خير سند للصليبيين بالشام. ولما علم الملك لويس بأمر المباحثات التى أجراها الداوية مع الدماشقة دون علمه، فرض عليهم عقوبة قاسية، ولم تفلح شفاعة زوجته الملكة أو كبار أمرائه فى جعله يعدل عن تلك العقوبة[٤].

---

(1) Idem. P. 312-318.

(2) Setton: op, cit, II, p.p. 566-567.

(3) Groisset: op, cit, Tome III, p. 509.

(4) Joinille, p. 280-282.

أما إمارة أنطاكية– طرابلس، فكان لها هى الأخرى نصيب كبير من عناية الملك لويس أثناء وجوده فى الشام. ذلك أن بوهيموند الخامس أمير انطاكية وطرابلس (١٢٣٣–١٢٥١) لم يترك عند وفاته سوى ابن واحد هو بوهيموند السادس (١٢٥١–١٢٦٨) الذى كان فى الرابعة عشرة من عمره[١]. وكان المفروض أن تنتقل السلطة الفعلية فى الإمارة إلى أم ذلك الطفل... بوصفها وصية على ولدها، ولكن تلك الأم– وهى أميرة إنطاكية اسمها لوسى– اختارت الإقامة فى طرابلس، وتركت انطاكية وشأنها. وهكذا لم تلبث إنطاكية أن وقعت فى حالة شديدة من الفوضى، وأضحت مسرحاً لنزاع سياسى وعنصرى ومذهبى، وبخاصة بين العنصر البيزنطى الأرثوذكس من ناحية والمستوطنين الصليبيين الكاثوليك من ناحية أخرى[٢].

ولم يرض بوهيموند السادس الصغير عن ذلك الوضع الذى أدت إليه سياسة والدته فانتهز فرصة ذهابه معها لزيارة الملك لويس فى يافا سنة ١٢٥٢، وشكا للملك من أن أمه أهملت شئون أنطاكية، وأن الإمارة غرقت فى الفوضى. وكان أن أشار الملك لويس على لوسى أن تترك ابنها يقيم فى انطاكية ما دامت هى تفضل البقاء فى طرابلس، وأن تزوده بالمال والرجال ليستطيع حماية إنطاكية وتنظيم أمورها[٣].

ثم إن الملك لويس التاسع أدى خدمة أخرى جليلة لإمارة إنطاكية، بإقرار الصلح بينها وبين أرمينية، بعد أن طالت العداوة بين الطرفين فى عهد أمير انطاكية السابق بوهيموند الخامس (١٢٣٣–١٢٥١) مما مكن المسلمين من تحقيق مكاسب على حساب القوى المسيحية فى شمال الشام. لذلك لم يكد لويس التاسع يصل إلى قبرص سنة ١٢٤٨ حتى أقر الصلح بين بوهيموند الخامس أمير انطاكية وهيثوم الأول ملك أرمينية. وقد حرص بوهيموند السادس أمير انطاكية الجديد على علاقته الودية مع أرمينية، حتى إنه تزوج سنة ١٢٥٤ من الأميرة سيبل ابنة هيثوم[٤]. وبذلك حل الوئام محل الخصام بين انطاكية وأرمينية، حتى إننا نسمع فى السنوات التالية أن

---

(1) Eracle: p. 440.
(2) Groisset: op, cit, III, p. 513.
(3) Joinille, p. 296.
(4) Tournebize: Hist. de I'Armenie. P. 292.

هيثوم ملك أرمينية تدخل أكثر من مرة ليصلح ذات البين بين بوهيموند السادس والاسبتارية، أو بينه وبين أفصاله. ولاشك أن الفضل فى ذلك التحالف القوى الذى استمر قائما بين أرمينية الصغرى وانطاكية، إنما يرجع إلى الملك لويس التاسع بالذات[١].

كذلك يلاحظ أن لويس التاسع لم يكتف بوضع نظام دفاعى للصليبيين فى بلاد الشام، وإنما وضع أساس سياسة آسيوية واسعة النطاق، استهدفت التحالف مع الإسماعيلية الباطنية من ناحية، ومع المغول من ناحية أخرى، حتى يتحقق بفضل هذا التحالف نوع من التوازن بين الصليبيين من جهة والمماليك والأيوبيين من جهة أخرى. وكان شيخ الجبل قد أرسل إلى لويس التاسع- عندما علم بوصوله إلى الشام- لعقد نوع من الارتباط والتفاهم بين الطرفين[٢]. وربما أراد الباطنية استغلال ضعف الصليبيين بالشام بعد الكارثة التى حلت بحملة لويس التاسع فى مصر لفرض إتاوات على لويس التاسع، أسوة بما كان يدفعه كثير من ملوك وأمراء الشام- من المسلمين والمسيحيين سواء- خوفاً على أنفسهم من اغتيالات تلك الطائفة[٣]. أو ربما أراد الباطنية التخلص من الإتاوة التى كانوا بدورهم يدفعونها للداوية والاسبتارية، وهم الذين امتلكوا حصن صافيتا وحصن الأكراد على التوالى، ومن ثم تحكموا فى طرق مواصلات الباطنية مع داخلية بلاد الشام[٤].

ومهما يكن من أمر، فمن الثابت أن الباطنية أرادوا أن يؤمنوا أنفسهم إزاء الموقف الجديد الناشئ عن قيام دولة المماليك فى مصر، عن طريق عقد تحالف مع الصليبيين بالشام، فأرسل شيخ الجبل بعض الهدايا إلى لويس التاسع من جملتها تمثال مصنوع من البللور- ورد عليه ملك فرنسا التحية بأحسن منها، مما أدى إلى تقوية أواصر التحالف بين الطرفين[٥].

---

(1) Iorga: L'Armenie Cilicienne. P. 123-124.
(2) King: The Kinghts Hospitallers. p. 249.
(3) Michaud: op, cit, Tome 4, 278-279.
(4) Joinille, p. 248.
(5) Idem. P. 250.

لويس التاسع ومحالفة المغول:

وفى ذلك الدور بالذات ظهرت قوة جديدة على مسرح الشرق الأوسط، وأخذ المسيحيون فى تلك المنطقة ينظرون إليها نظرة تطلع وأمل، لتساعدهم فى معركة الصراع الصليبى ضد المسلمين. ونقصد بتلك القوة إمبراطورية المغول التى كانت قد امتدت فى عهد خاقانهم الأعظم كيوك من الصين شرقاً حتى أواسط روسيا وفارس وجبال طوروس غرباً، بل لقد نجح المغول فى إنزال الهزيمة سنة ١٢٤٣ بالسلطان كيخسرو الثانى سلطان سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى، فاضطر إلى دفع الجزية لهم، كما اعترف هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى بسيادة المغول، اتقاء لشرهم(١).

وقد شاءت الظروف فى ذلك الدور الحاسم من أدوار الحرب الصليبية أن يظهر كيوك خاقان المغول ميلا نحو المسيحية فى مذهبها النسطورى بعد أن اعتنقها بعض وزرائه وكبار رجاله. ولاشك أن اتجاه المغول نحو المسيحية كان من شأنه أن يحقق كسباً مهماً ضخماً للكنيسة عندئذ، ولاسيما أن المغول ظلوا حتى ذلك الوقت وثنيين، أى بمثابة مادة خام يمكن تشكيلها، فضلا عما يؤدى إليه اعتناق المغول المسيحية من تطويق الإسلام والمسلمين تطويقاً محكماً من الشرق والغرب(٢).

وقد بدأت الاتصالات بين المغول والبابوية قبيل منتصف القرن الثالث عشر، فأرسل البابا أنوسنت الرابع مبعوثاً من الفرانسيسكان اسمه حنا بلانو كابنيس John de Plano Capinis" سنة ١٢٤٥ إلى خاقان المغول فى قراقورم لدعوته إلى المسيحية. ولكن الخاقان اشترط لإتمام تلك الخطوة دخول البابوية– وجميع مملوك وأمراء الغرب الأوروبى– تحت سيادة المغول. ولم تكن تلك السفارة هى الوحيدة من نوعها التى أرسلها البابا أنوسنت الرابع إلى المغول، بل أرسل سفارة ثانية إلى بيجوا زعيم مغول القوقاز(٣).

---

(١) يطلق في المصادر العربية علي هذا الفرع من التتار الذي اتجه غربا اسم المغرية– انظر: النويري: نهاية الأرب، ج٢٧، ص ٣١١ وما بعدها ابن الاثير: الكامل، حوادث ٦١٧ هـ. D`Ohsson: Hist. des Mongols III. p. 31-83.

(2) Cam. Med Hist. vol. 6, p. 723.

(3) Setton: op, cit, II, p.p. 722.

ولم تلبث تلك الاتصالات التى بدأت بين المغول والبابوية، فى الوقت الذى كان لويس التاسع يعد العدة لحملته الصليبية ضد المسلمين، أن أدت إلى نوع من المفاوضات بين المغول والصليبيين، بقصد تطويق المسلمين فى الشرق الأدنى. ذلك أن لويس التاسع لم يكد يصل قبرص فى طريقه إلى دمياط حتى وفدت على نيقوسيا فى ديسمبر سنة ١٢٤٨ سفارة تألفت من اثنين من نساطرة الموصل- اسميهما داود ومرقص- قالا إنهما موفدان من قبل جغطاى خان نائب الخاقان الأعظم فى القوقاز وفارس. وكان الغرض من تلك السفارة عقد تحالف عسكرى بين الصليبيين والمغول ضد الأيوبيين فى الشام من ناحية والخلافة العباسية فى بغداد من ناحية أخرى(١).

وكان المغول عندئذ يفكرون فى اجتياح العراق وبغداد، وهو الأمر الذى قام به- بعد سنوات- هولاكو، فأرادوا أن يحولوا دون أية مساعدة يقدمها الأيوبيون فى مصر والشام للخلافة العباسية عن طريق محالفة الصليبيين(٢). وقد رد الملك لويس على المغول بإرسال سفارة من ثلاثة أعضاء من الرهبان الدومينكان إلى المغول، فغادرت السفارة قبرص فى يناير سنة ١٢٤٩ محملة بالهدايا من الملك الفرنسى، وقصدت جغطاى خان فى أذربيجان، وسلكت تلك السفارة طريق إنطاكية والموصل(٣). على أنه يبدو أن تلك السفارة لم تحقق نتيجة حاسمة سريعة فى موضع التحالف بين لويس والمغول، لأن جغطاى أرسل مبعوثى لويس إلى قراقورم- مقر خاقان المغول العظيم فى جوف آسيا- فى الوقت الذى كان الخاقان كيوك قد توفى فى أوائل ابريل سنة ١٢٤٨ . ومن الواضح أن منكوخان- خاقان المغول الجديد- وجغطاى خان- نائب الخاقان فى فارس- خشيا تحمل مسئولية سياسة جديدة تستهدف التحالف مع لويس التاسع ضد المسلمين، الأمر الذى جعل لويس يوجه نظره إلى كتلة أخرى من المغول، هم مغول وسط روسيا(٤).

وكان ذلك سنة ١٢٥٣- أى بعد هزيمة المنصورة وإطلاق سراح لويس- عندما

---

(1) Joinille, p. 74.
(2) Atiya: The Crusade in the Later Middle Ages p. 242.
(3) Joinille, p. 7-8.
(4) Atiya: op. cit, p. 243.

أرسل الملك الفرنسى سفارة الى سرتاق بن باطو- وكان مسيحياً[١]- لطلب التحالف ضد المسلمين. وكانت سفارة لويس يرأسها أحد الرهبان الفرانسيسكان واسمه روبروك. وقد وصل روبروك إلى سرتاق، وعندئذ أخبره الأخير أنه لا يستطيع أن يقطع فى الموضوع برأى حاسم دون إذن من والده باطوخان. وهكذا يممت سفارة لويس وجهها شطر باطوخان الذى حول السفارة بدوره إلى منكو، خاقان المغول العظيم. وقد قضى روبروك مندوب لويس التاسع خمسة أيام فى بلاط الخاقان فى قراقورم، التقى فيها بكثير من رسل الملوك والحكام، مثل رسل الإمبراطور البيزنطى والبابوية وبعض ملوك الأيوبيين، فضلا عن الخليفة العباسى، وغيرهم ممن أرادوا أن يخطبوا ود المغول[٢]. ويبدو أن رد منكو على رسالة لويس التاسع جاء غير مقبول، إذ طلب خاقان المغول من ملك فرنسا أن يعلن تبعيته له. وعندما عاد روبروك مبعوث لويس إلى قبرص ومنها إلى عكا سنة ١٢٥٥، كان لويس قد غادر الشام منذ أشهر عائداً إلى فرنسا، فأرسل له روبروك رسالة تتضمن ما قام به فى حلته[٣]. وإذا كان روبروك قد ردد بعض الأنباء عن تأهب المغول لغزو العراق والقضاء على الخلافة العباسية والباطنية جميعاً، فإن هذه الأنباء إنما سمعها روبروك فى بلاط المغول، وليس فيها- على ما يبدو- ما يفيد تحالف المغول مع الصليبيين لتحقيق تلك المشروعات[٤].

ومع أن رد خاقان المغول على سفارة لويس التاسع كان غير مشجع على استمرار المحادثات بين المغول والصليبيين، فإن الأنباء التى حملها روبروك- رسول لويس- عن استعداد المغول لاجتياح العراق وإسقاط الخلافة العباسية، جاءت مشجعة للصليبيين الذين رأوا فى ذلك فرصة للانتقام من المسلمين واسترداد بيت المقدس. حقيقة أن المشروع المغولى ضد المسلمين- وهو المشروع الذى سمع به روبروك سنة ١٢٥٢- لم ينفذ إلا سنة ١٢٥٨-١٢٦٠، ولكنه مع ذلك أظهر المغول فى صورة الحلفاء الطبيعيين للصليبيين ضد عدو مشترك واحد[٥]. ولهذا السبب حرص

---

(١) انظر زامباور: معجم الأنساب، ص ٣٦٣ .

(2) Groisset: op, cit, III, p. 524.

(3) D'Ohsson: op, cit, II, p. 310.

(4) Groisset: op, cit, Tome III, p.p. 524-525.

(5) D'Ohsson: p[. cit. III, p. 134.

الصليبيون فى ذلك الدور على دوام الاتصال بالمغول، فلم يكتف هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى بإرسال أخيه سمباد -"Sempad"وهو المؤرخ الشهير صاحب الحولية المعروفة فى عصر الحروب الصليبية- إلى بلاط الخاقان فى قراقروم سنة ١٢٤٧-١٢٤٨[١]، إنما أحس هيثوم بضرورة ذهابه بنفسه سنة ١٢٥٤ إلى بلاط منكوخان، فوصل إليه فى سبتمبر من العام نفسه حيث قدم لخاقان المغول فروض الولاء والخضوع[٢]. وفى المحادثات التى دارت بين الطرفين أظهر الخاقان عطفه الشديد على المسيحية والمسيحيين، وأعلن وضع الكنيسة ورعاياها فى جميع البلاد التابعة له تحت حمايته ورعايته، وأهم من هذا كله أن منكوخان أعلن رسمياً فى تلك الزيارة أنه كلف أخاه هولاكو بالاستيلاء على العراق وتحطيم الخلافة العباسية «العدو اللدود»، واستعادة الأراضى المقدسة للمسيحيين[٣].

وليس من العسير بعد هذا كله أن ندرك قيام نوع من التحالف بين المغول والصليبيين فى تلك الفترة، وإن كانت الوثائق التى بأيدينا ليس فيها ما ينص على عقد ذلك التحالف رسمياً. وربما كان السبب فى ذلك هو أن هيثوم كان لا يملك إلا أن يتكلم باسم نفسه وباسم مملكة أرمينية الصغرى، فى حين لم يحاول بقية الأمراء الصليبيين- فى قبرص والشام- أن يتصلوا بالمغول اتصالا مباشراً، كما فعل لويس التاسع وهيثوم[٤].

ومهما يكن من أمر، فالذى يهمنا فى هذا الموضوع هو أن لويس التاسع خطا خطوات فعالة فى مفاوضة المغول، ومحاولة جرهم إلى حلف ضد المسلمين، مما مكن هيثوم الأول ملك أرمينية من تحقيق التحالف فعلا مع المغول، وبذلك أتيح للصليبيين أمل كبير فى محو الخلافة العباسية- المركز الروحى للمسلمين فى الشرق الأدنى- فضلا عن إخضاع فارس والعراق والقطاع الذى بيد المسلمين من الشام لحكم المغول، الذين يميلون إلى المذهب النسطورى، مما يجعل الصليبيين يأمنون على أنفسهم فى بلاد الشام[٥].

---

(1) Rec. Hist. Cr Doc. Arm, p.p. 650-651.
(2) Iorga L'Armenie Cilicienne. P. 125 & Setton: op, cit, II, p.p. 572.
(3) Rec. Hist. Cr Doc. Arm, p.p. 164-169.
(4) D'Ohsson: op, cit, II, p.p. 310-312.
(5) Groisset: op, cit, III, p. 516-530.

الموقف في الشام بعد عودة لويس التاسع:

غادر لويس التاسع عكا عائداً إلى بلاده فى ٢٥ ابريل سنة ١٢٥٤[١]، بعد أن قضى فى بلاد الشام أربع سنوات بذل فيها جهداً كبيراً فى سبيل تدعيم مركز الصليبيين بالشام وتصفية ما بينهم من خلافات[٢]. على أن عوامل الشقاق والضعف فى المجتمع الصليبى كانت أقوى وأعمق جذوراً، فلم يستطع ملك فرنسا القضاء عليها. ولم يكد يرحل عن الشام حتى دبت المنازعات بين الأمراء الصليبيين والتجار الإيطاليين والمنظمات العسكرية، دون أن يعملوا جميعاً حساباً لخطر الدولة المماليكية التى ولدت حديثاً على ضفاف النيل[٣]. حقيقة أن لويس التاسع ترك جودفرى دجى سارجين نائباً عنه فى الشام ومعه مائة فارس، وحقيقة إن حنا دى إيلين (الثانى) أمير يافا قام بالوصاية على مملكة بيت المقدس الصليبية، ولكن أحداً من هؤلاء لم تكن له الشخصية القوية التى تكفل احترام بقية أمراء الصليبيين له[٤]. هذا فضلا عن أن هنرى الأول لوزجنان ملك قبرص توفى فى يناير سنة ١٢٥٣، تاركاً ابنه ووريثه هيو الثانى صغيراً لم يتجاوز عمره بضعة أشهر، مما جعل عرش مملكة قبرص الصليبية يظل تحت الوصاية سنين طويلة. وهكذا ظل وضع الصليبيين فى الشرق الأدنى يسير من سيء إلى أسوأ، فى الوقت الذى أتيحت لهم فرصة التحالف مع مغول فارس لتحقيق مكاسب ضخمة على حساب المسلمين فى الشرق الأدنى[٥].

ويبدو أن الصليبيين فى الشام لم يدركوا جيداً حقيقة موقفهم فى ذلك الوقت، بدليل ما قام به جودفرى دى سارجين فى يناير ١٢٥٦، من إغارة على ممتلكات الدولة المماليكية فيما بين عسقلان وغزة، وعادوا أدراجهم بعد أن غنموا أعداداً كثيرة من الإبل والماشية، الأمر الذى جعل حكومة المماليك فى القاهرة تعهد إلى حاكم بيت المقدس بالانتقام، فأغار على إقليم يافا وأسر مائة صليبى من الداوية والاسبتارية

---

(1) Eracle: p. 441 & Joinille, p. 338.

(٢) عن جهود لويس التاسع في الشام وأثر هذه الجهود، انظر: حوزيف نسيم يوسف، لويس التاسع في الشرق الأوسط، ص ٣٤٠ وما بعدها.

(3) King: The Kinghts Hospitallers. p. 252.

(4) Runciman: op. cit, III, p. 281.

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٤٣، ٤٦ .

وغيرهم، فضلا عن أربعين ألف رأس من الماشية. وعندما كرر حاكم بيت المقدس إغارته على يافا مرة أخرى، استطاع الصليبيون أن ينزلوا به الهزيمة فى مارس سنة ١٢٥٦، وقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين بينهم حاكم بيت المقدس نفسه[١].

على أن السلطان أيبك لم يكن مستعداً لمواصلة القتال ضد الصليبيين عندئذ، بسبب ما كان بينه وبين المماليك البحرية من صدام أدى إلى فرار بعض زعمائهم إلى الناصر يوسف الأيوبى فى دمشق، حيث أطمعوه فى ملك مصر[٢]. وعندما تجدد النزاع بين الناصر يوسف وأيبك، توسط الخليفة العباسى من جديد، وعندئذ رضى أيبك بأن يرد للناصر يوسف كل القطاع الإسلامى من فلسطين، بحيث تكون العريش هى الحد الفاصل بين الدولتين[٣]. وما دام الصلح قد تم بين الأيوبيين فى الشام والمماليك فى مصر، فإنه لم يكن فى صالح الصليبيين أن يستمروا فى عدائهم للمماليك فى مصر، فأسرعوا إلى تجديد الصلح مع المسلمين سنة ١٢٥٦ لمدة عشر سنين آخر[٤].

ولا يخفى علينا أن هناك عاملا خارجيا مهما ساعد على إتمام الصلح السريع بين الأيوبيين والمماليك من جهة، وبين المسلمين والصليبيين فى الشام من جهة أخرى، ونقصد بهذا العامل ازدياد خطر مغول فارس بزعامة هولاكو الذى قوى أمره وظهر اسمه وفتح عدة قلاع فى الشرق، حتى اقتربت جيوش المغول من حدود العراق، ووصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى ببغداد، مما جعل الأيوبيين والمماليك جميعاً يوجهون نظرهم شطر ذلك الخطر الجديد الذى هدد قلب العالم الإسلامى[٥].

أما الصليبيون، فيبدو أن خطر المغول كان لا يهددهم، بل على العكس فإنهم صاروا ينظرون إلى تهديد المغول للبلاد الإسلامية بعين الرضى والأمل. لذلك استمر الصليبيون غارقين فى خلافاتهم ببلاد الشام، وهى الخلافات التى تطورت أحيانا إلى

---

(1) Rothelin: p.p. 630-631.

(٢) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٢هـ.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣٩٧-,٣٩٨

(4) Setton: op, cit, II, p.p. 568.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٣٩٩-٤٠٠ .

منازعات وحروب أهلية مما أنهك قواهم ومهد لسقوط المدن والمعاقل الصليبية واحدة بعد الأخرى فى أيدى المماليك فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر[١]. وقد دارت معظم الخلافات بين الصليبيين بسبب التشاحن بين الجاليات والمستعمرات التجارية الإيطالية فى بلاد الشام، وهى المستعمرات التى قامت بدور كبير فى مساعدة مملكة بيت المقدس الصليبية منذ قيامها، والتى غدت بعد انحلال هذه المملكة ليس لها هم إلا رعاية مصالحها الخاصة لاسيما فى المجال التجارى[٢]. ثم إن عدم وجود سلطة عليا تشرف على مصالح الصليبيين جميعاً بالشام، جعل المستعمرات الإيطالية فى الشرق تتحول إلى قومونات مستقلة عملياً لا تتبع كل منها إلا المدينة الأم فى إيطاليا، سواء كانت هذه الأم بيزا أو جنوا أو البندقية أو غيرها. ولم يلبث أمراء الصليبيين بالشام أن استعانوا بتلك المستعمرات الإيطالية فى منازعاتهم مع بعضهم البعض[٣]. هذا إلى أن التجار الإيطاليين فى تلك المستعمرات لم يكن يهمهم الغرض الصليبى كثيرا بقدر ما يعنيهم تحقيق مكاسبهم التجارية. لذلك فإنهم لم يتحمسوا عندئذ لحرب يشنها الصليبيون على المسلمين، حرصاً على انتظام العلاقات التجارية فيما بينهم وبين العالم الإسلامى. ولم يلبث كل جمهورية من جمهوريات إيطاليا التجارية أن عينت لها منذ أواخر القرن الثانى عشر قنصلا عاما فى بلاد الشام يرعى مصالحها ومصالح رعاياها، مما جعل المستعمرات الإيطالية فى الشرق تصبح عاملا قوياً من عوامل تفكك الصليبيين فى القرن الثالث عشر[٤].

وإذا كانت العلاقات بين الثلاثة الكبار- بيزا وجنوا والبندقية- لم تكن على صفاء مطلقاً بسبب التنافس التجارى وتضارب المصالح، فإن هذه الخصومات لم تلبث أن انتقلت من إيطاليا إلى بلاد الشام حيث اشتد النزاع بين البيازنة والجنوية والبنادقة[٥]. ومن ذلك ما نسمعه من حدوث اشتباكات فى شوارع عكا سنة ١٢٢٢ بين البيازنة والجنوية، الأمر الذى جعل البيازنة يشعلون النار فى حى الجنوية، ثم لم

(1) Cam. Med Hist. vol. 6, p. 316-317.
(2) Archer: op, cit, p.p. 410-411.
(3) Groisset: op, cit, III, p. 534.
(4) Heyd: op, cit, I, p.p. 330-339.
(5) Cam. Med Hist. vol. 5, p. 316-317.

تلبث أن تجددت الحرب بين الفريقين مرة أخرى سنة ١٢٤٩، فى الوقت الذى كان لويس التاسع يتأهب لمغادرة قبرص فى طريقه إلى دمياط، واستمر القتال دائراً بين الفريقين فى تلك المرة نحو شهر[١].

على أن الحرب الأهلية بين الصليبيين بالشام لم تلبث أن ازدادت اتساعاً وعنفاً سنة ١٢٥٦، عندما وجد الصليبيون أنفسهم فى فراغ كبيرا بعد أن عقدوا الصلح مع المسلمين، فى الوقت الذى لم يكن لهم رئيس قوى يكبح جماحهم أو سياسة مرسومة توجههم نحو محالفة المغول. وكان سبب الحرب فى تلك المرة التنافس بين الجنوية والبنادقة فى عكا، وهو التنافس الذى يعتبر جزءاً من النزاع بين الجمهوريتين فى إيطاليا[٢]. وقد سبق أن حدث اشتباك بين الجاليتين فى عكا سنة ١٢٤٩-١٢٥٠، قتل فيه أحد الجنوية بأيدى البنادقة، ولكن القتال لم يستمر طويلا عندئذ بسبب اهتمام الرأى العام الصليبى بحملة لويس التاسع على مصر[٣].

وعلى الرغم من أن كلا من البنادقة والجنوية كان لهم حياتهم الخاص بهم فى عكا، إلا أن التنافس بين الفريقين دار حول مرتفع فى المدينة عليه دير قديم منسوب إلى القدس سابا ."ST. Sabas"وكان التنافس بين الجنوية والبنادقة حول امتلاك هذا المرتفع ليس سببه الحرص على امتلاك الدير فى ذاته. وإنما لأن المرتفع الذى يقع عليه الدير يشرف على ميناء عكا، ويمكن صاحبه من التحكم فى الميناء. لذلك لجأ الجنوية سنة ١٢٥٦ إلى احتلال دير القديس سابا، ثم أوغلوا بعد ذلك فى حى البنادقة حتى كنيسة القديس مرقص، واستولوا على جميع السفن البندقية الراسية فى ميناء عكا[٤].

وعندما ازداد القلق اتساعاً والخلاف عمقاً، تدخل فيليب دى مونتفورت أمير صور. وطرد كافة البنادقة من مدينته، وذلك انتقاماً منهم لخصومات قديمة بينه وبينهم، ثم اختار كل فريق من أمراء الصليبيين أو الهيئات أو الجماعات الصليبية

---

(1) Eracle: p. 347.
(2) Setton: op, cit, II, p.p. 568.
(3) Heyd: op, cit, I, p.p. 344.
(4) Eracle: p. 443 & Heyd: op, cit, I, p.p. 345.

بالشام أن يقف إلى جانب أحد الفريقين المتنازعين، فوقف الاسبتارية إلى جانب الجنوية وفيليب دى مونتفورت، وانضم إلى هذا الفريق أيضاً أمراء جبيل الذين يرجعون إلى أصل جنوى[١]. وفى الحال أدى العداء بين برتراند الثانى أمير جبيل وبوهيموند السادس أمير إنطاكية وطرابلس إلى وقوف الأخير فى صف البنادقة. هذا إلى أن البنادقة استمالوا البيازنة إلى صفهم وعقدوا معهم سنة ١٢٥٧ معاهدة هجومية دفاعية تشمل جميع البلاد الواقعة فيما وراء البحار، كذلك انضم الجنوية والفرسان التيتون إلى جانب البنادقة، ومعهم تجار بروفانس[٢].

وهكذا انقسم المعسكر الصليبى فى بلاد الشام إلى جبهتين كبريين متعاديتين، فالبنادقة والبيازنة ضد الجنوية، والبروفنساليون ضد القطلان، والداوية والتيتون ضد الاسبتارية، وأمراء يافا وأرسوف ضد أمير صور. وأمير إنطاكية وطرابلس ضد صاحب جبيل... وبذلك لم يقتصر القتال على شوارع عكا وحدها، وإنما امتد إلى كافة أركان المجتمع الصليبى بالشام[٣]. ولم يوجد فى بلاد الشام عندئذ ملك صليبى أو زعيم كبير يوقف تيار الفتنة ويرضى الجميع بحكمه، بل إن حنا دى إيلين صاحب أرسوف[٤]، والوصى على مملكة بيت المقدس، أقحم نفسه علناً فى النزاع وانضم إلى جانب الجنوية، فى الوقت الذى كان عرش قبرص تحت الوصاية منذ سنة ١٢٥٣ .

ولم يلبث أن لجأ بعض زعماء الصليبيين بالشام– وعلى رأسهم مقدم الداوية– إلى بوهيموند السادس أمير إنطاكية وطرابلس طالبين منه التدخل لإنهاء الفتنة، ووضع حد للحرب الأهلية المستمرة بين الصليبيين فى كل مكان بالشام، وبناء على هذه الدعوة حضر بوهيموند السادس إلى عكا فى أول فبراير سنة ١٢٥٧ ومعه أخته الملكة الوالدة فى قبرص وابنها الصغير الملك هيو الثانى[٥]. ولكن إذا كان حزب البنادقة والداوية قد اعترفوا بحق بوهيموند السادس وأخته فى التدخل فإن الحزب الآخر الذى يضم الجنوية والقطلان والاسبتارية رفضوا الاعتراف بذلك. وكان أن

(1) Runciman: op. cit, III, p. 283-284.

(2) Heyd: op, cit, I, p.p. 346

(3) Groisset: op, cit, III, p. 541.

(٤) خلاف حنا دي إيلين الثاني صاحب يافا الذي سبقت الاشارة اليه منذ قليل.

(5) Eracle: p. 443 and Rothelin, p. 634.

جمع بوهيموند السادس جيشاً صغيراً من ثمانمائة محارب بعضهم من الرجال الذين كان لويس التاسع قد تركهم لحفظ النظام فى عكا، وعهد إلى نائب المملكة حنا دى إيلين صاحب أرسوف أن يستعين بهم فى إعادة الأمن إلى عكا حيناً بعد آخر[١].

على أن محاولة بوهيموند السادس لم يقدر لها النجاح، بل ترتب عليها تدعيم حزب البنادقة، لاسيما وأن بوهيموند السادس نفسه كان يميل إليهم على الرغم من تظاهره بالوقوف على الحياد[٢]. وهكذا استمر فيليب دي مونتفروت صاحب صور والاسبتارية، والقطلان والجنوية فى حالة ثورة، الأمر الذى جعل بوهيموند السادس ينصرف بائسا من عكا إلى طرابلس، ومعه أخته وابنها ملك قبرص الصغير. وكان لفشل تلك المحاولة رد فعل خطير من ناحية تفاقم الموقف فى عكا، حيث حصن الجنوية حيهم، وكذلك فعل البنادقة، فاستحالت المدينة بما فيها من مقاتلين وآلات حصار وأسلحة إلى ساحة حرب[٣]. ثم إن الحرب بين البنادقة والجنوية فى الشام لم تقتصر على البر. وإنما دارت أيضا فى البحر، بعد أن أرسلت جمهورية جنوا أسطولا مسلحاً من ثمان وأربعين سفينة إلى الشام فى صيف سنة ١٢٥٨، فاتجه الأسطول الجنوى أولا إلى صور التى كان أميرها فيليب دى مونتفورت حليفاً للجنوية. ولم يكن لدى البنادقة فى عكا سوى أربع وثلاثين سفينة، ومع ذلك فقد انتصر البنادقة فى المعركة البحرية التى دارت بين الفريقين فى ٢٤ يونية سنة ١٢٥٨، وفر الجنوية بعد أن فقدوا عدداً كبيراً من سفنهم، فضلا عن ألف وسبعمائة رجل. ثم اتبع البنادقة انتصارهم البحرى بالقيام بهجوم برى شامل على الجنوية فى عكا[٤].

وسرعان ما أثرت تلك الهزيمة فى حلفاء الجنوية، فانفضوا عنهم، وانسحب فيليب دى مونتفورت إلى إمارته فى صور، وكذلك فعل مقدم الاسبتارية الذى لم يجرؤ على العودة إلى عكا حتى مات بعد قليل. بل إن الجنوية أنفسهم أدركوا استحالة حماية أنفسهم فى عكا بعد تحطيم أسطولهم، فانسحبوا إلى صور حيث حاولوا أن

---

(1) Rothelin: p. 634.
(2) Runciman: op. cit, III, p. 284.
(3) Setton: op, cit, II, p.p. 570-571.
(4) Heyd: op, cit, I, p.p. 349-350.

يجعلوا منها مركزاً لنشاطهم تحت رعاية فيليب دى مونتفورت[1]. وبذلك انقسمت المملكة الصليبية بالشام إلى شطرين متعاديين منطقة عكا تحت حماية البنادقة، ومنطقة صور التى وضعها فيليب دى مونتفورت تحت حماية الجنوية، وقد أدركت البابوية خطورة الموقف بالنسبة لمستقبل الصليبيين بالشام، فأرسل البابا اسكندر الرابع مبعوثاً إلى عكا فى ابريل سنة ١٢٥٩ للوساطة بين البنادقة والجنوية، وبين الداوية والاسبتارية. وبين حزب إيلين وحزب مونتفورت[2]. ولكن هذه الوساطة فشلت هى الأخرى بسبب عدم موافقة البنادقة على أن يسترد خصومهم الجنوية حيهم فى عكا. وقد أدى إخفاق تلك المحاولة للصلح إلى قيام البنادقة فى سبتمبر ١٢٦٤ بمحاولة للاستيلاء على صور، ولكن فيليب دى مونتفرات أحبط محاولتهم، واستعان فى ذلك ببعض الرماة المسلمين مما يشهد على مدى انحلال المجتمع الصليبى بالشام فى تلك الحقبة[3].

ويفهم مما ذكره بعض المؤرخين أن فيليب دى مونتفورت فاوض المماليك فى ذلك الوقت للقيام بهجوم مشترك ضد عكا، وجاء ظهور السلطان بيبرس فعلا أمام عكا فى ابريل سنة ١٢٦٣ مؤيداً لهذا الرأى[4]. ولكن يبدو أن الجنوية خشوا عندئذ استثارة عداء الرأى العام المسيحى إذا هم تحالفوا مع المماليك المسلمين، فعَدلوا عن مشروعهم[5]. ولم يلبث أن هاجم عكا فى شهر أغسطس سنة ١٢٦٧ أسطول جنوى من ست وعشرين سفينة، ونجح الجنوية فعلا فى احتلال قلعة الميناء، ولكن أسطولا بندقياً أتى فى نهاية الشهر نفسه وحرر المدينة من غزو الجنوية.

ثم إن الخلاف بين الصليبيين فى بلاد الشام لم يقتصر على الصراع بين عكا وصور فى تلك الفترة، بل امتدت الحرب الأهلية إلى إمارة طرابلس حيث اشتد النزاع بين بوهيموند السادس وبرتراند صاحب جبيل، ولم يلبث أمير جبيل أن حرض أمراء طرابلس على الثورة ضد بوهيموند السادس، وخرج على رأسهم سنة ١٢٥٨ لمهاجمة

(1) King: op. cit, p. 254.
(2) Eracle: p. 444.
(3) Heyd: op, cit, I, p.p. 362.
(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٤٨٨-٤٨٩ .
(5) Groisset: op, cit, III, p. 551.

طرابلس نفسها مستعيناً بالاسبتارية(١).

وهكذا ساءت أوضاع الصليبيين فى بلاد الشام، بسبب حروبهم الداخلية، فى الوقت الذى كانت دولة المماليك، كما سنرى- قد نجحت فى إنزال الهزيمة بالمغول فى عين جالوت، وفى التخلص شيئاً فشيئاً من أمراء البيت الأيوبى بالشام استعداداً للإطاحة بالصليبيين جميعاً فى عرض البحر.

(1) King: op. cit, p. 254-255.

الفصل الثاني
المماليك والمغول

مغول فارس والخلافة العباسية:

أوفد منكو خان- خاقان المغول العظيم فى قراقورم- أخاه هولاكو إلى غرب آسيا لفتح غرب فارس والشام ومصر وبلاد الروم والأرمن. وأوصاه بالمحافظة على تقاليد جنكزخان وقوانينه، فى الكليات والجزئيات، كما أوصاه باحترام رأى زوجته دوقوز خاتون ومشاورتها، فى جميع القضايا والشئون[١].

ويهمنا فى هذا المقام أن دوقوز خان زوجة هولاكو كانت مسيحية نسطورية مخلصة لعقيدتها فعملت دائما على مؤازرة المسيحيين، وفى عهده قوى حال تلك الطائفة[٢]. هذا إلى أن أم هولاكو نفسها- وهى سيوقوقيتى كانت نسطورية أيضا، وفى هذا تفسير واضح لعطف هولاكو على المسيحيين وكراهية مغول فارس بالذات للمسلمين والخلافة العباسية. حقيقة أن هولاكو نفسه ظل بوذياً، ولم يعتنق المسيحية فى يوم من الأيام، ولكن ذلك لم يحل دون تأييده للمسيحيين وعطفه عليهم، سواء كانوا من النساطرة أو من غير النساطرة. ولعل هذا الاتجاه نحو المسيحية فى دولة مغول فارس، هو الذى باعد بينهم وبين أقربائهم مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية فى جنوب روسيا وتركستان، وهم الذين تأثروا بالديانة الإسلامية واعتنقوها[٣].

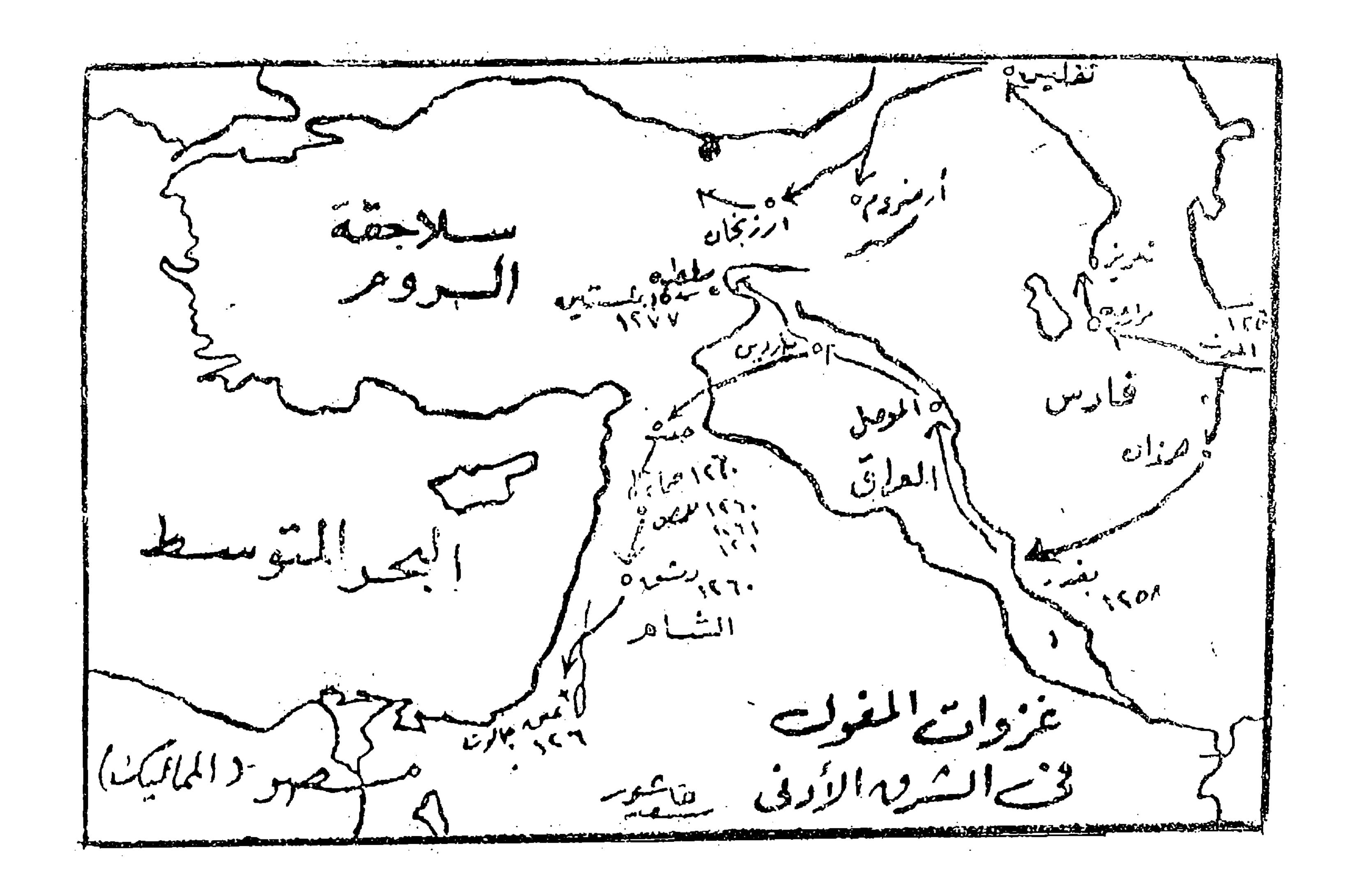
ومهما يكن من أمر، فإن هولاكو نجح فى إقامة دولة ثابتة الأركان للمغول فى فارس، تمتعت بالاستقرار. ولم يلبث الأتابكة والحكام المحليون فى فارس- من بقايا الدولة الخوارزمية، أن أتوا جميعاً أو أرسلوا سفراءهم لإعلان ولائهم وخضوعهم لخان المغول، كما أعلن خضوعه لهم عز الدين كيكاوس الثانى وركن الدين قلج أرسلان الرابع من بلاد سلاجقة الروم[٤]. وبذلك لم يخرج عن طاعة الحكومة المركزية التى نجح هولاكو فى إقامتها بفارس سوى الباطنية الذين ظلوا معتصمين فى قلاعهم دون

(١) رشيد الدين الهمدانى: جامع التواريخ- المجلد الثانى- الجزء الأول ص ٢٣٦-٢٣٧ ويروى رشيد الدين أن دوقوز خاتون كانت امرأة هولاكو العظمى، وكذلك مفضلة على نسائه الأخريات لأنها كانت زوجة أبيه، وورثها عنه وتزوجها بعد وفاته وكانت تتمتع بمنزلة وشخصية قوية.

(٢) رشيد الدين الهمدانى: جامع التواريخ، ص٢٢٠ .

(3) Setton: op, cit, II, p.p. 720.

(٤) رشيد الدين الهمدانى: جامع التواريخ، مجلد ٢ ج١ ٢٣٩-٢٤٠ .


غزوات المغول
في الشرق الأدنى
سلاجقة
الروم
البحر المتوسط
تفليس
أرضروم
أرزنجان
فارس
الموصل
العراق
بغداد
١٢٥٨
الشام
مصر (المماليك)

أن تستطيع حكومة من الحكومات المعاصرة أن تقضى على قوتهم فى فارس أو الشام. وقد استمر خلفاء حسن الصباح «من الملاحدة» محتفظين بقوتهم ونشاطهم، يجمعون الإتاوة من الأمراء والحكام المجاورين ويهددون من يمتنع عن دفعها بالقتل (١٠٩٠-١٢٥٥). على أن هولاكو لم يحتمل ذلك الوضع فذهب إلى بلاد الإسماعيلية فى فارس- وهو الإقليم المسمى قوهستان(قهستان) بين هراة ونيسابور- وحاصر قلعة ألموت، وعندئذ لم يستطع زعيم الباطنية فى ذلك الوقت- وهو شيخ الجبل ركن الدين خورشاه- المقاومة، فاستسلم فى ديسمبر سنة ١٢٥٦، وقبل الأرض أمام هولاكو، وبذلك استولى المغول على قلاع ألموت وقهستان وكوده كوه ومهرين وسرنخت ولمبسر، وغيرها من المعاقل التى بلغ عددها نحو المائة والتى اتخذها الباطنية أوكاراً لهم سنين طويلة[١].

على أن هولاكو لم يكتف بذلك، وإنما طلب من خورشاه ضرورة تسليم المغول جميع قلاع الباطنية فى الشام، وكلفه إرسال رسل من قبله إلى الشام لذلك الغرض[٢]. ويذكر رشيد الدين أن هولاكو أكرم خورشاه، وخلع عليه، ووهبه فتاة مغولية ليتزوج منها. ولم يشأ هولاكو أن ينكث بعهده ويقتل خورشاه بعد أن أمنه، فأرسله إلى قراقورم حاضرة المغول فى جوف آسيا، وعندئذ نظر إليه منكوخان وقال لماذا تحتضرونه وتشقون بذلك عبثاً على الدابة التى يركبها...؟ ثم أمر بقتله فقتل هو وأقاربه من النساء والرجال، حتى الأطفال الذين فى المهد[٣].

ولاشك أن المسلمين جميعاً تلقوا نبأ اندحار الإسماعيلية وسقوط قلعتهم ألموت بالفرح البالغ، على الرغم مما كان يعانيه العالم الإسلامى من خوف عندئذ بسبب خطر المغول. ولا أدل على فرح المسلمين لما حل بالباطنية من قول المؤرخ الجوينى لقد كان هذا العمل مرهما لجراح المسلمين، وتداركاً للدين من الخلل. حقاً لقد كان كأساً طافحاً وريحاً عاتية ولكنها أخمدت[٤].

(١) المصدر السابق ص ٢٤٣-٢٥٥ .

(٢) (ثم أرسل خورشاه رجلين أو ثلاثة من خاصته مع رسل هولاكو خان إلى قلاع الملاحدة بالشام، لدعوة الناس إلى التسليم عندما تصل إليهم الرايات الهمايونية. رشيد الدين الهمدانى: جامع التواريخ، ٢٥٧-.

(3) Browne: Literary History of Persia, II, p.p.458-460 & رشيد الدين الهمدانى: جامع التواريخ، ٢٥٧-٢٥٨ .

(٤) فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، ص ١٥٣-١٥٤ .

وبعد أن أجهز هولاكو على الباطنية فى فارس جاء دور الخليفة العباسى إمام أهل السنة. وكان الخليفة العباسى فى ذلك الوقت هو المستعصم بالله (١٢٤٢-١٢٥٨) الذى أجمع المؤرخون المسلمون على وصفه بالبلادة وضعف العزيمة، وبأنه كان قليل المعرفة بتدبير الملك، نازل الهمة، مهملا للأمور المهمة، محباً لجمع الأموال، يقدم على فعل ما يستقبح، أهمل أمر هولاكو حتى كان فى ذلك هلاكه(١). حقيقة أن الخلافة العباسية كانت قد انحدرت منذ أمد بعيد فى طريق الضعف، ولكن أسلاف المستعصم ظلوا مع ذلك حريصين على الاحتفاظ بنفوذهم وسلطانهم الدنيوى فى عراق العرب. كما احتفظوا لأنفسهم بجيش كبير حال دون اعتداء سلاطين فارس على حقوقهم. أما المستعصم، فبدلا من أن يزيد قوة جيشه أمام الخطر المغولى، لجأ– على العكس– إلى إنقاص عدده من مائة ألف فارس إلى عشرين ألفاً فقط(٢). واستغل الأموال التى وفرها من تخفيض قوة الجيش فى استرضاء خان المغول وإرسال الهدايا إليه تملقاً له وثمناً لرضائه، مما دل على ضعفه وزاد من طمع الطامعين فيه(٣).

وزاد من ضعف الخلافة العباسية فى تلك الفترة الحرجة من تاريخها، ذلك الصراع المذهبى العنيف الذى نشب بين أهل السنة فى بغداد والشيعة فى الكرخ، وكان الخليفة المستعصم يؤيد أهل السنة ويظاهرهم، فى حين كان وزيره مؤيد الدين ابن العلقمى شيعياً، فساند الشيعة، ويروى المؤرخ أبو الفدا أنه حدث فى المنازعات والحروب التى نشبت بين الفريقين فى بغداد أن أمر أبو بكر– ابن الخليفة– العسكر بمهاجمة الكرخ فهتكوا النساء وركبوا منهم الفواحش، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمى، وكاتب التتر وأطمعهم فى ملك بغداد(٤). كذلك ذكر بعض المؤرخين مثل

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٦٤. كذلك وصفه رشيد الدين بأنه كان شخصاً عاجزاً لا رأى له ولا تدبير. (جامع التواريخ ص ٢٦٢).

(٢) وكان عسكر بغداد يبلغ مائة ألف فارس فقطعهم المستعصم ليحمل إلى التتر متحصل إقطاعاتهم وصار عسكر بغداد دون عشرين ألف فارس. انظر: (أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٦هـ).

(٣) يروى المؤرخ أبو المحاسن أن الوزير ابن العلقمى وهو الذى أشار على الخليفة المستعصم بقطع أرزاق أكثر الجند، وأنه بمصانعة التتار وإكرامهم يحصل بذلك المقصود ولا حاجة لكثرة الجند، ففعل الخليفة ذلك. ثم يعلق أبو المحاسن على استجابة الخليفة لرأى ابن العلقمى فيقول وكلمة الشيخ مطاعة... إشارة منه إلى ضعف الخليفة وخضوعه لرأى وزيره. (النجوم الزاهرة ج٧ ص ٤٨).

(٤) ويلاحظ أن المؤرخ رشيد الدين الهمدانى يؤكد براءة ابن العلقمى من تهمة الاتصال سراً بالمغول، ويقول إن خصوم الوزير ابن العلقمى كانوا يذيعون بين الناس أن الوزير متفق مع هولاكوخان وأنه يريد نصرته وخذلان الخليفة فقوى هذا الظن. (جامع التواريخ، ج١ ص٤٧٤).

أبى المحاسن[1] وأبى الفدا أن ابن العلقمى كان يصانع التتار فى الباطن وكان يكاتبهم ويهاديهم، بل إنه أرسل أخاه إلى التتر يستدعيهم، فساروا قاصدين بغداد فى جحفل عظيم، الأمر الذى جعل أهل السنة فيما بعد يلقون على الشيعة تبعة ما حل ببغداد على يد المغول سنة ١٢٥٨[2].

وقد بدأ هولاكو بأن طلب من الخليفة العباسى الاعتراف بسيادة المغول بحيث يصبح لهم من الهيمنة على بغداد ما كان للبويهيين ثم لسلاطين السلاجقة[3]. ولكن الخليفة العباسى رفض ذلك بشدة، وأرسل إلى هولاكو يفهمه أنه إمام المسلمين جميعاً وأنه من الشرق إلى الغرب ومن المغول إلى الشحاذين ومن الشيوخ إلى الشباب- من يؤمنون بالله ويعملون بالدين- كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لى ... ثم إن أهل بغداد أهانوا رسل هولاكو وبادروهم بالسفاهة، وأخذوا يمزقون ثيابهم ويبصقون فى وجوههم... مما لم يترك مجالا للتفاهم[4].

وعندما أعلن هولاكو الحرب أسقط فى يد الخليفة الضعيف، فأشار عليه وزيره ابن العلقمى بأن يشترى مسالمة هولاكو بالمال، فأرسل الخليفة أحد رجاله- وهو شرف الدين ابن محيى الدين ابن الجوزى- ليفاوض المغول ويعدهم بأموال عظيمة[5]. كذلك فكر الخليفة فى أن يسترضى المغول بالدعاء لهم فى الخطبة ونقش أسمائهم على السكة، مثلما فعل الخلفاء العباسيون مع سلاطين السلاجقة من قبل. ولكن رجال الدولة عارضوه فى ذلك الإجراء لأن المغول لم يكونوا مسلمين. وأخيراً لم يبق أمام الخليفة العباسى إلا أن يتعلق بأحلام اليقظة، فظن أن المماليك فى مصر والأيوبيين فى الشام سيسرعون لنجدته، وأن المسلمين جميعاً سيتحدون تحت الراية السوداء- شعار العباسيين- لمقاومة ذلك الخطر، وأن أهل فارس وتركستان لن يلبثوا أن يثوروا ضد حكم المغول إذا فكر هؤلاء فى الاعتداء على الخلافة[6].

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٤٨ .
(٢) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٦هـ.
(٣) رشيد الدين: جامع التواريخ، ٢٦٧ .
(4) D'Ohsson, III, p. 115 & رشيد الدين الهمدانى: جامع التواريخ، ٢٦٩-٢٧٠
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٤٩ .
(6) D'Ohsson: op, cit, III, p. 219.

غير أن آمال الخليفة العباسى لم تلبث أن تبددت، إذ كان المماليك والأيوبيون فى شغل عن الخلافة العباسية بمشاكلهم الخاصة الداخلية، فى حين لم يجرؤ واحد من أهل فارس أو تركستان على رفع رأسه فى وجه المغول. وهكذا لم يبق أمام المستعصم سوى أن يعتمد على نفسه بسرعة. فنجح فى أن يجمع جيشاً من المرتزقة، جله من الفرس والأتراك المقيمين بالعراق[١].

وفى نوفمبر سنة ١٢٥٧ بدأ غزو المغول للعراق قاصدين بغداد، فاتجه الجيش المغولى الذى كان يعمل فى آسيا الصغرى تحت قيادة بايجو نوين إلى بغداد عن طريق الموصل، بحذاء الضفة الغربية لنهر دجلة[٢]، واتجه الجناح الأيسر للجيش المغولى بقيادة كتبغا إلى بغداد عن طريق لرستان وتكريت وخورستان، فى حين زحف هولاكو نفسه من همذان صوب بغداد[٣]. وفى يناير سنة ١٢٥٨ التقت جميع تلك الجيوش المغولية شرقى بغداد، فى الوقت الذى خرج جيش الخليفة العباسى ليحول دون اجتماعها، فانقض عليه المغول وانكسر البغداديون وأخذتهم السيوف وغرق بعضهم فى الماء وهرب الباقون[٤].

وهكذا أيقن أهل بغداد– وعلى رأسهم الخليفة– بالهلاك، فأسرعوا بالفرار من المدينة يطلبون النجاة بأرواحهم، ولكن المغول كانوا أسرع منهم فاقتحموا بغداد، وأحدثوا فيها مذبحة رهيبة قدر عدد ضحاياها بثمانمائة ألف من السكان[٥]، ودام القتل والنهب فى بغداد نحو أربعين يوماً ثم نودى بالأمان[٦]. وبعد أن فرغ المغول من نهب المدينة، أشعلوا النار فيها بعد ذلك، فأحرقوا جامع الخليفة ومشهد موسى الجواد وقبور الخلفاء (فبراير سنة ١٢٥٨)[٧]. أما الخليفة المستعصم نفسه فقد قتله المغول فى ٢٠ فبراير بعد أن حصلوا منه على كل ما كان الخلفاء العباسيون قد جمعوه

(1) Idem. P. 219-225.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧ ص ٤٩ .

(٣) رشيد الدين الهمدانى: جامع التواريخ، مجلد ٢ جـ١ ٢٨١ .

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧ ص ٤٩ . ويذكر النويرى (نهاية الأرب – ج ٢٧، ص ٣٨١– تحقيق المؤلف) أن المغول أحكموا حصار بغداد فحاصرها بيجو من الجانب الغربى، فى حين نزل هولاكو بالجانب الشرقى.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧ ص ٥٠، ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٨، ص٣٥ .

(٦) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٦هـ.

(٧) رشيد الدين الهمدانى: جامع التواريخ، ٢٩٢–٢٩٣ .

خلال خمسة قرون[١]. وقد تضاربت الروايات في الطريقة التى قتل بها المغول الخليفة العباسى، فقيل خنق وقيل وضع فى عدل ورفسوه حتى مات وقيل غرق فى دجلة، والله أعلم بحقيقة ذلك[٢]. ولم يكتف المغول بقتل الخليفة العباسى، وإنما قتلوا أيضا ابنه الأكبر.. كذلك قضوا على كل شخص وجدوه حياً من العباسيين، عدا أفراداً قلائل لم يأبهوا بهم... ثم ألحقوا الابن الثانى للخليفة بوالده وأخيه...[٣].

وهنا نشير إلى أن المسيحيين الشرقيين وجدوا فرصة طيبة فى غزو هولاكو للعراق وبغداد للتشفى من المسلمين، فاشتركت نسبة كبيرة من النساطرة والأرمن فى جيش هولاكو الزاحف على بغداد. وهؤلاء كانوا لا يقلون عنفاً عن المغول أنفسهم فى تصرفاتهم تجاه أهل بغداد عند سقوطها فى أيديهم. أما أهل بغداد من النساطرة والمسيحيين فقد تمتعوا بالأمان الشامل، وقامت برعايتهم درقوز خاتون زوجة هولاكو. وقد جاء تشفى المسيحيين فى بغداد والمسلمين، تعبيراً واضحاً عن الاتجاه السائد عندئذ، وهو الربط بين حركة المغول وحركة الصليبيين لتطويق المسلمين فى الشرق الأدنى[٤].

المغول في الشام:

كان لسقوط بغداد والخلافة العباسية دوى هائل مخيف فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى. وقد أسرع أهالى الحلة والكوفة وواسط فى العراق إلى استقبال جند هولاكو ورسله وأقاموا الأفراح ابتهاجاً بقدومهم، كما تم للمغول السيطرة على البصرة والنجف وغيرهما من مدن العراق[٥]. أما بدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل فقد أسرع إلى تعليق رؤوس وزراء الخليفة العباسى- التى أرسلها له هولاكو- على أسوار مدينته، بل إن بدر الدين لؤلؤ خف بنفسه -رغم أنه تجاوز التسعين من عمره- إلى تقديم فروض الولاء لهولاكو قرب مدينة مراغة فى أذربيجان[٦]. وهكذا اهتز الحكام المسلمون فى البلدان

(١) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٦هـ. النويرى: نهاية الأرب، ج٢٧، ص٣٨٢.

(٢) المصدران السابقان، ابن أيبك: كنز الدرر، ج٨ ، ص ٣٥-٣٦.

(٣) رشيد الدين الهمدانى: جامع التواريخ، ٢٩٤.

(4) Groisset: op, cit, III, p. 574-576.

(٥) رشيد الدين الهمدانى: جامع التواريخ، مجلد ٢ ج١ ص٢٩٦.

(6) D'Ohsson: op, cit, III, p. 262.

المجاورة لسقوط بغداد فى يد المغول، وأخذوا يحسبون حساباً لقرب دورهم، فأسرع كثير منهم إلى الحضور إلى هولاكو لتقديم فروض الولاء وآيات الطاعة، فجاء إلى الحضرة الأتابك سعد بن أبى بكر أتابك فارس للتهنئة بفتح بغداد، وحضر أيضاً السلطان عز الدين (كيكاوس) صاحب الروم. ثم جاء فى أثره السلطان ركن الدين[١]. وهؤلاء هم حكام البلدان الإسلامية الذين ظن الخليفة المستعصم بالله أنهم سيهبون للدفاع عن الخلافة والذود عنها...

أما ملوك الأيوبيين بالشام فلم يكونوا أحسن حالا، بعد أن سمعوا بوحشية المغول فى بغداد وأحسوا بأن يومهم آت قريب.. وكان أن أسرع الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب ودمشق إلى إعلان خضوعه للمغول، فأرسل ابنه العزيز سنة ١٢٥٨ بتحف وتقادم إلى هولاكو ملك التتر، وصانعه لعلمه بعجزه عن ملتقى التتر. وبذلك يكون حكام المسلمين فى الشرق الأوسط- من سلالتى سلجوق وأيوب- قد أحنوا جميعاً رءوسهم أمام المغول خشية بطشهم وخوفاً من همجيتهم ووحشيتهم[٢].

على أن تلك المظاهرات من جانب ملوك الأيوبيين جاءت بعد فوات الأوان، إذ لم يكن إعلان ولائهم بعد سقوط بغداد ليصرف نظر هولاكو عن الشام. وقد بدأ المغول هجماتهم، ضد بنى أيوب، بغزوة محلية ضد ميافارقين- فى ديار بكر- التى كان يحكمها أحد أمراء بنى أيوب واسمه الكامل ناصر الدين محمد[٣]. أما السبب لتلك الغزوة فكان ما يقال من أن الكامل محمد هذا قتل راهباً سريانيا مر ببلاده بتفويض من المغول، فى الوقت الذى كان هولاكو قد أخذ يقوم بدور حامى المسيحيين فى الشرق ضد المسلمين[٤]. وثمة ملحوظة مهمة هى أن فرقة من الأرمن المسيحيين اشتركت مع المغول فى غزو ميافارقين مما لا يدع هناك مجالا للشك فى أن المسيحيين الشرقيين اعتقدوا أنهم بسيرهم فى ركاب المغول ضد المسلمين إنما يقومون بحرب صليبية جديدة[٥].

(١) رشيد الدين الهمذانى: جامع التواريخ، مجلد٢ ج١ ,٣٠١
(٢) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٦هـ.
(٣) النويرى: نهاية الأرب (ج٢٧، ص ٣٨٣- تحقيق المؤلف).

(4) D`Ohsson: op, cit, III, p. 307.
(5) Groisset: op, cit, II, p. 578.

ومهما يكن من أمر، فقد سقطت ميافارقين فى أيدى المغول، فذبحوا أهلها من المسلمين ولم يتعرضوا للمسيحيين، وكانوا كثرة لكونها منذ القدم مركزا لليعاقبة والأرمن. أما الكامل محمد نفسه أمير ميافارقين، فقد قطع المغول جسده إرباً وحمل رأسه على حربة ليطاف بها فى جميع أنحاء الشام من حلب إلى دمشق(١).

والواقع أن استيلاء المغول على ميافارقين لم يكن سوى مقدمة لحرب عامة اجتاح المغول فيها بلاد الشام الإسلامية(٢). وكان الناصر يوسف الأيوبى- صاحب حلب ودمشق وبيت المقدس- قد تولاه الفزع عقب سقوط بغداد فى أيدى المغول، فأرسل – كما سبق أن أشرنا– ابنه العزيز إلى هولاكو ليعلن ولاء أبيه وخضوعه(٣). ولكن هولاكو تحجج بأن الناصر يوسف لم يحضر بنفسه، واكتفى بإرسال ابنه، وهو أمر اعتبره هولاكو إهانة شخصية له(٤). ويروى المقريزى أن العزيز بن الملك الناصر عاد من عند هولاكو ومعه خطاب مخيف وصف فيه هولاكو ما حل ببغداد، وطلب من الناصر أن يسارع برجاله وأمواله وفرسانه إلى الدخول فى طاعة المغول. فلما قرأ الناصر يوسف خطاب هولاكو انزعج وسير حريمه إلى الكرك(١). وفى تلك الأزمة لم يجد الناصر يوسف أمامه سوى المماليك فى مصر، فأرسل الصاحب كمال الدين بن العديم ليطلب النجدة ضد خطر المغول، وعندئذ وعده المماليك بالمساعدة ومحالفته ضد ذلك الخطر الذى هدد المسلمين جميعا(٦). ومع ذلك فإن الوعود من جانب

(1) D'Ohsson: op, cit, III, p. 356. يذكر ابن أيبك (كنز الدرر، ج٨، ص٤٦) أن هولاكو عندما حاصر ماردين امتنعت عليه، وأن صاحبها سير ولده إلى هولاكو تحت الطاعة محتجا بأن والده مريض عاجز عن الحركة. فانصرف هولاكو عن ماردين متجها إلى حلب. وحرص على أن يطلع ابن صاحب ماردين على ما ارتكبه المغول من قسوة فى حلب حتى يخيف سائر الملوك الخارجين عن الطاعة.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٧٤ .

(٣) يروى رشيد الدين الهمذانى أن سلطان حلب كان قد أرسل أيضاً وزيره الصاحب زين الدين الحافظى بتحف وهدايا ملكية إلى المغول، وأنه كان يظهر الطاعة والميل إلى هولاكو فى الخفاء فاتهم لهذا السبب عند سلاطين الشام وقصدوه، فهرب والتجأ إلى هولاكوخان فقوى ذلك عزم هولاكو على فتح حلب. (جامع التواريخ ج١ ص ٣٠٥). ولا يوجد فى المصادر العربية والمعاصرة ما يؤيد رواية رشيد الدين لاسيما فى التجاء الناصر يوسف إلى هولاكو. هذا وإن كان المقريزى قد ذكر فى حوادث سنة ٦٥٧هـ. أخبار النزاع بين الناصر يوسف وخصومه، وأن الأخبار وردت بقدوم نجدة من عند هولاكو إلى الملك الناصر. (السلوك، ج١ ص٤١٨).

(٤) يذكر النويرى أن سأل يوسف بن العزيز عن تأخير أبيه، فاعتذر بأنه لا يمكنه مفارقة البلاد خوفا عليها من عدو الإسلام الفرنج، فقبل عذره وأعاده إلى أبيه. (نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ٣٨٥– تحقيق المؤلف).

(٥) المقريزى: السلوك، ج١ ص ٤١٥–٤١٦ .

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٧٢–٧٣

المماليك لم تكف لتهدئة مخاوف الناصر يوسف، فظل قابعاً فى دمشق لا يجرؤ على الذهاب إلى حلب. وفى ذلك الوقت الحرج تآمر بعض عسكر الناصر يوسف عليه. واتصلوا بالملك المغيث بالكرك، الذى تشجع وخرج لمهاجمة دمشق، ولكن الناصر يوسف أنزل به الهزيمة، فعاد المغيث إلى الكرك فى حين فر المتآمرون إلى غزة حيث أعلنوا أخاً للناصر– هو الظاهر غازى– سلطاناً[١]. ومن الواضح أن تلك الفتنة أضعفت من مركز الناصر يوسف وأوهنت قوته، فى الوقت الذى بات المغول على أبواب الشام، الأمر الذى جعل الناصر يوسف يقنع بالبقاء فى دمشق ويترك حماية حلب لابنه المعظم تورانشاه الأيوبى[٢].

وهنا نكرر مرة أخرى أن غزو المغول لبلاد المسلمين فى الشام اتخذ طابع حملة صليبية. ولا أدل على ذلك مما تؤكده بعض المصادر المعاصرة من أن الخطة الخاصة بغزو بلاد الشام اشترك فى وضعها هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى. وقد طلب هولاكو من حليفه الأ رمنى أن يلتقيه على رأس جيش عند الرها حتى يذهب معه إلى بيت المقدس ويخلص الأراضى المقدسة من قبضة المسلمين ويسلمها للمسيحيين[٣]. ثم إن هيثوم الأول ملك أرمينية لم يكن فى تحالفه مع المغول يعبر عن سياسته ووجهة نظره فقط، وإنما أيضاً عن سياسة زوج ابنته بوهيموند السادس أمير إنطاكية وطرابلس، بعد أن ذكرنا مدى قوة الرباط الذى جمع بين إنطاكية وأرمينية الصغرى فى تلك الفترة[٤].

وكان أن بدأ الغزو المغولى للشام فى أوائل سبتمبر سنة ١٢٥٩، فتدفقت قوات المغول من أذربيجان وكردستان على الجزيرة، واستولى هولاكو على آمد ونصيبين، وخضعت له حران والرها وغيرها من البلاد الجزرية فى حين قاومته سروج فذبح أهلها[٥]. وبعد أن استولى هولاكو على البيرة– على الفرات– نهبت قواته منبج

(١) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٨هـ. المقريزى: السلوك، ج١ ص ٤١٤.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٧٤

(3) Hayton: La Flor des Estoires d`Orient (Doc. Arm), II, p. 179.

(4) Setton: op, cit, II, p.p. 572.

(5) D'Ohsson: op, cit, III, p. 308-309 &

أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٤٧.

واتجهت إلى حلب مباشرة. وجدير بالذكر أن هولاكو حرص فى زحفه على الشام على أن يصطحب معه بعض أمراء المسلمين الذين خضعوا له فى الجزيرة، من ذلك ما يرويه رشيد من أن هولاكو أرسل إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يقول له: إن سنك قد تجاوزت التسعين ولذلك أعفيناك من السير معنا، ولكن عليك أن تبعث بابنك الملك صالح مع الرايات الغازية لفتح ديار الشام ومصر. فسير بدر الدين ابنه حسب الأوامر الصادرة إليه[١]. هذا فضلا عمن انضم إلى هولاكو من حكام القوى المسيحية الذين حالفوه فى الشرق الأدنى، مثل هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى، وبوهيموند السادس أمير إنطاكية وطرابلس[٢].

وعندما اقتربت جيوش المغول من حلب أسرع مطران اليعاقبة فيها إلى مغادرة حلب لتقديم فروض الطاعة والشكر لهولاكو. وقد أرسل هولاكو إلى أهل حلب يطلب منهم الاستسلام ويحذرهم عاقبة العناد والمقاومة. ولكن نائب حلب- المعظم تورانشاه بن الناصر يوسف- رفض فى شجاعة، ورد على رسل هولاكو قائلا: ليس لكم عندنا إلا السيف[٣]. وهكذا حاصر المغول حلب فى ١٨ يناير سنة ١٢٦٠ ودخلوها بعد حصار سبعة أيام، وعندئذ دام القتل والنهب من نهار الأحد إلى نهار الجمعة[٤]. أما الأسرى فكانوا زيادة على مائة ألف من النساء والصبيان[٥]. وقد بيع معظم أولئك الأسرى فى أسواق الرقيق فى مملكة أرمينية الصغرى وفى المدن الصليبية بالشام[٦]. ولم يتعرض المغول لكنيسة اليعاقبة فى حلب، فى حين حرص هيثوم الأول أرمينية على إحراق جامع حلب بنفسه[٧].

وبذلك سقطت حلب فى أيدى المغول، وهى المدينة التى طالما قاومت البيزنطيين فى القرن العاشر والصليبيين فى القرن الثانى عشر. ولم يلبث أن دمر

---

(١) رشيد الدين الهمدانى: جامع التواريخ،ج١ ص ٣٠٥ . وكان هدف هولاكو من اصطحاب أمراء المسلمين الذين خضعوا له أو أبنائهم. أن يخيف بذلك سائر الملوك الخارجين عن الطاعة. (ابن أيبك: كنز الدرر، ج٨، ص ٤٦).

(2) Iorga: L`Armenie Cilicienne. P. 136.

(٣) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٨هـ.

(٤) المصدر السابق، النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ٣٨٧(تحقيق المؤلف).

(٥) المقريزى: السلوك، ج١ ص ٤٢٢,

(6) D`Ohsson: op, cit, III, p. 319-320.

(7) Groisset: op, cit, III, p. 583.

المغول قلعتها الشهباء[١]، وهى القلعة العتيدة التى صمدت أمام هجمات تنكرد وروجر الإنطاكى وبلدوين الثانى وغيرهم من قادة الصليبيين. لذلك أدى سقوط حلب إلى إثارة الذعر فى جميع بلدان الشام الإسلامية، فأسرع كثير من حكام المسلمين فى الشام إلى الاستسلام للمغول والدخول فى طاعة هولاكو. وقد رفض حصن حارم أن يستسلم وقاوم الغزاة، فصار عظة وعبرة لغيره من المعاقل الإسلامية بالشام، إذ أمر هولاكو بقتل جميع أفراد حاميته، فقتلوا دفعة واحدة مع نسائهم وأطفالهم[٢]. وسرعان ما أدت هذه الأخبار إلى تخاذل ملوك الأيوبيين بالشام، فأسرع الأشرف موسى الأيوبى صاحب حمص إلى حلب ليقدم فروض الطاعة لهولاكو، وعندئذ أقره هولاكو على ما بيده بشرط أن يكون تابعاً للمغول[٣]. وسار الملك المنصور بن المظفر صاحب حماة إلى مصر بحريمه وأولاده تاركاً حماة وشأنها، وبذلك جفل أهل حمص[٤] وحماة. أما أهل حماة فقد اختشوا، وسارعوا بطلب الأمان وأرسلوا وفداً من كبرائهم إلى حلب ومعهم مفاتيح حماة وحملوها إلى هولاكو وطلبوا منه الأمان لأهل حماة، فأمنهم هولاكو وأرسل لهم شحنة (نائبا) اسمه خسروشاه[٥].

ولاشك أن الناصر يوسف الأيوبى وقف عندئذ موقفاً غير مشرف، فلم يكد يعلم بسقوط حلب فى أيدى المغول حتى فر من دمشق إلى غزة عن طريق نابلس، وذلك بنية الهروب إلى مصر، وترك دمشق خالية، وبها عامتها قد أحاطت بالأسوار[٦]. ومن الواضح أن ذلك السلوك الشائن الذى سلكه ملوك الأيوبيين فى الشام جاء بمثابة فصل الختام لدولتهم، وإعلاناً لتنازلهم عن ملكهم فى الشام ليستولى عليه إما المغول وإما المماليك[٧].

ولم يكن منتظراً من دمشق أن تصمد وتقاوم بعد أن فر ملكها منها. فارتبكت

---

(١) ابن أيبك: كنز الدرر، ج٨ ص ٤٦ (تحقيق هارمان).

(٢) رشيد الدين الهمذانى: جامع التواريخ، ج١ ص ٣٠٧ .

(٣) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٨هـ.

(٤) المقريزى: السلوك، ج١ ص ٤٢٣ .

(٥) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٨هـ، ابن أيبك: كنز الدرر، ج٨، ص٤٦ .

(٦) المقريزى: السلوك، ج١ ص ٤٢٣ .

(7) Groisset: op, cit, Tome III, p.p. 586-587.

أحوالها، واختلت أمورها ولم يثبت الناس عند خروج الناصر، ووقعت فيهم الجفلات حتى كأن القيامة قامت...[١]. وكان أن خرج وفد من أعيان دمشق إلى هولاكو لمقابلته قرب حلب، حيث سلموه مفاتيح أبواب المدينة ومعها أنواع التحف والهدايا[٢]. وعندئذ أمنهم هولاكو، وملك التتار المدينة بالأمان، ولم يتعرضوا إلى قتل ولا إلى نهب، وعين هولاكو نائباً عنه فى دمشق القاضى محى الدين بن الزنكى، فلبس ابن الزنكى خلعة هولاكو، وجمع الفقهاء وغيرهم وقرأ عليهم تقليد هولاكو[٣]. وفى أوائل مارس سنة ١٢٦٠ حضر القائد المغولى كتبغا إلى دمشق ومعه قوة لاحتلال قلعة المدينة، وصحبه فى رحلته هذه بعض زعماء القوى الصليبية فى الشرق الأدنى مثل هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى وبوهيموند السادس أمير إنطاكية. ويبدو أن المغول أحسنوا معاملة أهل دمشق فعينوا عليها حاكماً مغولياً يساعده ثلاثة من الفرس[٤]. أما قلعة دمشق فقد قاومت ورفضت الاستسلام، مما جعل المغول يهاجمونها فى عنف. ويروى رشيد الدين أن بعض أمراء المغول وقادتهم جرحوا أثناء مهاجمة قلعة دمشق؛ ولكن هولاكو كان يشجعهم قائلا: كما أن اللون الأحمر يكون زينة النساء، فكذلك للرجال تكون الدماء الحمراء على وجوهم ولحاهم زينة لهم..[٥]. وهكذا استمرت قلعة دمشق تقاوم المغول أربعين يوماً، مما عاد بالمتاعب على أهل دمشق وجرى على أهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة وضايقوا القلعة... ثم تسلموها بالأمان ونهبوا جميع ما فيها[٦].

ولم يلبث المغول أن أتموا فتح بقية بلاد الشام الإسلامية فى الأسابيع التالية فخربوا بعلبك وبانياس، وأسعروا البلاد حرباً وملأوها قتلا ونهباً! كما استولى هولاكو

---

(١) المقريزى: السلوك، ج١ ص ٤٢٣ .

(٢) رشيد الدين الهمذانى: جامع التواريخ، ج١ ص ٣٠٧ .

(٣) المقريزى: السلوك، ج١ ص ٤٢٤ . النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٧، ص٢٨٩ .

(٤) يروى المقريزى أن الأشرف موسى صاحب حمص وصل بعد ذلك من عند هوكولا وبيده مرسوم أن يكون نائب السلطنة بدمشق والشام، فامتثل ذلك كتبغا، وصارت الدواوين وغيرها تحضر إلى الأشرف. (السلوك، ج١، ص ٤٢٥-٤٢٦).

(٥) رشيد الدين الهمدانى: جامع التواريخ، ج١ ص ٣٠٦-٣٠٧ .

(٦) أبو الفداء: المختصر، حوادث سنة ٦٥٨هـ.

على ماردين وقتل أمراءها وخرب أسوار قلعتها[١]. وهكذا حتى وصل المغول إلى غزة دون أن يصادفوا مقاومة تذكر. ويلخص المؤرخ المعاصر رشيد الدين الموقف عندئذ فيقول: وقصارى القول أنه خلال مدة وجيزة تم الاستيلاء على بغداد وديار بكر وديار ربيعة والشام بأسرها، ودخلت في حوزة نواب هولاكو وفتحت ممالك الروم[٢]. وفي ذلك الوقت كان الناصر يوسف قد اتجه نحو الحدود المصرية هارباً، ثم اعتراه الخوف لشيء بلغه عن الملك المظفر (قطز) صاحب مصر فعرج إلى الأردن حيث وقع في يد كتبغا. وقد أرسله إلى هولاكو فعفا عنه ووعده بإعطائه حكومة الشام بعد أن يستولى المغول على مصر، ويذكر النويرى أن هولاكو كان عندئذ بحلب عندما أرسل إليه كتبغا الناصر يوسف، فسأله عن عساكر الديار المصرية، فقال (عساكر ضعيفة، وهم نفر قليل) وصغرهم عنده[٣]. وهكذا استمر الناصر يوسف تابعاً للمغول وبقى معهم فى ذل وهوان إلى أن قتل[٤]. كذلك وقع الملك السعيد ابن الملك العزيز عثمان بن العادل فى قبضة هولاكو عندما استولى الأخير على البيرة، وعندئذ ولاه هولاكو الصبيبة وبانياس[٥]. ولم يخجل الملك السعيد بعد ذلك من مساعدة المغول ومصاحبتهم، فصار معهم وأعلن الفسق والفجور وسفك دماء المسلمين[٦].

المغول والصليبيون في الشام:

أظهر المغول أثناء فتوحاتهم بالعراق والشام اهتماماً خاصاً بالمسيحية وعطفاً شديداً على المسيحيين، كما احترموا المؤسسات المسيحية بوجه عام. وإذا كان المغول قد دأبوا فى جميع المدن والبلدان الإسلامية التى دخلوها عنوة على ذبح أهلها من المسلمين، فإنهم حرصوا فى الوقت نفسه على حماية أرواح وممتلكات سكانها من المسيحيين. وهكذا هدم المغول الجوامع وخربوا مساجد ومآذن[٧]، فى الوقت الذى حافظوا على الكنائس وشملوها بحمايتهم. وقتل

(١) المقريزى: السلوك، ج١ ص ٤٢٦ .
(٢) رشيد الدين الهمذانى: جامع التواريخ، ج١ ص ٣٠٨ .
(٣) يؤكد رشيد الدين أن هولاكو قال للناصر يوسف الأيوبى، عندما استولى على مصر سأفوض إليك حكومة الشام.
النويرى: نهاية الأرب، ج٢٧ ص ٣٩٠ (تحقيق المؤلف).
(٤) المقريزى: السلوك، ج١ ص ٤٢٠ .
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٧٧
(٦) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٨هـ.
(٧) المقريزى: السلوك، ج١ ص ٤٢٣ .

المغول كثيراً من فقهاء المسلمين وأعدموا خليفتهم فى بغداد، وفى الوقت ذاته لم يحاولوا المساس بأسقف أو قسيس أو راهب. بل لقد حدث فى الوقت الذى قتل المغول الخليفة العباسى وأحرقوا جامع الخليفة أن أنعم هولاكو على البطرق النسطورى فى بغداد بالهدايا الثمينة وخصص أحد قصورها مقرا له[١]. لذلك لا عجب إذا هلل المسيحيون الشرقيون بوجه خاص لما قام به المغول من أعمال فى العراق والشام، واعتبروا المغول حماة المسيحية الذائدين عنها الآخذين بالثأر لها. لذلك حرص بعض ملوكهم وأمرائهم على ملازمة المغول فى زحفهم، ومشاركتهم فى فتوحاتهم فى العراق والشام، بل على تحريضهم ضد المسلمين للتشفى منهم والقضاء عليهم. وبعبارة أخرى فإن المعاصرين من المسيحيين الشرقيين وجدوا فى غزو المغول للعراق والشام فرصة طيبة للثأر من الإسلام والنيل من المسلمين، واعتبروا ذلك الغزو بمثابة حملة صليبية جديدة أتت لنصرة المسيحيين، ولكنها أتت فى تلك المرة من الشرق لا من الغرب مثل سائر الحملات الصليبية المألوفة.

على أننا نلاحظ أن المسيحيين الشرقيين بالذات– من أرمن وسريان ويعاقبة ونساطرة– هم الذين تحمسوا للمغول وساعدوهم وساروا فى ركابهم، فى الوقت الذى كان الصليبيون الغربيون بالشام يقفون موقف المتردد من الحركة المغولية المتشكك فيها. حقيقة أن بوهيموند السادس أمير إنطاكية انضم إلى الحركة المغولية وأيدهم وشارك فيها– كما سبق أن رأينا– ولكن يلاحظ أن بوهيموند السادس لم يفعل كل ذلك بوصفه أميراً صليبياً كاثوليكياً وإنما بوصفه زوج ابنة ملك أرمينية الصغرى، وحليفه وصديقه. بل إن سلوك بوهيموند السادس وتأييده لحركة الغزو المغولى للشام ضايقت معظم الصليبيين بالشام وبخاصة فى عكا[٢]. وقد يكون سبب ذلك انشغال الصليبيين – وبخاصة فى عكا– بمنازعاتهم الداخلية مما لم يترك لهم مجالا للخوض فى ميدان السياسة الخارجية لاستغلال تلك الظروف السيئة التى أمسى فيها العالم الإسلامى. أو ربما استاء البنادقة فى عكا من حركة المغول لما ترتب عليها من خلل اعترى طرق التجارة بين الشرق والغرب، لاسيما وأن العلاقات التجارية بين البنادقة والمماليك فى مصر كانت طيبة، وحرص البنادقة عندئذ على ألا يحدث ما يفسدها[٣]. وقد يكون السبب أيضا استياء الصليبيين الغربيين فى الشام مما أظهره المغول من عطف واضح على

(1) Runciman: op. cit, III, p. 304.
(2) Setton: op, cit, II, p.p. 472-565.
(3) Runciman: op. cit, III, p. 307.

المسيحيين الشرقيين دون الغربيين، حتى إن المغول طلبوا من بوهيموند السادس أمير إنطاكية إعادة البطرق الأرثوذكسى الذى كان الكاثوليك قد طردوه من المدينة. وبدليل أن زوجة هولاكو بالذات كانت نسطورية، كما أن بطانته ومستشاريه ومؤيديه كانوا من النساطرة والأرمن بوجه خاص. ويبدو أن إحساس الصليبيين الغربيين بعطف المغول على المسيحيين الشرقيين هو الذى ضايقهم وأخافهم من الوقوع تحت رحمة الكنائس الشرقية، حتى إنهم أرسلوا إلى الغرب يطلبون حملة صليبية جديدة. لا ضد المسلمين وإنما ضد المغول وحلفائهم المسيحيين الشرقيين(١) وسواء كانت حقيقة موقف الصليبيين من المغول تتخلص فى هذا أو ذاك من الأسباب، فإن النتيجة الواضحة لموقف الصليبيين الغربيين من حركة الغزو المغولى لبلاد الشام هى أنهم أضاعوا من أيديهم فرصة ثمينة لم يتحها لهم الزمان مرة أخرى(٢).

أما سكان البلاد من المسيحيين الشرقيين فقد هللوا للمغول فى كل مدينة فتحوها. ومن ذلك ما نسمعه عن أنهم نظموا فى طرقات دمشق المواكب الكبيرة، يرتلون فيها التراتيل المسيحية، فضلا عن أنهم استطالوا على المسلمين بدق النواقيس وإدخال الخمر فى الجامع (الأموى)(٣). وقد طلب هيثوم الأول ملك أرمينية وبوهيموند السادس أمير إنطاكية من كتبغا- بعد أن استولى المغول على دمشق- إغلاق مساجد المدينة، وتحويل بعضها إلى كنائس، ففعل ذلك وضرب عرض الحائط باستعطافات المسلمين(٤).

ثم كان أن ازداد نفوذ كتبغا النسطورى، وبالتالى نفوذ المسيحيين الشرقيين فى الشام بعد عودة هولاكو إلى قراقورم. ذلك أن خاقان المغول العظيم- منكوخان- توفى فى أغسطس سنة ١٢٥٩، مما أثار نزاعاً بين إخوته حول اقتسام إمبراطورية المغول

(1) Brehier: L`Eglise et L`Orient, p. 230.

(2) Groisset: hist des Croisadesop, III, p. 585.

(٣) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٨هـ. استطال النصارى بدمشق على المسلمين واحضروا فرماناً من هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم، فتظاهروا بالخمر فى نهار رمضان ورشوه على ثياب المسلمين فى الطرقات وصبوه على أبواب المساجد، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم، وأهانوا من امتنع عن القيام للصليب، وصاروا يمرون به فى الشوارع إلى كنيسة مريم، ويقفون به ويخطبون فى الثناء على دينهم وقالوا جهراً: ظهر الدين الصحيح دين المسيح، فقلق المسلمون من ذلك وشكوا أمرهم لنائب هولاكو (كتبغا) فأهانهم وضرب بعضهم. وعظم قدر قسوس النصارى ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم. (السلوك، ج١ ص ٤٢٥).

(4) D'Ohsson: op, cit, III, p. 325.

الواسعة. وعندما سمع هولاكو بوفاة أخيه منكوخان امتعض وتألم كثيراً ورأى أن يسرع بالعودة إلى قراقورم تاركاً كتبغا للمحافظة على الشام[١]. وهكذا أتيحت الفرصة لكتبغا حتى يشبع ميوله المسيحية، فأراد تحالفاً مع الأمراء الصليبيين فى عكا وصور وقبرص، أشبه بالتحالف القائم بين المغول من ناحية وملك أرمينية وأمير إنطاكية من ناحية أخرى. ومن الواضح أن الجميع كانت لهم مصلحة واحدة فى ذلك التحالف، هى القضاء على العدو المشترك ممثلا فى المماليك بمصر، ولكن الصليبيين فى بلاد الشام ظلوا لا يدركون أهمية الحركة المغولية بالنسبة لهم. ولم يتوقعوا أن المماليك فى مصر لن يلبثوا بعد سنوات معدودة أن يقضوا على جميع الأمارات والمعاقل الصليبية بالشام وربما نظر أمراء الصليبيين بالشام إلى المغول على أنهم برابرة وأنهم لا يقلون خطراً على الصليبيين بالشام من المسلمين أنفسهم، ولذلك رفضوا أن يستغلوا الفرصة ويمدوا أيديهم إلى المغول [٢]. ولا أدل على جهل الصليبيين بحقيقة حركة المغول، وأهمية استغلال تلك القوة الجديدة لصالحهم، مما أتاه جوليان أمير صيدا والشقيف أرنون من حماقة كبرى ضد المغول، تذكرنا بحماقة أرناط التى أودت بالصليبيين فى حطين[٣].

ذلك أن جوليان استغل قلعة الشقيف أرنون فى القيام بغزوات للنهب والسلب فى سهل مرج عيون وحول بانياس، ثم العودة إلى صيدا ومعه الأسرى والغنائم، دون أن يدرك أن وضع تلك البلاد قد تغير، وأنها غدت من أملاك المغول، وأن الاعتداء عليها يعتبر اعتداء على المغول وسلطانهم، لا على أهلها من المسلمين. ولما حاولت فرقة صغيرة من المغول تحت قيادة ابن أخى كتبغا مطاردة أولئك الصليبيين فى إحدى إغاراتهم، لاسترداد ما سلبوه، انتهز جوليان فرصة قلة عدد المطاردين المغول وتغلب عليهم وقتلهم، الأمر الذى استثار كتبغا ودفعه إلى الانتقام[٤]. حقيقة أن كتبغا كان مسيحياً، ولكن عطفه على المسيحيين لا يجعله يرتضى منهم العدوان على هيبة

---

(١) رشيد الدين الهمدانى: جامع التواريخ، ج١ ص٣٠٨ . كذلك يذكر النويرى (نهاية الأرب، ج٢٧، ص ٣٩٠) وعاد هولاكو من حلب إلى بلاد قراقورم لطلب القانية لنفسه، فوجدها قد استقرت لأخيه قبلاى.

(2) Groisset: L`Empire de Steppes, p. 437.

(3) Setton: op, cit, II, p.p. 578.

(4) Runciman: op. cit, III, p. 303.

المغول وسلطانهم وقتل رجالهم، لاسيما وأن جنود جوليان قتلوا ابن كتبغا نفسه. وكان أن أعطى كتبغا أمير صيدا درساً قاسيا، فهاجم المدينة وقتل أهلها ودمر أسوارها وأحرق دورها، فى حين هرب جوليان مؤقتا فى سفينة جنوية عن طريق البحر(١).

على أن جوليان أمير صيدا لم يكن وحده هو الذى اعتدى على ممتلكات المغول عندئذ، وإنما قام الصليبيون فى عكا بغارة مشابهة على إقليم الجليل، اشترك فيها أمراء بيروت وجبيل، فضلا عن الداوية، ولكن التركمان فى إقليم الجليل أنزلوا بهم الهزيمة وأسروا بعض زعمائهم(٢). وهكذا استمر الصليبيون بالشام يستفزون المغول، بدلا من أن يمدوا أيديهم لهم ويحالفوهم، ويستغلوا تلك القوة الجديدة لتحقيق مصالحهم على حساب المسلمين. بل تشير بعض المصادر إلى أن الصليبيين فى صيدا أرسلوا إلى مصر يطلبون مساعدة المماليك ضد المغول، الأمر الذى مكن المماليك من طرد المغول والصليبيين جميعاً من بلاد الشام(٣).

المماليك والمغول، موقعة عين جالوت:

أما دولة سلاطين المماليك فكانت قد شهدت تطورات داخلية سريعة فى السنوات الأولى من قيامها. ذلك أن شجر الدر دبرت مؤامرة لقتل زوجها السلطان عز الدين أيبك فى ١١ أبريل سنة ١٢٥٧، وذلك عندما علمت بأنه خطب ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل. وقد غضب مماليك أيبك لمقتل أستاذهم، فأقاموا بدله فى السلطنة ابنه المنصور نور الدين على – وكان طفلا فى الخامسة من عمره – فى حين انتقموا من شجر الدر بقتلها هى الأخرى فى أوائل مايو سنة ١٢٥٧(٤). على أن المنصور نور الدين على بن أيبك لم يستمر طويلا فى السلطنة، إذ لم يلبث أن ظهر خطر المغول على البلاد الإسلامية فى الشرق الأدنى، واستولوا على بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨ – كما سبق أن رأينا – ثم أخذوا يتطرقون إلى بلاد الشام. وعندئذ أدرك المماليك أنه لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبى صغير لا يعرف تدبير المملكة. وهكذا تم عزل المنصور على، وأعلن السلطان قطز سلطاناً فى نوفمبر ١٢٥٩(٥).

---

(1) Groisset: L`Empire de Steppes, p. 437.

(2) Hayton: La Flor des Estoires, p. 174.

(3) Stevenson: op, cit, p. 333 & King: op. cit, p. 256.

(٤) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٥هـ. سعيد عاشور: العصر المماليكى، ص٢٢.

(٥) المقريزى: السلوك، ج١ ص ٤١٧.

وفى ذلك الوقت دانت للمغول بلاد الشام الإسلامية ولم يبق خارج عن حكمهم فى الجانب الشرقى إلا الديار المصرية والحجاز واليمن[١]. وكان أن أرسل هولاكو– وهو ببلاد الشام– إنذاراً إلى السلطان المظفر قطز فى مصر يطلب منه الاستسلام، ويذكره بأن المغول فتحوا كافة البلاد ولن تستطع قوة الوقوف فى وجوههم «وقد سمعتهم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب، فأى أرض تؤويكم وأى طريق تنجيكم وأى بلاد تحميكم.. فما من سيوفنا خلاص ولا من مهابتنا مناص...»[٢].

ومن الواضح أنه كان من الصعب على المماليك فى مصر أن يقفوا فى وجه هولاكو وجيوشه الضخمة. ولكن عودة هولاكو الى قراقورم عقب وفاة أخيه منكوخان، ومعه معظم الجيش المغولى، تاركا خلفه فى بلاد الشام كتبغا على رأس جيش صغير نسبياً لا يتجاوز عشرة آلاف رجل، أتاح بصيصاً من الأمل للمماليك. وربما كانت هذه القوة كافية للتغلب على المماليك لو تحالف الصليبيون مع المغول. أما وقد وقع المغول مع الصليبيين بالشام فى خصومات كما سبق أن أشرنا، فإن الأمل أصبح قوياً فى أن يتمكن المماليك من التغلب على كتبغا ورجاله. وكان أن استقر رأى المماليك على ضرورة المقاومة، فوسطوا رسل هولاكو وعلقت رءوسهم على بابا زويلة، فى الوقت الذى كانت إغارات المغول قد بلغت غزة والخليل فقتلوا الرجال وسبوا النساء والصبيان واستاقوا من الأسرى والأبقار والأغنام والمواشى شيئاً كثيراً.

وعندما اكتملت استعدادات قطز للحرب، خرجت مقدمة الجيش المماليكى فى أواخر يولية سنة ١٢٦٠ بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى قاصدة غزة، فى الوقت الذى كان كتبغا قد أقام قوة من الجيش المغولى عند غزة تحت قيادة بيدرا، فأرسل بيدرا بسرعة إلى كتبغا– الذى كان عندئذ فى بعلبك– يعلمه بوصول الجيش المماليكى ويطلب منه النجدة. وقد رد كتبغا على قائده بيدرا قائلا قف مكانك وانتظر؛ وأمره بالاحتفاظ بغزة وعدم التخلى عنها لحين وصول الإمدادات إليه. ولكن إذا كان من مصلحة بيدرا أن ينتظر، فإنه كان من صالح المماليك أن يبادروا بالهجوم، فهزموا بيدرا واحتلوا غزة وطاردوا المغول حتى نهر العاصى[٣].

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٧٨ .

(٢) المقريزى: السلوك، ج١ ص ٤٢٨ . ابن أيبك: كنز الدرر، السلوك، ج٨، ص٤٧ . رشيد الدين الهمذانى: جامع التواريخ، ج١ ص٣١٠ .

(٣) رشيد الدين الهمذانى: جامع التواريخ، ج١، ص٣١٣، المقريزى: السلوك، ج١ ص ٤٣٠ .

وكان لوصول المماليك إلى جنوب الشام واحتلالهم غزة رد فعل عند المسلمين فى كافة المدن الشامية التى خضعت للمغول ولحلفائهم المسيحيين الشرقيين. ففى دمشق لم يكد المسلمون يسمعون تلك الأنباء المشجعة حتى ثاروا على المسيحيين المحليين الذين عملوا على إذلال المسلمين فى ظل حكم المغول، فهجم المسلمون على دورهم ونهبوها، كما أخربوا كنيسة مريم وكانت كنيسة عظيمة[١]. أما الصليبيون بالشام- وبخاصة فى عكا- وهم الذين كان بوسعهم أن يرجحوا كفة على أخرى، فإن أفقهم لم يتجاوز عندئذ دائرة المنازعات المحلية، ولم يكن لهم زعيم بعيد النظر. ينظر إلى المستقبل فى ضوء الماضى، فصار كل تفكيرهم فى تلك الفترة محصوراً فى الثأر من المغول لما فعلوه بصيدا، حتى ولو أدى الأمر إلى محالفة المماليك ضد كتبغا[٢].

وفى ذلك الدور أظهر زعماء المماليك- قطز وبيبرس وزملاؤهما- مهارة سياسية وبعد نظر لم يتأتيا للصليبيين، فاتجهوا نحو مسالمة الصليبيين حتى لا يحاربوا خصمين فى وقت واحد، وأرسلوا إلى حكومة عكا يستأذنونها فى السماح لجيوشهم بعبور الأراضى الصليبية لمحاربة المغول. وكان أن وافق الصليبيون بعكا على ذلك الطلب، إذ رأوا فيه انتقاماً من المغول لما حل بصيدا من ناحية، ولتخوفهم من وحشية المغول من ناحية أخرى[٣].

وهكذا سار قطز بحذاء الساحل على رأس الجيش المماليكى، ومر بسلام فى أراضى الصليبيين بحذاء عكا. بل إن الصليبيين فى عكا خرجوا إلى السلطان قطز ومعهم التقادم والهدايا وأرادوا أن يسيروا معه نجدة، فشكرهم وأخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه[٤]. وبعد أن حصل المماليك فى الأراضى الخاضعة للصليبيين على ما لزمهم من ميرة ومؤن، اتجهوا شرقاً عبر الجليل إلى الأردن عن طريق الناصرة، لاسترداد دمشق من المغول. وعندئذ لجأ قطز إلى خدعة حربية ناجحة، فأخفى معظم جيشه بين الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت - بين

(١) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٨هـ.

(2) Setton: op, cit, II, p.p. 573.

(3) Rothelin, 637.

(٤) المقريزى: السلوك، ج١ ص ٤٣٠ .

بيسان ونابلس- وترك مقدمة الجيش فقط بقيادة بيبرس تتابع سيرها تجاه المغول. وفى تلك الأثناء كان كتبغا قد وصل وكأنه بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب[١]. فالتقى المماليك عند قرية عين جالوت فى ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ [٢]. وقد أظهر المماليك شجاعة كبيرة فى عين جالوت، حتى يقال إن السلطان قطز اضطرب عسكره فى أول المعركة، فألقى خوزته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته وإسلاماه، وحمل بنفسه على العدو حتى تم القضاء على المغول قضاء تاماً وولوا الأدبار لا يلوون على شىء[٣]. أما كتبغا فقد ظل يقاتل فى شجاعة وعناد، ورفض ما أشار به عليه بعض أصحابه من الهرب حتى سقط قتيلا[٤].

ولاشك أن موقعة عين جالوت تعتبر من المواقع الفاصلة فى التاريخ، نظراً لما ترتب عليها من نتائج خطيرة، فلو انتصر المغول فى تلك الموقعة لفعلوا بمصر وأهلها مثلما فعلوا بالعراق والشام، ولمرت البلدان الإسلامية فى غرب قارة آسيا وشمال افريقية بدور مظلم حالك طويل تحت حكم المغول، مما كان من الثابت أن يترك فى تاريخها أثراً خطيراً بعيدا المدى. ولكن انتصار المماليك فى عين جالوت لم ينقذ مصر فحسب من وحشية المغول وهمجيتهم، بل أنقذ الشام أيضا، لأن المغول غدوا بعد تلك الضربة القاصمة التى نزلت بهم فى عين جالوت لا مقام لهم فى الشام، ولا قوة تحميهم وتذود عنهم، اللهم إلا إذا جاءت موجة أخرى ضخمة من جوف آسيا لإعادة الكرة من جديد، وهو ما لم تعد تسمح به ظروف المغول الخاصة وأوضاعهم الداخلية[٥].

أما عن أهمية عين جالوت فى الموقف بين المسلمين والصليبيين ببلاد الشام فكانت لا تقل خطورة، فعلى الرغم من الحروب الأهلية والمنازعات الداخلية التى قامت بين

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، ج١، ص٣١٣ .

(٢) المقريزى: السلوك، ج١ ص ٤٣١ .

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٧٩، ابن أيبك: كنز الدرر، ج٨، ص٤٩-٥٠ ..

(٤) وقد ذكر رشيد الدين ان كتبغا وقع أسيراً فى يد قطز فقتله بعد مناقشة مثيرة معه. (جامع التواريخ، ٣١٤-٣١٦).

(٥) يقول المؤرخ رشيد الدين الهمذانى: وقد أراد هولاكوخان أن يرسل الجنود مرة ثانية إلى الشام ومصر لينتقم لقتل كتبغا، ولكن لم تكن الظروف فى ذلك الوقت تسمح بذلك بسبب وفاة منكوخان، وبسبب الخلاف الذى ظهر بينه وبين أقاربه. ولهذا عدل عن الفكرة. (جامع التواريخ، ج١، ص ٣١٧).

الصليبيين بعضهم وبعض فى السنوات الأخيرة، إلا أنهم اعتمدوا فى بقائهم عندئذ على ما كان هناك من تنافس بين الأيوبيين فى الشام والمماليك فى مصر. ولكن انتصار المماليك فى عين جالوت قلب الموقف رأساً على عقب. إذ ترتب عليه قضاء المماليك على البقايا الأيوبية فى الشام، ومن ثم عادت وحدة مصر والشام تحت حكم المماليك، وهى الوحدة التى طالما ذاق الصليبيون من أمرها الشيء الكثير. وإذا كان الصليبيون بالشام قد استطاعوا الصمود فى وجه الوحدة المصرية الشامية على عصر صلاح الدين، فإن السبب فى ذلك هو أنهم كانوا عندئذ محتفظين ببعض مظاهر القوة، وكان لهم زعماء أقوياء يفكرون فى الصالح الصليبى ويعملون على حمايته. هذا فضلا عن أن الغرب الأوروبى ظلت لديه بقية من الصبر على مواصلة إرسال مزيد من الإمدادات والحملات الصليبية لمساعدة الصليبيين فى الشام على البقاء والصمود. أما فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر، فإن المجتمع الصليبى بالشام كان قد اعتراه الانحلال وأنهكته الحروب الأهلية بين الصليبيين بعضهم وبعض– كما سبق أن أشرنا– وأعوزته الحاجة إلى زعماء من نوع جودفرى وبلدوين وعمورى. هذا فى الوقت الذى فترت الحماسة الصليبية فى غرب أوروبا، واستجد على المجتمع الأوروبى الغربى من المستحدثات ما جعل الأوروبيين يعيدون النظر فى تلك التضحيات البشرية والمادية الضخمة التى ظلوا يبذلونها طوال قرن ونصف قرن للاحتفاظ ببلاد الشام، دون أن يصلوا إلى نتيجة مشجعة.

وسرعان ما ندم الصليبيون – حيث لا ينفع الندم– على فوات فرصة التحالف مع المغول، وعلى عدم مد أيديهم بقوة لكتبغا النسطورى. وصار عليهم عندئذ– بعد عين جالوت– أن يواجهوا المماليك منفردين، ليروا تلك القوة الجديدة التى بسطت سلطانها على مصر والشام، وقد أخذت تنتزع المدن الصليبية واحدة بعد أخرى، حتى دالت دولة الصليبيين نهائياً من بلاد الشام قبل ختام القرن الثالث عشر.

وثمة ملاحظة أخيرة نختتم بها كلامنا عن موقعة عين جالوت، هى أنه على الرغم مما أجمعت عليه المصادر المعاصرة من أن شجاعة المماليك هى التى حققت لهم النصر فى تلك الموقعة، وأنهم قاتلوا المغول قتالا مستميتا[١]، إلا أنه لا ينبغى أبدا

(١) رشيد الدين الهمذانى: جامع التواريخ، ج١، ص٣١٤ .

أن نسقط من حسابنا فى دراسة التاريخ العوامل المساعدة التى كان لها نصيب فى تحقيق ذلك النصر. وفى رأينا أنه لو كان الصليبيون بالشام قد استجابوا لنداء ملك أرمينية الصغرى ووحدوا جهودهم مع المسيحيين الشرقيين لمؤازرة المغول، وأخيراً لو أن هولاكو بقى بجيشه فى بلاد الشام ولم يضطر إلى العودة إلى قراقورم فى جوف آسيا... لو كان ذلك قد حدث لكان من الصعب على المماليك أن يحققوا ما حققوه من نصر فى عين جالوت إلا بصعوبة شديدة. لاسيما أن من يدقق فى المصادر المعاصرة يدرك ما كانت تعانيه دولة المماليك الناشئة عندئذ من انقسامات ومتاعب وأخطار داخلية وخارجية. وربما ساعد المماليك على تحقيق انتصارهم الكبير المبدأ المعروف فى التاريخ، وهو أن لكل هجرة أو غزو- مهما تكن قوتها وعنفها- نهاية حتمية. ويبدو أنه بوصول المغول إلى الشام، كانت حركتهم التوسعية فى ذلك الاتجاه الجنوبى الغربى قد بلغت نهايتها، وأخذت فى الفتور، مما ساعد المماليك على صدها.

الفصل الثالث

نهاية الصليبيين بالشام

بيبرس والاستيلاء على إنطاكية:

أصبح السلطان المظفر قطز غداة موقعة عين جالوت سيد الموقف فى بلاد الشام كلها من الفرات إلى حدود مصر، إذ لم يبق أمامه من بقايا البيت الأيوبى سوى بعض الشخصيات العجاف التى لا تستطيع الصمود فى وجه قاهر المغول. وكان أن عفا عن الملك الأشرف موسى الأيوبى صاحب حمص وأمنه؛ وكذلك فعل مع الملك المنصور الثانى صاحب حماة وأقره على حماة وبعرين، كما أعطاه المعرة وكانت بيد الحلبيين(١) . أما الملك السعيد حسن أمير بانياس والصبيبة- وهو الذى تواطأ مع المغول وانضم إليهم فى محاربة المسلمين يوم عين جالوت- فلم يقبل قطز عذره وأمر بضرب عنقه فضربت فى الحال(٢) .

ولم يكد يتم انتصار المسلمين على المغول فى عين جالوت حتى انتشر الخبر فى سرعة مذهلة، فحملت رأس كتبغا إلى مصر حيث أقيمت الاحتفالات بالنصر، فى حين فر الزين الحافظى ونواب التتار من دمشق وتبعهم أصحابهم(٣) . ثم دخل قطز دمشق دخول الفاتح المظفر، فاستقبل استقبالا حافلا وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم، فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام، ولأنهم ما قصدوا إقليما إلا فتحوه ولا عسكراً إلا هزموه(٤) . على أن قطز نفسه لم يقدر له أن يهنأ طويلا بثمرة ذلك النصر، إذ قتله بيبرس البندقدارى فى طريق عودته إلى مصر فى أواخر أكتوبر سنة ١٢٦٠ ، وتقدم القاتل بعد ذلك ليتوج سلطاناً فى القاهرة وكانت البلد قد زينت للملك المظفر (قطز) فاستمرت الزينة (لسلطنة بيبرس)(٥) .

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٤٣٣، محيي الدين عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١١٧ تحقيق عبد العزيز الخويطر.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٨٠ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٤٣٢ .

(٤) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٨ هـ.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ١٠٢ ، ابن أيبك: كنز الدرر، ج٨، ص ٦١ .

وسرعان ما أثبت السلطان الجديد- الظاهر بيبرس- أنه من أقدر الحكام وأقواهم وأبعدهم نظراً، فأخذ يتغلب على المشاكل الداخلية والخارجية التى واجهته واحدة بعد أخرى ليتفرغ بعد ذلك لمحاربة الصليبيين[١] . وكانت أولى هذه المشاكل من جانب المغول الذين زحفوا من الجزيرة على شمال الشام عن طريق البيرة للانتقام لما حل بكتبغا، فاحتلوا حلب وأخرجوا أهلها إلى مقر الأنبياء (مكان) وبذلوا فيهم السيف فأفنوا غالبهم. ثم زحف المغول بعد ذلك على حماة، فتقهقر عنها صاحبها الملك المنصور الثانى محمد إلى حمص[٢] . على أن الجيش المغولى كان صغيراً- يتألف من حامية الجزيرة البالغ عددها نحو ستة آلاف- فى الوقت الذى شغل هولاكو بالحرب مع بركة خان مغول القفجاق قرب القوقاز، فلم يتمكن من الحضور بنفسه للانتقام من المماليك[٣] . وبذلك استطاع ملكا حماة وحمص- الملك المنصور الثانى والملك الأشرف موسى- أن ينزلا هزيمة بالمغول شرقى حمص وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون منهم كيف شاءوا، حتى ردوهم الى ما وراء الفرات فى ١٠ سبتمبر سنة ١٢٦٠[٥].

ولكن إذا كان بيبرس قد استراح من مشكلة المغول بفضل ولاء ملكى حماة وحمص الأيوبيين، فإن المشكلة الثانية التى واجهته جاءت من جانب الأمير سنجر الحلبى الذى لم يشأ أن يعترف بالسلطان بيبرس، وأعلن نفسه سلطاناً فى دمشق، على أن بيبرس أرسل جيشاً ضد الأمير سنجر أنزل به الهزيمة فى ١٧ يناير سنة ١٢٦١، وبذلك أصبح السلطان الظاهر بيبرس سلطاناً أوحد فى مصر والشام[٦].

وقد وضع السلطان بيبرس لنفسه برنامجاً خارجياً ضخماً كانت أبرز أركانه القضاء على الصليبيين وطردهم من الشام. وفعلا بدأ بيبرس فى نوفمبر سنة ١٢٦١ بمهاجمة إنطاكية لعقاب أميرها بوهيموند السادس على محالفته المغول، ثم كرر

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الظاهر بيبرس، ص ٣٨ وما بعدها.

(٢) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٨ هـ.

(٣) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ج١ ص ٣٣٢-٣٣٦ .

(٤) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٩ هـ الخويطر: الملك الظاهر بيبرس ، ص ٥٥ .D`Ohsson, III, p. 360

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ١٠٨ . سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ص ٣٩-٤٠ .

(٦) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٦٠ هـ. الخويطر: الملك الظاهر بيبرس، ص ٨٠ .

الهجوم عليها فى صيف سنة ١٢٦٢ . وفى تلك المرة حاصر الجيش المماليكى مدينة إنطاكية ذاتها وأوشك على الاستيلاء عليها لولا تدخل هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى الذى استنجد بالمغول. مما أدى إلى جلاء المماليك عن انطاكية فعادوا ومعهم أكثر من ثلاثمائة أسير(١).

على أن بيبرس رأى قبل أن يتوجه بكليته إلى الفرنج- على قول المقريزى(٢)- أن يدعم مركزه باتخاذ خطوتين على جانب كبير من الأهمية، الأولى داخلية والأخرى خارجية. أما الأولى فكانت إحياء الخلافة العباسية فى مصر سنة ١٢٦٢، إذ استحضر أحد أبناء البيت العباسى وأعلنه خليفة فى القاهرة. وبذلك حلت القاهرة محل بغداد فى كونها حاضرة الخلافة العباسية ومركز النشاط الدينى فى العالم الإسلامى، فى حين بدت سلطنة المماليك فى صورة القوة الحامية للخلافة المتمتعة ببيعتها، مما دعم دولة المماليك الناشئة وأكسبها أهمية فى نظر المسلمين كافة(٣). وأما الخطوة الثانية فهى أن بيبرس أدرك حاجته إلى محالفة قوة خارجية كبرى تساعده على الوقوف فى وجه مغول فارس وزعيمهم هولاكو وتشغلهم عن محالفة الصليبيين فى الشام ضده، فاتجه نحو مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية وزعيمهم بركة خان الذى اعتنق الإسلام. وفعلا دارت مراسلات بين بيبرس وبركة خان سنة ١٢٦٢-١٢٦٣ أدت إلى عقد تحالف بين الطرفين ضد العدو المشترك ممثلا فى مغول فارس، وأرسل بيبرس إلى الملك بركة خان يغريه بقتال هولاكو ويرغبه فى ذلك(٤)، وبذلك ضمن بيبرس حليفاً قوياً يحمى ظهره من ناحية مغول فارس. ثم إن دائرة التحالف بين المماليك ومغول القفجاق لم تقف عند ذلك الحد، بل سرعان ما انضم الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن باليولوجس إلى محور بيبرس- بركة، فأصبح التحالف ثلاثياً، مما مكن الظاهر بيبرس من القيام بمشاريعه الكبرى ضد الصليبيين، وهو آمن.

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٤٨٣ .

(٢) ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ، ج٢٠ ورقة ٢٣٠ (مخطوط)، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ١٠٩، ١١٨-١١٩ . وعن المراحل التي تم إحياء الخلافة العباسية في مصر، انظر: سعيد عاشور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص ١٧٩-١٨٤ . سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ص ٤٦، ٥٥ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٤٦٥.

(4) Vasiliev: op, cit, p. 604.

على أن الحرب الشاملة التى شنها بيبرس على الصليبيين سبقتها مفاوضات ومناوشات بين الطرفين بدأت منذ أواخر سنة ١٢٦١ بمحاولة اتفاق الصليبيين مع بيبرس على استرجاع أسراهم وعقد هدنة. وكان الصليبيون هم البادون بطلب الصلح سنة ١٢٦١، فوافقهم السلطان الظاهر بيبرس بشرط العودة إلى ما كان الأمر عليه إلى آخر أيام الملك الناصر (يوسف) وإطلاق الأسارى... ولكن الصليبيين لم يوافقوا على إطلاق سراح أسرى المسلمين، فأمر السلطان بنقل أسرى الفرنج من نابلس إلى دمشق واستعملهم فى العمائر(١). ثم عاد الصليبيون إلى طلب الصلح مرة أخرى فى أوائل سنة ١٢٦٣ . وفى تلك المرة عنفهم السلطان لنقضهم الصلح وعدوانهم على المسلمين، وعندئذ قال ممثل الداوية الاسبتارية نتمسك بالهدنة التى بيننا فرد عليهم السلطان لم لا كان هذا حضورنا إلى هذا المكان؟، وبعد أن عدد لهم بيبرس سوء أفعالهم، لخص لهم مطالبه فى عبارة موجزة فقال ردوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم فإنى لا أقبل غير ذلك(٢). وبعد ذلك طرد بيبرس رسل الصليبيين فجاء ذلك بمثابة إعلان الحرب عليهم.

وقد بدأت الحرب بين بيبرس والصليبيين ببعض المناوشات، فهاجم إقليم الجليل، كما أرسل الأمير علاء الدين طيبرس إلى كنيسة الناصرة فهدمها ولم يتجاسر أحد من الفرنج أن يتحرك، ثم أرسل الأمير بدر الدين الأيدمرى إلى عكا فاقتحموا أبوابها(٣). وفى ابريل سنة ١٢٦٣ اتجه بيبرس بنفسه على رأس جيش من ثلاثين ألف مقاتل للاستيلاء على عكا ولكنه لم يفلح فى محاولته، وارتد عنها ليهاجم بعض المناطق القريبة جنوبى عكا، ثم عاد إلى بيت المقدس فى أواخر ابريل(٤). وفى منتصف يونية من العام نفسه أغار فرسان عكا ومعهم الداوية والاسبتارية على إقليم عسقلان، فرد عليهم المماليك فى الشهر التالى بمهاجمة قيسارية وعثليث. وفى أوائل نوفمبر خرج الصليبيون من عكا إلى منطقة بيسان فأغاروا عليها ونهبوها وعادوا محملين بالغنائم(٥). وعندئذ أدرك بيبرس أن المناوشات والهجمات المحلية على

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٤٦٤، محيي الدين بن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١١٨ (تحقيق عبد العزيز الخويطر)..

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٤٥٨-٤٨٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٨٧ .

(٤) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٦١هـ، ٦٦٢هـ.

(5) Eracles p. 435.

الصليبيين لم تعد كافة لردعهم وأنه لابد من القيام بحرب شاملة ضدهم.

وكان أن وصل الظاهر بيبرس إلى غزة فى ٩ فبراير سنة ١٢٦٥ على رأس جيش ضخم، فاتجه إلى قيسارية واستولى عليها فى أواخر ذلك الشهر، ثم استسلمت قلعتها فى أوائل الشهر التالى. وبعد ذلك انتقل بيبرس إلى يافا التى فر معظم من فيها من الصليبيين من وجهه، فاستولى عليها ودمرها. أما قلعة عثليث التى شيدها الداوية سنة ١٢١٨ على الطريق بين حيفا وقيسارية، فقد هاجمها بيبرس بنفسه واستولى على المدينة(١). هذا وإن كانت القلعة قاومته، فتركها واتجه إلى أرسوف التى قاومت هى الأخرى مقاومة شديدة بفضل حاميتها من الاسبتارية، حتى استسلمت بعد أربعين يوماً (٢٩ ابريل) وأسر السلطان أهلها وأرسلهم إلى الكرك مصفدين(٢).

وهكذا أخذ بيبرس ينتقل من نصر إلى آخر، ويستولى على الحصون الصليبية حصناً بعد حصن. ويلاحظ أن انتصارات بيبرس على الصليبيين فى ذلك الدور قوبلت بالترحاب من حلفائه– خصوم الصليبيين– فى كل مكان، مثل ما تفرد ابن الإمبراطور فردريك الثانى ووريثه فى صقلية، والذى حرص بيبرس على أن يبلغه بشرط سقوط أرسوف فى يده. هذا عدا الإمبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس وبركة خان زعيم مغول القفجان، وجمهورية جنوا، وجميعهم ربطتهم بالسلطان بيبرس رابطة الكراهية للصليبيين(٣).

وبعد استيلاء بيبرس على أرسوف جاء دور مدينة عكا نفسها، ولكن هيو الثالث الوصى على قبرص كان قد قام بالوصاية على عكا أيضاً، فحضر من قبرص فى ٢٣ ابريل سنة ١٢٦٥ على رأس أسطول قوى للدفاع عن عكا، مما جعل بيبرس ينصرف عنها عائداً إلى مصر. وقد شاء حسن حظ بيبرس فى تلك المرحلة أن يموت هولاكو فى فبراير سنة ١٢٦٥، مما أضعف مغول فارس وأراح المسلمين فى الشرق الأدنى من خصم عنيد(٤). ثم عاد بيبرس فى العام التالى – مايو ١٢٦٦– لاستئناف الحرب ضد

---

(١) محيي الدين بن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص ٢٣٤ (تحقيق عبد العزيز الخويطر).

(٢) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٦٣ هـ.

(3) Groisset: hist des Croisadesop, III, p. 625.

(٤) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٧ ص ٢٩٣، Runciman: op. cit. III, p. 319-320.

الصليبيين، فبدأ بمهاجمة عكا فى أول يونية، ولما وجدها قوية التحصين انتقل إلى قلعة القرين– بين عكا وصور– وكانت تابعة لفرسان التيتون. فوجدها هى الأخرى صعبة المنال، فقصد صفد التى كانت منذ سنة ١٢٤٠ فى حماية الداوية. وقد أخذ بيبرس يهاجم صفد منذ أول يولية ١٢٦٦، ولكنها أظهرت مقاومة عنيفة، حتى اضطر الداوية الى التسليم فى أواخر الشهر نفسه[١]– ثم أعقب بيبرس الاستيلاء على صفد بفتح هونيين وتبنين ومدين الرملة[٢].

أما عن المسيحيين المحليين فى بلاد الشام– وبخاصة السريان– فكانوا يأملون عندئذ أن يسترضوا الظاهر بيبرس، ولكن السلطان لم يغفر لهم موقفهم من المسلمين أيام هولاكو وكتبغا، فهاجم قرية قارا بين حمص ودمشق– وكانت غالبية أهلها من السريان– فقتل كبارهم وسبى النساء والأولاد[٤]. وفى السنة نفسها– سنة ١٢٦٦– أراد بيبرس أن يمهد لعقاب مملكة أرمينية الصغرى وإمارة انطاكية– طرابلس، لتحالفهما مع المغول ضد المسلمين، فأرسل فرقة من جيشه تحت قيادة الأمير قلاون استولت على القليعات وحلباء وعرقة، وهى المراكز الثلاثة التى كانت بمثابة شبه مثلث يحمى طرابلس من جهة الشمال الشرقى، فجاء الاستيلاء عليها مهدداً لطرابلس، وأغارت العساكر على الفرنج من كل جهة[٥].

أما هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى، فإن زيارته لخان المغول وتحالفه مع هولاكو وتحريضه لهم على غزو الشام سنة ١٢٥٩–١٢٦٠، كانت أشياء لا يمكن أن يغفرها له المسلمون. وكان انشغال أبغا– ابن هولاكو وخليفته فى حكم مغول فارس– بالحرب ضد المغول القفجان المسلمين من ناحية ومغول التركستان من ناحية أخرى[٦]، قد أتاح فرصة لبيبرس لكى ينفرد بهيثوم ملك أرمينية الذى اتبع سياسة جديدة ضد المماليك فى مصر، هى فرض حصار اقتصادى عليهم، ومنع تصدير الأخشاب والحديد إلى مصر من آسيا الصغرى[٧]

(1) King: op. cit, p. 260.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ١٣٨ . أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٦٤ هـ.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٥٥٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٥٥٣.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٥٤٥، محيي الدين بن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٥١–٢٥٢ (تحقيق الخويطر).
Stevenson: op, cit, p. 339.

(٦) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، مجلد٢ ج٢، ١٣–١٤ .

(7) Mas Latrie: Hist, de Chypre I p. 412.

وهكذا زحف الجيش المماليكى فى صيف سنة ١٢٦٦ تحت قيادة الأمير قلاون والملك المنصور الثانى الأيوبى صاحب حماة لمهاجمة أرمينية الصغرى، واستطاع المماليك أن ينزلوا هزيمة كبرى بالأرمن وحلفائهم فى ٢٤ أغسطس سنة ١٢٦٦ قرب دربساك(١). وقتل فى المعركة أحد أبناء الملك هيثوم وأسر الابن الثانى، فى حين كان هيثوم نفسه متغيباً عن بلاده فى تبريز يستجدى مساعدة المغول(٢). ولم يلبث الأمير قلاون أن أغار على المدن الأرمينية الرئيسة الثلاث فى قيليقية- وهى المصيصة وأذنة وطرسوس- فضلا عن ميناء إياس. أما الملك المنصور الأيوبى فقد اتجه إلى سيس عاصمة أرمينية الصغرى واستولى عليها فجعل عاليها سافلها وأشعل النار فيها فدمرتها، وأتت على كنيستها ومقابر ملوك أرمينية السابقين(٣). وبعد أن قضى المماليك فى أرمينية عشرين يوماً عادوا إلى الشام ومعهم أربعون ألف أسير، ومن الغنائم مالا يعد ولا يحصى حتى أبيع الرأس البقر بدرهمين ولم يوجد من يشتريه(٤). وأخيراً عاد هيثوم إلى مملكته ومعه بعض المغول، ولكن بعد أن وقعت الواقعة وانتهت غزوة المماليك لبلاده، فحاول أن يسترد ابنه الأسير من بيبرس، ولم يستطع ذلك إلا بعد أن تخلى للمماليك عن عدة مراكز مهمة مثل دربساك التى تتحكم فى طريق المواصلات بين أرمينية وانطاكية، ومرزبان ورعبان وشيح الحديد، وكلها كانت فى إقليم مرعش وتتحكم فى الطريق بين الجزيرة حيث المغول حلفاء هيثوم، وأرمينية الصغرى(٥). والواقع أن مملكة أرمينية الصغرى لم تفق مطلقاً من تلك الكارثة، وصار دورها سلبياً بعد ذلك فى الأحداث الجارية على مسرح الشرق الأدنى. أما الملك هيثوم، فإن الصدمة جعلته يترك العرش سنة ١٢٦٩ لابنه ليو الثالث(٦).

وفى الوقت الذى أخذت قوات الظاهر بيبرس تهاجم منطقة طبرية وعكا والمدن الصليبية القريبة منها- كما فعل فى مايو سنة ١٢٦٧(٧)- لم يحاول الجنوية والبنادقة

(١) ديربساك أو دربساك قلعة حصينة قرب أنطاكية.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ١٤٠، أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٦٤ هـ.

(٣) مفضل بن أبي الفضائل: كتاب النهج السديد، ص ١٥٢,

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٥٥٢,

(5) Tournebize: Hist d`Armenie p.p. 213-214 & العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٦٦ هـ، محيي الدين بن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٢٨ (تحقيق عبد العزيز الخويطر).

(6) Runciman: op. cit, III, p. 323.

(٧) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٥٥٣-٥٥٥ (تحقيق محمد مصطفي زيادة).

تصفية الخلافات القائمة بينهم داخل عكا، بل على العكس أتى أسطول جنوى فى أغسطس سنة ١٢٦٧ لمهاجمة عكا، فتصدت له السفن البندقية، ودارت معركة بحرية بين الطرفين، انسحب بعدها الأسطول الجنوى الى صور[١]. وبذلك وجد بيبرس فى انحلال الصليبيين بالشام خير مشجع له على مهاجمتهم، فاستولى على يافا فى مارس سنة ١٢٦٨، وعندئذ هدم قلعتها وفر أهلها فى المراكب إلى عكا، كما استولى على الشقيف أرنون من الداوية فى منتصف الشهر التالى[٢].

وأخيراً توج بيبرس أعماله الحربية ضد الصليبيين بالاستيلاء على انطاكية، فوصل إليها قرب منتصف مايو سنة ١٢٦٨. وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق، إحداها اتجهت إلى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين انطاكية والبحر. والثانية سدت الممرات بين قيليقية والشام لمنع وصول أية مساعدة إلى انطاكية من أرمينية الصغرى، فى حين أخذت القوة الرئيسة تحت قيادة بيبرس نفسه تهاجم المدينة[٣]. ولم تلبث أن سقطت انطاكية فدخلها المماليك وغنموا منها غنائم طائلة[٤]. وقد بلغ من كثرة الغنائم أن قسمت النقود بالطاسات... كما بلغ من كثرة الأسرى أنه لم يبق غلام إلا وله غلام.. وأبيع الصغير باثنى عشر درهماً والجارية بخمسة دراهم...[٥]. وقدرت بعض المراجع الصليبية عدد أسرى انطاكية بمائة ألف أسير[٦].

ولا تخفى علينا أهمية سقوط انطاكية بالذات فى قبضة المسلمين سنة ١٢٦٨، إذ كانت ثانى إمارة- بعد الرها- أسسها الصليبيون فى الشرق سنة ١٠٩٧، فجاء استيلاء المسلمين عليها دليلا جديداً على انهيار ذلك البناء الضخم الذى أقامه الصليبيون فى الشام فى أواخر القرن الحادى عشر. ثم إنه لم يكن فى استطاعة الداوية أن يحتفظوا بقلاعهم فى إقليم انطاكية، بعد سقوط مركز الإمارة وعاصمتها، فاستسلمت قلعة بغراس دون مقاومة وهرب من كان فيها من الداوية[٧]! وبذلك

(1) Eracles p. 455.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ١٤٢، العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٦٦ هـ.

(3) Runciman: op. cit, III, p. 324-325.

(٤) النويري: نهاية الأرب، ج٢٨ ورقة ٣٠٨ (مخطوط). مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ١٧١-١٧٢.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٥٦٨.

(٦) محيي الدين بن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص ٣٠٨ (تحقيق عبد العزيز الخويطر)، Eracles p. 455-457.

(٧) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٦٦ هـ.

انقطعت صلة المسيحيين فى طرابلس وعكا بأرمينية الصغرى، وتبددت فكرة التحالف بين انطاكية وأرمينية والمغول(١).

الصليبيون في النزع الأخير:

وهكذا لم يبق للصليبيين فى بلاد الشام أمل سوى فى مملكة قبرص الصليبية، بعد أن فشلت حملة لويس التاسع فى تدعيم مركز الصليبيين بالشرق من ناحية ، كما فشلت حملة المغول فى بلاد الشام من ناحية ثانية، وانهارت قوة مملكة أرمينية الصغرى من جهة ثالثة. وكان هيو الثانى ملك قبرص قد مات سنة ١٢٦٧ ، فخلفه الوصى باسم هيو الثالث، الذى لم يلبث أن توج أيضاً فى صور ملكاً على مملكة الصليبيين بالشام سنة ١٢٦٩ ، وبذلك تم توحيد المملكتين الصليبيتين بالشرق تحت تاج واحد من جديد(٢). وكان هيو الثالث رجلا نشيطاً صالحاً للنهوض بالمهمة العسيرة التى ألقيت على عاتقه بوصفه ملك الدولتين الصليبيتين بالشرق، فى تلك الظروف الصعبة التى أخذ المماليك ينزلون بالصليبيين جميعاً ضربات سريعة قاصمة(٣).

على أن هيو الثالث لم ينتظر تتويجه ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية ليتخذ إجراء عاجلا وسريعا لحماية الصليبيين بالشام، وإنما لجأ فى صيف سنة ١٢٦٨ إلى عقد هدنة مع السلطان بيبرس، وكذلك فعل بوهيموند السادس صاحب طرابلس. وهنا نلاحظ أن سياسة بيبرس تجاه الصليبيين امتازت بظاهرتين واضحتين: الأولى حرصه على عدم مصالحة الصليبيين جميعا فى وقت واحد، وإنما أخذ يهادن البعض فى الوقت الذى يهاجم البعض الآخر(٤). والظاهرة الثانية أنه كان لا يحترم شروط الصلح مع الصليبيين طويلا، فيعقد صلحا أمده عشر سنوات مثلا، ولكنه لا يلبث أن ينقضه بعد سنة واحدة أو بضعة أشهر إذا وجد أن مصالحه تتطلب ذلك(٥). ومهما يكن

---

(1) Groisset: op, cit, III, p.p. 324-325.

(٢) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص٤٧ .

(3) Stubbs: op, cit, p. 204.

(٤) محيي الدين عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٣٢ (تحقيق عبد العزيز الخويطر) Stevenson: op, cit, p. 342

(٥) ومن أمثلة ذلك الصلح الذي عقده بيبرس مع الاسبتارية وبيروت وصور سنة ١٢٦٧ . (القلقشندي: صبح الأعشي، ج١٤، ص ٣١-٣٩).

من أمر، فإن هيو الثالث عمل على تقوية الجبهة الصليبية بالشام، فاستمال فيليب دى مونتفورات عن طريق المصاهرة، إذ زوج أخته من حنا دى مونتفورت بن فيليب ليقوى جبهته ضد المماليك، ويجعل من عكا وصور قوة واحدة أمام بيبرس. وفى الوقت نفسه عمل على إقرار الصلح بين فيليب دى مونتفورت والبنادقة(١). على أن فيليب دى مونتفورت لم يلبث أن قتل فى أغسطس سنة ١٢٧٠ - قتله اثنان من الباطنية - فجاء مقتله خسارة كبرى للصليبيين بالشام، لأنه كان الرجل القوى الذى يستطيع أن يعتمد عليه الصليبيون وقت الشدة(٢).

وأخيراً أدرك هيو الثالث أنه لا يمكن إنقاذ الشام إلا عن طريق أحد حلين: إما مجئ حملة صليبية جديدة من الغرب، وإما قيام المغول بمحاولة أخرى لغزو الشام ومصر. أما عن وصول مساعدة صليبية من الغرب، فقد وصلت إلى عكا فى أواخر أكتوبر سنة ١٢٦٩ قوة صغيرة من قبل ملك أرغونة بقيادة ولديه غير الشرعيين. ولكن تلك القوة لن تستطيع أن تفعل شيئاً ذا أهمية فى مساعدة الصليبيين بسبب صغرها(٣). ولم تلبث أن خرجت من فرنسا الحملة الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع فى صيف سنة ١٢٧٠، ولكن هذه الحملة اتجهت ضد الحفصيين فى تونس وانتهى أمرها إلى الفشل. وكان بيبرس يتتبع أخبار تلك الحملة، ويخشى أن يكرر لويس التاسع قصة المنصورة، ولذلك اهتم بالثغور والشوانى(٤). فلما تأكد السلطان من فشل لويس التاسع ووفاته، عاد بيبرس الى الشام فى الشتاء سنة ١٢٧١ ليهاجم إمارة طرابلس ويستولى على صافيتا من الداوية، ثم على حصن الأكراد من الاسبتارية فى ابريل سنة ١٢٧١(٥). ولم يبق للاسبتارية بعد ذلك فى تلك المنطقة سوى حصون قليلة، منها حصن عكار الذى استولى عليه بيبرس أيضاً فى مايو سنة ١٢٧١(٦). ولم يفت بيبرس عندئذ أن يرسل خطاباً شديد اللهجة لبوهيموند يحذره وينذره ويتوعده لتحالفه مع

(1) Runciman: op. cit, III, p. 326.

(2) Stevenson: op, cit, p. 342.

(3) Eracles p. 458.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٥٩٠ .

(5) King: The Kinghts Hospitallers. p. 270 &

بيبرس الداودار: زبدة الفكرة، ج٨ ص ١٥٢ (تحقيق هارمان). العيني: عقد الجمان، حوادث، ج٢٠ مجلد٢ ورقة ٥٦٣ (مخطوط).

(٦) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٦٩ هـ.

أبغا[١] . ويبدو أنه كان فى نية بيبرس عندئذ أن يفعل بطرابلس ما فعل بأنطاكية، لولا وصول حملة صليبية إنجليزية بقيادة الأمير إدوارد إلى الشام، مما جعل بيبرس يعقد صلحاً لمدة عشر سنوات مع بوهيموند السادس أمير طرابلس[٢] .

وفى طريق عودة بيبرس من طرابلس استولى على حصن القرين- إلى الشمال الشرقى من عكا- فى يونية سنة ١٢٧١ ، وكان من الحصون المنيعة التى احتفظ بها الفرسان التيوتون حتى ذلك الوقت[٣] . وكان ذلك فى الأثناء التى أخذ بيبرس يراقب جهود الملك هيو الثالث فى تدعيم مركز الصليبيين بالشام بعين القلق. وزاد استياء بيبرس عندما قبض القبارصة على رسله وهم فى رحلتهم إلى سلاجقة الروم عن طريق قبرص، وعندئذ استدعى بيبرس بعض زعماء الصليبيين بالشام وعاتبهم عتاباً شديداً لغدر صاحب قبرص[٤] . ولم يكتف بيبرس بالتهديد والوعيد وإنما أرسل أسطولا سنة ١٢٧٠ لغزو قبرص، وإن كانت ريح عاصفة قد هبت على السفن الإسلامية عند شاطئ الجزيرة فحطمت عدداً كبيراً منها، وعاد الباقون دون أن يحققوا غرضهم[٥] . وقد شمت هيو الثالث وأرسل إلى بيبرس يخبره بانكسار سفنه وأسر رجالها، ولكن السلطان حمد الله وقال بأنه منذ أن تولى الملك لم تخذل له راية وكنت أخاف إصابة عين، فبهذا ولا بغيره !! وكان بيبرس قد استولى عندئذ على حصن القرين كما سبق، فرد على هيو الثالث يتهكم عليه ويقول: ليست العبرة بالاستيلاء على حديد وخشب الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب... وما النصر بالهواء مليح، وإنما النصر بالسيف هو المليح...![٦] .

وجدير بالذكر أن جهود بيبرس فى تقليم أظافر الصليبيين بالشام لم تقتصر على انتزاع المدن والحصون من الصليبيين، وإنما تعدت ذلك إلى القضاء على نفوذ

(١) المقريزي: السلوك، جـ١ ص ٥٩٢-٥٩٣ .

(٢) المصدر السابق.

(3) Eracles p. 460 &

المقريزي: السلوك، جـ١ ص ٥٩٣، مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ١٩٨-١٩٩ .

(٤) المقريزي: السلوك، جـ١ ص ٤٨٤-٤٨٦ .

(٥) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٤٧-٤٨ .

(٦) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٦٩ هـ .

الباطنية، وهى الطائفة التى سبق أن رأينا خطورة الدور الذى قامت به فى الحرب الصليبية، والتى عجز صلاح الدين نفسه عن إخضاعها والقضاء عليها. وقد ظل الحشيشية ببلاد الشام يدفعون الأموال والضرائب الاسبتارية فى حصن الأكراد حتى هادن الظاهر الاسبتارية سنة ١٢٦٧، وعندئذ اشترط عليهم أن يمتنعوا عن أخذ الإتاوات من الحشيشية وأصحاب حماة وشيزر وفامية(١) . وهكذا صار الباطنية يدفعون الأموال للسلطان الظاهر بيبرس بدلا من دفعها للصليبيين، فيذكر المقريزى أن رسل الإسماعيلية وصلوا إلى مصر سنة ٦٦٥هـ وقالوا هذا المال الذى كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت مال المسلمين لينفق فى المجاهدين(٢) . على أن الظاهر بيبرس لم يقنع بذلك وإنما أخذ يسعى للقضاء على نفوذ الباطنية فى بلاد الشام كلية، فعزل مقدمهم نجم الدين الشعرانى، ثم أخذ يستولى على معاقلهم جميعاً، وأقطعهم بدلا منها بعض أراض فى مصر(٣) . وكان هدفه من ذلك أن يشتت شملهم ويخرجهم من حصونهم المانعة فى بلاد الشام.

أما الحملة الإنجليزية التى كانت بقيادة الأمير إدوارد– وهو إدوارد الأول ملك انجلترا فيما بعد– فقد وصلت إلى عكا فى مايو سنة ١٢٧١ وكان قوامها ألف رجل. وقد استاء الأمير إدوارد عندما وجد أن التجار المسيحيين– لاسيما البنادقة– يمدون المماليك بالأخشاب والحديد اللازم لصنع السفن وآلات الحصار والأسلحة، بل أيضا بالرقيق الأبيض الذين اعتمد عليهم المماليك فى نظامهم وجيشهم(٤) . ولكن صيحات الأمير إدوارد واحتجاجاته لم تفلح فى ثنى البنادقة أو الجنوية عن مواصلة تجارتهم مع الإسكندرية، ولما كانت القوة التى أحضرها الأمير إدوارد معه صغيرة لا تكفى لمحاربة المسلمين فإنه فكر فى محالفة المغول، وأرسل بمجرد وصوله إلى الشام سفارة إلى أبغا خان مغول فارس لهذا الغرض(٥) . وقد جاء رد أبغا فى أوائل سبتمبر سنة

(1) King: op. cit, p. 262 and Stevenson: op, cit, p. 340 &
ابن أيبك: كنز الدرر، ج٨، ص ١٤٤ وما بعدها (تحقيق هارمان). محيي الدين بن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٨٤–٤١٤ (تحقيق عبد العزيز الخويطر).

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٥٥٧ .

(٣) سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ص ٨٠–٨٣ .

(4) Heyd: op, cit, III, p.p. 560.

(5) Eracles p. 461.

١٢٧١ يتضمن وعداً بالحضور للاشتراك مع الصليبيين فى محاربة المماليك. وفى انتظار المساعدة المغولية المزعومة أخذ إدوارد ينظم أمور الدفاع عن عكا، حيث اجتمع بالملك هيو الثالث، وتم الاتفاق بينهما على أن استرداد البلاد المقدسة لا يكون إلا بالاستيلاء على مصر، وأن تأمين الصليبيين بالشام يتطلب كذلك الاستيلاء على القسطنطينية، وذلك بعد فتح مصر والشام[١].

ومهما يكن من أمر، فإن أحلام اليقظة سرعان ما تبخرت وذهبت مع الريح، إذ كان أبغا مشغولا بمحاربة أقربائه مغول التركستان فاكتفى بإرسال بعض الجموع المغولية فى أواخر أكتوبر سنة ١٢٧١ إلى شمال الشام عن طريق عينتاب، وهؤلاء قاموا بإغارات لمجرد النهب والسلب فى حوض نهر العاصى حول حارم وفامية، ثم عادوا من حيث أتوا قبل أن يصل إليهم بيبرس[٢]. وهكذا لم يجد هيو الثالث والأمير إدوارد بداً من عقد هدنة مع الظاهر بيبرس مدتها عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام. وفى ١٦ يونية سنة ١٢٧٢ تسلل أحد الحشيشية إلى مقر الأمير إدوارد وطعنه بخنجر مسموم[٣]. ولكن الطعنة لم تكن قاتلة، فمرض إدوارد بضعة أشهر، ثم غادر عكا فور شفائه فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٢٧٢ عائداً إلى الغرب[٤].

أما هيو الثالث فقد ظل فى بلاد الشام يعمل جاهداً لإصلاح حال الفرنجة وإزالة ما بين الجماعات والهيئات الصليبية من تنافس وخلافات، ولكن بذور الانحلال كانت أقوى من مجرد أسباب سطحية يمكن إزالتها فى سهولة. وأخيراً أعيت الحيلة هيو الثالث وأدرك أن الصليبيين لن يستقيم حالهم ففض يده من بلاد الشام، وانسحب منها عائداً نهائياً إلى قبرص سنة ١٢٧٦ دون أن يعين نائباً عنه يرعى شئون مملكته ببلاد الشام. وكل ما فعله هيو الثالث هو أنه أرسل من قبرص إلى البابا جريجورى العاشر يشرح له سوء أحوال الصليبيين بالشام وتعذر إصلاح أوضاعهم[٥].

---

(1) Stubbs: op, cit, p. 205-206.

(2) D`Ohsson: op, cit, III, p. 460 and Eracles p. 461.

(٣) محيي الدين بن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٤٠١ (تحقيق عبد العزيز الخويطر). وقد أطلق علي الأمير إدوارد اسم الملك ورد.

(4) Stevenson: op, cit, p. 345 and Runciman: op. cit, III, p. 338.

(5) Groisset: op, cit, Tome III, p.p. 669-670.

على أن هيو الثالث لم يلبث أن ندم على التضحية بملكه، لاسيما بعد أن طالب شارل الأنجوى بحقه فى مملكة بيت المقدس الصليبية بوصفه وريثاً للإمبراطور فردريك الثانى فى صقلية(١). ولم يلبث شارل الأنجوى أن اتخذ لنفسه لقب ملك بيت المقدس، وأرسل نائبا عنه إلى عكا على رأس أسطول صغير فى يونية سنة ١٢٧٧ . وكان أن حاول هيو الثالث استرداد مملكته الصليبية من جديد، فقصد صور على رأس قوة كبيرة سنة ١٢٧٩، ولكن الداوية وقفوا فى سبيله، فعاد إلى قبرص(٢). ثم أعاد هيو الثالث الكرة وعاد إلى بلاد الشام سنة ١٢٨٣، ولكنه توفى فى صور سنة ١٢٨٤، وبذلك خسر الصليبيون فى الشرق رجلا آخر، والرجال قليل(٣).

ولم يكن الصليبيون فى إمارة طرابلس عندئذ أحسن حالا منهم فى عكا، إذ توفى بوهيموند السادس فى مايو سنة ١٢٧٥، تاركاً ابناً قاصراً- هو بوهيموند السابع- ليخلفه فى طرابلس. وسرعان ما شهدت إمارة طرابلس حرباً أهلية بسبب الوصاية على الأمير الصغير، لم تخمد جذوتها الا باستيلاء المماليك على طرابلس بعد بضع سنوات(٤). وفى تلك الحروب وقف أسقف أنطرطوس ضد أسقف طرابلس. ووقف الداوية وجاى الثانى أمير جبيل ضد بوهيموند السابع أمير طرابلس وأمه سيبل الأرمينية وأسقف أنطرطوس(٥).

ولا يهمنا من أمر هذه الحرب الأهلية بين الصليبيين بعضهم وبعض- والتى شارك فيها الجنوية وأمير صور- سوى أنها كانت تجرى فى الوقت الذى أحس المماليك بأن دور طرابلس قد أتى، وأن هذه الإمارة الصليبية قد حان قطافها. وهكذا انقسم الصليبيون فى الشام على بعضهم وأخذوا يحاربون بعضهم بعضا، والسلطان الظاهر بيبرس على مقربة منهم يسمع ويرى...

(1) Cam. Med Hist. vol. 6, p. 194
(2) King: op. cit, p. 281.
(3) Cam. Med Hist. vol. 6, p. 194.
(4) King: op. cit, p. 261.
(5) Runciman: op. cit, III, p. 343.

المغول والصليبيون:

وفى تلك الأثناء لم ينقطع الاتصال بين الغرب الأوروبى والصليبيين فى الشام من ناحية والمغول من ناحية أخرى، وذلك بقصد محاصرة المماليك والاجتماع سوياً على حرب المسلمين. من ذلك ما يرويه المقريزى فى حوادث سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩م) من أن جماعة من الفرنج خرجوا من الغرب وبعثوا إلى أبغا ابن هولاكو بأنهم واصلون لمواعدته من جهة سيس فى سفن كثيرة(١). كذلك يروى مفضل بن أبى الفضائل أن صاحب طرابلس توجه سنة ٦٦٩هـ (١٢٧١م)- بعد عقد الهدنة مع بيبرس - إلى أبغا يستصرخه على المسلمين ويذكر له ما فتحه بيبرس من القلاع والحصون، وعندئذ صاح فيه أبغا أنت ما جئت إلا لتخوفنى منه وتنفرنى عنه وتملأ قلوب عسكرى رعباً(٢). ويفهم من أقوال المؤرخين المعاصرين أن ثمة اتصالات كانت تحدث أحياناً بين الصليبيين بالشام والمغول، بقصد شن هجمات محددة على المسلمين. ومن ذلك ما يرويه محيى الدين بن عبد الظاهر والمقريزى من أن الفرنج أغاروا سنة ٦٧٠هـ (١٢٧١م) على قاقون بمواعدة التتار؛ أو باتفاق من التتار(٣).

وقد سبق أن رأينا كيف كان إدوارد الإنجليزى- الذى أتى إلى الشام على رأس حملته الصليبية الصغيرة سنة ١٢٧١- من أشد المتحمسين لسياسة محالفة المغول والاستعانة بهم فى القضاء على خطر المماليك فى الشام ومصر. وقد ظل الأمير إدوارد- بعد أن عاد إلى انجلترا وأصبح الملك إدوارد الأول- محافظاً على تلك السياسة. فاستمر يراسل أبغا خان مغول فارس فى ذلك الشأن. ولم يكن أبغا أقل حماسة لمحاربة المماليك، وكل ما كان يرجوه الخان المغولى هو مزيد من التجاوب من جانب الصليبيين لضمان الانتصار على العدو المشترك. لذلك أرسل أبغا إلى البابوية وإلى إدوارد الأول رسالة بهذا المعنى فى أواخر سنة ١٢٧٣، ولكن ملك انجلترا رد عليه فى أوائل العام التالى معتذرا عن عدم تحديد موعد لذهابه إلى الشام على رأس حملة

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٥٨٤,

(٢) مفضل بن أبي الفضائل، كتاب النهج السديد، ١٩٢-,١٩٥

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٦٠٠ . محيي الدين بن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٩٦ (تحقيق عبد العزيز الخويطر).

صليبية للاشتراك معه فى محاربة المماليك[١].

وعندما عقد مجمع ليون فى مايو – يولية سنة١٢٧٤، حضره مبعوثان من قبل أبغا عرضا على الغرب من جديد مشروع التحالف المغولى الصليبى. وبعد أن تم تعميد المبعوثين المغوليين على المذهب الكاثوليكى، انصرفا دون أن يظفر بوعد عن حملة صليبية جديدة تخرج من الغرب لمحاربة المسلمين. والواقع أن الحماسة الصليبية كانت قد فترت عندئذ فى الغرب الأوروبى، وربما كان لويس التاسع آخر ملك كبير من ملوك غرب أوربا يقوم بمشروع حملة صليبية. هذا فضلا عن أن شارل الأنجوى وجه سياسته نحو مشروع غزو القسطنطينية ومحاولة اكتساب صداقة السلطان بيبرس بقدر الإمكان. وكان ذلك فى الوقت الذى دأب أبغا على إرسال السفارات فى نوفمبر سنة ١٢٧٦ وفى مارس سنة ١٢٧٧ إلى البابوية وملك انجلترا لاستعجال مشروع الحملة الصليبية التى ستساعد المغول على محاربة المماليك[٢].

وفى الوقت الذى وقف الغرب الأوروبى موقفاً سلبياً من عروض أبغا، استمر المماليك فى التوسع وبناء قوتهم المهولة فى الشرق الأدنى. من ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس فى مارس سنة ١٢٧٥ من غزو مملكة أرمينية الصغرى فأغار على المصيصة وسيس وأذنة وطرسوس وإياس وبعث فى البحر عسكراً فأخذ مراكب وقتل من كان فيها، وانبثت الغارات فى الجبال فقتلوا وأسروا وغنموا...، كل ذلك دون أن يجرؤ ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى على الوقوف فى وجهه[٣].

ثم إن الظاهر بيبرس أراد أن ينتقم من المغول وغزوهم لبلاد الشام، فأغار على بلاد سلاجقة الروم التى كانت مشمولة بالحماية المغولية، واستطاع أن يمزق الجيش المغولى فى الأناضول عند أبلستين فى ١٨ أبريل سنة ١٢٧٨، دون أن يستطيع كيخسرو الثالث– الذى كان صغيراً– أو وزيره معين الدين سليمان البرواناه، وقف

---

(1) D`Ohsson: op, cit, III, p. 543.

(2) Groisset: op, cit, Tome III, p.p. 693.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٦١٧–٦١٨ ، ابن أيبك: كنز الدرر، ج٨ ص ٧٧٧(تحقيق هارمان).

ذلك الخطر[١]. وبعد ذلك احتل بيبرس قيصرية فى ٢٣ ابريل حيث خطب له على منابرها، وجلس على تخت آل سلجوق وبذلك أعلن نفسه وريث سلاطين السلاجقة فى حكم الأناضول، أما الوزير سليمان البرواناه، فلم يستطع سوى أن يعلن خضوعه وولاءه لسلطان المماليك، مما جعل بيبرس يكتفى بذلك ويعود إلى الشام[٢].

وعندما سمع أبغا بما فعله بيبرس فى الأناضول، أسرع إلى ابلستين سنة ١٢٧٧ حيث شاهد عسكره صرعى ولم يشاهد أحداً من عسكر الروم مقتولا فاستشاط غضباً وأمر بنهب الروم وقتل من مر به من المسلمين، كما قتل البرواناه[٣]. ويروى رشيد الدين أن أبغا بكى عندما شاهد قتلى المغول مكدسين وحزن على رجاله حزناً شديداً[٤]. على أن الملاحظ فى تلك الغزوة هو أن أبغا حرص على اعتبار المسيحيين حلفاء طبيعيين له ولدولته، فى حين أنه تطرف فى معاملة المسلمين فقتل من بلاد الروم من المسلمين.. ويقال إنه قتل من الفقهاء والقضاء والرعايا ما يزيد على مائتى ألف نفس، ولم يقتل أحداً من النصارى...[٥]. وهكذا أدت غزوة بيبرس للأناضول إلى تقوية الرابطة بين أبغا والمسيحيين. وكان ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى أول من رغب فى مد يده إلى أبغا من القوى المسيحية فى الشرق بعد ما صادفته بلاده من تدمير على يد الظاهر بيبرس. ولم يلبث أن تم عقد تحالف قوى بين أبغا خان مغول فارس من ناحية وليو الثالث ملك أرمينية الصغرى من ناحية أخرى[٦]، واتفق الزعيمان على القيام بحملة كبرى على الشام لطرد المماليك واستخلاص بيت المقدس للمسيحيين، كما اتفقا على إرسال الرسل إلى البابا وملوك الغرب الأوروبى لمساعدتهما

---

(١) مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص ٢٥٩ وما بعدها، النويري: نهاية الأرب، ج٢٧، ص ٣٩٦ وما بعدها (تحقيق المؤلف).

(2) D`Ohsson: op, cit, III, p. 481-488 &

المقريزي: السلوك، ج١ ص ٦٣١ . الخويطر: الملك الظاهر بيبرس، ص ٧٤-٧٦ .

(٣) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٧٥ هـ، النويري: نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ٣٩٨ . والبرواناه لقب وهو حاجب بالعجمي.

(٤) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، المجلد الثاني ج٢، ٦٢-٦٣ .

(٥) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٦٣٣ . أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ١٦٩-١٧٤ .

(6)D`Ohsson: op, cit, III, p. 496-467.

فى ذلك المشروع عن طريق إنفاذ حملة صليبية كبرى إلى الشام[1] . ثم إن أبغا لم يشأ أن ينتظر وصول الرد على مشروعه من الغرب الأوروبى، وإنما عزم على السير إلى الشام، ولكن حرارة الصيف كانت شديدة فقال له أمراؤه (إن أواخر الخريف والشتاء أنسب لتلك الحملة) . ولم يلبث أبغا أن شغل بعد ذلك باضطراب أحوال بلاد فارس، مما صرف نظره مؤقتاً عن فكرة مهاجمة المماليك[٢] .

أسرة قلاون والدفاع عن الشام:

على أن السلطان الظاهر بيبرس لم يلبث أن توفى سنة ١٢٧٧ ، وعندئذ أقام الأمراء ابنيه السعيد بركة ثم العادل سلامش فى منصب السلطنة على التوالى، حتى يظهر من بين الأمراء الرجل الذى يستطيع أن يتغلب على منافسيه ويأخذ السلطنة لنفسه[٣] . ولم يطل الأمر حتى استطاع الأمير قلاون الألفى أن يغتصب السلطنة فى ديسمبر سنة ١٢٧٩ ، وإن كان قد تعرض فى أوائل حكمه لمتاعب جديدة ظهر أخطرها فى الشام حيث ثار ضده الأمير سنقر الأشقر، وأعلن نفسه سلطاناً فى ابريل سنة ١٢٨٠[٤] . وعندما حلت الهزيمة بسنقر الأشقر فى يونية سنة ١٢٨٠ فر إلى الرحبة ومنها إلى قلعة صهيون فى شمال الشام حيث استنجد بالمغول، وبذلك أتيحت الفرصة لأبغا وليو الثالث جميعاً[٥] .

وفى الوقت الذى استولى سنقر الأشقر على بضعة مراكز مثل صهيون وبرزية وبلاطنس والشغر وبكاس وعكار وشيزر وفامية، أرسل أبغا فى سبتمبر سنة ١٢٨٠ قوة استطلاعية من المغول إلى شمال الشام استطاعت أن تحتل عينتاب وبغراس ودربساك، فضلا عن حلب التى دخلها المغول، وأحرقوا الجوامع والمساجد والمدارس المعتبرة ودار السلطنة ودور الأمراء[٦] . وقد أراد الاسبتارية أن يستغلوا تلك الفرصة للقيام بمحاولة

---

(1) Groisset: op, cit, III, p.p. 695-696.

(٢) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢ م٢، ٦٣-٧٠ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٦٤٢ . ابن أيبك: كنز الدرر، ج٨، ص ٢١٩-٢٢٧ .

(٤) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١ ، ص ٥٢ (تحقيق محمد محمد أمين).

(٥) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٧٩ هـ.

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٢٩٩ .

لاسترداد حصن الأكراد لكنهم فشلوا. وفى طريق عودتهم انقضت عليهم قوة من المماليك (أكتوبر سنة ١٢٨٠) عند صافيتا وأنزلت بهم خسائر جسيمة[١].

على أنه يبدو أن غزو المغول للشام سنة ١٢٨٠ لم يكن أكثر من غزو استطلاعى لجس نبض المماليك وسبر غورهم، بدليل انسحاب المغول إلى الجزيرة بعد قليل، وعندئذ عاد السلطان قلاون إلى القاهرة بعد أن كان قد وصل إلى غزة للدفاع عن الشام[٢]. أما عن الاسبتارية فقد عهد السلطان قلاون إلى الأمير بلبان الطباخى حاكم حصن الأكراد بمهاجمتهم فى المرقب، فحاصرهم بلبان، ولكنهم استطاعوا دفعه عن الحصن فى فبراير سنة ١٢٨١[٣].

وعندما أدرك السلطان قلاون أنه فى حاجة إلى تقوية جبهته، لجأ إلى محاولة فصل الصليبيين بالشام عن المغول فى العراق وفارس، فأحرز نصراً دبلوماسياً كبيراً عندما عقد فى أوائل مايو سنة ١٢٨١ صلحاً لمدة عشر سنوات مع الداوية والاسبتارية، فضلا عن بوهيموند السابع أمير طرابلس[٤]. أما سنقر الأشقر– خصم قلاون اللدود– فقد عفا عنه السلطان فيما بعد (سنة ١٢٨٧) وعينه حاكماً على إقليم أنطاكية وفامية[٥]. وثمة ملاحظة مهمة هى أن حكومة عكا اختارت أنت تقف على الحياد بين قلاون وخصمه، بل لجأت إلى تحذير السلطان حتى يحترز على نفسه من مؤامرة دبرها بعض أمراء المماليك الظاهرية الذين اتصلوا بالصليبيين فى عكا وطلبوا منهم ألا يصالحوا السلطان، وبفضل ذلك التحذير تمكن السلطان قلاون من القضاء على المؤامرة فى الوقت المناسب[٦]. وهكذا لجأ الصليبيون فى الشام إلى مسالمة السلطان قلاون، فى الوقت الذى كان أبغا خان مغول فارس يعد العدة لحملة جديدة كبرى ضد المماليك.

ذلك أن أبغا خرج بنفسه إلى الشام على رأس جيش من المغول من إقليم الجزيرة فى سبتمبر سنة ١٢٨١، ومر فى طريقه بالرحبة، فى حين أتى أخوه

---

(1) King: op. cit, p. 282.
(2) Wiet op, cit, p. 445.

(٣) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٧٩ هـ.
(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٦٨٥ .
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٣٠١ .
(٦) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٦٨٥–٦٨٦ . مفضل-بن أبي الفضائل: النهج السديد، ج٢ ص ٣٢٢ .

منكوتيمور (منكوتمر) من كبادوقيا عن طريق عينتاب وانضم إليهما ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى(١). وقد قدر المؤرخون جيش منكو تيمور بخمسين ألف مقاتل، فضلا عن ثلاثين ألفا من حشود وجموع من أجناس مختلفة مثل الكرج والأرمن والعجم وغيرهم فيكون المجموع ثمانين ألفا(٢). ثم كان أن زحف الجيش المغولي على وادى نهر العاصى، فوصل أمام حمص، حيث كان جيش المماليك مرابطاً تحت قيادة السلطان قلاون. وفى موقعة حمص التى دارت بين الفريقين فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٢٨١ حلت الهزيمة بالمغول وهلك منهم خلق كثير، فولوا مدبرين عبر الفرات(٣). أما ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى فقد انسحب عائدا إلى بلاده وإن كان قد وقع فى الطريق فى كمين أعده له التركمان والأكراد، فخرج إليه الأمير شجاع الدين السينانى فقتلهم وأسرهم عن آخرهم، بحيث لم يفلت منهم إلا دون العشرين(٤).

وعلى الرغم من حرص الصليبيين فى الشام فى تلك الفترة على مهادنة السلطان قلاون والمحافظة على الصلح المعقود بين الطرفين، حتى إن سان سفرينو "San Severino نائب شارل الأنجوى فى عكا خرج بنفسه لاستقبال قلاون أثناء عودة الأخير من حمص إلى مصر فى نوفمبر سنة ١٢٨١ وقدم له الهدايا الثمينة(٥)، على الرغم من ذلك فإنه سرعان ما ثبت أن قلاون لم يعقد الصلح السابق مع الصليبيين إلا تحت تأثير الخوف من تهديد المغول. ولم يكد يمضى على الصلح أربع سنوات حتى شرع قلاون فى مهاجمة الاسبتارية فى حصن المرقب فى ربيع سنة ١٢٨٥، واستولى على الحصن فعلا فى أواخر مايو من العام نفسه(٦). وكان الاستيلاء على حصن المرقب خطوة كبرى فى تقويض أركان الصليبيين بالشام، نظراً لمناعة ذلك الحصن حتى وصفه أبو المحاسن بأنه من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة، وهو كبير جداً(٧). كما وصفه أبو الفدا بأنه فى

(١) رشيد الدين الهمداني: جامع التواريخ، ج٢ م٢، ص ٨٣ .

(٢) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٨٠ هـ.

(٣) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢ م٢ ص ٨٣ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٦٢ وما بعدها (تحقيق محمد محمد أمين).

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٦٩٨ .

(5) Groisset: op, cit, Tome III, p.p. 701.

(6) King: op. cit, p. 285 & المقريزي: السلوك، ج١ ص ٧٢٨,

(٧) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٣١٧ .

غاية العلو والحصانة. لذلك اعتبر المسلمون اليوم الذى استولوا فيه على حصن المرقب يوماً مشهوداً أخذ فيه الثأر من بيت الاسبتارية ومحيت آية الليل بآية النهار...[١].

وهكذا بدأت الخطوات النهائية للإجهاز تماماً على الصليبيين فى الشام، بعد أن انحلت أوضاعهم، وتخلى عنهم الغرب الأوروبى وأضاعوا من أيديهم فرصة محالفة مغول فارس. والواقع أن الفرصة كانت لاتزال سانحة أمام غرب أوروبا من ناحية، والصليبيين بالشام من ناحية أخرى لمحالفة المغول وإنشاء جبهة مشتركة تحمى – على الأقل – البقية الباقية للصليبيين بالشام. حقيقة أن أبغا خان مغول فارس، والحليف الحميم للمسيحيين توفى فى أول ابريل سنة ١٢٨٢[٢]. وحقيقة أن أخاه تكدار (تكوادر) الذى خلفه فى الحكم قلب سياسته رأساً على عقب فأعلن اعتناق الإسلام وتسمى باسم أحمد، واتخذ لنفسه لقب سلطان، وأرسل إلى قلاون فى أغسطس سنة ١٢٨٢ يخبره بأنه مسلم وأنه أمر ببناء المساجد والمدارس والأوقاف. وأمر بتجهيز الحجاج، وسأل اجتماع الكلمة وإخماد الفتنة والحرب[٣]. وعندئذ رد السلطان قلاون على رسل المغول بتهنئته بالإسلام وطلب أن يكون التحالف بين المماليك والمغول ضد العدو المشترك وهم الصليبيون[٤]. ولكن تكدار لم يبق فى الحكم طويلا لينفذ سياسته هذه، إذ ثار ضده بعض قواده وقتلوه فى أغسطس سنة ١٢٨٤، وأحلوا محله ابن أخيه أرغون فى حكم دول مغول فارس[٥]. وسرعان ما تبع أرغون سياسة تفيض حماسة وقوة لخدمة المسيحية والمسيحيين، فاتفق مع ملك أرمينية على استرداد الأراضى المقدسة من المسلمين، وأرسل أربع سفارات إلى البابوية سنة ١٢٨٥، ١٢٨٧، ١٢٨٩، ١٢٩٠، يقترح فيها استعداده للقيام بحملة مشتركة مع البابوية لمحاربة المماليك فيقوم الفرنجة بغزو مصر فى الوقت الذى يقوم هو بغزو الشام[٦]. ولكن أرغون لم يجد استجابة من الغرب، سواء البابا أم الملوك. ولعله من الواضح أن

(١) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٧٤ هـ.
(٢) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢ م٢ ص ٨٥ .
(٣) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١ ص ٧٢ (تحقيق محمد محمد أمين).
(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٧٠٧، D`Hosson: op. cit, III, p.p. 563-580.
(٥) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ص ١٢٠-,١٢١
(6) Runciman: op. cit, III, p. 398-402.

السفارة الأخيرة التى أرسلها أرغون إلى غرب أوروبا جاءت فى الوقت الذى سقطت عكا- آخر البقايا الصليبية الكبرى بالشام- فى أيدى المماليك[١].

المنصور قلاون والاستيلاء على طرابلس:

ولعل الغريب فى قصة الدور الأخير من أدوار المعركة الصليبية بالشام هو أن الصليبيين ظلوا حتى اللحظة الأخيرة لا يشعرون بالخطر الذى يهددهم من جانب المماليك فاستمروا غارقين فى منازعاتهم الداخلية، لاسيما تلك المنازعات التى لم تخمد لها نار بين الجاليات الإيطالية[٢].

وقد شاء سوء حظ الصليبيين فى تلك الفترة ألا يظهر بين صفوفهم رجل قوى بعيد النظر يبصرهم بالخطر الذى يتهددهم ويعدهم لمقاومة المصير الذى ينتظرهم. ففى صور مات حنا دى مونتفورت فى أواخر نوفمبر سنة ١٢٨٣، ثم لحق به أخوه أونفروى دى مونتفورت حاكم بيروت فى ١٢ فبراير سنة ١٢٨٤، وبذلك قامت أرملة كل منهما بالوصاية على أملاك زوجها. وقد أسرعت كل من الوصيتين الأرملتين إلى طلب تجديد الهدنة مع السلطان قلاون فأجابهما إلى ذلك سنة ١٢٨٥[٣]. أما فى عكا فكان الوضع لا يقل سوءاً بعد أن عاد روجر دى سان سفرينو- نائب شارل الأنجوى فى حكم عكا- إلى إيطاليا ومعه قواته[٤]، الأمر الذى جعل أهل عكا يتجهون نحو هنرى الثانى ملك قبرص ومملكة بيت المقدس الأسبق. غير أن هنرى الثانى لم يستطع الإقامة فى بلاد الشام فى ذلك الوقت العصيب، بسبب المتاعب التى سببها له فرسان الفرنجة، فضلا عن تردده وضعفه، حتى أسماه بعض المؤرخين المحدثين لويس السادس عشر القبرصى. لذلك قنع بالبقاء فى قبرص مكتفياً بإرسال النجدات بين حين وآخر إلى الصليبيين كلما دعت الحاجة إلى ذلك[٥].

وفى ذلك الوقت نشبت الحروب فى إيطاليا بين بيزا وجنوا، فامتدت بعد قليل

---

(1) Groisset: op, cit, Tome III, p.p. 727.

(2) Richard: Le Royaime Latin: p.p. 287-292.

(3) Stevenson: op, cit, p. 348

(4) Runciman: op. cit, III, p. 393.

(٥) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص٥١.

إلى بلاد الشام، حيث أتى أسطول جنوى فى ربيع سنة ١٢٨٧ لمهاجمة البيازنة ومستعمراتهم[١] . وقد حرص قائد الأسطول الجنوى على المرور بالإسكندرية للحصول على رضاء السلطان قلاون وتأييده، فى حين أخذت بقية سفنه تنزل جام غضبها بالبيازنة وسفنهم عند عكا[٢] . هذا فى الوقت الذى انتهز السلطان قلاون فرصة انشغال الأساطيل الإيطالية بالحروب فيما بينها وبين بعض، وأرسل حملة بقيادة الأمير حسام الدين طرنطاى استولت على اللاذقية فى ابريل سنة ١٢٨٧ ، وهى آخر بلد تبقى من إمارة انطاكية الصليبية[٣] . ولم تكد تمر بضعة أشهر حتى توفى بوهيموند السابع أمير طرابلس دون وريث، وعندئذ أعلن فرسان طرابلس وتجارها قيام قومون– أى حكم بلدى مستقل– فى طرابلس، فى الوقت الذى وصلت لوسى أخت بوهيموند السابع أمير طرابلس ووريثته، فاستنجدت بالاسبتارية– حلفاء أخيها بوهيموند السابع– لاستعادة حقها الشرعى فى حكم طرابلس[٤]. وقد رد قومون طرابلس على ذلك بالاستنجاد بجنوا، بل يذهب أبو المحاسن إلى أن بارثلميو امبرياتشو - "Bartholmew Embriaco صاحب جبيل ورئيس القومون الجديد– استنجد أيضا بالسلطان قلاون ووعده انه إذا تمكن من تحقيق أطماعه فإنه سيقتسم معه طرابلس[٥] .

على أن الحاصل هو أن جنوا استجابت لنداء أهل طرابلس وأرسلت بعض سفنها لمساعدتهم، نظراً لما رأته فى السيطرة على طرابلس بالذات من تحقيق مكاسب تجارية عظيمة، فضلا عما فى ذلك من أهمية فى النزاع والتنافس بينها وبين البندقية. ولم يلبث

(1) Heyd: op, cit, I, p.p. 334-355.

(2) Runciman: op. cit, III, p. 403.

(٣) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٨٦ هـ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور ص ١٤٨–١٤٩ . المقريزي: السلوك، سنة ٦٨٦هـ. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٣١٩ . وتشير المصادر المعاصرة إلي أن الأمير حسام الدين طرنطاي استولي في حملته سنة ٦٨٦ هـ على صهيون وبرزية وكانتا بيد سنقر الأشقر الذي كان لايزال عندئذ خارجاً علي السلطان قلاون. ولا توجد إشارة في تلك المصادر في حوادث سنة ٦٨٦ إلي اللاذقية. ويرجح ستفنسن أنها كانت تابعة أيضا لسنقر الأشقر، وإن كان المدافعون عنها من المسيحيين، وأن الأمير طرنطاي استولي عليها بعد استيلائه علي صهيون وبرزية. انظر:.Stevenson: op, cit, p. 350

(4) King: op. cit, p. 288.

(٥) وسأل سيرتلمية (بارثلميو) السلطان الملك المنصور المساعدة وان يتقدم الأمير بلبان البطاخي السلحدار وان يساعده علي ملك طرابلس، علي أن تكون مناصفة، وبذل بذولا كثيرة... (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٣٢٠–٣٢١).

أن عقد بارثلميو امبرياتشو اتفاقية مع جنوا، أصبحت طرابلس بمقتضاها تحت حماية الجنوية الذين حصلوا على كثير من الشوارع والأسواق فى المدينة[1] . وقد كتب أهل طرابلس بما تم مع جنوا إلى الأميرة لوسى التى كانت فى عكا. ولم يعلم الجنوية بهذا الاتصال الذى تم بين أهل طرابلس ولوسى إلا عن طريق لوسى نفسها، التى أدركت أنه لا فائدة من عمل اتفاقية مع أهل طرابلس دون موافقة الجنوية. وفى المقابلة التى تمت بين رئيس الجنوية والأميرة لوسى فى صور عقدت اتفاقية بين الطرفين، فوافقت لوسى على جميع ما حصل عليه الجنوية من امتيازات فى طرابلس، كما أقرت الحقوق التى حصل عليها القومون، مقابل موافقة الجنوية على إعلانها أميرة على المدينة[2] . وكان أن أحس بارثلميو امبرياتشو أنه خرج من المولد بلا حمص، وأن الغنيمة قسمت بين الجنوية والأميرة لوسى دون أن يكون له نصيب منها، لاسيما وأنه – بوصفه صاحب جبيل– كان يطمع فى الحصول على إمارة طرابلس لنفسه. لذلك اتصل بالسلطان قلاون طالباً منه تأييده لتحقيق أطماعه فى طرابلس، وفى هذا ما يفسر عبارة أبى المحاسن التى سبقت الإشارة إليها[3] . هذا فضلا عما ترتب عن اتفاق لوسى والجنوية من توطيد أقدام الأخيرين فى طرابلس، وهو ما لا يمكن أن يرضى عنه البنادقة، فضلا عن مقدمى الداوية والاسبتارية والتيوتون جميعاً. وفى ضوء هذه الاعتبارات كلها يمكن أن تفسر ما أشارت اليه بعض المصادر الصليبية المعاصرة من ذهاب اثنين من الصليبيين – يرجح كونهما من البنادقة– إلى القاهرة حيث قابلا السلطان قلاون وحذراه من أن بقاء الجنوية فى طرابلس يهدد تجارة الإسكندرية ويجعل لهم السيطرة على مياه الشرق الأوسط[4] . وهكذا أثبت الواقع مرة أخرى أن تاريخ الصليبيين فى القرن الثالث عشر لم يكن سوى عملية انتحار طائشة.

ولم يكن المماليك فى حاجة إلى تحريض ضد البيت الحاكم فى طرابلس، وذلك منذ أن قام بوهيموند السادس سنة ١٢٦٠ باستدعاء المغول إلى الشام ومحالفتهم وحثهم على التنكيل بالمسلمين، وكل ما هناك هو أن المماليك تحينوا الوقت المناسب للاستيلاء

(1) Heyd: op, cit, I, p.p. 356.
(2) Heyd: op, cit, I, p.p. 356.
(3) Runciman: op. cit, III, p. 405.
(4) Setton: op, cit, II. p.p. 348.

على طرابلس، مثلما فعلوا عندما استولوا على انطاكية من قبل. وها هو الوقت المناسب قد حان، بعد أن اضطربت أحوال طرابلس، وانقسم أهلها شيعاً، وبدت البغضاء من الصليبيين ضد سيطرة الجنوية، حتى ذهب الصليبيون بأنفسهم إلى القاهرة يطلبون من السلطان قلاون التفضل بالاستيلاء على المدينة. لذلك تحجج قلاون بأن أهل طرابلس نقضوا الهدنة، واعتدوا على التجار المسلمين، وقطعوا الطريق على المسافرين، فجمع قواته وتجهز لأخذ طرابلس وخرج فعلا من مصر إلى الشام فى فبراير سنة ١٢٨٩(١).

وفى ذلك الوقت علم مقدم الداوية– عن طريق رشوة أحد أمراء المماليك وهو الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى – بنية السلطان قلاون، فحذر أهل طرابلس من الخطر المحدق بهم(٢). ولكن الأحقاد والمنازعات والانقسامات ظلت تعمل عملها بين مختلف طوائف المسيحيين فى طرابلس، فلم يلتفتوا إلى ذلك التحذير، ولم يفيقوا إلا عندما وجدوا الجيش المماليكى قد رابط أمام مدينتهم فى أواخر مارس سنة ١٢٨٩(٣). وعندئذ فقط أسرع أهل طرابلس إلى التضامن، وأرسل لهم هنرى ملك قبرص أخاه عمورى وبصحبته نجدة عاجلة من فرسان الجزيرة، كذلك أسرع الاسبتارية– رغم عدائهم الشديد لأهل طرابلس– إلى تقديم يد المساعدة. أما عكا فقد أسهمت هى الأخرى فى مساعدة طرابلس. وكذلك تناسى الجنوية والبيازية والبنادقة خصوماتهم مؤقتا وتضامنت سفنهم فى حماية طرابلس من ناحية البحر(٤).

ولكن كل ذلك جاء بعد فوات الأوان، إذ كان جيش قلاون مؤلفاً من أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة. وبهذه القوة الضاربة شرع قلاون يحاصر طرابلس فى ٢٤ فبراير سنة ١٢٨٩ وضايقها مضايقة شديدة بعد أن نصب حولها آلات الحصار وأخذ النقابون ينقبون أسوارها. وعندئذ بدا أن تعاون البنادقة مع الصليبيين فى الدفاع عن طرابلس لم يكن صادقاً، بدليل اتهامهم بإغراء قلاون على غزو المدينة من ناحية، وبدليل حرصهم– منذ أن بدأ الحصار، الذى استمر ثلاثة وثلاثين يوما– على جمع أموالهم وبضائعهم من المدينة وتهريبها عن طريق البحر إلى موانئ قيليقية(٥)

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٧٤٦ .

(2) Runciman: op. cit, III, p.p. 405-406.. أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٨٨ هـ

(3) Stevenson: op, cit, p. 350.

(4) King: op. cit, p. 288.

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص١٢٢(تحقيق محمد محمد أمين) .Groisset: op, cit, p.p. 742

من ناحية أخرى. وعندما وجد الجنوية أن البنادقة يفعلون ذلك حسبوا هم أيضاً أنه لا فائدة من المقاومة وأن المدينة على وشك السقوط، وأنه من الخير لهم أن يسلموا بأرواحهم وأموالهم. ولم يلبث أن أدى سلوك الجنوية والبنادقة إلى نوع من الفوضى فى طرابلس، فارتبك بقية الأهالى واستولى عليهم اليأس، مما مكن قلاون من الاستيلاء على المدينة فى ٢٦ ابريل سنة ١٢٨٩[١].

ويروى أبو الفدا أن بعض أهل طرابلس حاولوا النجاة عن طريق البحر فنجا أقلهم فى المراكب وقتل غالب رجالها. وسبيت ذراريهم وغنم منها المسلمون غنيمة عظيمة[٢]. وكان أمام طرابلس وعلى مقربة منها فى البحر جزيرة القديس نيقولا وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطماس (St. Thomas) ففر إليها كثير من الأهالى. ولكن المماليك وصلوا إليهم وخاضوا بخيولهم فى ماء البحر حتى أدركوهم وقتلوهم وسبوا النساء وأسروا الأطفال[٣]. وقد زار المؤرخ أبو الفدا تلك الجزيرة بعد المذبحة السابقة، ولكنه لم يستطع البقاء فيها، من نتن القتلى[٤]. وبعد أن تم تدمير مدينة طرابلس القديمة وأحرقت وخرب سورها، بنى السلطان قلاون طرابلس الجديدة بجوار النهر حول حصن صنجيل فى الداخل – بعيدا عن شاطئ البحر– وذلك خوفاً من تهديد الأساطيل الصليبية[٥].

ولم يلبث الصليبيون أن أخلوا ما لهم من مراكز ومدن فى إمارة طرابلس– مثل بيروت وجبلة– فاحتلها المماليك فى سهولة. وإذا كانت جبيل قد ظلت فى أيدى الصليبيين بضع سنوات أخرى. فإن ذلك جاء مشروطاً بإعلان تبعيتها وخضوعها التام لسلطنة المماليك، كما تعهد صاحبها الصليبى بدفع أموالها للسلطان[٦]. وهكذا لم يبق للصليبيين من ملكهم العريض فى بلاد الشام سوى عاصمتهم عكا وصيدا وصور وعثليث[٧].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٧٤٧، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٣٢١ .

(٢) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٨٨ هـ.

(3) Setton: op, cit, II, p.p. 593.

(٤) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٨٨ هـ.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١ ص ,٧٤٨

(٦) وأقر السلطان بلدة جبيل مع صاحبها علي مال أخذ منه، وأخذ بيروت وجبلة وما حولها من الحصون. (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧ ص ٣٢١).

(7) Groisset: op, cit, II, p.p. 745.

ومع أهمية طرابلس التجارية والصناعية والدينية والعلمية والحربية بالنسبة للصليبيين، إلا أنه يبدو أن الغرب الأوروبى لم يتأثر لسقوطها فى أيدى المسلمين. بل إن ملكى أرغونة وصقلية- وهما أخوان- أسرعا الى عمل تحالف مع قلاوون عقب سقوط طرابلس، وعقدا معه معاهدة تعهد فيها الملكان بمساعدة السلطان ضد أية حملة صليبية تخرج من الغرب، فضلا عن مساعدته ضد الصليبيين بالشام إذا خرقوا الهدنة المعقودة بينهم وبين المسلمين(١). أما ملوك فرنسا وانجلترا وأسبانيا فكانوا مشغولين عندئذ بمشاكل صقلية وأرغونة(٢)، ولم يكن هناك استعداد عند فيليب ملك فرنسا أو إدوارد الأول ملك انجلترا للقيام بأى نشاط صليبى لإنقاذ موقف الصليبيين المتدهور فى بلاد الشام. أما العرض الذى تقدم به أرغون خان مغول فارس، فظل قائماً لا يلقى رداً من البابوية. كذلك ذهبت عبثاً صيحات هنرى الثانى ملك قبرص الذى أرسل إلى الغرب الأوروبى مستنجداً موضحاً أن يوم عكا آت قريب(٣).

السلطان خليل والاستيلاء على عكا:

وإذا كانت البندقية هى المسئولة- إلى حد كبير- عن استيلاء المماليك على طرابلس، فإن البندقية ذاتها هى التى تحركت للدفاع عن عكا سنة ١٢٩٠ وبذلت ما فى وسعها لحمايتها من مصيرها المنتظر، ولا نجد تفسيراً لهذا الموقف المتناقض سوى أن البندقية لم تفعل فعلتها فى طرابلس، إلا انتقاما من الجنوية، إذ عز على البنادقة أن يستولى أعداؤهم الجنوية على طرابلس ويمتلكون ذلك المركز الاقتصادى والحربى الفذ على ساحل الشام، أما عكا فإن السيادة فيها كانت للبنادقة، وفى تهديدها تهديد لمصالحهم التجارية الكبرى فى الشام كلها، لذلك كان معقولا أن يعنى البنادقة بمصير عكا، وأن يحرصوا على بقائها، وأن يعملوا على الدفاع عنها(٤). وكان أن استجابت البندقية لدعوة البابا نيقولا الرابع، فأسهمت فى إعداد حملة من ألف وستمائة مرتزق على شاطئ الإدرياتيك فى صيف سنة ١٢٩٠ لإنقاذ عكا، وخرجت الحملة فى عشرين سفينة بندقية تحت قيادة دوج البندقية نفسه، ومعه عدد كبير من البنادقة، فضلا عن متطوعى بقية المدن الإيطالية، مثل مودينا وأنكونا وبولونا وغيرها(٥).

(1) Stevenson: op, cit, p. 351.

(٢) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطي، ج١ ص ٥٧٨-٥٨٠.

(3) De Mas Latrie: Hist, de Chypre, I, p. 486.

(4) Setton: op, cit, II. 593.

(5) Cam. Med Hist. vol. 5, p.p. 318.

على أنه يبدو أنه لم يكن فى نية السلطان قلاون مهاجمة عكا عقب استيلائه على طرابلس مباشرة، فاتجه السلطان إلى دمشق حيث استقبل رسل الملك هنرى الثانى طالبين عقد الصلح. وكان أن استجاب السلطان لتلك الرغبة، فوافق فى صيف سنة ١٢٨٩ على تجديد الهدنة لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر[١]. أما الجنوية فقد أسرعوا أيضاً إلى عقد الصلح مع السلطان قلاون حرصاً على مصالحهم التجارية، فعقدوا فى مايو سنة ١٢٩٠ معاهدة صداقة مع السلطان حصلوا بمقتضاها على عدة امتيازات تجارية فى الإسكندرية[٢]. وبفضل هاتين المعاهدتين اللتين تم عقدهما بين السلطان قلاون من ناحية والملك هنرى الثانى والجنوية من ناحية أخرى، أخذت العلاقات التجارية تعود إلى مجاريها بين الصليبيين فى عكا وصور وبيروت من جهة وبقية البلدان الإسلامية فى داخلية الشام من جهة أخرى، فانتظمت القوافل بين دمشق وبيروت، وأخذ الفلاحون فى القرى الإسلامية القريبة من عكا يستأنفون نشاطهم فى فلاحة أرضهم وترقب محصولها[٣].

ولكن ذلك الاستقرار لم يدم طويلا، إذ لم يلبث أن وصلت إلى عكا فى أغسطس سنة ١٢٩٠ الحملة الإيطالية، التى تبنتها البندقية. وقد ضمت هذه الحملة رجالا عديمى الخبرة بشئون الحرب؛ يتصفون بالحماسة الدينية ولكن تنقصهم المرونة والسياسة والنظام والخبرة بالقتال، مما جعلهم أقرب إلى جموع العامة الذين تألف منهم الشطر الأول من الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦ . ومن الواضح أن الصليبيين بالشام لم يكونوا فى تلك المرحلة فى حاجة إلى مثل ذلك النوع من الرجال، لأنهم لن يحققوا الغرض المطلوب، بل على العكس يخشى أن يرتكبوا حماقات بسبب جهلهم، مما يزيد موقف الصليبيين بالشام سوءاً. وهذا ما حدث فعلا[٤]. ذلك أن أولئك الصليبيين لم تكد أرجلهم تطأ أرض عكا، حتى أرادوا أن يعبروا عن حماستهم الدينية، فدفعهم جهلهم بالأوضاع إلى الشروع ليذبحوا كل من بداخلها من تجار المسلمين الذين كانوا قد قصدوا عكا فى ظل الأمان المعطى لهم بعد الصلح بين قلاون والصليبيين[٥]. ولم يسلم السريان المسيحيون من أيدى أولئك الإيطاليين، إذ اختلط

(1) Stevenson: op, cit, p. 351 n 3.. ولم يشر المقريزي أو أبو المحاسن إلي تلك الاتفاقية
(2) Heyd: op, cit, I, p. 416-418.
(3) Groisset: op, cit, III, p. 748.
(4) Cam. Med Hist. vol. 5, p. 318.
(٥) مفضل ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ج٣ ص ٣٨٦.

الأمر عليهم وحسبوهم مسلمين(١) . وعندئذ ارتاع أهل عكا لتلك المفاجأة، وخشوا عاقبة ما فعله أولئك الصليبيون الجدد، فأرسلوا إلى السلطان يعتذرون عما حدث ويتعهدون بمعاقبة المذنبين(٢) .

والواقع أن فرسان عكا لم يكونوا مبالغين فى فزعهم وقلقهم، إذ لم تلبث أخبار ما فعله الصليبيون بالمسلمين حول عكا وداخلها أن وصلت إلى مسامع السلطان قلاون، فأحضرت إليه ملابس الضحايا مضرجة بالدماء، وعندئذ استشاط السلطان غضبا وأقسم على أن ينتقم لهم من الصليبيين، وقد أرسل السلطان قلاون إلى الصليبيين فى عكا يطلب تسليم المذنبين فوراً، فعقد الصليبيون مجلساً لبحث الأمر، واقترح مقدم الداوية أن يبادر الصليبيون إلى القبض على المتهمين فى ذلك العدوان وتسليمهم إلى السلطان قلاون ليقتص منهم بنفسه، وبذلك يشفى غليله ويهدأ عن الانتقام(٣) . ولكن هذا الاقتراح قوبل بالمعارضة من الرأى العام المسيحى فى عكا، فاكتفوا بتقديم اعتذارات شكلية للسلطان فحواها أن العدوان أتى به صليبيون أجانب أغراب خارجون عن سلطة حكومة عكا، ولذلك فإن هذه الحكومة غير مسئولة عن أعمالهم(٤) .

وكان من الطبيعى أن يرفض السلطان قلاون تلك الأعذار الواهية، فأخذ يعد العدة للانتقام، وأعلن الحرب على الصليبيين. وفى الوقت الذى دأب السلطان على تعبئة جيوشه فى القاهرة، عهد إلى الأمير شمس الدين سنقر الأعسر بالاستعداد للحرب فى الشام(٥) . ولم تلبث أخبار استعدادات السلطان لمهاجمة عكا أن تسربت إلى الصليبيين، فأسرع مقدم الداوية إلى تحذير إخوانه فى عكا، ولكنهم لم يأبهوا بالتحذير وظلوا فى طغيانهم يعمهون(٦) .

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٧٥٣-٧٥٤ .

(2) Runciman: op. cit, III, p. 410.

وقد وصف ابن أيبك ذلك النفر من الصليبيين الذين وفدوا علي عكا بأنهم غنم وأنهم عندما سمعوا أذان المسلمين يجهر به ثاروا، وعادوا لا يلتقون مسلما في البلد إلا أوقعوا به القتل. (كنز الدرر، ج٨، ص١ ٣٠).

(3) Stevenson: op. cit. p. 352.

(4) King: op. cit. p. 289.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٧٥٤ .

(6) Grousset: op. cit. III, p. 749.

والواقع أن أحوال الصليبيون فى عكا عندئذ كانت لا تبشر بخير لهم، إذ فرت إلى المدينة بقايا العناصر الصليبية المختلفة التى هربت من انطاكية وطرابلس وغيرها من المدن والحصون التى استولى عليها المسلمون، وبذلك اكتظت عكا بمزيج غريب غير متجانس من الصليبيين، حتى صار بداخلها سبع عشرة جالية كل منها تؤلف قوموناً مستقلا بشئونه[١]. كذلك كان فى عكا ممثلون لمنظمات الفرسان وملوك انجلترا وفرنسا وقبرص والمدن الإيطالية التجارية والبابوية. وكل واحد من هؤلاء كان يسير فى طريقه الخاص، ويفكر بطريقته الخاصة، وينظر إلى الأمور من وجهة نظر المصدر الذى يمثله دون أن يحاول التعاون مع غيره لتوحيد الجهود ضد الخطر المنتظر[٢].

ومهما يكن من أمر، فإن السلطان قلاون لم يكد يفرغ من كافة استعداداته الحربية، ويغادر القاهرة فعلا لحرب الصليبيين بالشام، حتى دهمه الموت فى ١٠ نوفمبر سنة ١٢٩٠ . وسرعان ما هلل الصليبيون لتلك الوفاة، وظنوا أنها إرادة الله تدخلت لإنقاذ عكا، لاسيما وأنهم سمعوا عن أخبار الخلافات التى دبت بين أمراء المماليك حول منصب السلطنة، وعن أن الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة دبر مؤامرة لإقصاء خليل بن قلاون عن ذلك المنصب[٣]. ولكن سرعان ما خاب ظن الصليبيين، إذنجح خليل فى التغلب على الصعاب التى اعترضت سبيل وصوله إلى الحكم، وفى القضاء على المؤامرة وقتل الأمير طرنطاى. وبذلك هدأت الأمور، ولم يبق أمامه سوى أن ينفذ مشروع أبيه الخاص بالاستيلاء على عكا[٤].

وقد حاول أمراء الصليبيين فى عكا إعاقة السلطان الأشرف خليل بن قلاون عن مهاجمة عكا، فأرسلوا له سفارة يسألونه العفو ولكن السلطان لم يقبل منهم ما اعتذروا به، وبذلك لم يعد هناك مفر من القتال[٥]. وفى الوقت الذى سار الأشرف خليل إلى عكا، أرسل إلى القوات الإسلامية فى مختلف المدن الشامية بمقابلته أمام عكا. ومن جملة تلك القوات كان جيش حماة وفيه المؤرخ أبو الفدا[٦]. وقد قدر عدد

---

(1) Cam. Med Hist. vol. 5, p. 418

(2) Archer: op, cit. p.p. 414-419.

(٣) بيبرس الدوادار: زبدة الفكر، ج٨، ص٣٠٢-٣٠٤ (تحقيق هارمان).

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ص ,٧٥٧

(٥) المصدر السابق، ص ,٧٦٢

(٦) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٩٠ هـ. ويحكي أبو الفدا عن نفسه أنه كان وقتئذ أمير عشرة.

الجيوش الإسلامية التى اشتركت فى حصار عكا بستين ألفا من الفرسان ومائة وستين ألفاً من المشاة، فضلا عن عدد ضخم من آلات الحصار(١).

ولم يكد السلطان الأشرف خليل يصل إلى عكا ويفرض حصاره عليها فى ٥ ابريل سنة ١٢٩١، حتى أخذت قواته فى مهاجمة أسوار المدينة وضربها بالمجانيق الكبار التى كان منها ما يرمى بقناطر دمشقى وأكبر، وبذلك أمكن إحداث عدة ثقوب فى سور المدينة(٢). وكان على الصليبيين عندئذ أن يبذلوا محاولة أخيرة للدفاع عن عكا، وإنقاذها من السقوط، فجمعوا كل قواتهم فى الشام وعكا فضلا عن البحارة الإيطاليين والصليبيين الجدد الوافدين حتى اجتمع فى عكا عدد يتراوح بين ثلاثين ألفا وأربعين ألفا، منهم ثمانمائة فارس وأربعة عشر ألف من المشاة، والبقية من عامة الحجاج. وأخيرا أدرك الصليبيون بالشام خطورة الموقف، فحاولت الهيئات والجاليات أن تتناسى ما بينها من حزازات قديمة، وتقاسموا جميعاً الدفاع عن أسوار المدينة وقلعتها(٣). ثم حاول مقدم الداوية أن يقوم بهجوم فى ليلة منتصف ابريل ليشق طريقه إلى خارج المدينة، ولكنه أخفق فى محاولته- بسبب يقظة المسلمين وحرصهم- واضطر إلى الارتداد من حيث أتى(٤).

وفى ٤ مايو وصل هنرى الثانى ملك قبرص إلى عكا على رأس مائتين من الفرسان وخمسمائة من المشاة وقدر كبير من المؤن والإمدادات، ففرح الصليبيون بقدومه فرحاً كبيراً وأشعلوا نيراناً لم ير مثلها فرحاً به وتشجعوا على الثبات والمقاومة(٥). وقد حاول هنرى الثانى بمجرد وصوله إلى عكا التفاهم سلمياً مع السلطان خليل بن قلاون، ولكن السلطان واجه الرسل قائلا ألم تحضروا ومعكم مفاتيح المدينة؟ ثم وعد الصليبيين بتأمين خروجهم جميعاً من عكا ومعهم أموالهم، إذا هم استسلموا ولم يأخذ المدينة منهم عنوة(٦). وعندما أخفقت محاولة هنرى الثانى فى

(1) Setton: op, cit, II, p.p. 595.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨ ص ٥، ٦.

(3) King: op. cit, p.p. 291-292.

(٤) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٩٠ هـ.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨ ص ٦، Schlumberger: Prise de Saint Jean d`Acre, ps. 23. 36. etc. وكذلك، ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص ١٣٧ (تحقيق محمد محمد أمين).

(6) Groisset: op, cit, III, p.p. 755.

مفاوضة السلطان خليل لعقد الصلح. عزم على الدفاع عن عكا حتى النهاية، ولكنه سرعان ما فقد الأمل فى إنقاذها بسبب انحلال أمر الصليبيين واختلاف كلمتهم. ولذلك عاد هنرى الثانى إلى قبرص ومعه جميع قواته وفرسانه، فكان لذلك أسوأ الأثر فى نفوس المدافعين[١].

وقد ركز المسلمون هجماتهم على القلعة التى كان يدافع عنها الملك هنرى الثانى، فانهار جدارها فى منتصف مايو واحتلها المماليك فى اليوم التالى. وفى يوم ١٧ مايو أدرك الصليبيون أن وضعهم صار خطيراً، فقام مقدم الداوية بمحاولة يائسة للصلح مع المسلمين، ولكن محاولته باءت بالفشل[٢]. وفى يوم الجمعة ١٨ مايو شدد السلطان الأشرف خليل هجومه على عكا، ونجحت قواته فى اقتحام المدينة فعلا[٣]. رغم المقاومة العنيدة التى أبداها مقدم الداوية وقائد الاسبتارية، حتى خر كلاهما قتيلا فى المعركة[٤]. وهكذا وجد الصليبيون أنفسهم ولا عاصم لهم، فالمسلمون أمامهم والبحر خلفهم، فهرعوا إلى السفن فارين بأرواحهم. ولكن السفن الباقية فى ميناء عكا لم تكن كافية، فغرق بعضها فى البحر بسبب ثقل حمولتها وكثرة من اكتظ فيها من طلاب النجاة، وقد وقع عدد ضخم من أهل عكا فى قبضة المسلمين ليقتلوا أو يأسروا، وكان آخر موضع استسلم فى عكا هو بيت الداوية الذى تحصنوا فيه، ولم يلقوا السلاح إلا فى ٢٨ مايو سنة ١٢٩١[٥].

خاتمة الصليبيين بالشام:

ولم يكن منتظراً من بقية المعاقل الصليبية القليلة الباقية فى الشام أن تظل على قيد الحياة، فاحتل المماليك مدينة صور دون مقاومة فى ١٩ مايو بعد أن تركها نائب الملك هنرى الثانى وفر إلى قبرص. أما صيدا فقد فر منها أهلها عند اقتراب الأمير

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨ ص ٦ Michaud III. P. 327 وفي رواية أخري أن هنري اشترك في الدفاع عن عكا حتي النهاية ، ولم يتخل عنها الا عندما اشتدت وطأة الهجوم الاسلامي عليها وأخذ من فيها من الصليبيين يفرون نحو البحر، فكان الملك هنري من جملة الهاربين، أنظر : Setton: op, cit, II, p. 354. Groisset: III, p. 292

(2) King: op. cit, p. 295.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٧٦٤-٧٦٥,

(4) Setton: op, cit, II, p. 595.

(٥) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٩٠ هـ.

الشجاعى، فاستولى عليها المماليك ودمروا قلعتها فى ١٤ يوليو سنة ١٢٩١[١].

كذلك احتل المماليك حيفا وهدموها[٢]. وبذلك لم يبق للصليبيين فى الشام سوى موضعين هما أنطرطوس وعثليث. وكان هذان الوضعان تابعين للداوية، فاستسلمت الأولى فى ٣ أغسطس والثانية فى ١٤ أغسطس سنة ١٢٩١، وبذلك تكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للإسلام[٣].

وهكذا دالت دولة الصليبيين بالشام، وانتهى أمر تلك الجموع من الغزاة الغربيين إلى حيث لا رجعة. وعادت بلاد الشام من قيليقية شمالاً حتى غزة والحدود المصرية جنوباً لا يقطنها إلا أبناؤها الحقيقيون، ولا يتمتع بهوائها ومائها وخيراتها إلا أهلها الأصليون. ولكن إذا كانت صفة الصليبيين الغربيين الذين غزوا بلاد الشام سنة ١٠٩٧ قد انطوت بعد قرنين تقريباً من الزمان، فإنه ليس معنى ذلك انتهاء قصة الحركة الصليبية، تلك الحركة التى قدر لذيولها أن تستمر فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨ ص ٨–١٠ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٧٦٥-٧٦٦ .

(٣) أبو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٩٠ هـ.

الباب السابع عشر

خاتمة الحركة الصليبية

« وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوب الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا.

وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديراً.».

(الأحزاب، ٢٦-٢٧)

الفصل الأول

الدعاة الصليبيون وجهودهم

نحو مجتمع أوربي جديد:

لم تنته الحركة الصليبية بسقوط الصليبيين وطردهم نهائياً من الشام فى أواخر القرن الثالث عشر. وربما كان أقرب إلى الصواب أن نقرر أن الحركة الصليبية دخلت منذ ذلك الوقت دوراً جديداً فى تاريخها، هو الدور الذى استمر فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وامتاز بطابع يتفق وتطور الأوضاع فى الشرق الأدنى من ناحية وفى الغرب الأوربى فى أواخر العصور الوسطى من ناحية أخرى.

والواقع انه إذا كانت الحركة الصليبية قد ولدت فى أواخر القرن الحادى عشر نتيجة تفاعل الأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية التى سيطرت على غرب أوربا فى العصور الوسطى، فإن تلك الأوضاع لم تلبث أن أخذت تتغير وتتبدل لتمهد للعصور الحديثة، مما لم يترك مجالاً لطاقة جديدة عند الأوربيين فى الغرب، يوجهونها لخدمة الحركة الصليبية، لا سيما بعد أن أنهكها النزاع مع البابوية وأدى اهتمام الأباطرة بإيطاليا إلى إهمال شئون ألمانيا ذاتها. أما إنجلترا وفرنسا – وهما الدولتان اللتان طالما أسهمتا فى الحركة الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر – فقد اشتبكتا ضد بعضهما البعض فى حرب المائة عام، مما أدى إلى استنفاد موارد الدولتين وجهودهما جميعاً، هذا بالاضافة إلى انشغال كل من انجلترا وفرنسا بمشاكلها الداخلية. ففى انجلترا كان التطور الدستورى– وما صحبه من صراع مع الملك – فضلا عن الحرب ضد اسكتلندا. وفى فرنسا كانت الحرب ضد فلاندرز وثورة الفلاحين سنة ١٣٥٧ ثم مشكلة الوصاية على الملك شارل السادس، مما استنفد جهودها[1] أما أسبانيا فكانت مقسمة سياسياً إلى عدة وحدات، أرغونة وقشتالة وليون ونافارى فضلا عن البرتغال، وأدت المنافسات بين هذه الوحدات إلى عدم تمكينها من المساهمة فى حرب صليبية خارج شبه جزيرة أيبريا. هذا وإن كانت جميع تلك القوى الاسبانية على استعداد للتضامن فى كثير من الأحيان فى الحرب ضد المسلمين

---

(١) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج١ ص ٥٠١ وما بعدها (١٩٦٦).

لطردهم من الأندلس، وهى حرب صليبية لا تقل ضراوة عن الحرب الدائرة فى الشرق، وأما إيطاليا فقد صارت فى شغل عن الحرب الصليبية بما شهدته من نشأة القومونات، وهى المدن ذات الكيان السياسى والاقتصادى المستقل.

وسرعان ما انتعشت هذه المدن، وتحولت إلى جمهوريات أخذت تعمل بنشاط فى الميدان الحضارى والمجال الاقتصادى، مما عاد عليها بثروة طائلة، حتى وجدت مصالحها تتعارض مع محاربة المسلمين، وقطع علاقاتها التجارية معهم.

فإذا أضفنا إلى كل ذلك بداية ظهور الشعور القومى فى غرب أوروبا، وهو الشعور الذى يربط بين أبناء الأمة الواحدة ويجعلهم يشعرون بأن لهم كياناً خاصاً، ومصالح خاصة تميزهم عن غيرهم، وتربطهم مع بعضهم البعض، أدركنا قيمة التطور الذى شهدته أوربا فى أواخر العصور الوسطى، مما جعل الأوربيين يتجهون نحو مثل وغايات اختلفت عن مثل العصور الوسطى وغاياتها. فبينما ظل الفكر السياسى طوال الشطر الأكبر من العصور الوسطى متأثرا بفكرة الامبراطورية العالمية، بمعنى وجود إمبراطور واحد يرعى مصالح العالم السياسية، إذا بهذه الآراء تتخلخل فى أواخر العصور الوسطى ليحل محلها تيار فكرى جديد ينادى بأن لكل دولة كياناً سياسيا مستقلا يعتمد على الشعور القومى الذى يربط بين أبنائها ويجعلهم يتعصبون بعضهم لبعض فضلا عن تعصبهم لوطنهم[١]. ولا شك فى أن هذا التطور وحده كان كفيلا بأن يستأثر بنصيب كبير من تفكير المعاصرين وجهودهم، مما لم يترك فائضا من الطاقة أو متسعاً من الجهد والوقت لمواصلة الحرب ضد المسلمين فى الشرق، وهى الحرب التى أثبتت التجارب الطويلة فداحة ثمنها وعدم جدواها.

أما من الناحية الاجتماعية، فيلاحظ أن النظام الاقطاعى الذى كان أساس الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى غرب أوربا منذ القرن العاشر تقريباً، هذا النظام أخذ يترنح فى القرن الثالث عشر نتيجة لنمو الملكيات الجديدة فى بلدان غرب أوربا. هذا إلى أن النظام الإقطاعى اعتمد على الأفنان والرقيق فى فلاحة الأرض، وهو الوضع الذى أخذ فى الانهيار منذ القرن الثانى عشر، بعد أن أتاحت الحروب الصليبية مخرجاً أمام آلاف الأفنان والرقيق فتركوا الأراضى التى يفلحونها بحجة

(١) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج٢ ص ١٩٧ وما بعدها (١٩٨٦).

المساهمة فى النشاط الصليبى. ويقال إن الحملة الصليبية الأولى وحدها استوعبت عشرة آلاف قن تركوا الأرض التى ارتبط بها آباؤهم وأجدادهم، للبحث عن حياة أفضل فى الشرق تحت ستار محاربة المسلمين(١). ثم كانت نشأة المدن وتطورها، مما فتح بابا آخر أمام الأقنان لهجرة الأرض والنزوح إلى المدن. ولم يلبث أن استكشف أصحاب الضياع فى الغرب الأوربى أن نظام الرقيق والأقنان غير اقتصادى، وأنه من الأوفر لهم والأجدى عليهم استخدام عمال مأجورين أحرار فى فلاحة أراضيهم، لأن هؤلاء الأخيرين يعملون بعزيمة أقوى وروح أسمى وبالتالى يأتون بإنتاج أوفر(٢).

وهكذا أخذ كبار الملاك فى الغرب الأوربى يحررون أقنانهم بالجملة وفق شروط خاصة قدرت بها براءات من الملاك(٣). ولسنا بحاجة إلى القول إن هذه التطورات كلها زلزلت الأركان الأساسية التى قام عيها المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى، وهو الأمر الذى ترتب عليه فتح آفاق جديدة أمام الأوربيين، أهم بكثير من مجرد حمل السلاح والرحيل إلى الشرق لمحاربة المسلمين. فإذا أضفنا إلى ذلك أن شخصية الفرد بدأت تظهر فى أواخر العصور الوسطى فى غرب أوربا بعد أن كانت ذائبة فى كيان المجموعة، وأن المجال أخذ يتسع أمام الفرد لإظهار كفايته الخاصة ومواهبه الذاتية ونشاطه الفردى، أدركنا السر فى عدم إقبال الأفراد على المشاركة فى مزيد من الحروب ضد المسلمين فى الشرق(٤). ولماذا يضحى الإنسان بنفسه فى حرب لا يعرف هدفاً محدداً لها، وفى بلاد لا يعرف مسالكها وطبيعة أهلها، فى حين أخذت الفرص تتفتح أمامه ليظهر كفايته ونشاطه فى مجتمع متطور جديد؟

أما فى الجانب الدينى، فإن البابوية التى ظلت المحور الأساسى للحركة الصليبية منذ قيامها فى نهاية القرن الحادى عشر، أخذت هى الأخرى تتعرض لتطورات خطيرة، بعد أن بلغت أوج مجدها على عهد البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦). ذلك أن الآفاق الجديدة التى أخذت تتفتح أمام الناس فى أواخر العصور الوسطى نتيجة للنشاط الاقتصادى والتطور السياسى والاجتماعى والفردى وازدهار

---

(١) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج٢ ص ٢٩٨ وما بعدها (١٩٨٦).

(2) Cam. Med Hist, Vol.7 p.p. 728-729.

(3) ainter: Mediaeval Socicty. p.p. 95-60 .

(٤) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج٢ ص ١٩٧-١٩٨ (١٩٨٦).

العلوم الجديدة التى احتضنتها الجامعات الناشئة، كل هذه التيارات جعلت الغرب الأوربى ينشغل عن الكنيسة وتعاليمها وقيودها، ويتجه نحو حياة أكثر حرية وأوسع أفقا. وهكذا أخذ صالح الدولة يبدو فى نظر المعاصرين أكثر أهمية من صالح الكنيسة، كما بدأ الشعور يسرى بأن واجب الفرد نحو نفسه وإنسانيته ووطنه يجب أن يسبق واجبه نحو كنيسته(١). ثم إنه لم تكد تمر على سقوط عكا فى أيدى المسلمين سنوات قليلة حتى تعرضت البابوية لمحنة أدت إلى تدهور نفوذها تدهوراً واضحاً، بحيث لم يبق لها سوى القليل من سلطانها العالمى الواسع الذى كانت عليه فى نهاية القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر. ونقصد بذلك محنة السبى البابلى (١٣٠٥-١٣٧٧)، عندما هجر البابوات روما وأقاموا فى أفينون شبه خاضعين للملكية الفرنسية، مما أضر بمكانتهم، وهم الذين استمدوا تلك المكانة من القديس بطرس وكنيسته بروما(٢). ولم تلبث البابوية أن تعرضت لأزمة أخرى هى أزمة الانشقاق الدينى (١٣٧٨-١٤١٧) عندما وجدت مجموعتان - أو ثلاث - متنافستان من البابوات، إحداهما فى أفنيون والأخرى فى روما، لكل منهما أشياع، وحزب يمالئه ويسفه الفريق الآخر(٣). ولا شك فى أن الأوضاع جميعها جعلت المعاصرين يعيدون النظر فى حقيقة الوظيفة البابوية، وأهمية البابا فى المجتمع، ومصدر سلطانه الواسعة. ولا أدل على ما أصاب سمعة البابوية ومكانتها من ضعف وخور - نتيجة للسبى البابلى والانشقاق الدينى - من ظهور بعض الحركات الهرطقية التى اتجهت نحو انتقاد الكنيسة وتصرفاتها، وتجريح رجال الدين - وعلى رأسهم البابا- والإقلال من شأنهم(٤). وكانت النتيجة الحتمية لكل ذلك ضياع هيبة البابوية وضعف سلطانها على النفوس، مما أفقد الحركة الصليبية رأسها الكبير وزعامتها القوية التى تعدتها منذ بدايتها بالدعوة لها والسهر عليها(٥).

وبعد، فلعله من الواضح أن التطورات التى اعترت المجتمع الغربى فى الميادين السياسية والاجتماعية والدينية والفكرية، جعلت من المتعذر استمرار الحركة الصليبية بنفس القوة والحماسة والروح التى كانت عليها فى القرن الثانى عشر. وبعبارة أخرى

(١) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، جـ١ ص ٥١٥ وما بعدها (١٩٦٦).

(2) Stephenson : Mist. p 503 & Lavisse: Hist. du France Tome III, 2 p. 123 .

(٣) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، جـ١ ص ٥١٣-٥٢٠ (١٩٦٦).

(٤) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، جـ١ ص ٥٢٠ وما بعدها (١٩٦٦).

(5) Cam. Med. Vol 7 p. 254 .

فقد صار لابد للحركة الصليبية تحت تأثير تلك التطورات من أن تتخذ لنفسها طريقاً جديداً يتفق ومرحلة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة.

الدعاة ومشاريعهم:

ولكن ليس معنى ذلك أن الغرب الأوربى لم يهتم بسقوط عكا سنة ١٢٩١ فى قبضة المسلمين، إذ الواقع أن ذلك النبأ أحدث دوياً مؤسفاً فى غرب أوربا، لم يقل عن الأثر الذى أحدثه سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين سنة ١١٨٧ . وكل ما هناك هو أن الغرب الأوربى لم يستطع فى نهاية القرن الثالث عشر أن يعبر عن أسفه وشعوره وحماسته تعبيراً عملياً بإرسال حملة صليبية كبرى إلى الشرق، مثلما فعل فى أواخر القرن الثانى عشر[(١)] وإذا كان البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨-١٢٩٢) قد أظهر استياءه البالغ لسقوط طرابلس ثم عكا فى قبضة المسلمين، فإن جهود هذا البابا فى استثارة الغرب الأوربى لإرسال حملة صليبية إلى الشرق باءت بالفشل، حتى مات نيقولا الرابع كسيف البال سنة ١٢٩٢[(٢)].

على أنه كان من الصعب أن يتخلى الغرب الأوربى عن الفكرة الصليبية تخليا تاماً مفاجئاً، فظلت تلك الفكرة تراود عقول بعض المتحمسين والمتدينين، الذين دعوا لاستئناف الحرب ضد المسلمين، وعبروا عن حماستهم وآرائهم منذ نهاية القرن الثالث عشر بعدد من المشاريع الصليبية ذات الأهمية البالغة. وهنا نلاحظ فى ذلك الدور الجديد من أدوار الحركة الصليبية أن الدعاة لم يكونوا خطباء من طراز بطرس الناسك، ولم يعتمدوا على العاطفة والبيان فى تحريك عواطف الناس واستثارة شعورهم الدينى، وإنما صاروا كتاباً يكتبون الرسائل والكتب ويرفعونها إلى البابوات والملوك الأمراء، شارحين فيها مشاريعهم الصليبية[(٣)].

ويضيق بنا المقام عن دراسة كافة مشاريع أولئك الدعاة بالتفصيل، ولكن تكفى الإشارة العاجلة إلى أهم المشاريع مبتدئين بعصر البابا نيقولا الرابع، وهو العصر الذى شهد طرد آخر البقايا الصليبية من الشام. ففى سنة ١٢٩١ تقدم أحد الرهبان الفرانسيسكان – واسمه فدنزيو Fidonzio – بتقرير كبير إلى البابا نيقولا الرابع، شرح فيه تاريخ الأرض المقدسة، ونوع الجيش الذى يلزم لاسترجاعها من المسلمين، والطريق المفضل الذى يسلكه ذلك الجيش للوصول إلى الشرق[(٤)].

---

(1) Archer: op. cit, p. 419.

(2) Atiya: The Crusade in the Later Middle Ages, p. 45.

(3) Runciman: op. cit, III, p. 430.

(4) Atiya: op. cit, p.p.36-43.

وفى العام التالى- أى سنة ١٢٩٢ - تقدم داعٍ آخر من نابلى اسمه ثاديوس Thddeus بتقرير عن سقوط عكا. وكان تقريره عنيفاً، أراد به أن يستثير الغرب لإرسال حملة صليبية جديدة، واختتم التقرير بنداء إلى البابا والملوك ليقوموا بعمل فعال لاستخلاص الأراضى المقدسة من المسلمين[١].

على أن أهم دعاة الحرب الصليبية أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر كان ريموند لول Raymond Lull، الذى ولد فى جزيرة ميورقة سنة ١٢٣٢ وتوفى فى شمال أفريقية سنة ١٣١٥ ، وقد امتاز ريموند هذا عن بقية الدعاة السابقين بمعرفته اللغة العربية، ودرايته بطبيعة البلاد الإسلامية بعد أن قام برحلات متعددة فيها فوضع مشروعاً سنة ١٣٠٥ نادى فيه بالعمل على كسب المسلمين، وطوائف المسيحيين الشرقيين، والهراطقة، إلى معسكر الكنيسة الغربية عن طريق التنصير، مع التمسك بارسال حملة صليبية قوية إلى الشرق. أما هذه الحملة، فقد رأى لول أن يكون على رأسها ملك، وأن تشترك فيها جميع هيئات الفرسان من داوية واسبتارية وتيوتون وغيرهم، وذلك بعد أن يندمجوا جميعاً فى هيئة واحدة تحت زعامة الملك الذى سيتزعم الحملة. وقد اختار لول أن يبدأ خط سير الحملة من أسبانيا حيث يقوم الصليبيون بطرد المسلمين منها، ثم ينتقلون إلى شمال إفريقية، ويزحفون بحذاء الساحل إلى تونس ثم مصر، فى الوقت الذى يتخذ الأسطول الصليبى مالطة ورودس قاعدة لمساعدة الحملة البرية فى محاربة المسلمين. ولم يفت ريموند لول أن يحبذ فكرة استيلاء الصليبيين على القسطنطينية[٢] . ويبدو أن تقرير لول امتاز باتساع الأفق وعمق الخبرة، وهى الأمور التى تتضح فى اهتمامه بتعاون الأسطول البحرى مع الجيش البرى، وفى عنايته بالمسائل المتعلقة بالتموين والأسلحة. ولكن يؤخذ عليه أنه أساء الظن بالمسيحيين الشرقيين أكثر من اللازم ولم يحاول مطلقاً اكتسابهم والإفادة منهم فى مشروعه الصليبى [٣].

وكان من المظنون عندئذ أن الملك فيليب الرابع ملك فرنسا (١٢٨٥-١٣١٤) سيقوم بحملة صليبية ضد المسلمين. ولكن لم تلبث حقيقة الأمور أن تكشفت واتضح أن ملك فرنسا لم يكن جاداً فى تفكيره، وإنما أراد تحت ستار الاستعداد للحملة الصليبية المزعومة أن يحصل على أموال الكنيسة وأن يصادر أملاك الداوية سنة ١٣١٢[٤].

---

(1) Idem, p.p.31-43.
(2) Aitya: op. cit, p.p.74-94.
(3) Runciman: op. cit, III, p. 432.
(4) Cam. Med Hist. Vol7. p.p. 313-319.

على أن البابوية لم تكتشف عدم جدية فيليب الرابع إلا بعد أن قطعت مرحلة طويلة فى متابعة المشروع الذى تقدم به أحد رجال ملك فرنسا واسمه بطرس دوبى Peter Dubis. وكان أن قام البابا باستشارة هيثوم ملك أرمينية السابق- الذى كان قد اعتزل فى أحد أديرة فرنسا - فأوصى هيثوم بإعداد حملتين لمهاجمة المسلمين، إحداهما بحرية تتخذ قبرص وأرمينية الصغرى قاعدتين لها، والأخرى برية تتحالف مع الأرمن والمغول. كذلك استشار البابا كلمنت الخامس أحد رجاله- واسمه وليم آدم- فأشار عليه بضرورة احتفاظ الصليبيين بأسطول فى البحر الهندى لقطع تجارة المماليك مع الشرق الأقصى، كما أوصى بضرورة استيلاء الصليبيين على القسطنطينية. وأخيرا اكتشفت البابوية أن ملك فرنسا لم يكن له هدف من وراء تلك المظاهرة سوى الحصول على أموال الداوية والكنيسة[١].

على أنه إذا كان فيليب الرابع ملك فرنسا غير جاد فى فكرة محاربة المسلمين فإن فيليب السادس فالوا (١٣٢٨-١٣٥٠) كان صادق النية فى ضرورة القيام بحرب صليبية. وعندما أيقن البابا حنا الثانى والعشرون صدق نية فيليب السادس أصدر مرسومين، الأول فى ١٦ يونيه ١٣٣٠ يبيح لملك فرنسا جمع ضريبة العشور لمدة عامين بقصد الاستعداد للحرب الصليبية، والثانى فى ديسمبر ١٣٣١ يبيح للملك بيع صكوك الغفران للغرض نفسه. ولم يلبث أن بدأ فيليب السادس فى اتخاذ الاستعدادات الفعلية الخاصة بتموين الحملة، كما اتصل بالبنادقة للاتفاق معهم على نقل الصليبيين إلى الشرق[٢]. وفى تلك المرحلة بالذات لجأ الملك إلى استشارة الخبراء الذين لهم دراية بشئون الشرق والمسلمين، فتقدم له بركارد Burcard – أحد دعاة الحروب الصليبية عندئذ- بمشروع مهم يحتل مكانة مرموقة بين المشاريع الصليبية.

---

(1) Atiya: op. cit, p.p.45-73.

أعقب سقوط عكا وطرد الصليبيين نهائيا من الشام اتجاه هيئات الفرسان الى نقل نشاطها الى ميادين أخرى، فاتجه الفرسان التيوتون نحو شمال أوروبا حيث ركزوا نشاطهم الدينى والسياسى قرب شواطئ البحر البلطى، وغزا الاسبتارية جزيرة رودس سنة ١٣٠٦م، بمساعدة بعض الجنوية وحكموها حكما مستقلا عن الدولة البيزنطية. أما الداوية الذين نزحوا الى بلدان جنوب اوروبا وبخاصة فرنسا – فقد استثاروا حقد الناس باشتغالهم بالأعمال المالية وحصولهم على ثروة طائلة من وراء ذلك، وقد استغل فيليب الرابع ذلك الشعور لحل هيئة الداوية ومصادرة أموالها وعقاب أعضائها. انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، ج١ ص ٢٧٨-٢٨٦ ، ٤٥١، ٦١٩ (١٩٦٦).

(2) Cam, Med, Hist vol. 7. p.p. 343-358.

وكـان بركـارد هذا قد رحل إلى الشـرق الأدنى حوالى سنة ١٣٠٨، وعـاش هناك قرابة أربع وعشرين سنة قام فيـها بالعمل على نشر المذهب الكاثوليكى بين المسيحـيين الشرقيين، وبخاصـة الأرمن. وعندما عاد إلى أوربا سمع باستعدادات فيليب السادس ملك فرنسا للقيـام بحملة صليبيـة، فأسرع بوضع مشروعـه وتقديمه للملك سنة ١٣٣٢.. وقد شرح بركارد فى القسم الأول من مشروعه الدوافع التى تحتم القيام بحملة صليبية وأهمها نشـر المذهب الكاثوليكى فى الشـرق، وإنقـاذ المسيـحـيين الشـرقـيين من الاضطهـاد، ثم استـرداد الأماكن المقدسـة. وبعد ذلك انتـقل بركارد إلى ضرورة قيام حـالة من السلام والوئام بين الأمم الأوربية كشرط أساسى لنجاح أية حملة صليبية فى الشرق. فإذا ما أتم الملك إعداد الرجال والسلاح والمؤن، فإنه يستطيع الاتفاق مع البنادقة والجنوية على نقل الحملة، وحفظ خطوط المواصلات بين الصليبيين فى الشرق من ناحية والغرب الأوربى من ناحـيـة أخـرى. وهنا أشـار بركارد إلـى المحطات البـحـرية التـى يمكن أن يفـيـد منهـا الأسطول الصليبى فى البحـر المتوسط، مثل كريت – وكـانت بيد البندقية – فضلا عن جزيرة قبرص، حيث كـانت مملكة آل لوزجنان الصليبيـة، أما الطرق المؤدية إلى بلاد المسلمين فى الشرق فقد حصرها بركارد فى أربعة: أولها طريق شمال افريقية البرى وقد استبعده لطوله ومشقته. وثانيها الطريق البحرى، وفى هذه الحالة رأى بركارد أن ينتقل الصليبيون الى جزيرة قبرص أولا حيث يعقدون مجلساً للحرب يقررون فيه خطتهم النهائيـة فى غزو مصر أو الشام. وقد أظهـر بركـارد عدم حماسته لهـذه الطريق، لأن الفرنسيين والألمان لم يعتادوا ركوب البحر ولا يحتملون دواره. ثم يأتى بعد ذلك طريق إيطاليا والزحف منها براً إلى القسطنطينية، وبعد الاستيلاء عليها يصبح الطريق مفتوحاً أمام الصليبـيين إلى الشـام. وأخيـراً يذكـر بركـارد الطريـق البرى عـبر ألمانيـا وهنغـاريا وبلغاريا فالقسطنطينيـة، وهذا هو الطريق الذى فضله بركارد ونصح الملك فيليب السادس باتبـاعـه. ويلاحظ أن بركـارد تمسك بفكرة غزو بلاد الصرب واستيـلاء الصليبيين على القسطنطينية، وأورد الأسباب الدينية والسياسية والحربية التى تبرر هذا الاتجاه.

هذا عن القسم الأول من كتـاب بركـارد. وفى القسم الثانى حرص ذلك الداعى على تقديم النصح لضمان القيام بحرب ناجحة فى الشرق، فأوصى بعدم الثقة فى الأرمن أو فى المسيـحيين الخلطاء الذين ولدوا نتـيجة اخـتلاط الصليبـيين الغـربيين

بالمسيحيين الشرقيين من أرمن وسريان وغيرها. وقد أظهر بركارد اعتقاده فى أن المغول على استعداد لمعاونة الصليبيين كما أشار الى أن غزو المغول فى السنوات الأخيرة لبلاد الشام قد أضعف قوة المماليك مما سيسهل مهمة الصليبيين(١).

هذه هى أهم النقاط الأساسية فى تقرير بركارد؛ ومنها يتضح أن اقتراحاته وافتراضاته جاءت كثيرة، ولكن معظمها قليل الأهمية لأنه أظهر عداء نحو طوائف المسيحيين الشرقيين فاق عداءه للمسلمين، وجعل غزو بلاد الصرب الأرثوذكس والبيزنطيين فى القسطنطينية أركاناً أساسية فى مشروعه(٢). ومهما يكن من أمر فإن فيليب السادس ومستشاريه فحصوا تقرير بركارد فى عناية، فاستبعدوا ما جاء فيه بشأن تفضيل الطريق البرى. وهكذا أخذ ملك فرنسا يعد الترتيبات النهائية للقيام بحملة عن طريق البحر واجتمع لهذا الغرض مع ملك قبرص وممثلى الاسبتارية والبندقية فى حضرة البابا حنا الثانى والعشرين، وتم عقد اتفاقية بين جميع الأطراف لتنفيذ خطة الحملة، على أن مشروع الحملة لم يلبث أن تحطم فجأة عندما تجددت حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا؛ إذ بلغ فليب السادس – وهو بمرسيليا يشرف على الترتيبات النهائية للإقلاع إلى الشرق – نبأ هجوم الانجليز على بلاده، مما اضطره الى العودة مسرعا إلى باريس(٣).

أما مارينو سانودو Marino Sanudo فيحتل مكانة مهمة بين دعاة الحروب الصليبية فى القرن الرابع عشر، نظرا لأنه بندقى الأصل، وبالتالى فقد ظهرت فى مشروعه أهمية العامل التجارى فى الحركة الصليبية، ويبدو من تاريخ حياة سانودو أنه طاف بكثير من البلدان، فضلا عن أن معرفته باللغتين اليونانية واللاتينية جعلته يتمكن من دراسة كثير من المشاريع السابقة. وقد استطاع أن يقوم فيما بين سنتى ١٣٠٦، ١٣٢١ بعمل كتاب عن «أحوال الأرض المقدسة»، حدد فيه الخطوات الثلاث اللازمة للقيام بحملة صليبية ناجحة. أما الخطوة الأولى فهى إضعاف مصر اقتصاديا، وبعد ذلك تأتى الخطوة الثانية، وهى احتلال مصر حربيا، لاسيما وأن جميع موانى تلك الدولة ومدنها – فيما عدا القاهرة والاسكندرية – كانت فى رأى سانودو صعيفة التحصين، مما سيسهل على الصليبيين مهمة القضاء على دولة المماليك (٤). وأخيرا

(1) Atiya: op. cit, p.p. 95-113.
(2) Cam. Med. Hist vol 7, p. 343.
(٣) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، ج١ ، ص ٤٩٣ وما بعدها (١٩٦٦).
(4) Maeino Sanudo: secrets for True Crusaders tohelphem to recover the Holy Land, p. 58.

تأتى الخطوة الثانية وهى استيلاء الصليبيين على الاراضى المقدسة بالشام والاقامة فيها دون خشية أى تهديد من جانب مصر [١]. وهكذا رأى سانودو أن البدء بإرسال حملة مباشرة إلى الشرق لا يعنى سوى عملية انتحار بالنسبة للصليبيين، بسبب قوة المماليك الحربية الفائقة، وهى تقوم على أسس اقتصادية [٢]. ولعل هذا الاتجاه الاقتصادى فى الحركة الصليبية هو أهم ما يمكن أن يسترعى انتباهنا فى ذلك الدور الجديد من أدوار تلك الحركة نظراً لظهوره فى كثير من المشاريع الصليبية التى جاءت بعد ذلك فى بقية القرن الرابع عشر، وفى القرن الخامس عشر. وقد تقدم بتلك المشاريع جماعة من مشاهير الدعاة يطول بنا الأمر لو حاولنا الكلام عن كل واحد منهم على حدة، مثل بطرس دى توماس دى ميزيير، وبيروتافور، وفابر وغيرهم [٣].

الحصار الاقتصادي:

إذا كان العامل الدينى هو العامل الرئيس الذى سيطر على الحروب الصليبية فى دورها الأول، فإن المصالح والأغراض الدنيوية لم تلبث أن تحكمت فى تكييف العلاقات بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى، أى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . هذا وإن ظل الدين والشعور الدينى يتخذ ستاراً لكثير من المشاريع الصليبية فى تلك الفترة.

ذلك أن الجمهوريات الايطالية بوجه خاص لم تلبث أن أدركت أن رخاءها وسعادتها وحياتها صارت متوقفة على معاملاتها التجارية مع المسلمين [٤]. وكان نشاط هذه الجمهوريات البحرية والتجارية قد ازداد فى البحر المتوسط نتيجة للحروب الصليبية بالذات ففى الوقت الذى شغل ملوك الغرب الأوروبى بالمنازعات فيما بينهم وبين بعض، أو بالخلافات الداخلية والتطورات الدستورية فى بلادهم، دأبت الجمهوريات الإيطالية على تنمية معارفها ببلدان الشرق وتوثيق روابطها بها. ولم تلبث أن أصبحت هذه الجمهوريات – وبخاصة البندقية وجنوا وفلورنسا وبيزا – واسطة التجارة بين الشرق والغرب ، وصار لكل منها فنادق فى مدن مصر والشام

---

(1) Atiya: Op. cit, p.p. 114-127.

(2) Beazley: The Dawn of Modern Georaphy vol. 3. p.p.314-316 .

(٣) عن هؤلاء الدعاة وجهودهم بالتفصيل انظر : Atiya: op. cit, p.p. 128-230.

(4) Heyd: Op. cit, 1, p. 152& II, p. 430.

الرئيسة. وفى تلك الفنادق احتفظت كل جمهورية بممثل أو قنصل لها يرعى مصالحها ومصالح رعاياها، كما ينزل تجار كل جمهورية فى الفندق الخاص بهم، حيث يحفظون بضائعهم وأمواله، ويعيشون عيشة أقرب الى حياتهم فى بلدانهم، فكل فندق له مخبزه وحمامه الخاص .. الخ (١).

ذلك أنه حدث فى وسط الفوضى التى عمت الأقاليم الوسطى والغربية من آسيا نتيجة لغزو المغول، أن انسد طريق بغداد التجارى، ولم يبق هناك طريق أمام الغرب الأوربى للحصول على منتجات الشرق الأقصى والهند – وبخاصة التوابل والبخور – إلا طريق دولة المماليك؛ مما جعل تلك الدولة تجنى أرباحا طائلة من وراء احتكار تجارة الشرق، فضلا عن الأرباح التى حصل عليها التجار الإيطاليون من بيع هذه الحاصلات فى أوربا (٢). وهكذا لم تعد هناك مصلحة للجمهوريات الخاصة تطلبت مسالمة تلك الدولة والمحافظة على علاقاتها التجارية معها حرصا على مكاسبها وأرباحها. ولما كانت هاتان الجمهوريتان – بوجه خاص – تمتلكان أقوى وحدات من الأساطيل البحرية فى حوض البحر المتوسط، فإن المشكلة التى واجهت أصحاب المشاريع الصليبية فى القرن الرابع عشر والخامس عشر صارت كيفية إقناع الجمهوريات الإيطالية بالتضحية بمصالحها التجارية ذات الأهمية البالغة فى سبيل التجاوب مع الهدف الصليبى (٣). هذا فى الوقت الذى نادى دعاة الحروب الصليبية – مثل مارينو سانودو – بأن قوة المماليك إنما نبعت من قيامهم بدور الوسيط التجارى بين الشرق الأقصى من ناحية والجمهوريات الإيطالية من ناحية أخرى، وأن التخطيط السليم لنجاح الصليبيين فى الاستقرار بالشام يتطلب أن يبدأ الغرب الأوربى بفرض حصار اقتصادى على دولة الممالك، مما يؤدى الى إفقارها فإضعافها. وعندئذ يفعل بها الصليبيون ما يحلو لهم، ويقيمون فى الأراضى المقدسة آمنين مطمئنين(٤).

والواقع أن فكرة الحرب الاقتصادية ضد مصر والمماليك لم تكن جديدة، ولم تكن وليدة القرن الرابع عشر، وإنما ترجع أصول هذه الفكرة وجذورها إلى بعض الأدوار السابقة

(1) Kammerer: Le Regime et Le Le Status ds Etrangers En Egypte p. 20.
(2) Heyd: Op. cit, I. ps. 7, 378 and II. ps, 56, 57, 436 .
(3) Runciman: op. cit, III, p. 356.
(4) Beazley: The Dawn of Modern Geogaphy p. 314.

للحركة الصليبية . من ذلك أن الملك هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى عندما خاب ظنه فى مغول فارس، ووجد أن أولئك المغول انصرفوا نحو مشاكلهم الخاصة مع مغول القفجاق، لجأ إلى فكرة شن حرب اقتصادية على مصر[١] . ولما كانت مصر فى حاجة ماسة دائما الى الخشب والحديد لصناعة السفن وآلات الحصار، فان المماليك اعتادوا عندئذ استيراد هذه المواد الأولية، إما من جبال لبنان وإما من اقليم قيليقية وهى الجهات التى كانت تابعة لهيثوم ملك أرمينية وحليفه بوهيموند السادس أمير طرابلس – لذلك أصدر هيثوم ملك أرمينية أوامره المشددة سنة ١٢٦٠ الى أهالى قيليقية بمنع الاتجار مع المماليك منعا باتا ومنع تزويد سفنهم بما يلزمهم من حاجيات وبضائع. هذا فى الوقت الذى كان مغول فارس قد استولوا على العراق، وقطعوا طريق الفرات التجارى، كما كانت الموانى الرئيسة على ساحل الشام – مثل طرابلس وبيروت – لاتزال فى أيدى الصليبيين[٢] .

ولم يمض على ذلك سنوات قليلة حتى وصل فى مايو سنة ١٢٧١ الأمير إدوارد الإنجليزى إلى عكا، على رأس حملته الصليبية الصغيرة – كما سبق أن أشرنا، فأخذ يفكر فى وسيلة ناجحة قليلة التكاليف لمحاربة المماليك، لا سيما وأنه لم يحضر معه سوى قوة صغيرة لا تتجاوز ألف رجل. وكان أن صدم الأمير إدوارد عندما رأى تجار المسيحيين – وبخاصة من البنادقة – دائبين على إمداد الدولة المماليكية بكل ما تحتاج إليه، ليس فقط بالخشب والحديد اللازمين لصناعة السفن وآلات الحرب والحصار، بل أيضا بالرقيق الأبيض وبالمماليك أنفسهم الذين هم دعامة النظام المماليكى، والقوة البشرية التى اعتمد عليها جهازهم فى الحرب والسلم[٣] . وعبثاً حاول الصليبيون الاحتجاج على ذلك الوضع، وعبثاً لجأت الكنيسة الغربية إلى تهديد التجار الإيطاليين بتوقع عقوبة الحرمان عليهم، إذ مضى – البنادقة والجنوية بوجه خاص – فى سياستهم، واستمروا حريصين على بقاء علاقاتهم التجارية مع الإسكندرية بوجه خاص. ولما كان الصليبيون فى الشام لا يستطيعون الاستغناء عن الأساطيل البندقية والجنوية التى تربطهم بالغرب الأوربى، فانهم اضطروا إلى قبول ذلك الوضع، رغم ما فيه من أضرار تعود عليهم وعلى كيانهم بالشام(٤) .

---

(1) Grousset: Op. cit, III, p. 632.
(2) Mas Latrie: Hist de Chypre, I, p. 412.
(3) Heyd: op. cit, II. p. 560.
(4) Grousset: op. cit, III, p. 559.

وفى الوقت الذى سقطت طرابلس فى يد المماليك، وأخذت عكا تعد الأيام الباقية من عمرها فى قبضة الصليبيين، استولى الجنوية سنة ١٢٨٩ على سفينة للمماليك محملة بالسكر والتوابل قرب شاطئ الأناضول. ولما سمع السلطان قلاون بذلك الخبر، استاء وتوعد الجنوية بالويل والثبور، وعندئذ خشى هؤلاء على مصالحهم التجارية فى مصر – وهى تفوق كثيراً فى نظرهم الصالح الصليبى العام من حيث الأهمية – فأسرعوا إلى استرضاء السلطان قلاون وسلموه بضائع السفينة المنهوبة، بل عقدوا معه معاهدة صداقة واتفاقية تجارية حققت لهم كثيراً من المكاسب فى ١٣ مايو سنة ١٢٩٠، أى قبل سقوط عكا بعام واحد تقريباً [١].

والواقع أن فكرة فرض حصار اقتصادى على دولة المماليك فى مصر والشام لم تتخذ طابعاً عملياً واضحاً إلا بعد استيلاء المسلمين على عكا سنة ١٢٩١ . ذلك أن طرد الصليبيين كلية من الشام هز البابوية هزاً عنيفاً، فحاول البابا نيقولا الرابع أن يستثير الغرب الأوربى للقيام بحملة صليبية كبرى جديدة، ولما وجد تراخياً وعدم استجابة لمشروعه، أصدر قراراً بابوياً بتوقيع عقوبة الحرمان على كافة المدن والجمهوريات والدول الأوربية التى تتعامل تجارياً مع دولة المماليك. وجدير بالذكر أن هذا المرسوم البابوى اختص الرقيق والخيول، فضلا عن بعض المواد الأولية كالحديد والأخشاب والكبريت والقار. وجميعها كانت خامات أساسية فى الحرب وصناعة السفن[٢]. وقد أضاف البابا بونوفيس الثامن سنة ١٢٩٩ إلى المواد السابقة القمح والزيوت والنبيذ، وكانت مصر تستوردها جميعاً فى تلك العصور[٣].

على أن هذه القرارات البابوية التى قصد بها فرض حصار اقتصادى على مصر كان من الصعب تنفيذها، مادامت البابوية لا تمتلك القوة البحرية التى تمكنها من مراقبة شواطئ مصر، للتأكد من أن الجمهوريات الإيطالية احترمت القرار البابوى. ولهذا السبب تقدم هنرى الثانى ملك قبرص (١٢٨٥–١٣٢٤) بمشروع صليبى مهم إلى البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥–١٣١٤) نص فيه على أن أول خطوة

---

(1) Kammerer: Op. cit, I, p. 416-418.
(2) Kammerer: Le Mer Rouge. T.I, partie 2. p. 161.
(3) Heyd: op. cit, II, p. 26.

يجب اتباعها لضمان نجاح الصليبيين، هى العمل على إضعاف قوة المماليك اقتصاديا، بضرب حصار بحرى على مصر والشام مدة سنتين أو ثلاث، بشرط أن يكون الأسطول الصليبى المكلف بالحصار مستقلا تمام الاستقلال عن الجمهوريات الإيطالية التجارية التى تشكك هنرى الثانى فى إخلاصها للغرض الصليبى(١). وقد رأى هنرى أن ذلك الحصار كفيل بإضعاف دولة المماليك إلى درجة تجعلها عاجزة عن مقاومة حملة صليبية تنزل بأرض مصر نفسها، حتى إذا ما تم ذلك أصبح فتح الشام والاستيلاء على الأراضى المقدمة أمرا هيناً مادامت قبرص تواصل إمداد القوات الصليبية بالرجال والمؤن. ثم اختتم الملك هنرى تقريره ببعض المعلومات عن مقدرة مصر الحربية ومدى قوة السلطان، وأكد ضعف السلطنة المماليكية كثيرا عن ذى قبل بسبب إغارات التتار والمنازعات الداخلية(٢).

هذا ملخص التقرير الذى بسط فيه الملك هنرى الثانى مشروعه بصدد الحروب الصليبية. ومع أن هذا المشروع لم يأت بثمرة سريعة عاجلة، إلا أنه يهمنا من ناحيتين، الأولى أنه أكد مبدأ الحصار الاقتصادى على مصر والشام، كسلاح قاطع يسلط الغرب على رقاب المماليك لإضعافهم وإضعاف دولتهم. والثانية أنه أدرك عدم جدوى ذلك الحصار، إذا قامت به الجمهوريات الإيطالية، نظراً لما لهذه الجمهوريات من مصالح اقتصادية كبرى مع مصر بالذات، تجعل من الصعب الاطمئنان إليها فى تنفيذ تلك الحرب الاقتصادية. والواقع أن هنرى الثانى لوزجنان لم يكن سئ الظن فى تفكيره، لأن دوج البندقية أرسل مبعوثاً إلى البابا كلمنت السادس يشرح له أن حياة البندقية متوقفة على نشاطها التجارى، وأن منعها من التجارة مع سلطنة المماليك عاد بالخسارة والضعف، ويرجوه أن يسمح للبندقية بالتجارة مع المماليك فاستجاب البابا للرجاء وأذن للبندقية بالمتاجرة فى غير البضائع المحظورة مع دولة المماليك وذلك لمدة خمس سنوات تبدأ بسنة ١٣٤٤(٣).

وسرعان ما اتضح للبابوية أن تنفيذ فكرة الحصار الاقتصادى على مصر والشام

(١) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية ، ص٥٤ .

(2) Atiya: Op. cit, p. 58-60.

(3) Diehl: Une Republique Patricienne, p. 73 .

يتطلب إنشاء قوة بوليسية بحرية تخضع للبابوية تقوم بمراقبة شواطئ دولة المماليك، لمنع أية سفينة أوربية من الوصول إلى الموانى الإسلامية والمتاجرة مع المماليك. بل إن مارينو سانودو الذى سبق أن تعرضنا لمشروعه الصليبى، رأى أن تقوم الأساطيل المسيحية بمراقبة شواطئ الهند أيضا باعتبارها منبع التجارة بين المماليك والأوربيين(١).

وسرعان ما اتضح أن جزيرة قبرص بموقعها الفريد فى شرق البحر المتوسط هى أصلح مكان لتنفيذ المشاريع الصليبية السابقة. وإذا كانت الظروف لم تمكن هنرى الثانى ملك قبرص أو خلفه هيو الرابع (١٣٢٤-١٣٥٩) من القيام بعمل إيجابى ضد المماليك، فإن الملك بطرس الأول لوزجنان لم يلبث أن قام بحملته الصليبية الكبرى ضد الإسكندرية سنة ١٣٦٥، كما سيلى فيما بعد. ويهمنا الآن بالنسبة للجانب الاقتصادى، أن التجار الإيطاليين - وبخاصة البنادقة والجنوية - صدموا لما فعله بطرس الأول لوزجنان، وأدركوا ما ترتب على عمله من تهديد مباشر لمصالحهم التجارية فى مصر. لذلك أرسلت البندقة فى أبريل سنة ١٣٦٦ رسلا إلى السلطان الأشرف شعبان تؤكد له أن السفن التى أغارت على الإسكندرية لا تمت للبندقية بصلة وأن البنادقة بريئون مما حدث، وأنهم لم يساعدوا بطرس ولم يشتركوا معه(٢). بل إنهم دأبوا على حث بطرس الأول على عقد الصلح مع دولة المماليك وعلى منعه من تنفيذ مشروعه التالى الخاص بمهاجمة بيروت. ويقال إن البندقية بالذات تعهدت بدفع الأموال التى أنفقها الملك فى الاستعداد لحملة بيروت(٣).

والواقع أن البنادقة والجنوية كانوا على حق فى هلعهم لما فعله الملك بطرس، لأن إغارة ذلك الملك على الاسكندرية لم تؤثر فى تجارتهم مع الدولة المماليكية فحسب، بل أيضا فى علاقاتهم مع بقية الأقطار الاسلامية. ومن أمثلة ذلك أن بعض الجنوية والبنادقة قصدوا بلاد العراق برا بعد واقعة الإسكندرية سنة ١٣٦٥ للتجارة كعادتهم، فمنعهم السلطان أويس من دخول بغداد أو المتاجرة بها، وقال لهم «ارجعوا إلى سلطان مصر واستدركوا ما أفسدتهم فى الإسكندرية وأتونى بخط ملك مصر بدخولكم تحت طاعته، وحينئذ تبيعون ببلدى وتبتاعون منه (٤).

(1) Beasley: Dawn of Modern Geography. vol. 3, p.p. 314-316.

(2) Makhiaras: Recitalconcerning the Sweet Land of Cyprus; 157& Machaut, p. 115.

(٣) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٧١ .

(٤) النويرى: الإلمام بالإعلام، ج ٢ ورقة ١٨٢ (مخطوط)، طبعة حيدر أباد بالهند (١٩٨٦-١٩٧٦) ج٥، ص ٢٣١-٢٣٢.

وهكذا نهضت جزيرة قبرص بالذات بعبء الحرب الاقتصادية ضد المماليك فى مصر والشام. وكان لهذه الجّزيرة من مميزات الموقع الجغرافى ما مكنها من شن هجمات متوالية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر على الموانى الإسلامية فى مصر والشام. ولم تلبث الحرب الصليبية أن تطورت على يد القبارصة إلى نوع من القرصنة، فنسمع عن كثير من الإغارات التى شنها ملوك قبرص على شواطئ الدولة المماليكية فى تلك الحقبة. ثم إن ملوك قبرص لم يكتفوا بمهاجمة أراضى المماليك وشن حرب سافرة على شواطئ مصر والشام بين حين وآخر، وإنما حرصوا فى الوقت نفسه على إحكام الحصار الاقتصادى على مصر والشام، وحرمان دولة المماليك من أعظم موارد ثروتها وهى التجارة. وعلى الرغم من أن بعض التجار الأوربيين أطاعوا الأوامر البابوية التى تمنع الاتجار بتاتاً مع المسلمين – وذلك خوفا من البابوية أو بدافع شعورهم الدينى – إلا أن غالبية التجار الأوربيين اعتبروا التجارة مع الدولة المماليكية مسألة حياة أو موت بالنسبة لهم، نظرا لما درته عليهم من أرباح طائلة(١). وهنا نجد ملوك قبرص من ال لوزجنان يستغلون موقع جزيرتهم فى شن حرب شعواء دائبة على ذلك النفر من التجار الأوربيين الذين ظلوا يتاجرون مع بلد السلطان المماليكى، فكانت السفن القبرصية تتربص طريق ذهابهم أو عودتهم وتفتك بهم أشد فتك (٢). وهكذا بقى أهل قبرص «يفسدون فى البحر» ويقطعون الطريق على المراكب الآتية إلى دمياط والاسكندرية، علما منهم بأن سياسة الحصار الاقتصادى هى أقوى سلاح لهدم مصر والشام فى ذلك الدور الأخير من أدوار الحرب الصليبية(٣).

يلاحظ أن سياسة الحرب الاقتصادية لم تقتصر عندئذ على حوض البحر المتوسط فقط، وإنما إراد أصحاب المشاريع الصليبية أن يمدوا ذلك الحصار إلى البحر الأحمر حتى يكتمل تطويق دولة المماليك اقتصاديا. على أن قطع تجارة الشرق عن البحر الأحمر كان يستلزم أمرين، الأول هو البحث عن طريق آخر غير طريق البحر الأحمر ترد منه تجارة الشرق الأقصى إلى أوربا دون أن تمر بالبلاد التابعة لسلطان

---

(١) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٨٤–٨٥.

(2) Heyd: Op. cit, Tome II. p. 29.

(٣) العينى: عقد الجمان، ج ٢٥ قسم ٣ ورقة ٥٧٢ (مخطوط).

المماليك، والثانى هو التحالف مع إحدى القوى غير الإسلامية الواقعة قرب مدخل البحر الأحمر من ناحية الجنوب لتساعد الصليبيين الأوربيين فى قطع التجارة الواردة إلى دولة المماليك عن طريق ذلك البحر.

أما عن الأمر الأول، فإن جنوا بدأت فعلا فى البحث عن طريق آخر جديد يوصلها إلى الهند، حتى أدى بها البحث إلى كشف بعض أجزاء الساحل الغربى لإفريقية فى مواجهة جزر كناريا، مما يعتبر مقدمة للجهود التى أدت إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح فيما بعد (١). هذا إلى أن الصليبيين تناولوا فى مشاريعهم فكرة البحث عن طريق آخر - غير طريق مصر - للحصول على غلات الشرق الأقصى. من ذلك المشروع الذى قدمه الراهب الفرانسيسكانى فدنزيو Fidenzio للبابا نيقولا الرابع، والذى نادى فيه بتحويل تجارة الهند عن البحر الأحمر ومصر إلى الخليج وفارس، ثم أرمينية الصغرى وموانى قيليقية؛ ومن هناك تحمل السفن الأوربية المتاجر الآسيوية إلى الغرب (٢). وقد لجأت الجمهوريات الإيطالية - تحت ضغط البابوية - إلى استخدام هذا الطريق، مما يفسر التنافس الشديد فيما بينها - وبخاصة بين البندقية وجنوا - فى البلقان وموانى البحر الأسود والقسطنطينية وجزر بحر إيجه، فضلا عن جزيرة قبرص وكريت (٣). وفى أثناء هذا التنافس ظهرت أهمية عدة طرق جديدة للحصول على غلات الشرق الأقصى عن طريق المماليك. وأول هذه الطرق وأهمها طريق قبرص وموانى أرمينية الصغرى فالجزيرة فتبريز. وثانيها طريق البحر الأسود فموانى طرابيزون وسينوب ومنها براً إلى الفرات فتبريز، وثالثها - وهو أضعفها - طريق جنوب روسيا والقوقاز فالشرق الأقصى. وكان الطريق الأول - وهو طريق أرمينية الصغرى - أهم تلك الطرق، مما أدى إلى انتعاش إياس على الشاطئ الجنوبى لأرمينية الصغرى، ولا شك أن صداقة الأرمن مع المغول أدت إلى تأمين هذا الطريق وتنشيطه(٤).

---

(1) Beazley: Note Book of Middle Ages. p. 156.
(2) Atiya: op. cit, p. 41 .
(3) Heyd: op. cit, II. p. 4 .
(4) Idem, II, p. 86.

الحبشة والحروب الصليبية:

هذا عن الاتجاه الأول الخاص بالبحث عن طريق جديد غير طريق المماليك للوصول إلى تجارة الشرق، أما الاتجاه الثانى الخاص بالبحث عن حليف للصليبيين لغلق البحر الأحمر فى وجه المماليك من ناحية الجنوب، فلم يكن هناك أفضل من دولة الحبشة المسيحية، ليحالفها الصليبيون ويعتمدوا على مساعدتها فى إغلاق الباب الجنوبى للبحر الأحمر، ومنع تجارة الشرق الأقصى من السير فيه إلى موانى مصر الشرقية. ولذلك حرصت البابوية منذ القرن الرابع عشر بالذات على تقوية صلتها بالحبشة، فقام وليم آدم - الراهب الدومينكانى الذى اختاره البابا نيقولا الرابع سنة ١٣٠٥ لممارسة عملية التنصير فى الشرق - برحلة طويلة، زار فيها دولة مغول فارس، ومنها انتقل إلى عدن، فشرق إفريقية والحبشة، ثم عاد إلى أوربا سنة ١٣١٦(١). وفى هذه السنة الأخيرة - سنة ١٣١٦ - أرسل البابا يوحنا الثانى والعشرون سفارة من الدومينكان إلى الحبشة، ولكن رجالها وقعوا فى قبضة المماليك فى مصر. كذلك تعرضت لنفس المصير سفارة أخرى من الدومينكان أرسلها ملك فرنسا إلى الحبشة سنة ١٣٣٨ (٢) .

ويبدو أن هذه الاتصالات المتكررة بين الغرب الأوربى من ناحية وملوك الحبشة المسيحيين من ناحية أخرى نجحت فى استثارة ملوك الحبشة ضد المسلمين، وفى جذبهم إلى داخل مجال الحرب الصليبية. ومن ذلك ما ذكره لابرو كيير LaBorquiere من أن ملك الحبشة أسرع عندما بلغه نبأ إغارة بطرس لوزجنان ملك قبرص على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ إلى إعداد جيش ضخم من ثلاثة ملايين، وزحف على رأسهم شمالا لمهاجمة دولة المماليك من الجنوب. ولكنه لم يكد يقترب من تلك الحدود حتى علم بانسحاب بطرس لوزجنان من الإسكندرية، فقفل راجعا إلى بلاده بعد أن خسر فى تلك العملية زهاء مليونين من الرجال. وعلى الرغم مما فى هذه الأرقام من مبالغة واضحة، إلا أنها تشير إلى وجود اتصالات بين ملكى قبرص والحبشة بقصد كبس دول المماليك من الشمال والجنوب، وحصرها بين فكى كماشة مسيحية.

(1) Atiya: op. cit, p.p. 161-162.
(2) Kammerer. La Mer Rouge. I, p. 294.

ثم كان أن فكر إسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ -١٤٢٩) فى القيام بحملة صليبية كبرى ضد المماليك فى مصر، وشجعه على المضى فى مشروعه عاملان: الأول فرار الأمير الطنبغا والى قوص اليه وقيامه بتدريب الجيش الحبشى على استعمال السيوف والرماح والزرديات والنفط [١]، بعد أن كان الأحباش لا يعرفون غير استعمال النفط [٢] والعامل الثانى هو غزو المماليك لجزيرة قبرص سنة ١٤٢٦ وأسرهم ملكها جانوس، مما جعل الملك إسحق يكتب إلى ملوك أوربا سنة ١٤٢٨ يدعوهم إلى مشاركته فى حملة صليبية كبرى ضد المماليك فى مصر. ويروى المقريزى وأبو المحاسن أن رسول الملك أسحق إلى ملوك غرب أوربا كان تاجراً فارسياً مسلماً، اسمه على نور الدين التبريزى؛ غادر الحبشة إلى أوربا عن طريق مصر دون أن تفطن إليه السلطات المصرية. وقد أبلغ التبريزى الرسالة الى ملوك أوربا وتم الاتفاق على خطة مزدوجة، فتقوم الأساطيل الأوربية بمهاجمة مصر بحراً من جهة الشمال، وتقوم الجيوش الحبشية بمهاجمة مصر برا من جهة الجنوب. وبعد أن تم وضع جميع الترتيبات الخاصة بتنفيذ الخطة، عاد التبريزى إلى مصر فى طريقه إلى الحبشة، ولكن أحد رفاقه وشى به، فقبض عليه السلطان برسباى وقتله[٣].

وعلى الرغم من مقتل التبريزى، فإن دعوة ملك الحبشة صادقت قبولا من بعض ملوك أوربا. ومن ذلك ما يقال من أن الفونس الخامس ملك أرغونة شرع فى إعداد أسطول لمهاجمة شواطئ دولة المماليك، وأرسل سفارة إلى ملك الحبشة يؤكد فيها حسن نواياه عن طريق عقد مصاهرة بين الطرفين. وكانت التعليمات التى زودت بها تلك السفارة تقضى بمرورها بمصر للوقوف على أحوالها الحربية تمهيداً للحملة المنتظرة[٤]. كذلك أظهر ملك فرنسا اهتماماً كبيراً بذلك المشروع الصليبى، على الرغم من انشغال فرنسا عندئذ بحرب المائة عام [٥].

---

(١) العينى: عقد الجمان، ج ٢٣ ص ٣٠٥ (مخطوط).

(٢) كذلك يذكر المقريزى أن أخذ الأقباط – واسمه فجر الدولة – قام بتنظيم الدواوين لملك الحبشة، فصار ملكاً له سلطان وديوان بعدما كانت مملكته ومملكة أبائه همجا لا ديوان ولا ترتيب ولا قانون. المقريزى: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، ص ٤ .

(٣) المقريزى: المصدر السابق، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١٤ ص ٣٢٤-٣٢٥ (تحقيق جمال محرز وفهيم شلتوت). Budge: Abyssipia I, p. 287-288.

(4) Wiet: Les Relations Egypt-Abyssines Sous Les Sultans Mamluks p.p.;127-129.

(5) Ibid.

على أنه يبدو أن تحقيق فكرة اشتراك الحبشة مع الغرب الأوربى فى حملة صليبية كبرى ضد مصر كان أمراً متعذراً، وذلك لبعد المسافة بين الحبشة وغرب أوربا من ناحية، وصعوبة الظروف التى أحاطت بكل من الجبهتين عندئذ من ناحية أخرى. ومع ذلك فإن فكرة استغلال الحبشة فى القيام بعمل حربى ضد المماليك ظلت ماثلة فى أذهان أصحاب المشاريع الصليبية فى غرب أوربا حتى أواخر القرن الخامس عشر. ومن ذلك أنه حدث سنة ١٤٥٢ - أى قبيل سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين المسلمين، أشار فيه إلى أن البابا أيوجنيوس الرابع نجح فى مجمع فلورنسا سنة ١٤٣٩ فى إصلاح ذات البين بين الكنيستين الشرقية والغربية،. وأن هذا من شأنه أن يجعل من الممكن أن يؤلف من المسيحيين الشرقيين - ومن جملتهم «يعاقبة الحبشة» - جبهة قوية فى وجه المسلمين [١].

ولعل أخبار هذه الاتصالات بين ملوك الحبشة وملوك الغرب الأوربى هى التى جعلت سلاطين المماليك فى مصر يحتاطون لأنفسهم، ويراقبون البحر الأحمر مراقبة دقيقة ولا يسمحون للأوربيين باجتيازه إلا بتصريح خاص من السلطان [٢].

ولكنْ إذا كان الغرب الأوربى قد فشل فى تنصير جميع المغول لحصر الإسلام بين قوتين مسيحيتين، كما فشل فى الاعتماد على الحبشة فى القيام بعمل جدى ضد المسلمين فى الشرق الأدنى، فإن الأوربيين اتجهوا إلى فكرة جديدة هى محاولة اكتشاف طريق جديد - غير طريق دولة المماليك - للوصول إلى الشرق وامتلاك زمام تجارته. وكان أن نجح فاسكودى جاما البرتغالى فى كشف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند (١٤٩٧-١٤٩٩)، مما جاء بمثابة الضربة القاضية على دولة المماليك ومكانتها التجارية... وفى الحرب التى أعقبت ذلك الاكتشاف والتى دارت بين المماليك والبرتغاليين، أسهمت دولة الحبشة بسهم وافر فى مساعدة البرتغاليين المسيحيين ضد المماليك المسلمين [٣].

(1) Atiya: op. cit, p. 207.

(2) Heyd: op. cit, II. p. 439.

(٣) سعيد عاشور: بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى (بحث نشر فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، عدد ١٤، سنة ١٩٦٨). Alvarez: Narrative of the Portugeuse Embassy to Abyssinia p.p. 266-270.

والواقع أن الاتصالات الودية بين البرتغاليين والأحباش كانت قد بدأت قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، إذ أرسل ملك البرتغال أحد رجاله - واسمه كوفلهام - سنة ١٤٩٠ إلى إفريقية لكشف مواطن البهار، فوصل كوفلهام إلى الحبشة حيث تزوج هناك. ويقال إنه جرت فى ذلك الوقت مباحثات مهمة حول اشتراك البرتغاليين مع الأحباش فى حركة صليبية لكبس دولة المماليك من الشمال والجنوب ولكن هذه الاتصالات لم تقو إلا بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح، وبعد أن نجح البرتغاليون فى إنزال هزيمة بحرية كبرى بالمماليك فى موقعة ديو البحرية سنة ١٥٠٩، فعندئذ أرسلت هيلانة ملكة الحبشة رجلا أرمينياً اسمه ماتيو فى سفارة سنة ١٥١٠ إلى عمانويل ملك البرتغال لمفاوضته فى عقد اتفاقية حربية معه ضد المسلمين. وقد حرصت ملكة الحبشة فى الرسالة التى أرسلتها الى ملك البرتغال على تلقيبه بقاهر المسلمين، وأظهرت إعجابها بما أحرزه البرتغاليون من انتصارات على المسلمين فى المحيط الهندى، كما أبدت رغبتها فى أن يمدها البرتغاليون بالسفن اللازمة لنقل جنودها الأحباش إلى الحجاز لغزو مكة وتحطيم الكعبة، فضلا عن إغلاق البحر الأحمر من ناحيتى الطور شمالا وباب المندوب جنوبا (١).

ويلاحظ أن هذه المشروعات الصليبية الخاصة باشتراك الأحباش مع الأوربيين ضد المماليك، جاءت مصحوبة بفكرة أخرى، طالما نادى بها دعاة الحروب الصليبية، هى تجويع مصر والقضاء على من فيها بتحويل مجرى النيل فى الحبشة.

وهناك فى المصادر ما يشير إلى أن ملوك الحبشة هددوا أكثر من مرة بتحويل مجرى النيل فى بلادهم لتجويع مصر(٢). وقد أشار فيليب دى ميزيير - صاحب المشروع الصليبى الكبير فى القرن الرابع عشر - إلى إمكان تنفيذ مشروع تحويل مجرى النيل للقضاء على دولة المماليك قضاء تاماً. وظلت هذه الفكرة تراود عقول المتحمسين للحرب الصليبية حتى نهاية العصور الوسطى، فأرسل الفونس الخامس ملك أرغونة إلى ملك الحبشة سنة ١٤٥٠ يطلب منه أن يعمل على تحويل مجرى النيل

---

(1) Kammerer: op. cit, II, p.o. 254-255 .

(٢) السخاوى: التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ٦٧ وما بعدها.

ومهاجمة مصر من الجنوب، فى الوقت الذى يقوم ألفونس نفسه بغزو بيت المقدس وفلسطين(١).

ولما اشتد النزاع بين المماليك والبرتغاليين عقب كشف طريق رأس الرجاء الصالح، أرسل البوكرك - قائد الأسطول البرتغالى - إلى ملك البرتغال يطلب إمداده بعدد كبير من العمال المدربين على قطع الصخور وحفر الأرض، للعمل فوراً على تحويل مجرى النيل، مما يدل على اعتقاد الاوربيين والأحباش جميعاً فى إمكانية تنفيذ هذا المشروع. ولكن لم تلبث الأيام أن أثبتت أن النيل لا يستغنى عن مصر، كما أن مصر لا تستغنى عن النيل، وأن كليهما يرتبط بالآخر ارتباطا لا تستطيع قوة بشرية أن تفصم عراه. وبذلك ذهبت أوهام الصليبيين فى تحويل مجرى النيل مع الريح (٢).

---

(1) De La Ronciere: La Decoverte de L'Afrique au Moyen Age, Tome II, p. 119.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى.

الفصل الثاني

الحروب بين المماليك والبقايا الصليبية في الشرق الأدني

المالك وأرمينية الصغري:

شهدت السنوات العشر الأخيرة من القرن الثانى عشر مولد مملكتين مسيحيتين فى الشرق الأدنى، هما مملكة قبرص ومملكة أرمينية الصغرى. وقدر لهاتين المملكتين أن تعيشا عمراً أطول من جميع البقايا الصليبية الأخرى فى الشرق الأدنى، عدا بعض هيئات الفرسان.

أما مملكة أرمينية الصغرى فقد قامت فى إقليم قيليقية فى الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى بين جبال طوروس والبحر، وامتدت حتى حدود إمارة أنطاكية. وكان أهلها خليطاً من سكان آسيا الصغرى المسيحيين – وبخاصة الأرمن – الذين فروا إلى تلك المنطقة الجبلية فى جنوب شرق آسيا الصغرى واحتموا بها من خطر السلاجقة[1]. وقد سبق أن أشرنا إلى أن أمراء أرمينية الصغرى كانوا من سلالة أسرة باجراتيذاى Bagratidae التى حكمت أرمينية الكبرى منذ سنة ٨٨٥، والذين شردهم السلاجقة من بلادهم، فأسسوا إمارات متفرقة فى الأجزاء الشرقية من آسيا الصغرى والشمالية من أرض الجزيرة. ومن هؤلاء الأمراء الذين لمعت أسماؤهم فى أرمينية الصغرى فى القرن الثانى عشر، ليو وثوروس ومليحيه وروبان، وكان الأخير أميراً على أرمينية وقت استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس. وقد خلف روبان الأمير ليو أو ليون الذى حظى بعطف البابوية فضلاً عن الإمبراطورية الغربية، فاعترف به الإمبراطور هنرى الرابع ملكاً على أرمينية الصغرى، وتم تتويجه سنة ١١٩٨، وبذلك ولدت مملكة أرمينية الصغرى فى التاريخ[2].

وقد رأينا كيف استطاعت تلك المملكة المسيحية الصغيرة أن تنهض بدور بارز فى تاريخ الحروب الصليبية فى الشرق الأدنى، وذلك بحكم موقعها الجغرافى بين القوى الإسلامية والمسيحية العديدة فى شمال الشام والعراق وشرق آسيا الصغرى. هذا فضلاً عما ذكرناه من اتصال الأرمن بالبابوية والقوى المسيحية فى غرب أوروبا من

(1) Setton: op.cit.vol II, p.p. 630-685

(2) Stubbs: Seventeen Lectures on the Study of med. And Modern Hits p.p. 181-184.

ناحية، وبمغول فارس من ناحية أخرى لحثهم على مهاجمة المسلمين فى الشام، الأمر الذى جعل السلطان الظاهر بيبرس يوجه هجماته ضد أرمينية الصغرى سنة ١٢٦٦ ثم سنة ١٢٧٣، كما سبق أن فصلنا(١).

وكان العداء بين المماليك والأرمن فى حقيقة أمره حلقة فى سلسلة العداوات بين القوى الإسلامية والمسيحية زمن الحروب الصليبية. ولم يكن منتظراً أن ينتهى ذلك العداء إلا بانتهاء قصة الحروب الصليبية نفسها. وهكذا استمرت الحروب بين المماليك وأرمينية الصغرى فى عصر أسرة قلاون. من ذلك ما قام به السلطان المنصور قلاون من مهاجمة إياس سنة ١٢٨٣ وإنزال الهزيمة بالأرمن(٢). ويبدو أن ملوك أرمينية تعهدوا – عقب الهزائم المتلاحقة التى نزلت بهم على أيدى سلاطين المماليك – بدفع جزية سنوية، بدليل ما تشير إليه المراجع من قطع تلك الجزية فى عهد السلطان الأشرف خليل بطل عكا. ولم يكد السلطان خليل يفرغ من الاستيلاء على عكا حتى بادر بإرسال رسالة إلى هيثوم الثانى ملك أرمينية الصغرى يخبره بفتح عكا ويذكره بقوة المماليك وبأسهم، ويطلب منه أن يعتبر بما حل بعكا، وإلا تندم ندامة أهل عكا حيث لا ينفع الندم(٣).

ثم كان أن تأهب السلطان الأشرف خليل سنة ١٢٩٢ لإرسال حملة لاستعادة بهسنى من الأرمن، غير أن رسل ملك أرمينية أسرعوا إلى القدوم إلى دمشق يطلبون عفو السلطان. وانتهى الأمر باستيلاء المماليك على بهسنى ومرعش وتل حمدون، فضلاً عن أن ملك أرمينية أعلن ولاءه للسلطان(٤). وعندما أخل الأرمن بالعهد وحاولوا استعادة البلدان التى نزلوا عنها للمماليك، أسرع السلطان المنصور لاجين إلى إرسال حملة هاجمت مدينة سيس واستولت على تل حمدون، الأمر الذى جعل الأرمن يحملون ملكهم سمباد تبعة تلك الهزائم، فعزلوه وأحلوا محله أخاه قسطنطين سنة ١٢٩٨.

وقد أظهر قسطنطين هذا طاعته للمماليك، وعقد معهم اتفاقية تنازل لهم

(١) مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد، ١٥٢ – ٢٢٦.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ ص ٧١٦.

(٣) محمد جمال الدين سرور، دولة بن قلاون في مصر، ص ٢٢٤–٢٢٥. ويذكر ابن أيبك (كنز الدرر، ج٨، ص ٣٤١) أن السلطان خليل بادر بعد الاستيلاء علي عكا بفتح قلعة الروم سنة ٦٩١هـ، فخاف ملك أرمينية الصغري، واختشي علي بلاده، وضاعف الجزية التي كان يدفعها لسلطنة المماليك، وأكثر من الهدايا والتحف.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣ ص٣٣٢، ابن حبيب تذكرة النبيه، ج١ ص١٦٠. المقريزي: السلوك، ج١ ص ٧٨٤.

بمقتضاها عن كثير من القلاع والمراكز[١]. ولكن الأرمن تنكروا لتلك الاتفاقية وشجعهم على تغيير موقفهم غزو غازان لبلاد الشام سنة ١٢٩٩، وعندئذ اضطر المماليك إلى الانسحاب من المدن الأرمينية التى كانت فى حوزتهم[٢].

وهنا نلاحظ أثر العامل الاقتصادى فى إشعال نار العداء بين المماليك وأرمينية الصغرى فى القرن الرابع عشر، إذ لجأ ملوك أرمينية الصغرى إلى مساعدة البابوية فى إحكار الحصار الاقتصادى عن طريق فتح أبواب موانيهم - وبخاصة إياس - للسفن الغربية. وقد دفع ذلك الغرب الأوروبى إلى تحويل جزء كبير من نشاطه التجارى إلى طريق إياس - الجزيرة - تبريز، واستعاض التجار الأوربيون بهذا الطريق عن طريق المماليك المألوف، فى الحصول على كثير من متاجر الشرق. ولا أدل على حرص الأرمن على تشجيع التجار الأوربيين على ارتياد هذا الطريق من تخفيض الضريبة على البضائع المارة بأرمينية من ٤٪ إلى ٢٪ من قيمة البضاعة[٣]. ولا شك أن هذه السياسة التى اتبعها ملوك أرمينية الصغرى أغضبت المماليك بعد أن أحسوا فعلا بتدهور مركز بلادهم فى التجارة العالمية بين الشرق والغرب، وبعد أن أدركوا أن ثمة تفاهماً بين الغرب الأوروبى والمغول والأرمن والقبارصة لإحكام الحصار الاقتصادى على دولة المماليك فى مصر والشام.

ولم يسكت السلطان الناصر محمد بن قلاون عن ذلك الوضع، فأرسل الأمير بكتاش الفخرى على رأس حملة ضد أرمينية الصغرى سنة ١٣٠١، وانضم إليه نائب حماة، ثم هاجمت تلك الحملة سيس وخربتها، وقد انتقم الأرمن من المماليك بالانضمام إلى المغول فى حملتهم على بلاد الشام سنة ١٣٠٣ مما جعل الناصر محمد يوجه حملة كبرى ضد أرمينية الصغرى سنة ١٣٠٤ عقب فراغه من أمر المغول. وفى تلك الحملة دخل المماليك سيس وخربوا الضياع وأسروا أهلها، كما استولوا على قلعة تل حمدون، ثم عادوا يسوقون عدداً كبيراً من الأسرى وقدراً ضخماً من الغنائم[٤].

---

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٤ ص ٣٦ .

(2) Lorge: L'Armenie Cilicienne. P.p. 128-129.

(3) Geyd: op. cit.11.p.86.

(٤) النويري: نهاية الأرب، ج٣٠ ص ٢٣-٢٤ (مخطوط). المقريزي: السلوك، ج١ ص ٩٤٩، أبو الفدا: المختصر، ج٤ ص ٤٦ .

على أنه إذا كانت أرمينية الصغرى قد تعهدت بدفع الجزية بانتظام لسلطان المماليك، إلا أن ملوك الأرمن لم يحافظوا على عهدهم، فأرسل نائب حلب الأمير سيف الدين قشتمر جيشاً دمر كثيراً من القرى الأرمينية وأحرق بعضها حتى تمكنت جيوش المغول والأرمن من صد المماليك وإنزال الهزيمة بهم(١). ويبدو أن ملك أرمينية خشى عاقبة تلك الهزيمة التى أنزلها المغول بالمماليك فى بلاده، لاسيما بعد أن علم أن السلطان الناصر محمد يستعد للانتقام وأخذ يعد حملة جديدة تحت قيادة عاجلة إلى نائب حلب حاول أن يتخلص فيها من تبعة محاربة المماليك، ويلقى بتلك التبعة على عاتق المغول وحدهم، وتعهد بدفع الإتاوة بانتظام، فضلاً عما أرسله للسلطان عندئذ من هدايا ثمينة(٢).

وإذا كان السلطان الناصر محمد قد عدل مؤقتاً عن إرسال حملة ضد أرمينية، إلا أنه طلب من أوشين "Oshin"ملك أرمينية ضرورة تسليم البلاد والقلاع التى استولى عليها المماليك فى عهد السلطان المنصور لاجين. وعندما امتنع أوشين عن إجابة السلطان إلى طلبه، أرسل الأخير حملة بقيادة الأمير شهاب الدين قرطاوى سنة ١٣٢٠ ضد أرمينية، فحاصر المماليك سيس وخربوها مع غيرها من البلاد والقلاع الأرمينية ثم عادوا محملين بالغنائم الوفيرة(٣).

ثم كان أن توفى أوشين ملك أرمينية الصغرى سنة ١٣٢٠ فخلفه ابنه ليو الخامس الذى كان صغيراً. وقد أحس الوصى على الملك الصغير بخطر المماليك، فأرسل إلى البابا حنا الثانى والعشرين بطلب المعونة ضد المسلمين. وكان أن استجابت البابوية لاستغاثة ملك أرمينية الصغرى، فأصدر البابا حنا الثانى والعشرون مرسوماً جديداً لحظر التعامل التجارى مع مصر سنة ١٣٢٢، ثم مرسوماً آخر سنة ١٣٢٣ للغرض نفسه، مما أضر بتجارة مصر ضرراً بليغاً(٤). ولكن السلطان الناصر محمد لم يستطع السكوت على ما أقام به الأرمن عندئذ من استفزاز القوى الغربية ضد سلطنة المماليك، فأرسل قواته للإغارة على المدن الأرمينية وإحراق أذنة سنة ١٣٢٢، دون

(١) ابن خلدون: العبر، ج٥ ص ٤٢٠ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢ ص ١٧ .

(٣) ابن حبيب: تذكرة النبيه – ج٢ ص ١٠٧ (تحقيق محمد محمد أمين) سعيد عاشور: سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغري. (بحث نشر في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٦٨).

(4) Heyd: op.cit. II. P.p.42-43

أن يستطيع البابا عمل شئ سوى إرسال بعض الأموال لمساعدة الأرمن، فضلاً عن الاتصال بمغول فارس طالباً منهم الإسراع بنجدة أرمينية الصغرى(١).

وهكذا استمرت جيوش المماليك تهدد أرمينية عاماً بعد عام، دون أن يحصل ليو الخامس على معونة تذكر سواء من الغرب الأوروبى أو من مغول فارس، الأمر الذى جعله يرسل قسطنطين - بطرق الأرمن - سفيراً إلى مصر، يحمل الهدايا والأموال للسلطان طالباً الصلح، واعتذر الرسول عما كان من ملك سيس. وفعلا تم الصلح سنة ١٣٢٣ بين الطرفين لمدة خمسة عشر عاماً، بعد أن تعهد الرسول بأن يحمل فى كل سنة مائة ألف درهم(٢).

ولم تلبث الأخبار أن وصلت مسامع ليو الخامس ملك أرمينية بأن فيليب السادس ملك فرنسا يستعد للقيام بحملة صليبية على الشرق، فتشجع الملك الأرمنى، وخرق الاتفاقية التى عقدها مع سلطنة المماليك، بل إنه أغار على بعض البلدان الإسلامية فى بلاد الشام، الأمر الذى جعل السلطان الناصر محمد يرسل حملة تحت قيادة علاء الدين ألطنبغا نائب حلب ضد أرمينية سنة ١٣٣٦ . وقد ظلت هذه الحملة تعمل فى الأراضى الأرمينية حتى وافق الأرمن على التنازل عن جزء كبير من بلادهم. ومع ذلك لم تنقطع غزوات المماليك فى أرمينية الصغرى بقية القرن الرابع عشر، حتى استطاع السلطان الأشرف شعبان أن يقضى قضاء تاماً على دولة أرمينية الصغرى(٣).

ذلك أن السلطان شعبان أمر نائبه فى حلب - الأمير أشقتمر الماردينى - بغزو أرمينية سنة ١٣٧٤، فخرجت الجيوش المماليكية إلى سيس عاصمة مملكة الأرمن، واستطاعت فتحها بعد حصار ثلاثة شهور(٤). أما ليو السادس ملك أرمينية فقد استطاع الفرار ومعه أسرته إلى قلعة جابان - وهى قلعة حصينة فى جبال طوروس - فلحقت

(1) Howorth: History of the Mongols,. III.p.p. 603-604& ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢ ص ١٢٤ . فأغاروا وقتلوا من الأرمن طائفة كبيرة، وأسروا جماعة منهم، وشعثوا وخربوا....

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢ ص ٢٤٦ .

(٣) أبو الفدا: المختصر في أخبار النشر، ج ٤ ص ١١٩ الشجاعي: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، ص ٨ .(حقيق شيفر).

(٤) ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج٢ ص ١٦٨ . سعيد عاشور: سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغري.

به جيوش المماليك وحاصرته تسعة شهور. وكان أن سبق ليو السادس آخر ملوك أرمينية إلى القاهرة حيث ظل أسيراً بضع سنوات، حتى جمع الباب كلمنت السادس – بالإشتراك مع ملوك أوروبا – المال اللازم لفدائه، وعندئذ أطلق سراحه فقضى بقية حياته فى غرب أوروبا[١].

وهكذا انتهت دولة أرمينية الصغرى قبل أن ينقضى قرن واحد على سقوط عكا آخر البقايا الصليبية بالشام. ومن الواضح أنه كان من العسير على أرمينية الصغرى البقاء طويلاً وسط التيارات المتلاطمة التى أحاطت بها، حتى شبهها الرحالة البندقى ماركو بولو (١٢٥٤ – ١٣٢٤) بأنها كانت فريسة سهلة بين أسد المغول ونمر المماليك وذئب الأتراك وثعبان قراصنة البحر[٢]. وإذا كانت أرمينية الصغرى قد وجدت لنفسها سنداً فى الصليبيين بالشام، ثم فى مغول فارس، فإن هاتين الدعامتين انهارتا بسقوط عكا وطرد آخر البقايا الصليبية من الشام سنة ١٢٩١، ثم بسقوط إيلخانية مغول فارس سنة ١٣٥٣ . وبذلك تركت أرمينية الصغرى وحيدة دون نصير، إلا ما كانت تتلقاه من مساعدات محدودة من آل لوزجنان بقبرص. وقد سبق أن شرحنا كيف كانت البابوية والغرب الأوروبى عندئذ فى حالة لا تمكنها من تقديم مساعدة فعلية إلى البقايا الصليبية بالشرق. وكل ما فعلته البابوية لإنقاذ أرمينية من مصيرها المحتوم هو حث البندقية على القيام بدور الوساطة بين المماليك والأرمن. ولكن البندقية رفضت أن تقوم بتلك الوساطة، خوفاً من إغضاب سلطنة المماليك، وحرصاً على مصالحها الاقتصادية فى مصر[٣]. أما عن قبرص فإن غزو المماليك لأرمينية الصغرى جاء بعد الصلح الذى تم سنة ١٣٧٠ بين بطرس الثانى ملك قبرص ودولة المماليك[٤]. ولذلك لم يتحرك آل لوزجنان بقبرص لنجدة أرمينية الصغرى سنة ١٣٧٤ . وهكذا شاءت الظروف أن يقف الأرمن وملكهم ليو السادس وحدهم أمام الغزو المماليكى، وذلك إذا استثنينا المساعدات الضعيفة التى قدمها فرسان جزيرة رودس[٥].

(1) Dulaurier: Recherhes sur la Chronologie Armenienne (Rec.Hist.cr.Tome 1,p.723).

(2) Marco Polo: Travles. Vol 1.p.42.

(3) Dulaurier:op. cit.p. 709.

(٤) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص٨٢ .

(5) Mas Lartie: Des Relations Politque et Commerciales del' Asie Mineure avec L'ile de Chypre Sous le Regne la Maison de Lusignan. P.122.

ولا تخفى علينا النتائج التى ترتبت على سقوط دولة أرمينية الصغرى، وهى الدولة التى طالما ساندت الصليبيين وهددت المسلمين بالشام وأطراف العراق وآسيا الصغرى، فضلاً عن تهديدها الاقتصادى لدولة المماليك فى مصر والشام. والواقع أن سقوط مملكة أرمينية الصغرى الصليبية ليس إلا فصلاً من الفصول الختامية فى قصة الحروب الصليبية بالشرق الأدنى، حيث إن هذه المملكة جاءت وليدة الحركة الصليبية، عاشت فى ظل تلك الحركة، وشاركت فى أحداثها مشاركة فعالة كما مر بنا؛ حتى انتهى أمرها سنة ١٣٧٤ بأن أصبحت جزءاً من نيابة حلب التابعة لسلطنة المماليك فى مصر والشام(١).

قبرص ودولة المماليك في مصر والشام:

رأينا ما كان هناك من دخول جزيرة قبرص دائرة الحروب الصليبية على يد ريتشارد قلب الأسد فى أواخر القرن الثانى عشر، ثم قيام بيت لوزجنان فى حكم قبرص بعد ذلك بقليل، وجهود ملوك ذلك البيت فى مساندة إخوانهم الصليبيين بالشام وإمدادهم بالمؤن والسلاح والرجال. وليس أدل على الترابط بين الصليبيين فى الشام وإخوانهم فى قبرص من أن تاجى مملكة بيت المقدس ومملكة قبرص كثيراً ما اتحدا فى القرن الثالث عشر، فتولى المملكتين ملك واحد كما مر بنا.

ولكن استيلاء المسلمين على عكا سنة ١٢٩١ ترتبت عليه نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لجزيرة قبرص فى الحروب الصليبية. ذلك أن قبرص التى كانت قبل سقوط عكا معقلاً مهماً من معاقل الصليبيين بالشرق، غدت بعد سنة ١٢٩١ أهم هذه المعاقل الصليبية فى الشرق الأدنى، وأضحى ملوك لوزجنان وسلاطين المماليك وجهاً لوجه والصراع بينهما مباشراً دون وساطة(٢). ولا أدل على ذلك من أن قبرص فتحت أبوابها للاجئين والمشردين من بقايا الصليبيين الفارين من بلاد الشام. وهم الذين خسروا بسقوط عكا آخر مكان يمكنهم أن يؤووا إليه ببلاد الشام، فلم يبق أمامهم سوى جزيرة قبرص القريبة المنيعة. وهكذا أخذوا الصليبيون ينزحون إلى الجزيرة فرادى وجماعات، ومعهم نساؤهم وأولادهم وما أمكن نقله من ثرواتهم(٣). وهناك فى قبرص

(١) سعيد عاشور: سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغري. (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٦٨).

(٢) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية . ص ٥٣ .

(3) Schlumberger: Prise de Sanit. Jean d' Acre. P.53.

رحب بهم الملك هنرى الثانى، كما آوى هيئات الفرسان المشردة من بلاد الشام فضلاً عن الاسبتارية فى ليماسول إلى أن تم لهم انتزاع جَزيرة رودس من الدولة البيزنطية سنة ١٣٠٩ فاتخذوها مقراً لهم(١).

وقد سبق أن أشرنا إلى المشروع الصليبى الذى تقدم به هنرى الثانى لوزجنان ملك قبرص إلى البابا كلمنت الخامس، وكيف أن الملك هنرى نادى فى مشروعه بضرورة فرض حصار اقتصادى على مصر، لإضعاف دولة المماليك. كذلك أشرنا إلى الحرب الاقتصادية التى شنها ملوك قبرص على سلطنة المماليك فى مصر والشام، وكيف أن تلك الحرب اتخذت شكل إغارات متفرقة على بعض المدن الساحلية، من جهة، ثم التربص للسفن الإسلامية أو الإيطالية فى عرض البحر وقطع الطريق عليها إلى شواطئ مصر والشام من جهة أخرى. على أنه حدث سنة ١٣٥٩ أن تولى عرش قبرص الملك بطرس الأول لوزجنان الذى كان فى جرأته وشخصيته وحماسته نموذجاً لفرسان العصور الوسطى. وقد صمم الملك بطرس الأول منذ اعتلائه العرش على أن يجعل من نفسه البطل المدافع عن المسيحية ضد الإسلام، وأن يكرس جهوده لخدمة القضية الصليبية(٢). ذلك أنه لم يقنع بالغارات المحلية الصغيرة على بعض الموانئ والسفن الإسلامية، وإنما أراد أن يقوم بحملة صليبية ضخمة يطعن بها المسلمين طعنة نجلاء. وعندما أدرك بطرس أن تنفيذ هذا المشروع يحتاج إلى استعدادات ضخمة وموارد عديدة فى الرجال والمال، قام برحلة طويلة فى غرب أوربا (١٣٦٢ - ١٣٦٥) للدعاية لحملته، والحصول على ما يرغب فيه من معونة ومساعدات(٣). وفى أغسطس سنة ١٣٦٥ عاد بطرس لوزجنان من رحلته إلى جزيرة رودس حيث اجتمعت السفن الصليبية وعدد كبير من المغامرين والأنصار(٤).

وكانت المشكلة أمام بطرس لوزجنان بعد أن جمع قواته فى رودس هى اختيار المكان المناسب لطعن المسلمين طعنة قاتلة. وعندئذ أشار عليه بعض خاصته بأن يهاجم الإسكندرية فى يوم جمعة والمسلمون بالمساجد(٥). وقد صادف هذا الرأى

(١) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص٥٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٦ .

(3) Machaut: Laprise de L'Alexandrie ou Chronique de Roi Pierre Lusignan p.p. 12-47.

(4) Makhiaras: Recital Concerning the sweet Land of cyprus p.151.

(5) Machaut: op, cit, p.61.

استحساناً من الملك بطرس، فأبحر على رأس حملته من رودس فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٣٦٥ ليصل شاطئ الإسكندرية فى ١٩ أكتوبر من العام نفسه[١]. وكانت دولة المماليك عندئذ تعانى عدم الاستقرار بسبب صغر سن السلطان الأشرف زين الدين أبو المعالى شعبان – حفيد الناصر محمد – وقيام وصى جائر هو يلبغا الخاصكى الذى تحكم فى البلاد. وهكذا تمكن بطرس الأول من إنزال رجاله إلى الشاطئ يوم الجمعة ١٠ أكتوبر كما نجح فى اقتحام المدينة على رأس رجاله فى غير صعوبة[٢].

ولم يلبث أن انتشر الصليبيون فى أرجاء الإسكندرية، فاستولى الذعر على أهلها وفروا تاركين المدينة بما فيها للفرنج، حتى ضاقت الأبواب على الفارين لكثرتهم فهلك منهم مئات من شدة الزحام[٣]. وفى وسط تلك الطامة انتهز العربان الفرصة للنهب والسلب. فوقع السكندريون بين نارين، وتشتتوا فى الحقول المجاورة للإسكندرية حيث ساءت حالتهم بسبب نقص الطعام وعدوان العربان[٤].

أما بطرس لوزجنان فقد دخل الإسكندرية، باطمئنان على قول النويرى السكندرى، فاستلم الناس بالسيف، وفعل رجاله بالمدينة ما يضيق المقام عن شرحه، إذ نهبوا الحوانيت والفنادق وأحرقوا القصور والخانات، واعتدوا على النساء والبنات، وخربوا الجوامع والمساجد، وقتلوا كل من صادفوه فى الشوارع والبيوت.[٥] وبلغ من وحشية الصليبيين فى تلك الحملة أنهم كانوا يقتلون المرأة بعد أن يذبحوا ابنها على صدرها[٦]. وقد استدل الصليبيون فى التعرف على أماكن الثروة ودور الأغنياء بسكان الثغر من الفرنجة الذين دلوهم على الخبايا والمكنونات فنهبوها.

وبعد أن أتى الصليبيون على كل ما بالإسكندرية من صامت وناطق على قول المقريزى[٧]، أسرعوا بالرحيل عن المدينة يوم السبت ١١ أكتوبر، خوفاً من اقتراب جيش المماليك. وقد أخذ الصليبيون معهم نحواً من خمسة آلاف أسير، فضلاً عن

(١) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص٦٢–٦٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٦٣–٦٤ .
(٣) المقريزي: السلوك، ج٤، ص ١٠٦ (تحقيق سعيد عاشور).
(٤) النويري السكندري:الإلمام بالأعلام، ج٢ ص ١٦٢، ٢٦٩ (طبعة حيدر أباد).
(٥) المصدر السابق: ج١ ص ١٦٤ وما بعدها.
(٦) ابن حبيب: درة الأسلاك في دولة الأتراك، ج٣ ورقة ١٣ ب (مخطوط). النويري السكندري : الألمام، ج١ ص ٢٠٧ .
(٧) المقريزي: السلوك، ج٤ ص ١٠٦ (تحقيق سعيد عاشور).

البضائع المنهوبة والنفائس المسلوبة، حتى ضاقت السفن بما فيها وثقلت بما عليها، فأخذوا يلقون ببعض حمولة السفن فى البحر لتخف من ثقل الحمولة(١). ومن الإسكندرية عاد بطرس الأول لوزجنان إلى قبرص حيث أقيمت له الاحتفالات العظيمة، فى حين أخذ فى كتابة الرسائل إلى البابا وملوك الغرب يخبرهم بما أحرزه الصليبيون من نجاح على يده، ويوضح لهم أنه اضطر إلى الجلاء عن الإسكندرية لقلة ما لديه من الإمكانات الحربية، ويؤكد لهم عزمه على معاودة الكرة إذا وجد معيناً(٢).

والواقع أن استيلاء ملك قبرص على الإسكندرية أحدث دوياً شديداً فى الغرب الأوربى، فأرسل البابا إلى بطرس مهنئاً، كما أرسل إلى ملوك الغرب وأمرائه يناشدهم أن يسرعوا فى تقديم المساعدة إلى ملك قبرص الأسد الشجاع(٣) ولم تلبث أن دبت الحماسة فى قلب شارل الخامس ملك فرنسا، فأرسل إلى الملك بطرس يخبره بأنه سوف يبعث إليه بجيش عظيم يحطم به قوة المسلمين(٤). كذلك سمع كثير من المغامرين من فرسان أوربا بوفرة الغنائم التى غنمها الصليبيون من الإسكندرية، فنزحوا إلى قبرص للدخول فى خدمة ملكها، وطلبوا غداة وصولهم القيام بهجوم صليبيى فوراً على المسلمين(٥). غير أن الأمر وقف عند ذلك الحد، لأنه فيما عدا أولئك المغامرين، لم يلب أحد من أمراء أوربا أو ملوكها نداء البابا، بل إنهم لاموا الملك بطرس لأنه تخلى عن الإسكندرية، وقالوا بأنه كان يجب عليه أن يحتفظ بها حتى تأتيه النجدة من الغرب، والحقيقة أنه على الرغم من كثرة الغنائم التى غنمها الصليبيون من الإسكندرية فى حملتهم سنة ١٣٦٥، وعلى الرغم من عظم الخسائر التى ألحقوها بالمسلمين، فإن حملة بطرس لوزجنان فاشلة من حيث إنها لم تستطع الاحتفاظ بالثغر، وكل ما هنالك هو أن الصليبيين قنعوا بما حصلوه من غنائم، وأسرعوا بالفرار قبل أن يدهمهم المسلمون، مما جعل النويرى يقول على الملك بطرس إنه دخلها لصا وخرج منها لصاً...(٦).

---

(١) النويري السكندري: الإلمام، ج١، ص ١٧٤ (طبعة حيدر أباد)

(2) Makhiaras: op. cit, p.155.

(3) Mas Latrie: L'lle de chypre. P.280.

(4) Makhiaras: op. Cit, p. 127.

(5) Mas Latrie: op. cit, p.280.

(٦) النويري: السكندري: الإلمام، ج٣ ص ٦٥ . ج٣، ص ٢٠٩ (طبعة حيدر أباد).

أما عن المماليك فإنهم لم يستطيعوا أن يغفروا لملك قبرص ما حل بالإسكندرية على يديه سنة ١٣٦٥، وأخذوا يترقبون الفرصة المواتية للانتقام. هذا إلى أن بطرس لم يقنع بما فعله بالإسكندرية بل أغار على طرابلس سنة ١٣٦٧ . ولما فشل فى إغارته هذه قام بعدة إغارات صغيرة على جبلة واللاذقية وبانياس[١]، ثم إن قبرص غدت وكراً لقراصنة الصليبيين يخرجون منها للإغارة على البلدان والسفن الإسلامية. من ذلك أن أحد القبارصة المعاصرين - واسمه حنا الصورى - أغار على صرفند على ساحل الشام سنة ١٣٦٧، فقتل من أهلها ثلاثين وأسر ثلاثة عشر. وفى سنة ١٣٦٨، خرج أخوان جنويان من قبرص فأغارا على صيدا، ثم قصدا الإسكندرية حيث وجدا سفينة إسلامية موسوقة بالبضائع للسفر إلى طرابلس الغرب، فأسراها وعادا بها إلى فاما جوستا[٢].

وكان من المستحيل أن يصبر المماليك فى مصر على تلك الاعتداءات المتكررة من جانب قبرص وملوكها. والواقع أن التفكير فى غزو قبرص بدأ جديا عقب جلاء بطرس لوزجنان عن الإسكندرية سنة ١٣٦٥، إذ أمر يلبغا الخاصكى ببناء المراكب والسفن، كما أرسل إلى الشام يأمر بتشغيل كل من يعرف يمسك منشاراً فى قطع الأخشاب وبناء السفن برسم غزو قبرص[٣].

ولكن إذا كانت الظروف قد عاقت سلاطين المماليك بمصر عن الانتقام السريع من قبرص وملوكها، فإن السلطان برسباى الذى تولى عرش دولة المماليك الثانية سنة ١٤٢٢ صمم على القيام بتلك الخطوة، لاسيما بعد أن وردت الأخبار سنة ١٤٢٣ بأن الفرنج أخذوا مركبين من مراكب المسلمين قرب ثغر دمياط، فيهما بضائع كثيرة وعدة من الناس يزيدون على مائة رجل، وبأن ملك قبرص جانوس استولى على سفينة محملة بالهدايا مرسلة من برسباى إلى السلطان مراد العثمانى[٤].

---

(١) المصدر السابق، ج٥ ص ١٨٧ - ١٨٩. Makhiaras: op. cit, p. 171.

(٢) النويري السكندري: ج٥ ص ص ١٩١ - ١٩٣ .

(٣) العيني: عقد الجمان، ج٢٤ ق ١ ورقة ٣٩ (مخطوط). وجدير بالذكر أن المؤرخ أبا المحاسن يوسف بن تغري بردي (ج ١٤ ص ٢٩٥، طبعة دار الكتب) يقول أن جزيرة قبرص باللغة الرومية شبرا ... وسلطانها يقال له ازاد شبرا.. ونري أن اللفظين هما علي التوالي تعريب لكلمة Chypre وعبارة .Roi de cypre

(٤) المقريزي: كتاب السلوك، ج٤، ص ٦٦٥ (تحقيق المؤلف). خليل برع شاهين الظاهري: زبدة كشف الملك، ص ١٣٧ .

وكان أن أرسل برسباى ثلاث حملات لغزو جزيرة قبرص: الأولى ١٤٢٤، وكانت حملة استكشافية أحرقت عدة سفن للقبارصة وأغارت على ليماسول وأحرقت جانباً منها، ثم عادت إلى مصر بعد شهرين ومعها عدد كبير من الأسرى، وقدر ضخم من الغنائم[١]. أما الحملة الثانية فكانت أكبر من الأولى، وقد غادرت الشواطئ المصرية فى صيف سنة ١٢٤٥ فاتجهت إلى بيروت وطرابلس ثم إلى قبرص حيث وصلت إلى ميناء قرباص على الشاطئ الشمالى الشرقى للجزيرة، ومنه تحركت حتى رست قرب فاما جوستا حيث نزل المشاة والفرسان إلى البر. وقد أسرع حاكم فاما جوستا إلى إرسال سفارة إلى المسلمين لطلب الأمان وإخبارهم بدخوله فى طاعتهم، ويقول إنه مملوك السلطان، وإن المدينة مدينته، فأعطاه المسلمون أماناً بعد أن رفع الراية السلطانية على قلعة المدينة[٢]. وخلال الأيام الأربعة التى مكثها المسلمون فى منطقة فاما جوستا شنوا الغارات على الضياع المجاورة وأوسعوها نهباً وأسراً وتحريقاً، ثم أقلعوا بعد ذلك ناحية الملاحة، حيث دارت معركة بين المسلمين والقبارصة، قتل فيها كثير من الفرنج بعد أن حلت بهم الهزائم[٣]. وبعد ذلك توجه المسلمون إلى ليماسول فوصلوها فى منتصف أغسطس واستطاعوا ان يستولوا على قلعة المدينة فى اليوم نفسه، فهدموا وأحرقوا جزءاً كبيراً منها، كما رفعوا الراية السلطانية على المدينة[٤]. وعندما سمع المسلمون بأن البندقية أرسلت نجدة قوية إلى قبرص، وأخذوا يفكرون فى العودة، فوصلوا إلى القاهرة فى ٩ سبتمبر حيث تم استعراض الأسرى والغنائم[٥].

ولكن برسباى لم يقنع بذلك، لأنه لم يستهدف إرسال حملة لمجرد السلب والنهب والعودة ببضع مئات من الأسرى وبعض أكوام من الغنائم[٦]. ولو كان برسباى يبغى السلب والنهب والفرار، لانطبق عليه ما قاله النويرى عن بطرس

(١) المقريزي: السلوك، ج٤، ص ٦٧١ (تحقيق المؤلف).

(٢) ابن حجر: أنباء الغمر، ج٨، ص ٧٢ – ٧٣ (طبعة حيدر أباد ١٩٧٥). المقريزي: السلوك، ج٤، ص ٦٩٤ – ٦٩٥ (تحقيق المؤلف).

(٣) صالح بن يحيي: تاريخ بيروت ص ٢٢٣.

(٤) العيني: عقد الجمان، ج٢٥ ق ٣ ورقة ٥٧٥. خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ١٤١.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤ ص ٢٧٨ – ٢٨٠ (طبعة دار الكتب المصرية).

(٦) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ١٠٣.

لوزجنان من أنه فَعَلَ فِعْل اللصوص لا الملوك، لأن الملوك إذا ملكوا بلداً صعدوا فيه ودافعوا عنه..[١]، لذلك لم يلبث برسباى أن أرسل حملة ثالثة ضد قبرص سنة ١٤٢٦ بعد أن استعد لها استعداداً كبيراً[٢]، فرسا المسلمون قرب ليماسول وهاجموا المدينة واستولوا عليها. وبعد أن قضى المماليك فى ليماسول ستة أيام أوسعوا فيها المدينة نهباً وهدماً وحرقاً، أخذوا يزحفون إلى داخلية الجزيرة حيث استعد جانوس ملك قبرص لمنازلتهم فى خمسة آلاف فارس وسبعة آلاف راجل[٣]. وعند خيروكيتا دارت الموقعة الفاصلة بين المماليك وجانوس ملك قبرص فحلت الهزيمة بالقبارصة، وقتل منهم جميع كثير، فى حين فر الباقى وأسنة الرماح تطعن فى أعضائهم فصارت كثرتهم قلة وقوتهم ضعفاً. أما الأسرى فيستحى من ذكرهم لكثرتهم، وكان من جملتهم جانوس نفسه ملك قبرص.[٤]

ولم يضيع المسلمون الوقت، وإنما زحفوا رأسا بعد ذلك على نيقوسيا عاصمة الجزيرة، فى الوقت الذى دارت معركة بحرية بين السفن الإسلامية والأسطول القبرصى، انتهت بأسر إحدى السفن القبرصية وفرار الباقى إلى عرض البحر، بعد أن قتل من بحارتها ما يزيد على مائة وسبعين نفساً[٥]. وكان أن دخل المسلمون نيقوسيا عاصمة قبرص فنهبوا جانباً منها، ثم صلوا الجمعة فى كنيسة المدينة بعد أن أذنوا للصلاة على صوامعها[٦]. وتقدم أكابر العاصمة وأساقفتها ورهبانها ومعهم الإنجيل طالبين الأمان، فأمنهم المماليك ونادوا فى أنحاء البلاد بأن قبرص صارت من جملة بلاد السلطان الملك الأشرف برسباى.

وأخيراً عاد المسلمون إلى مصر، ومعهم أكثر من ثلاثة آلاف أسير[٧]. على رأسهم ملك قبرص جانوس، فوصلوا القاهرة فى ١٣ أغسطس وشقوا المدينة فى موكب حافل والغنائم على رءوس الحمالين وظهور البغال والأسرى. وفى ذيل الأسرى سار الملك جانوس ممتطياً بغلاً أعرج وهو مقيد بالقيود الحديدية[٨].

(١) النويري السكندرية: الإلمام، ج٣، ص٦٥، ٢٠٩ .
(٢) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ١٠٥ – ١٠٦ .
(٣) ابن حجر: أنباء الغمر، ج٨ ص ١٠١ (طبعة حيدر إباد).
(٤) المصدر السابق .
(٥) العيني: عقد الجمان، ج ٢٥ ق ٣ ورقة ٥٨٢ (مخطوط).
(٦) ابن حجر: انباء الغمر، ج٨ ص ١٠٣ (طبعة حيد أباد).
(٧) العيني: عقد الجمان، ج٢٥ ق ٣ ورقة ٥٨٣ .
(٨) المقريزي: السلوك، ج٤ ص ٧٢٤، ٧٢٥ (تحقيق المألف). أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤ ص ٣٠٠(طبعة دار الكتب).

وعندما وصل الموكب إلى باب قلعة الجبل – مركز الحكم – أنزل الملك جانوس عن مطيته فكشف رأسه وخر على الأرض فقبلها، ثم دخل على السلطان فقبل الأرض مرة اخرى، وبعد ذلك سجن فى أحد أبراج القلعة(١).

وهكذا انتقم المماليك لما حل بالإسكندرية على يد القبارصة سنة ١٣٦٥، ولم يفرج عن جانوس إلا بعد أن اتفق على دفع فدية قدرها مائتا ألف دينار دفع منها مائة ألف مقدما والباقى بعد عودته إلى بلاده(٢). أما قبرص فقد ظلت تابعة لسلطنة المماليك. وأصبح جانوس نائباً عن السلطان فى حكمها. ولا أدل على تبعية قبرص لسلطنة المماليك فى مصر من أن أمراء الجزيرة ظلوا يحتكمون إلى سلطان القاهرة فيما نشب بينهم من خلافات حول العرش، مثلما حدث سنة ١٤٥٨ – ١٤٥٩ . وإذا كان نفوذ البنادقة قد امتد إلى قبرص سنة ١٤٧١ حتى آلت إليهم الجزيرة فعلا سنة ١٤٨٩، فإن البندقية حرصت على عدم استفزاز السلطان المماليكى، فأرسلت سفارة إليه للاتفاق معه بشأن قبرص، واستمرت فى دفع الجزية المفروضة على قبرص وإرسالها إلى القاهرة حتى سنة ١٥١٧، أى حتى استيلاء العثمانيين على مصر، وعندئذ حولت البندقية الجزية إلى السلطان العثمانى(٣).

المماليك ورودس:

إذا كان المماليك قد نجحوا فى طرد الصليبيين نهائياً من الشام سنة ١٢٩١ فإن تمة ثلاث بقايا كبرى ظلت قائمة للصليبيين بالشرق الأدنى طوال القرن الرابع عشر وشطر من الخامس عشر، وهذه البقايا الثلاث هى دولة أرمينية الصغرى فى قيليقية، ودولة لوزجنان فى قبرص، ودولة الفرسان الاسبتارية فى رودس. وجميع هذه البقايا جاءت وليدة الحركة الصليبية ونشأت بفعل تيار تلك الحركة، ومن ثم أخذت على عاتقها مهمة استئناف محاربة المسلمين سياسياً واقتصاديا وحربياً. وقد رأينا كيف أسقط المماليك أرمينية الصغرى سنة ١٣٧٤، ثم كيف أخضعوا دولة لوزجنان بقبرص سنة ١٤٢٦، وبذلك لم يبق سوى دولة الفرسان الاسبتارية فى رودس.

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٤ ص ٧٢٥ (تحقيق المؤلف). فأمر به إلي منزل قد أعد له بالحوش من القلعة.

(٢) ابن حجر: أنباء الغمر، ج٨ ص ١٠٤ – ١٠٥ (طبعة حيد أباد). أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤ ص ٣٠٣ – ٣٠٤ (طبعة دار الكتب – تحقيق جمال محرز وفهيم شلتوت).

(3) Stubbs: op. cit. p. 233& Cam. mes. Hist 4. p.472.

أما عن قيام دولة الاسبتارية فى رودس، فيلاحظ أنه نتج عن سقوط عكا وزوال دولة الصليبيين بالشام، أن وجدت هيئات الفرسان نفسها فى مأزق خطير، بعد أن فقدت ميدان نشاطها وحرمت من أسباب وجودها. لذلك صار عليها أن تبحث لنفسها عن ميادين جديدة تستنفد فيها إمكاناتها المادية وحماستها الدينية. وكان أن نقل الداوية نشاطهم إلى أوربا حتى استثار جشعهم وسوء سلوكهم غضب البابا كلمنت الخامس وملك فرنسا فيلب الرابع - كما سبق أن أشرنا - فحلت هيئتهم، وصودرت أملاكهم سنة ١٣١٢، وأحرق مقدمهم جاك دى مولاى سنة ١٣١٤[١]. وأما الفرسان التيوتون فقد نقلوا ميدان نشاطهم إلى شمال أوربا على شاطئ البحر البلطى، حيث عملوا على نشر المسيحية بين البروسيين، ودخلوا فى صراع طويل مع بولندا استمر حتى صلح ثورن الثانى سنة ١٤٦٦[٢]. وبذلك لم يبق سوى الفرسان الاسبتارية، وهؤلاء كانوا أبعد نظراً وأوفر حظا من الداوية والتيوتون جميعاً.

ذلك أن الاسبتارية اختاروا عقب طردهم من بلاد الشام أن يؤووا إلى جزيرة قبرص، حيث أقاموا مؤقتاً يرقبون الموقف عن كثب، ويبحثون عن مقر صالح جديد لهم، يواصلون منه نشاطهم الصليبى وغير الصليبى. ولم يطل انتظار الاسبتارية، إذ قصدهم سنة ١٣٠٦ أحد كبار القراصنة الجنويين - وإسمه فيجنولو - Vignolo الذى استولى من الإمبراطور البيزنطى أندرونيق على جزيرتى قوس وليروس. وكان أن عرض ذلك القرصان الجنوى على فولك فيلارت مقدم الاسبتارية مشروعاً ضخماً خلاصته أن يتعاون الطرفان فى غزو جميع جزر الدوديكانيز، على أن يكون للاسبتارية ثلثا الغنيمة، وللقرصان الثلث[٣].

وقد أعجب مقدم الاسبتارية بذلك العرض، وأبحر إلى أوربا ليحصل على موافقة البابا على المشروع، فى الوقت الذى شرع الاسبتارية فعلا فى غزو جزيرة رودس بمساعدة بعض السفن الجنوية. ولم تلبث أن أخذت حصون الجزيرة تتساقط فى أيدى الاسبتارية واحداً بعد آخر، حتى سقطت مدينة رودس نفسها سنة ١٣٠٨، وبذلك فقدت الدولة البيزنطية جزيرة كبرى من جزرها فى البحر المتوسط، وغدت رودس حصناً حصيناً للاسبتارية[٤].

(١) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطي، ج١ ص ٢٨٥ (١٩٦٦).
(٢) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطي، ج١ ص ٦١٨-٦٢٧ .
(3) Runciman: op. cit. III, p.435.
(4) Delavile le Roulx: Hospitalliers en Terre Saint p.p. 273-279.

والواقع أن الغرب الكاثوليكي هلل لاستيلاء الاسبتارية على رودس، واعتبر ذلك نصراً صليبياً كبيراً فى الشرق على حساب البيزنطيين الأرثوذكس. أما الاسبتارية فقد أثبتوا أنهم عند حسن ظن البابوية والغرب الأوربى بهم، إذ لم تكن تنقصهم الحماسة الدينية لمواصلة الحرب الصليبية، وهم الذين قاموا بدور بارز فى الدفاع عن الكيان الصليبى بالشام حتى أواخر القرن الثالث عشر. وبعبارة أخرى فإن الاسبتارية فى رودس لم يكونوا أقل حماسة عن غيرهم من البقايا الصليبية التى استقرت فى الشرق الأدنى عقب طردها من الشام، فاستغلوا قاعدتهم الجديدة فى رودس فى مواصلة الحرب ضد المسلمين براً وبحراً، لعل الفرصة تتاح للصليبيين مرة أخرى للعودة إلى بلاد الشام. وحسبنا أنه عندما دعا بطرس الأول لوزجنان ملك قبرص لحملته الصليبية الكبرى ضد الإسكندرية سنة ١٣٦٥، كان الاسبتارية برودس أول من عاونه بالمال والرجال والسفن، فضلاً عن مائة من الفرسان الأشداء(١). ثم إن الملك بطرس لوزجنان اختار جزيرة رودس بالذات لتكون مركز التجمع بالنسبة للأساطيل والجيوش المشتركة فى حملته الصليبية. ففى رودس اجتمعت السفن والرجال، ومن رودس أبحرت الحملة قاصدة الإسكندرية(٢). كذلك ظلت رودس بعد انتهاء تلك الحملة قاعدة كبرى استغلها الملك بطرس لوزجنان فى الإغارة على الأتراك المسلمين بآسيا الصغرى(٣).

وهكذا وجد الاسبتارية برودس فى آل لوزجنان بقبرص سنداً وشريكاً قوياً لهم، فى سياستهم الصليبية ضد المسلمين فى آسيا الصغرى والشام ومصر. وبعبارة أخرى فإن وحدة الهدف الصليبى جعلت آل لوزجنان فى قبرص والاسبتارية فى رودس يتعاونون جميعاً فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ضد المسلمين، سواء كانوا أتراكاً فى آسيا الصغرى أو مماليك فى مصر والشام. وإذا كان المماليك قد نجحوا فى الانتقام من قبرص وملوكها،فغزوا الجزيرة سنة ١٤٢٤ - ١٤٢٦ وأخضعوها وضموها إلى جملة بلاد السلطان - كما سبق أن أشرنا(٤) - فإن ذلك جاء إيذاناً بقرب دور رودس.

---

(1) Atiya: op. cit, p.p. 341-343

(٢) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٥٨ .

وقد ذكر النويري السكندري أن سفن الأسطول الذي أغار به بطرس لوزجنان علي الإسكندرية صنعت في جزيرة رودس، لأنها دار صناعة الفرنج، أي صناعة السفن. (كتاب الالمام بالاعلام، ج٢، ص١١٠ - طبعة حيدر أباد).

(٣) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ١٥١، ١٥٦ .

(٤) المرجع السابق، ص ٨٤ ، ١٢٦ .

ولاشك أن الاسبتارية فى ردوس أحسوا بالخطر عقب نجاح المماليك فى فتح قبرص، فأسرعوا بتقديم الهدايا للسلطان المماليكى بالقاهرة، وعرضوا عليه معاهدة صداقة وعدم اعتداء. ولكن كل ذلك لم ينس المماليك موقف الاسبتارية والروادسة منهم. ويقال إن السلطان مراد الثانى العثمانى سمع بمحاولات لضم فرسان الاسبتارية برودس على الحلف المسيحى الكبير الذى أوشك أن يتكون فى أوربا لشن حرب صليبية كبرى ضد العثمانيين المسلمين، فقام السلطان العثمانى بتحريض جقمق سلطان المماليك فى مصر على غزو رودس ليشغل الاسبتارية عن الانضمام لذلك الحلف[1]. هذا إلى أن إغارات القراصنة على شواطئ مصر لم تنقطع عقب استيلاء المماليك على قبرص سنة ١٤٢٦، مما لم يترك مجالاً للشك فى أن أولئك القراصنة اتخذوا جزيرة رودس قاعدة لهم بعد أن سقطت أرمينية الصغرى وقبرص. من ذلك أن أربع سفن للصليبيين دخلت فرع رشيد سنة ١٤٣٩، وبعد أن نهبت ودمرت عادت أدراجها، مما أثار السلطان جقمق[2].

ومهما يكن من أمر، فقد أرسل السلطان جقمق ثلاث حملات ضد رودس سنوات ١٤٤٠، ١٤٤٣، ١٤٤٤ . وإذا كانت الحملتان الأوليان لم تحرزا سوى نجاح جزئى، فإن الحملة الأخيرة نجحت فى تحقيق انتصارات مهمة، على الرغم من المقاومة الشديدة التى أبداها الاسبتارية، حتى اضطر الاسبتارية إلى الاستعانة بالتاجر الفرنسى جاك كير ليقوم بدور الوسيط بينهم وبين سلطنة المماليك[3]. ومع ذلك فقد استمرت العلاقات بين الاسبتارية فى رودس وسلطنة المماليك فى مصر والشام تتأرجح بقية القرن الخامس عشر بين الصداقة حيناً والعداء أحياناً. ولم يحجم الاسبتارية فى كثير من الأحيان عن الإغارة على سفن المسلمين، كما حدث سنة ١٤٦٤ وسنة ١٥١٠ . ولكن دولة المماليك كانت عندئذ فى خريف عمرها لا تقوى على الانتقام، بعد أن تأثرت ماديا وحربيا باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، فضلاً عن الخطر العثمانى الذى أخذ يهدد حدودها الشمالية. وكان رد السلطان الغورى على اعتداء الاسبتارية على سفنه سنة ١٥١٠ هو أن ألقى القبض على جميع رجال

(١) محمد مصطفي زيادة: المحاولات الحربية للاستيلاء علي جزيرة رودس، ص ١٩٨ .

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص ٣٣٤ (طبعة دار الكتب تحقيق إبراهيم طرخان).
Weit: L'Egypt Arabe: p. 582.

(٣) المصدر السابق، ص٣٤١ – ٣٦٣ . وكذلك: محمد مصطفي زيادة: المحاولات الحربية، ص٢٠٢ وما بعدها.

الدين المسيحيين فى القدس، والفرنجة فى الإسكندرية ودمياط، وأغلق كنيسة القيامة سنة ١٥١١ . ولم يلبث العثمانيون أن التهموا دولة المماليك سنة ١٥١٧ ، ثم التهموا جزيرة رودس نفسها ١٥٢٢[١] .

(١) ابراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ١٠٧ – ١١٤ .

الفصل الثالث

الخروب الصليبية في شمال أفريقية وأوربا

الصليبيون وشمال أفريقية:

إذا كانت الحركة الصليبية تعني من إحدى زواياها الحروب التى شنها الغرب الأوربى على المسلمين فى العصور الوسطى بدافع الشعور الدينى، وانتقاماً لما حل بالمسيحية وكنيستها من انكماش فى النفوذ والسلطان نتيجة لانتشار الإسلام؛ فإن معنى ذلك أن تلك الحركة لن تكن محدودة بميدان معين أو ببلد واحد، وإنما كان من الممكن أن تشتعل نيرانها فى كل بلد يعثر فيه الصليبيون الغربيون على مسلمين، وهكذا صارت أسبانيا وآسيا الصغرى وشمال أفريقية ميادين للمعركة الصليبية، وذلك بالإضافة إلى الميادين المعروفة فى الشرق الأدنى، أى فى الشام ومصر وشمال العراق وشبه الجزيرة العربية، ومياه البحرين الأحمر والمتوسط. ولو كانت الحركة الصليبية - كما ظن البعض فى الماضى - مجرد حرب لاسترداد الأراضى المقدسة من المسلمين، وحماية حجاج الغرب القاصدين إلى تلك الأراضى، لاقتصر ميدانها على بلاد الشام. ولكن الحركة الصليبية كانت أوسع من ذلك بكثير، إنها كانت المتنفس الذى عبر به الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى عن حماسته الدينية من ناحية أخرى، وعن رغبته فى التوسع والاستعمار من جهة ثالثة، وأخيراً عن رغبته فى الخروج من الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التى سادت الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى من جهة رابعة.

ولا أدل على ذلك كله من اتجاه حملة لويس التاسع سنة ١٢٧٠ - وهى الحملة الصليبية الثامنة - نحو تونس دون مبرر أو داع. فإذا لم يكن من أهداف الحروب الصليبية ضرب المسلمين أينما وجدوا، فبماذا نعلل إصرار لويس على الاتجاه بحملته ضد تونس بالذات فى الوقت الذى كان أميرها أبو عبدالله محمد المستنصر بالله[١] الحفصى (١٢٤٩ - ١٢٧٧) تربطه علاقة ودية بالحكام المسيحيين فى أوربا، حتى اتهمه المعاصرون بميوله للفرنج واستخدامهم، ووصف بأنه لا يصلح أن يلى أمور

(١) ورد فى بعض المراجع بلقب المنتصر لا المستنصر. (انظر زامباور: معجم الأنساب، ص ١١٥).

المسلمين[١] . ثم ألم تكن بلاد الشام عندئذ بجهود لويس التاسع بعد أن سقطت أنطاكية فى يد الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٨ وأخذت بقية المعاقل الصليبية بالشام تنتظر دورها على يد المماليك؟.

ومهما يقال فى تفسير اتجاه تلك الحملة إلى تونس فى ضوء تطورات التاريخ الأوربى عندئذ؛ ورغبة شارل الأنجوى الذى أصبح ملكاً على صقلية وجنوب إيطاليا أن يقبض على خصومه الذين فروا إلى تونس، وفى أن يجعل الحفصيين يدفعون له الجزية التى اعتادوا دفعها لآل هوهنشتاوفن[٢]، فإن هذه التعليلات لا تكفى لتفسير مسلك القديس لويس، وهو الرجل الذى عرف بتقواه وحماسته لمحاربة المسلمين. والرأى الأرجح هو أن لويس حاول أن ينشر المسيحية فى شمال أفريقية، واعتقد أن تسامح الأمير أبى عبدالله المستنصر سيساعد على تحقيق هذه الغاية[٣] . فإذا فشل فى تحقيق غرضه هذا، فإن تونس بمواردها وموقعها ستمكن لويس من القيام بحملة صليبية أخرى ضد مصر. حقيقة أن حملة لويس التاسع على تونس انتهى أمرها إلى الفشل الذريع نظراً لحرارة الجو من ناحية، وتفشى الأمراض فى معسكر الصليبيين من ناحية أخرى، حتى مات لويس نفسه فى تونس فى أغسطس سنة ١٢٧٠[٤] . ولكن ليس معنى ذلك أن شمال أفريقية قد غاب عن فكر الصليبيين، أو أن المسلمين فى شمال أفريقية لم يحظوا بقسط من كراهية المسيحيين الغربيين فى عصر طفح بروح التعصب وشهوة الانتقام.

ولعل خير ما يشهد على أهمية إفريقية فى مشاريع الصليبيين أن رامون (ريموند) لول Ramon Lull أوصى مجمع فينا (١٣١١ - ١٣١٢) بالقيام بحملة صليبية تتخذ طريق أسبانيا فشمال أفريقية للوصول إلى مصر والشام[٥] . بل إن رامون لول الذى تعلم اللغة العربية وأجاد التفاهم بها أراد أن يستغل هذا السلاح فى تنصير المسلمين فى شمال أفريقية، فقام بمهمته التنصيرية الأولى سنة ١٢٩٢، عندما أبحر من جنوا على تونس. ولم يلبث أن اتهم رامون لول فى بلاد الحفصيين بالشرك والحض على الكفر، فحكم عليه

(١) المقريزى: السلوك، ج١ ص ٦٠١ (تحقيق محمد مصطفى زيادة).

(2) Setton: op. cit, II. P. 342.

(3) Atiya: op. cit, 88.

(4) Cam. Mes. Hist, Vol 6 p.p. 360-361.

(5) Atyia: op. cit, p.8.

بعقوبة الإعدام، ثم خفضت هذه العقوبة إلى النفى، ومن ثم استطاع النجاة بنفسه فى صعوبة[١]. على أن رامون لول لم يلبث أن عاد إلى شمال أفريقية سنة ١٣٠٧ لمعاودة الكرة ومحاولة نشر المسيحية بين المسلمين، وبخاصة البربر. وفى تلك المرة نزل رامون فى مدينة بجاية بالجزائر، حيث استطاع أن يتصل ببعض العلماء المسلمين ويطلب منهم مناظرتهم فى مواضيع دينية معقدة، وحدد قاضى المدينة الزمان والمكان لتلك المناظرة. على أن الرأى العام الإسلامى فى بجاية لم يلبث أن ثار على لول قبل أن تتم المناظرة، فألقى به فى السجن دون مناقشة، وظل بالسجن ستة أشهر حتى طرد من البلاد. وأخيراً عاد لول إلى شمال أفريقية للمرة الثالثة سنة ١٣١٥، ومعه خطاب توصية من جيمس ملك أرغونة لأمير تونس. غير أنه بعد أن قام مدة فى تونس، انتقل إلى بجاية حيث أعدم رجماً بالحجارة فى أوائل سنة ١٣١٦[٢].

وقد ظل شمال أفريقية يحتل مكانة فى تفكير بعض دعاة الحروب الصليبية بعد وفاة رامون لول. ومن ذلك أن بركارد أشار فى تقريره الذى أعده للملك فيليب السادس دى فالوا ملك فرنسا سنة ١٣٣٢ إلى طريق شمال أفريقية بالذات. هذا وإن كان بركارد قد أوضح فى تقريره صعوبة هذا الطريق ومشقته وطوله[٣]. أما فيليب دى ميزيير، فقد طلب فى تقريره الذى دونه سنة ١٣٨٩ بأن يتبع كل فريق من الصليبيين طريقاً معيناً للوصول إلى الشرق، بحيث يجب أن يكون الطريق الذى يسلكه صليبيو أسبانيا وأرغونة والبرتغال ونافارى هو طريق شمال أفريقية بالتحديد[٤].

وفى الوقت الذى كان فيليب دى ميزيير يكتب تقريره السابق عن الحرب الصليبية، تجمع أسطول مشترك أسهمت فيه صقلية بثلاث سفن وبيزا وجنوا باثنتى عشرة سفينة، واستطاع رجال هذا الأسطول أن يستولوا سنة ١٣٨٨ على جزيرة جربة الواقعة فى خليج قابس بشمال أفريقية[٥]. وكانت هذه الجزيرة تابعة عندئذ لأبى

(1) cam. Mes Hits, vol. 5p. 325.

(2) Atiya: op. cit, p.p. 93-94.

والواقع أن جهود رامون لول فى تنصير المسلمين كانت جزءاً من حركة تنصيرية واسعة شهدها عصر الحروب الصليبية، وكانت أبرز ميادينها أسبانيا وشمال أفريقية - أنظر: أحمد بن عبد الصمد الخزرجى: مقامع الصلبان (تونس ١٩٧٥) تحقيق عبد المجيد الشريف.

(3) Idem, P. 101.

(4) Idem, p. 147.

(٥) جربة - بفتح الجيم وسكون الراء - جزيرة على مقربة من قابس، فيها بساتين كثيرة، وبينها وبين البئر الكبير مجاز (معجم ياقوت، ج٢ ص ١١٨).

العباس أحمد (الثانى) المستنصر أمير بنى حفص فى تونس[١]. وقد استولى عليها الصليبيون دون صعوبة، ووافقت جنوا - صاحبة القوة الكبرى فى الأسطول المشترك - على ضم جربة إلى مملكة صقلية، بعد أن تعهدت مارى ملكة صقلية بدفع مبلغ من المال لجنوا مقابل ما قامت به من جهد فى فتح الجزيرة[٢].

ويبدو أن النجاح الذى حققته جنوا فى الاستيلاء على جزيرة جربة شجعها على التفكير فى القيام بحملة صليبية أكبر ضد المسلمين بشمال أفريقية، وفى هذه الحالة لابد لجنوا من الاعتماد على مساعدة إحدى الدول الأوروبية الكبرى. وصادف أن كانت فرنسا تمر عندئذ بفترة استجمام بعد أن انتهى الدور الأول من أدوار حرب المائة عام مع انجلترا سنة ١٣٦٠، مما جعل جنوا تتجه إلى شارل السادس ملك فرنسا (١٣٨٠ - ١٤٢٢) طلباً للتعاون معها فى مشروع الحملة الصليبية على شمال أفريقية.

والملاحظ أن شمال أفريقية بات يعانى عندئذ تدهوراً كبيراً نتيجة لانحلال دولة الموحدين وقيام عدة إمارات على أنقاضها، من جملتها إمارة الحفصيين فى تونس، التى تعرضت لعدد ضخم من الهجمات الصليبية فى القرن الرابع عشر[٣]. ولا يوجد تعليل لاستئثار تونس بالذات بأطماع الأوربيين فى تلك الحقبة سوى أهمية موقعها التجارى، مما جعل كثيراً من التجار الإيطاليين بصفة خاصة يترددون على سوسة والمهدية وسفاقس وقابس، فضلاً عن جزيرة جربة التى استولت عليها صقلية سنة ١٣٨٨[٤]. وقد ثبت أنه وجدت فنادق للتجار الأوربيين فى المهدية وسفاقس وقابس وجربة فى تلك الفترة من أواخر العصور الوسطى[٥]. ثم إن موقع تونس المتوسط فى حوض البحر الأبيض ونشاطها التجارى، جعل موانيها قواعد طيبة لكثير من القراصنة الذين سلحوا سفنهم الخفيفة للإغارة على الأساطيل التجارية الإيطالية وغير الإيطالية أثناء سفرياتها من شرق حوض البحر المتوسط إلى غربه.. وبالعكس، ونهب ما تحمله من بضائع وأموال. هذا فضلاً عن اعتداء أولئك القراصنة أحياناً على شواطئ البلدان والجزر

---

(١) زامباور: معجم الأنساب، ص ١١٦ .

(2) Atiya, p. 398.

(3) Julien: Hits. De L'Afrique du nord, ps 409-418.

(٤) سعيد عاشور: بعض الأضواء على العلاقات بين بيزا وتونس فى عصر الحروب الصليبية. (بحث نشر فى حولية كلية الآداب بجامعة القاهرة، مجلد٢٧، سنة ١٩٦٩).

(5) Juilen: op. cit. p. 431.

الأوروبية فى حوض البحر المتوسط. والملحوظ أن قراصنة البربر لم يفرقوا بين أعمال القراصنة والجهاد. فرأوا فى تلك الإغارات نوعاً من أنواع الجهاد الدينى ضد المسيحيين، بدليل أن الحفصيين عندما عجزوا عن منع القراصنة عن مزاولة نشاطهم، عمدوا إلى مساعدتهم وتشجيعهم(١). وقد وصف أبو عبيدالله البكرى أهالى تلك الجهات بأنهم مفسدون فى البر والبحر، مما يؤكد نشاطهم منذ وقت مبكر ضد السفن التجارية فى حوض البحر المتوسط(٢). ولكن الجمهوريات الإيطالية التى اعتمدت فى حياتها على التجارة لم تستطع السكوت عن تلك الاعتداءات، لاسيما بعد أن ثبت أن شواطئ تونس بالذات هى الأوكار الرئيسة للقراصنة، وأن هؤلاء يحظون بعطف أمير تونس. وهكذا اختار الجنوية أن يوجهوا حملتهم الصليبية سنة ١٣٩٠ ضد المهدية بوصفها أقوى قلاع تونس وأكبر مركز للقراصنة بشمال أفريقية، فضلاً عن أهمية مركزها التجارى(٣).

وبينما ملك فرنسا شارل السادس يقوم بجولة فى جنوب فرنسا، إذا به يستقبل فى نوفمبر سنة ١٣٨٩ سفارة من جنوا لطلب معونته فى الحملة الصليبية ضد المهدية. وقد نجح الجنوية عندئذ فى استثارة حماسة الملك شارل، بعد أن صوروه فى صورة حامى المسيحية، المدافع عن كيانها ضد المسلمين. وقد تعهد الجنوية بالاشتراك فى هذه الحملة بعشرين ألفاً من المحاربين، فضلاً عن تقديم السفن والمؤن للصليبيين. وكان أن وعد الملك بالتفكير فى الأمر واتخاذ قرار من الموضوع فى ظرف يومين. ولجأ فى تلك الفترة القصيرة إلى عرض الفكرة على أمرائه، فعارضها البعض بحجة حاجة فرنسا إلى الاحتفاظ بقوتها – لاسيما وأن الحرب قد تتجدد بين لحظة وأخرى مع انجلترا – فضلا عن عدم جدوى مثل تلك الحملة على شمال أفريقية. ولكن لم يلبث أن انتصر رأى الأمراء الشبان، وهؤلاء دفعتهم حماستهم إلى التمسك بفكرة مساعدة الجنوية ومشاركتهم فى حملتهم الصليبية على شمال أفريقية. وهكذا وافق شارل السادس على مشروع الحملة الصليبية الذى تقدمت به جنوا ضد المهدية، وإن كان قد اشترك أن يزود المشتركون فى هذه الحملة أنفسهم بالسلاح على نفقتهم الخاصة لا على حساب الدولة، وألا يزيد عددهم على خمسة عشر ألفاً، كذلك وقع الاختيار على لويس الثانى البوربونى خال الملك ليكون قائداً على الحملة(٤).

---

(1) Cam. Med. Hits. Vol. 5. ps 226 & 466.

(٢) معجم ياقوت: مادة جربة.

(3) Atiya: op. cit, p. 402.

(4) Atiya, op. cit, p.p. 404- 405.

ولم يلبث أن أخذ لويس الثانى البوبورنى يعد العدة للحملة الصليبية التى ذاع خبرها بسرعة، حتى أقبل على المشاركة فيها كثيرون من انجلترا وأرغونة وفلاندرز، فضلاً عن مختلف أجزاء فرنسا[1]. وقد تم الاتفاق على أن تكون نقطة تجمع القوات الأجنبية فى جنوا والقوات الفرنسية فى مرسيليا. ثم اجتمع الجميع بعد ذلك فى جنوا، ومنها أبحرت الحملة صوب المهدية فى أوائل يوليو سنة ١٣٩٠[2].

ويروى ابن خلدون أن أخبار تلك الحملة الصليبية وصلت إلى تونس قبل وصول الصليبيين، فأرسل أبو العباس أحمد الثانى المستنصر أمير تونس ابنه الأمير أبا فارس، يستنفر أهل النواحى ويكون رصداً للأسطول هناك، ويراقب الشواطئ[3]. ومع ذلك فقد استطاع الصليبيون النزول إلى الشاطئ دون مقاومة، إذ يبدو أن الخطة التى وضعها المسلمون استهدفت التحصن فى مدينة المهدية وترك الصليبيين خارجها يصلون حرارة الشمس. وسرعان ما حاصر الصليبيون المهدية من ناحيتى البحر والبر، لقطع الصلة بينها وبين بقية البلاد، ومنع وصول أية إمدادات إليها. ولما حاول المسلمون – بعد ثلاثة أيام من بدء الحصار – الخروج من المدينة والقيام بهجوم مضاد على القوات الصليبية، باء هجومهم بالفشل، وارتدوا داخل أسوار المهدية بعد أن خسروا عدداً من القتلى، ومن ثم قنعوا بحراسة أبراج المدينة وبواباتها[4].

ولم يلبث أن وصل جيش إسلامى كبير على رأسه أمراء تونس وبجاية وتلمسان لتخليص المهدية. وقدر الصليبيون قدرة ذلك الجيش بأربعين ألف مقاتل. على أن المسلمين تجنبوا الاشتباك مع الصليبيين فى معركة فاصلة، واقتصر الأمر على مناوشات بين الطرفين.

وعندما شيد الصليبيون سوراً كبيراً من الخشب، ونصبوا عليه برجاً كبيراً يشرف على المدينة وشحنوه بالمقاتلة، أسرع المسلمين إلى قذف ذلك البرج بالحجارة والسهام والنفط، فاحترق البرج[5].

---

(١) قدر عدد الفرسان الفرنسيين الذين أسهموا مع لويس البوربونى فى تلك الحملة بألف وخمسمائة فارس. انظر:
Cam. Med. Hits vol 7. p. 476.

(٢) ذكر ابن خلدون أن هذه الحملة اجتمعت لها أساطيل جنوة وبرشلونة ومن وراءهم ويجاورهم من أسر أمم النصرانية وأقلعوا من جنوة. (كتاب العبر، ج٦ ص ٤٠٠).

(٣) ابن خلدون : كتاب العبر، ج٦ ص٤٠٠ (طبعة بولاق).

(4) Atiya: op. cit, p. 417.

(٥) ابن خلدون: كتاب العبر، ج٦ ص ٤٠٠ .

وهكذا مضى على الحصار تسعة أسابيع دون أن يحقق الصليبيون أى نصر أو تقدم، فلا هم نجحوا فى اقتحام المدينة، ولا هم استطاعوا التغلب على الجيش القوى الذى حضر على رأسه أمراء شمال أفريقية، والذى ظل مرابطاً أمام الصليبيين. هذا فى الوقت الذى أخذت حرارة الصيف تشتد، وبدأت المؤن تتناقص فى المعسكر الصليبى، فضلاً عن أزمة مياه الشرب التى لقى منها الصليبيون الشئ الكثير. وفى تلك الظروف السيئة ازداد عدد مرضى الصليبيين، مما جعل البعض يفكرون فى رفع الحصار عن المهدية والعودة من حيث أتوا(١).

ولم يكن المسلمون أنفسهم أقل رغبة من الصليبيين فى إنهاء ذلك الوضع الذى لن يفيد المسلمين شيئاً إن لم يضرهم. وهكذا دخل الجنوية فى مباحثات مع أمير تونس الحفصى، وذلك دون أخذ رأى لويس الثانى البوربونى قائد الحملة، وقد توصل الطرفان فى تلك المحادثات إلى الاتفاق على شروط الصلح، وأهمها عقد هدنة لمدة عشر سنوات، تعهد صاحب تونس بألا يتعرض طوالها للمسيحيين فى بلاده بأذى. كما تعهد بدفع الدخل الذى يحصل عليه من المهدية طوال خمس عشرة سنة للجنوية، وأن يدفع ملك تونس فى مدى عام واحد خمسة وعشرين ألف دوكات لكل من لويس البوربونى وجمهورية جنوا، وذلك تعويضاً عن النفقات التى تحملوها فى تلك الحملة.

وعندما عرضت شروط تلك الاتفاقية على لويس الثانى البوربونى، استشار فيها كبار رجال الحملة من الانجليز والفرنسيين، فأقروها، ووجدوا فيها ترضية كافية للصليبيين، وتعويضاً لهم عما بذلوه من مال وجهد، وعندئذ أمر لويس رجال الحملة بالانسحاب إلى السفن، ثم أبحروا عائدين إلى صقلية ومنها إلى جنوا، حيث اتجه كل فريق من الصليبيين إلى بلده(٢). وبذلك لم تستطع الحملة الصليبية على المهدية سنة ١٣٩٠ أن تحقق شيئاً من أهدافها، فلا هى استولت على المهدية، ولا حطمت قوة القراصنة أو الجيش الإسلامى فى شمال أفريقية، الأمر الذى جعل ابن خلدون يصف تلك الحملة بأنها جاءت فشلاً للمسيحيين ونصراً لجيوش المسلمين(٣).

على أن المغرب الإسلامى لم يسلم بعد ذلك بقية العصور الوسطى من هجمات

(1) Atiya: op. cit. p. 425.
(2) Atiya: op. cit. p.p. 428-430.

(٣) ابن خلدون: كتاب العبر، ج٦ ص ٤٠٠ (طبعة بولاق).

الأوربيين، حتى قرر بعض المؤرخين أن الحروب الصليبية نقلت ميدانها فى القرن الخامس عشر من المشرق إلى المغرب بالذات. وقد تزعم حركة الهجوم على المغرب فى ذلك الدور الأسبانيون والبرتغاليون، فنجح الأسبانيون فى احتلال أجزاء من ساحل الجزائر حصنوها وأقاموا فيها قلاعاً لهم، فى حين احتل البرتغاليون أجزاء من الساحل الغربى لأفريقية[١]. وإزاء الهجمات الأوروبية على بلاد المغرب لم يسع المغاربة سوى أن يسلحوا السفن لقطع الطريق على المراكب الأوربية والقيام بدورهم بهجمات مضادة على شواطئ البلدان الأوربية. وقد وصفت بعض المصادر تلك الأعمال البحرية التى قام بها المغاربة بأنها ضرب من ضروب القرصنة، ولكنها فى حقيقة أمرها لم تكن إلا لوناً من الحرب الدينية من جهة، ودفاعاً عن الأوطان من جهة أخرى. ولم يفعل المغاربة عندئذ أكثر مما كان يفعله البرتغاليون فى البحار والبلاد[٢]. وفى تلك الأعمال البحرية التى قام بها المغرب ضد القوى الأوروبية فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر، يذكر التاريخ أعمال عروج بن يعقوب الذى عرف باسم بربروس الأول وأخيه خير الدين – وهما من الأتراك – وقد اشتدا فى مهاجمة السفن والثغور الأوروبية بشكل أزعج الأوربيين[٣].

ولاشك أن اشتداد الحروب بين الأوربيين المسيحيين من ناحية، وكل من العثمانيين والمغاربة والمسلمين من ناحية أخرى، واتخاذ هذه الحروب طابعاً دينياً واضحاً، كان من العوامل التى أدت إلى التقارب بين العثمانيين والمغاربة. وأخيراً لم يجد المغرب بدءاً من أن يلقى بنفسه فى أحضان الدولة العثمانية، فاستولى العثمانيون على الجزائر سنة ١٥٢٩ ثم على تونس سنة ١٥٣٤، وبذلك دخل المغرب الإسلامى دوراً جديداً فى تاريخه حتى سقط فريسة فى قبضة الاستعمار الغربى فى القرن التاسع عشر.

الأتراك والحروب الصليبية:

شهدت نهاية القرن الثالث عشر أحداثاً مهمة على مسرح الشرق الأدنى، فبالإضافة إلى زوال دولة الصليبيين بالشام عقب سقوط عكا سنة ١٢٩١، تفككت أيضاً دولة سلاجقة الروم عقب وفاة سلطانها علاء الدين الثالث (١٢٩٧–١٣٠٧)، الأمر الذى ترتب عليه ظهور عدد كبير من الإمارات التركية على أنقاض سلطنة الروم.

(١) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية، ص١٨١ – ١٨٢ .

(٢) حسين مؤنس: الشرق الإسلامى فى العصر الحديث، ص ٢٩٢ .

(٣) عبدالكريم رافق: العرب والعثمانيون، ص ٧٥ – ٧٨ (دمشق، ١٩٧٤).

ومن هذه الإمارات ما عرف بأسماء مؤسسيها مثل أيدين وصاروخان وفرمان، فى حين عرف البعض الآخر بأسماء عواصمها وأكبر مدنها مثل فوكه ومغنيسيا[١].

ولم يكن منتظراً أن تستقر الأمور بين أولئك الأتراك فى آسيا الصغرى وجيرانهم المسيحيين فى أرمينية الصغرى وقبرص فضلاً عن الدولة البيزنطية، إذ كان الأتراك مسلمين لا يقلون تعرضاً لعدوان جيرانهم المسيحيين عن الأيوبيين أو المماليك. لذلك اشتبك الأتراك مع جيرانهم المسيحيين فى حروب طويلة، وفى تلك الحروب أبلى الأتراك بلاء حسناً حتى أصبح دينهم جهاد من جاورهم من الكفار[٢]. ولعل نظرة المسيحيين فى الغرب والشرق إلى أتراك آسيا الصغرى تبدو بوضوح فى مشاريع دعاة الحروب الصليبية فى أواخر العصور الوسطى، لذا نادى كثير من أولئك الدعاة بغزو آسيا الصغرى لأنها الطريق الذى يوصل الصليبيين إلى الأراضى المقدسة من ناحية، ولإحساسهم بازدياد الخطر التركى ورغبتهم فى القضاء عليه قبل فوات الأوان من ناحية أخرى[٣]. وقد شارك ملوك قبرص فى مشاريع أولئك الدعاة مشاركة فعالة، بل إنهم استعجلوا تنفيذها، الأمر الذى حقق قسطاً كبيراً من التفاهم والتحالف بين أتراك آسيا الصغرى، وسلاطين المماليك فى القاهرة بقصد مواجهة العدو المشترك. ومن ذلك ما يقرره العمرى من أن الأتراك بآسيا الصغرى اتجهوا نحو سلاطين المماليك فى مصر فاتخذوهم ظهراً وعدوهم للحوادث ذخراً، وكانت مكاتباتهم ورسلهم وهداياهم ترد إلى القاهرة باستمرار[٤].

وعندما أحست البندقية بأن الإمارات التركية على الشواطئ الجنوبية والغربية لآسيا الصغرى – مثل إمارات مرمرة ومغنيسيا وبركى وفوكة – تهدد تجارتها فى بحر إيجة، وأن تلك الإمارات دأبت على تسليح السفن للعدوان على التجارة المسيحية وطرقها البحرية، عملت على تأليف حلف مع الإمبراطورية البيزنطية ومملكة قبرص وفرسان رودس، وغيرها من القوى المسيحية فى الغرب ضد الأتراك. وكان أن استطاعت السفن الصليبية التى جمعها ذلك الحلف أن تطارد الأتراك وسفنهم فى بحر إيجة سنة ١٣٣٤ فضلاً عن تدمير قلعة أزمير نفسها[٥]. ثم تكرر هجوم الحلفاء

(1) Lavisse, Rambaud: Hist Generale Tome III, p.p. 821-822.

(٢) العمرى: مسالك الأبصار، ج٢ ص ٣٥٦.

(3) Atiya: Op Cit. 41, 108, 127, 164, 169, etc.

(٤) العمرى: مسالك الأبصار، ج٢ ص ٣٥٦ – ٣٥٧.

(5) Atiya: op. cit, p.p. 112-113.

الصليبيين على أزمير سنة ١٣٤٣ - ١٣٤٤، وعندئذ استولى المسيحيون على المدينة وظلت بأيديهم حتى غزو تيمور لنك لآسيا الصغرى[١].

على أنه يبدو أن قبرص هى التى قامت بالدور الكبير فى محاربة الأتراك فى القرن الرابع عشر، لاسيما على عهد ملكها بطرس الأول لوزجنان صاحب النشاط الصليبى الواسع، كما مر بنا، قد استنجدت أرمينية الصغرى من ضغط الأتراك بملك قبرص بطرس الأول، وعرض عليه الأرمن استلام قلعة جورهيجوس على الشاطئ الجنوبى لآسيا الصغرى بعد أن اتضحت أطماع بنى قرمان فى امتلاك تلك القلعة، وعندئذ أرسل بطرس لوزجنان قوة من قبرص سنة ١٣٦٠ امتلكت تلك القلعة الأرمينية[٢]. ويبدو أن أمراك الأتراك فى آسيا الصغرى تخوفوا من امتداد نفوذ ملك قبرص إلى شواطئ بلادهم، فعملوا حلفاً ضده شارك فيه أمراء قرمان والعلايا وأنطاليا، ولكن بطرس الأول لوزجنان رد على ذلك الحلف بالإغارة على أنطاليا والاستيلاء عليها وتدميرها سنة ١٣٦١[٣]. ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع الحروب بين الأتراك المسلمين فى آسيا الصغرى من ناحية ومملكة قبرص الصليبية من ناحية أخرى، حتى وافق القبارصة على إعادة إيطاليا إلى الأتراك سنة ١٣٧٣ خوفاً من استيلاء الجنوية عليها[٤].

وفى ذلك الدور شهدت آسيا الصغرى - بل الشرق الأدنى عامة - تطوراً مهماً كان له أبعد الأثر فى التاريخ، ونعنى بهذا التطور ظهور آل عثمان على سائر الإمارات التركية بآسيا الصغرى منذ سنة ١٣٢٦، بعد أن توسعوا على حساب القوى المجاورة توسعاً سريعاً، وضموا بلادها إليهم إما عن طريق السيف أو عن طريق المال والمصاهرة[٥]. وقد استمر آل عثمان فى حركتهم التوسعية حتى صاروا قاب قوسين أو أدنى بكثير من آل قرمان، وأضحى الصدام بين القوتين أمراً لا مندوحة عنه. ثم كان أن غزا السلطان بايزيد العثمانى إمارة قرمان (أرمناك) سنة ١٣٩١، ودخل عاصمتها قونية فى العام التالى، وبذلك أصبح لبنى عثمان سيطرة تامة على معظم آسيا الصغرى[٦].

---

(1) Gibbons: The Foundation of the Ottoman Empire p. 298.

(٢) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ١٤٠ - ١٤١.

(3) Makhiaras, op. cit, vol. l, p. 107 and maxhaut: op. cit, p. 20.

(4) Makhiaras: op. cit, p. 345.

(5) Givvons: op. cit. p.p. 54-179.

(6) Idem, p.p. 187 - 190.

وإذا كان العثمانيون قد صاروا القوة الإسلامية الكبرى فى آسيا الصغرى فى أواخر القرن الرابع عشر، فإن ذلك جعل حركتهم التوسعية على حساب الدولة البيزنطية وغيرها من القوى المسيحية فى شرق أوروبا تبدو فى نظر الأوربيين المعاصرين ذات مسحة دينية خطيرة، حتى إن الرأى الغالب فى التاريخ هو اعتبار الحملات التى أعدها الأوربيون فى القرن الرابع عشر والخامس عشر لوقف التوسع العثمانى فى شرق أوربا، حملات صليبية، قام بها الأوربيون لحماية شرق أوربا من خطر حركة التوسع الإسلامية التى قام بها العثمانيون على حساب الشعوب المسيحية.

ذلك أن العثمانيين نجحوا فى العبور إلى القارة الأوروبية فى الربع الأول من القرن الرابع عشر. ومنذ ذلك الوقت لم يدخروا وسعاً فى التوسع السريع على حساب المسيحيين فى شرق أوربا، حتى استولى السلطان أورخان على غاليبولى سنة ١٣٥٤، ومن ثم أخذت آلاف من العثمانيين المسلمين يتدفقون على ترافيا، حتى استولوا على أدرنة سنة ١٣٥٧[١]. وهكذا أحاط العثمانيون بالقسطنطينية وقطعوا الصلة بينها وبين العالم الأوربى، عند وفاة أورخان سنة ١٣٥٩ .

وربما ظن الغرب الأوربى أن فى وجود امبراطورية الصرب ضماناً كافياً لوقف توسع العثمانيين فى شرق أوروبا، ولكن السلطان مراد الأول العثمانى استطاع أن يحطم ذلك الحاجز، وأحرز انتصاراً على الصرب عند المارتزا سنة ١٣٧١، وبعدها سقطت بلغاريا فى قبضة العثمانيين، كما استطاع العثمانيون أن يحرزوا انتصاراً كبيراً على الصرب فى موقعة كوسوفو سنة ١٣٨٩، وبذلك صاروا سادة البلقان[٢]. وكان أن فزع الغرب الأوربى من جراء توسع العثمانيين على ذلك الوجه فى شرق أوربا، فأصدر بابا روما بونيفيس التاسع وبابا أفينون بندكت الثالث عشر[٣] مراسيم (١٣٩٤ – ١٣٩٥) لإعلان الحرب الصليبية ضد العثمانيين المسلمين. ولم تلبث أن أخذت الاستعدادات تجرى فى الغرب الأوربى للحملة الصليبية المنتظرة. وقد أبدت فرنسا استعدادها للمساهمة فى تلك الحملة، فى حين كان امبراطور ألمانيا ونزل Wenzel

---

(1) Gibbons: op, cit, p.p. 101-103.

(2) Idem, p.p. 174-178.

(٣) كانت البابوية تمر عندئذ بمرحلة الانشقاق الدينى (١٣٧٨ – ١٤١٧) بمعنى وجود سلسلة من البابوات فى روما وأخرى منافسة فى أفينون، انظر: سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج١ ص ٥١٣ وما بعدها (طبعة ١٩٦٦).

أخا للملك هنغاريا سجسموند، مما جعل الألمان أيضاً يشتركون فى تلك الحملة الصليبية ضد العثمانيين. وفى ذلك الوقت كتب الداعى فيليب دى ميزيير خطاباً مفتوحاً لريتشارد الثانى ملك انجلترا يحثه على التعاون مع شارل السادس ملك فرنسا فى الحملة الصليبية التى دعت لها البابوية ضد العثمانيين المسلمين(١).

وهكذا سرعان ما تجمعت حملة صليبية دولية، اشترك فيها الفرنسيون والألمان والإنجليز والهنغاريون، وأمراء ولاشيا وترانسلفانيا، فضلاً عن كثير من أمراء الغرب مثل دوقات برجنديا وأورليان، وأعداد كبيرة من المتطوعين من بولندا وبوهيميا وإيطاليا وأسبانيا. وقد اجتمعت جميع هذه الجيوش الصليبية فى بودا "Buda"فى أواخر يوليه سنة ١٣٩٦، حيث بلغت الجيوش الصليبية أكثر من مائة ألف مقاتل، وهو أكبر عدد من الصليبيين اشترك فى موقعة واحدة مع المسلمين فى تاريخ الحروب الصليبية(٢).

وعندما علم السلطان بايزيد العثمانى بأنباء تجمعات الصليبيين فى هنغاريا، أسرع إلى ترك حصار القسطنطينية، وخرج على رأس جيوشه شمالاً نحو الدانوب. وفى ذلك الوقت كان الصليبيون يتقدمون بحذاء الدانوب ليستولوا على المدن التابعة للعثمانيين واحدة بعد أخرى، ويقتلوا من فيها من أتراك أولاً عن آخر، حتى وصلوا إلى نيقوبوليس، أقوى المعاقل العثمانية على الدانوب. وهناك وقف الصليبيون – مع كثرتهم – عاجزين أمام نيقوبوليس، لحصانة المدينة من ناحية، ولعدم وجود آلات حصار كافية مع الصليبيين من ناحية أخرى(٣). ولم يلبث أن أدى انتظار الصليبيين أمام نيقوبوليس نحو أسبوعين، بلا عمل، إلى ظهور الخلافات والأحقاد فى صفوفهم، فضلاً عن انشغال كثيرين منهم باللهو والشراب. وكان ذلك فى الوقت الذى لاح الجيش العثمانى عن بعد أشد ما يكون تماسكاً وقوة تحت قياد السلطان بايزيد نفسه. وفى موقعة نيقوبوليس التى دارت بين العثمانيين والصليبيين فى أواخر سبتمبر سنة ١٣٩٦ أحرز العثمانيون نصراً مؤزراً، فانهار الجيش الصليبى الضخم فى سرعة مذهلة، ولم يقو على الصمود أمام العثمانيين. وإذا كانت خسائر العثمانيين جاءت

(1) Tunciman: op. cit III. P. 457.
(2) I dem, p. 458.
(3) ATiya: the Crusade of nicopolis, p.p. 50-99.

كبيرة فى تلك الموقعة، فإنها كانت بلاشك أخف بكثير من خسائر الصليبيين الذين قتل منهم كثيرون وأسر بضعة آلاف، عدا من غرقوا فى نهر الدانوب عند محاولتهم النجاة بأرواحهم.

وهكذا كانت نهاية حملة نيقوبوليس، وهى آخر حملة صليبية كبيرة ذات صفة دولية، مما مكن العثمانيين من تحقيق سيطرتهم الفعلية على معظم البلقان. وإذا كان تيمور لنك قد نجح فى إنزال ضربة قاصمة بالعثمانيين فى موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢، فإن الدولة العثمانية لم تلبث أن نهضت من كبوتها، لتشدد حصارها على القسطنطينية من جديد[١]. وقد حاولت الصرب وولاشيا والبوسنة أن تتخلص من تبعيتها عندئذ للدولة العثمانية، فاستعانت بسجسموند ملك هنغاريا، وعندئذ دعا البابا أيوجنيوس الرابع لحملة صليبية جديدة، ووعد ملك أرغونة بإرسال معونة إلى الحلفاء فى البلقان. ولكن العثمانيين كانوا أسرع إلى العمل، فأنزل السلطان مراد الثانى العثمانى هزيمة كبيرة بالهنغاريين وحلفائهم عند فارنا سنة ١٤٤٤ . وبذلك فشلت هذه الحملة الصليبية الجديدة التى دعا لها البابا، وناب عنه فيها أحد الكرادلة، فضلاً عما أحاط بها من شعور دينى واضح[٢].

وكان أن أحس الامبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر (١٤٤٩ – ١٤٥٤) بخطورة الاستعدادات التى يبذلها العثمانيون للاستيلاء على عاصمته، فحاول أن يستجدى معونة الغرب، ويوضح للبابوية وملوك الغرب الأوربى عاقبة استيلاء المسلمين على القسطنطينية. ولكن يبدو أن الغرب الأوربى لم يعد لديه متسع للتفكير فى أمر المسلمين ومحاربتهم، وأخذ تيار النهضة الأوربية يستأثر بانتباه الأوروبيين جميعاً، حتى البابوات ورجال الدين[٣]. وهكذا سقطت القسطنطينية فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣، وتحولت كنيسة أيا صوفيا إلى جامع كبير نقشت فى جدرانه آيات القرآن الكريم وأسماء الخلفاء الراشدين[٤].

وأخيراً أفاق الغرب الأوربى عندما سمع بسقوط القسطنطينية فى أيدى

---

(1) Cam. Med Hits. Vol 4, p.p. 682 - 684.
(2) VasilievL op. cit. p. 643 and Atiya: op. cit, p. 467.
(3) Ostrogorsky: op. cit. p.p. 505-506.
(4) Vasiliev: op. cit, p.p. 652-653.

العثمانيين، فاهتزت البابوية والعالم المسيحى الغربى لتلك الكارثة، وكان أن حاول البابا بيوس الثانى سنة ١٤٦٣ أن يضع مشروع حملة صليبية كبرى على طراز الحملات الصليبية التى تحكى عنها كتب التاريخ. ولكن هيهات أن تعود عصور الإيمان، وأن يرضى الناس لأنفسهم فى الغرب الأوربى بأن ينساقوا وراء البابوية ورجال الدين انسياقاً أعمى لتحقيق هدف لم تعد له قيمة فى نظرهم. وعندما وجد البابا بيوس الثانى نفسه وحيداً، تلهب الحماسة قلبه، وسط مجتمع لا يقدر شعوره، صمم على القيام بنفسه بالحملة الصليبية المزعومة، فجمع عدة سفن وأبحر على رأسها، ولكنه لم يكد يصل إلى أنكونا حتى انفض عنه بحارة سفنه،فمات حزيناً فى أنكوتا فى منتصف أغسطس سنة ١٤٦٣[١].

خاتمة الحروب الصليبية في الأندلس:

إذا كانت المعركة الصليبية قد انتهت فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر برجحان كفة المسلمين فى الشرق الأدنى، فإن نتيجة المعركة كانت عكسية فى أسبانيا، حيث انتهى الأمر فى نهاية القرن الخامس عشر بطرد المسلمين نهائياً من شبه الجزيرة الأسبانية وجزرها. ولا يوجد تعليل لهذه الظاهرة سوى أن المسلمين فى أسبانيا كانوا بعيدين عن قلب العالم الإسلامى ومركز حركة الجهاد، فى الوقت الذى كانت أسبانيا قطعة لا تتجزأ عن القارة الأوروبية، وكان المسيحيون فيها قريبين من البابوية ومن قلب العالم المسيحى الغربى، الأمر الذى جعل الكفتين غير متعادلتين.

وقد أخذت معركة التوسع المسيحى فى أسبانيا تسير بخطى سريعة على حساب المسلمين فى القرن الثالث عشر، فلم يكد فردناند الثالث ملك قشتالة (١٢١٧-١٢٥٢) يحقق الوحدة مع ليون سنة ١٢٣٠ حتى فتح قرطبة، المقر السابق للخلافة الأموية بالأندلس سنة ١٢٣٦، وحول جامعها إلى كتدرائية[٢]. وفى سنة ١٢٤٤ استولى فردناند الثالث على إشبيلية من المسلمين، كما استولى على قادس وشريش سنة ١٢٥٠، بذلك وصل إلى شاطئ المحيط الأطلسى. هذا فى حين استولى خليفته ألفونس العاشر على مرسية سنة ١٢٦٦ بمساعدة جيمس (جايم) الأول ملك أرغونة[٣]. هذا

(1) Runciman: op. cit, III. P.p. 467-468.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 473.

(3) Cam. Med. Hits vol & p. 415.

فى الوقت الذى وصلت البرتغال سنة ١٢٦٢ إلى حدودها الحديثة، بعد أن انتزعت إقليم الجرف (الغرب) من المسلمين. وهكذا لم يبق للمسلمين فى أسبانيا سوى مقاطعة غرناطة – بين جبال نيفادا وساحل البحر – وفى هذه الرقعة الضيقة قدر لهم أن يعيشوا فترة أخرى بلغت نحو قرنين ونصف قرن من الزمان[١].

ولم تلبث أن تعرضت مملكة قشتالة للضعف فى أواخر القرن الثالث عشر فجاء ذلك مشجعاً للمسلمين على محاولة استرداد سلطانهم المفقود بالأندلس. وكان أن عبر أمير فاس مضيق جبل طارق على رأس جيش كبير، حيث انضم إليه أمير غرناطة، وأخذ المسلمون يحاصرون طريف[٢]. وهنا أحست قشتالة بالخطر، فأسرع ملكها ألفونس الحادى عشر (١٣١٢–١٣٥٠) إلى تهدئة الموقف الداخلى فى بلاده، ثم تقدم سنة ١٣٤٠لمحاربة المسلمين، فنجح فى إنزال الهزيمة بهم واستولى على بعض معاقلهم، مما جعل أمير فاس ينسحب إلى أفريقية[٣]. وكان ألفونس الحادى عشر يطمع فى الاستيلاء على جبل طارق ليحول دون وصول إمدادات فى المستقبل من مسلمى أفريقية إلى إخوانهم فى غرناطة. ولكن الوباء الأسود الذى انتشر فى أوربا سنة ١٣٥٠–والذى شل حركة الحكام والمحكومين– حال دون تنفيذ ذلك المشروع[٤].

وإذا كان المسلمون قد وجدوا فى ضعف قشتالة منذ أواخر القرن الثالث عشر ضماناً لبقائهم فى غرناطة،حيث ظلوا قابعين فى ذلك الركن الجنوبى من شبه الجزيرة يسالمون المسيحيين، ويدفعون لهم الجزية لاتقاء خطرهم، فإن الموقف تبدل بعد توحيد قشتالة وأرغونة، بزواج فردناند الكاثوليكى ملك أرغونة (١٤٧٩ – ١٥١٦) من ايزابيلا ملكة قشتالة (١٤٧٤ – ١٥٠٤). ويبدو أن مسلمى غرناطة فى القرن الخامس عشر غرهم الهدوء النسبى الذى ساد الحدود الفاصلة بينهم وبين جيرانهم المسيحيين فانقسموا على أنفسهم، وبددوا جهودهم فى محاربة بعضهم بعضا دون أن يعملوا حساباً للقوة المسيحية الموحدة التى قامت على حدودهم. وكان أن اشتد النزاع فى غرناطة بين أبى عبدالله الزغيبى من ناحية، وأبيه أبى الحسن وعمه الزغل من ناحية أخرى، حتى ارتمى أبو عبدالله الزغيبى بين أحضان المسيحيين وقصد قرطبة حيث تحالف مع فردناند الخامس وإيزابيلا. وفى ذلك الوقت كان الملكان الكاثوليكيان – فردناند وإيزابيلا – يعدان العدة لطرد المسلمين نهائياً من غرناطة[٥].

---

(١) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج١ ص ٥٧٠ .

(2) lodge: The Clode Of the Middle Ages, p. 471.

(3) Watts: Spain, p.p. 182-183.

(4) Chapman: a. History of Sapain, p. 117.

(٥) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى/ ج١ ص ٥٦٥ .

وأخيراً بدأ الهجوم المسيحى على غرناطة سنة ١٤٨١، فأخذت المدن والقلاع الإسلامية تتساقط واحدة بعد أخرى فى أيدى المسيحيين. ولم يتحرك أبو عبدالله الزغيبى فى تلك المرحلة الحرجة من تاريخ المسلمين فى الأندلس من محالفة الأعداء وإحباط الجهود التى بذلها عمه الزغل فى مقاومة النفوذ المسيحى(١). وكان الأوربيون قد تعلموا من المسلمين استخدام البارود والأسلحة النارية، فلجأ المسيحيون فى أسبانيا إلى طعن المسلمين بسلاحهم، واستخدموا ذلك السلاح الجديد فى انتزاع حصن لورة ثم لوشة من المسلمين. أما مالقة فقد قاومت مقاومة عنيفة، بفضل شجاعة قائدها حامد الزغيبى، فلجأ المسيحيون إلى بث الألغام تحت أسوارها وحضرت إيزابيلا بنفسها لتثير الشجاعة فى قلوب رجالها، حتى نفذت الأقوات فى المدينة فاستسلمت للغزاة(٢). وفى سنة ١٤٨٨ جدد فردناند هجماته على المسلمين فهاجم بسطة التى استمرت تقاوم الحصار ستة أشهر أنزلت فيها خسائر جسيمة بالمهاجمين حتى سقطت أخيرا سنة ١٤٨٩(٣). وبسقوط بسطة أدرك الزغل أنه لا فائدة من المقاومة، وأن دولة المسلمين بالأندلس قد دالت، فعبر البحر إلى فاس حيث أساء إليه سلطانها وعذبه تعذيبه وحشياً، ثم سمل عينيه وتركه يهيم فى الأرض شريداً(٤).

وهكذا لم يبق للمسلمين فى الأندلس سوى غرناطة التى تشفى أميرها أبو عبدالله الزغيبى فى عمه وعدوه القديم أبى عبدالله الزغل، غير دار بأن الدوائر لن تلبث أن تدور عليه فى القريب العاجل. وكان الزغل أضعف من أن يواجه جيوش فردناند وإيزابيلا – حليفيه القديمين – ولكن أهل غرناطة بزعامة الفارس موسى بن أبى الغسان صمموا على المقاومة، حتى اضطرت غرناطة إلى إلقاء السلاح قرب نهاية سنة ١٤٩١، بعد أن وجدت نفسها وحيدة وسط محيط من المسيحيين، وبعد أن طال انتظارها لوصول النجدة المزعومة من مماليك مصر أو سلاطين العثمانيين(٥). وبذلك دالت دولة المسلمين فى أسبانيا.

وهنا نؤكد أن تلك الحروب التى دارت بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا إنما

(1) Cam. Med Hist, vol 8, p. 489.
(2) Watts: op, cit., p.p.296-297
(3) Cam. Med. Hist vol. 8, p. 439.

(٤) لين بول: العرب فى أسبانيا، ص ٢٠٥ .
(٥) المرجع السابق، ص ٢١٣ .

كانت فى حقيقة أمرها حلقة أخيرة فى سلسلة الحروب الصليبية. ولا أدل على ذلك من أن البابوية كانت تبارك جهود المسيحيين فى أسبانيا فى حربهم ضد المسلمين. هذا إلى أن تلك الحرب التى شنها المسيحيون فى الغرب لم يشترك فيها الأسبان وحدهم، وإنما شارك فيها أيضاً متطوعون من مختلف جنسيات غرب أوربا كالسويسريين والإنجليز والألمان. وهؤلاء نزحوا إلى أسبانيا ليعبروا عن حماستهم الصليبية فى محاربة المسلمين[١]. ثم إن روح التعصب الصليبية ظهرت بوضوح عقب استسلام غرناطة، فعلى الرغم من أن شروط التسليم نصت على عدم الانتقام من المسلمين والإساءة إليهم، إلا أن هذا الشرط كان من الصعب تنفيذه فى عصر طفح بروح التعصب الدينى، وفى بلد عرف حكامه بالتطرف فى ذلك التعصب[٢]. وهكذا أعقب سقوط غرناطة موجة من التعذيب الوحشى الذى حل بمن بقى فى البلاد من المسلمين[٣]. ولم تنته هذه الموجة إلا فى القرن السابع عشر، بعد أن عذب من المسلمين من عذب، وشرد من شرد، وقتل من قتل، حتى لقد ثبت أن جملة من نفى من مسلمى الأندلس عقب سقوط غرناطة بلغت ثلاثة ملايين نسمة[٤].

وفى الوقت الذى شن الصليبيون الغربيون هجماتهم على المسلمين فى شبه جزيرة أيبريا، ضيق الغرب الأوربى الخناق على المسلمين فى جزر البليار، حتى انتهى الأمر بهم إلى نفس النهاية.

وكان المسلمون فى جزر البليار بحكم موقعهم فى الجزء الغربى من مياه البحر المتوسط مؤهلين للقيام بدور بارز فى الجهاد، وذلك منذ وقت مبكر. من ذلك أنهم قاموا بشن هجمات على بيزا وجنوة وصقلية النورمندية وسردينية، فضلاً عن الشواطئ الجنوبية لدولة الفرنجة، وبعض هذه الهجمات تم عن طريق التنسيق بين أساطيل المسلمين فى جزر البليار من جهة، وأساطيل القوى الإسلامية، فى شمال أفريقية - مثل بنى زيرى والفاطميين والمرابطين - من جهة أخرى[٥].

---

(1) Pirenne: La Fin du Moyen Ago, Tome 2., p. 91.

(2) Chapman: op. cit, p. 205.

(3) Cam. Med. Hits, vol. 8 p. 490.

(4) Lodge: Op. cit, p. 490.

(٥) ابن عذارى المراكشى: البيان المغرب/ ج١، ص٣٠٢ - ٣٠٥ ج٣ ص ١٥٥ . ابن الأثير: الكامل، حوادث سنتى ٥١١ هـ، ٥١٧ هـ.

أما عن الجانب المسيحى، فإن البابوية التى تزعمت حركة طرد المسلمين من الأندلس، والتى قادت الحرب الصليبية ضد المسلمين فى الشرق الأدنى، لم تغفل أمر المسلمين فى جزر البليار. من ذلك أن البابا باسكال الثانى أصدر نداء سنة ١١١٣ إلى القوى المسيحية فى غرب حوض البحر المتوسط يطالبها بالتكاتف فى حملة تحت زعامته لطرد المسلمين من جزر البليار![١].

وهكذا تتابعت الحملات الصليبية ضد المسلمين فى جزر البليار، فى القرن الثالث عشر للميلاد. وتزعمت هذه الحملات مملكة قطالونية ومملكة أرغونة، كما أسهمت فيها قوى أخرى صليبية من أسبانيا المسيحية، ومن جنوب أوروبا وغربها.

وكان أن سقطت ميورقة فى ختام عام ١٢٢٩، وأعقب ذلك مجزرة رهيبة أسفرت عن ذبح الآلاف من المسلمين فى الجزيرة[٢]. أما من حاولوا الفرار من الجزيرة، فقد غرق معظمهم فى البحر، ولم يصل سوى القليل من غرناطة أو شمال أفريقية. وأعقب ذلك سقوط بقية جزر البليار الإسلامية واحدة بعد أخرى، مثل يابسه وفرمنتيرة (سنة ١٢٣٥). أما جزيرة ميورقة، فقد اضطرت إلى الاستسلام سنة ١٢٨٦[٣].

وبعبارة أخرى، فإنه فى الوقت الذى كان الصليبيون يستأصلون شأفة المسلمين فى جزر البليار، كان المماليك يعملون فى الشام لتطهير البلاد من آخر البقايا الصليبية، وهو الأمر الذى تم سنة ١٢٩١، مما يوضح التناقض بين وضع كفتى الميزان فى شرق حوض البحر المتوسط وغربه.

---

(١) عصام الدين سيسالم: جزر الأندلس المنسية، ص٢١٨ .

(٢) المقرى: نفح الطيب، ج٤، ص٤٧١ .

(٣) عصام الدين سيسالم: جزر الأندلس المنسية، ص ٤٥٦ .

الفصل الرابع

أثر الحروب الصليبية في الشرق الأدني

ازدياد معرفة الغرب بالشرق:

استمرت الحركة الصليبية سنوات طويلة بين مد وجزر، لم تقتصر طوالها هجمات الصليبيين على بلاد الشام وحدها، وإنما امتدت إلى كثير من البلدان الإسلامية فى المشرق والمغرب، فهاجم الصليبيون الوافدون من غرب أوربا العراق ومصر وآسيا الصغرى وتونس والمغرب والأندلس. بل لقد وصلت هجمات الصليبيين إلى شواطئ الحجاز نفسه بغية تهديد الحرمين. وليس هناك من شك فى أن اتساع دائرة الحركة الصليبية على تلك الصورة كان له أثره الواضح فى ازدياد الصلات والروابط بين المشرق الإسلامى والغرب الأوربى، الأمر الذى صارت له نتائج خطيرة فى مستقبل التاريخ.

والمعروف أن ثمة اتصالات تمت بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى فى العصور الوسطى قبل بداية الحركة الصليبية، ولكنها كانت اتصالات فردية محدودة، لا تتعدى تبادل الهدايا والكتب بين الملوك والحكام عن طريق بعض السفراء والمبعوثين، أو مجئ بعض الحجاج فرادى من الغرب الأوربى لزيارة بيت المقدس، ثم عودتهم بالسرعة التى حضروا بها، دون أن يسمح لهم بالتجول فى البلدان الإسلامية إلا فى ظل قيود معينة. وإذا وجدت هناك علاقات تجارية بين بلدان الشرق الأدنى الإسلامية – وبخاصة مصر والشام – من ناحية والغرب الأوربى من ناحية أخرى، فإن تلك العلاقات ظلت حتى بداية الحروب الصليبية محدودة، ضيقة النطاق.

ثم كان أن ظهرت الحركة الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر لتغير من ذلك الأوضاع، إذ وفد ألوف الأوربيين من غرب أوروبا، واستقروا فى بلاد الشام وسيطروا على موانيها. وكان لابد لأولئك الأغراب من اتصال دائم ببلادهم الأصلية، فبدأت حركة ملاحية ضخمة فى البحر المتوسط بين موانئ الشرق وبلدان الغرب. ثم إن هناك فريقاً ممن أسهموا فى الحملة الصليبية الأولى عادوا إلى الغرب بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، لاعتقادهم أن مهمتهم الأساسية قد انتهت. وعند عودتهم حكوا الكثير عما رأوه وصادفوه فى الشرق؛ وبذلك أخذ الغرب الأوروبى يسمع

مزيداً من القصص والأخبار عن العرب والمسلمين، وبلادهم، وحياتهم، وعاداتهم، فكانت هذه هى البداية الحقيقية لمعرفة الغرب الأوربى بالشرق الإسلامى معرفة وثيقة واسعة، ظلت تنمو وتزداد إلى أن بلغت ذروتها فى العصور الحديثة.

والملحوظ أن كثيراً من كتب التاريخ - وبخاصة تلك التى كتبت فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين - حرصت عند علاج موضوع حملة بونابرت على مصر والشام على اتخاذ الحروب الصليبية مدخلاً للموضوع، بل إن بعضها يبدأ علاج المسألة الشرقية بالإشارة إلى الحروب الصليبية. ومع أننا نرى فى هذا المنهج نوعاً من المبالغة التاريخية، إلا أنه من العدالة أن تبحث الدوافع التى دفعت تلك المدرسة من المؤرخين إلى التمسك باعتبار الحروب الصليبية مدخلا لحملة بونابرت على مصر ثم ظهور المسألة الشرقية. والأمر فى نظرنا واضح لا لبس فيه ولا غموض، إذ يتلخص فى أن الحروب الصليبية كانت أضخم محاولة فى نهاية العصور الوسطى لفتت أنظار الغرب الأوربى إلى الشرق الإسلامى على مقياس واسع كبير. وهذا ما عبر عنه البعض بأن الحروب الصليبية نجم عنها أن الغرب الأوربى اكتشف الشرق.

ثم إن الصليبيين عندما استقروا فى الشام فى عصر الحروب الصليبية، كانت غالبيتهم دائما من العنصر اللاتينى وبخاصة الفرنسيون. وظهر ذلك فى مملكة بيت المقدس ونظمها، كما ظهر فى مجال اللغة اللاتينية التى سادت بين الصليبيين بالشام[1]. ولم نسمع عن الانجليز أو الألمان مثلا أنهم - رغم اشتراكهم فى الحركة الصليبية - أحرزوا تفوقاً فى بلاد الشام فى الغلبة العنصرية، أو فى اللغة والنظم. وحسبنا أن الدولة الكبيرة التى أقامها الصليبيون لأنفسهم فى الشام وقبرص، مازال يطلق عليها فى كتب التاريخ اسم الشرق اللاتينى. ولم يحاول مؤرخ واحد معاصر أو حديث أن يسميها الشرق السكسونى أو الألمانى مثلاً، لأن هذا لا يتفق والحقيقة التاريخية.

وهكذا دالت دولة الصليبيين فى الشرق الأدنى، وظلت ذكريات الشام ومصر ولويس التاسع عالقة فى أذهان الفرنسيين دون غيرهم - أو على الأقل أكثر من

(1) Longnon: Les Franscais d' Outremer au Moyen Age, p. 103.

غيرهم، من الشعوب الغربية التى أسهمت فى الحركة الصليبية. ومن ذلك الوقت والفرنسيون يحرصون على بقاء صلتهم قوية بالشرق الأدنى والبلدان العربية - وبخاصة بلاد الشام - وينظرون إلى هذه المنطقة على أنها منطقة نفوذ لهم، على الأقل فى المجال الحضارى. واستمر الأمر على ذلك حتى كانت حملة بونابرت على مصر والشام، فرأى الفرنسيون فيها إحياء لنفوذهم القديم فى الشرق الأدنى، على عصر الحروب الصليبية.

وخلاصة القول أن الغرب الأوروبى والشرق الإسلامى ظلا فى عزلة شديدة عن بعضهما البعض، حتى قامت الحروب الصليبية لتفتح عيون الغرب على الشرق، وتلقى ضوءاً - ولو خافتاً - على بعض البلدان الإسلامية، وبخاصة مصر والشام، مما صار له أبعد الأثر بالنسبة لتاريخ الشرق الأدنى فضلاً عن مستقبل العلاقات بين الشرق والغرب.

النشاط التجاري وأثره في بلدان الشرق الأدني:

ذكرنا أن الباعث الاقتصادى كان له أثره الأكبر فى تحريك القوى البحرية الإيطالية - وبخاصة الثلاثة الكبار جنوا والبندقية وبيزا - نحو المشاركة فى الحركة الصليبية، وتقديم مساعداتها البحرية للصليبيين بالشام، مقابل ما حصلت عليه من امتيازات واسعة فى موانئ الشام ومدنه الصليبية. ولم يلبث التجار الأوربيون - من إيطاليا ومرسيليا وأسبانيا - أن قاموا بنشاط تجارى واسع بين الشرق والغرب، فأسسوا لأنفسهم مراكز وأحياء ثابتة فى عكا وصور وصيدا والسويدية واللاذقية وغيرها. ومن هذه المراكز احتكروا تصدير حاصلات الشرق إلى الغرب الأوروبى(١). أما هذه الحاصلات فأهمها المنسوجات القطنية والحريرية والأوانى الزجاجية المصنوعة فى صور، واللؤلؤ والأحجار الكريمة الواردة من سيلان والهند، والخليج والعاج والبخور، والعقاقير والتوابل الواردة من الشرق الأقصى. وقد تبدو هذه الأشياء كمالية فى نظرنا، ولكن الواقع أنها كانت أساسية بالنسبة للمجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى. ثم إنها كانت لا تتوافر إلا فى الشرق ولا تستورد إلا من الشرق. وقد أدت سيطرة الأوروبيين على معظم شواطئ الشام فى القرن الثانى عشر إلى تدفق تلك البضائع بواسطة القوافل

(1) Heyd: op. cit, I, p.p. 131 - 132.

– عن طريق بلاد العرب والعراق – على دمشق، ومنها إلى موانئ الشام الساحلية حيث كانت تشحنها السفن إلى الغرب.

ومن الواضح أن جزءاً من تجارة الشرق كان يرد إلى مصر عن طريق البحر الأحمر، فيحمله التجار الأوربيون من دمياط والأسكندرية إلى الغرب الأوروبى.

ولكن قوة مركز الصليبيين فى الشام فى القرن الثانى عشر جعلتهم يركزون الجزء الأكبر من نشاطهم التجارى فى موانئ الشام بالذات، فلم يكن لموانئ مصر الشمالية نصيب ضخم فى النشاط التجارى مع التجار الإيطاليين فى ذلك القرن.

على أن هذه الأوضاع لم تلبث أن تغيرت فى القرن الثالث عشر، نتيجة لغزو المغول، إذ شجع المغول التجار على اتخاذ الطريق البرى عبر إمبراطوريتهم من الصين إلى تركستان فموانئ البحر الأسود، أو ميناء إياس على البحر المتوسط. كذلك أدى غزوهم للعراق إلى تهديد وإغلاق طريق الخليج فبغداد فدمشق، الأمر الذى أثر فى المركز التجارى لموانئ الشام تأثيراً خطيراً. أما طريق البحر الأحمر ومصر فقد ظل بعيداً عن خطر المغول وتهديدهم، فتركز فيه الجزء الأكبر من تجارة الشرق الأقصى. وهكذا صارت الإسكندرية ودمياط مركزين لنشاط تجارى كبير، فقصدتهما سفن البنادقة والبيازنة والجنوية، فضلاً عن تجار مرسيليا وأسبانيا لابتياع التوابل والبخور والحراير وغيرها من حاصلات الشرق(١).

وقد رحب سلاطين المماليك بمصر بأولئك التجار الأجانب، نظراً لما كانت تعود به تجار الشرق عليهم من أرباح وافرة. وكان أن عاش التجار الأوربيون فى الإسكندرية ودمياط، وغيرهما من المراكز التجارية الكبرى على هيئة جاليات، لكل جالية قنصل يشرف على شئون أفراد الجالية ومصالحهم الاقتصادية. وإذا حدث من طائفة أحدهم ما يشين فى الإسلام يطلب منه(٢). كذلك اتخذت كل جالية لنفسها فندقاً أو أكثر ينزل فيه أفرادها. وقد زار مصر سنة ١٣٩٣ أمير فرنسى، فحكى الكثير عن فنادق البنادقية والجنوية والكتيلان والقبارصة وأهالى نابلى وأهل كريت وأهل مرسيليا وغيرهم(٣).

---

(1) Heyd. Op. cit, II. P. 73.

(٢) خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ٤١ .

(3) Le Voyage d'Outremer p. IX

ويهمنا فى هذا المقام أن ذلك النشاط التجارى الواسع إنما جاء وليد الحركة الصليبية، وارتبط بها ونما معها. ثم إن هذا النشاط التجارى لم يلبث أن عاد بالخير العميم على مصر والشام بوجه خاص. وإن من يدرس الحياة الاجتماعية فى مصر بالذات فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر يجد كل صورة من صور المجتمع تنطق بوفرة الثروة والبذخ المطلق. فالعمارة المماليكية الفاخرة التى مازالت بقاياها من مساجد وقصور قائمة فى القاهرة، والتحف النادرة من أوان ومشكاوات وصناديق ودكك ومناضد مطعمة وغير مطعمة، والحفلات العديدة الزاخرة بشتى ألوان الترف... كل ذلك يشهد على وفرة ثروة المماليك وهى الثروة المستقاة من التجارة الخارجية مع الغرب الأوربى بوجه خاص فى عصر الحروب الصليبية.

ولا أدل على مدى استفادة المماليك بمصر والشام من تجارة الشرق، من عظم الخسارة التى لحقت بهم عند اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند. وقد أحس سلاطين المماليك عندئذ بأنهم أوشكوا أن يفقدوا موردهم الأساسى الذى هو مصدر قوتهم، فثاروا، وحاولوا ضرب البرتغاليين ضربة قاضية فى جنوب البحر الأحمر، ولكنهم لم يفلحوا فى تغيير عجلة الزمن. وبضياع تجارة الشرق انحطت قوة المماليك انحطاطاً سريعاً، وذبلت دولتهم حتى سقطت فريسة سهلة فى أيدى العثمانيين فى أوائل القرن السادس عشر.

التطورات السياسية في الشرق الأدني:

وأخيراً، فإن الحروب الصليبية ساعدت عن طريق مباشر أو غير مباشر على حدوث بعض التطورات الداخلية فى بلدان الشرق الأدنى. ومن هذه التطورات ما هو اجتماعى مثل التأثر ببعض عادات الصليبيين وأوضاعهم ، ومنها ما هو إدارى مثل التوسع فى تطبيق مبدأ توريث الإقطاع، أسوة بما كان معمولاً به فى الغرب الأوروبى. ومع ذلك فإن التأثيرات الاجتماعية والإدارية التى انتقلت من الصليبيين إلى المسلمين ظلت قليلة غير خطيرة، لأن كراهية المسلمين للصليبيين جعلتهم لا يتحمسون لمحاكاتهم والأخذ بنظمهم الاجتماعية والإدارية. أما فى الجانب السياسى فإن أثر الحروب الصليبية فى بلدان الشرق الأدنى جاء واضحاً وقوياً.

ذلك أن الحملة الصليبية الأولى جاءت إلى الشرق الأدنى وبلاد الشام مفككة

سياسياً، لا تربط بين أجزائها وحدة سياسية، ولا تهيمن عليها قوة كبرى، تستطيع أن تصد الخطر الغربى الذى دهمها فى أواخر القرن الحادى عشر. هذا فى الوقت الذى كانت الخلافة العباسية فى بغداد تعانى ضعفاً واضحاً، والخلافة الفاطمية فى القاهرة تسير فى طريق الموت البطئ. وإذا كانت الحملة الصليبية الأولى قد انتصرت، وحققت هدفها فى الوصول إلى بيت المقدس، وإقامة عدة إمارات للصليبيين فى الشام وشمال العراق، فإن انتصارها لا يرجع إلى قوة الصليبيين بقدر ما يعود إلى ضعف القوى الإسلامية المعاصرة فى الشام والعراق ومصر. وهكذا بدأ القرن الثانى عشر للميلاد والمسلمون فى الشرق الأدنى فى خيبة أمل واضحة، بسبب افتقارهم إلى شخصية قوية توحد بين صفوفهم، وترد إليهم كرامتهم، وتدفع عنهم عادية الغزاة المعتدين. وبعبارة أخرى فقد كان الموقف الناجم عن الحملة الصليبية الأولى فى الشرق الأدنى يتطلب ظهور بطل فى المحيط الإسلامى يتدارك الأمر، وينقذ ما يمكن إنقاذه. وكان أن ظهر عماد الدين زنكى ومن بعده نور الدين محمود ليقوما بدور بارز فى مدافعة الصليبيين من ناحية، ثم فى إقامة جبهة إسلامية متحدة امتدت من الفرات إلى النيل من ناحية أخرى. ثم استطاع صلاح الدين الأيوبى أن يتم الحلقة الأخيرة فى جهود عماد الدين ونور الدين، وأن ينزل ضربته الكبرى بالصليبيين فى حطين، ثم يسترد منهم بيت المقدس وكثيراً ما كان بأيديهم من مدن ومعاقل. وبذلك مكن صلاح الدين لنفسه ولبيته واستطاع أن يضع أساس بيت حاكم له أهميته فى تاريخ الشرق الأدنى، هو البيت الأيوبى.

ومن هذا كله نلاحظ أن الظروف والأخطار التى ألمت بالمسلمين فى الشام ومصر نتيجة للحركة الصليبية، هى التى ساعدت على ظهور البيت الأيوبى، وأن هذا البيت استمد مكانته وهيبته فى نظر المعاصرين – وفى التاريخ – من حسن بلاء ملوكه – وبخاصة صلاح الدين – ضد الصليبيين. وبعبارة أخرى فإن الحروب الصليبية وأخطارها هى التى هيأت لبنى أيوب الفرصة المناسبة للظهور وأمدتهم بميدان واسع للعمل والبقاء، وطالما نهض بنو أيوب بواجبهم الذى رشحتهم له الأحداث – وهو محاربة الصليبيين ودفع خطرهم – احترمهم المعاصرون لأنهم حرصوا على حماية ملكهم. ولكن الموقف تبدل فى القرن الثالث عشر عندما انقسم أبناء البيت الأيوبى على أنفسهم، وظهر عجزهم عن القيام بواجبهم الأساسى فى

الجهاد. وفى الوقت الذى استمر خطر الصليبيين من ناحية، وظهر خطر المغول على المسلمين فى الشرق الأدنى من ناحية أخرى، وعندئذ بدا للمعاصرين فى مصر والشام أنه لابد من قوة جديدة تبادر إلى إنقاذ الموقف، فقامت دولة المماليك لتذود عنهم وتحمى كيانهم.

ومن المعروف أن المماليك لم يكن لهم سند شرعى فى الحكم. ولم يكن لهم مجد موروث يعتمدون عليه فى التمكين لأنفسهم. فضلاً عن أصلهم غير الحر الذى عرضهم لكثير من التجريح. وإذا كان المماليك قد أثبتوا كفايتهم وصلاحيتهم للحكم عندما انتصروا فى بداية حكمهم على المغول فى عين جالوت، فإن هذا النصر – مع أهميته البالغة – لم يكن كافياً لأن يعيش عليه المماليك مدة طويلة، لاسيما وأن السلطان قطز – بطل عين جالوت – لم يلبث أن قتل بعد قليل. لذلك صار لابد لسلاطين المماليك من ميدان آخر واسع المدى يظهرون فيه بطولتهم ويبررون به بقاءهم فى الحكم. وهنا أيضاً أمدتهم الحروب الصليبية بميدان حافل، تعاقب عليه سلاطين المماليك واحداً بعد آخر، واستطاعوا أن يبرزوا فيه حتى استأصلوا شأفة الصليبيين نهائياً من الشام. وبفضل الانتصارات التى أحرزها الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل، على الصليبيين فى الشام، صار بقاء المماليك فى الحكم ضرورة واجبة وأمراً مقبولاً من المعاصرين، ثم إن الخطر الصليبى الغربى لم ينته بطرد الصليبيين من الشام فى أواخر القرن الثالث عشر، وإن استمر ماثلاً فى صورة أو أخرى، طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وكان فى مثابرة المماليك على التصدى لذلك الخطر خير دعامة تبرر بقاءهم فى الحكم. وهكذا ساعدت الحروب الصليبية – عن طريق غير مباشر – على خلق بيوت حاكمة جديدة فى الشرق الأدنى، وعلى بقاء هذه البيوت فى الحكم حتى استنفدت غرضها الذى قامت على أساسه.

وثمة أهمية أخرى للحركة الصليبية فى التاريخ السياسى لمنطقة الشرق الأدنى؛ هى إضعاف الدولة البيزنطية، التى ظلت تمثل الحائط الشرقى الذى يحمى أوربا من جانب القارة الآسيوية طوال قرون عديدة. حقيقة أن الحركة الصليبية قامت فى أول أمرها بدعوى نجدة القسطنطينية، ومساعدة أباطرتها ضد السلاجقة. ولكن سرعان ما ظهر لأباطرة الدولة البيزنطية أن الصليبيين أشد خطراً على دولتهم من السلاجقة.

ذلك أن الصليبيين لم يكتفوا بما أحدثوه بأراضى الدولة البيزنطية فى البلقان وآسيا الصغرى من تخريب وتدمير، بل دخلوا فى نزاع طويل مرير مع أباطرة الدولة، حول ملكية المدن والبلاد التى فتحها الصليبيون فى الشام، وبخاصة مدينة أنطاكية. ويبدو أن هذا النزاع استنفد كثيراً من جهد الدولة البيزنطية وإمكاناتها، فى وقت كانت أشد ما تكون حاجة إلى ذلك الجهد وتلك الإمكانات. ثم كانت الضربة القاصمة التى أنزلها الصليبيون بالإمبراطورية البيزنطية سنة ١٢٠٤، عندما غزوا القسطنطينية، وقضوا على الإمبراطورية الشرقية، وأقاموا على أنقاضها إمبراطورية لاتينية إقطاعية استمرت أكثر من نصف قرن. وإذا كانت الإمبراطورية البيزنطية قد تم إحياؤها سنة ١٢٦١، إلا أن هذه الإمبراطورية لم تستطع أن تفيق مطلقاً من الطعنة الخطيرة التى وجهتها إليها الحملة الصليبية الرابعة، فولدت فى تلك المرة هزيلة ضعيفة، ليس لها من مظاهر العظمة إلا مجد قديم ظلت تتغنى به، وتأسف على ضياعه.

ولا يخفى علينا أن ضعف الدولة البيزنطية على تلك الصورة أمر له مغزاه وخطورته، فى الوقت الذى ولدت إمارة بنى عثمان. ونمت الدولة العثمانية لتجد أمامها دولة مفككة منهكة القوى، مما سهل على العثمانيين التوسع فى أمان دون أن يصادفوا عقبة كؤود من جانب الدولة البيزنطية، حتى انتهى الأمر بسقوط القسطنطينية فى القرن الخامس عشر.

الفصل الخامس

أثر الحروب الصليبية في الغرب الأوربي

الأثر الحضاري:

من الثابت علمياً أن الغرب الأوربى ظل طوال الشطر الأول من العصور الوسطى – حتى القرن الحادى عشر للميلاد – غارقاً فى غمرة من التأخر الحضارى، فى الوقت الذى كان المسلمون فى المشرق والمغرب – منذ القرن السابع ينعمون بمستوى حضارى رفيع – دونه بكثير المستوى المنحط الذى عاش فيه الأوربيون الغربيون. كذلك أثبتت الأبحاث الحديثة أن ثمة حركة إفاقة شاملة دخل فيها المجتمع الأوربى فى عصر الحروب الصليبية، وأن هذه الحركة شملت جميع نواحى الحياة فى الغرب، حتى أطلق عليها هاسكنز اسم النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر. وعندما بحث المؤرخون، أسباب هذه النهضة وبواعثها، لم يستطيعوا مطلقاً إغفال أثر الحروب الصليبية، بحكم ما تم أثناءها من اتصال قوى بين الصليبيين الغربيين من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى، مما ساعد على انتقال كثير من مظاهر الحضارة الإسلامية العربية إلى الغرب الأوربى.

على أننا لا نريد أن ننساق فى الطريق الذى انساق فيه كثير من الكتاب الأوروبيين فى القرن التاسع عشر، فنبالغ فى أهمية بلاد الشام والحروب الصليبية كمعبر انتقلت عليه حضارة المسلمين إلى الغرب الأوروبى. ذلك أن الحقيقة الكبرى التى يجب ألا نغفل عنها هى أن الصليبيين أتوا إلى الشرق الأدنى فى أواخر القرن الحادى عشر محاربين لا طلاب علم، وأن ظروف إقامتهم فى الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كانت صعبة وسط محيط واسع من الأعداء يهاجمونهم ويتربصون بهم الدوائر، مما لم يترك لهم مجالاً للاستقرار الهادئ الذى هو شرط أساسى للتوافر على طلب العلم. وإذا كانت هناك معابر انتقلت عليها علوم المسلمين إلى الغرب الأوروبى فى عصر الحروب الصليبية، فإننا يجب أن نلقى الأضواء على أسبانيا وصقلية أولاً وقبل أى معبر آخر.

ففى أسبانيا وصقلية ازدهرت الحضارة العربية الإسلامية، وفيهما قامت فى القرن الثانى عشر حركة ضخمة لترجمة الكتب وخلاصة الفكر العربى الإسلامى من

اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية.

ومع ذلك فإن ثمة اتصالات حضارية وثقافية تمت بين المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية، فانساب كثير من الكلمات والمصطلحات العربية فى اللغات الأوروبية منذ ذلك العصر، وإن كانت هناك صعوبة فيلولوجية فى تحقيق نسبة استعارة هذه الألفاظ، لأن بلاد الشام لم تكن وحدها المكان الذى اتصل فيه الغرب الأوروبى بالعرب. كذلك تأثر الفن الحربى وفن بناء الحصون والقلاع عند الأوربيين بما شاهدوه من نظم ونماذج إسلامية زمن الحروب الصليبية، فتقدمت حركات الحصار واستعمال المجانيق والكباش الهادمة، واستخدام الدروع للفرسان وخيولهم، وإرسال الرسائل الحربية عن طريق الحمام الزاجل. كذلك عرف الصليبيون كثيراً من فنون التحصين وعمل الاستحكامات عن طريق محاكات القلاع الإسلامية التى شاهدوا منها نماذج عديدة فى بلاد الشام ومصر. من ذلك نظام المشربيات الذى عرفته العمارة الحربية فضلاً عن المدنية عند المسلمين، وهذه المشربيات عبارة عن دعائم يتقارب بعضها من بعض وتحمل فوقها حواجز بارزة، وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور، يمكن أن تصوب منه السهام إلى رؤوس المحاصرين، الذين يحاولون أن يحفروا تحت جدران الحصن أو يشعلوا النيران فيه. كذلك يمكن من هذه المشربيات أن يصب الزيت والماء المغليان على رؤوس المحاصرين[١]. وسرعان ما اقتبس الصليبيون فكرة المشربيات عن المسلمين، ونقلوها إلى الغرب الأوربى، فظهرت فى قلاع شاتو جيلارد Chateau Gaillard ونورويتش Norwitch، وغيرهما من القلاع التى أقيمت فى الغرب الأوربى فى القرن الثانى عشر. وهناك ظاهرة أخرى فى فن العمارة الحربى استعارها الغرب من المسلمين فى مصر والشام إبان عصر الحروب الصليبية، وهى جعل المدخل الحربى لباب الحصن أو القلعة متعرجاً أو على شكل زاوية قائمة، حتى لا يتمكن العدو إذا وصل قرب الباب من رؤية الفناء الداخلى للحصن، أو يصوب سهامه إلى من فيه. ولم يعرف الأوربيون هذا النوع من المداخل الملتوية إلا عن طريق المسلمين فى عصر الحروب الصليبية، فطبقوه بعد ذلك فى قلاعهم بأوربا. وظهرت هذه الظاهرة بوضوح فى قلعة بوماريس Beaumaris فى انجلترا وفى قلعة كاركاسون فى فرنسا[٢].

---

(١) زكي محمد حسن: فنون الإسلام، ص ٨٦١ .

(٢) مارتن برجز: تراث الإسلام، ص ١٣٧-١٤٠ .

يضاف إلى ذلك أن الأوربيين تعلموا من المسلمين فى الشام فى عصر الحروب الصليبية استعمال الرنوك والشارات. ثم إن الحياة اليومية عند الأوروبيين تأثرت بما عرفه الأوربيون من نباتات وحاصلات جديدة انتقلت من شرق حوض البحر المتوسط إلى غربه، مثل السمسم والأرز والليمون والبطيخ والثوم وسكر القصب.

وقد أعجب الصليبيون بكثير من عادات المسلمين فى الشام، فأخذوا عنهم فكرة الحمامات واستعمالها، كما حاكوهم فى بعض جوانب من أسلوب حياتهم. وكانت العلاقات الاجتماعية والاقتصادية تنشط بين الطرفين فى أوقات الهدنات والصلح، فيتزاور الفريقان، ويتبادلان المتاجر والهدايا. من ذلك ما يرويه أسامة بن منقذ فى القرن الثانى عشر من أن رجلا من رجاله دعى إلى منزل فارس فرنجى من الصليبيين ببلاد الشام فقال الرجل: فأحضر مائدة حسنة وطعاما فى غاية النظافة والجودة ورآنى متوقفاً عن الأكل فقال: كل طيب النفس فأنا ما آكل من طعام الأفرنج ولى طباخات مصريات.. ما آكل إلا من طبخهن ولا يدخل دارى لحم الخنزير(١)... ويروى المؤرخون المسلمون أنه عندما طال حصار الصليبيين لعكا سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ - ١١٩٠م) أنس المسلمون بالفرنج بطول المدة، بحيث كانوا يتركون القتال ويتحدثون، وربما غنى بعضهم لبعض، ثم يعاودون القتال بعد ساعة، وكانوا خرجوا صبيانهم وقاتلوا صبيان المسلمين!!(٢).

الآثار الاجتماعية والسياسية:

أحدثت الحروب الصليبية هزة عنيفة فى الغرب الأوربى ظهرت آثارها بوضوح فى النواحى الاجتماعية والسياسية. فمن ناحية بناء المجتمع ساعدت الحروب الصليبية على إضعاف النظام الإقطاعى وحله، وهو النظام الذى قامت على أساسه الحياتين الاجتماعية والسياسة بل والاقتصادية فى ذلك العصر فى الغرب الأوربى. والمعروف أن النظام الإقطاعى فى الغرب اعتمد على قاعدة ضخمة من الأقنان والرقيق الذين قاموا بفلاحة الأرض لسادتهم من الفرسان والأمراء.. ولكن الحروب الصليبية فتحت الباب على مصراعيه لهؤلاء الأقنان ورقيق الأرض لكى يتخلصوا من

(١) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، ص ١٤٠ .

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٢٩٤ . أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ ، ص ١٤٧ .

أوضاعهم، ويتركوا الأرض التى ارتبط بها آباؤهم وأجدادهم بحجة المشاركة فى النشاط الصليبى. وكان السيد الإقطاعى لا يستطيع أن يمنع الفلاحين من الخروج لخدمة الدين والكنيسة، فوجد ملاك الأرض أنفسهم فجأة أمام عجز خطير فى الأيدى العاملة، بعد أن استوعبت الحملة الصليبية الأولى وحدها أكثر من عشرة آلاف قن، تركوا الأرض التى يقومون بفلاحتها واتجهوا إلى الشرق بحثاً عن حياة جديدة. وهكذا اضطر كبار الأمراء والسادة الإقطاعيين إلى البحث عن رجال أحرار يقومون بفلاحة أرضهم، مما أدى إلى تصدع الجهاز الإقطاعى وانقراض طبقة الأقنان والرقيق تدريجياً من المجتمع الأوروبى الغربى[١].

على أن النظام الإقطاعى لم يكن نظاماً اجتماعياً فحسب - كما سبق أن أشرنا- وإنما كان أيضاً نظاماً سياسياً واقتصادياً. ومن الثابت أن هذا النظام ظل عاملاً كبيراً من عوامل ضعف السلطة المركزية وانحلالها فى بلدان غرب أوروبا، لأن كبار الأمراء الإقطاعيين جنحوا دائماً نحو الاعتداد بقوتهم وتحقيق استقلالهم المحلى فى إقطاعاتهم، إلا أن تكون تبعية محدودة أجازها العرف الإقطاعى. وهكذا ظلت الملكيات فى غرب أوروبا ضعيفة مسلوبة السلطان، لا يستطيع الملك فى بلده أن يدعى حق الإشراف المطلق على كافة أرجاء المملكة، وإلا تعرض لثورة جامحة من جانب كبار أمرائه الإقطاعيين.

ثم جاءت الحركة الصليبية لتقلب تلك الأوضاع رأساً على عقب، فساعدت على تقوية سلطان الملكية وتدعيم السلطة المركزية فى بلدان الغرب الأوروبى على حساب الأمراء الإقطاعيين. ذلك أن عدداً كبيراً من العمالقة أى كبار الأمراء أسهموا فى الحروب الصليبية، فاستنفدت تلك الحروب قدراً ضخماً من إمكاناتهم وقوتهم وثروتهم وجهودهم، ووجهت تلك الطاقة بأجمعها إلى الشرق بدلاً من توجيهها ضد ملوكهم ومنافسيهم[٢]. بل إن بعض الأمراء الإقطاعيين اضطروا إلى الاستدانة، ورهن ممتلكاتهم أو بيعها، ليتمكنوا من تسليح فرسانهم والمساهمة فى النشاط الصليبى، الأمر الذى أدى إلى إضعاف شوكة عديد من الأمراء فى الغرب الأوربى، وأتاح فرصة للملكية لكى تتنفس الصعداء. ثم إن كثيراً من زعماء البيوت الإقطاعية ماتوا فى الحرب الصليبية، ولم تقدر لهم العودة إلى

(1) Painter: Mes. Society pp. 57-59& Cam. Med. Hits. Vol. 7, p. 727.
(2) Cam. Med. Hits. Vol. 5, p. 328.

بلادهم. من ذلك أن أمراء بيت تولوز – وهو من أقوى البيوت الإقطاعية فى فرنسا – مات منهم فى الشام أربعة فى مدى أقل من خمسين عاماً، كذلك اندثرت ذرية الذكور فى بيت بوايون "Bouillon"، وانتقلت إلى الإناث بسبب موت آخر سلالة من ذلك البيت فى الحرب الصليبية. وهكذا أمدت الحرب الصليبية ملوك أوروبا بوسيلة طيبة لتقليص نفوذ منافسيهم، وتدعيم سلطان الملوك، مما مهد لظهور الملكيات القوية فى الغرب الأوروبى فى أواخر العصور الوسطى.

الأثر الاقتصادي:

وبالإضافة إلى ما لإضعاف النظام الإقطاعى من أهمية اقتصادية، فإن الحروب الصليبية لها نتائج أخرى خطيرة فى التطور الاقتصادى لغرب أوربا. ومن أبرز هذه النتائج أن الطلب اشتد على النقود التى احتاج الصليبيون إلى قدر كبير منها للإنفاق فى طريقهم إلى الشرق، فباع كثير من الصليبيين ممتلكاتهم وأراضيهم واستبدلوا بها نقودا يحملونها معهم، الأمر الذى ترتب عليه انخفاض أثمان الأراضى والعقارات فضلاً عن المنقولات، حيث إن النقود اشتد الطلب عليها(١). ولما كان اليهود أنشط فئة فى ميدان الاقتصاد فى المجتمع الأوربى فى ذلك الوقت، فإن النقود كانت متوفرة فى أيديهم، مما جعلهم – بحكم غريزتهم – يستغلون الفرصة لتقديم القروض إلى من يطلبها بربا فاحش. وقد استاء الأوربيون من سلوك اليهود، وحقدوا عليهم حقداً شديداً، وربما كان هذا هو السبب فيما تعرض له اليهود بالذات من اضطهاد فى الغرب الأوربى على عصر الحروب الصليبية.

وإلى عصر الحروب الصليبية بالذات ترجع فكرة فرض ضرائب ذات طابع حديث على الممتلكات، لتحل محل الضرائب الإقطاعية المألوفة فى العصور الوسطى. من ذلك أن حاجة لويس السابع إلى المال للمشاركة فى الحملة الصليبية الثانية، دفعته إلى فرض ضريبة بمقدار العشر على جميع المنقولات الخاصة برجال الدين فى مملكته. وباسم الحروب الصليبية أيضاً فرض فيلب أوغسطس وريتشارد قلب الاسد ضريبة عشور صلاح الدين "Saladin Tithe". وهكذا تكون الحركة الصليبية قد ساعدت على إحداث تغير وتطور ملموس فى النظم المالية فى غرب أوربا، وهو تطور له خطورته لأنه يعتبر بداية ونواة لنظام الضرائب الحديث(٢).

(1) Thompson: op, cit, I. pp. 393-394.
(2) Cam. Med. Hits. Vol. 5, p. 324.

ثم إن ازدياد النشاط التجارى بين الغرب والشرق فى عصر الحروب الصليبية أدى إلى انتعاش كثير من المدن الأوروبية التى أسهمت فى ذلك النشاط، مثل أمالفى ومرسيليا وناربون وبرشلونة، فضلاً عن الثلاثة الكبار: البندقية وجنوا وبيزا. وكان ذلك فى الوقت الذى تعرض النظام الإقطاعى لهزة عنيفة كما سبق أن أشرنا. الأمر الذى أدى إلى تطور خطير فى الاقتصاد الأوروبى، بعد أن أخذ الاقتصاد يتحول من الزراعة إلى التجارة. ولم تلبث البضائع المستوردة من الشرق أن أخذت تشق طريقها من موانئ جنوب أوربا نحو وسط القارة وغربها. مما أدى إلى نشاط تجارى كبير فى إقليم فلاندرز وحوض الراين وشامبنى فضلاً عن سهول لمبارديا.

ومن جهة أخرى، فإن المدن التجارية التى ازدهرت فى جنوب أوربا نتيجة لانتعاشها الاقتصادى، سرعان ما صارت قدوة ومثلا احتذته بقية المدن فى غرب أوروبا، وبخاصة فى بروفانس وحوض الراين وفلاندرز، حيث أخذت المدن تنتزع اعترافات من السادة الإقطاعيين بحقوقها وحريتها. وبالتالى خفت قبضة الأمراء عن المدن فى النواحى الإدارية والقضائية والمالية، وصارت كل مدينة عبارة عن قومون، أى وحدة سياسية واقتصادية مستقلة فى شئونها الداخلية[١]. وإن من يدرس نشأة المدن الأوروبية فى تلك الفترة يدرك خطورة الدور التى قامت به القومونات فى نواحى الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى الغرب الأوربى[٢].

وأخيراً فإنه يلاحظ أن نشاط التجارة فى أوربا على عصر الحروب الصليبية أدى إلى نتائج أخرى مهمة، منها نشاط المصارف واتساع نطاق أعمالها، وتحسين طرق التجارة وإنشاء طرق جديدة، وازدهار الأسواق، وزيادة الاعتماد على السفن والطرق البحرية فى الاتصالات التجارية وغير التجارية، مما تطلب إنشاء خطوط ملاحية منتظمة ودائمة بين البلدان الأوروبية بعضها وبعض، وبينها وبين بعض بلدان الشرق[٣].

الأثر الديني:

كانت البابوية هى التى دعت الحروب الصليبية، وتعهدت تلك الحركة من

(1) Cam. Med, Hits, vol. 5, pp. 220-223.

(٢) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطي، ج١ ص ٣٣٢ وما بعدها (١٩٦٦).

(3) Thompson: op. cit, I, p. 430& سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطي، ج٢ ص ٣٠٧ (١٩٦٨).

بدايتها حتى نهايتها. وإذا كنا قد سبق أن أوضحنا أن الدافع الأساسى للبابوية على الدعوة لتلك الحركة لم يكن دينياً خالصاً، وإنما شابته بعض أغراض أخرى خاصة، فإن هذا يجعلنا نتناول فى إيجاز الفوائد التى حققتها البابوية لنفسها، وللكنيسة الغربية من وراء رعاية الحركة الصليبية.

ولعل أول ما يلاحظ فى هذا الصدد أن الحروب الصليبية بدأت فى فترة حاسمة بالنسبة للتاريخ الغربى، يطلق عليها عادة عصر النزاع بين البابوية والإمبراطورية. وفى هذا النزاع الذى استحكمت حلقاته بين السلطتين الدينية والعلمانية فى غرب أوروبا بسبب رغبة كل سلطة منهما فى إثبات سموها وزعامتها على العالم، لجأ كل فريق – سواء البابوات أو الأباطرة – إلى الاستعانة بكافة الأسلحة المادية وغير المادية لتحقيق غرضه. ومن الواضح أن قيام البابا أوربان الثانى بالدعوة للحرب الصليبية المقدسة سنة ١٠٩٥، واستجابة الرأى العام فى الغرب الأوربى لتلك الدعوة، جاء كسباً خطيراً للبابوية فى نزاعها ضد الإمبراطورية، لأنه أظهرها فى صورة الزعيمة الفعلية للمجتمع المسيحى، القمينة بقيادته فى معركة الكبرى ضد المسلمين لاسترداد البيت المقدس.

ثم إن نجاح الحرب المقدسة ضد المسلمين كان يتطلب موارد بشرية ومادية ضخمة، لذلك استغلت البابوية تلك الدعوة الجديدة، وجمعت الجيوش والأموال، مما أمدها بطاقة هائلة حققت لها النصر النهائى على الإمبراطورية، ففى أواخر القرن الثانى عشر ابتدعت البابوية بدعة جديدة هى أنه: يجوز لمن لا يقوى على المشاركة بنفسه فى الحروب الصليبية أن يتبرع بمبلغ من المال للمساعدة على استمرار الحرب، وعندئذ يحصل على غفران ذنوبه ويكتسب ثواباً كما لو كان قد شارك فى الحرب فعلا. وهكذا بدأت بدعة صكوك الغفران، وهى الصكوك التى أخذت البابوية تبيعها لمن يشارك والتى لم تلبث أن صارت مورداً مالياً للخزانة البابوية بقية العصور الوسطى(١).

وإذا كانت البابوية قد استفادت مالياً من صكوك الغفران، وهى الفرصة التى هيأتها لها الحروب الصليبية، فإن خسارة الكنيسة الغربية من ناحية أخرى جاءت

---

(1) Cam. Med. Hits, vil. 5, p. 223.

واضحة من الناحية المادية بسبب تلك الحروب أيضاً. ذلك أن ملوك الغرب الأوربى – وبخاصة فرنسا وانجلترا – انتهزوا فرصة حاجتهم إلى الأموال بسبب المشاركة فى الحروب الصليبية تلبية لرغبة البابوية، وفرضوا ضريبة العشور على الممتلكات المنقولة لرجال الكنيسة. وبذلك حطموا مبدأ الإعفاء من الضرائب الذى كان يتمتع به رجال الدين فى أوربا، ووضعوا أساس سابقة خطيرة تمسك بها الملوك. وقد عارض البابوات تلك الخطوة، ورفضوا أن تصبح الممتلكات الكنسية مورداً للدخل القومى فى بلدان غرب أوربا. ولكن عجلة التطور كانت أثبت وأسرع وأشد.

وثمة نتيجة أخرى من النتائج المهمة للحركة الصليبية بالنسبة للكنيسة الغربية، هى أن هذه الكنيسة أخذت تؤمن منذ بداية القرن الثالث عشر بعدم جدوى الحملات المسلحة لفرض المسيحية بالقوة، فاتجهت نحو البعثات التنصيرية لنشر مبادئ المسيحية بين المسلمين، ومحاولة تنفيذ سياستها عن طرق الإقناع. ومن الواضح أن الكنيسة الغربية لم تلجأ إلى هذه الخطوة الجديدة إلا بعد أن رأت عبث الجهود والتضحيات التى بذلتها فى الحروب الصليبية، وكيف أنها ضحت بالأرواح والأموال دون أن تحصل على نتيجة واضحة. وكان أن بدأت جهود المنصرين لنشر المسيحية بين المسلمين، فوصل القديس فرنسيس "St. Francis Of Assisi" إلى مصر سنة ١٢١٩، وقدم مواعظه الدينية فى حضرة السلطان الكامل. ثم استمر أتباع ذلك القديس – فضلاً عن أتباع القديس دومينك – يواصلون جهودهم فى النصف الأول من القرن الثالث عشر، مؤملين أن ينجحوا فى نشر المسيحية بين المسلمين عن طريق الإقناع(١). واتخذت هذه الحركة التنصيرية اتجاهاً جديداً، عندما فكر لويس التاسع ملك فرنسا فى نشر المسيحية بين المغول جميعاً، وبذلك يقع المسلمون فى الشرق الأدنى بين شقى الرحى، ولا يجدون مناصاً من اعتناق المسيحية. ولذلك أرسل لويس التاسع – بالاشتراك مع البابا أنوسنت الرابع – أحد الفرانسيسكان واسمه وليم روبرت "Wikkiam Of Rubrouck" إلى خان المغول لإقناعه وقومه بالدخول فى المسيحية(٢). كذلك أشار لويس التاسع على البابا أنوسنت الرابع بإنشاء جمعية التنصير الأولى سنة ١٢٥٣، وهى الجمعية التى ضمت عدداً كبيراً من المنصرين الفرانسيسكان

---

(1) cam. Med. Hits, vol 5, p. 325.
(2) Setton: op. cit, II, 728.

والدومينكان. على أن أعظم شخصية فى هذه الحركة فى القرن الثالث عشر كانت شخصية رامون لول "Raymond Lull"؛ وهو أسبانى كرس حياته لمهمة نشر المسيحية بين المسلمين بالذات، فأقنع ملك ميورقة المسيحى بإنشاء كلية الثالوث المقدس سنة ١٢٧٦، وهناك أخذ يعد مجموعة من المنصرين للقيام بمهمتهم. وأهم وسائل الإعداد كانت تعليمهم اللغة العربية. وبعد أن قضى رامون عشر سنوات فى إعداد أعوانه، أوفدهم إلى شمال أفريقية، فضلاً عن بلاد المغول والأرمن لنشر المسيحية الكاثوليكية. وبفضل جهوده قرر مجمع فينا سنة ١٣١١ إنشاء ستة معاهد لتدريس اللغات الشرقية فى أوربا، وذلك لأنه لا يمكن للداعى إلى المسيحية أن ينجح نجاحاً مضموناً إلا إذا عرف لغة القوم الذى ينشر رسالته بينهم.

ومهما يكن من أمر، فإن اتساع حركة التنصير بين الشعوب غير الأوروبية جاءت من نتائج الحروب الصليبية. وإذا كانت هذه الحركة لم تحرز نجاحاً بين المسلمين، وغيرهم من الشعوب فى منطقة الشرق الأدنى، فإنها استمرت حتى أحرزت بعض النجاح فيما بعد فى شرق آسيا وبخاصة بين البوذيين. أما المغول فقد انتصر الإسلام فى اكتسابهم حتى صارت الغالبية العظمى منهم فى أواخر القرن الرابع عشر مسلمين. وهذه السياسة – سياسة التنصير – التى ارتبطت بالحركة الصليبية، مازالت تشكل ركنا أساسياً من أركان نشاط الكنيسة الكاثوليكية، وبخاصة فى قارتى أفريقية وآسيا.

ازدياد محصول المعلومات الجغرافية:

وإذا كانت الحركة الصليبية التى قام بها الغرب قد باءت أخيراً بالفشل فى جانبها الحربى، إلا أن النشاط الصليبى عموماً كانت له نتيجة مهمة من ناحية ازدياد حصيلة المعلومات الجغرافية. ولا أدل على ازدياد معرفة الأوربيين بالعالم الخارجى فى عصر الحروب الصليبية من كثرة الكتابات التى وضعت فى ذلك العصر والتى حوت كثيراً من المعارف عن الشرق. ومن الطبيعى أن يكون وصف الطرق المتعددة بين بيت المقدس والغرب الأوربى هو المحور الأول لتلك الكتابات، وبعد ذلك أتى وصف بلاد الشام وأحوالها ومدنها وجبالها ومسالكها وخيراتها. على أنه باتساع النشاط الصليبى اتسعت دائرة المعرفة الجغرافية، فنرى كاتباً مثل جوانفيل يكتب عن

نهر النيل ومنابعه وفروعه السبعة وخصائص مياهه وفيضانه[1]. حقيقة أن كتابة جوانفيل عن النيل لا تخلو من خرافات – أو على وجه التحديد هى مزيج من الخرافة والواقع– كما هى الحال فى معظم الكتابات المشابهة التى دونت فى العصور الوسطى، ولكن يكفى أن هذه الكتابة وأمثالها زودت الغرب الأوروبى بقسط من المعلومات عن بلاد كانوا يجهلون كل شئ عنها تقريباً.

ثم إن ازدياد النشاط التجارى فى حوض البحر المتوسط على عصر الحروب الصليبية جعل المدن الإيطالية تهتم بجغرافية ذلك البحر، فظهرت خرائط جغرافية مفصلة لمعالم البحر المتوسط منذ أواخر القرن الثالث عشر[2]. هذا وإن كانت هذه الخرائط أيضاً – مثل خريطة العالم (Mappa Mundi)التى وضعت فى دير هيرفورد "Hereford"سنة ١٢٨٠ – تتصف بعدم الوضوح وافتقارها إلى الدقة.

ثم كانت أن بدأت الحركة التنصيرية، وأخذت هذه الحركة فى الاتساع منذ القرن الثالث عشر كما سبق أن أشرنا، الأمر الذى ترتب عليه ازدياد محصول المعلومات الجغرافية فى الغرب الأوروبى، حيث إن دعاة المسيحية ارتادوا بلاداً – وبخاصة فى آسيا – كانت حتى ذلك الوقت مجهولة للأوربيين. من ذلك ما رواه وليم روبروك مبعوث الملك لويس التاسع إلى خان من مغامراته الجزئية فى آسيا الوسطى. وفى سنة ١٢٧١ بدأ ماركو بولو رحلته الشهيرة فى آسيا فمر بالموصل وبغداد وخرسان حتى وصل إلى بلاط خان المغول، وهناك أوفده الخان مبعوثاً إلى بعض البلدان الآسيوية مثل بورما والصين والهند وغيرها. وأخيراً عاد ماركو بولو إلى بلده البندقية عن طريق سومطرة والهند وفارس، فوصل البندقية سنة ١٢٩٥، حيث كتب رحلته التى ضمنها كثيراً من مشاهداته ومغامراته. وقد اشتد الإقبال فى الغرب الأوربى على قراءة رحلة ماركو باولو فى القرن الرابع عشر مما أثار اهتماماً خاصاً عند الغربيين بالقارة الآسيوية. ومهما يقال من أن ماركو بولو ورفقاءه كانوا تجاراً وليسوا صليبيين، فإن اتساع دائرة النشاط التجارى فى ذلك العصر وحب الاستطلاع وجمع المعارف عن البلاد الأجنبية كان إحدى الثمار المباشرة للحركة الصليبية.

الحمد لله رب العالمين

والسلام علي أنبيائه ورسله أجمعين

(1) Joinville: Le vie de Saint Roi Louis, p. 76-78.
(2) Cam. Med. Hits. 5, p. 327.

الجداول والكشافات والمصادر

أولاً - كشاف أبجدى

بأسماء المدن والأماكن الجغرافية كما وردت فى المصادر والمراجع الصليبية وما يقابلها فى المصادر العربية

Ablastha, Ablastain	أبلستين – ابلستان
Acre	عكا
Adalia	أنطاليا
Adana	أذنه
Adiaman	حصن منصور
Adraad	أذرعات
Afamia	فاميه – أفامية
Afrabala	عفربلا
Afrin	عفرين
Aghmat	أغمات
Aila	أيله
Ain Jalud	عين جالوت
Aintab	عين تاب – عينتاب
Akhlat, Ahlat	خلاط – أخلاط
Akkar, Gibelcar	عكار (حصن)
AL	عال (حصن – تل)
Alamut	ألموت
Al - Bara	البارة
Albistan. Albasta	البستا – ألبستين
Aleppo	حلب
Alexandreita	اسكندرونة
Allaruz	علاروز
Amasia	أماسيه – أماسيا
Amastris	سينوب
Amida	آمد
Amorium	عمورية

Amq	العمق
Ana	عانة
Anab	أنب
Ana Zarba	عين زربة
Ani	آني – آنه
Anjarr	عين الجر
Antaradus	أنطرطوس – طرطوس – انطرسوس
Antioch	أنطاكية
Apamea	فاميه – أفامية
Arenas, Areas, Arqa	عرقة
Aregh	حارم
Arethuse	الرستن
Arish	العريش
Arsuf. Arsur, Arsuth	أرسوف
Anesium. Artah	أرتاح
Aryma	العريمة – حصن عريمة
Arzen	أرزن
Ascalon	عسقلان
Asa	عزاز
Asfuna	أسفونا
Athareb	الأثارب
Atlit	عتليت
Ayas, Lajazzo	أياس
Azaz, Hazart, Asa	عزاز
Baalbek	بعلبك
Bab - Buzaah	الباب – باب بزاعة
Babain	البابين
Babylon	الفسطاط

Baghras	بغراس
Balance	بانياس
Balat	البلاط
Balaianus	بلاطنس
Balis	بالس
Banyas, Belinas, Caesarea Philippi	بانياس
Barin, Montferrand	بارين – بعرين
Baruth, Berytus	بيروت
Basrafuth	بسرفوث
Beavoir, Belvoir	كوكب (حصن)
Beccar. Beqa, Coelesyria	البقاع
Behesni	بهنسي
Beit Jibrin, Beth Cibelin	بيت جبرين (جبريل)
Belfort, Beaufort	شقيف أرنون
Betenoble, Bait Nuba	بيت نوبا
Bethelon	البترون
Bethlehem	بيت لحم
Bethsan, Bessan	بيسان
Birejik, Birtha, Bira, Bile	البيرة
Bizaa, Buzaah	بزاعة – بزاعا
Blanche Garde	تل الصافية
Bosra, Bostra	بصري
Boutron, Botron, Batrun	البترون
Bulunyas	بانياس
Bursia, Burzey	برزية
Byblos	جبيل
Caco	قاقون
Caesarea	قيساريه

Caesarea Magna	شيزر
Caiffa, Cayphas	حيفا
Calcaille	قيليقيه
Caleph. Calyptus	حلب
Calogenbar	جعبر
Calquis	قنسرين
Camolla	حمص
Capharca, Capharda	كفر طاب
Carep	الأثارب
Carram	حران
Cartapte	خرتيرت
Castra Commenon	قسطموني
Cavam	القحوانه – الأقحوانة
Cavea de Tyron	شقيف تيرون
Caymoni	قيمون (تل – حصن)
Cedron	وادي مريم
Chaco	قاقون
Chamelle	حمص
Chastel - Blanc	برج صافينا
Chastel - neul'	حصن هونين
Chateau des Kurdes	حصن الأكراد
Chateau Pelerin	عثليث
Coclesyria	البقاع
Coible	الخوابي
Colist	القليعة
Coquet	كوكب (حصن)
Crac	الكرك
Cursat	القصير

Cyrrhus,Corice,Couris, Ouuris	قورس – قورص
Damascus	دمشق
Damietta	دمياط
Danith	دانيث
Daraiya	داريا
Darbsak, Trapesac	دربساك
Duron.Darum	الدارم (الدارون) – دير البلح
Dausar	دوسر – جعبر (قلعة)
Deraad	أذرعات
Doliche, Duiuk	دلوك
Dustrey	عثليت
Edassa, Urfa	الرها
Elyn	أيلة
Emesa, Emissa, Homs	حمص
Epiphania	حماة
Eregli	هرقله
Ermenek	أرمناك
Erzerum	أرضروم (أرض الروم)
Esdrae.'on	مرج ابن عامر
Famiya	فامية – أفامية
Gabes	قابس
Gadrcs, Gaza	غزة
Galilee	الجليل
Gargar	كركر
Gaston,Gaston Pagrae	بغراس
Germanica	مرعش
Cermanica Polis	أرمناك
Ghor	الغور

Ghuta	الغوطة
Gibe,Gibelet, Byblos	جبيل
Gibeleas, Akkar	عكار – حصن ابن عكار
Gibelin	بيت جبرين (جبريل)
Gibellum	جبلة
Graye	جزيرة فرعون
Hab, Haba. Hapa	هاب
Habis Jaldak	حبيس جلدك
Habor	الخابور (نهر)
Haifa, Caiffa, Caiphas	حيفا
Hamah,Hamaih, Epiphania	حماة
Hamiah	عينتاب
Harcnc, Harim	حارم
Harran, Carrhae	حران
Hattin, Hittin, Madon	حطين
Hauran	حوران
Hasan. Hazart	عزاز
Hebron, Habrun	الخليل
Heliopolis	بعلبك
Heraclea	هرقلة
Hierapolis	منبج
Hems	حمص
Hit	هيت
Hromkla, Hromgla	قلعة الروم
Hunin	هونين
Ibelin. Jabneel, Jamnia	يبنا – يبني
Iconium	قونية
Idutnee	وادي عربة

أنب	Inab
جعبر – دوسر	Jabar
مخاضة الأخزان – مخاضة يعقوب	Jacobs Ford
جسر بنات يعقوب	
يافا	Jaffa. Joppa
الجولان	Jaulan
جينين	Jenin
أريحا	Jericho
بيت المقدس	Jerusalem. Hierosolyma
الأردن	Jordan
جبيل	Jubail. Byblos, Gibelet
كفر لاثا	Kafarlatha
كفر طاب	Kafarlatab
كيفا	Kaifa
كيسون – كيسوم	Kaisun, Kesoun
القنطرة	Kantara
قرس	Kars, Chorsa
كلا	Kella
خربوت – خرتبرت	Kharput, Kharpert, Harput
خلاط – أخلاط	Khilat
خوي – خويه	Khiva
قورس	Khoros
حصن الأكراد	Krak des Chevaliers
حصن الكرك	Krak de Moab
حصن الشوبك	Krak de Montreal
حمص	La Chamelle
القولة	La Feve, Afula
العليقة	Laicas

Lailun	ليلون
Laodicea, Latakia	اللاذقية
Laris	العريش
Larissa	شيزر
Latmin	لطمين
Latron La Toron de Chevaliers	الأطرون
Layas, Laias, Lajazzo	إياس
Lejjun	اللجون
Lichia - Latakia - Laodicea	اللاذقية
Lydda, Saint George	اللد
Maan	معان
Maarat Masrin	معرة مصرين
Maarat Numan	معرة النعمان
Maiyafariqin Martyropoiis	ميافارقين
Majdal	المجدل
Mamistra, Misis, Mopsuestia	المصيصة
Manbij, Hierapolis	منبج
Maraclea, Maraqiya	مرقأ
Marash, Germanicia	مرعش
Mardin	ماردين
Margat	المرقب
Marj - al Suffar	مرج صفر
Marj Ayun	مرج عيون
Maasyaf	مصياب، مصيات، مصياف
Megiddo	اللجون
Melitine	ملطية
Mesopotamia	العراق
Mirabel	مجدليابا – مجدل يابا

Missis	المصيصة
Mombech , Hieapolis	منبج
Montferrrand	بارين - بعرين
Montfort	القرين
Mont Pelerin	قلعة صنجيل
Mont Thabor	الطور
Mopsuestia, Mamistra	المصيصة
Muneitira, Le Monestre, Le Moinestre	المنيطرة
Nablus, Neapolis	نابلس
Naqurah, Nanqura	النقورة ، النواقير
Nazareth	الناصرة
Neocesarea	نكسار
Nepa	أنب
Nephin	أنفه
Nicaea	نيقية
Nijm	نجم (قلعة)
Nisibe, Nisibis, Nisibin	نصيبين
Orfa	الرها
Oronte	العاصي (نهر)
Pagrae	بغراس
Palaestina, Palestine	فلسطين
Pancas	بانياس
Pont	البحر الأسود
Pont de Fer	جسر الحديد
Portus St. Simconis	السويدية
Ptolemais, Acre	عكا
Pyramus, Chahan	جيهان
Qadmus	القدموس

القحوانة - الأقحوانة	Qahwana
قارا	Qara
حران	Qarram
قسطموني	Qastamuni
قنسرين	Qinnesnn, Calquis
القصير	Qoseir
قاقون	Quaquo
خرتبرت	Quartapiert, Quart - Pierre
قبة ابن ملاعب (حصن)	Qubbat Mulaib
قنيطرة	Qunei tra
فويق (نهر)	Quwaiq
رعبان	Raban
رفنية	Rafaniyah, Rephaila
الرحبة	Raheba
الرملة	Rama, Rames Ramla, Ramala
قلعة الروم	Ramqala, Ranculat
الرقة	Raqqa
الراوندان	Ravenda, Ravendan
الرستن	Restan
اريحا	Riha
الرها	Roais, Edessa, Urfa
رشيد	Roosseta
أرواد (جزيرة)	Ruad, Aradus
الروج	Rugia, Ruj
الرصافة	Rusafah
علاروز	Rusa, Kussa
صفد	Safed, Saphet
صافيثا	safet, Safita, Safitha

Sagitta, Sidon.	صيدا
Saint - Abraham	الخليل
Saint - Sepulcre	كنيسة القيامة
Saint - Simeon	السويدية
Salamiya	سلمية
Salkhad	صلخد – صرخد
Samosata	سميساط
Saone	صهيون
Sarafand, Sarepta, Zarephath	صرفند
Sardonas, Sadanium, Zardana	زردنا
Sarmata, Sarmeda, Sarmit	سرمدا – سرمد
Sarmin, Sermin	سرمين
Saruj, Sorogia, Soroges	سروج
Scandelion, Alexendretta.	اسكندرونه
Scythopolis, Beisan	بيسان
Sebastae, Samaria	سبسطية – سبصطية (بالشام)
Sebastia	سيواس (بآسيا الصغري)
Sephorie, Sephoris	صفورية
Shaffran	شفر عم – شفر عمر
Shaizar, Sisara, Caesara	شيزر
Shaqhab	شقحب (تل)
Selcath	صلخذ – صرخد
Shaqif Arnun, Belfort	شقيف أرنون
Shaqif Tirun, Tyron.	شقيف تيرون
Sidon	صيدا
Siffin	صفين
Silifke	سلوقية
Sinjar	سنجار

Sinn al Nabra	الصنبرة
Sion, Zion	جبل صهيون
Sisara	شيزر
Smyrna	أزمير
Subeibe	الصبيبة
Syria	سورية - الشام
Tabor, Thabor	جبل الطور (قرب عكا)
Tafnus, TampniSj, Tinnis	تنيس
Tarse	طرسوس
Tekrit	تكريت
Tell Mannas	تل منس - تلمنس
Templum Domini	قبة الصخرة
Thabaria, Tiberias	طبرية
Theodosiopolis	أرزن
Tibnin, Toron	تبنين
Tigris	دجلة (نهر)
Tilhamdoun	تل حمدون (حصن)
Tizin	تيزين
Toron, Tibnin	تبنين
Tortosa	أنطرطوس - طرطوس
Trapessac	دربساك
Tripoli, Tripolis	طرابلس
Tubanie	الطوبان
Tulupe	دلوك
Turbessel, Turbezel	تل باشر
Tyana	طوانه
Tyre	صور
Tyron	شقيف تيرون

العسية	Ullaiqa, Laicas
بانياس	Valania
يبنا – يبني	Yabna
يغري	Yaghra
اليرموك	Yarmuk
يازور	Yazur
زردنا	Zerdana
جبلة	Zibel
صهيون	Zion
زرعين	Zirin, Jezreel, Le petit Gerin

ثانيا - جداول بأسماء الحكام

١ - السلاجقة

(أ) سلاطين السلاجقة العظام

طغرلبك	١٠٣٧ - ١٠٦٣
ألب أرسلان	١٠٦٣ - ١٠٧٢
ملكشاه بن ألب أرسلان	١٠٧٢ - ١٠٩٢
محمود بن ملكشاه	١٠٩٢ - ١٠٩٤
بركياروق بن ملكشاه	١٠٩٤ - ١١٠٤
محمد بن ملكشاه	١١٠٤ - ١١١٨
أحمد سنجر بن ملكشاه	١٠٩٦ - ١١٥٧

(ب) سلاجقة العراق

محمود بن محمد بن ملكشاه	١١١٨-١١٣١
داود بن محمود	١١٣١
طغرل الأول بن محمد	١١٣٢-١١٣٣
مسعود بن محمد	١١٣٣ - ١١٥٢
ملكشاه بن محمود	١١٥٢
محمد بن محمود	١١٥٣ - ١١٥٩
سليمان شاه بن محمد	١١٥٩ - ١١٦١
أرسلان شاه بن طغرل	١١٦١ - ١١٧٧
طغرل الثاني بن أرسلان شاه	١١٧٧ - ١١٩٤

(ج) سلاجقة الشام

تتش بن ألب أرسلان	١١٩٤
رضوان بن تتش (بحلب)	١٠٩٥ - ١١١٣
دقاق بن تتش (بدمشق)	١٠٩٥ - ١١٠٣
ألب أرسلان بن رضوان (بحلب)	١١١٣ - ١١١٤

سلطان شاه بن رضوان (بحلب)	١١١٤–١١١٧

(د) سلاجقة الروم بآسيا الصغرى

سليمان بن قتلمش	١٠٨١–١٠٨٦
قلج أرسلان الأول	١٠٩٢ – ١١٠٧
ملكشاه الأول بن قلج أرسلان	١١٠٧ – ١١١٦
مسعود الأول بن قلج أرسلان	١١١٦– ١١٥٦
قلج أرسلان الثاني	١١٥٦ – ١١٨٨
ملكشاه الثاني	١١٨٨– ١١٩٢
كيخسرو الأول	١١٩٢– ١٢٠٠
سليمان شاه الثاني بن قلج أرسلان	١٢٠٠– ١٢٠٣
قلج أرسلان الثالث بن سليمان شاه	١٢٠٣ – ١٢٠٤
كيخسرو الأول (مرة ثانية)	١٢٠٤ – ١٢١٠
كيكاوس الأول بن كيخسرو الأول	١٢١٠– ١٢١٩
كيقباد الأول بن كيخسرو الأول	١٢١٩ – ١٢٣٦
كيخسرو الثاني بن كيقباد الأول	١٢٣٦ – ١٢٤٥
كيكاوس الثاني بن كيخسرو الثاني	١٢٤٥ – ١٢٥٧
قلج أرسلان الرابع بن كيخسرو الثاني	١٢٥٧ – ١٢٦٧
كيخسرو الثالث بن قلج أرسلان الرابع	١٢٦٧ – ١٢٨٣
مسعود الثاني بن كيكاوس الثاني	١٢٨٣ – ١٢٩٦
كيقباد الثالث	١٢٩٦ – ١٣٠٠

٢- بنو أرتق

(أ) الأراتقة فى حصن كيفا ثم فى آمد

سقمان الأول بن أرتق	١١٠١ – ١١٠٤
إبراهيم بن سقمان	١١٠٤ – ١١٠٨
داود بن سقمان	١١٠٨ – ١١٤٨

قرا أرسلان بن داود	١١٤٨ – ١١٧٤
محمد بن قرا أرسلان	١١٧٤ – ١١٨٥
سقمان الثاني بن محمد	١١٨٥ – ١٢٠٠
محمود بن محمد	١٢٠٠ – ١٢٢٢
مودود بن محمود	١٢٢٢ – ١٢٣١

(ب) الأراتقة في ماردين

إيلغازي الأول بن أرتق	١١٠٨ – ١١٢٢
تمر تاش بن إيلغازي	١١٢٢ – ١١٥٢
ألبي بن تمرتاش	١١٥٢ – ١١٧٦
إيلغازي الثاني بن ألبي	١١٧٦ – ١١٨٤
يولق أرسلان بن إيلغازي الثاني	١١٨٤ – ١٢٠٠
أرتق أرسلان بن إيلغازي الثاني	١٢٠٠ – ١٢٣٩
غازي الأول بن أرتق أرسلان	١٢٣٩ – ١٢٥٩
قرا أرسلان بن غازي الأول	١٢٥٩ – ١٢٩١

(ج) الأراتقة في خرتبرت

أبو بكر بن قرا أرسلان	١١٨٥ – ١٢٠٣
إبراهيم بن أبي بكر	١١٠٣ – ؟
الخضر بن إبراهيم	؟
أرتقشاه بن الخضر	حوالي ١٢٦١

٣- بنو زنكي

(أ) أتابكة الموصل

عماد الدين زنكي بن آقسنقر	١١٢٧ – ١١٤٦
سيف الدين غازي الأول بن زنكي	١١٤٦ – ١١٤٩
قطب الدين مودود بن زنكي الأعرج	١١٤٩– ١١٧٠

سيف الدين غازي الثاني بن مودود ١١٧٠– ١١٧٦
عز الدين مسعود الأول بن مودود ١١٧٦ – ١١٩٣
نور الدين أرسلان شاه الأول بن مسعود ١١٩٣– ١٢١٠
عز الدين مسعود الثاني بن أرسلان شاه ١٢١٠ – ١٢١٨
نور الدين أرسلان شاه بن مسعود الثاني ١٢١٨ – ١٢١٩
ناصر الدين محمود بن عز الدين مسعود الثاني ١٢١٩ – ١٢٣٣
بدر الدين لؤلؤ وابنه ركن الدين إسماعيل ١٢٣٣ – ١٢٥٩

(ب) أتابكة الشام

العادل نور الدين محمود بن زنكي
في حلب ١١٤٦ – ١١٧٤
في دمشق ١١٥٤ – ١١٧٤
الصالح نور الدين محمود بن إسماعيل
في حلب ١١٧٤ – ١١٨١
ضم حلب إلي أتابكية الموصل وسنجار ١١٨١ – ١١٨٣

(ج) أتابكة سنجار

عماد الدين أبو الفتح زنكي الثاني بن مودود ١١٧٠ – ١١٩٧
قطب الدين محمد بن زنكي الثاني ١١٩٧ – ١٢١٩
عماد الدين شاهنشاه بن محمد ١٢١٩
جلال الدين محمود بن محمد ١٢١٩ – ١٢٢٠

٤- بنو أيوب

(أ) الأيوبيون فى مصر

الناصر صلاح الدين يوسف ١١٧٤ – ١١٩٣
العزيز عثمان ١١٩٣ – ١١٩٨
المنصور محمد ١١٩٨ – ١١٩٩
العادل الكبير أحمد ١١٩٩ – ١٢١٨

الكامل (الأول) محمد	١٢١٨ - ١٢٣٨
العادل الصغير أبو بكر	١٢٣٨ - ١٢٤٠
الصالح أيوب	١٢٤٠ - ١٢٤٩
المعظم توران شاه	١٢٤٩ - ١٢٥٠

(ب) الأيوبيون فى دمشق

الأفضل نور الدين علي	١١٩٣ - ١١٩٦
العادل (الكبير) أحمد	١١٩٦
المعظم عيسي	١٢١٨ - ١٢٢٧
الناصر داود	١٢٢٧ - ١٢٢٩
الأشرف موسي	١٢٢٩ - ١٢٣٧
الصالح إسماعيل (المرة الأولي)	١٢٣٧
الكامل الأول محمد	١٢٣٨
العادل (الصغير) أبوبكر	١٢٣٨ - ١٢٣٩
الصالح نجم الدين أيوب (المرة الأولي)	١٢٣٩
الصالح إسماعيل (المرة الثانية)	١٢٣٩ - ١٢٤٥
الصالح نجم الدين أيوب (المرة الثانية)	١٢٤٥ - ١٢٤٩
المعظم توران شاه (صاحب مصر)	١٢٤٩ - ١٢٥٠

(ج) الأيوبيون فى حلب

العادل الأول (الكبير) أحمد	١١٨٣ - ١١٨٦
الظاهر غازي الأول	١١٨٦ - ١٢١٦
العزيز محمد	١٢١٦ - ١٢٣٦
الناصر (الثاني) يوسف	١٢٣٦ - ١٢٦٠

(د) الأيوبيون فى حمص

القاهر محمد بن شيركوه	١١٧٨ - ١١٨٦

المجاهد شيركوه الثاني	١١٨٦ – ١٢٤٠
المنصور إبراهيم	١٢٤٠ – ١٢٤٦
الأشرف موسي الثاني	١٢٤٦ – ١٢٦٣

(هـ) الأيوبيون فى حماه

المظفر الأول عمر	١١٧٨ – ١١٩١
المنصور الأول محمد	١١٩١ – ١٢٢٠
الناصر قلج أرسلان	١٢٢٠ – ١٢٢٩
المظفر الثاني محمود	١٢٢٩ – ١٢٤٤
المنصور الثاني محمد	١٢٤٤ – ١٢٨٤

(ز) الأيوبيون فى ميافارقين

الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب	١١٨٥
العادل سيف الدين أبو بكر أحمد (الكبير)	١١٩٤ – ١١٩٩
الأوحد نجم الدين أيوب	١١٩٩ – ١٢١٠
الأشرف الأول موسي	١٢١٠ – ١٢٢٠
المظفر شهاب غازي	١٢٢١ – ١٢٤٤
الكامل الثاني ناصر الدين محمد	١٢٤٤ – ١٢٦٠

٥- سلاطين المماليك فى مصر

(أ) دولة المماليك البحرية

شجر الدر	١٢٥٠
المعز عز الدين أيبك	١٢٥٠
المنصور نور الدين علي بن أيبك	١٢٥٧
المظفر سيف الدين قطز	١٢٥٩
الظاهر ركن الدين بيبرس (الأول)	١٢٦٠
السعيد ناصر الدين محمد بن بركه خان	١٢٧٧

العادل بدر الدين سلامش	١٢٧٩
المنصور سيف الدين قلاون	١٢٧٩
الأشرف صلاح الدين خليل	١٢٩٠
الناصر محمد بن قلاون	١٢٩٣
العادل زين الدين كتبغا	١٢٩٤
المنصور حسام الدين لاجين	١٢٩٦
الناصر محمد بن قلاون (المرة الثانية)	١٢٩٨
المظفر ركن الدين بيبرس (الثاني)	١٣٠٨
الناصر محمد بن قلاون (مرة ثالثة)	١٣٠٩
المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد	١٣٤١
الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد	١٣٤١
الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد	١٣٤٢
الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد	١٣٤٢
الكامل سيف الدين شعبان (الأول) بن الناصر محمد	١٣٤٥
المظفر زين الدين حاجي (الأول) بن الناصر محمد	١٣٤٦
الناصر ناصر الدين الحسن بن الناصر محمد	١٣٤٧
الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد	١٣٥١
الناصر ناصر الدين الحسن (مرة ثانية)	١٣٥٤
المنصور صلاح الدين بن حاجي	١٣٦١
الأشرف ناصر الدين شعبان (الثاني)	١٣٦٣
المنصور علاء الدين علي بن شعبان	١٣٧٦
الصالح صلاح الدين حاجي (الثاني)	١٣٨١

(ب) دولة الجراكسة

الظاهر سيف الدين برقوق	١٣٨٢
الناصر فرج بن برقوق	١٣٩٨
المنصور عبدالعزيز بن برقوق	١٤٠٥

الناصر فرج بن برقوق (المرة الثانية)	١٤٠٥
المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي	١٤١٢
المظفر أحمد بن شيخ	١٤٢١
الظاهر ططر	١٤٢١
الصالح محمد بن ططر	١٤٢١
الأشرف برسباي	١٤٢٢
العزيز يوسف بن برسباي	١٤٣٧
الظاهر جقمق	١٤٣٨
المنصور عثمان بن جقمق	١٤٥٣
الأشرف إينال العلائي	١٤٥٣
المؤيد أحمد بن إينال	١٤٦٠
الظاهر خشقدم	١٤٦٠
الظاهر بلباي المؤيدي	١٤٦٧
الظاهر تمر بغا	١٤٦٨
الأشرف قايتباي	١٤٦٨
الناصر محمد بن قايتباي	١٤٩٦
الظاهر قانصوه خمسمائة	١٤٩٧
الناصر محمد بن قايتباي (للمرة الثانية)	١٤٩٧
الظاهر أبوسعيد قانصوه	١٤٩٨
الأشرف جانبلاط	١٥٠٠
العادل طومان باي الأول	١٥٠١
الأشرف قانصوه الغوري	١٥٠١
الأشرف طومان باي الثاني	١٥١٦

٦- ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية

جودفري دي بوايون (وصي علي الدولة)	١٠٩٩ – ١١٠٠
بلدوين الأول (أول ملك متوج)	١١٠٠ – ١١١٨

بلدوين الثاني	١١١٧ – ١١٣١
فولك الأنجوي	١١٣١ – ١١٤٤
بلدوين الثالث	١١٤٤ – ١١٦٢
عموري الأول	١١٦٢ – ١١٧٤
بلدوين الرابع	١١٧٤ – ١١٨٥
بلدوين الخامس	١١٨٥ – ١١٨٦
جاي لوزجنان	١١٨٦ – ١١٩٢
كونراد دي مونتفرات	١١٩٢
هنري دي شاميني	١١٩٢ – ١١٩٧
عموري الثاني	١١٩٧ – ١٢٠٥
ماري (ابنة كونراد تحت الوصاية)	١٢٠٥ – ١٢١٠
حنا ذي برين	١٢١٠ – ١٢٢٥
الإمبراطور فردريك الثاني	١٢٢٥ – ١٢٥٠
كونراد الرابع ملك ألمانيا (ملك إسمي)	١٢٥٠ – ١٢٥٤
كونرادين (ملك إسمي)	١٢٥٤ – ١٢٦٨
هيو الثالث ملك قبرص (الثاني)	١٢٦٩ – ١٢٨٤
حنا الأول ملك بيت المقدس	١٢٨٤ – ١٢٨٥
هنري الثالث ملك قبرص (الثاني)	١٢٨٦ – ١٢٩١

٧- أمراء أنطاكية النورمان

بوهيموند الأول	١٠٩٨ – ١١٠٤
تنكرد	١١٠٤ – ١١١٢
روجر دي سالرنو	١١١٢ – ١١١٩
بوهيموند الثاني	١١٢٦ – ١١٣٠
ريموند دي بواتيه	١١٣٦ – ١١٤٩
ريجنالد دي شاتيون (أرناط)	١١٥٣ – ١١٦٠
بوهيموند الثالث	١١٦٣ – ١٢٠١

بوهيموند الرابع	١٢٠١ - ١٢١٦
ريموند روبان	١٢١٦ - ١٢١٩
بوهيموند الرابع (مرة ثانية)	١٢١٩ - ١٢٣٣
بوهيموند الخامس	١٢٣٣ - ١٢٥١
بوهيموند السادس	١٢٥١ - ١٢٦٧

٨- أمراء طرابلس

ريموند الأول (الصنجيل)	١١٠٢ - ١١٠٥
وليم جوردان	١١٠٥ - ١١٠٨
برتراند	١١٠٨ - ١١١٣
بونز	١١١٣ - ١١٣٧
ريموند الثاني	١١٣٧ - ١١٥٢
ريموند الثالث	١١٥٢ - ١١٨٧
بوهيموند الرابع (+ أنطاكية)	١١٨٧ - ١٢٣٣
بوهيموند الخامس (+ أنطاكية)	١٢٣٣ - ١٢٥١
بوهيموند السادس (+ أنطاكية)	١٢٥١ - ١٢٧٥
بوهيموند السابع	١٢٧٥ - ١٢٨٧

٩- أمراء أرمينية الصغرى

روبان الأول	ت ١٠٩٠
قسطنطين الأول	ت ١١٠٠
ثوروس الأول	١١٠٠ - ١١٢٩
ليون الأول	١١٢٩ - ١١٣٦
ثوروس الثاني	١١٤٤ - ١١٦٧
روبان الثاني (تحت الوصاية)	ت - ١١٧٠
ملح	١١٧٠ - ١١٧٥
روبان الثالث	١١٧٥ - ١١٨٧

ليون الثاني ١١٨٧ – ١٢١٩

(تزوجت إيزابيل ابنة ليون الثانى، من هيثوم لامبرون، الذى أصبح ملكا على أرمينية الصغرى).

١٠- ملوك أرمينية الصغرى

هيثوم الأول	١٢٢٢ – ١٢٦٩
ليون الثالث	١٢٧٠ – ١٢٨٩
هيثوم الثاني	١٢٨٩ – ١٢٩٣
ثوروس الثالث	١٢٩٣ – ١٢٩٤
هيثوم الثاني (مرة أخري)	١٢٩٤ – ١٢٩٦
سمباد	١٢٩٧ – ١٢٩٨
قسطنطين الأول	١٢٩٨ – ١٢٩٩
هيثوم الثاني (مرة ثالثة)	١٢٩٩ – ١٣٠٥
ليون الرابع	١٣٠٥ – ١٣٠٨
أوشين	١٣٠٨ – ١٣٢٠
ليون الخامس	١٣٢٠ – ١٣٤١
جاي دي لوزجنان	١٣٤٢ – ١٣٤٤
قسطنطين الثاني	١٣٤٤ – ١٣٦٣
قسطنطين الثالث	١٣٦٥ – ١٣٧٣
ليون السادس	١٣٧٣ – ١٣٧٥

١١- أباطرة الدولة البيزنطية

ألكسيوس الأول كومنين	١٠٨١ – ١١١٨
حنا الثاني كومنين	١١١٨ – ١١٤٣
مانويل الأول كومنين	١١٤٣ – ١١٨٠
ألكسيوس الثاني كومنين	١١٨٠ – ١١٨٣
أندرونيق الأول كومنين	١١٨٣ – ١١٨٥

إسحق الثاني انجليوس	١١٨٥ – ١١٩٥
ألكسيوس الثالث أنجليوس	١١٩٥ – ١٢٠٣
إسحق الثاني – ألكسيوس الرابع	١٢٠٣ – ١٢٠٤
ألكسيوس الخامس	١٢٠٤
تيودور الأول لاسكارس	١٢٠٤ – ١٢٢٢
حنا الثالث دوقاس	١٢٢٢ – ١٢٥٤
تيودور الثاني لاسكارس	١٢٥٤ – ١٢٥٨
حنا الرابع لاسكارس	١٢٥٨ – ١٢٦١
ميخائيل الثامن باليولوجس	١٢٥٩ – ١٢٨٢
أندرونيق الثاني باليولوجس	١٢٨٢ – ١٣٢٨
أندرونيق الثالث باليولوجس	١٣٢٨ – ١٣٤١
حنا الخامس باليولوجس	١٣٤١ – ١٣٩١
حنا السادس	١٣٤٧ – ١٣٥٤
حنا السابع	١٣٩٠
مانويل الثاني باليولوجس	١٣٩١ – ١٤٢٥
حنا الثامن باليولوجس	١٤٢٥ – ١٤٤٨
قسطنطين الحادي عشر باليولوجس	١٤٤٩ – ١٤٥٣

ثالثاً- تسنين أهم الأحداث التاريخية

١٠٥٥	(ديسمبر) السلطان طغرل بك السلجوقي يدخل بغداد
١٠٧١	(٢٦ أغسطس) موقعة مانزكرت، ألب أرسلان السلجوقي يكسر الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع.
١٠٧١	أتسز التركماني يحتل بيت المقدس
١٠٧٤ – ١٠٧٧	بدر الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستنصر يوطد نفوذه في مصر ويستأثر بالسلطة.
١٠٧٨	منح تتش السلجوقي – أخي السلطان ملكشاه – بلاد الشام.
١٠٧٩	(أكتوبر) أتسز يسلم دمشق لتتش، الذي أناب عنه أرتق في حكم بيت المقدس.
١٠٨١	(أبريل) الإمبراطور ألكسيوس الأول كومنين يعتلي عرش الإمبراطورية البيزنطية.
١٠٨١	(مايو) روبرت جويسكارد النورماني يغزو الأراضي البيزنطية في ألبانيا.
١٠٨٥	(٢٥ مايو) ألفونس السادس ملك قشتالة وليون يفتح طليطلة.
١٠٨٥	(١٧ يولية) وفاة روبرت جويسكارد النورماني، وعزوف النورمان عن غزو ألبانيا.
١٠٨٦	(٢٣ أكتوبر) المرابطون ينزلون هزيمة بالمسيحيين في أسبانيا في موقعة الزلاقة.
١٠٨٧	(٦ أغسطس) إغارة الإيطاليين علي المهدية في تونس.
١٠٨٨	(١٢ مارس) انتخاب البابا أوربان الثاني.
١٠٨٩	الفاطميون يستولون علي عكا وصور وغيرهما من موانئ الشام.
١٠٩٠	الإسماعيلية الباطنية يثبتون أقدامهم في ألموت.
١٠٩١	النورمان يتمون غزو صقلية.
١٠٩٢	(نوفمبر) وفاة السلطان ملكشاه، سيطرة قلج أرسلان الأول علي الأجزاء الغربية من وسط الأناضول.
١٠٩٥	(٢٦ نوفمبر) مقتل تتش. ابنه رضوان يخلفه في حلب، وابنه دقاق

يخلفه في دمشق.

١٠٩٥ (مارس) افتتاح مجمع بياكنزا الديني.

١٠٩٥ (٢٧ نوفمبر) البابا أوربان الثاني يدعو للحرب الصليبية في مجمع كلير مونت.

١٠٩٦ (يولية – أغسطس) وصول بطرس الناسك علي رأس حملة العامة إلي القسطنطينية.

١٠٩٦ (٢١ أكتوبر) الأتراك يقضون علي حملة العامة قرب نيقية.

١٠٩٦ (نوفمبر – ديسمبر) وصول أمراء الحملة الصليبية الأولي إلي القسطنطينية.

١٠٩٧ (مايو) أمراء الحملة الصليبية الأولي يغادرون القسطنطينية لمنازلة المسلمين.

١٠٩٧ (١٩ يونيه) استسلام نيقية للبيزنطيين.

١٠٩٧ (أول يوليه) الصليبيون ينزلون الهزيمة بقلج أرسلان الأول في ضورليوم.

١٠٩٧ (سبتمبر) استيلاء تنكرد علي طرسوس وإعطاؤها لبلدون البولوني.

١٠٩٧ (٢١ أكتوبر) الصليبيون يشرعون في حصار أنطاكية.

١٠٩٨ (١٠ مارس) بلدوين البولوني يحكم الرها.

١٠٩٨ (٣ يونيه) استيلاء الصليبيين علي أنطاكية – بوهيموند يستأثر بحكم المدينة ويتخذ لقب أمير أنطاكية.

١٠٩٨ (٢٨ يونيه) الصليبيون ينزلون هزيمة قرب أنطاكية بالأمير كربغا صاحب الموصل.

١٠٩٨ (٢٦ أغسطس) استيلاء الوزير الأفضل الفاطمي علي بيت المقدس من الأراتقة.

١٠٩٩ (١٥ يوليه) الصليبيون يفتحون بيت المقدس ويستولون عليها من الحاكم الفاطمي افتخار الدولة.

١٠٩٩ (٢٢ يوليه) اختيار جودفري دي بوايون وصياً علي بيت المقدس.

١٠٩٩ (٢٩ يوليه) وفاة أوربان الثاني – انتخاب البابا باسكال الثاني في

	١٤ أغسطس.
١٠٩٩	(١٢ أغسطس) الصليبيون ينزلون هزيمة بالفاطميين قرب عسقلان.
١١٠٠	(١٨ يوليه) وفاة جودفري دي بوايون حاكم بيت المقدس.
١١٠٠	(أغسطس) بنو الدانشمند يأسرون بوهيموند الأنطاكي.
١١٠٠	(٢ أكتوبر) رحيل بلدوين البولوني إلي بيت المقدس، تاركاً بلدوين دي بورج في حكم الرها.
١١٠٠	(٢٥ ديسمبر) تتويج بلدوين الأول في كنيسة بيت لحم ملكاً علي بيت المقدس.
١١٠١	(مارس) تنكرد النورماني ينوب عن بوهيموند في حكم أنطاكية.
١١٠١	(مارس) حملة صليبية جديدة. وصول الصليبيين إلي القسطنطينية وعبورهم إلي نيقوميديا في ٢١ أبريل.
١١٠١	(أغسطس) الأتراك ينزلون الهزيمة بالصليبيين اللمبارديين.
١١٠٣	(مايو) إطلاق سراح بوهيموند وعودته إلي حكم أنطاكية.
١١٠٤	(٧ مايو) أسر بلدوين أمير الرها وجوسلين دي كورتناي عند حران.
١١٠٤	(١٤ يونيه) استقلال طغتكين بحكم دمشق.
١١٠٤	(الخريف) عودة بوهيموند إلي أوروبا وقيام تنكرد في حكم أنطاكية – ريتشارد دي سالرنو بحكم الرها.
١١٠٥	(٢٨ فبراير) وفاة ريموند الصنجيل (دي سان جيل) أثناء حصار طرابلس – وليم يحل محله.
١١٠٥ – ١١٠٧	البابوية تأذن للأمير بوهيموند بتنظيم حملة صليبية ضد البيزنطيين.
١١٠٧	(٣ يونيه) مقتل قلج أرسلان الأول عند الخابور علي يد سلاجقة العراق.
١١٠٧	(الخريف) استيلاء بوهيموند علي أفلونا وحصاره دورازو.
١١٠٧ – ١١١٠	حملة النرويجيين الصليبية بزعامة الملك سيجورد.
١١٠٨	(سبتمبر) فشل حملة بوهيموند وعقد معاهدة مع الإمبراطورية البيزنطية اعترف فيها بسيادتها علي أنطاكية.

١١٠٩	(مارس) وصول برترام بن ريموند الصنجيلي إلي الشام ومطالبته بالجهات المحيطة بطرابلس.
١١٠٩	(١٢ يوليه) استيلاء الصليبيين علي طرابلس – برترام يتخذ لقب كونت طرابلس.
١١١٢	(يناير) وفاة برترام وقيام ابنه بونز في حكم طرابلس.
١١١٢	(ديسمبر) وفاة تنكرد – روجر دي سالرنو يخلفه في أنطاكية.
١١١٣	(٢ أكتوبر) مقتل مودود أتابك الموصل في دمشق بيد الباطنية.
١١١٣	(نوفمبر) وفاة رضوان صاحب حلب وقيام ابنه بدله تحت وصاية لؤلؤ.
١١١٥	(٤ سبتمبر) روجر الأنطاكي يهزم برسق عند دانيث.
١١١٥	بلدوين الأول ملك بيت المقدس يبني حصن الشوبك جنوبي البحر الميت.
١١١٨	(٢ أبريل) وفاة بلدوين الأول، واختيار بلدوين دي بورج حاكم الرها ملكاً علي بيت المقدس في ١٤ أبريل.
١١١٨	(١٥ أغسطس) وفاة ألكسيوس الأول كومنين وإعلان ابنه حنا إمبراطوراً.
١١١٩	(٢٨ يونيه) هزيمة روجر الأنطاكي ومقتله علي يد إيلغازي في موقعة البلاط – قيام بلدوين الثاني بالوصاية علي أنطاكية نيابة عن بوهيموند الثاني.
١١١٩	(أغسطس) الملك بلدوين الثاني يعين جوسلين دي كورتناي حاكماً علي الرها.
١١٢٢	(١٣ سبتمبر) بلك يأسر جوسلين عند سروج.
١١٢٣	(١٨ أبريل) بلك يأسر الملك بلدوين الثاني.
١١٢٣	هرب جوسلين من الأسر وفشله في إنقاذ الملك بلدوين الثاني.
١١٢٤	(٧ يونيه) استيلاء الصليبيين بمساعدة الأسطول البندقي علي صور.
١١٢٤	(٢٩ أغسطس) تمر تاتش يطلق سراح بلدوين الثاني.
١١٢٦	(أكتوبر) وصول بوهيموند الثاني إلي الشام ليصبح أميراً علي

	أنطاكية.
١١٢٦	(٢٦ نوفمبر) مقتل آقسنقر البرسقي بيد الباطنية في الموصل.
١١٢٧	(سبتمبر) تعيين زنكي أنابكاً علي الموصل.
١١٢٨	(١٨ يونيه) زنكي يستولي علي حلب.
١١٣٠	(فبراير) مقتل بوهيموند الثاني صاحب أنطاكية في قيليقية.
١١٣١	(٢١ أغسطس) وفاة بلدوين الثاني وإعلان فولك الأنجوي ملكاً علي بيت المقدس في ١٤ سبتمبر.
١١٣١	(الخريف) وفاة جوسلين الأول وقيام إبنه جوسلين الثاني في حكم الرها.
١١٣٢	اشتري الباطنية حصن القدموس بالشام وبذلك اتسع نشاطهم في جبل النصيرية.
١١٣٧	(٢٥ مارس) مقتل بونز وقيام ابنه ريموند الثاني في حكم طرابلس.
١١٣٧	الإمبراطور البيزنطي حناكومنين يغزو قيليقية ويحاصر أنطاكية في ٢٠ أغسطس.
١١٣٨	(أبريل – مايو) فشل الحملة الصليبية – البيزنطية عند شيزر. الإمبراطور حنا كومنين يدخل أنطاكية ثم ينسحب منها بعد قليل.
١١٤٠	(الشتاء) تحالف معين الدين أنر صاحب دمشق مع الملك فولك ضد زنكي.
١٤٢٠	الصليبيون يشيدون حصن الكرك في الأردن.
١١٤٢	(الخريف) مجئ الإمبراطور حنا كومنين مرة ثانية إلي أنطاكية ثم انسحابه إلي قيليقية.
١١٤٣	(٨ أبريل) وفاة الإمبراطور حنا كومنين، وإعلان ابنه مانويل كومنين إمبراطوراً.
١١٤٣	(١٠ نوفمبر) وفاة فولك ملك بيت المقدس. تتويج ملزاند وابنه بلدوين الثالث سوياً في ٢٥ ديسمبر.
١١٤٤	(٢٤ – ٢٦ ديسمبر) استيلاء زنكي علي الرها.
١١٤٥	(ديسمبر) البابا إيجينوس الثالث يدعو لحملة صليبية جديدة، هي

	الحملة الصليبية الثانية.
١١٤٦	(١٤ سبتمبر) مقتل زنكي، خلفه ولداه سيف الدين غازي في الموصل ونور الدين محمود في حلب.
١١٤٧	(سبتمبر) وصول الشطر الألماني من الحملة الصليبية الثانية بزعامة كونراد الثالث إلي القسطنطينية.
١١٤٧	(٤ أكتوبر) وصول لويس السابع علي رأس الصليبيين الفرنسيين إلي القسطنطينية.
١١٤٧	(أكتوبر) استيلاء البرتغاليين والإنجليز علي لشبونة من المسلمين.
١١٤٧	(أكتوبر) هزيمة كونراد الثالث والصليبيين الألمان قرب ضورليوم.
١١٤٨	(يناير) هزيمة لويس السابع والصليبيين الفرنسيين في الشام.
١١٤٨	(يوليه) فشل الحملة الصليبية الثانية أمام دمشق.
١١٤٩	(٢٩ يونيه) نور الدين يهزم جيش أنطاكية عند أنب - مقتل ريموند.
١١٤٩	(٦ سبتمبر) وفاة سيف الدين غازي صاحب الموصل، أخوه قطب الدين مودود يخلفه في حكم الموصل.
١١٥٠	(٤ مايو) أسر جوسلين الثاني (وفاته في الأسر سنة ١١٥٩)
١١٥٠	(الصيف) الإمبراطور مانويل كومنين يشتري تل باشر وغيرها من بقايا إمارة الرها.
١١٥١	(١٢ يوليه) استولي نور الدين من البيزنطيين علي تل باشر آخر بقايا إمارة الرها.
١١٥١ – ١١٥٢	اختلف بلدوين الثالث مع الملكة مليزاند وأخذ لنفسه جميع الحقوق الملكية.
١١٥٣	مقتل ريموند الثاني صاحب طرابلس بيد الباطنية. أصبح ابنه ريموند الثالث أميراً علي طرابلس تحت وصاية أمه.
١١٥٣	(الربيع) ريجنالد دي شاتيون (أرناط) يتزوج كونستانس صاحب أنطاكية ويصبح أميراً عليها.
١١٥٣	(٢٢ أغسطس) استيلاء الملك بلدوين الثالث علي عسقلان.

١١٥٤	(٢٥ أبريل) استيلاء نور الدين محمود علي دمشق.
١١٥٨	(سبتمبر) زواج بلدوين الثالث ملك بيت المقدس من الأميرة تيودورا قريبة الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين.
١١٥٨	(الخريف) وصول الجيش البيزنطي إلي قيليقية.
١١٥٩	(١٢ أبريل) الإمبراطور مانويل كومنين يدخل أنطاكية مؤكداً تبعيتها له. اشتراك الفرنجة والصليبيين في حملة انتهت بعقد هدنة بين مانويل ونور الدين.
١١٦٠ - ١١٦١	وقوع أرناط في أسر المسلمين وقيام بلدوين الثالث بالوصاية علي أنطاكية.
١١٦٣	(١٠ فبراير) وفاة بلدوين الثالث وتتويج أخيه عموري الأول في ١٨ فبراير.
١١٦٣	إعلان بوهيموند الثالث أميراً علي أنطاكية.
١١٦٣	(سبتمبر) الملك عموري يقوم بحملته الأولي لغزو مصر.
١١٦٤	(مايو) نور الدين يرسل شيركوه إلي مصر لإعادة شاور إلي الوزارة.
١١٦٤	(أغسطس - أكتوبر) الملك عموري يغزو مصر للمرة الثانية.
١١٦٤	(١٠ أغسطس) نور الدين محمود يأسر بوهيموند الثالث وريموند الثالث ويستولي علي حارم في ١٢ أغسطس. الملك عموري يقوم بالوصاية علي طرابلس.
١١٦٥	(الصيف) بوهيموند الثالث يقوم - عقب إطلاق سراحه - بزيارة القسطنطينية ثم يعود إلي أنطاكية وصحبته بطرق أرثوذكسي (ظل هذا البطرق حتي سنة ١١٧٠).
١١٦٧	فشل عموري في منع شيركوه من الوصول إلي مصر - قيام عموري بحملته الثالثة علي مصر.
١١٦٧	(٢٩ أغسطس) زواج الملك عموري من الأميرة ماريا كومنيتا البيزنطية.
١١٦٨	(أكتوبر) الملك عموري يقوم بحملته الرابعة علي مصر استمرت الحملة حتي يناير ١١٦٩.

١١٦٩	(١٨ يناير) نجح شيركوه – بمساعدة أبن اخيه صلاح الدين – في تثبيت شاور في منصب الوزارة بمصر.
١١٦٩	(٢٣ مارس) وفاة شيركوه – صلاح الدين يخلف عمه بعد موافقة سيده نور الدين – سيطرة صلاح الدين علي الموقف في مصر.
١١٦٩	(أكتوبر – ديسمبر) حملة الملك عموري الخامسة علي مصر، بالاشتراك مع البيزنطيين.
١١٧١	(٢٢ يناير) إعتراف الموصل بسيادة نور الدين.
١١٧١	(مارس – يوليه) الملك عموري يزور القسطنطينية لتجديد الحلف بين البيزنطيين والصليبيين.
١١٧١	(١٠ سبتمبر) صلاح الدين يدعو للخليفة العباسي في مصر.
١١٧١	(١٣ سبتمبر) وفاة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين.
١١٧٣ – ١١٧٤	إطلاق سراح ريموند الثالث أمير طرابلس.
١١٧٤	(١٥ مايو) وفاة نور الدين محمود.
١١٧٤	(١١ يوليه) وفاة عموري – تتويج ابنه المجذوم بلدوين الرابع في ١٥ يوليه.
١١٧٤	(الخريف) وصاية ريموند الثالث علي مملكة بيت المقدس (استمرت الوصاية حتي سنة ١١٧٦).
١١٧٤	(٢٨ أكتوبر) صلاح الدين يستولي علي دمشق.
١١٧٤ – ١١٧٥	الباطنية يقومون بمحاولتهم الأولي لاغتيال صلاح الدين.
١١٧٥	(مايو) الخليفة العباسي يقلد صلاح الدين حكم مصر والشام.
١١٧٦	(٢٢ مايو) الباطنية يقومون بمحاولتهم الثانية لاغتيال صلاح الدين.
١١٧٦	(١٧ سبتمبر) السلاجقة يهزمون البيزنطيين في آسيا الصغري.
١١٧٧	(٢٥ نوفمبر) بلدوين الرابع ينزل هزيمة بجيش صلاح الدين عند تل الجزر.
١١٧٩	(٢٥ – ٣٠ أغسطس) استيلاء صلاح الدين علي حصن جسر بنات يعقوب وتدميرة.

١١٧٩	الأسطول المصري يغير علي الموانئ الصليبية بالشام.
١١٨٠	(مارس) زواج الأميرة سيبل من جاي لوزجنان.
١١٨٠	(مايو) الهدنة بين صلاح الدين وبلدوين الرابع.
١١٨٠	(٢٤ سبتمبر) وفاة الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين، ابنه ألكسيوس الثاني يخلفه في الحكم.
١١٨١	(الصيف) أرناط صاحب حصن الكرك يخرق الهدنة مع المسلمين ويعتدي علي قافلة للمسلمين متجهة إلي الحجاز.
١١٨٢	(أغسطس) قيام صلاح الدين بهجوم بري بحري علي بيروت، فشل الهجوم.
١١٨٢ – ١١٨٣	أرناط يهدد الحجاز والموانئ الإسلامية في البحر الأحمر.
١١٨٣	اشتداد المرض علي بلدوين الرابع وقيام جاي لوزجنان بالوصاية علي مملكة بيت المقدس.
١١٨٣	(١١ يونيه) خضوع حلب لصلاح الدين.
١١٨٣	(أكتوبر) تراجع صلاح الدين أمام حشود الصليبيين عند صفورية.
١١٨٣	(٢٠ نوفمبر) عزل جاي من الوصاية علي بيت المقدس. تتويج بلدوين الخامس ابن أخت الملك بلدوين الرابع– ملكاً.
١١٨٣– ١١٨٤	وصاية ريموند الثالث للمرة الثانية علي مملكة بيت المقدس.
١١٨٥	(مارس) وفاة الملك بلدوين الرابع.
١١٨٥	الهدنة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس.
١١٨٦	(مارس) اعتراف الموصل بسيادة صلاح الدين.
١١٨٦	(الصيف) وفاة بلدوين الخامس – تتويج أمه سيبل وجاي لوزجنان ملكين علي بيت المقدس.
١١٨٧	أرناط يخرق الهدنة مع المسلمين باعتدائه علي قافلة إسلامية متجهة من مصر إلي دمشق.
١١٨٧	(٤ يونيه) موقعة حطين – هزيمة الصليبيين وأسر جاي لوزجنان – قتل أرناط.
١١٨٧	(١٤ يونيه) وصول كونراد دي منتفرات إلي صور.

١١٨٧	(نوفمبر – ديسمبر) فشل صلاح الدين في حصار صور.
١١٨٧ – ١١٨٩	نجاح صلاح الدين في غزو معظم مملكة بيت المقدس وغيرها من أراضي الصليبيين بالشام.
١١٨٩	(٢٧ أغسطس) جاي لوزجنان يحاصر عكا.
١١٩٠	(مارس) الصليبيون الألمان المشتركون في الحملة الصليبية الثالثة يعبرون الدردنيل إلي آسيا الصغري.
١١٩٠	(١٨ مايو) الصليبيون الألمان يهزمون سلاجقة الروم ويستولون علي قونية.
١١٩٠	(١٠ يونيه) غرق الإمبراطور فردريك الأول بربروسا في أحد أنهار قيليقية – تفرق حملته واتجاه بعضهم إلي أنطاكية.
١١٩٠	(٤ يوليه) ريتشارد الأول ملك انجلترا وفيليب الثاني ملك فرنسا يشرعان في حملتهما الصليبية.
١١٩٠	(٢٧ يوليه) وصول بعض جموع الصليبيين بزعامة هنري دي شامبني إلي عكا.
١١٩٠	(سبتمبر) وصول ريتشارد الأول وفيليب الثاني إلي صقلية.
١١٩٠	(٢٤ نوفمبر) كونراد دي مونتفرات يتزوج من إيزابيل وريثة عرش بيت المقدس وبذلك أصبح ذا حق في العرش.
١١٩١	(مارس) وفاة البابا كلمنت الثالث وانتخاب البابا كلستين الثالث.
١١٩١	(أبريل) فيليب الثاني (أغسطس) يبحر من صقلية إلي عكا، في حين اتجه ريتشارد الأول نحو كريت فرودس فقبرص.
١١٩١	(مايو) غزو ريتشارد الأول قبرص وأخذها من إسحق كومنين – اتجاه ريتشارد نحو الشام.
١١٩١	(١٢ يوليه) استيلاء الصليبيين علي عكا.
١١٩١	(٣١ يوليه) أبحر فيليب الثاني أغسطس إلي الغرب تاركاً أمور الصليبيين في الشام لريتشارد الأول.
١١٩١	(٦ سبتمبر) انتصار ريتشارد علي المسلمين عند أرسوف.
١١٩٢	(٢٨ أبريل) مقتل كونراد دي مونتفرات في صور بيد الباطنية.

١١٩٢	(٥ مايو) هنري دي شامبني يتزوج إيزابيل وريثة مملكة بيت المقدس الصليبية، وبذلك أصبح حاكم المملكة.
١١٩٢	(مايو) جاي لوزجنان يستولي علي قبرص ويؤسس أسرة حاكمة فيها.
١١٩٢	(أغسطس) اضطراب أحوال السلاجقة الروم بآسيا الصغري بعد وفاة قلج أرسلان الثاني.
١١٩٢	(٩ أكتوبر) ريتشارد الأول يبحر من عكا إلي الغرب – نهاية الحملة الصليبية الثالثة.
١١٩٣	(٤ مارس) وفاة صلاح الدين – النزاع بين أبناء البيت الأيوبي وأبناء البيت الزنكي.
١١٩٤	وفاة تنكرد ثم وفاة جاي لوزجنان صاحب قبرص – قيام الملك عموري لوزجنان في حكم قبرص.
١١٩٥	(٨ أبريل) عزل الإمبراطور البيزنطي إسحق الثاني إنجليوس وقيام أخيه ألكسيوس الثالث بدله.
١١٩٧	(١٠ سبتمبر) وفاة هنري دي شامبني دون وريث.
١١٩٧	(سبتمبر) تتويج عموري لوزجنان ملكاً علي قبرص بواسطة بعض الصليبيين الألمان.
١١٩٧	(٢٨ سبتمبر) وفاة الإمبراطور الألماني هنري السادس؛ وفشل مشروع الحملة الصليبية الألمانية.
١١٩٧	(أكتوبر) زواج عموري ملك قبرص منّ إيزابيل وريثة مملكة الصليبيين بالشام – توحيد عرش قبرص ومملكة بيت المقدس.
١١٩٨	(٦ يناير) تتويج ليون الثاني ملكاً علي أرمينية الصغري بواسطة بعض رجال إمبراطور ألمانيا.
١١٩٨	(٨ يناير) أنوسنت الثالث يتولي منصب البابوية بعد وفاة كلستين الثالث.
١٢٠٠	(أغسطس) العادل الأيوبي – أخو صلاح الدين – يصبح سلطان مصر والشام.

١٢٠١	(أبريل) وفاة بوهيموند الثالث أمير أنطاكية – مشكلة الوراثة في أنطاكية تستمر حتي سنة ١٢١٩ .
١٢٠١	هروب ألكسيوس (الرابع) إلي إيطاليا يطلب القيام بحملة صليبية ضد القسطنطينية لطرد ألكسيوس الثالث.
١٢٠٢	الحملة الصليبية ضد زارا واستيلاء البندقية عليها.
١٢٠٣	اتجاه الصليبيين من زارا إلي القسطنطينية.
١٢٠٤	استيلاء الصليبيين علي القسطنطينية – نهاية الحملة الصليبية الرابعة – اختيار بلدوين دي فلاندرز إمبراطوراً علي دولة الصليبيين اللاتينية في القسطنطينية – تقسيم أراضي الإمبراطورية بين الصليبيين.
١٢٠٥	(أول أبريل) وفاة عموري الأول وانفصال تاج قبرص عن تاج بيت المقدس.
١٢١٠	(٣ أكتوبر) تتويج حنا دي برين وزوجته ماري ملكين علي مملكة الصليبيين بالشام.
١٢١٢	حملة الأطفال الصليبيين وفشلها.
١٢١٢	(١٦ يوليه) موقعة العقاب في الأندلس – هزيمة الموحدين علي يد بطرس الثاني ملك أرغونة.
١٢١٥	(نوفمبر) مجمع اللاتران الرابع يقرر الدعوة للحملة الصليبية الخامسة.
١٢١٦	(١٤ فبراير) ليون الثاني ملك أرمينية الصغري يقيم ريموند روبان أميراً علي انطاكية (حتي سنة ١٢١٩) .
١٢١٦	(١٦ يوليه) وفاة أنوسنت الثالث واختيار هنريوس الثالث بابا في روما (١٨ يوليه) .
١٢١٧	(يوليه) الصليبيون الهنغاريون تحت زعامة اندرونيق الثاني يشرعون في الحملة الصليبية الخامسة.
١٢١٨	(يناير) عودة اندرونيق الثاني من عكا إلي بلاده دون أن يحقق عملا في الشام.

١٢١٨	(يناير) وفاة هيو الأول ملك قبرص – ابنه الصغير هنري الأول يخلفه تحت الوصاية.
١٢١٨	(٢٧ مايو) وصول الحملة الصليبية الخامسة بزعامة حنا دي برين إلي دمياط لمهاجمة مصر.
١٢١٨	(٣١ اغسطس) وفاة السلطان العادل الأيوبي وتقسيم ملكه بين أبنائه – السلطان الكامل في مصر.
١٢١٩	(مايو) وفاة ليو الثاني ملك أرمينية الصغري – النزاع حول وراثة العرش.
١٢١٩	(٥ نوفمبر) استيلاء الصليبيين علي دمياط.
١٢٢٠	(نوفمبر) تتويج فردريك الثاني إمبراطوراً علي الدولة الرومانية المقدسة.
١٢٢١	(٣٠ أغسطس) فشل الحملة الصليبية الخامسة.
١٢٢١	(سبتمبر) جلاء الصليبيين عن مصر.
١٢٢٥	الإمبراطور فردريك الثاني يتزوج من إيزابيل دي برين وريثة مملكة بيت المقدس الصليبية.
١٢٢٨	حملة فردريك الثاني الصليبية.
١٢٢٩	(٢٨ فبراير) حصول فردريك الثاني علي بيت المقدس بمقتضي اتفاقية مع السلطان الكامل.
١٢٢٩	(أول مايو) فردريك الثاني يبحر من عكا عائداً إلي المغرب.
١٢٣١	(أغسطس) مقتل جلال الدين خوارزم شاه بيد المغول.
١٢٣٢	(أبريل) الصليبيون في عكا يساعدون حنا دي إيلين ضد الحزب الإمبراطوري.
١٢٣٢	(٣ مايو) أنصار الحزب الإمبراطوري ينزلون هزيمة بالقبارصة في فلسطين.
١٢٣٣	(الشتاء) وفاة بوهيموند الرابع أمير نطاكية وطرابلس – ابنه بوهيموند الخامس يخلفه في الحكم.
١٢٣٦	استيلاء فرديناند الثالث ملك قشتالة علي قرطبة حاضرة المسلمين

	بالأندلس.
١٢٣٨	(مارس) وفاة السلطان الكامل وقيام منازعات بين أبناء البيت الأيوبي.
١٢٣٩	(أول سبتمبر) وصول بعض الجموع الصليبية إلي عكا تحت زعامة ليوبالد الرابع دي شامبني.
١٢٣٩	(١٣ نوفمبر) هزيمة الصليبيين عند غزة.
١٢٣٩	(٧ ديسمبر) استيلاء الأيوبيين علي بيت المقدس.
١٢٤٠	(الصيف) عقد معاهدة صلح بين ثيوبالد الرابع والصالح نجم الدين أيوب في مصر.
١٢٤١	(١٣ أبريل) ريتشارد كورنوول يقر الاتفاقية السابقة – الصالح أيوب يعيد أسري غزة إلي الصليبيين.
١٢٤٣	(٢ يوليه) المغول ينزلون هزيمة كبري بسلاجقة فارس.
١٢٤٤	(٢٣ أغسطس) الخوارزمية يحتاجون بيت المقدس.
١٢٤٤	(١٧ أكتوبر) المصريون الخوارزمية ينزلون هزيمة بالصليبيين قرب غزة – استيلاء فردناند علي أشبيليه من المسلمين.
١٢٤٨	(٢٥ أغسطس) لويس التاسع ملك فرنسا يبحر إلي قبرص استعداداً لغزو مصر.
١٢٤٩	(٥ يونيه) نزول الحملة الصليبية السابعة علي شاطئ مصر واستيلاء لويس التاسع علي دمياط في اليوم التالي.
١٢٥٠	(فبراير – أبريل) هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور وأسر لويس.
١٢٥٠	(٢ مايو) مقتل تورانشاة وقيام شجر الدر في الحكم.
١٢٥٠	(٦ مايو) الصليبيون يسلمون دمياط ويجلون عن مصر.
١٢٥٠	استيلاء فردناند الثالث ملك قشتالة علي قادس وشريش من المسلمين.
١٢٥٢	(يناير) وفاة بوهيموند الخامس أمير انطاكية وطرابلس – ابنه بوهيموند السادس يخلفه في الحكم.

١٢٥٣	(١٨ يناير) وفاة هنري الأول ملك قبرص – ابنه الصغير هيو الثاني يخلفه تحت الوصاية.
١٢٥٤	(٢٤ أبريل) رحيل لويس التاسع إلي فرنسا بعد أن حاول إصلاح أحوال الصليبيين بالشام.
١٢٥٦	(٢٠ ديسمبر) استيلاء مغول هولاكو علي قلعة الموت – القضاء علي نفوذ الباطنية في فارس.
١٢٥٧	(١١ أبريل) مقتل أيبك في مصر وإعلان ابنه علي سلطاناً.
١٢٥٨	(فبراير) استيلاء المغول علي بغداد وقتل الخليفة المستعصم العباسي.
١٢٥٩	(١٢ نوفمبر) قطز يعزل علي بن أيبك ويصبح سلطاناً علي المماليك في مصر.
١٢٦٠	(٢٤ يناير) المغول يجتاحون حلب – عودة هولاكو إلي الشرق.
١٢٦٠	(أول مارس) المغول بقيادة كتبغا يستولون علي دمشق.
١٢٦٠	(٣ سبتمبر) موقعة عين جالوت – المماليك ينزلون هزيمة كبري بالمغول في فلسطين.
١٢٦٠	(٢٣ أكتوبر) بيبرس يقتل السلطان قطز ويعتلي عرش السلطنة.
١٢٦١	(١٥ يوليه) نهاية الإمبراطورية اللاتينية التي أقامها الصليبيون في القسطنطينية. تتويج الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجس في ١٥ أغسطس.
١٢٦٥	(٨ فبراير) وفاة هولاكو – ابنه أبغا يؤسس خانية مغول فارس.
١٢٦٦	المماليك يغزون أرمينية الصغري ويدمرونها.
١٢٦٨	(١٨ مايو) استيلاء المماليك علي أنطاكية.
١٢٧٠	(يوليه) حملة لويس التاسع علي تونس ووفاته.
١٢٧١	(٨ ابريل) استيلاء بيبرس علي حصن الأكراد.
١٢٧٣	(يوليه) استيلاء المماليك علي بقايا الإسماعيلية الباطنية في الشام.
١٢٧٥	(١١ مايو) وفاة بوهيموند السادس أمير طرابلس – ابنه الصغير بوهيموند السابع يخلفه تحت الوصاية.
١٢٧٧	(١٨ أبريل) المماليك ينزلون هزيمة كبري بالمغول عند أبلستين

(البستان).

١٢٧٧	(أول يوليه) وفاة بيبرس.
١٢٧٩	(ديسمبر) السلطان المنصور قلاون يعتلي عرش السلطنة في مصر.
١٢٨١	(أكتوبر) المنصور قلاون ينزل هزيمة بالمغول قرب حمص.
١٢٨٣	المنصور قلاون يهاجم أرمينية الصغري.
١٢٨٦	(١٥ أغسطس) تتويج هنري الثاني ملك قبرص ملكاً علي مملكة بيت المقدس الصليبية.
١٢٨٧	(١٩ أكتوبر) وفاة بوهيموند السابع أمير طرابلس دون أبناء – الخلاف حول وراثة الإمارة.
١٢٨٩	(٢٦ أبريل) استيلاء السلطان قلاون علي طرابلس.
١٢٩٠	(نوفمبر) وفاة السلطان المنصور قلاون أثناء استعداده لمهاجمة عكا.
١٢٩١	(١٨ مايو) السلطان الأشرف خليل بن قلاون يستولي علي عكا آخر البقايا الصليبية الكبري بالشام – نهاية مملكة بيت المقدس الصليبية.
١٢٩١ – ١٢٩٩	المراسيم البابوية لفرض الحصار الاقتصادي علي مصر.
١٢٩٨	المماليك يغزون أرمينية الصغري ويدمرون مدنها.
١٢٩٩	غازان خان مغول فارس يغزو الشام.
١٣٠٣	المغول يغزون بلاد الشام بمساعدة أرمينية الصغري.
١٣٠٤	جيوش السلطان الناصر محمد تغزو أرمينية الصغري.
١٣٠٧ – ١٣١٤	فيليب الرابع ملك فرنسا والبابوية يقضون علي الداوية.
١٣٠٩	(١٥ أغسطس) استيلاء الاسبتارية علي رودس.
١٣١٦	البابا يوحنا الثاني والعشرون يرسل سفارة إلي الحبشة لطلب معونتها في الحرب الصليبية ضد المماليك.
١٣٢٠	المماليك يغزون أرمينية الصغري.
١٣١٢–١٣٢٣	صدور مراسيم بابوية لتحريم التعامل التجاري مع مصر.
١٣٢٣	جيوش السلطان الناصر محمد تغزو أرمينية الصغري.
١٣٣٦	جيوش المماليك تغزو أرمينية الصغري.

١٣٣٨	ملك فرنسا يرسل سفارة إلي الحبشة لتأكيد التعاون الصليبى ضد المماليك في مصر.
١٣٤٤	الأساطيل المسيحية تغير علي شواطئ الأتراك في آسيا الصغري وتستولي علي أزمير.
١٣٦١	استيلاء بطرس لوزجنان علي أنطاليا – علي الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغري – من الأتراك.
١٣٦٥	حملة بطرس لوزجنان ملك قبرص علي الإسكندرية.
١٣٦٧–١٣٦٨	إغارات بعض المغامرين من الصليبيين علي موانى الشام.
١٣٧٠	الصلح بين قبرص وسلطنة المماليك في مصر.
١٣٧٤	سقوط مملكة أرمينية الصغري علي يد المماليك.
١٣٨٨	إستيلاء الصليبيين علي جزيرة جربة في شمال أفريقية.
١٣٨٩	موقعة كوسوفو – انتصار العثمانيين علي الصرب في البلقان.
١٣٩٠	الحملة الصليبية ضد مدينة المهدية بشمال أفريقية – فشل الحملة.
١٣٩١	استيلاء السلطان بايزيد العثماني علي قونية.
١٣٩٦	(سبتمبر) موقعة نيقوبوليس – انتصار العثمانيين انتصاراً ساحقاً علي الحلف الصليبي في شرق أوربا.
١٤٠٢	موقعة أنقرة – تيمور لنك يحطم قونية العثمانيين.
١٤٢٤ – ١٤٢٦	سلطان المماليك برسباي يرسل ثلاث حملات بحرية أخضعت جزيرة قبرص.
١٤٤٤	موقعة فارنا – انتصار العثمانيين علي الهنغاريين وحلفائهم من القوي المسيحية.
١٤٥٠	ألفونس الخامس ملك أرغونة يستحث ملك الحبشة لتحويل مجري النيل ومهاجمة مصر.
١٤٥٣	استيلاء العثمانيين علي القسطنطينية – نهاية الدولة البيزنطية.
١٤٧١	استيلاء البندقية علي قبرص.
١٤٩١	سقوط غرناطة في قبضة المسيحيين – طرد المسلمين من الأندلس.

٢- المصادروالمراجع غير العربية

_ Alvarez : Narrative of The Portugeuse Embassy to Abyssinia (London, 1881) .

_ Amari (M.) : Bibliotica Arabo - Sicuia (3 vols.) (1857) .

_ Amedroz (H.) Margoliouth (D.) :

- The Eclipse of the Abbasid Caliphate (Oxford, 1920).

_ Archer (T.) Kingsford (C.) : The Crusades (London. 1894) .

_ Atiya (A.S.) :

1 - The Crusade in the Later Middle Ages. (London . 1938).

2 - The Crusade of Nicopolis (London, 1934).

3 - Egypt and Aragon . (Leipzig, 1938) .

_ Baldwn (M.W.) :

Raymond III, of Tripoiis and The Fall of Jerusalem.

(Princeton, 1936)

_ Baldwin (S.) : The Organization of Med. Christianity (1932) .

_ Beazley (C.R.) :

The Dawn of Modern Geography (2 vols .

(London 1901)

_ Besant (W.) & Palmer (E.H.) :

Jerusalem, The City of Herod and Saladin,

(London, 1899)

_ Boissonade : Life and Work in Med. Europe .

(London , 1937)

_ Brehier (L.) :

L'Eglise et L'Orient au Moyen Age, Les Croisades.

(Paris, 1928)

_ Brehier (L.) : Vie et Mort de Byzance (Paris, 1947).

_ Browne (L.E.) ;

The Eclipse of Christianity in Asia (Cambridge, 1933).
_ Browne (E.O) : Literary Hist, of Persia (4 vols.).
(London 1906)
_ Budge : History of Ethiopia (2 vols .)
(London 1928) .
_ Butler (A) : The Arab Conquest of Egypt .
(Oxford , 1902)
_ Byrne (E.H.) : Cenoese Colonies in Syria,
(New York, 1928)
_ Cahen (C.) : La Syrie du Nord a I'Epoque des Croisades.
(Paris, 1940)
_ Cahun (L.) : Introduction a l'Histoire de L'Asie Turcs et Mongols des
Origines a 1405 . (Paris, 1896 .).
_ Cambridge Med. Hist . (Cambridge, 1957) .
_ Chalandon (F.) Essai sur la Regne d'Alexis Comnene.
(Paris, 1900)
_ Chalandon (F.) : Histoire d? La Premiere Croisade .
(Paris, 1925)
_ Chalandon (F.) : Hist, de La Domination Normande en Italie et en Sicile (2 vols).
(Paris. 1907") .
_ Chalandon (F.) : Les Coinnenes
(Paris. 1913) .
_ Chamich (M.) : Hist, of Armenia (Trans. J. Avdall) .
(Calcutta, 1827)
_ Cheyney : The Dawn of a New Era, (Harper, 1962).
_ Colbeaux : Hist. Politique et Religieuse de L'Abyssinie (3 vols)

(Paris, 1929).

_ Curzon (H.D.).La Regleadu Temple. (Paris, 1886).

_ Defremery : Recherches et Nouvelles Recherches Sur les Bathiniens ou Ismaeliens de Syrie (Journal Asiatique. 1849 - 1860) .

_ Delaville Le Roulx (G.) :
Les Hospitaliers en Terre Sainte et a Chypre .
(Paris, 1904)

_ De La Ronciere : La Decouverte de I'Afrique au Moyen Age .

_ Delisle (L) : Memoire sur Les Operations Financieres des Templiers.
(Paris. 1889) .

_ D'OHsson : Hist, des Mongols (4 v) (Amsterdam. 1852) .

_ Der Nersessian (S.) :
Armenia and the Byzantine Empire . (Cambridge, 1945) .

_ Deschamps (P.) : Les Chateaux des Croises en Terre Sainte (I vols.)
(Paris, 1939).

_ Devreese (R.) :Le Patriarchat d'Antioche, (Paris, 1945)

_ Dodu (G) : Hist des Institiones Monarchiques dans le Royaume Latin de Jeruslem (Paris, 1894).

_ Dozy (R.P.A) Moslems in Spain . (London, 1913)

_ Dussaud (R) . Topographie Historique de la Syrie Antique et Medievale . (Paris, 1927)

_ Dussaud, Deschamps : Le Syrie.

_ Ebersolt (J.) :Orient et Occident (2 vols .) (Paris, 1928)

_ Fleicher (C.R.L.) : The Making of Western Europe. (London. 1914)

_ Gibb (H. A. R) :

The Damascus Chronicle of the Crusades . (London, 1932)
_ Gibbon (E.) : Decline and Fall of the Roman Empire .
(London, 1957)
_ Grousset (R.) : Hist, de L'Armenie des Origines a 1071 .
(Paris, 1947)
_ Grousset (R.) : Hist des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem.(3 vols,) (Paris, 1943-6) .(Paris, 1902)
_ Grousset (R) : L'Empire du Levant . (Paris . 1946) .
_ Hagenmeyer (H.) : Chronologie de la Premiere Croisade .
(Paris. 1902)
_ Hagenmeyer (H) :
Chronologie du Royaume de Jerusalem .
(Paris , 1901)
_ Howorth : The History of the Mongols (London, 1888).
_ Hammer (J. Von) : Hist, de I'Ordre des Assassins .
(Paris, 1833)
_ Heyd (W.) : Hist, du Commerce du Levant (2 vols.) .
(Leipzig, 1936)
_ Hill (G.) : A History of Cyprus. (Cambridge. 1940)
_ Iorga (N) : Hist des Croisades. (Paris. 1924)
_ Iorga : L'Armenie Cilicienne .
_ Johns (C.N.) :
The Crusaders : An attempt to Colonize Palestine and Syria . (Journal of R.C. Asian Soc. vol XXI) .
(London. 1934)
_ Joinville : Hist de Saint Louis (ed. N. de Wailly) . (Paris, 1874)
_ Kammerer : La Mer Rouge (Le Caire, 1929).
_ Kantorowicz : Frederick the Second . (London, 1931)

_ King (E.J) :
The Knights Hospitallers in the Holy Land .
(London, 1931)
_ La Monte (T.) Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem .(Cambridge, 1932)
_ Lane - Poole (S) : Saladin (London. 1898).
_ Laurent (J.) :
Byzance et Les Turcs Seldjouks Jusqu' en 1081 .
_ Laurent (J.) : Byzance et Les Origines du Sultanat de Roum .
(Paris 1930) .
_ Laurent (J .) : L'Armenie entre Byzance et I'lslam.
(Paris. 1919)
_ Lewis (B.) : Saladin and the Assassins (B.S.O.A.S. 1935. XV) .
- Longnon { J.) : Les Francais d'Outremer au Moyen Age .
(Paris, 1929)
_ Marco Polo : Travels . (London, 1903)
_ Mas Latrie : Hist de Lile de Chypre (3 vols) . Paris. 1851 .
_ Michaud (J .f) : Hist, des Croisades (5 vols)
(Paris, 1817-22)
_ Munro (D.C) : The Kingdom of the Crusades.
(New York, 1936)
_ Nicholson (R.H) : Tancred . (Chicago . 1940)
_ Oman (C.W) : A Hist, of the Art of War in the Middle Ages (2 vols) .
(London, 1925)
_ Norgate : Richard the Lion Heart (London. 1924)
_ Ormanian (M.) : L'Eglise Armenienne (Paris 1910)
_ Ostrogorsky (G.) : Hist, of the Byzantine State .

(Oxford, 1956).
_ Rccueil ties Historiens des Croisades .
Publ. Academie des Inscriptions et Belles Lettres.
(Paris, 1841 - 1906) .
_ Documents Armeniens, 2 vols .
_ Historiens Grecs. 2 vo!s.
_ Historiens Occidentaux, 5 vols .
_ Historiens Orientaux .5 vols .
_ Riant (p.) : Expeditions et Pelerinages des Scandinaves en Terre - Sainte .
(Paris, 1865 .)
_ Richard : Le Royaume Latin de Jerusalem. (Paris, 1953) .
_ Richard (J.) :
Le Comte de Tripoli sous la dynastie Toulousaine .
(Paris. 1945)
_ Richmond (E.T) : The Dome of The Rock in Jerusalem.
(Oxford , 1924).
_ Rousset (P.)
Les Oirgines et les Caracteres de Premiere Croisade .
(Neuchatel . 1945).
_ Runciman (S.):
A Hist . of the Crusades (3 Vols) . (Cambridge. 1957).
_ Schlumberger (G.) .
Campagnes du Rois Amaury de Jerusalem en Egypte .
(Pails 19C-. ,
_ Schlumberger (G. ; :
La Numismatique de I'Orient Latin. (Paris. 1878)
_ Schlumberger (G.) :

Les Principautes Franques du Levant, (Paris. 1878) .
_ Schlumberger (G.) :
Recits de Byzance et des Groisades. (2 vols) .
(Paris ; 1917 - 22)
_ Schlumberger (G.) :
Renaud de Chatillon (Paris, 1898)
_ Schlumberger (G.) ;
Un Empereur Byzantin au dixieme Siecle, Nicephore Phocas .
(Paris. 1890) .
_ Setton (K.M.) :
AHistory of the Crusades, (5 vols) .
(Pensylvania, 1958 r 1985)
_ Stanislas Guyard :
Un Grand Maitre des Assassins au temps de Saladin .
(Journal Asiatique, 1877)
_ Stevenson (W.B) :
The Crusaders in the East . (Cambridge, 1907).
_ Stubbs : Seventeen Lectures on the Study of Med. and Modern History .
(Oxford, 1900)
_ Thompson (J.W)
Economic and Social Hist, of the Middle Ages .
(2 vols - London. 1959 j .
_ Tournebize (F.) :
Hist . Politiques et Religieuse de I'Armenie (Paris, 1910) .
_ Vasiliev (A.A.) :
Hist, of the Byzantine Empire (2 vols,) .
(Madison, J961) .

_ Vincent (H.), Abe! (R.) :
. Jerusalem . (Paris, 1914)
_ Wiet (G) : L' Egypte Arabe, (Paris 1937)

فهرس الموضوعات

الجزء الثانى

الباب الثانى عشر – الناصر صلاح الدين

الفصل الأول: صلاح الدين وتوطيد مركزه فى مصر

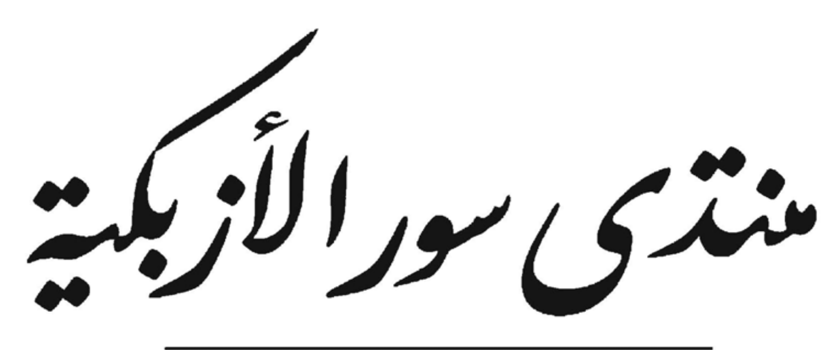
الفصل الثانى :صلاح الدين وتأمين الوحدة الإسلامية

الفصل الثالث حطين واسترداد بيت المقدس

الفصل الثالث- الحروب الصليبية فى شمال أفريقية وأوريا

الفصل الرابع- أثر الحروب الصليبية فى الشرق الأدنى

الفصل الخامس- أثر الحروب الصليبية فى الغرب الأوربى


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET